تفسير المدينة المنورة

إعداد

نخبة من العلماء

المجلد الأول

مركز تعظيم القرآن الكريم
بالمدينة المنورة

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

تفسير
المدينة المنورة

١

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص.ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢ هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaie@hotmail.com

دار الصميعي للنشر والتوزيع

تفسير المدينة المنورة

إعداد

نخبة من العلماء

المجلد الأول

مركز تعظيم القرآن الكريم
بالمدينة المنورة

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي أنزل كتابه الكريم نوراً وهدى ورحمة للعالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أفضل الأنبياء والمرسلين نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

فإنّ من تعظيم القرآن الكريم تدبر آياته ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، إذ هو السبيل الموصل إلى الغاية العظمى من العمل به واتباعه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ الآية ، ولما كان الأمر كذلك فإنّ التدبّر الصحيح النافع لا يحصل ويتحقق إلا بمعرفة معاني الآيات وتفسيرها وما تدعو إليه وتهدف ، ومن هذا المنطلق الهام عزم القائمون بمركز تعظيم القرآن الكريم على تأليف تفسير للقرآن الكريم يحقق المراد جامعاً بين الأصالة والمعاصرة ، وليكون عونا على التدبّر المبنيّ على الأثر الصحيح ومراعاة العصر ومستجداته علماً وواقعاً، بما يسهم في صياغة حياة الفرد والمجتمع والأمة على هدايته ومنهجه الوسطي المعتدل بأحكامه وحكمه وإعجازه ، والذي يؤثر بدوره في الارتقاء بأحوال الناس وأعمالهم وعلومهم ، وهذا هو المرجوّ والأمل يوم تكاثرت المشكلات وتعددت صور الخلل ، وليس من مخرج إلا هدي القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة .

وقد اختير اسم لهذا التفسير يدل على مكان شريف ألف فيه وصدر منه ، فيكون المقام مقامين والشرف شرفين ، شرف العلوم وهو القرآن الكريم وشرف المكان وهو المدينة المنورة ، مدينة الرسول المصطفى ﷺ مهبط الوحي ودار الهجرة وعاصمة الاسلام الأولى ، كما هي الأرض المباركة التي شهدت حياة الرسول ﷺ الانموذج الحي الأمثل لهذا القرآن الكريم لمن أراد تطبيقه والعمل بهديه فكان الاسم : (تفسير المدينة المنورة).

وكذلك تميز هذا التفسير – ولله الحمد والمنّه – بأسلوبه ومنهجه وضوابطه ، فكان الأسلوب مبتكراً يتناسب مع كل فئات المجتمع ويلبّي رغبة المبتدئين والمثقفين وطلاب العلم ، وأمّا المنهج فقد ضبط بخطة جامعة للضوابط التالية :

– بيان مقاصد القرآن الكريم .

– الاعتماد على الرواية الصحيحة والراجح من الأقوال وترك الروايات الضعيفة والاسرائيليات .

– صياغة العبارة الفصيحة في تضمين الأساليب البلاغية والأوجه الإعرابية ، وعند تعدّد أوجه الإعراب يعتمد على الأرجح .

– إيراد إعجاز القرآن العلمي والبياني في الفوائد والاستنباطات .

– العناية بالاستنباطات التربوية والطبية والفلكية والمستقبلية وعلوم أخرى ، إضافة إلى الفوائد العقدية والفقهية والدعوية والتاريخية والبلاغة دون استطراد وإسهاب .

– اعتماد مذهب السلف باجتناب التأويل في تفسير آيات الأسماء والصفات الإلهية .

– ترك إيراد الخلافات اللغوية والمذهبية باختيار الراجح من الأقوال ، أو الجمع بين الأقوال الوجيهة .

– ترك الحكايات والاستطرادات الفقهية والنحوية .

– اعتماد رواية حفص بن عاصم .

– مراعاة الصياغة لتيسير الترجمة إلى لغات أخرى .

خدمة للتفسير وتيسيراً على قرائه أرفق به نسخة إلكترونية تحتوي على ملاحق بيانية وفهارس فنية أهمها :

– فهرس الآيات والأحاديث والآثار .

– ملحق الصور والخرائط .

– ملحق مقاطع الفيديو .

– ملحق علم المستقبل .

- ملحق تراجم الأعلام المذكورين في التفسير .

- ملحق كشافات الفوائد والاستنباطات .

وقد تمّ اختيار نخبة من علماء التفسير لكتابة تفسير المدينة المنورة على الضوابط السابقة الذكر ، وبدأ العمل ثمّ كانت المراجعة ، واكتمل الإنجاز في عامين ولله الحمد والمنّه .

أمّا الأساتذة المشاركون في التفسير فهم على النحو التالي :

أ.د. أحمد بن خالد شكري (أستاذ القراءات والتفسير في الجامعة الأردنية)

أ.د. أحمد بن عدنان الزعبي (أستاذ القراءات في جامعة طيبة)

أ.د. أحمد بن محمد الخراط (مدير الدراسات القرآنية في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)

أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية)

أ.د. حكمت بن بشير ياسين (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية - ورئيس المجلس العلمي في مركز تعظيم القرآن الكريم)

أ.د. عماد بن زهير حافظ (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم- وعميد شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية)

أ.د. مبارك بن محمد رحمة (أستاذ التفسير في جامعة أم درمان)

أ.د. محمد بن آيدن (أستاذ التفسير في جامعة قطر)

أ.د. محمد بن عبدالرحمن الشايع (أستاذ التفسير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ورئيس هيئة تحرير مجلة تبيان)

أ.د. محمد بن عبدالعزيز العواجي (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية)

وقد أكرمني الله تعالى بمراجعة التفسير على أعماله ولله الفضل والمنّة، وشاركني في مراجعته فضيلة الأستاذ الدكتور حكمت بن بشير ياسين ، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الخراط، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي .

وفي المقام أقدم شكري الجزيل وعظيم التقدير للأساتذة المفسرين الكرام على ما بذلوه من جهد كريم وعمل نبيل جعله الله في موازين حسناتهم ورفعة لدرجاتهم .

كما أقدم الشكر والتقدير للمجلس العلمي بالمركز ، وأخصّ بالشكر فضيلة الأستاذ الدكتور حكمت بن بشير ياسين رئيس المجلس الذي بذل جهداً كبيراً في متابعته لمراحل تنفيذ هذا التفسير المبارك خطوة بخطوة حتى إتمامه فجزاه الله خير الجزاء .

والشكر موصول لأعضاء مجلس إدارة المركز على جهودهم المباركة في إدارة أعماله وتحقيق مصالحه وأخصّ بالشكر فضيلة الدكتور أحمد بن عبدالله سليماني نائب رئيس مجلس الإدارة .

وختاماً أرفع أسمى آيات الشكر وأعظم عبارات التقدير إلى مقام خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود وإلى ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود وإلى ولي ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز آل سعود على ما يقدمونه من جهود عظيمة في خدمة القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة نشراً وتعليماً وحكماً وتسليماً، كما أرفع جزيل الشكر وأطيب التقدير إلى صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود أمير منطقة المدينة المنورة ورئيس مجلس أمناء مؤسسة المدينة المنورة الخيرية لتنمية المجتمع على كريم رعايته ودعمه للمركز وبرامجه ، كما الشكر موصول لمجلس أمناء المؤسسة ولأمينها العام سعادة الدكتور بهجت بن محمود جنيد على تعاونهم ودعمهم المتواصل .

والله أسأل أن ينفع بهذا السفر الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د. عماد بن زهير حافظ

رئيس مجلس إدارة مركز تعظيم القرآن الكريم

والمشرف على تفسير المدينة المنورة

المقدمة

الحمد لله، أنزل القرآن وعلَّم البيان، والصلاة والسلام على سيد المرسلين والمفسرين، وعلى من اهتدى بهديه وأخذ بحكمته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ الأُمم تتطلَّع إلى الرقيِّ بأحوالها، وتطوير إمكاناتها، وعلاج مشكلاتها، لتبلغ أعلى سُلَّم في الحضارة، ويطمح بعضها إلى التسابق المحموم من خلال تطوير العلوم، فنشأت بيوت الخبرة وحقول العقول لتجهيز المراكز العلمية المتفوقة، وقد بلغت بعض الدول قصب السبق في ذلك، ونالت القدح المعلَّى والكأس المحلَّى، فحصدت الكثير من الجوائز العالمية، وبَزَّت أقرانها، فتربَّعت عرش التقنية الحديثة، وخدمت البشرية بالاكتشافات الحديثة والتقنية المبتكرة، لكنها لم تأبه بالنكسات والنكبات التي تصيب البشرية، كما عجزت عن معالجة المشكلات الاجتماعية المعاصرة والصراعات القاهرة، ومواجهة التحديات المستقبلية بمختلف ألوانها وأسلحتها التي تهدد بلدانهم خاصة، والعالم عامة.

فهذا علم المستقبل يُنذر بوقائع مخيفة، وصراعات عنيفة تأكل الأخضر واليابس، وتبلع الغالب والمغلوب، وتشهد بذلك الكوارث النووية، وصناعة أسلحة الدمار الشامل، وانتشار الإشعاعات الفضائية، والتهاون في إجراء التجارب الكيميائية والنووية والبيولوجية، وزيادة تضخم أعداد الجريمة في العباد والبلاد(1)، وتصاعد نسبة التلوث البيئي والجنسي والفكري: أما التلوُّث البيئي فقد حصب الأرض والبحر والفضاء بالنفايات الكيميائية والنووية وبالإشعاعات الراديوية والنووية. وأما التلوث الجنسي فقد حصد أرواح الملايين من البشر، وحصر ملايين أخرى، فمنهم من يحتضر، ومنهم من ينتظر. وأما التلوث الفكري فقد حَجَّر العقول، وبَدَّد الحلول، وركب صهوة جياد صراع الحضارات حتى قتل عشرات الملايين، وشرَّد عشرات الملايين، وزرع الرعب والخوف في نفوس مئات الملايين، وبقي كثير من الناس

---

(1) ولهذا نرى المجتمعات التي استفادت من الهدي الرباني تكون فيها نسبة الجريمة أقل بكثير من الآخرين وعلى سبيل المثال المملكة العربية السعودية؛ فإن نسبة الجرائم فيها أقل بكثير من بقية الدول في العالم. ينظر كتابي: عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان ص٤٨٩.

مطالَبين بنظام سياسي دخيل، يموج بالاضطرابات السياسية والفوضى الاجتماعية، إذ يقسِّم المجتمع الواحد إلى كتل سياسية متنافرة وأحزاب متناحرة؛ لذا وقد تأثرت الأُمة بهذا الواقع الأليم الذي كاد يسيطر عليه قانون الغاب، بل مسّ الأُمة غبار ذلك القانون.

ويحاول نخبة من العقلاء والشرفاء والعلماء والخبراء أن يوقفوا هذا الطوفان، ويصححوا مسار الطغيان.

ولكن مهما طُرِحَ من نظريات بشرية وإصلاحات وَضْعية، فإنها لا ترقى في كل حال من الأحوال إلى كمال وجمال المنهج الرباني مهما غَيَّرت من قوانينها، ومهما بَدَّلت من دستورها وبنودها، لأنها منبثقة من علم إنسان لا يبلغ مثقال حبة من علم الخالق سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولما كان القرآن الكريم متضمناً وشاملاً لذلك المنهج الأصيل الذي له القدرة على إصلاح كل منهج دخيل، لأنه منهج حياة صالح لكل زمان ومكان، من أجل ذلك كان لزاماً على أرباب التفسير أن يقوموا بواجبهم، ويفسروا القرآن الكريم تفسيراً معاصراً تتجلى فيه الهداية الربانية والمنح الإلهية من خلال بيان مقاصده العالية ومعالمه الغالية، وأن يكون مواكباً للمستجدات العلمية مستحضراً الحاجات، مستوعباً الفوائد والعلوم التي تحتاج إليها الأُمة والبشرية؛ لفَهْمِ معالمه، وإدراك أهمية حكمه وأحكامه، والعمل بها تدريجياً حسب الطاقات والأولويات، ولتفقه الأُمة الأحكام الربانية، ولتجمعَ بين الاعتقاد النظري والعملي حتى تستأنف ارتقاءها الحضاري.

من هنا تتجلّى أهمية تفسير القرآن الكريم بمنهج يراعي الواقع المعاصر، وأن يكون إخراجه بطريقة التفسير الإجمالي المختصر المحرر؛ ليخاطِبَ جميع طبقات المجتمع من الخبراء والعلماء والمثقفين وغيرهم، فهو تبصرة للمبتدئين، وتذكرة للمتبصرين، وتيسير فَهْمِ القرآن، وتدبره للعمل بأحكامه والارتقاء بالاستفادة من مقاصده.

من أجل ذلك كانت صياغة التفسير بمنهجية مبتكرة ذات رواية معتبرة ودراية محررة، بفوائد مثمرة، واستنباطات منيرة؛ تُبرز المزايا المعاصرة، وتحذر من الرزايا الخطيرة المدمرة، وذلك بالاعتماد على الروايات الصحيحة، والعبارة الفصيحة المستندة إلى الإعراب الراجح(١)، المتضمنة ضروب البلاغة، كأساليب المدح(٢)، والتعظيم والتفخيم(٣)، وأساليب الذمّ(٤)، والتوبيخ(٥)، والإنكار(٦)، وأصناف التأكيد من القسم(٧)، والعناية بإيراد وجوه الإعجاز العلمي ضمن الفوائد والاستنباطات، وتدوين ما جاد به القلم من البديع لمزيد من توضيح المعاني، وتجميل المباني، وإثبات علامات الترقيم التي تَفْصِلُ الأقوال في الحوار، وتؤكد أساليب الإنكار وبيان التعجب من الأحوال والأخبار، وقد روعي ضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

---

(١) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: إنَّ (ما) هنا موصولة وليست نافية، فيكون المعنى: يُعَلِّمون الناس السحر ويعلمون الذي أُنزل على الملكين هاروت وماروت في مدينة بابل التي لا تزال باقية في العراق، وهذان الملكان فضحا السحرة بأنهم كفرة، وأن السحر كفر، فلا يعلمان من أحد إلا بعد النصيحة، إذ يقولان: إنّا اختبار وابتلاء لتعليم السحر الذي هو كفر فلا تكفر.

(٢) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، هؤلاء أصحاب المنزلة العالية الذين اجتمعت فيهم هذه الأوصاف هم الذين على هدى عظيم وهو: دين الإسلام الذي أمر به الخالق سبحانه، وهؤلاء هم الفائزون بحياة طيبة في الدنيا، وجنّة عظيمة في الآخرة.

(٣) كما في سورة القدر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، إنّنا لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة – أنزلنا القرآن العظيم في ليلة مُباركة الشرف من شهر رمضان المُبارك.

(٤) كما في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فهؤلاء البعداء عن رحمة الله سبحانه من أهل النار ماكثين فيها أبداً.

(٥) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: ٨١]، يفضح الله المنافقين الذين يُظهرون الطاعة لرسول الله ﷺ.

(٦) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، ينكر الله تعالى على الكفّار موبّخاً لهم: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي أوجدكم من العدم، ثمَّ يميتكم بعد انقضاء آجالكم، ثم يعيدكم أحياء يوم البعث، ثمّ ترجعون لنيل الثواب أو العقاب؟!

(٧) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [سورة البقرة: ٩٢]، قسماً لقد جاءكم موسى عليه السلام بالمعجزات الواضحات.

وصُدِّر التفسير بذكر مكان النزول، ثم ذكر ما صَحَّ في فضائل السور إن وجد، ثم بيان مقاصد السورة(1)، ثم ذكر ما صَحَّ في أسباب النزول ليعين على فهم التفسير، ثم التفسير بالمنهج المذكور وختامه بذكر الفوائد العلمية والتربوية، والاستنباطات الفريدة، ليكون محاكياً العلوم المعاصرة للارتقاء بها بالتكميل والتجميل(2)؛ ليسهم في تحقيق متطلبات العصر في الاقتصاد المعرفي.

وتميَّز هذا التفسير بإضافات جديدة كالوقوف النبوية في غير رؤوس الآي(3)، والدراسات المستقبلية(4)، والاستنباطات الفلكية(5)، والفوائد العلمية الجديدة كالفوائد الطبية، والتربوية، والإعجاز العلمي، والإيجاز الفني بالإنجاز التقني من خلال الاستفادة من النسخة الالكترونية المرافقة للتفسير وتحتوي على ملاحق بيانية وفهارس فنية، وهي كما يلي:

١- فهرس الآيات.
٢- فهرس الأحاديث.
٣- فهرس الآثار.
٤- ملحق الصور والخرائط.
٥- ملحق مقاطع الفيديو.
٦- ملحق آيات علم المستقبل.
٧- ملحق بتراجم الأعلام المذكورين في التفسير.
٨- ملحق بكشاف الفوائد والاستنباطات.
٩- فهرس المصادر والمراجع.
١٠- فهرس المحتويات.

وأما النسخة الورقية من التفسير فيذكر في آخرها فقط فهرس المحتويات للاختصار، وما ورد من صور وخرائط فإن الإحالات إلى الملحق في أول ورود الآية ذات العلاقة بالصورة، وما ورد من آيات أخرى فيها علاقة بالصورة فلا يُذكر، خشية التكرار، وما رود من تفسير

---

(١) وقد فُصلت المقاصد في عدة فقرات لمعرفة المزيد عن غايات السورة وثمرة نتائجها.

(٢) ينظر محاضرتي بعنوان «الاستنباطات المبتكرة من قصة الإسراء والمعراج» في جامعة الملك عبد العزيز كلية الاقتصاد والإدارة في آخر العام الدراسي١٤٣١هـ ومحاضرتي بعنوان «استثمار الهدي النبوي في الارتقاء بالعلوم» في الجامعة الإسلامية ٢٠/ ٥/ ١٤٣٤هـ بمناسبة افتتاح معرض الكتاب الثلاثين.

(٣) ينظر على سبيل المثال: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥).

(٤) ينظر: ملحق آيات علم المستقبل في النسخة الالكترونية.

(٥) ينظر على سبيل المثال: تفسير سورة التوبة آية (٣٦).

طبي في الفوائد والاستنباطات فإنه بقلم سعادة الدكتور محمد جميل الحبال، وما حرره سعادته خاص بتفسير المدينة المنورة، وقد اختصر ليتناسب مع حجم الفوائد والاستنباطات، وما ورد من رمز حرف (ح) فهو إشارة إلى تعليقاتي.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل لرعاة هذا المشروع ذوي الأيادي البيضاء الذين قاموا بدفع جميع نفقات التفسير منذ البداية إلى الطباعة، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء وأجزل لهم المثوبة في الدارين.

كما أقدم الشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى سعادة الأستاذ الدكتور عماد بن زهير حافظ رئيس مجلس إدارة مركز تعظيم القرآن فقد بذل جهوداً كريمة في إشرافه على هذا التفسير منذ وضع الخطة إلى وضع فهارسه وقد واكب ذلك الإشراف المراجعة التي تميزت بالملحوظات السديدة والآراء الرشيدة التي أضفت على التفسير زيادة في البيان، والشكر موصول إلى جميع المشاركين في هذا التفسير وأخص الأساتذة الذين شاركوا في التفسير وصبروا على الالتزام بالمنهج المقرر فلهم فائق التقدير على جهودهم في صياغة التفسير والعناية بالتحرير، كما أشكر سعادة الأستاذ عبد الله الصميعي مدير عام دار الصميعي للنشر وأمين الجمعية العلمية السعودية للناشرين، الذي قام بنشر هذا التفسير.

والله تعالى ولي التوفيق.

بقلم:

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

النزول: مكية.

فضائل السورة:

هي أعظم سورة في القرآن؛ فعن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنت أصلِّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكَّرته، فقال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته. (صحيح البخاري ٨/ ٣٨١، برقم ٤٧٠٣ – التفسير – سورة الحج، باب فضل ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، ورقم ٥٠٠٦ – كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ. سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم، لم يُفْتَح قطّ إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم. فسَلَّم وقال: أبْشِرْ بنورَين أوتيتَهما لم يُؤْتَهما نبي قبلُ: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيته. (صحيح مسلم – صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة برقم ٨٠٦).

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية، فقالت: إنَّ سيد الحي سليم، وإن نَفَرَنا غُيَّبٌ، فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبِنُه برقية، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبناً، فلمَّا رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا ما رقيت إلا بأمِّ الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي – أو نسأل – النبي ﷺ. فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: وما كان يدريه أنها رُقْية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم. (صحيح البخاري – فضائل القرآن – باب فضل الفاتحة برقم ٥٠٠٧).

والسليم: اللديغ. غُيَّب: جمع غائب. نأبنه: أي: ما كنَّا نعلم أنَّه يرقى. (كما في النهاية في غريب الحديث).

المقاصد:

١ – تقرير العبودية والربوبية لله تعالى.

٢ – الإيمان بأسماء الله الحسنى.

٣– الوعد بسعة رحمة الله تعالى، والوعيد من الحساب يوم القيامة.

٤ – الاعتقاد بالبعث للخلائق.

٥ – تحقيق معنى «لا إله إلا الله» في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

٦ – طلب العون من الله تعالى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١ - البسملة: أبدأ بذكر اسم الله المعبود بحق، المتصف بسعة رحمته للخلق جميعاً في الدنيا، وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

٢ - كل المحامد بالثناء والشكر والتحميد لله تعالى المعبود بحق، إذ هو خالق الخلائق أجمعين، وكل هذه المخلوقات بأنواعها وأصنافها تلهج بحمده في كل زمان ومكان، في الدنيا والآخرة، وفي السموات والأرض وما بينهما.

وبذلك ينبغي للمؤمن أن يستشعر أنَّ الكون كله بأشيائه وزمانه ومكانه يلهج بالحمد لله حتى ينسجم مع هذا الكون الذَّاكر، وكي يهتف معه بهذا الذِّكر العظيم الذي يحبه الله تعالى، إذ استهلَّ به القرآن العظيم، وبدأ به أعظم سورة في القرآن الكريم، فكان براعةً للاستهلال، وروعة في الخضوع والاستذلال، فهو حقيق بتلك المحامد كلها جميعاً؛ لأنه الخالق الذي سخَّر جميع هذا الكون للإنسان، وكل خلائق الكون تنعم ببركات الرحمات ليل نهار بالأرزاق والمصالح.

٣ - ومن صفاته العُلى سبحانه وتعالى: الرحمة، فالرحمن الذي يرحم جميع الخلائق، والرحيم الذي يرحم المؤمنين. والرحمة صفة عظيمة من صفات الله تعالى العُلى؛ إذ تدور في فلكها جميع الصفات، والصفات كلها رحمات متنوعات، ورحمته وسعت كل الأشياء جميعاً، ولله تعالى مئة رحمة. أنزل الله رحمة واحدة تتراحم فيها الخلائق في الدنيا، وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة ليوم القيامة للتخفيف عن العباد حسب مشيئته سبحانه. وهذا التأخير لنزول بقية الرحمات من رحمته الواسعة.

٤ - ومن رحمته أيضاً أنه جعل يوم الجزاء على الأعمال؛ لينتصر للمظلوم، ويجازي العباد بالثواب أو العقاب، فهو يتصرَّف في هذا اليوم، فيغفر لِـمَنْ يشاء، ويعذب مَنْ يشاء بعدله وكرمه. وفي ذلك ترغيب في رحمته، وترهيب من يوم الجزاء.

٥ - وهذا الكمال في الحساب، والجلال في التدبير والأسباب، والجمال في التكريم للأحباب، يستحق إفراده وحده بالعبودية كلها له، فنستمدُّ منه العون فلا يعتمد إلا عليه، ولا يُستند إلا إليه، إذ هو مُدَبِّر أمور الخلائق. ومن ذلك التدبير والتكريم أنه عَلَّمَنا كيف نَخُصُّه بالعبادة؟ فنطيع أوامره سبحانه، وننزجر عن

نواهيه، ونطلب منه العون، وعَلَّمنا كيف يكون إخلاص العبادة له سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟

٦-٧- وبما أنَّ الدعاء وطلب الرجاء من أعظم سبل تحقيق العبودية، فقد جاء التوجيه أن نتوسَّل إليه سبحانه وحده، ونتضرع إليه وحده بطلب التوفيق والإرشاد إلى الطريق الصحيح والدين السميح، ألا وهو دين الإسلام للعمل بأحكامه وحِكَمِه. هذا الدين العظيم الذي دان به النبيُّون والصدِّيقون والشهداء، واطمأنَّت به قلوبهم، وقرَّت به أعينهم، وارتقت به نفوسهم؛ لأنَّهم تذوَّقوا حلاوته، وعرفوا قيمة قيمه، وعلوَّ علومه، وسموَّ سنامه، وأدركوا خصائصه وميزاته عن الأديان الأخرى التي وقع فيها التحريف والتزييف، كما حصل في اليهود الَّذين غضب الله عليهم؛ بسبب شركهم بالله، وتحريفهم التوراة، وكما حصل للنصارى الذين ضَلُّوا الطريق الصحيح؛ بسبب شركهم وتحريفهم الإنجيل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وفيها تأكيد الدعاء السابق، وطلب البراءة من الشرك والضلال والإضلال، وذلك بعد طلب التوفيق إلى تحقيق العبودية بالولاء لله، وأنبيائه كلهم أجمعين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بدأ الله تعالى القرآن العظيم بالبسملة، وفيه توجيه وإرشاد لبدء كل أمر بالبسملة.

٢ - انتظمت السورة ثلاثة مقاصد تعليمية هي كليات الدين وغاياته؛ ففيها التربية على معرفة المعبود وتوحيده بأسمائه وصفاته وأفعاله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والتربية على معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى عبادته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والتربية على معرفة الثمرة و الجزاء المترتب على سلوك الطريق أو مجانبته ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. وسور القرآن وآياته كلها ترجع إلى هذه الكليات الثلاث.

٣ - البداءة في التربية والتعليم بالكليات من أفضل الطرق التربوية التي تعين في تثبيت المعلومة وضبطها ومعرفة مآلها؛ لأنَّها تقوم على ربط الفروع بأصولها، والمسائل بأدلتها، والوسائل بغاياتها. ومعرفة ذلك من الفاتحة يفيد في تدبر القرآن وتبين مقاصده.

٤ - يرشد مطلع السورة إلى الثناء على الله تعالى، والحمد له سبحانه.

٥ - إثبات صفة الرحمة لله تعالى.

٦ - ومن أسباب تحقيق الهداية: الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

٧- أهمية الدعاء في العبادة والتضرع إلى الله تعالى وحده.

٨- دين الإسلام منهج الحياة.

٩- التحذير من الشرك والتحريف.

١٠-النصيحة لليهود والنصارى بأن يصححوا منهجهم.

١١-سِرُّ تسميتها بالسبع المثاني أنَّ آياتها نُرَدِّدها في كل الصلوات، وتكرارها للتذكير بمعانيها واستحضارها، ولتجديد العهد مع الله تعالى.

١٢-تجيبُ السورةُ الكريمة عن الأسئلة الثلاثة: من أين، وإلى أين، وما طريق النجاة؟ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالذي خلقه، ودبَّر مصالحه ومعاشه في هذا الكون هو الله رب العالمين، وطريق النجاة هو إخلاص العبادة، والاستعانة بالله، وطلب الهداية منه.

١٣-حتى يلهجَ اللسانُ بالحمدِ، ويَنْبِضُ به القلبُ، لابُدَّ من تَذَكُّرِ نِعَمِ الله تعالى التي سَخَّرها للإنسان لاستحضارِها، واستشعارِ عظمةِ الخالقِ جلَّ وعلا، ورحمته التي وَسِعَتْ كل شيء ومعونته وهدايته لعباده.

١٤-تشير كلمة ﴿نَسْتَعِينُ﴾ إلى ضرورة العمل والأخذ بالأسباب؛ لأنَّ الاستعانة هي طلب العون من الله تعالى على أداء عمل أو إتمامه.

١٥-حُسْنُ التأدُّبِ مع الله تعالى في الدعاء، من ذلك تمجيدُه تعالى وتعظيمُه وحمدُه بين يدي الدعاء.

١٦-الهداية والتوفيق من الله تعالى، وكما نستعين بالله تعالى في سائر أمورنا وجميع أحوالنا، كذلك نستهديه تعالى، ونسأله أن يثبِّتنا على طريق الهداية، ويزيدنا هدى على هدى، ويُجنبنا طرق الضلال.

١٧-الصراط المستقيم هو الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [التوبة:١٦١-١٦٣]، فقد ذكر الله ﷻ أن الصراط المستقيم هو دين إبراهيم، كما في الآية الأولى، ثمَّ بَيَّنَ أن هذا الدين هو الإسلام، كما في الآية الثانية، وقد ثبت هذا التفسير عن النواس بن سِمعان الأنصاري ﷺ عن رسول الله ﷺ، فذكر حديثاً طويلاً والشاهد فيه: «والصراط: الإسلام».

١٨-أشكل على بعض المفسرين المعاصرين تفسير ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم اليهود، وتفسير ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ أنَّهم النصارى، حتى إنَّ بعضهم ترك هذا التفسير، علماً أن هذا التفسير مُجْمَعٌ عليه عند المفسرين من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع عشر، ويتردد الإشكال على ألسنة بعض المسلمين وغير المسلمين من أنَّه كيف يُوصف اليهود والنصارى بذلك؟!

الجواب: هذا أسلوب تربوي وخطاب ربَّاني لعباده الذين أخطؤوا المنهج الصحيح، فإنَّ الله تعالى خالقهم وسيِّدهم، فهو سبحانه يخاطب عباده بما يشاء وكيف يشاء، فتارة يخاطبهم بأجمل نداء: يا بني إسرائيل، يا أهل الكتاب، وتارة يخاطبهم باليهود والنصارى، وتارة يخاطبهم بقوم موسى. وهذا التنوع في الأسلوب ليس فقط لليهود والنصارى، وإنَّما للبشرية جميعاً، فتارة يخاطبها بالإنسان، وتارة بالكفار والكفور، وهي من صيغ المبالغة في الكفر والجُحود لنِعَمِ الله تعالى، وهذا أشد ممَّا سبق. وكل هذا من رحمته بعباده؛ فهو يُوَبِّخهم حتى ينقذهم من العذاب والنَّكال، وهو مالك الملك، ورب العالمين، فله أن يستخدم ما يشاء، وكل ذلك في صالح البشرية، وهو غيور على عباده، رحيم بهم، غفور لِـمَنْ تاب وأناب، وعفو عن العقاب، وكريم في الثواب، فكل أسلوب من هذه الأساليب يُستخدم حسب المقام وحسب السياق، وكل ذلك إثارة وتنبيه لهم حتى يسلكوا المنهج الصحيح.

١٩ - وردت الكليات الثلاث في سورة الفاتحة على ترتيب بديع يدل على منهج القرآن في تربية النفوس، ومراعاة استعداداتها، وتهيئتها للتربية والتعليم، إذ بدأها بالغاية من تَعَلُّم القرآن وتدبُّره، وأتبعها ببيان وسائل تحقيق تلك الغاية، ثمَّ ختمها ببيان النتائج.

النزول: مدنية.

فضائل السورة:

عن أبي أُمامة الباهلي ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوَين: البقرة وسورة آل عمران، فإنها تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غَيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافَّ، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة. فإن أَخْذَها بركة، وتَرْكها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَةُ»، وقال معاوية ﷺ: بلغني أنَّ البطلة السحرة.

(صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم ٨٠٤).

الزهراوان: المنيرتان. والغَيايتان: الغَياية: كلُّ شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه كالسَّحابة وغيرها.

و عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:«لا تجعلوا بيوتكم مقابر. إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة». (صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة، برقم٧٨٠).

وأخرج الشيخان بسنديهما عن أُسيد بن حضير ﷺ قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسَكَنَتْ، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ، فجالت الفرس، فانصرف. وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجترَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حَدَّث النبي ﷺ فقال: اقرأ يابن حضير، اقرأ يا بن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعتُ رأسي فانصرفت إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدري ماذا؟ قال: لا، قال: تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم.

(صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة، ٩/ ٩٣ برقم ٥٠١٨. وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، برقم ٧٩٦. واللفظ للبخاري). ومعنى جالت: دارت.

المقاصد:

١ - القرآن هداية للمؤمنين به.

٢- بيان صفات المتقين.

٣- توحيد العبودية باجتماع العبادة القلبية والبدنية.

٤- بيان ثمرة الإيمان.

٥- اجتماع أركان الإيمان الستة.

٦- تقرير الإيمان بالغيب.

٧- تقرير معجزات الأنبياء.

٨- تقرير الإيمان بالكتب السماوية.

٩- تقرير عقيدة البعث.

١٠- إقامة الحجج على صدق رسالة نبيِّنا محمد ﷺ سيِّد الأنبياء والمرسلين.

١١- دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد.

١٢- بيان كثير من أحكام العبادات والمعاملات.

١٣- الوصية بالعفو والتسامح بين المسلمين ومع غيرهم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١-٥- هذه الحروف المقطعة العربية التي تشير إلى الإعجاز البياني نزل بها هذا القرآن العظيم الذي لاشكَّ فيه، ومهما تخبَّط الجاحدون والمشركون فلا يفقهون بركاته، ولا يتذوقون حلاوته، أما الذين يحذرون ارتكاب الجرائم والمحرمات فإنَّهم يستلهمون هداياته بتصديقه وتعظيمه والعمل به، هؤلاء يتميَّزون بصفات عالية، فهم يُصَدِّقون بعظمة الخالق واليوم الآخر، ويحافظون على إقامة الصلاة باستيفاء أركانها وشروطها، ويتصدَّقون من أموالهم للمستحقين والمحتاجين، ويُصَدِّقون بهذا القرآن وبالوحي الذي نزل به جبريل على الصادق الأمين نبينا رسول الله ﷺ، ويُصَدِّقون بما أنزل من الكتب والصحف على الأنبياء والمرسلين، ويُصَدِّقون بيوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء. هؤلاء أصحاب الدرجات العالية والمقامات الغالية، هم الفائزون بالنعيم المقيم، والأجر الكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسمية السورة بسورة البقرة إشارة إلى قصة البقرة وما فيها من تَعَنُّتِ اليهود، وتشددهم في الحوار.

٢- الإشارة إلى الإعجاز البياني للقرآن بذكر الحروف المقطَّعة. قال الشوكاني: «وقال قطرب، والفراء، وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدَّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها؛ ليكون عَجْزُهم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم». (فتح القدير ١/ ١٦).

٣- بيان أنَّ من أخص خصائص التربية القرآنية وَصْلَ العلم النافع بالعمل الصالح، والقوة العلمية بالقوة العملية، فهديُ القرآن للمتقين في بيان الصراط المنجي، وفي حث السير عليه.

٤- وجوب التصديق بالقرآن الكريم.

٥- بيان أنَّ أهل الهداية والتقوى هم القدوة الصالحة في ميزان القرآن، وهم الذين جمعوا بين هداية البيان وهداية التوفيق ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

٦- وَصْفُ الهدى بأنّه من ربهم؛ للتنويه بذلك الهدى وتشريفه، مع الإشارة بأنهم محلُّ العناية من الله، وكذلك إضافة الرب إليهم إضافة تعظيم لشأن المضاف إليه بالقرينة.

٧- بيان أنَّ تربية الناس على سلوك الهداية تتمُّ عن طريق تنمية العقل، وتسديده بما يصلحه، وهو الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ . . . وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وبحماية الجوارح وقيامها بما ينفعها وهو الإسلام ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وتغذية الروح بما يسمو بها وهو اليقين والإحسان ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٨- إنَّ التصديق بالغيب من عند الله تعالى هو إحاطة بعلوم المستقبل المذكورة في القرآن العظيم؛ إذ ورد فيه أمور مستقبلية في الدنيا والآخرة، وقد وقع بعضها، وسيقع بعضها الآخر حسب وقت وقوعه في الدُّنيا والآخرة.

٩- عظمة فَضْلِ الإيمان بالغيب، فقد روى أبو عبيدة بن الجراح ﷺ أنه قال: يا رسول الله، أَحَدٌ خير منَّا؟ أَسْلَمْنا وجاهَدْنا معك، قال: «نعم، قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني». (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٨٥)، وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٦).

١٠-وتصنيف الناس آخر الفاتحة ثلاثة أصناف: مهتدين ومعاندين وضالِّين، مثل تصنيفهم أول البقرة ثلاثة: متقين، وكافرين - مصارحين وهم المعاندون - وضالِّين وهم المنافقون، وإجمالهم في الفاتحة، وتفصيلهم هنا، من بديع الأساليب القرآنية، وهو من باب الإجمال ثمَّ التفصيل.

١١-وجوب الصلاة والزكاة، واقتران الصلاة بالزكاة جمع بين العبادة البدنية والمالية.

١٢-وجوب الإيمان بالغيب.

١٣-وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

١٤-مَنْ طَبَعَ الله على قلبه فلا تنفع معه الهداية.

١٥-جاء التعبير بالمضارع كما وقع في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ ليشمل ذلك الذين أقاموا الصلاة فيما مضى، وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية، والذين هم بصدد إقامة الصلاة، وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية، والذين سيهتدون إلى ذلك وهم الذين جاؤوا مِنْ بعدهم؛ إذ المضارع صالح لذلك كله. وقوله: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جيء بالمسند إليه مُقَدَّماً على المسند الفعلي لإفادة تقوية الخبر؛ إذ هو إيقان ثابت عندهم من قبل مجيء الإسلام على الإجمال.

١٦-أخرج ابن رسته في كتاب الإيمان بسنده الصحيح عن ابن مسعود قال: الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك ٢/ ٤٤٦، وصححه الحافظ ابن حجر، تغليق التعليق ٢/ ٢٢، والعيني، عمدة القاري ١/ ١٣٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

٦-٧- يخبر الله تعالى أن الذين كذَّبوا الله تعالى ورسوله ﷺ لا ينفعهم واعظ، ولا يردعهم رادع؛ لمكابرتهم وغباوتهم، وعُذْراً للنبي ﷺ في الحرص على إيمانهم، فهم مستمرون على كفرهم في الحالتين: في حالة وَعْظِهم ودعوتهم، وفي حالة تَرْكِهم؛ لأنَّ الله تعالى قد طبع على قلوبهم، فلا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ منها، فلا يدركون ما ينفعهم، وطُبِعَ على أسماعهم، فلا يسمعون ما يفيدهم، وجعل على أبصارهم غطاء يمنعهم من النظر الذي ينفعهم، وذلك عقوبتهم في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب شديد الألم.

٨-٩- وهذا الصنف من الناس هم المنافقون، كما سمَّاهم الله تعالى في مطلع سورة المنافقون ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]، وفي هذه الآيات يحذِّر الله من مَكْرِهم، فهم يقولون صَدَّقْنا بالله تعالى وبيوم القيامة، ولكن هذا الإيمان لم يتجاوز الأفواه ولم يدخل القلوب، فهم كاذبون وليسوا بمؤمنين. وهذا الكذب منهم تحايل على الله تعالى وعباده المؤمنين بإضمار كفرهم وإظهار الإيمان، وضرر ذلك يعود على أنفسهم، ومن شدة جهلهم أنهم لا يُحِسُّون بذلك.

١٠ - إنَّ سبب الغفلة عن هذا الظاهر كون آلة إدراكهم مريضة، شغلها المرض عن إدراك ما ينفعها، فهي لا تجنح إلا إلى ما يؤذيها. في قلوبهم شك ونفاق وحقد، وبسبب ذلك ابتلاهم بالمعاصي اللاحقة التي يستحقون عليها العقوبة، ولهم عذاب موجع بسبب كذبهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من المنافقين في كل زمان؛ لأنَّ هذه الصفات ملازمة لهم، فهي علامات تدل على نفاقهم.

٢- التنفير من الاتصاف بخصال المنافقين.

٣- الإيمان لا يكفي فيه القول، بل لابُدَّ من تصديقه بالعمل.

٤- كذب المنافقين سبب في زيادة عذابهم.

٥- الكفر يُعمي ويُصِمُّ.

٦- إنباء عن أمر مستقبلي بأنَّ الكفار الذين طُبِعَ على قلوبهم لا يؤمنون.

٧- مصير الكفار الخلود في النار.

٨- في الآية (٨) إخبار عن كذب المنافقين في الماضي والمستقبل.

٩- في الآية (٩) إخبار عن خداع المنافقين في الماضي والمستقبل.

١٠- إنَّ ذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية، وذكر الكافرين في آيتين فقط دليل على خطورة هذا الصنف، وفي الوقت نفسه بيان لجدلهم وما فيه من السخف، كما كشف عن الصفات التي تعتريهم من الخوف والضعف.

١١- ابتدأت قصتهم بالتنبيه على ضعف عقولهم وخفة حلومهم، من حيث إنَّ مَحَطَّ حالهم أنهم يُخادعون مَنْ لا يجوز عليه الخداع.

١٢- قال ابن عاشور: «﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وبيان لسببه في الواقع؛ ليدفع بذلك تَعَجُّبَ المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم». (التحرير والتنوير: ١/ ٢٥٠). ثم رسم مخططاً لأنواع الأمراض النفسية التي تنشأ من النفاق، وهي:

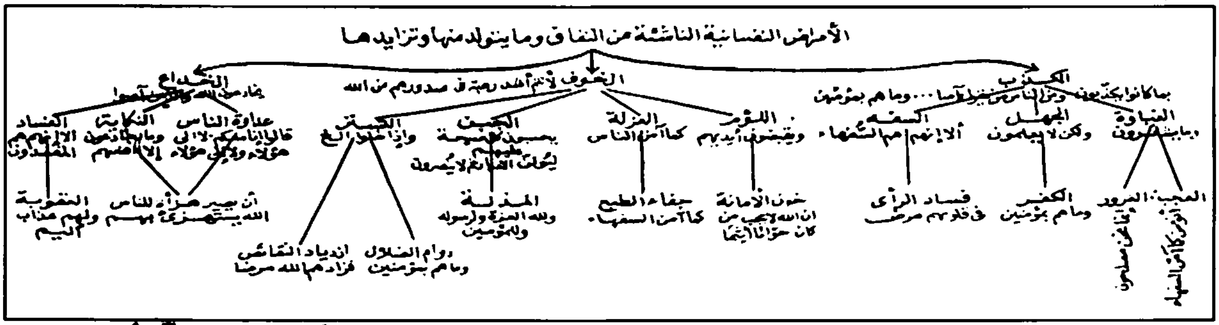

بصر الذي هو اسم لا مصدر. وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر؛ فإنَّ التقديم مؤذن بأهمية المقدَّم، وذلك لأنَّ السمع آلة لتلقي المعارف التي فيها كمال العقل.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

١١-١٢- ولما أخبر تعالى عن بواطنهم أتبعه من الظاهر ما يدلُّ عليه، فبيَّن أنهم إذا نُهُوا عن الفساد العام ادَّعوا الصلاح العام بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ وبناؤه للمجهول إشارة إلى عصيانهم لكل قائل كائناً مَنْ كان، فإذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض كفِعْل المعاصي أخذتهم العزة بالإثم، وادَّعوا بأنَّهم مصلحون. ثمَّ نبه الله تعالى على أنَّ هؤلاء هم المفسدون، فكشف كَذِبَهم، وبَيَّن أنه بسبب جهلهم لا يحسون بذلك. فردَّ عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق الذي قالوه؛ لأنَّ تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه، فيفيد قوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ قصر الإفساد عليهم.. فإنَّ أفعالهم التي يبتهجون بها، ويزعمونها منتهى الحذق والفطنة وخدمة المصلحة الخالصة آيلة إلى فساد عام لا محالة، إلا أنهم لم يهتدوا إلى ذلك لخفائه، وللغشاوة التي ألقيت على قلوبهم من أثر النفاق.

١٣- وإذا نُصح هؤلاء المنافقون أن يُصدِّقوا بالله تعالى، كما صَدَّق المؤمنون بمحمد ﷺ، رفضوا واستنكروا، فعزموا على التبرؤ من الإيمان على أبلغ وجه، إذ جعلوا الإيمان المتبرأ منه شبيهاً بإيمان الجهلة؛ تشنيعاً له وتعريضاً بالمسلمين، فنفى عنهم العلم، فظنُّهم أنَّ ما هم عليه من الكفر رُشْدٌ، وأن ما تَقَلَّده المسلمون من الإيمان سفه، يدل على انتفاء العلم عنهم. وقالوا: أنصدق مثل تصديق الجهلة؟ فرَدَّ الله تعالى عليهم بأنهم هم الجهلة، ومن جهلهم أنهم لا يعلمون حقيقة حالهم ومآلهم.

١٤- ولَمَّا بَيَّن نفاقهم وعلته وسيرتهم عند دعاء الداعي إلى الحق بهذه الآيات، بَيَّنَ سيرتهم في أقوالهم مخادعين بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا ﴾ فهؤلاء المنافقون إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنَّهم على الإيمان، وإذا انفردوا بزعماء الكفر أقرُّوا بأنهم على ملة الكفر، وأن ما يقولونه للمؤمنين هو استخفاف وسخرية بهم.

وأمَّا قولهم لقومهم ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ بالتأكيد، فذلك لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر، وتطرق به التهمة أبواب قلوبهم، فاحتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم، وكذلك قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾.

١٥-١٦- ذكر الله تعالى عقوبة استهزائهم: بأنَّه ﷻ يستهزئ بهم ويُمْهِلهم؛ ليزدادوا في فجورهم وكفرهم، وهم حائرون. هؤلاء المنافقون البعداء عن الحقِّ استحَبُّوا الضلالة على الهدى، ورغبوا في الضلالة رغبةَ المشتري في السلعة الخاسرة، فما كسبوا شيئاً طيباً، بل حرموا أنفسهم من الهداية، وسقطوا في الغواية.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١١-١٢) إخبار عن فساد المنافقين في الماضي والمستقبل.

٢- في الآية (١٣) إخبار عن استهزاء المنافقين في الماضي والمستقبل.

٣- في الآية (١٤) إخبار عن مكر المنافقين في الماضي والمستقبل.

٤- المنافقون مفسدون في الأرض.

٥- ولاء المنافقين لأسيادهم الطواغيت.

٦- استهزاء المنافقين بالمؤمنين، والجزاء من جنس العمل.

٧- إمهال الله تعالى المنافقين واستدراجهم بالنعم.

٨- خسارة المنافقين في الدنيا والآخرة.

٩- عدم استفادة المنافقين من النِّعم في سمعهم وعقلهم ولسانهم.

١٠- سخافة عقول المنافقين.

١١- المنافقون يتخبطون في حياتهم.

١٢- قال الحرالي: «ولما كان حال الطمأنينة بالإيمان إصلاحاً، وجب أن يكون اضطرابهم فيه إفساداً، ولاسيما مع ظنهم أنَّ كونهم مع هؤلاء تارة ومع هؤلاء تارة من الحكمة والإصلاح، وهو عين الإفساد؛ لأنَّه بالحقيقة مخالفة هؤلاء وهؤلاء، فقد أفسدوا طرفي الإيمان والكفر». (ينظر: نظم الدرر ١/ ٤٥).

١٣- أغلب المفسدين في الأرض يزعمون دائماً أنَّهم مصلحون.

١٤- وقد ذكر ابن عاشور مراتب فساد المنافقين:

أولها: إفسادهم أنفسهم بالإصرار على تلك الأدواء القلبية التي أشرنا إليها فيما مضى، وما يترتب عليها من المذام، ويتولد من المفاسد.

الثانية: إفسادهم الناس ببث تلك الصفات والدعوة إليها، وإفسادهم أبناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساوئهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

الثالث: إفسادهم بالأفعال التي ينشأ عنها فساد المجتمع، كإلقاء النميمة والعداوة، وتسعير الفتن، وتأليب الأحزاب على المسلمين، وإحداث العقبات في طريق المصلحين. (التحرير والتنوير: ١/ ٢٨٠).

١٥-وقال أيضاً: «وجيء في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بإفادة التجدد من الفعل المضارع أي: تجدُّد إملاء الله لهم زماناً إلى أن يأخذهم العذاب.. وإنما أضاف الطغيان لضمير المنافقين ولم يقل: في الطغيان بتعريف الجنس، كما قال في سورة الأعراف (٢٠٢): ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ إشارة إلى تفظيع شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه، وأنهم اختصُّوا به حتى صار يعرف بإضافته إليهم. والموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ بمعنى المعرَّف بلام الجنس، فيفيد التركيب قَصْرَ المسند على المسند إليه، وهو قَصْرٌ ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها، إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والإفساد والاستهزاء بالمهتدين». (التحرير والتنوير ١/ ٢٩٥، ٢٩٢، ٢٩٠).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٧-١٨- صفة هؤلاء المنافقين في إعلانهم الإسلامَ مثلُ صفة من كان في ليلة مظلمة، فاجتهد لطلب النور، فلما وجده أنار ما حوله، وانتفع به مدَّة وجيزة، ثم انطفأ، فصار في ظلام شديد لا يبصر، وهو مع ذلك أصمُّ لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لا يبصر، لذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان.

١٩- كما شبَّه حالهم بتمثيل آخر لتقرير المعنى، وكشف جوانب أخرى، إذ مثَّل لأحوال المنافقين المترددة بين جواذب ودوافع حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال مطر من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه. (ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٣١٠).

فالمعنى صفتهم كمثل قوم ساروا في ليلة مظلمة فيها مطر كثيف ذو ظلمات من السحب، يصاحبه رعد مخيف، وبرق وصواعق حارقة، يضعون أصابعهم في آذانهم من الخوف، وكلما لمع البرق رأوا الطريق

فمشوا، فإذا ذهب البرق تحيروا، فكذلك المنافقون كلما تكلموا بكلمة الإخلاص أضاءت لهم فمشوا، وكلما شَكُّوا تحيروا، وتاهوا في الظلمات، فهم في خوف من المؤمنين؛ لأنهم يحسبون كل صيحة عليهم، والله تعالى قد أحاط بهم علماً، وسيجازيهم على أعمالهم.

٢٠ - وهذا البرق يقارب أن يأخذ أبصارهم من شدة اللمع، فهم حتى في أثناء الإضاءة كانوا في خطر، وهذه الإضاءة تسعفهم قليلاً في المشي، فإذا ذهب هذا البرق وقفوا حائرين، ولو أراد الله تعالى لَسَلَبَ سَمْعَهم بقاصف الرعد، وأخذ أبصارهم بخاطف البرق، ثم علل ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال، وهو قادر على ذلك، وعلى كل شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- ضرب الأمثال القرآنية ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ من الأساليب التربوية النافعة في إقامة الحجة على الكافرين وفي تربية المؤمنين؛ لأنها تحقق مقصودين عظيمين، تقريب المعنى للمتدبِّر، والاعتبار بوجه الشبه بين المثل وما ضُرب له. وفي ذلك تربية للعقل على المقايسة بين المحسوسات والمجردات.

٢- بيان اضطراب نفوس المنافقين.

٣- تقرير عظمة قدرة الله تعالى.

٤- لما فرغ من المثل كشف المراد بظلماتهم بأنها ما في آذانهم من الثقل المانع من الانتفاع بالسماع، وما في ألسنتهم من الخرس عن كلام الخير الناشئ عن عدم الإدراك الناشئ عن عمى البصائر، وفساد الضمائر والسرائر.

٥- والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء، لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم، وهو هنا من قبيل التشبيه لا من الاستعارة؛ لأنَّ فيه ذِكْرَ المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، وهي لفظ ﴿مثل﴾، فجملة ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ واقعة من الجمل الماضية موقع البيان والتقرير، فكان بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال، فلذلك فصلت ولم تعطف.

٦- وجمع الضمير في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ مع كونه راعى جانب الضمير المفرد في قوله: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ مراعاة للحال المشبهة وهي حال المنافقين لا للحال المشبه بها، وهي حال المستوقد الواحد على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائد إلى المنافقين لا إلى ﴿ٱلَّذِى﴾.

٧- واختيار لفظ النور في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون الضوء ودون النار؛ لأنَّ لفظ النور أنسب، فالذي يشبه النار من الحالة المشبهة هو مظاهر الإسلام التي يظهرونها، وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور في القرآن.

٨- والرعد والبرق ينشآن في السحاب من أثر كهربائي عند التقاء الشحنات السالبة بالشحنات الموجبة، وينظر: صورة البرق في الملحق.

٩- ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ للتعليل أي: لأجل الصواعق؛ إذ الصواعق هي علة جعل الأصابع في الآذان، ولا ضير في كون الجعل لاتقائها.

١٠- قال ابن عاشور: «ومن بديع هذا التمثيل أنه مع ما احتوى عليه من مجموع الهيئة المركبة المشبهة بها حال المنافقين حين منازعة الجواذب لنفوسهم من جواذب الاهتداء وترقبها ما يفاض على نفوسهم من قبول دعوة النبي وإرشاده مع جواذب الإصرار على الكفر، وذَبِّهم عن أنفسهم أن يعلق بها ذلك الإرشاد حينما يخلون إلى شياطينهم. والتمثيل هنا لحال المنافقين حين حضورهم مجلس رسول الله ﷺ وسماعهم القرآن، وما فيه من آي الوعيد لأمثالهم وآي البشارة، فالغرض من هذا التمثيل تمثيل حالة مغايرة للحالة التي مُثِّلت في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ بنوع إطلاق وتقييد». (التحرير والتنوير ١/ ٣١٥،٣١٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟
لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ
وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟
بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢١-٢٢- بعد بيان أقسام أحوال الناس الثلاث، يناديهم ﷻ ويأمرهم بإقرار العبودية له سبحانه؛ إذ هو الذي خلقهم ومَنْ قبلهم منذ عهد آدم عليه السلام. وتأكيد هذا الأمر العظيم للوصول إلى مقام المتقين الذين يخافون الله تعالى؛ لنيل الثواب الكريم والنجاة من العذاب الأليم. وهذا الخلق لآدم وذريته بعد أن خلق

السموات والأرض، فمهَّد الأرض سكناً بالأرزاق والنعم، وهيأ السماء سقفاً محفوظاً ورزقاً كريماً من المياه التي تخرج بها ثمرات الأرض ويرزق بها دوابَّها، فتزهو أنواع النبات أزواجاً، وترتع بها أصناف الحيوان أفواجاً.

وإذا كان الله تعالى هو رازق البشرية وجب عليهم إفراده وحده سبحانه بالشكر والعبادة؛ من أجل ذلك ينهى عباده عن الإشراك به باتخاذ المعبودات غيره، كصرف العبادة للبشر من الأنبياء والصالحين، وللحجر من القبور والأصنام، وللبقر من الأنعام، فكل ذلك فيه ارتكاب لأعظم الجرائم، ألا وهي جريمة الشرك، وأنتم ذوو علم بما تزعمون، فهم يدركون أن الله الخالق المنعم هو الذي يستحق العبادة وحده. وقد صحَّ عن ابن مسعود ﷺ أنه سأل النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك».

(صحيح البخاري: تفسير سورة البقرة، برقم ٤٤٧٧. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٩٠ برقم ٨٦).

٢٣- ثمَّ يؤكد سبحانه أَمْرَ إفراد العبودية له، فيخاطب مشركي مكة الذين كذَّبوا الصادق المصدوق ﷺ، فيتحدَّاهم وفيهم أساطين البلاغة وأمراء البيان، إذا كانوا يشكُّون في صدق النبي ﷺ في نزول القرآن الكريم عليه، فليؤلفوا ويَصيغوا مثل هذا القرآن ولو سورة واحدة، بل فليستعينوا بآلهتهم المزعومة من دون الله تعالى لعمل ذلك إن كانوا صادقين، وهو مستحيل إذ يُبَلِّغهم سبحانه بالنتيجة بأنهم لم يقدروا على ذلك، ولن يقدروا مستقبلاً، مهما بذلوا من الجهد والكد، ثمَّ يحذِّرهم من العقاب على جرمهم الكُبَّار، إنه النار المركبة من حجارة الكبريت وأكوام اللحوم والشحوم من أجساد الكفار التي تسيل منها الدهون، فتُسَعَّر تلك النيران، وتتصاعد منها أعمدة الدخان.

٢٤-٢٥- وإذا كان هذا الإنذار للمكذبين والجاحدين بالله تعالى والآخرة، فإنَّ المؤمنين المصدقين بالله تعالى ورسوله ﷺ لهم البشرى، ولما ذكر المبشِّر أتبعه المبشَّر به فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: متعددة، ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يبشرهم بالبساتين المكتظة بالأشجار التي تجري تحتها الأنهار ذات الثمار التي تشبه ثمار الدنيا باللون والشكل، لكنها تختلف في الطعم والحجم. ومع هذا النعيم المقيم لهم ما يؤنسهم من الأزواج المطهرة من كل أذى ومستقذر، ولقد استجاب الرسول الكريم ﷺ لهذا الأمر وبشر الناس بالجنة وسعادة الدارَين، وكتب الترغيب حافلة بالبُشريات النبوية.

الفوائد والاستنباطات:

١- قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هو أول أمر في القرآن الكريم فيه الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده بأسلوب تربوي يعتمد على إيقاظ الفطرة بتذكيرها بخالقها ومربيها والمنعم عليها.

٢- في الآية (٢١) ربط العمل بالغايات القريبة والبعيدة، وهو أقوى ربط في التربية على الطاعات والثبات عليها؛ فأما الغايات القريبة فهي عبادة الله تعالى ومعرفته بأفعاله وأسمائه وصفاته، وأما الغايات البعيدة فهي نيل رضاه ورؤية وجهه سبحانه والفوز بالجنة.

٣- وفي هذه الآية أيضاً: استعمال الأساليب التربوية الثلاثة؛ الإقناع والتأثير وإيقاظ الفطرة، فالدعوة إلى التأمل في خلق الإنسان وفي الاعتبار في ما أنعم الله على عباده مما في السموات والأرض إيقاظ للفطرة لتعود إلى ربها الحق، وفي إعلان التحدي لِـمَنْ يأتي بمثل القرآن إقناع للعقل باستحقاق الله لعبادته دون غيره، وفي تخويف الله عباده باتقاء النار. وكلما نوَّع المربي في الأساليب وعدَّدها كان ذلك أفضل في التأديب والتنشئة الطيبة.

٤- توحيد العبودية سبب للوصول إلى درجة التقوى للنجاة من العذاب ونيل الثواب.

٥- القرآن معجز؛ ولهذا تحدَّى الله تعالى المشركين أن يأتوا بأقصر سورة من القرآن كسورة الكوثر.

٦- النهي الشديد عن الشرك بالله تعالى.

٧- تعتبر الثمار كالأرحام الحاوية للأجنة أو البذور، فالثمرات أرحام النباتات والبذور أجنتها، والثمرات تحتوي على البذور الجديدة التي تضمن استمرار وجود النوع النباتي، ولولا فَضْلُ الله ثم الثمرات لانقرضت أنواع النباتات من الكون. (علم النبات في القرآن الكريم: السيد عبد الستار المليجي، ص ٣١).

٨- بشرى المؤمنين بجنات النعيم.

٩- وجوب عبادة الله وحده.

١٠- الأصل في الأشياء والنعم الإباحة إلا ما حرم الله تعالى.

١١- ورُتِّبت هذه النعم الدالة على الخالق، الداعية إلى شكره أحكمَ ترتيبٍ، فقد قدَّم الإنسان لأنَّه أعرف بنفسه والنعمة عليه أدعى إلى الشكر، وثَنَّى بمَنْ قبله لأنَّه أعرف بنوعه، وثَلَّث بالأرض؛ لأنَّها مسكنه الذي لابُدَّ له منه، وربَّع بالسماء لأنَّها سقفه، وخمَّس بالماء؛ لأنَّه كالأثر والمنفعة الخارجة منها وما يخرج بسببه من الرزق.

١٢- الترهيب من النار، فهي جاهزة لعقاب أهلها.

١٣- الزوجات في الجنة خالية من أيِّ قذارة.

١٤-اقتران ذكر السماء بالأرض تكرر كثيراً في القرآن إشارة إلى اشتراك السماء والأرض في الخلق، فهما كانتا متصلتين ثم فُصِلَتا كما في قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [التوبة: ٣٦].

وينظر المزيد في: سورة التوبة في الآية (٣٦).

١٥-وردت البشرى بعد ذكر جزاء الكفار؛ للدلالة على أن العمل يُجزى بمثله، وهذا غاية العدل الرباني.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

٢٦- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن الحسن بن أبي الربيع قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة قال: لما ذكر الله تبارك وتعالى العنكبوت والذباب قال المشركون: ما بالُ العنكبوت والذباب يُذكَران؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

ثم قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقتادة. والإسناد إلى قتادة حسن، وكون هذا السبب رُوي من طرق أخرى فإن هذه الطرق المرسلة يقوي بعضها بعضاً. (يُنظر: التفسير الصحيح ١/ ١٢٨).

التفسير:

إنَّ الله تعالى لا يخشى أن يُشبِّه شيئاً بشيء، ولو كان تشبيهاً بأصغر شيء كالبعوضة وما دونها، مما ضربه الله مثلاً لَعَجَزَ كل ما يُعبد من دون الله تعالى، فأما المؤمنون فيُصَدِّقون، ويعلمون حكمة الله تعالى في التشبيه بالصغير، وغيره من خلقه، وأما الكفار فيستنكرون مراد الله تعالى من ضرب المثل بهذه المخلوقات الصغيرة، ورَدَّ الله تعالى عليهم بأن المراد هو الاختبار؛ لذلك يَصْرِفُ الله تعالى بهذا المثل ناساً كثيرين عن الحق؛ لاستنكارهم له، واعتراضهم عليه، ويُوَفِّق به غيرهم إلى مزيد من الإيمان والهداية. والله تعالى لا يصرف عن الحق إلا الخارجين عن طاعته.

٢٧- ومن صفات هؤلاء الكفار: أنهم ينكثون عهد الله الذي أخذه عليهم بأن يؤمنوا به ويطيعوه، وأنهم يخالفون أوامره، ومنها: قَطْعُ الأرحام، ومقاطعة الرسول ﷺ، ونشر الفساد في الأرض. أولئك هم الذين حرموا أنفسهم من الحياة الطيبة في الدنيا، والجنَّة في الآخرة.

٢٨- ومن أجل ذلك الكفر أنكر الله تعالى على الكفَّار موبِّخاً لهم: كيف يقع منكم الجحود بالله الذي أوجدكم من العدم، ثمَّ يميتكم بعد انقضاء آجالكم، ثمَّ يعيدكم أحياء يوم البعث، ثمَّ ترجعون لنيل الثواب أو العقاب؟

٢٩- ومن نِعَمِ الله تعالى عليكم أيُّها الناس: أنَّه هو الذي خلق لأجلكم كلَّ ما في الأرض من النِّعم التي تنتفعون بها، ثم قصد إلى خلق السموات السبع، فأتمَّهنَّ على أحسن وجه، وهو قد أحاط بكل شيء علماً.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الإيمان بأي مثل يذكر في القرآن الكريم، وتقرير البعث.

٢- قال الحرالي: «ولما كان ضرب المثل متعلقاً بمثل وممثل كان الضرب واقعاً عليهما، فكان لذلك متعدياً إلى مفعولين: مثلاً ما وبعوضة». (ينظر: نظم الدرر: ١/ ٧٦).

٣- النص القرآني يفيد أن أنثى البعوض وحدها هي الناقلة للأمراض، ومن ثَمَّ كانت مناط التحدي. تعبير ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ يشمل المعنيين المتضادين معاً أي ما يفوقها ضآلة في الحجم حتى لا يُرى بالعين المجردة، وما يفوقها ضخامة في البنيان. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٧٤-١٧٩).

٤- تحريم نقض المواثيق.

٥- تحريم قطيعة الأرحام.

٦- إثبات صفة الاستواء لله تعالى.

٧- نِعَمُ الله كثيرة عظيمة، ويجب أن تقابل بالشكر، وأعظم شكره عبادته وحده.

٨- إثبات صفة العلم لله تعالى، وأنه يعلم كل شيء، ولا غرابة فإنه خالق كل شيء، والإيمان بإثبات هذه الصفة العظيمة ترتقي بحياة المؤمن؛ لأنه يجب عليه أن يراعي ذلك في أقواله وأفعاله. وهذا من ثمرات الإيمان بهذه الصفة الكريمة، فعلى المؤمن الذي يثبت هذه الصفة أن يراقب الله تعالى في السرِّ والعلن، وفي القول والعمل.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

٣٠- واذكر - أيُّها الرسول - للعباد حين قال ربُّك للملائكة عليهم السلام: إني خالق في الأرض قوماً يخلف بعضهم بعضاً لعمارتها. ثم سألتْ الملائكة الله تعالى عن الحكمة من خلق هؤلاء مع أنَّه فيهم مَنْ يفسد في الأرض بأنواع المعاصي، ويسفك الدماء بغير حق، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نَذْكُرُك، ونُعَظِّمك، ونُنَزِّهك عن كلِّ نقص. فأجابهم الله تعالى: بأنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة من الحكمة في خلق هذا الصنف.

٣١- ولما أعلم سبحانه الملائكة أنَّ الأمر على خلاف ما ظَنُّوا، شرع في إقامة الدليل عليه، فقال عاطفاً على قوله (قال): ﴿وَعَلَّمَ﴾ أي: لإقامة الدليل على ذلك. فعلَّم اللهُ تعالى آدمَ ﷺ أسماء الأشياء كلِّها، فعَلَّمه الاسم والمسمَّى، ثمَّ عرض المسمَّيات على الملائكة قائلاً لهم: أخبروني بأسماء هذه المسمَّيات، إن كنتم صادقين في أنَّكم أولى بالاستخلاف في الأرض منهم.

٣٢- أجابت الملائكة بكل أدب وتعظيم: إننا نُقَدِّسك، وننزِّهك من الاعتراض عليك، ليس لنا عِلْمٌ إلا ما علمتنا إياه، إنك أنت وحدك العليم بشؤون خلقك، الحكيم في أقوالك وأفعالك.

٣٣- حين ذلك أمر الله تعالى آدم أن يخبر الملائكة بأسماء هذه الأشياء التي لم تعرفها الملائكة، فلما أخبرهم آدم بها قال الله للملائكة: ألم أخبركم أني أعلم ما خَفِيَ عنكم في السموات والأرض، وأعلم ما تُظْهرونه وما تُخْفُونه؟!

٣٤- واذكر - أيُّها الرسول - للعباد كيف كرَّم الله تعالى آدم وفَضَّله؟ حين أمر الملائكة أن يسجدوا له تكريماً له، فأطاعوه جميعاً إلا إبليس امتنع عن السجود، وأظهر كبره، فصار من العاصين لأمر الله تعالى، وهذا الأمر بالسجود قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

الفوائد والاستنباطات:

١ - فَضْلُ آدم عليه السلام وذريته في جعله خليفة في الأرض.

٢ - عداوة إبليس لآدم عليه السلام وذريته منذ خلقه.

٣ - بيان فضل العلم، ومكانة العلماء.

٤ - سؤال الملائكة لله تعالى سؤال استفهام، وليس سؤال اعتراض.

٥ - قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ يُستنبط منه أنه سبحانه خلق آدم، ثم عَلَّمه، وجاءت تسمية آدم من عند الله تعالى، فكما هو أول مخلوق من البشر فكذلك ترتيب اسمه بين الأسماء، إذ يتصدَّر الأسماء كلها دائماً في كل معجم وفي كل فهرس.

٦ - صحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً.. فكلُّ مَنْ يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يَزَلِ الخلق ينقص حتى الآن». (صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب خلق آدم، برقم ٣٣٢٦. وصحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، ٤/ ٢١٨٣ برقم ٢٨٤٠. واللفظ للبخاري).

٧ - فَضْلُ آدم عليه السلام وشَرَفُه بما علَّمه الله تعالى.

٨ - تقرير قدرة الله تعالى في تعليمه آدم أسماء الموجودات.

٩ - السجود الذي أمر الله به الملائكة أن يسجدوا لآدم هو تكريمه طاعةً لله وامتثالاً لأمره.

١٠ - الإشارة إلى اعتقاد إبليس أنه أفضل من آدم.

١١ - الملائكة لا تعلم الغيب.

١٢ - جاءت تسمية آدم من عند الله تعالى، فكما هو أول مخلوق من البشر، وكذا ترتيب اسمه بين الأسماء يتصدَّر الأسماء دائماً في كل معجم وكل فهرس.

١٣ - قال الشيخ الشنقيطي عند الآية (٣٤) : «لم يبيِّن هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بَيَّنه في مواضع أخر كقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢]».

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣٥- وأكرم الله تعالى آدم بأن يسكن هو وزوجته حواء الجنة، وأن يتمتعا بثمارها هنيئاً واسعاً في أيِّ مكان يشاءان فيها، وألَّا يقربا الشجرة التي نُهيا عنها حتى لا يقعا في المعصية، فيكونا من المخالفين لأمر الله تعالى.

٣٦- فلمَّا رأى الشيطان ذلك التكريم قام يوسوس لهما حتى أكلا من الشجرة، فأوقعهما في المعصية، فتسبَّب في إخراجهما من الجنة، فأمر الله تعالى أن يهبطوا إلى الأرض، وأخبرهم بما سيقع بينهم من العداوة وكيد الشيطان لهم فيها، وجعل لهم في الأرض قراراً وأرزاقاً إلى وقت انتهاء الأجل.

٣٧- فتلقَّن آدمُ كلماتٍ ألهمه الله تعالى إياها توبة واستغفاراً، فتقبَّلَ منه، وغفر له. إنه تعالى هو التوَّاب على مَنْ تاب من عباده المذنبين، الرحيم بهم برحمته الواسعة.

٣٨- ثمَّ أمر الله تعالى بهبوطهم جميعاً من الجنَّة، وبَشَّرهم وذرياتهم المتعاقبة بأنَّه ستأتيهم الهداية إلى الحق، فمَنْ عَمِلَ بها لم يُصِبْه فزع ولا ندم ولا حسرة.

٣٩- والذين كذَّبوا بآيات الله وبراهينه فأولئك مصيرهم النار، يلازمونها ماكثين فيها، لا يخرجون منها.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير خَلْقِ الله الجنة وأنها موجودة.

٢- بدء خلق آدم وحواء في الجنة. وقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ يوحي أن حواء قد خُلِقَتْ. وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن خَلْقِها، كما صح عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «استوصُوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضلع، وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذَهَبْتَ تُقيمه كَسَرْتَه، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء». (فتح الباري - أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته برقم ٣٣٣١، وصحيح مسلم - الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ٦٠. واللفظ للبخاري. قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: قيل فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل: من ضلعه القصير).

٣- التحذير من إغواء إبليس وجنده.

٤- رحمة الله بعباده بقبول التوبة النصوح.

٥- شدة عداوة الشيطان لآدم عليه السلام.

٦- تقرير عاقبة المعصية التي أخرجت آدم من الجنة كما قال ﷻ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

٧- وجوب التوبة من الذنب الذي يرتكبه العبد.

٨- معصية الله والخروج على أمره سبب لشقاء الإنسان.

٩- قبول الله تعالى توبة التائب توبة نصوحاً.

١٠-عداوة الشيطان للإنسان عداوة قديمة؛ ولذا على المسلم ألَّا يستجيب لوساوسه، وأن يبتعدَ عن طريقه.

١١-علاج الوسوسة الاستعانة بالله، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

١٢-في الآية (٣٨) إخبار عن أمان المهتدين في الماضي والمستقبل.

١٣-الكلمات التي تَلَقَّاها من ربه هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] كما صحَّ عن قتادة فيما رواه عبد الرزاق عن معمر عنه. (التفسير ١/ ٣٥).

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ
فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ
رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٠- يُنادي الله تعالى بني إسرائيل، وهم ذريَّة يعقوب عليه السلام - وهو نبي الله تعالى - أن اذكُروا نِعَمي الكثيرة عليكم، وأتمُّوا وصيتي لكم بأن تؤمنوا بالرسل وإقامة الشريعة، فإن قمتم بذلك فسأجازيكم بسعادة الدنيا والآخرة، وإياي وحدي فخافوني.

٤١- وآمنوا بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ موافقاً لما نزل من التوراة، ولا تكونوا من السباقين بالكفر به، ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي بالدنيا وشهواتها، وإياي وحدي فخافوني، فاعملوا بطاعتي، واتركوا معصيتي.

٤٢- ولا تخلطوا الحق من الله بالباطل من عندكم، ولا تُخفوا الحق، ومنه البشارة الواضحة في كتابكم ببعثة النبي ﷺ، وصفته، وأنتم تعلمون أنه نبي حق.

٤٣- وأقيموا الصلاة المفروضة على المسلمين، وأدُّوا الزكاة الواجبة للمستحقين، وصَلُّوا مع جماعة المسلمين، واركعوا معهم بصدق ويقين.

٤٤- كيف تأمرون الناس بالعمل الصالح، وتتركون أنفسكم يا أحبار اليهود، وأنتم تقرؤون التوراة التي تنهى عن ذلك؟! أفلا تدركون سوء عملكم؟

٤٥-٤٦- واطلبوا العون من الله تعالى بواسطة الصبر بأنواعه وبالصلاة، وإنَّ هذه الصلاة لَثقيلة إلا على الذين يخافون الله تعالى، الذين يوقنون أنَّهم سيلاقون الله تعالى بعد موتهم، وأنَّهم مبعوثون يوم القيامة للثواب والعقاب.

٤٧- يُنادي الله تعالى ذرية يعقوب عليه السلام: أن اذكُروا نِعَمي الكثيرة عليكم، ومنها: تفضيلكم على العالمين في زمانكم.

٤٨- واحذروا يوم القيامة، وهو يوم لا تُغني فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا يقبل الله شفاعةً في الكافرين، ولا تنفعهم الفدية، ولو كانت تساوي أموال الأرض جميعاً، ولا يستطيع أحد أن ينقذهم من عذاب نار جهنَّم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تذكير بني إسرائيل إكرامَ الله لهم.

٢- التحذير من خلط الحق بالباطل.

٣- إسرائيل هو يعقوب نبيُّ الله ﷺ، كما ثبت عن ابن مسعود ﷺ فيما رواه عبد بن حميد بسنده عنه، وحَسَّنه الحافظ ابن حجر. (فتح الباري ٦/ ٣٧٣).

٤- وجوب الوفاء بالعهد مع الله بطاعته، والعهد مع عباده في أمور دنياهم.

٥- تحريم كتمان الحق، كما قال ﷻ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا تشديد في الإثم، وقال في كتمانه الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٦- فضيلة الاستعانة بالصبر، فقد أمر الله عباده أن يصبروا على ما يلاقونه في جهادهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة، كما أمرهم بذلك رسول الله ﷺ، فكان إذا نزل به أمرٌ فَزَعَ إلى الصلاة.

٧- فضل بني إسرائيل على أهل زمانهم.

٨- الصلاة تخفف وطأة المشاكل، كما ثبت عن النبي ﷺ عن حذيفة: كان إذا حَزَبَه أمرٌ صلى. (أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ بالليل برقم١٣١٩، وحسَّنه الألباني، صحيح الجامع الصغير ٤/ ٢١٥).

٩- وجوب تقوى الله تعالى.

١٠- المؤمن الصادق هو الذي وافق قوله عمله، فلا يقول ما لا يفعل.

١١- من الكبائر أن يأمر الرجل بالمعروف ولا يقوم به، وأن ينهى عن المنكر ويأتيه، فقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أيْ فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». (صحيح البخاري- بدء الخلق، باب صفة النار برقم ٢٩٨٩. وصحيح مسلم- الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله برقم ٢٩٨٩. واللفظ للبخاري).

١٢- المراد بالتفضيل على العالمين أي: عالم أهل زمانهم، كما صحَّ عن قتادة فيما رواه عبدالرزاق عن معمر عنه. (التفسير ١/ ٣٥).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ
وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾
ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ
قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم
مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ
كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٤٩- يُذكِّر الله تعالى ذريّة يعقوب ﷺ بنعمه الكثيرة عليهم، كما في الآيات الثلاث عشرة الآتية، وذلك حين أنقذ آباءهم من ظُلم فرعون وأعوانه الذين كانوا يذيقونهم أشد التعذيب، فهم يقتلون الذكور، ويتركون الإناث أحياء للخدمة والامتهان. وفي هذا العذاب المهين اختبار عظيم من خالقهم الحكيم.

٥٠- واذكروا حين شققنا لكم شمال البحر الأحمر حتى صار طريقاً يابساً؛ لتسيروا فيه، فتتخلصوا من الإبادة، واذكروا حين أغرقنا فرعون وأتباعه وأنتم ترونهم وهم يغرقون. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يُبيِّنْ هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بيَّنها في مواضعَ أُخرَ كقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٠ – ٦٤]». (أضواء البيان: ١/ ١٣٨).

٥١- واذكروا حين وعد الله تعالى موسى عليه السلام عند جبل الطور - يقع في صحراء سيناء شمال البحر الأحمر - بعد أربعين ليلة لإعطائه التوراة، فلما عاد وجدكم قد عبدتم العجل، وأنتم ظالمون لأنفسكم بهذا الشرك.

٥٢- ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة من بعد عبادتكم العجل؛ كي تشكروا الله تعالى بالقول والفعل.

٥٣- واذكروا حين أنزلنا على نبيّكم موسى عليه السلام التوراة التي يُفَرِّقُ بها بين الحقِّ والباطل؛ كي تسترشدوا بنوره وهديه.

٥٤- واذكروا حين قال موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل: إنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة العجل، فتوبوا إلى خالقكم، بأن يقتل بعضكم بعضاً. وهذا خير لكم من عذاب النار في الآخرة، فأطعتم الأمر، فتقبَّل الله تعالى توبتكم. إنه تعالى كثير التوبة على عباده، واسع الرحمة بهم.

٥٥- واذكروا حين قلتم لنبيكم موسى: لن نُصَدِّقَك في دعوتك لنا إلى غاية أن نرى الله علانية. ففاجأناكم بنار محرقة من السماء رأيتموها عياناً، فأهلكتكم بغتة.

٥٦- ثمَّ أحييناكم - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - من بعد موتكم بالنار المحرقة؛ كي تشكروا الله تعالى بالقول والفعل.

٥٧- وجعلنا السحاب مظللاً عليكم؛ ليقيكم حرَّ الشمس، وأنزلنا عليكم طعاماً حلواً، وطيراً شهياً، كُلوا مما لذَّ من الطعام الحلال الذي رزقناكم إياه، وما ظلمونا بجحودهم النعم، وإنما ظلموا أنفسهم؛ لأنَّ ضرر العصيان واقع عليهم بالنِّقم.

٥٨- يُذَكِّر الله تعالى ذريَّة يعقوب عليه السلام حين قال لآبائهم: ادخلوا بيت المقدس، فكلوا وتمتعوا مما فيها من النِّعم كما تشاؤون عيشاً واسعاً، وادخلوا باب بيت المقدس مُنْحَنين متذلِّلين لله تعالى، واسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، فمَنْ يفعل ذلك نستجب له، وسنزيد أرباب الإحسان ثواباً وتكريماً.

٥٩- فغيَّر المعتدون منهم أمر الله تعالى، إذ دخلوا زحفاً على مؤخِّرة أجسامهم دون انحناء، ولم يسألوا الله تعالى المغفرة، وإنما قالوا: (حَبَّة في شَعْرة) استهزاءً بأمر الله تعالى، فكان الجزاء أن نزَّل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى، وهذا العذاب هو الطاعون.

(كما في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، برقم ٣٤٧٣).

الفوائد والاستنباطات:

١- الرعاية الربانية لعباده المؤمنين.

٢- تقرير الإيمان بالتوراة التي أعطيت موسى ﷺ.

٣- تقرير عقوبة العصاة والظالمين، وقبول توبة التائبين.

٤- نَجَّى الله بني إسرائيل في يوم عاشوراء، كما صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نَجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه. (صحيح البخاري- الصيام، باب صيام يوم عاشوراء برقم٢٠٠٤. وصحيح مسلم- الصيام، باب أي يوم يصام عاشوراء. واللفظ للبخاري).

٥- تحريم الشرك بالله تعالى وشدة عقوبته.

٦- الطاعة سبب للمغفرة وزيادة الحسنات.

٧- معجزة موسى ﷺ في انفلاق البحر، ونجاته مع قومه.

٨- بَيَّنَ النبي ﷺ مخالفة بني إسرائيل القولية والفعلية عند دخولهم الباب، فقد صحَّ عنه أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حِطَّة حبة في شعرة. (صحيح البخاري- تفسير سورة البقرة برقم ٤٤٧٩).

٩- ينظر: خارطة صحراء سيناء؛ لبيان مكان الغرق والنجاة في الملحق.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ
قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ
قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا
وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ
﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٠- واذكروا حين دعا موسى عليه السلام الله تعالى أن يسقي قومه من بني إسرائيل حينما احتاجوا إلى الماء، واشتدَّ بهم العطش في أثناء التيه في صحراء سيناء - الواقعة شمال البحر الأحمر - فاستجبنا له، إذ قلنا له: اضرب بعصاك الحجر ففعل، فأخرج الله تعالى من الماء اثنتي عشرة عيناً بعدد قبائلهم المعروفة بالأسباط، فعرفت كل قبيلة العين التي تشرب منها، وأباح لهم الطعام والشراب، ونهاهم عن السعي بالفساد والخراب.

٦١- واذكروا - يا ذرية يعقوب عليه السلام - حين بطر أجدادكم، إذ لم يصبروا على قلة أنواع النعم التي كانت تتنزل عليهم من دون تعب ولا نَصَب، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى بأن يرزقهم مما يخرج من نبات الأرض: من الخضر والبقول والقثاء والحنطة والعدس والبصل، فتعجَّب موسى عليه السلام من ذلك واستنكر عليهم، كيف تُفَضِّلون هذه الأصناف على تلك النعم التي تفضَّل الله بها عليكم؟! وأن هذه الأصناف التي طلبتموها متوافرة في كل مدينة، فإذا دخلتم أي بلدة فيها زراعة فستجدون مُرادكم. وبسبب هذا البطر والعناد عُوقبوا بالذِّلة، وفقر النفوس، وبغضب من الله تعالى؛ لأنهم يُكَذِّبون بآيات الله تعالى، ويقتلون الأنبياء ظلماً، وذلك بسبب التمرد على أوامر الله تعالى، والاعتداء على الحقوق.

٦٢- إنَّ الذين صَدَّقوا الله ورسوله، واليهود والنصارى والذين خرجوا عن دين اليهود والنصارى هؤلاء إذا صَدَّقوا بالله واليوم الآخر، وقاموا بالأعمال الصالحة، فلهم ثواب إيمانهم وعملهم، ولا يعتريهم خوف من عقاب. وهؤلاء الذين كانوا قبل البعثة النبوية، أما ما بعد البعثة فإنهم مأمورون بأن يؤمنوا بالنبي ﷺ.

٦٣- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من خيانة اليهود في نَقْضهم للعهود، وتَعَنُّتهم اللدود، ومكرهم بأولياء الله، وتحريفهم لكلام الله، كما في الآيات الثماني عشرة الآتية: واذكروا ياذريّة يعقوب حين أخذنا عليكم العهد المغلظ زمن موسى، واقتلعنا جبل الطور، وجعلناه فوقكم كالظلة تهديداً وتخويفاً؛ لتعملوا بما في التوراة بكل هِمَّةٍ وامتثال، ولتقرؤوا ما فيها، كي تَصُونوا أنفسكم من العقاب، وتفوزوا بالثواب.

٦٤- ثم إنكم أعرضتم بعد ذلك العهد والتهديد، فلولا تدارُكُكم بلطف الله تعالى، وتأخيره العذاب عنكم، لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٦١) إخبار عن ذِلَّة اليهود في الماضي والمستقبل ومَسْكَنَتِهم، ومن هذه الأدلة حرصهم الشديد على الحياة الدنيا.

٢- في الآية (٦٢) إخبار عن أمر مستقبلي، وبشرى لجميع الأديان في المستقبل إذا آمنوا، فلهم أجرهم عند الله تعالى.

٣- العقوبة في الدنيا موعظة للأُمم.

٤- استجابة الله تعالى لموسى ؑ.

٥- التحذير من مؤامرات الاعتداء من اليهود.

٦- عدم انتفاع اليهود بالمعجزات والتهديدات.

٧- عقوبة المسخ إلى قردة على الحقيقة وليس على المجاز، وهو المسخ الذي أخبر به النبي ﷺ. وفيه الرد على نظرية دارون أن أصل الإنسان قرد.

٨- ينظر: خريطة سيناء؛ لبيان مدينة إيلات كما في الملحق.

٩- الآية (٦٢) منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقد ورد نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الطبري وابن أبي حاتم عنه بسند ثابت. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ١٦٩).

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا
نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن
تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن
لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ
﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ
جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- قسماً لقد علمتم جريمة أسلافكم في مدينة (إيلات) - وتقع شمال البحر الأحمر في خليج العقبة- هؤلاء الذين تجاوزوا أمر الله تعالى حين نهاهم عن صيد السمك يوم السبت، لكنهم خالفوا، فعاقبهم بالمسخ في الدنيا إلى قردة أذِلَّة. وهذا المسخ حقيقة لا مجاز.

٦٦- فجعلنا عقوبة المسخ في مدينة (إيلات) عبرة لِـمَنْ عاصرهم، ولِـمَنْ يأتي بعدهم، وتذكرة للذين يخافون العقاب، ويرجون من الله الثواب.

٦٧- واذكروا حين قال موسى لقومه من بني إسرائيل: إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة؛ وذلك لكشف معرفة القاتل الذي قتل رجلاً منهم، إذ طلب منهم أن يذبحوا أيَّ بقرة، ولكنهم تَشَدَّدُوا واستنكروا على نبيهم موسى مستكبرين: أتسخر منا يا موسى؟ فردَّ عليهم قائلاً: أعتصم وأستجير بالله أن أكون من السفهاء الجهلة الذين يستهزئون بعباده.

٦٨- لكنهم كَرَّروا تعنُّتهم، فقالوا: اسأل ربك أن يبيِّن لنا صفة تلك البقرة، فأجابهم بأنَّ الله تعالى أخبرني بأنها ليست مُسِنَّة، ولا صغيرة، بل وسط بينهما، فنفِّذوا ذلك الأمر.

٦٩- ثم تمادَوا في تَعَنُّتهم، فقالوا: اسأل ربك أن يبيِّن لنا لونها، فأجابهم بأنَّها بقرة صفراء شديدة الصفرة تبهج الناظر إليها، لصفاء لونها وحسنه.

٧٠- ثم لَـجُّوا في تشددهم، فطلبوا من موسى أن يسأل الله ليبيِّن لهم صفات أخرى؛ لأنَّ جنس البقر تشابه عليهم، وأنهم سيهتدون إلى معرفة البقرة بمشيئة الله تعالى.

٧١- فأجابهم موسى بأن الله تعالى يقول لكم: إنها بقرة لم يُذِلَّها العمل، ولا تُستخدم في سقي الزرع كالدواب النواضح المستعملة لإخراج المياه من الآبار، وسليمة من العيوب، لا لون فيها يخالف سائر جسدها. قالوا: الآن جئت بالبيان الواضح. فبحثوا عن بقرة فذبحوها، وقد قاربوا ألا يفعلوا ذلك لندرة وجود مثل هذه البقرة، وخوفاً من الفضيحة بكشف القاتل.

٧٢- واذكروا حين قتل أحدكم رجلاً منكم فاختلفتم فيمَنْ هو القاتل؟ والله تعالى مُظْهِرٌ ما تُخفون من أمر القتل.

٧٣- فأمرنا أن يُضرب القتيل بأحد أعضاء البقرة المذبوحة، فضربوه فأحياه الله، وأخبر بقاتله، وهكذا يحيي الله الموتى بقدرته، ويُريكم علاماته الدالة على كمال قدرته؛ كي تتفكروا بعقولكم، وتُذْكِروا قدرة الله على البعث.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من جرائم اليهود.

٢- تشديد اليهود سبب في تشديد الله عليهم.

٣- تقديم السؤالات على بيان سبب ذبح البقرة هو تأكيدٌ لتَشَدُّد اليهود، وتَعَنُّتِهم.

٤- سوء أدب اليهود مع رسول الله موسى عليه السلام بقوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

٥- فضح اليهود في دسائس القتل.

٦- الإيمان بالبعث بأن الله تعالى يحيي الموتى.

٧- قال الشيخ الشنقيطي في قصة أهل السبت: «أجملَ قصتهم هنا وفصَّلها في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ – ١٦٥]».

٨- ينظر: خارطة موقع مدينة إيلات في الملحق.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٤- وبعد رؤية هذه الآيات الواضحات لم تُذْعنوا ولم تستجيبوا، مما أدّى إلى قسوة قلوبكم، إذ لم تؤثر فيها الموعظة، فهذه القلوب لم تَلِنْ، ولن تخشع، فهي مثل الصخرة، بل هي أشد قسوة منها؛ لأن الصخور تتأثر، وبعضها يخرج منه المياه الكثيرة فتجري أنهاراً، وبعضها يتصدَّع فتخرج منه العيون، وبعضها يهوي من أعالي الجبال خوفاً من الله تعالى، وليس الله بغافل عما تعملون، بل هو عالم به.

٧٥- أفترجُون - أيُّها المؤمنون - أن يُصَدِّقكم اليهود، ويَدْخُلوا في دينكم؟ وثمة طائفة من أحبارهم كانوا يسمعون كلام الله في التوراة وما فيها من الأحكام، ثمَّ يتعمَّدون تغييره من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنَّهم يرتكبون الإجرام بتحريف الكلام.

٧٦- وإذا لَقِيَ منافقو اليهود الذين صَدَّقوا بالله ورسوله قالوا: صَدَّقْنا أن محمداً رسول الله، وإذا انفرد بعضهم ببعض قالوا عاتبين ومستنكرين عليهم: أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ؛ لتكون الحجة للمؤمنين عليكم يوم القيامة؟ أفليس لكم عقول تمنعكم من ذلك الحديث، وترفع عنكم الملامة؟!

٧٧- أولا يعلم هؤلاء اليهود الضالُّون أنَّ الله تعالى يعلم ما يخفون من الكفر، وما يظهرون من الإيمان المكذوب؟

٧٨- ومن هؤلاء اليهود طائفة من الجهلة العوامِّ الذين لا يعلمون القراءة والكتابة، ولا يعرفون من التوراة سوى سماع الأكاذيب والظنون الفاسدة.

٧٩- يُهَدِّد الله تعالى، ويتوعَّد بالهلاك لهؤلاء الذين يحرِّفون التوراة، ويزعمون أنَّها منزَّلة من عند الله تعالى؛ لينالوا به عرض الدنيا. وهذا الوعيد بالهلاك بسبب تحريفهم التوراة، ويُؤكِّد ذلك التهديد؛ بسبب ما يجمعون من المال الحرام.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير شدة قسوة قلوب اليهود.

٢- الحجر الرملي هو الحجر الوحيد الذي تتوافر فيه شروط ثلاثة (يسمح للمياه أن تتحرك بداخله بسهولة ويسر - يسمح بتخزين كميات هائلة من المياه في جوف الأرض - تخرج المياه منه عذبة صالحة للشرب مكونة عيوناً عذبة). ويعتبر الحجر الجيري أكثر الصخور امتلاءً بالشقوق في العالم؛ لأنَّه الأقل قدرة على امتصاص الماء؛ لضيق المسام بين الحبيبات. (أسس علم الجيولوجيا: من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٢٥).

٣- عِظَمُ خطورة تغيير أحكام الله تعالى.

٤- فَضْحُ مؤامرات اليهود والتحذير من مكايدهم.

٥- شدة عقوبة الذين يتلاعبون بأحكام الله تعالى.

٦- فَضْحُ اليهود لخداعهم باستخدام منهج المنافقين.

٧- ينظر: صورة الأنهار التي تتفجر من الحجارة، كما في الملحق.

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ
هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ
وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

التفسير:

٨٠- وقالت طائفة مغرورة من اليهود للنبي ﷺ: لن ندخل النار إلا أياماً قلائل. فردَّ الله تعالى عليهم بأن يجيبهم النبيُّ ﷺ منكراً عليهم، ومبطلاً دعواهم: هل أعطاكم الله الميثاق بهذا؟ فإن الله لا يُخلف العهد، بل إنكم تفترون على الله الكذب.

٨١- ليس الأمر كما زعمتم، بل الحقُّ حكم الله تعالى: أنَّ مَنْ اقترف خطيئة، وتمادى في الوقوع في الآثام، كالشرك بالله، ولم يَتُبْ، فهؤلاء البعداء عن رحمة الله سبحانه من أهل النار ماكثون فيها أبداً.

٨٢- وأمَّا الذين صَدَّقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، وعملوا بذلك فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية أهل الجنَّة، هم فيها ماكثون، لا يخرجون منها أبداً.

٨٣- واذكروا يا ذريَّة يعقوب عليه السلام - لِما لنا من العظمة - حين أخذنا عليكم العهد المؤكد في التوراة، بأن تُوَحِّدوا الله سبحانه، وتُخْلِصُوا له العبادة، وأن تُحْسِنُوا بالوالدين إحساناً بالقول والفعل، وأن تُحْسِنُوا بأصحاب القرابة، والأولاد الذين فقدوا آباءهم ولم يبلغوا الحلم، وبالمساكين الذين أسكنتهم الحاجة، ولا يملكون ما يغنيهم، وأن تقولوا للناس أطيب الكلام، وتُؤَدُّوا فرض الصلاة في وقتها والزكاة لمستحقيها، ثمَّ أعرضتم ورفضتم ذلك الميثاق إلا نفراً قليلاً أوفَوا به، وأنتم مستمرون في إعراضكم.

٨٤- واذكروا حين أخذنا عليكم العهد المؤكد في التوراة ألَّا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يعتدي بعضكم على بعض بالطرد من داره، والإجلاء عن الأوطان، ثم اعترفتم بذلك الميثاق وأنتم تشهدون بلُزومِه وصحته.

٨٥- ثمَّ أنتم هؤلاء اليهود المعاصرون للعهد النبوي تنقضون ذلك الميثاق، فيقتل بعضكم بعضاً، ويطرد بعضكم بعضاً، متعاونين في ذلك مع غيركم بالبغي والظلم، وإذا وقع أحدهم في الأسر، وأراد أن يفدي نفسه بمال وافقتم على ذلك حسب حكم التوراة كما تزعمون، أفتُصَدِّقون وتعملون ببعض أحكام التوراة وتكذِّبون ببعض؟ ما أقبح هذا الفعلَ، فليس عقوبة مَنْ يفعل ذلك منكم إلا ذُلّاً وهواناً في الدنيا، وفي يوم القيامةِ يُلاقون أشد العذاب الموجع، وليس الله بغافل عن أفعالكم وجرائمكم، وسيحاسبكم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير المواثيق التي أخذت على بني إسرائيل ومخالفتهم لها.

٢- لا يتحقق الإيمان إلا بأخذ كل ما جاء من عند الله.

٣- التحذير من اليهود بأنَّ سفك الدماء والتهجير من شيمهم فيما بينهم، فكيف يكون المصير مع غيرهم؟

٤- التحذير مِنْ نَقْضِ اليهود للمواثيق؛ لأنَّهم نقضوا المواثيق الربانية، فمِنْ بابِ أَوْلَى نقض مواثيق الآخرين.

٥- وجوب الإيمان بكلِّ ما جاء من عند الله تعالى من غير تفريق.

٦- ثبوت العقاب لِـمَنْ يؤمن ببعض ما جاء من عند الله، ويكفر ببعضها الآخر.

٧- المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل كلها أحكام ترتقي بالمجتمع، وتحقق له الأمن، ولكنهم تركوها.

٨- اتفاق الأديان في التوحيد والأحكام.

٩- وجوب رعاية حقوق الخلق وحسن التعامل معهم بعد حَقِّ الله تعالى.

١٠-التنبيه على عِظَمِ جُرْمِ مَنْ قال على الله تعالى بغير علم، والتحذير منه، وأنَّه مسلك من مسالك اليهود وطباعهم المنحرفة.

١١-عدل الله تعالى في جزائه على خلقه، وإحسانه على عباده المؤمنين.

١٢-وجوب مراقبة الله تعالى في السرِّ والعلن، إذ هو سبحانه مُطَّلع على أعمال العباد غير غافل عنه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ
ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ
ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾
وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ
بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا
أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا
وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

٨٦- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة ﷺ: يامعشر يهود، اتقوا الله وأسلِمُوا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته. فقال سلام ابن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وماهو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

التفسير:

هؤلاء البعداء عن الحقِّ من اليهود الذين استحَبُّوا عَرَضَ الدنيا الفانية على نعيم الآخرة الباقية، فلا يفتَّر عنهم عذاب جهنم، وليس لهم ناصر ينصرهم من ذلك.

٨٧- وقسماً لقد أعطينا موسى عليه السلام التوراة، وبعثنا بعد ذلك جمعاً من الرسل، وأعطينا عيسى بن مريم المعجزات الباهرات، وعَزَّزناه وقَوّيناه بجبريل عليه السلام، ثمَّ يُوَبِّخ الله تعالى المستكبرين والقتلة من اليهود: أفكلَّما جاءكم رسول من عند الله يخالف شهواتكم ومعاصيكم استعليتم عليه، فطائفة منهم كذَّبتموهم، وطائفة قتلتموهم؟

أخرج ابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن مسعود ﷺ: «روح القدس جبريل».

٨٨- ولمَّا دعا النبي ﷺ اليهود إلى الإسلام رفضوا، وصَرَّحوا أنَّ قلوبهم لا تفقه؛ لأنها مغلقة ومغطاة تمنعهم من الاستجابة لدعوته. فرَدَّ عليهم الله تعالى: بأنَّ الله طردهم وأبعدهم من رحمته؛ بسبب تكذيبهم النبي ﷺ، فلا يؤمن منهم إلا القليل، أو يؤمنون قليلاً ببعض الكتاب.

٨٩- وحينما جاءهم النبي ﷺ بالقرآن من عند الله موافقاً لما معهم من التوراة قبل تحريفها، وكانوا قبل بعثة النبي ﷺ يستنصرون به على أعدائهم من المشركين، فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ جحدوا به وكذبوه، وبسبب ذلك استحقوا الطَّرد من رحمة الله تعالى.

٩٠- يذم الله تعالى كفرة اليهود الذين استحبوا لأنفسهم الباطل، ورَضُوا به، بتكذيبهم القرآن العظيم حسداً للنبي ﷺ والمؤمنين على نعمة إنزال القرآن الكريم، فاستحقوا العقوبة بغضب من الله تعالى يتلوه غضب؛ لكثرة جرائمهم، وللمكذبين عذاب أليم يُذِلُّهم.

٩١- وإذا دُعِيَ هؤلاء اليهود إلى الإيمان بالله تعالى، فإنَّهم يرفضون، ويزعمون أنهم يصدقون بالتوراة، ويكذِّبون بما أُنزل من الكتب بعد نزول التوراة، ولقد كَذَبوا على أنفسهم؛ لأنَّ ما نزل من القرآن العظيم حق موافق ومؤيِّد لما في التوراة قبل تحريفها، ويردُّ الله تعالى عليهم بأمر النبي ﷺ أن يستنكر عليهم بقوله: إذا كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم، فلماذا تقتلون أنبياءكم من قبل؟!

الفوائد والاستنباطات:

١- اليهود يعلمون رسالة رسول الله ﷺ.

٢- خسارة اليهود في الآخرة.

٣- قال الشيخ الشنقيطي في بيان البينات: «لم يبيِّنْ هنا ما هذه البينات؟ ولكنه بَيَّنها في مواضع أُخَرَ كقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾» [آل عمران: ٤٩].

٤- ينظر: صورة شجرة المرسلين؛ لبيان الرسل من بعد موسى، كما في الملحق.

٥- المؤمن الحق هو الذي لا يستبدل بدينه عَرَضاً من الدنيا الزائلة.

٦- اتِّباع هوى النفس سبيل للاستكبار عن الحق، ورَدُّه مع ظهور الحجَّة والبرهان.

٧- التنبيه على ذمِّ الحسد، وأنَّه من طبائع اليهود، والتحذير من الاتِّصاف به بسوء عاقبته في الدارين.

٨- تراكم السيئات وتتابعها دون التوبة والرجوع عنها مدعاةٌ لتتابُعِ غضب الله تعالى على أهلها.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

التفسير:

٩٢- قسماً لقد جاءكم موسى عليه السلام بالمعجزات الواضحات، ثم عبدتم العجل من بعد غياب موسى، حينما ذهب إلى جبل الطور في صحراء سيناء، وأنتم بذلك ظالمون لأنفسكم ولغيركم بتجاوزكم لحق الله تعالى.

٩٣- واذكروا حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ثم نقضتم العهد، فهددناكم برفعنا لجبل الطور الذي جعلناه كالظلة فوق رؤوسكم، وأمرناكم أن تعملوا بالعهد بعزم وحزم، وإلا أسقطنا الجبل عليكم. فأجبتم بأنّكم سمعتم القول، وعصيتم الأمر؛ لأنَّ عبادة العجل قد تغلغلت حتى خلصت إلى قلوبكم وامتزجت بها، ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَذُمَّهم على هذه الجريمة فيقول: بئس هذا العمل والضلال إن كنتم مصدِّقين بالله ورسوله.

٩٤- أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ على أولئك اليهود الذين زعموا أن الجنة خاصة بهم، فليَدْعوا على أنفسهم بالموت إن كانوا صادقين في دعواهم.

٩٥- ولن يفعلوا ذلك أبداً بسبب اقترافهم الجرائم التي سيحاسبون عليها. والله تعالى ذو علم بذنوب المعتدين. أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لو تمنّى اليهودُ الموتَ لَماتوا».

الفوائد والاستنباطات:

١- سبب تَعَنُّت بني إسرائيل هو تكذيبهم موسى عليه السلام.

٢- شدة حرص اليهود على الحياة.

٣- الظلم درجات، وأشده الشرك بالله تعالى.

٤- إرسال الله تعالى موسى عليه السلام بالمعجزات التي نفعت بني إسرائيل في علاج مشكلاتهم، وسَدِّ احتياجاتهم.

٥- ينظر: صورة جبل الطور في صحراء سيناء، كما في الملحق.

٦- بيان عادة اليهود في نقض المواثيق.

٧- زعم اليهود أن الجنة لهم خاصة.

٨- الردُّ على مزاعم اليهود.

٩- الإيمان لا يتحقَّق بالدَّعوى، فدليله العمل بمقتضياته من الطاعة والاتِّباع.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

٩٦- سبب النزول:

أخرج البخاري بسنده عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام ﷺ بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً، قال: جبريل. قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الحديث، وفي رواية للإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم صَرَّح بسبب النزول. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٢).

التفسير:

يُؤَكِّد الله تعالى أنَّ محمداً ﷺ سيجد هؤلاء اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة الدنيا، وأشد حرصاً من الذين أشركوا، واقتصروا على حب الدنيا؛ لأنهم لم يؤمنوا بالآخرة، يتمنى اليهودي لو يَطُول عمره، فيعيش ألف سنة، ولكن هذا التعمير في الحياة لا يُنْجيه ولا يبعده عن عذاب الله. والله تعالى مُطَّلع على أعمالهم، وسيجازيهم عليها.

٩٧-٩٨- أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ على اليهود الذين يعادون جبريل ﷺ فيقول: مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه نَزَّل القرآن الكريم على قلبك بأمر الله تعالى موافقاً للكتب المنزلة المتقدمة، وفيه الهداية

الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. ومَنْ كان عدواً لله بمخالفة دينه، وعدواً لملائكته بكراهيتهم، وعدواً لرسله بتكذيبهم، فإن الله تعالى عدو لهؤلاء الجاحدين.

٩٩- وقسماً لقد أنزلنا - لِما لنا من العظمة والقدرة - إليك أيُّها الرسول الدلائل الباهرة والبراهين الساطعة التي تدلُّ على صدق رسالتك، وما يكذِّب بها إلا المخالفون أمر الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإخبار عن أمر مستقبلي في محبة اليهود الحياة الدنيا على مرِّ الأزمان؛ لأنهم لم يصدقوا بالآخرة.

٢- في الآية (٩٨) إخبار عن أمر مستقبلي بأن كلَّ الذين يعادون الملائكة، فإنَّ الله عدوٌّ لهم، وسيجازيهم على ذلك.

٣- عداوة اليهود لجبريل لأنه يفضح مؤامراتهم، ويهتك أستارهم ومكايدهم.

٤- تأييد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ.

٥- القرآن متوافق مع الكتب السماوية قبل تحريفها.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ
هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا
يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا
شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

١٠٠ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال مالك بن الصيف - اليهودي - حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ، والله ما عهد إلينا في محمد ولا أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

(ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٤).

التفسير:

يُوَبِّخ الله تعالى أولئك اليهود الذين تكرَّر منهم إبرام العهود، ثمَّ تنقضه طائفة منهم؛ لأنَّ أكثر اليهود لا يُصَدِّقون برسالة النبيِّ ﷺ.

١٠١ - وحينما جاء اليهودَ محمَّدٌ ﷺ بالقرآن الكريم الموافق لما معهم من البشارات الباقية في التوراة، ترك طائفة من علمائهم التوراة وأعرضوا عنها؛ لأنَّها تَدُلُّ على نبوَّة محمَّد ﷺ، كأنَّه لم يَرِد فيها ذِكْرُ النبي ﷺ، ولم يعلموا شيئاً عنه!

١٠٢ - ولمَّا أهمل هؤلاء اليهود الحقَّ من ربِّهم سلكوا طريق الباطل، واقتفوا آثار السحرة التي كانت تقرؤها الشياطين على عهد سليمان عليه الصلاة والسلام وتنسبها إليه، فبرَّأ الله تعالى سليمان من السحر بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، فإنَّه لم يكن ساحراً، ولم يُعَلِّم الناس السحر، ولكنَّ الشياطين كفروا بتعليم الناس السحر، وبتعليمهم التفريق بين الزوجين الذي أُنزل على الملكين هاروت وماروت في مدينة

بابل التي لا تزال باقية في العراق. وهذان الـمَلَكان فضحا السحرة بأنهم كفرة، وأنَّ السحر كفر، فلا يُعَلِّمان من أحد إلا بعد النصيحة، إذ يقولان: إنَّا اختبار وابتلاء بتعليم السحر الذي هو كفر فلا تكفر. فمن خاف الله نجا، فيتعلم الناس الراغبون في ذلك من الملكين، ولا يستطيع السحرة أن يضروا بالسحر أحداً إلا بمشيئة الله، وهذا الذي يتعلمونه إنما هو أعظم ضرر لهم؛ لما فيه من الأذى والشرك؛ لأنَّه استعانة بغير الله تعالى، فلا ينفعهم ذلك أبداً. ولقد علم اليهود وتحققوا بأنَّ من اختار السحر، وترك الحق ما له في الآخرة من نصيب في الخير، ثم ذمَّهم الله تعالى على فِعْلِهم هذا، بأن استحَبُّوا السحر والكفر، وتركوا الإيمان فلم يكن لهم نصيب في الجنَّة بالآخرة، ولو كان اليهود يعلمون علماً ينتفعون به لما فعلوا ذلك.

١٠٣ – ولو أنَّ اليهود صدقوا بالله وخافوه، لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، لو كانوا يدركون عظمة ثواب الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١٠٠) إخبار عن نقض اليهود للعهود في الماضي والمستقبل.

٢ - في الآية (١٠٢) إخبار عن تعليم الشياطين السحر في الماضي والمستقبل.

٣ - تقرير نبأ رسالة النبي ﷺ في التوراة.

٤ - براءة سليمان عليه السلام من السحر.

٥ - تقرير إتباع اليهود للسحر.

٦ - تقرير حقيقة السحر.

٧ - التحذير من استمرار اليهود في نقض العهود في كل زمان.

٨ - إنكار اليهود رسالة النبي ﷺ.

٩ - ينظر: خريطة محافظة بابل في العراق، وفيها تمثال اسمه أسد بابل، كما في الملحق.

١٠ - تَعَلُّم السحر كفر.

١١ - هاروت وماروت مَلَكان مطيعان لله تعالى.

١٢ - من أعمال السحر التفريق بين الزوجين وهو محرَّم، ولتقويض مهمات السحرة يُسْتَحَبُّ التقريب بين الزوجين والإصلاح بينهما، ووجوب التواصل بين الزوجين في جميع أنواع التواصُل والتقارب، والدليل الحديث التالي في الفائدة التالية.

١٣ - من أهم الكبائر التي يسعى لها إبليس: التفريق بين الزوجين، كما صحَّ عن النبي ﷺ :«إن إبليس يضع عرشه على الماء. ثم يبعث سراياه. فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا

وكذا. فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ماتركته حتى فَرَّقْتُ بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت». (صحيح مسلم، صفات المنافقين برقم ٢٨١٣).

١٤- السحرة لا يقدرون أن يَضُرُّوا أحداً، أو يسحروا إلا بما كتب الله تعالى.

١٥- معرفة اليهود بمصير السحرة ومريديهم في الآخرة بسبب استحبابهم السحر.

١٦- وَهِمَ كثير من المفسرين في تفسير الآية (١٠٢) بسبب إعراب (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ نافية، والواو استئنافية، والصحيح أنَّها موصولة بمعنى (الذي)، والواو عاطفة.

١٧- إنَّ المؤمن المهتدي بهدي الله وشرعه يطلب العلم النافع، ولا يتعلَّم ما يضره ولا ينفعه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ
مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ
ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ
أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

التفسير:

١٠٤- نهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا للنبيِّ ﷺ: راعِنا، أي: أَرْعِنا سمعك، وراعِ أحوالنا، قاصدين أن يجعلهم موضع رعايته، وأمرهم الله أن يقولوا: انظرنا، أي: انظرْ إلينا وتَعَهَّدْنا؛ وذلك لأن اليهود كانوا يقولون هذه الكلمة (راعنا) يقصدون سَبَّه ونسبته إلى الرعونة والحماقة، وللمكذِّبين لله ورسوله عذاب موجع. قال القاسمي: «وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة النساء آية (٤٦): ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. (محاسن التأويل ٢/ ٢١٦).

١٠٥- ما يحبُّ كفرة أهل الكتاب والمشركين أن ينزِّل الله عليكم - أيُّها المؤمنون - أيَّ خير من ربِّكم، والله يختص بالنبوَّة والهداية مَنْ يشاء من عباده، وهو صاحب العطاء الكثير الذي لا ينفد.

١٠٦- ما نُبَدِّل من حكم آية أو نمحها من قلبك - أيُّها الرسول - ننزِّلْ أنفع لكم منها، أو ننزِّلْ آية شبيهة بها، ألم تعلم - يا رسول الله - أنت وأُمَّتك أنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لا يعجزه شيء؟

١٠٧- ألم تعلَمْ - أيُّها الرسول - أنت وأُمَّتك أنَّ الله هو المتصرِّف في شؤون الخلق في السموات السبع والأرضين السبع، وليس لكم من دون الله يتولى شؤونكم، ولا مُعين ينجيكم من عذاب الله؟

١٠٨- أتريدون - أيها الناس - أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسى نبيَّهم من قبل؟ ومَن استحبَّ الكفر، وترك الإيمان، فقد خرج عن دين الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير علو قدر النبي محمد ﷺ عند الله تعالى.

٢- تقرير حسد المشركين والكفار من أهل الكتاب للمؤمنين.

٣- في الآية (١٠٥) إخبار عن حسد كفَّار أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين.

٤- تقرير حقيقة النَّسْخ في القرآن الكريم، وأنَّه نعمة من الله تعالى على عباده.

٥- النهي للصحابة ﷺ عن قول (راعِنا) للنبي ﷺ لمخالفة اليهود الذين يُسيئون الأدب مع أنبياء الله تعالى صلى الله عليهم وسلم.

٦- حماية النبي ﷺ من استهزاء اليهود.

٧- وجوب التأدب مع النبي ﷺ.

٨- التحذير من عداوة المشركين وكفرة أهل الكتاب.

٩- الرد على من يُنكر النَّسْخ، وهو رفع حكم شرعي بحكم شرعي متأخر عنه.

١٠- النهي عن سؤال النبي ﷺ عن أشياء مسكوت عنها في القرآن والسنة، فقد صحَّ عنه أنه قال: «إن أعظم المسلمين جرماً مَنْ سأل عن شيء لم يُحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»، وصحَّ عنه أيضاً أنه قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فَأْتوا منه ما استطعتم». (صحيح البخاري كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب ما يكره من كثرة السؤال برقم ٧٢٨٩ - وباب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم ٧٢٨٨. وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه برقم ١٣٣٧).

١١- الإشارة إلى اقتران خلق السموات والأرض، وينظر: تفسير سورة التوبة الآية (٣٦).

١٢- لا ناصر إلا الله تعالى، فهو ينصر مَنْ يشاء بما يشاء.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

١٠٩ - سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فكان حيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذ خصَّهم الله برسوله، وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٠).

التفسير:

حرص كثير من اليهود والنصارى على أن يرجعوكم بعد إيمانكم كفّاراً بالله، بسبب حقدهم الدفين في نفوسهم، من بعد ما ظهر لهم صدق محمد ﷺ ورسالته، وأعرضوا عنه، فلا تؤاخذوهم ولا تُقرِّعوهم، إلى أن ينزِّل الله تعالى حكماً آخر، كالإذن بقتالهم. إنَّ الله على كل المخلوقات قدير، لا يعجزه منها شيء.

فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ نسخ ذلك كله بقوله: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥]، وقوله: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، فنسخ هذا. وصحَّ عن النبي ﷺ أنه كان وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول

الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا. (صحيح البخاري - التفسير- آل عمران، باب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ برقم ٤٥٦٦).

١١٠ - يأمر الله تعالى المؤمنين بأداء الصلاة في أوقاتها وأركانها، وبدفع الزكاة المفروضة للمستحقين، وكل خير يقومون به يجدون ثوابه عند الله في الآخرة. إن الله بصير لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها.

١١١ - زعم اليهود أن الجنة خاصة بهم، وكذلك زعم النصارى، وهذه أوهام باطلة تمنَّوها على الله تعالى بغير حق، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم، بأن يأتوا بالحجة والدليل على صحة ما يزعمونه إن كانوا صادقين في ادعائهم.

١١٢ - إن دخول الجنة ليس بالأماني والتمني، بل يدخل الجنة من أخلص العبادة لله تعالى، وهو متبع للرسول ﷺ، فمن فعل ذلك فله الثواب من عند الله بالجنة، ولا خوف عليه من العذاب، ولا يعتريه حزن على ما فاته من متاع الدنيا الزائل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١٠٩) إخبار عن سعي كُفَّار اليهود والنصارى إلى ردَّة المؤمنين في الماضي والمستقبل.

٢ - تقرير عداوة كفرة أهل الكتاب للمؤمنين.

٣- أهمية الإخلاص في دخول الجنة.

٤ - في الآية (١١٠) إخبار عن أمر مستقبلي وبشرى للمؤمنين أنَّ كلَّ ما يفعلون من خير صغير أو كبير فإنَّ ثوابه عند الله تعالى مضمون.

٥ - التحذير من مكايد كفرة أهل الكتاب في إيقاع المؤمنين في دائرة الكفر والإلحاد.

٦ - شدة حسد كفرة أهل الكتاب للمؤمنين.

٧- الترغيب في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

٨- الرد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنَّ الجنة خاصة بهم.

٩ - إشارة لما للصلاة والزكاة من أثر واضح في تحصين الفرد والمجتمع من مكايد الأعداء.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

١١٣- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ. فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شيء، وجحد بنبوة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

وأخرج الطبري بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله ﷻ أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٧-٢٠٨).

التفسير:

اتهم اليهود النصارى بأنهم ليسوا على شيء من الحقّ، وكذلك اتهم النصارى اليهود بأنهم ليسوا على شيء من الحقّ، والحال أنّ هؤلاء القائلين يقرؤون التوراة والإنجيل، وكذلك قال الجهلة من مشركي العرب: إنّ محمّداً ليس على شيء من الحقّ، فالله تعالى يفصل بينهم جميعاً فيما اختلفوا فيه من أمر الدين.

١١٤- يتوعَّد الله تعالى ويوبِّخ الذين يمنعون عبادة الله في المساجد، ويعملون على هدمها وتخريبها، بأنه لا أحد أشدُّ ظلماً من هؤلاء الظالمين، وهؤلاء لا ينبغي أن يدخلوا المساجد إلا على خوف ووَجَل من العقوبة، وجزاؤهم في الدنيا ذل وهوان، وفي الآخرة عذاب شديد موجع.

١١٥- ولله تعالى ملك المشرق والمغرب، فأي جهة تتجهون إليها في صلاتكم فهناك قبلة الله تعالى، وهي الكعبة المشرَّفة، إن الله واسع الرحمة بعباده، عليم بأقوالهم وأفعالهم.

١١٦- افترى كل من اليهود والنصارى والمشركين على الله تعالى، بأنه اتخذ لنفسه ولداً! تقدَّس وتنزَّه وتعالى عما يفترون، فليس الأمر كما يقولون، بل كل المخلوقات ملك له، خاضعة ومنقادة له.

١١٧- وهو خالق السموات والأرض على غير مثال سبق، وإذا قدَّر أمراً فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ فيكون. وقال ابن كثير عند هذه الآية: «يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدَّر أمراً فإنما يقول له: كن فيكون، كن - أي مرة واحدة فيكون -، أي: فيوجد على وَفْقِ ما أراد كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]».

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العداوة بين اليهود والنصارى.

٢- خطورة مَنْعِ الذِّكر في المساجد وتخريبها.

٣- في الآية (١١٤) إخبار عن أمر مستقبلي في العقوبة بالدنيا والآخرة لِـمَنْ منع ذكر الله تعالى في المساجد.

٤- تقرير التوجه في الصلاة إلى الكعبة المشرفة.

٥- اختلاف اليهود والنصارى واستعلاء بعضهم على بعض.

٦- تحريم كل ما يمنع ذكر الله تعالى في المساجد.

٧- تحريم تخريب مساجد الله تعالى، ووجوب حمايتها من المخربين والعابثين.

٨- الأمر بإعمار مساجد الله تعالى مادياً ومعنوياً.

٩- عدم تمكين مخرِّبي المساجد أن يدخلوها بحُرية.

١٠-إثبات صفة الوجه لله تعالى ليس في الآية (١١٥)، وإنما في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]؛ لأنَّ المراد بقوله تعالى وجه الله هو الكعبة، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٩).

١١-الإشارة إلى اقتران خلق السموات والأرض، وينظر: تفسير سورة التوبة الآية (٣٦).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

١١٨-سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢١١).

التفسير:

من عناد مشركي العرب أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يُكَلِّمهم الله تعالى، أو يأتيهم بمعجزة تدل على صدق نبوته. ومثل هذا القول قاله اليهود والنصارى، فقلوبهم متفقة على هذا التعنُّت والتشدد، على الرغم من وقوع المعجزات الظاهرة التي وَضَّحناها للذين يصدِّقون بالله تصديقاً جازماً.

١١٩- إنَّا - بما لدينا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أرسلناك يا محمَّد ﷺ بالدين الحق مبشراً بنعيم الجنة، مخوِّفاً من عذاب النار، وأنت لست مسؤولاً عن المكذِّبين الملازمين نار جهنم يوم القيامة، وإنما عليك البلاغ.

١٢٠- ليس اليهود والنصارى براضين عنك أيّها الرسول، ولا عن أُمتك أبداً، إلى أن تحقق غايتهم، باتِّباع دينهم وأهوائهم، قل لهم: إنَّ دين الإسلام هو الدين الصحيح. وقسماً إن وافقتهم على ذلك بعد ما جاءك من القرآن، فليس لك ولي ولا نصير ينصرك من دون الله تعالى.

١٢١- يخبر الله تعالى أنَّ اليهود والنصارى الذين يقرؤون كتبهم قراءة صحيحة دون تحريف، ويتبعونها حقَّ الاتِّباع، فأولئك أصحاب الدرجات العالية هم المصدِّقون بالله ورسوله، وكذلك حال من أُنزِل عليهم القرآن، وأما الذين يحرفون ويبدلون هذه الكتب العظيمة، فهؤلاء البعداء عن الحق خسروا السعادتين في الدنيا والآخرة.

١٢٢-١٢٣- ينادي الله تعالى ذريَّة يعقوب عليه السلام: أن يعترفوا بنِعَمِ الله تعالى الكثيرة عليهم، ومنها جَعْلُهم أفضل الناس في عالمي زمانهم بكثرة أنبيائهم، وما أنزل عليهم من الكتب العظيمة، ثم حَذَّرهم من يوم الحساب، إذ لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل الله منها فدية تنقذها من العذاب، ولا تنفعها شفاعة أحد، ولا أحد يدفع عنها عذاب الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- حقيقة إصرار اليهود والنصارى على إغواء المسلمين.

٢- بيان مكانة مسلمة أهل الكتاب.

٣- الجهل يوقع في المهالك.

٤- تشبُّه المشركين بكفرة أهل الكتاب.

٥- الإنباء عن أمر مستقبلي بعدم رضا اليهود والنصارى عن أهل الإيمان في كل زمان.

٦- التحذير من مواطأة اليهود والنصارى وأتباعهم.

٧- النبي ﷺ غير مسؤول عن الذين يكفرون برسالته.

٨- في الآية (١٢١) إخبار عن خسارة كُفَّار أهل الكتاب في الماضي والمستقبل.

٩- وجوب شكر الله تعالى على نعمه العظيمة.

١٠-الآية (١٢٠) يبينها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة:١٤٥].

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ
إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ
أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

التفسير:

١٢٤- يُذَكِّر الله تعالى رسوله ﷺ حين اختبر إبراهيم عليه السلام بشرائع من الأوامر والنواهي، فقام بحَقِّها تماماً، فبَشَّره الله تعالى بأنه سيجعله للناس قدوة، فسأل إبراهيم ربه أن يجعل من نسله أئمة. واستجاب الله له، وأعلمه أنَّ الظالمين منهم لا يشملهم هذا المقام، بسبب تجاوزهم حدود الله تعالى.

١٢٥- واذكر - أيُّها الرسول - للناس حين جعلنا البيت العتيق ملاذاً ومرجعاً للمسلمين، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، وجعلنا فيه طمأنينة للنفس من الاعتداء، ثم أمر الله تعالى بأن يتخذوا من موضع الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بناء الكعبة مكاناً للصلاة فيه، وأوصى إبراهيم وابنه إسماعيل أن يصونا البيت من كل دَنَس ورِجْس من أجل المتعبدين الذين يطوفون حول الكعبة، والمقيمين للعبادة، والمصلين فيه.

١٢٦- واذكر أيضاً حين دعا إبراهيم ربه: أن اجعل مكة بلداً تطمئن فيه النفوس، وارزقْ أهلَه المؤمنين أنواع الثمرات، فاستجاب الله تعالى، وذكر أنه مَنْ كفر منهم فيرزقه قليلاً من النعم، ثم يُلْجئه مرغماً إلى عذاب النار، وبئس المآل الذي يصير إليه في جهنم.

١٢٧-١٢٩- واذكر أيضاً - أيُّها الرسول - للناس حين رفع إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام بناء أسس الكعبة حال كونهما يسألان الله تعالى: ربَّنا تَقَبَّلْ منَّا أعمالنا ودعاءنا. إنَّك أنت السميع لأقوال عبادك، العليم بأحوالهم، ربَّنا واجعلنا نحن ومِنْ نَسْلِنا خاضعين لك منقادين لحكمك، وعَلِّمْنا شعائر عبادتنا لك، ومناسك حجّنا، وتجاوز عن ذنوبنا، إنَّك أنت التوَّاب على من يتوب من عبادك، الرحيم بهم، ربَّنا وابعث في ذريتنا رسولاً يقرأ عليهم آياتك، ويُعَلِّمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من المعاصي. إنك أنت

العزيز في نقمته، الحكيم في أمره، وقد استجاب الله تعالى لهذا الدعاء العظيم، كما ثبت عن النبي ﷺ قوله: أنا دعوة أبي إبراهيم. (وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك ٢/ ٦٠٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٥٤٥).

الفوائد والاستنباطات:

١- علو مكانة نبي الله إبراهيم عليه السلام.

٢- استجابة نبي الله إبراهيم عليه السلام لجميع الأوامر الربانية.

٣- مقام إبراهيم كان ملتصقاً بالبيت، ثمَّ أخَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسهيلاً للطائفين.
(يُنظر: فتح الباري ٨/ ١٦٩)

٤- يُنظر: صورة المقام وبيان آثار الأقدام، كما في الملحق.

٥- يُنظر: صورة قواعد إبراهيم عليه السلام، كما في الملحق.

٦- بركة دعاء إبراهيم لا تزال قائمة، ولا نزال ننعم بها في هذه البلاد المباركة.

٧- في الآية (١٢٦) إخبار عن استجابة الله تعالى لدعاء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام في الماضي والمستقبل.

٨- إثبات صفة السمع والعلم والرحمة والعزة والحكمة لله تعالى. والإيمان القلبي بهذه الصفات يستوجب الإيمان العملي بها؛ لأنَّ إثبات صفة السمع والعلم لله تعالى يقتضي مراعاة ذلك في الأقوال والأفعال. وهذا الاعتقاد عندما يشع بنوره إلى ميدان الحياة اليومية يأتي بثمرات باهرات، فهي عين سبيل الرشاد الذي يرقى بالعباد إلى المزايا العالية، ويحفظ البلاد من الرزايا البالية؛ إذ يتسم المؤمن بحفظ لسانه من الزلل والخلل؛ لأنَّه يعتقد بأنَّ الله تعالى يسمع ما يقول، وكذلك تتجلى في المؤمن ظاهرة عظيمة ألا وهي حِفْظُ جوارحه من الظلم، وصونها من الوقوع في الحرمات والموبقات؛ لأنَّه يعتقد بأنَّ الله تعالى يرى هذه الجوارح وما تفعله من الخير والحسنات، وما تجترحه من الشر والسيئات. وإنْ عمل المجتمع بهذا الاعتقاد رأينا الأخلاق تسمو، والحق يسود.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ
يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا
كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

التفسير:

١٣٠ – ومَنْ يترك دين الإسلام إلا مَنْ استخفَّ نفسه وظلمها. وقسماً لقد اخترنا إبراهيم عليه السلام في الدنيا نبياً ورسولاً، وإنه يوم القيامة لمن المقربين ذوي الدرجات العلى. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا ما مِلَّة إبراهيم؟ وبيَّنها بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] فصرَّح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ. وكذا في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]».

١٣١-١٣٢ – واذكر – أيُّها الرسول – حين أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن ينقاد مطيعاً لله، فاستجاب لذلك معظِّماً لله بوصفه ربِّ العالمين، ووصَّى إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام أبناءهما بذلك، منادين أبناءهم: إن الله اختار لكم دين الإسلام، فاثبتوا عليه حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به.

١٣٣ – يُوَبِّخ الله تعالى مشركي العرب وكفرة بني إسرائيل: أكنتم حاضرين حين جاء الموتُ يعقوب عليه السلام، إذ سأل بنيه ما تعبدون من بعدي؟ فأجابوه: نعبد إلهك الواحد، وهو إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق – عليهم الصلاة والسلام – نُوَحِّده بالألوهية، ونحن له منقادون حقّاً.

١٣٤ – تلك جماعة قد مضت، لها جزاء ما عملت، ولكم جزاء ما عملتم، وأنتم غير مسؤولين يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا، بل كل نفس وطائفة مسؤولة عن عملها.

الفوائد والاستنباطات:

١ – التحذير من تَرْكِ دين الإسلام؛ لما فيه من الظلم على النفس والآخرين.

٢ – الاستجابة لوصية نبي الله إبراهيم عليه السلام لأبنائه وأحفاده.

٣ – استجابة يعقوب لدعوة التوحيد.

٤ – استجابة أبناء يعقوب لوصية يعقوب في الثبات على التوحيد.

٥- النسب لا يشفع، وإنما العمل هو الذي يُسأل عنه.

٦- في الآيات درس في أهمّية تربية الأبناء على التوحيد والحقّ، والاطمئنان على ثباتهم عليه.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

١٣٥- سبب النزول:

أخرج ابن إسحاق بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾. (يُنظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٤٤).

التفسير:

دعا اليهود أُمةَ محمد ﷺ بأن يدخلوا اليهودية، زاعمين أنهم على الهدى والحق، وكذلك دعا النصارى، فأمر الله نبيه ﷺ أن يردَّ عليهم: بأن الهداية أن نتبع الملة الحنيفية السمحة التي على التوحيد، وهي ملة إبراهيم، وما كان إبراهيم من عبدة الأوثان.

١٣٦- ثمَّ أمر الله تعالى المؤمنين بأن يعلنوا لليهود: أنّنا صَدَّقنا بالله تعالى، وبالقرآن، وبما أنزل من الصحف والكتب إلى إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، وحفيده يعقوب، والأسباط من ولد يعقوب، وصَدَّقنا بالتوراة والإنجيل، وبما أوتي النبيون جميعاً من وحي الله تعالى، لا نُفَرِّق بين أحد منهم، ونحن منقادون لعبادة الله. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يُبيِّن هنا ما أوتيه موسى وعيسى، ولكنه بيَّنه في مواضع أُخَرَ. فذكر أن ما أوتيه موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] وذلك كقوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وهو التوراة بالإجماع. وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الإنجيل كما في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]».

١٣٧- فإن صَدَّق كفرة اليهود والنصارى بمثل الذي صدَّقتم به فقد أصابوا الحق، وإن أعرضوا عن ذلك، فاعلم أنهم يريدون عداوتك وخلافك، وسيكفيك الله شرَّهم، وينصرك عليهم. والله هو السميع

لأقوالهم، العليم بأحوالهم، وقد أنجز الله وعده وهزم الأحزاب وحده، فكفى نبيَّه ﷺ ومَكَّنه من أعدائه فقتل قريظة، وسباهم وأجلى بني النضير. (صحيح البخاري - المغازي- باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم وباب حديث بني النضير ومخرجه إليهم).

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من دعوة اليهود والنصارى.

٢ - الردُّ على اليهود والنصارى في دعوتهم للمسلمين أن يدخلوا في دينهم.

٣- تقرير الإيمان بالكتب السماوية وبالرسل والأنبياء.

٤ - ذَمُّ المخالفين لدين الإسلام.

٥ - إثبات صفتي السمع والعلم لله تعالى.

٦ - ينظر: شجرة الأنبياء؛ لبيان أبناء إبراهيم وذرية يعقوب - عليهم صلوات الله وسلامه-، كما في الملحق.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ
رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

التفسير:

١٣٨- قل - أيُّها الرسول - لهؤلاء اليهود والنصارى: الزموا الإسلام، وهو دين الله، فليس هناك أحسن من دين الإسلام، ونحن له موحِّدون.

١٣٩-١٤٠ - يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يُوَبِّخَهم: أتناظروننا في توحيد الله والانقياد له، وهو ربُّ الجميع، يتصرف فينا وفيكم، ونحن بُرآء منكم، ولنا جزاء أعمالنا، وأنتم بُرآء منَّا، ولكم جزاء أعمالكم، ونحن له مخلصون في عبادتنا وطاعتنا، بل تَدَّعون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من ولد يعقوب كانوا على دين اليهود أو النصارى؟ قل لهم أيُّها الرسول: أأنتم أعلم بدينهم أم الله تعالى؟ وقد

شهد الله لهم بدين الإسلام، ولا أحد أشد ظلماً منكم حين تُسِرُّون وتُخْفون شهادة ثابتة في كتبكم المنزلة من عند الله تعالى، وما الله بغافل عن شيء من أعمالكم.

١٤١ - تلك جماعة قد مضت، لها جزاء ما عملت، ولكم جزاء ما عملتم، وأنتم غير مسؤولين يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا، بل كل نفس مسؤولة عن عملها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان عظمة دين الإسلام.

٢ - الردُّ على اليهود والنصارى الذين يزعمون أن إبراهيم على ديانتهم.

٣ - إفحام اليهود والنصارى في الحوار وإقامة الحجة عليهم.

٤ - عِظَمُ خطر كتمان العلم، وأنَّ ذلك من أعظم الظلم.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

١٤٢ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ونافع بن أبي نافع، فقالوا: يا محمد، ما وَلَّاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك! وإنما يريدون فتنته عن دينه. فأنزل الله فيهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾». (واللفظ للطبري. تفسير الطبري برقم ٢١٤٩ وتفسير سورة البقرة - الثاني برقم (٨) لابن أبي حاتم، ودلائل النبوة ٢/ ٥٧٥. قال الحافظ ابن حجر: «وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما» (فتح الباري ١/ ٩٧).

التفسير:

يُنبئ الله تعالى نبيَّنا محمداً ﷺ عن أمر مستقبلي أنه سيقول الجهلة من ضعفاء العقول من اليهود والمشركين في سخرية: ما سببُ تَحَوُّلِ المسلمين عن قِبلتهم - وهي بيت المقدس - التي كانوا يستقبلونها في صلاتهم؟ ثمَّ أمر الله تعالى نبيه أن يردَّ عليهم: أنَّ المشرق والمغرب ملك لله، يرشد مَنْ يريد من عباده إلى الطريق القويم، وهو دين الإسلام.

١٤٣ - سبب النزول:

عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت وأنه صلى - أو صلَّاها - صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممَّنْ كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّل قِبَلَ البيت رجال قتلوا لم نَدْرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ١٤١ برقم ٤٤٨٦، تفسير سورة البقرة، باب ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. وصحيح مسلم برقم ٥٢٥، المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة. واللفظ للبخاري).

التفسير:

يمدح الله تعالى المسلمين: كما هديناكم إلى دين الإسلام جعلناكم أُمة عدولاً؛ كي تشهدوا على الأُمم في الآخرة أنَّ رسلهم قد بَلَّغتهم الدعوة، وكذلك يكون الرسول شهيداً عليكم، بأنه بَلَّغكم الرسالة المكلف بها. وما جعلنا هذا التحويل في القبلة إلا اختباراً؛ ليظهر ويتميَّز المطيع للرسول ممَّنْ يُشكِّك في الدين، ويرتدَّ عن دين الإسلام، وإنَّ تحويل القبلة لثقيلٌ شاقٌّ إلا على الذين هداهم الله تعالى، فهو سهل عليهم، وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يتقبلها منكم ويثيبكم عليها؛ لأنَّ الله تعالى ذو رأفة بعباده، ورحيم بهم.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا ربِّ، فيقول: هل بلغت؟ فيقول :نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جَلَّ ذِكْرُه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط: العدل». (صحيح البخاري برقم ٤٤٨٧ - تفسير سورة البقرة، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾).

١٤٤ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم ﷺ، وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾؟ [البقرة:١٤٢]. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:١٤٢]». (واللفظ للطبري. وأخرجه

النحاس من طريق بكر بن سهل (الناسخ والمنسوخ ١/ ٥٨-٥٩)، والبيهقي (السنن الكبرى ٢/ ١٢-١٣) من طريق عثمان بن سعيد الدارمي، كلاهما عن عبد الله بن صالح به).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما الناس في صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام. فاستداروا إلى الكعبة». (صحيح البخاري برقم ٤٤٨٨- باب التفسير﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾. وصحيح مسلم برقم ٥٢٦- المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة).

التفسير:

يؤكِّد الله تعالى لك - يا محمَّد - أنَّه يرى تكرار تَطَلُّعِك إلى جهة السماء، وتحليق بصرك فيها، راجياً الله تعالى نزول الأمر بتحوُّل القبلة إلى الكعبة، فتوجَّه في صلاتك نحو الكعبة، وفي أي مكان كنتم أيها المسلمون، وأردتم الصلاة، فتوجَّهوا نحوها، وإن اليهود والنصارى واثقون إن تَحَوُّلَك إلى الكعبة لهو الحق الثابت في كتبهم، وما الله بغافل عما يعمل هؤلاء المكذبون، وسيجازيهم على ذلك.

١٤٥- وقسماً - أيُّها الرسول - إن جئت اليهود والنصارى بكلِّ معجزة تدلُّ على صدقك ليتبعوا قبلتك، ما تبعوا قبلتك كفراً وعناداً؛ لأنَّ اتباع القبلة دليل على اتباعك، ولست أنت بتابع قبلتهم، وكذلك النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أنَّ اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، وقسماً إن وافَقْتَ أهواءهم بعد ما جاءك من الوحي أنك على الحق، فستكون من الظالمين لأنفسهم. وفيه تحذير لِـمَنْ يَتَّبِعُ أهواء أهل الكتاب وغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إعلام الله تعالى رسوله ﷺ عَـمَّا سيقوله الجهلة عن القبلة.

٢- ذكر الدكتور محمد جميل الحبَّال الإعجاز العددي فقال:

أ- إنَّ سورة البقرة هي من أطول سور القرآن الكريم، ومجموع عدد آياتها هو (٢٨٦) آية، والثانية ترتيباً في المصحف الشريف والآية رقم (١٤٣) هي نصفها حيث إن: (٢٨٦÷٢=١٤٣).

ب- إنَّ عدد كلمات هذه الآية هو (٤٥) كلمة، وعدد حروفها هو (١٩٤) حرفاً، وإن موقع كلمة ﴿وَسَطًا﴾ في هذه الآية هو الرابع، وكلمة ﴿وَسَطًا﴾ تتألف من أربعة حروف، والعدد (٤) يقع في وسط رقم الآية (١٤٣).

ج- إنَّ الكلمة الوسطية (المركز) في هذه الآية هي رقم (٢٣) وهي كلمة ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ حيث إنه ﷺ هو المثال الأعلى والقدوة الصالحة في الوسطية في أحواله.

٣- الثناء على الأُمة العدل.

٤- اختبار وتمحيص في شأن تحويل القبلة، وينظر: صورة بيت المقدس في الملحق.

٥- الرعاية الربانية للنبي ﷺ، وتحقيق رغبته في التحول إلى الكعبة.

٦- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لم يبين هنا: هل هو شهيد عليهم في الدنيا والآخرة؟ ولكنه بيّن في موضع آخر: أنه شهيد عليهم في الآخرة وذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢]». (أضواء البيان ١/ ١٤٩).

٧- تشدُّد أغلب اليهود والنصارى، وتعنُّتهم في عدم اتباع الحق، والإنباء عن أمر مستقبلي في ذلك.

٨- خطورة اتباع ضُلَّال اليهود والنصارى.

٩- قبول الله تعالى عمل عباده، ما دام الباعث عليه طاعته سبحانه.

١٠- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار عِلْماً لم يكن يعلمه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون. وقد بيّن أنه لا يستفيد بالاختبار عِلْماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾». (أضواء البيان ١/ ١٤٩).

١١- قال ابن عاشور: «الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ استثناء من علل وأحوال، أي: ما جعلنا ذلك لسببٍ وفي حال إلا لنُظْهِرَ مِنْ كان صادق الإيمان في الحالتين: حالةِ تشريع استقبال بيت المقدس، وحالةِ تحويل الاستقبال إلى الكعبة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٣).

١٢- التذييل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيدٌ لعدم إضاعة إيمانهم، ومِنَّةٌ وتعليم بأنَّ الحكم المنسوخ إنما يلغي العمل به في المستقبل لا في ماضٍ.

١٣- التنبيه على خطورة الردَّة بعد الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ
يَعۡلَمُونَ (١٤٦) ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ
أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٤٨) وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ
وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (١٤٩) وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ
فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ
حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٠)
كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ (١٥١) فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ (١٥٢)﴾

التفسير:

١٤٦- يخبر الله تعالى أنَّ علماء اليهود والنصارى يدركون أنَّ البيت الحرام هو القبلة بعينها، كما يعرفون أبناءهم، وكذلك معرفة صفة النبيِّ ﷺ وما جاء به، وإنَّ طائفةً منهم لَيُخْفُون الحقَّ، كصفة النبيِّ ﷺ وأمر القبلة، وهم يعلمون ذلك يقيناً من كتبهم.

١٤٧- اعلم - أيُّها الرسول - أنَّ الحق هو ما أعلمك ربُّك من القرآن العظيم، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين أنَّ اليهود والنصارى قد كتموا ذلك الحق.

١٤٨- ولكلِّ أهلِ ملةٍ من الملل وِجْهَةٌ يتوجَّه إليها كل فرد منها في صلاته، فبادروا وتسابقوا - أيها المؤمنون - إلى الإحسان والعمل الصالح، وسيبعثكم الله جميعاً يوم القيامة. إنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لا يعجزه شيء.

١٤٩-١٥٠- يأمر الله تعالى رسول الله محمَّداً ﷺ وأُمَّته بتحَرِّي استقبال القبلة إلى الكعبة: من أيِّ مكان خَرَجْتَ مسافراً فتوجَّهْ في صلاتك نحو الكعبة. وهذا الأمر هو الحق الثابت من الله، وما الله بغافل عما تعملون، وسيجازيكم على ذلك. وأينما حَلَلْتَ فتوجَّهْ نحو الكعبة، وأينما كنتم - معشر المسلمين - في أي بلد فتوجَّهوا نحو الكعبة؛ لكيلا يحتجَّ المخالفون لكم في أمر القبلة. أما أهل العداوة والعناد فسيستمرون على جدالكم، فلا تخافوهم وخافوني بطاعتي؛ ولكي أُتِمَّ عليكم فضلي؛ كي تهتدوا إلى اتباع الحق.

١٥١- وكما أتممت عليكم نعمتي، كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم، يقرأ عليكم آيات القرآن الموضحة لأمور الدين، ويطهر نفوسكم من المعاصي، ويعلمكم القرآن الكريم والسنة المشرفة، ويعلمكم ما كنتم تجهلونه من أمور الدنيا والآخرة. قال ابن عاشور: «تشبيه للعلتين من قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ وقوله:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، أي: ذلك من نعمتي عليكم كنعمة إرسال محمد ﷺ، وجعل الإرسال مشبهاً به لأنَّه أسبق وأظهر تحقيقاً للمشبه». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٨).

١٥٢ – فاذكروني بالعبادة أذكركم بالمغفرة والثواب، واشكروا لي نعمي، ولا تجحدوها.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:«يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ منهم، وإن تَقَرَّبَ إليَّ شِبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تَقَرَّب إليَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلة». (صحيح البخاري- باب التوحيد، قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ برقم ٧٤٠٥. وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٦١ – الذكر، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم ٢٦٧٥).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «حذف ما أضيف إليه (كل) هنا لدلالة المقام عليه، وتقدير هذا المحذوف (أُمَّة)؛ لأنَّ الكلام كله في اختلاف الأمم في أمر القبلة». (التحرير والتنوير:٢/ ٤٢).

٢- إصرار أهل الكتاب على عدم التصديق بنبوة سيدنا محمد ﷺ، مع أنهم يعلمون حقاً صفته، وأن شأن تحويل القبلة من عند الله تعالى.

٣- وجوب التوجُّه إلى الكعبة في الصلاة.

٤- قوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ عطف على الجملة التي قبله، وأُعيد لفظ الجملة السالفة ليُبنى عليه التعليل بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾.

٥- قال ابن عاشور: «تكرر الأمر باستقبال النبي الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين، وتكرر أنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات. والقصد من ذلك كله التنويه بشأن استقبال الكعبة، والتحذير من تطرق التساهل في ذلك تقريراً للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الردِّ على المنكرين». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٥).

٦- تقرير الرسالة لسيدنا محمد ﷺ، وبيان مكانته في عِلْمِه وحكمته.

٧- بيان فضل الذكر لله تعالى، وبه تدوم النعم.

٨- لا خوف من الإرجاف وحرب الإشاعة الصادرة من العدو.

٩- المقصود من خطاب النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ تحذير الأُمة.

١٠- إنَّ العارف بالحقِّ مسؤول ومطالب باتِّباعه والالتزام به، وشأنه أوجب من الجاهل به.

١١- فضيلة المسابقة إلى الخيرات والطَّاعات.

١٢-التنبيه لوجوب مراقبة الله تعالى، وأنّه سبحانه مُطّلع على أعمال عباده.

١٣-عِظَمُ نعمة الله على عباده بإرساله الرسول محمّد ﷺ، ووجوب شكر هذه النعمة العظيمة باتّباعه، والالتزام بما جاء به.

١٤-في الآية (١٥٢) إخبار عن أمر مستقبلي عن ذكر الله تعالى للمؤمنين إذا ذكروه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ
ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ
رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

التفسير:

١٥٣- يا أيّها المصدِّقون بالله تعالى ورسوله ﷺ، اطلبوا العون من الله بواسطة الصبر على المصائب والطاعة، وترْك المعاصي، وبالصلاة التي تقوي الصلة بالله تعالى. إنَّ الله ينصر، ويوفق الصابرين.

١٥٤- ولا تَصِفُوا شهداء الجهاد في سبيل الله بأنهم أموات، بل هم أحياء في قبورهم، ولكن لا تدركون ذلك؛ لأنه لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى.

١٥٥-١٥٦- يقسم الله تعالى للمؤمنين مؤكّداً أنه سيختبرهم بشيء من أنواع البلاء، كالخوف من الأعداء، والجوع، وذهاب بعض الأموال، وفقدان بعض الأحباب، ونقص في الثمرات بالآفات. وبَشِّرْ - أيّها الرسول - الصابرين على ذلك بالجنة، ثمَّ وصف الصابرين بأنّهم إذا تعرضوا لنكبة ذكروا الله تعالى: إنَّا عبيد لله، يتصرف فينا كيف يشاء، وإننا مبعوثون ليوم الجزاء.

١٥٧- هؤلاء الصابرون لهم مكانة عالية عند الله تعالى، يستحقون الثناء والرحمة من الله تعالى، ويشهد لهم بأنهم مهتدون إلى الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «افتُتح الكلام بالنداء، لأنَّ فيه إشعاراً بخبر مهم عظيم، فإنَّ شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدَّم قبلها ما يهيئ النفس لقولها؛ لتستأنس بها قبل أن تَفْجَأها».

(التحرير والتنوير: ٢/ ٥١).

٢- قال ابن عاشور: «جيء بكلمة (شيء) تهويناً للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] ولذلك جاء هنا بكلمة (شيء) ». (التحرير والتنوير: ٢/ ٥٤).

٣- في الآية (١٥٥) إخبار عن وقوع الخوف والجوع في الماضي والمستقبل.

٤- ثبت في فضل الاسترجاع، عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجِرْني في مصيبتي، واخلُفْ لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. قالت: أرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقالت: إن لي بنتاً، وأنا غيور، فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة. (صحيح مسلم - كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة برقم ٩١٨).

٥- الصلاة والصبر من أعظم الأمور المساعدة على الابتلاء.

٦- الابتلاء في الحياة الدنيا سُنَّة الله تعالى في خلقه، والابتلاء المذكور في النقص. وثمة ابتلاء آخر بالزيادة والخيرات، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣].

٧- فضل مقام المؤمن إذا ابتلي فصبر، فإنه يستحق الرحمة والثناء من الله تعالى. وهذه هي الهداية العظمى.

٨- يُسَنُّ قول: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون» عند وقوع المصائب؛ لما لهذه الكلمة من فضل كبير.

٩- مكانة الشهداء العالية عند الله تعالى، وأنَّهم أحياء عند ربِّهم يرزقون.

١٠- فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ
وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا
بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟
فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ
ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

١٥٨- سبب النزول:

عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أنه قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحد شيئاً ألا يطَّوَّف بهما. فقالت عائشة: لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه ألا يطَّوَّف بهما، إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار: كانوا يُهلُّون لمناة، وكانت مناة حَذْو قُديد، وكانوا يتحرجون أن يطَّوَّفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. (صحيح البخاري- التفسير، سورة البقرة، باب ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ برقم ٤٤٩٥. وصحيح مسلم - كتاب الحج، باب بيان أنَّ السعي بين الصفا والمروة ركن، برقم ١٢٧٧).

التفسير:

إن جبلَي الصفا والمروة من معالم العبادة للسعي في الحج والعمرة، فمَنْ قصد البيت الحرام حاجّاً أو معتمراً فلا حرج عليه أن يسعى بينهما، حتى ولو كان المشركون يسعون بينهما، ويتقربون إلى الأصنام، بل يجب عليه السعي، ومَنْ تطوع بالحج أو العمرة بعد قضاء حجه، أو فعل خيراً أياً كان، فإنَّ الله تعالى شاكر له، يثيبه على تطوعه، عليم بأعمال عباده. وأخرج مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت رجع إلى الركن، فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: «إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أبدأ بما بدأ الله به» فبدأ بالصفا. (صحيح مسلم -كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم ١٢١٨). انظر: الآية (٢٣٣) من السورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

١٥٩-١٦٠- إنَّ الذين يُخفُون ما أنزلنا من الآيات الواضحة، والعلم الذي تَحْصُل به الهداية إلى الإسلام من بعد بيانه في التوراة والإنجيل. أولئك البُعَداء عن الحقِّ يطردهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة الملائكةُ والمؤمنون والناس أجمعون، إلا الذين ندموا على كتمانهم، وبَيَّنوا للناس ما أخفوه، فأولئك أصحاب الدرجات العالية، أَقْبَلُ توبتهم، وأنا الله تَوَّاب على مَنْ تاب، رحيم بعباده.

١٦١-١٦٢- إنَّ الذين كذَّبوا بالله ورسوله، واستمروا على ذلك حتى ماتوا، عقوبتهم الطرد من رحمة الله، ويدعو عليهم باللعنة: الملائكةُ والناسُ أجمعون. وهؤلاء الكفار ماكثون في اللعنة ومقيمون في النار، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب، ولا هم يُمْهَلون.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا ما اللاعنون؟ ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾».

٢- وجوب السعي بين الصفا والمروة في فريضة الحج.

٣- قال ابن عاشور: «الكتمان يكون بإلغاء الحفظ والتدريس والتعليم، ويكون بإزالته من الكتاب أصلاً، وهو ظاهره، قال تعالى: ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ [الأنعام: ٩١]، ويكون بالتأويلات البعيدة عن مراد الشارع؛ لأنَّ إخفاء المعنى كتمان له. وحُذِفَ متعلق ﴿يَكۡتُمُونَ﴾ الدال على المكتوم عنه للتعميم، أي: يكتمون ذلك عن كل أحد ليتأتَّى نسيانه وإضاعته». (التحرير والتنوير: ٢/ ٦٦).

٤- نفي الإثم لا يقتضي عدم الوجوب.

٥- فضل التطوع في العبادات.

٦- تحريم كَتْم العلم وشدة عذاب مَنْ فعل ذلك.

٧- قبول الله تعالى توبة التائب.

٨- جزاء الكفار الطرد من رحمة الله تعالى.

٩- قال ابن عاشور: «جاء في الآية (١٦٠) نَظْمٌ بديع تقديره: إلا الذين تابوا انقطعت عنهم اللعنة، فأتوب عليهم، أي: أرضى، وزاد توسُّط اسم الإشارة للدلالة على التعليل، وهو إيجاز بديع».
(التحرير والتنوير ٢/ ٧١).

١٠-يُنظر: صورة جبل الصفا وجبل المروة في الملحق.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

التفسير:

١٦٣ - ومعبودكم - أيها الناس - هو الله وحده المستحق للعبادة، لا شريك له، متفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وعبودية خلقه له، لا معبود بحق إلا هو، المتصف بسعة رحمته للخلق جميعاً في الدنيا، وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

١٦٤ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم ووكيع وأحمد (كما في تفسير ابن كثير) بسند حسن عن أبي الضحى في قول الله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال: «لما نزلت هذه الآية عجب المشركون، وقالوا: إن محمداً يقول: إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾».

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن عطاء بن أبي رباح نحوه. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٥٥).

التفسير:

إنَّ في إيجاد السموات السبع بعظمتها، والأرضين السبعِ بمياهها ويابسها وطبقاتها، واختلافِ الليل والنهار بأحوالها وتتابعها، والسفنِ التي تسير في البحر لنفع الناس بالسفر والتجارة، والذي أنزل الله من المطر فأحيا به الأرض فصارت خضراء بعد جفافها، ونشر فيها من كل أصناف الحيوانات، وتسيير الرياح،

والسحاب الذي تدفعه الرياح بين السماء والأرض، لَدلالاتٍ واضحة على عظمة الخالق سبحانه ووحدانيته لقوم يتفكَّرون، ويفهمون أدلته واستحقاقه وحده للعبادة.

قال ابن عاشور: «والدابَّة: ما دبَّ على وجه الأرض وقد أذنت كلمة ﴿كُلِّ﴾ بأنَّ المراد جميع الأنواع، فانتفى احتمال أن يراد من الدابة خصوص ذوات الأربع». (التحرير والتنوير: ٢/ ٨٣).

١٦٥ - وبعض الناس المشركين يعبد من دون الله سبحانه أوثاناً يجعلونهم نظراء لله، ويحبُّونهم كحبِّ الله تعالى، والذين صَدَّقوا بالله ورسوله أعظم حبّاً لله من أولئك المشركين، ولو يعلم المشركون حين يشاهدون عذاب النار أنَّ الله سبحانه هو المتفرِّد بالقوَّة والتصرُّف، وأنَّ الله يعذِّب عذاباً شديد الألم، لَما أشركوا بالله سبحانه.

١٦٦ -١٦٧ - وعند هذه المشاهدة للعذاب يتخاصم قادة الكفر مع تابعيهم، وتزول الروابط والمودة بينهم، ويقول أولئك الأتباع: يا ليت لنا عودة إلى الدنيا. ليعلنوا براءتهم من قادتهم، كصنيعهم في البراءة من تابعيهم، وكما أراهم الله تعالى العذاب كذلك يُريهم أعمالهم الخبيثة ندامات عليهم، وليسوا بخارجين من النار أبداً.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أشار هنا إلى تخاصم أهل النار. وقد بيَّن منه غير ما ذكر هنا في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾». [سبا: ٣١ - ٣٣].

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير توحيد العبودية.

٢ - إثبات صفة الرحمة لله تعالى.

٣ - وجوب حبِّ الله تعالى، فمَنْ أَحَبَّ اللهَ أحبَّه اللهُ.

٤ - كل المخلوقات في الكون دلائل ساطعة على وحدانية الله تعالى.

٥ - ينظر: صورة جريان الفلك في الملحق.

٦- قال ابن عاشور: «من فوائد هذه الرياح الإعانة على تكوين السحاب، ونَقْله من موضع إلى موضع، وتنقية الكرة الهوائية مما يحل بها من الجراثيم المضرة. وهذان الأمران موضع عبرة ونعمة لأهل العلم. وقد اختير التعبير بلفظ التصريف هنا دون نحو لفظ التبديل أو الاختلاف؛ لأنه اللفظ الذي يصلح معناه لحكاية ما في نفس الأمر من حال الرياح؛ لأن التصريف تفعيل من الصرف للمبالغة، وقد علمت أن منشأ الريح هو صَرْفُ بعض الهواء إلى مكان، وصَرْفُ غيره إلى مكانه الذي كان فيه». (التحرير والتنوير ٢/ ٨٥).

٧- في الآخرة تزول العلائق بين الكفار من الأسياد وتابعيهم.

٨- يتحسر أتباع الطواغيت على علاقاتهم الدنيوية الخاسرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

التفسير:

١٦٨-١٦٩- يخاطب الله تعالى البشر جميعاً، كلوا من رزق الله حالة كونه مباحاً مستلَذّاً طاهراً، ولا تتبعوا مسالك الشيطان؛ إنَّه عدو لكم ظاهر العداوة. ومن هذه العداوة: أنّه يأمركم بفعل المعاصي والكبائر، وأن تفتروا على الله سبحانه الكذب، بتحريم ما أحلَّ الله لكم، وتحليل ما حرَّم عليكم. و ﴿لو﴾ للشرط، وجوابها محذوف دلَّ عليه الكلام السابق، تقديره: لاتَّبَعُوهم. (انظر: التحرير والتنوير: ١٠٥).

١٧٠- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فرغَّبهم فيه، وحَذَّرهم عذابَ الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وَجَدْنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك من قولهما: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾.

التفسير:

وإذا نُصِحَ الكفار بأن يتَّبعوا هدي القرآن العظيم، رفضوا وأجابوا: لا نَتَّبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. فردَّ الله عليهم موبِّخاً لهم: أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء، ليس لهم عقل يردعهم عن الشر، ولا بصيرة ترشدهم إلى الخير؟

١٧١- شبَّه الذين كذبوا الله وداعيهم إلى الإيمان بحال الراعي الذي يصيح بالبهائم وهي لا تفهم، وإنما تنقاد للصوت فقط، هؤلاء المكذبون صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا ينطقون بخير، عُمْيٌ عن الهدى، فهم لا يدركون ما ينفعهم.

١٧٢- يا أيها الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، قد أَبَحْنا لكم الأطعمة المستلذة الحلال التي رزقناكم، واشكروا الله تعالى على نعمه بالقول والفعل، إن كنتم حقّاً مطيعين له تعبدونه وحده.

١٧٣- لمَّا ذكر الله تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، كالميتة التي لم تُذبح بطريقة شرعية، وهي ميتة البر، لا ميتة البحر من السمك والجراد، وحَرَّم عليكم الدم المسفوح غير الجامد كالكبد والطحال، وحرَّم عليكم لحم الخنزير كله، وما ذُبِح لغير الله، فمَنْ ألجأته الضرورة بسبب الجوع الشديد، ولم يجد شيئاً من الحلال، فأكل من هذه المحرمات من غير إفساد ولا إسراف، فلا ذنب عليه في ذلك. إنَّ الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم. قال الحافظ ابن كثير: «وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦] وحديث العنبر في الصحيح. وفي المسند والموطأ والسنن قوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته». اهـ. وصححه الترمذي (السنن - الطهارة ١/ ١٠٠، ١٠١) وصححه البخاري فيما سأله الترمذي عنه (علل الترمذي ١/ ١٣٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٤٠) وقال البيهقي: حديث صحيح (المعرفة ١/ ١٥٢) وقال البغوي: صحيح متفق على صحته (شرح السنة ٢/ ٥٥) وصححه ابن الملقن، وقال ابن كثير: إسناده جيد (التفسير ٦/ ١٢٦). والألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٦٧).

الفوائد والاستنباطات:

١- مصدر الأحكام من الله تعالى، فهو الذي يحرم ويحلل.

٢- أباح الله تعالى الطيبات، وحرَّم الخبائث.

٣- الأصل في الأشياء الحِلُّ.

٤- تحريم اتباع الشهوات والشبهات.

٥- الشيطان يُسَوِّل للإنسان المعاصي.

٦- الكفار وَلِعُوا بتقليد الآباء في الشرك.

٧- تحريم الميتة ولحم الخنزير، وكل ما في الخنزير لا يجوز الانتفاع به.

٨- جواز أكل ما حرَّم الله بقَدْر عند الضرورة، أي: عندما تهدد الحياة بالموت.

٩- قال الشيخ الشنقيطي:«لم يبيِّن هنا سبب اضطراره، ولم يبيِّنْ المراد بالباغي والعادي، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أنَّ سبب الاضطرار المذكور المخمصة، وهي الجوع وهو قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة: ٣] وأشار إلى أنَّ المراد بالباغي والعادي المتجانف للإثم، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة: ٣] والمتجانف: المائل، ومنه قول الأعشى:

تَجانَفُ عن حِجْرِ اليمامة ناقتي ... وما قَصَدَتْ من أهلها لِسِوائِكا

فيُفهم من الآية أنَّ الباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها».

١٠- الدَّعوة إلى التنبُّه، والحذر من الوسائل والسبل التي يزينها الشيطان للعباد لإيصالهم إلى المعاصي وطرق الضَّلال والغَواية.

١١- قال الأستاذ الدكتور محمد جميل الحبَّال: «ما ورد في الآية الثالثة من سورة المائدة في تحريم أكل الموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع: فإنها جميعاً تشترك بانحباس الدم عند موتها بأحد هذه الطرق المذكورة حيث يشكل الدم المحتبس والملوث داخلها مرتعاً خصباً لنمو الجراثيم وتكاثرها وبالتالي إنتقالها إلى مَنْ يأكلها ولكن إذا أدركت وفيها حياة وتم تذكيتها (ذبحها بالطريقة الشرعية) وخروج القسم الأكبر من دمها فإنها في هذه الحالة يكون أكلها حلالاً». وقال أيضاً: «حَرَّمَ الله تعالى شرب الدم المسفوح (السائل) لأنه قد يكون موطناً لبعض الجراثيم والفيروسات والطفيليات. فالدم المسفوح هو أفضل بيئة لتكاثرها لذلك يضع الطب اليوم مقاييس صارمة للتأكد من خلوه من هذه العوامل في حالة التبرع بالدم. كما يستعمل الدم بالمختبرات المايكروبايولوجية (علم الأحياء المجهرية) كوسط زرعي جيد للتحري عن وجود الجراثيم في النموذج المراد فحصه لكونه مادة مناسبة لنموها وتسمى(Blood Agar)».

١٢- قال الأستاذ الدكتور محمد علي البار: «الأمراض الفيروسية التي يسهم الخنزير في نقلها للإنسان: تعتبر قائمة الأمراض الفيروسية التي تصيب الخنزير طويلة حقاً، وينتقل بعضاً منها إلى الإنسان، ويصيبه ويعرف هذا النوع من الأمراض «بالأمراض حيوانية المصدر» zoonosis. وبعض هذه الأمراض التي تصيب الإنسان خطير وبعضها بسيط، وهناك بعض الأمراض التي تصيب الإنسان بصفة رئيسية فإذا انتقل الفيروس إلى الخنزير يتكاثر الفيروس في خلايا الخنزير بكميات كبيرة ومن ثم ينتقل إلى الإنسان مرة أخرى بدون أن تتغير صفات الفيروس وفي بعض الأحيان يتكاثر الفيروس في خلايا الخنزير، ويختلط بفيروسات أخرى من الخنزير مشابهة له في الصفات الوراثية؛ ويحدث نتيجة لذلك خروج فيروس جديد يحمل صفات مشتركة بين الفيروس الإنساني والفيروس الخنزيري. وقال أيضاً: «الأمراض البكترية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان:

١. الحمى المالطية. ٢. السالمونيلا. ٣. داء البريميات. ٤. داء ليستر. ٥. ميكروبات الكلوستريديا. ٦. الجمرة الخبيثة. ٧. الميكروبات اللاهوائية الأخرى. ٨. ميكروبات المكورات السبحية. ٩.دوسنتاريا الخنزير. ١٠.مرض الراعوم. ١١.ميكروبات الباستوريلا. ١٢.الدرن. ١٣.يرسينيا الأمعاء. ١٤. المفطورة الرئوية». (الأسرار الطبية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير ص١٣٩-١٦١-٢١١ الدار السعودية للنشر والتوزيع).

١٣-قال الدكتور محمد جميل الحبال: «حَرَّمَ المولى ﷻ أكل الميتة لأن أكلها يكون ضاراً، فموتها ربما كان نتيجة لمرض جرثومي مُعْدٍ أو طفيلي قد ينتقل الى آكل لحم الميتة، حيث إنه عند موتها تتوقف الدورة الدموية والتنفس، وتتكاثر الجراثيم الموجودة طبيعياً في الجسم، وتصبح مؤذية مسببة للأمراض، وتنتقل من أحشاء الميت الى عضلاته، مايجعل أكلَها ضاراً، كما أن تحلُّل أعضاء الحيوان الميت ينتج عنه مواد كيمياوية ضارة».

وقال أيضاً: «الخنزير حيوانٌ لاحم و عشبي تجتمع فيه الصفات السبعية والبهيمية، وهو موغل في القذارة يأكل كل شيء، فيأكل القمامات والفضلات والنجاسات بشراهة ونهم فيكنسها! وهو مفترس يأكل الجرذ والفئران وغيرها، كما يأكل الجيف حتى جيف أقرانه! لذلك كان رجساً، كما وصفته الآية الكريمة، فضلا أنه عديم الغيرة حتى على عائلته.

إن الأمراض التي تصيب الخنزير كثيرة تقارب (٤٥٠) مرضاً، والأمراض التي ينقلها الخنزير للإنسان على نوعين، الأول: الأمراض المعدية (الطفيلية)، والثاني: الأمراض العضوية (الجسمية غير الطفيلية).

فمن النوع الأول (الأمراض الطفيلية):

فالخنزير وسيط لنقل مايقرب من (٧٥) مرضاً طفيلياً إلى الإنسان بعضها خطير وقاتل، ويختص الخنزير بمفرده بنقل (٣٧) مرضاً وبائياً مُعْدِياً، وتشاركه بعض الحيوانات بنَقْلِ بقية الأمراض، لكنه يبقى المصدر الرئيس لهذه الأمراض، وهذه الأوبئة تنتقل من الخنزير الى الإنسان بطرق مختلفة أهمها:

أ- عن طريق مخالطته أثناء تربيته أو التعامل مع منتجاته (أمراض مهنية): وهي لا تقل عن (٣٢) وباءً تصيب غالباً عمال الزرائب والمجازر والبيطريين، ومنها: أنواع من الفطور العميقة، والزحار، والديدان، والزحار الزقي، و الحمَّى اليابانية الدماغية، والتهاب الفم البثري الساري.

ب- عن طريق تلوث الطعام والشراب بفضلاته: وهي لا تقل عن (٢٨) مرضاً، منها: الزحار، والإسكاريس، والانسمام الوشقي، والديدان القنفذية والكبدية والمفلطحة وشوكية الرأس، والدودة المسلحة الخنزيرية، والشعيرات الحلزونية، وغيرها.

ج- عن طريق تناول لحمه ومنتجاته: وهي أكثر من (١٦) مرضاً، منها: داء المبيضات، وداء الحويصلات الخنزيرية، والحمّى المالطية، والدودة الكبدية، وداء وايل، والدودة الحلزونية الشريطية، والسل، وغيرها.

ومن النوع الثاني (الأمراض العضوية غير الطفيلية):

أ- السرطان: يحتوي جسم الخنزير على كميات كبيرة من هرمون النمو (Growth Hormone)، والهرمونات المنمّية للغدد التناسلية (Gonadotrophis)، لذلك تزداد الإصابة بالسرطان عند آكلي لحم الخنزير، فقد أظهرت الدراسات الطبية وجود علاقة قوية بين استهلاك لحم الخنزير وسرطان الأمعاء الغليظة والمستقيم والبنكرياس والكبد والمرارة بصورة عامة عند الجنسين، وسرطان الثدي وعنق وبطانة الرحم عند المرأة بصورة خاصة.

ب- السمنة، وأمراض الشرايين، والقلب: يوجد الدهن في الخنزير متداخلاً مع أنسجة لحمه وبكميات كبيرة؛ لذلك يبدو لون لحمه وردياً (أحمر فاتح) خلافاً للحوم البقر والغنم والمواشي والدجاج، التي يكون فيها الدهن على شكل نسيج دهني شبه مستقل عن النسيج العضلي، فضلاً أن دهون الخنزير من النوع المشبع الذي لا تقدر إنزيمات الجهاز الهضمي للإنسان على هضمها بسهولة، بخلاف الحيوانات المجترة آكلة العشب، مسبباً ذلك الإصابة بازدياد الدهونات الضارة، كالكلسترول الضار، والغليسيريديات الثلاثية (Dyslipidemia) التي تساعد بدورها على الإصابة بالمجموعة التالية من الأمراض: كتصلُّب الشرايين، والذبحة الصدرية، والجلطات الوعائية القلبية والدماغية، وضغط الدم، وحصوات المرارة، والسمنة، وداء السكر البولي، وما يتبع ذلك من مضاعفاتٍ مرضيةٍ خطيرة .

ج- التهاب المفاصل: يحتوي لحم الخنزير على كميات كبيرة من حامض البوليك (Uric Acid)، حيث إن جسمه لا يتخلص إلا من قدر قليل منه لا يزيد عن ٣٪، بينما يتخلّص الانسان من ٩٠٪ من هذا الحامض، مسبباً بإصابة آكلي لحمه بالتهاب المفاصل، وداء النقرس، وأمراض في الكلى.

د- الأمراض التحسُّسية: يحتوي لحم الخنزير على كميات عالية من مركبات الهستامين والامدازول (Histmamine and Imidazole) مسبِّبةً عند آكليها أمراضاً تحسُّسية جلدية، مثل: الأكزيما، والشري، والحكّة، والتهاب الجلد العصبي، وغيرها، واذا امتنع آكلو لحم الخنزير عن أكله مطلقاً فإن هذه الأمراض التحسسية تختفي! مما يثبت تسبب أكل لحم الخنزير بحدوثها».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ
وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ
وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ
ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

التفسير:

١٧٤ - إنَّ علماء اليهود والنصارى الذين يُخفون ما أنزل الله في التوراة من الحق والهدى، وشأن صفة نبيِّنا محمد ﷺ؛ لقاء عوض حقير من حطام الدنيا، هؤلاء ما يأكلون في بطونهم إلا حراماً يوردهم نار جهنم، ولا يُكلمهم الله كلام رضا يوم القيامة، ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم، ولهم عذاب موجع.

١٧٥ - هؤلاء البعداء عن الحقِّ اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فعجباً لصبرهم وجرأتهم على عمل أهل النار.

١٧٦ - ذلك العذاب بسبب أنَّ الله تعالى نَزَّل كتبه على رسله فيها الحق الثابت فحرَّفوه. وإنَّ اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم بأن آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، وهم في خلاف بعيد عن الحق، وفي عداء أكيد للمؤمنين.

١٧٧ - ليس فعل الخير محصوراً في أن يتوجه المصلي في صلاته نحو المشرق أو المغرب، وإنما الخير كل الخير هو أن يؤمن الإنسان بالله تعالى، وبيوم القيامة، وبالملائكة، وبالكتب المنزلة جميعاً، وبالرسل كافة من غير تفريق، وأعطى المال - مع شدة حبِّه له - لذوي قرابته، واليتامى الذين مات آباؤهم ولم يبلغوا الحُلم، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة، والمسافرين الذين انقطعوا عن مالهم، والسائلين الذين يطلبون العون، وفي الرقاب لتخليص الأسرى والأرقَّاء بالفداء، وأدَّى الصلاة في أوقاتها، وأدّى الزكاة لمستحقيها، وأوفى بالعهد، وصبر في حالة الفقر والمرض وفي شدَّة القتال. هؤلاء أصحاب الدرجات العالية الذين جمعوا بين هذه الصفات، هم الذين صدقوا في إيمانهم بالقول والعمل، وهم الذين حَذِروا عقاب الله وخافوا منه.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيّن هنا ما المراد بالبأس؟ ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البأس القتال، وهو قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] كما هو ظاهر من سياق الكلام».

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مصير الذين يكتمون الحق.

٢- يجب على العلماء بيان شرع الله تعالى، إلا في حالات نادرة كالإكراه.

٣- البرُّ هو كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من الإيمان والأعمال الصالحة.

٤- قال ابن عاشور: «حصل بنصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هنا فائدتان: إحداهما عامة في كلِّ قطع من النعوت، فقد نُقل عن أبي علي الفارسي أنه إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف إعرابها، ولا تُجعل كلها جارية على موصوفها. الفائدة الثانية: أنَّ في نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بتقدير أخُصُّ أو أمدح تنبيهاً على خصيصة الصابرين، ومزية صفتهم التي هي الصبر». (التحرير والتنوير: ١٣٢).

٥- بيان صفات المتقين والصادقين في الآية (١٧٧).

٦- الذين اختلفوا في كتبهم من اليهود والنصارى يبقون دائماً في خصام.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

التفسير:

١٧٨ - يا أيها المؤمنون، فُرض عليكم القصاص من القاتل عمداً، يقوم به ولي الأمر أو مَنْ ينوبه، على أساس المساواة والمماثلة، فيُقتل الحرُّ بمثله، ويُقتل العبد بمثله، والأنثى بمثلها، ويُقتل الرجل بالمرأة، ولا يُقتل المسلم بالكافر كما صحَّ عن النبي ﷺ، كما لا يُقتل الحرُّ بالعبد؛ لعدم المساواة والمماثلة. فمَنْ سامحه وليُّ المقتول، أو بعضُ الأولياء، فإنَّ القصاص يسقط، وتجب على القاتل الدية - وهي مبلغ مالي محدد يدفعه الجاني مقابل العفو عنه - ويلتزم الطرفان بالحقوق، فعلى الذي عفا أن يطلب الدية من القاتل بدون عنف ولا تشديد، ويُنْظره إذا كان معسراً، وعلى القاتل دفع الدية وألَّا يماطل. ذلك العفو هو تيسيرٌ من خالقكم ورحمة بكم، بإسقاط القصاص وانتفاع أولياء المقتول بالمال، فمَنْ اعتدى بعد العفو، كقتل القاتل، أو قتل أقاربه، أو غير ذلك من الظلم، فعقابه عذاب موجع.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان في بني إسرائيل القِصاص، ولم تكن فيهم الدِّية، فقال الله ﷻ لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ بالمعروف ويؤدى بإحسان ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ كتب على مَنْ كان قبلكم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قتل بعد قبول الدية. (صحيح البخاري - العلم، باب ٣٩ برقم ١١١. وصحيح مسلم - الحج، باب فضل المدينة برقم ١٣٧٠). عن علي ﷺ مرفوعاً: «لا يقتل مسلم بكافر».

وقد نصَّ الإمام إسماعيل القاضي الجهضمي في كتابه (أحكام القرآن) على الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فقال: «الجمع بين الآيتين أولى، فتُحمَلُ النفس على المكافئة». (الفتح ١٢/ ١٩٨).

١٧٩- ولكم - أيُّها الناس - في حكم عقوبة القصاص حياة آمنة للمجتمع يا ذوي العقول السليمة، كي تحذروا عقاب الله في الدارين، وهؤلاء أصحاب العقول السليمة هم أهل الطاعة لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨].

١٨٠- سبب النزول:

ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فكان لايرث مع الوالدين غيرهم، إلا وصية إن كانت للأقربين، فأنزل الله بعد هذا: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾[النساء: ١١] فبيّن الله سبحانه ميراث الوالدين، وأقرَّ وصية الأقربين في ثلث مال الميت. (التفسير الصحيح ١/ ٢٧١).

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها قال: «يرحم الله ابن عفراء». قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: الثلث؟ قال: فالثلث والثلث كثير. (صحيح البخاري - الوصايا - ب٢ برقم٢٧٤٢. وصحيح مسلم - الوصية - باب الوصية بالثلث برقم ١٦٢٨)

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقه لا وصية لوارث». (أخرجه أحمد (المسند ٤/ ١٨٧) والترمذي وقال: حسن صحيح (السنن- الوصايا- باب ما جاء لا وصية لوارث برقم٢١٢١) وذكر الحافظ ابن حجر له شواهد كثيرة، ونقل عن الشافعي أنه متواتر (فتح الباري ٥/ ٣٧٢). وصححه الألباني وقال: إنه متواتر، نقلاً عن السيوطي (الإرواء برقم ١٦٥٥).

التفسير:

فُرِضَ عليكم - أيها المؤمنون - إذا أشرف أحدكم على الموت إن ترك مالاً فلْيُوصِ بجزء من ماله للوالدين والأقربين بالعدل والإحسان، وذلك واجب على المتقين الذين يخافون الله، ثمَّ نُسِخَ حكم الوصية للوارث، وبقيت الوصية لغير الورثة.

١٨١- فمَنْ غَيَّر هذه الوصية بعد ما سمعها من الموصي فإنما الذنب على مَنْ غَيَّر. إنَّ الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم.

١٨٢- فمَنْ علم من الموصي ميلاً عن الحقِّ خطأً أو عمداً، فأصلح بين الورثة والموصى له ما وقع من الخلاف بسبب الوصية بإثبات الحقِّ، فلا ذنب عليه في هذا التعديل. إنَّ الله عظيم المغفرة لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «أُعيد الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ لأنَّ هذا صنف من التشريع لأحكام ذات بال في صلاح المجتمع الإسلامي، واستتباب نظامه وأمنه، حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعة ذات استقلال بنفسها ومدينتها». (التحرير والتنوير: ١٣٣).

٢- وجوب إقامة حدِّ القصاص على المجرمين الجناة.

٣- وجوب المساواة في القصاص.

٤- وجوب دفع الدية على القاتل إذا أعفى أولياء المقتول.

٥- الدعوة إلى العفو.

٦- إقامة حدِّ القصاص أَمْنٌ لحياة المجتمع.

٧- التنكير في ﴿حَيَوٰةٌ﴾ للتعظيم بقرينة المقام، أي: في القصاص حياة لكم أي: لنفوسكم؛ فإن فيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أُهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس.

٨- قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ من جوامع الكلم، فاق ما كان سائراً مسرى المثل عند العرب وهو قولهم: (القتل أَنْفَى لِلْقَتْل)». (التحرير والتنوير: ١٤٤).

٩- وجوب تنفيذ الوصية إذا كانت خالية من المخالفات الشرعية.

١٠- خصَّ هذا الحق بالمتقين ترغيباً في الرضا به، فليس في الآية دليل على أنَّ هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة.

١١- يجوز التعديل في الوصية إذا عُلِمَ أن الموصي تلاعب بها.

١٢- استحباب إكرام الأقربين المحتاجين من الإرث.

١٣- إنَّ في تشريع القصاص إقامةً لحقوق الإنسان، ورعاية لها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ
أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ
مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ
ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ
ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ
فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ
فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

التفسير:

١٨٣ - يا أيها المؤمنون، فُرض عليكم الصيام، كما فرضه الله على الأمم السابقة؛ كي تكونوا من المتقين لله، المجتنبين لمحارمه. وذكر العلَّامة ابن عاشور ثلاثة أغراض للتشبيه، أحدها: الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها لأنَّها شرعها الله قبل الإسلام لِـمَنْ كانوا قبل المسلمين، وشرعها للمسلمين، وذلك يقتضي اطِّراد صلاحها ووفرة ثوابها. والغرض الثاني: أنَّ في التشبيه بالسابقين تهويناً على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم؛ فإنَّ في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب. والغرض الثالث: إثارة العزائم للقيام بهذه الفريضة حتى لا يكونوا مقصِّرين في قبول هذا الفرض. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ بيان لحكمة الصيام وما لأجله شُرِع، فهو في قوة المفعول لأجله لكُتب. (التحرير والتنوير: ٢/ ١٥٤-١٥٥-١٥٦).

١٨٤ - فرض الله عليكم صيام أيام محدَّدة بأيام شهر رمضان. فمَنْ كان من المكلفين مريضاً يشق عليه الصيام، أو كان مسافراً سفر قصر - مسافة (٨٩) كيلاً تقريباً - فله أن يفطر، ويجب عليه صيام عدد من أيام أُخر بقدر الأيام التي أفطرها، وعلى الذين يستطيعون صيامه، فهم مخيرون بين الإطعام والصيام. وهذا الإطعام يكون للمسكين قدر نصف صاع من البر، أو صاع من تمر، فمَنْ أطعم أكثر من مسكين واحد،

وزاد على قدر الفدية فهو أفضل وأكثر ثواباً، والصيام خير لهم من الإفطار مع الفدية، إن كنتم تعلمون فضل الصيام، ثمَّ نُسخ هذا التخيير العام بالآية التي تليها، وبقيت رخصة الإفطار وصوم عدَّة من أيام أُخَرَ للمريض والمسافر.

عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: «لما نزلت ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان مَنْ أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها». (صحيح البخاري - التفسير، باب ٢٦ برقم ٤٥٠٧).

١٨٥ - يذكر الله تعالى فضل شهر الصيام؛ لما تميز بنزول القرآن العظيم فيه، أنزله الله هادياً للناس إلى الحق، فيه أوضح الدلائل على هدى الله، وفيه بيان الفارق بين الحق والباطل. فمَنْ حضر منكم الشهر وكان صحيحاً مقيماً فليَصُمْ نهاره، ومَنْ كان مريضاً يشق عليه الصيام، أو كان مسافراً سفر قصر، فله أن يفطر، ثم يقضي عدد تلك الأيام التي أفطر فيها. يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم، ولا يريد بكم المشقة؛ ولتتموا عدة الصيام شهراً، ولتختموا الصيام بالذكر والتكبير لله تعالى في عيد الفطر على ما أرشدكم إليه من معالم الدين؛ ولكي تشكروا الله بالفعل والقول على فضله. عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ ذكَرَ رمضان فقال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تَرَوْه. فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له». (صحيح البخاري - الصوم، باب ١١ برقم ١٩٠٦. وصحيح مسلم - الصيام برقم ٧٦٠).

١٨٦ - وإذا سألك - أيُّها الرسول - عبادي عني فأجبهم بأنّي قريب، أسمع ما يسألون، وأجيب سؤال السائل، فَلْيطيعوني، وليصدِّقوا بي؛ كي يهتدوا إلى سعادة الدارين.

١٨٧ - سبب النزول:

عن البراء ﷺ قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإنَّ قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها:أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته قالت: خيبةٌ لك، فلما انتصف النهار غُشِي عليه. فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾. (صحيح البخاري ، الصوم باب ١٥،برقم ١٩١٥).

عن سهل بن سعد ﷺ قال: «أنزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل من النهار.

(صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة، باب ٢٨ برقم ٤٥١١).

التفسير:

أحَلَّ الله تعالى لكم - أيُّها المؤمنون - في ليالي شهر رمضان جماع نسائكم، هنَّ سكن لكم، وأنتم سكن لهنَّ، عَلِمَ الله أنكم تخونون أنفسكم في جماع نسائكم، حينما كان الصوم يبدأ عند نوم الصائم بعد الإفطار - ثمَّ نُسخ هذا الحكم - فتاب عليكم، وغفر لكم، بأن وَسَّع عليكم، فالآن بعد أن نُسخ هذا الحكم يجوز لكم جماعهن حتى مطلع الفجر، واطلبوا بنكاحهن ما قدَّره الله لكم من الأولاد، ومباح لكم الأكل والشرب حتى يطلع الفجر عند ظهور النور في الأفق، ويتميز من ظلمة الليل، ثم أمسكوا عن الطعام والشراب ونكاح النساء إلى الليل بغروب الشمس، ولا يجوز لكم نكاح النساء حالة كونكم مقيمين في المساجد للاعتكاف. تلك الأحكام العظيمة التي شرعها الله فلا تخالفوها. وبمثل هذا التوضيح يبيِّن الله أحكام دينه للناس؛ ليطيعوا ربهم، ويحذروا مخالفة أحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٨٣) استعمال لأسلوب المقايسة القائم على مقارنته بغيره، وفي ذلك تحفيز للناس على الامتثال؛ إذ النفسُ ميالةٌ إلى محاكاة غيرها، والتفاعل معها. فيشعرها ذلك بعدم الوحشة والغرابة.

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ استخدام لأسلوب الترغيب الذي يحرك النفوس للامتثال لما يجنيه من الخير في الحال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وإما في المآل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق.

٣- فرضية صيام شهر رمضان.

٤- غاية الصوم تحقيق تقوى الله.

٥- فرض الصيام في الأديان كلها.

٦- قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «إن الصيام يشتمل على مرحلتي الهدم و البناء (Catabolisim and Anabolisim) لأنسجة الجسم وخلاياه، فبعد وجبتي الإفطار والسحور (والتي تعادل وجبتي العشاء والفطور الصباحي)، يبدأ البناء للمركبات الهامة في الخلايا، وبعد إكمال فترة امتصاص وجبة السحور يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين (النشويات) (Glucogen) أولاً، والدهون (الشحوم) (Fat) ثانياً، والبروتين (الزلال) (Protein) ثالثاً وأخيراً ليمد الجسم بالطاقة اللازمة أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام، ويحقق بذلك الفوائد الكثيرة والتي سنذكرها لاحقاً، وحتى نتعرف على هذه الفوائد علينا معرفة آلية وفسلجة عمل الصوم، وذلك من خلال العمليات الاستقلابية (الأيضية) (Metabolism) التي تصاحبه، ومن أهمها:

أ- راحة الجهاز الهضمي: يُمَكِّن الصيام الجهاز الهضمي وملحقاته من أداء وظائفه على أكمل وجه، وذلك بعد تناول الطعام والشراب (الوجبة الغذائية) الذي يستغرق هضمها وامتصاصها نحو خمس ساعات (مدة الهضم والامتصاص)، إن مدة الصيام في رمضان تتراوح مابين ١٢-١٦ ساعة في المتوسط، وخلايا الجسم تتغذى باستمرار، ولاينقطع عنها التزود بالطاقة، ولكن في حالة الصيام يبدأ الصيام الحقيقي بعد ٧-١١ ساعة (مدة ما بعد الامتصاص) وذلك بعد وجبة السحور؛ لذلك كان حَثُّ النبي ﷺ وتأكيده على ضرورة تناول وجبة السحور، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحَّروا.. فإن في السحور بركة» متفق عليه. وذلك لإمداد الجسم بوجبة بناء، وبالإمكان تقليص فترة ما بعد الامتصاص إلى أقل زمن ممكن عن طريق تأخير السحور وتعجيل الإفطار، كما جاء ذلك في سنته ﷺ حيث قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور» متفق عليه. وفي ذلك يحقق الصوم راحة فسيولوجية لآليات الهضم والامتصاص، وذلك بعدم إدخال الجديد من الطعام والشراب على الوجبة الغذائية أثناء هضمها وامتصاصها.

ب- تنظيف الأمعاء: تسريع آليات الانقباضات الخاصة (Migrating Motor Complex) في الجهاز الهضمي بتنظيف الأمعاء من الفضلات، وتحقِّق بعض الراحة من عملها المستمر السابق في التقلصات والإفرازات.

ج- تنشيط آليات الاستقلاب (العمليات الأيضية) (Metabolism): حيث يتم تفعيل هذه الآليات في البناء والهدم للنشويات والدهون والبروتينات في الخلايا، لتقوم بوظائفها على أكمل وجه، حيث إنه بعد امتصاص وجبة السحور وإكمال عمليات البناء تبدأ عمليات الهدم والاستقلاب للمخزون الغذائي في الجسم خاصة من كلايكوجين الكبد ودهونه، وكذلك من الدهون المتراكمة في الجسم، فتنشط آليات تحلل كلايكوجين وأكسدة الدهون وتحلل البروتين وتكوين الكلوكوز الجديد منه. إن الجسم إذا اقتصر على البناء فقط وكان همه التخزين للغذاء في داخله، فإن آليات البناء تغلب آليات الهدم، فيعتري الأخيرة (لعدم استخدامها) وهن تدريجي، وترهل في الجسم وظائفه، وتظهر ملامحه عند تعرض الجسم لشدة مفاجئة بانقطاع الطعام أو الشراب عنه في الصحة أو المرض، فقد لا يستطيع هذا الإنسان مواصلة حياته أو مقاومة مرضه، كالجيش في حالة السلم، فإنه إن لم يقم بالمناورات والتدريبات وتنشيط قواته الدائمية والاحتياطية بين فترة وأخرى، فإنه سيصاب بالترهل والضعف، ولا يستطيع تفعيل قواته، وخاصة الإحتياطي منها عند الحالات الطارئة!.

د- إزالة السموم والدهون من الكبد: إن عمليات الهدم (Catabolism) في الكبد أثناء الصيام تغلب عمليات البناء (Anabolism)، فيوفر ذلك فرصة للكبد بطرح السموم المتراكمة في خلايا الجسم وإزالة سُمِّيتها (Detoxification)، وكذلك التخلص من الدهون المتراكمة فيه، خاصة لدى الأشخاص الذين يعانون من السمنة والبدانة وتراكم الدهون الكبدية (Fatty Liver)، فضلاً أنه في الصوم تتحول كميات كبيرة من الدهون المخزونة في الجسم (خاصة في الأحشاء الداخلية وتحت الجلد) إلى الكبد، حيث تؤكسد فيه ويُنتفع بها، وتستخرج السموم الذائبة فيها ويُتخلص منها مع بقايا نفايات الجسد، كما أن الدهون المتجمعة في الكبد تساعد مادة الكولستيرول الموجودة فيه على زيادة إنتاج مركبات الصفراء من الكبد (Bile Acids and Salts)، والتي تقوم بدورها بإذابة هذه المواد السامة والتخلص منها مع البراز.

هـ- تكوين المركبات الحيوية من البروتين: بالنسبة للبروتين فإن الأحماض الأمينية (AminoAcids) هي الوحدات الأساسية له، والتي بدورها تشكل البنية الأساسية للخلايا، وفي الصوم تتجمع الأحماض الأمينية الناتجة عن عمليات هدم الغذاء في الكبد ويحدث تحول داخلي واسع النطاق لها (Interconversion)، ودمجها مع جزيئات أخرى كالبيورين والبيروفين (Purines and Prophyins)؛ لصناعة أنواع جديدة من البروتينات الخلوية والبلازمية والهرمونات، وغير ذلك من المركبات الحيوية.

و- منظومة الغدد الصماء وتنشيطها: يُمكِّن الصيام الغدد الصماء (الهورمونات) ذات العلاقة بعمليات الاستقلاب في فترة ما بعد الامتصاص من أداء وظائفها في تنظيم وإفراز هرموناتها الحيوية على أتم حال، وذلك بتنشيط آليات التثبيط والتنبيه لها يومياً، ولفترة دورية ثابتة ومتغيرة طوال العام، مثل هرمونيّ البناء، وهما هرمون النمو والإنسولين (Growth Hormone and Insuline)، وهورموني الجلوكاجون والكورتيزول (Glugacon and Cortisol)، كهرمونات هدم من ناحية أخرى، وكذلك تحفيز بقية الغدد الصماء المطلوبة وتنشيطها، كالهرمون المضاد لإدرار البول (ADH)، وزيادة القدرة على عمل الكلى لامتصاص الماء، ولتركيز أملاح البول، والمحافظة على معدلات الأملاح، وقوة التناضح (الأسموزية) في مصل الدم ضمن معدلاتها الطبيعية، وتتحسن هذه الخاصية بمرور أيام الصوم في رمضان بالرغم من ازدياد درجة الحرارة وامتداد ساعات الصوم من بداية الشهر إلى نهايته في بعض الفصول! حيث وجد أن المعدلات الاسموزية في مصل الدم في نهاية رمضان مساءً (قبل الإفطار) مساوٍ لمعدلاتها في بدايته صباحاً للأيام الأولى منه، حيث يتأقلم ويتهيأ الجسم بهذه الآلية.

ز- التحرير الذاتي (الداخلي) للماء: إن الله ﷻ جعل للجسم البشري مقدرة على صنع الماء من خلال العمليات والتحولات الكيميائية العديدة التي تحدث في جميع خلايا الجسم، إذ يتكون الماء أثناء العمليات الأيضية المختلفة (Metabolisim)، وقد قدَّر العلماء كمية هذا الماء من ثلث إلى نصف لتر يومياً. ويسمى التحرر الذاتي (الداخلي) للماء (Intrinsic Water)، وفي حاله الصيام يتحرر (٤) ملم مكعب من الماء عند تحلل كل غرام واحد من كلايكوجين الكبد (والذي تزداد كميته بمرور أيام الصوم في رمضان)، محققاً بذلك التروية الداخلية للجسد، ومزيلاً للعطش عند الصائم! وصولاً بالمحافظة على المستويات الطبيعية للأسموزية في الدم (Serum Osmolality)، كما جاء أعلاه.

ح- التكوين الذاتي (الداخلي) للجلوكوز: كما خلق الله للإنسان ماءً داخلياً فقد خلق له طعاماً داخلياً أيضاً! فمن نفايات أكسدة الجلوكوز يُصنَّع الجلوكوز مرَّة أخرى (الذي هو من أهم مصادر الطاقة للجسم وخلاياه)، حيث يتحول كل من حمض اللاكتيك والبيروفيت (Lactic acid & Pyruvate) إلى جلوكوز مرة أخرى! حيث تتوجه هذه النفايات إلى الكبد، فيجعلها وقوداً لتصنيع جلوكوز جديد في الكبد، ويتكون يومياً حوالي (٣٦) جراماً من هذا الجلوكوز الجديد من هذين الحمضين، غير الذي يتكون من الجليسرول والأحماض الأمينية (Glycerol & Amino acid)».

وقال أيضاً: «بناءً على ما ذكرنا أعلاه عن آليات عمل الصوم فإن أهم فوائده الصحية وحسب ما توصل إليه الطبّ حديثاً – وهو غيض من فيض – بأنّ الصوم الصحيح وقاية وشفاء لكثير من الأمراض، من أهمّها: زيادة الوزن – داء السمنة – وما يرافقها من مضاعفات، كارتفاع ضغط الدم، وداء السكر، خاصة من النوع الثاني، والمتلازمة الأيضية (Metabolic Syndrome)، وتصلب الشرايين، والتهاب المفاصل العظمي، وحصوات المرارة، والكبد الدهني- تَشَحُّم الكبد -، والقصور الوظيفي في مختلف أعضاء الجسم، فضلاً أن الصوم يقوي جهاز المناعة والقلب، والدورة الدموية، والجهاز العضلي، ويقوي الذاكرة والملكات الذهنية في الإنسان، ويوصي بعض الأطباء النفسيين إلى علاج مرضاهم بالصوم من حالات: القلق النفسي، وعصاب الوسواس القهري، وجموح الرغبة الجنسية، والعادات الضارة: كالتدخين، والخمر، والمخدرات والإدمان عليها، حيث إن الصوم مدرسة الصبر، والصبر نصف الإيمان، والصائم الحقيقي سيد على أهوائه وشهواته وتصرفاته السلوكية، ويقوي إرادته! وقد يكتشف الطب مستقبلاً كثيراً من الفوائد الصحية للصوم وقاية وعلاجاً».

٧- الترخيص لِـمَنْ لا يستطيع الصيام من المرضى بالإفطار، ودفع الفدية أو القضاء.

٨- عظمة شهر رمضان لأنَّ فيه نزول القرآن الكريم.

٩- جواز الإفطار في السفر والقضاء بعد ذلك.

١٠-بشرى استجابة الدعاء، وأن الله تعالى قريب من عباده بعلمه. قال ابن عاشور: «قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ولم يَقُلْ: فقل لهم: إني قريب؛ إيجازاً لظهوره من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وتنبيهاً على أنَّ السؤال مفروض غير واقع منهم بالفعل. وفيه لطيفة قرآنية، وهي إيهام أنَّ الله تعالى تَوَلَّى جوابهم عن سؤالهم بنفسه؛ إذ حذف في اللفظ ما يدل على وساطة النبي ﷺ؛ تنبيهاً على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء. وفي هذه الآية إيماء إلى أنَّ الصائم مَرْجُوُّ الإجابة، وإلى أنَّ شهر رمضان مَرْجُوَّةٌ دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان». (التحرير والتنوير: ٢/ ١٧٦-١٧٧).

١١-جواز الجماع والأكل والشرب ليلاً.

١٢-لا يجوز الجماع عند عقد النية على الاعتكاف.

١٣-وجوب الإمساك عن الطعام والشراب والجماع، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

١٤-ينظر: صورة بزوغ الفجر، كما في الملحق.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

التفسير:

١٨٨- ينهى الله تعالى عن أخذ أموال الناس بغير وجه شرعي، كما ينهى عن دفع الرشوة إلى الحكام؛ ليُعينوكم على أَخْذِ قَدْرٍ من المال بالباطل، وأنتم تعلمون تحريم ذلك عليكم.

١٨٩ - سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الجيد عن أبي العالية قال: «بَلَغَنا أنهم قالوا: يا رسول الله لِمَ خُلقت الأهلة؟ فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدَّة نسائهم ومحل دينهم». وأخرجه الطبري بنحوه بسند حسن عن قتادة، فيتقوّى المرسَل بالمرسَل. (التفسير الصحيح ١/ ٢٨٦).

عن البراء ﷺ قال: «كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾».

(صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة - باب ٢٩ برقم ٤٥١٢).

التفسير:

يُبَيِّن الله تعالى الفائدة والحكمة من أحوال الأهلة في كل شهر بالزيادة والنقصان، فيذكر أنَّ الصحابة ﷺ سألوا النبي ﷺ عنها، فأجاب الله تعالى: بأنها علامات يعرف بها الناس أوقات عباداتهم المحددة بوقت، كالصيام، والحج، والزكاة، وغيرها من المصالح، وليس عمل الخير الاقتداء بموروث الجاهلية، بأن تدخلوا المنازل من ظهورها حين تُحْرِمون بالحج أو العمرة، ولكن الخير هو في تقوى الله، بالتزام أوامره واجتناب معاصيه، وادخلوا المنازل من أبوابها، واخشوا الله تعالى في أحكامه؛ كي تفوزوا بسعادة الدارين.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لم يصرح هنا بالمراد بمن اتقى، ولكنه بَيَّنه بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

١٩٠ - يُعَلِّم الله تعالى المؤمنين أصول الجهاد في سبيل الله للتعامل مع المحاربين للإسلام والمسلمين، فيخاطب المؤمنين: قاتلوا الذين يقاتلونكم من الكفار لنصرة دين الله، ولا تعتدوا على المحاربين بالتمثيل، ولا على غير المحاربين من النساء والأطفال والعجزة، ثم أكَّدَ سبحانه هذا النهي بنفيه محبَّته للمعتدين، وسيعاقبهم.

١٩١ - واقتلوا المشركين المحارِبين الذين بدؤوكم بالقتال أينما وُجِدوا إلا في المسجد الحرام، وأخْرِجوهم من ديارهم مثل ما أخرجوكم من مكّة. وهذا الأمر أهمية؛ لأنَّ الشرك وفتنة المؤمنين عن دينهم أعظم

جرماً من قتلهم، ولا تبدؤوهم بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدؤوكم بالقتال فيه، فإن قاتلوكم فيه فقاتِلوهم فيه. مثلَ ذلك العقاب يكون جزاء المكذِّبين لله ورسوله.

١٩٢ - فإن رجعوا عن الكفر والقتال فكُفُّوا عنهم، فإنَّ الله غفور لعباده، رحيم بهم، والإسلام يَجُبُّ ما قبله.

١٩٣ - وقاتلوا المشركين المحاربين حتى لا تكون فتنة للمسلمين عن دينهم، وحتى لا يبقى شِرك بالله، ويبقى الدين لله وحده خالصاً، فإنْ كَفُّوا عن الكفر والقتال فكُفُّوا عنهم، فلا عقوبة إلا على المُصِرِّين على شركهم، ومحاربتهم للمسلمين.

١٩٤ - ومَنْ قاتلكم في الأشهر الحرم - وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب - فقاتلوه فيها، وهكذا في كل الحرمات والمقدسات الزمانية والمكانية، وغيرها، فإن الجزاء من جنس العمل بالمثل. فمَنْ استباح قَتْلَ النفس البريئة هُدر دمه، وللمعتدَى عليه ردُّ العدوان بمثله، وخافوا الله مِن تَجاوُزِ حدوده، واعلموا أنَّ الله مع المتقين بالعون والنصر.

١٩٥ - سبب النزول:

عن حذيفة ﷺ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ قال: «نزلت في النفقة».

(صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة - باب ٣١ برقم ٤٥١٦).

التفسير:

وبما أنَّ القتال في سبيل الله يحتاج إلى المال، فقد أمر الله تعالى بإنفاق المال لنصرة دين الله والجهاد في سبيل الله، كما نهى عن تَعَرُّض النفس للهلاك بسبب البخل وعدم الإنفاق الذي يؤثر في مسار الجهاد في سبيل الله، وأحسنوا في الإنفاق والإخلاص في العمل. إنَّ الله يحب الذين يُحْسِنون لأنفسهم وأُمتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تحريم أكل أموال الناس بالباطل.

٢ - تحريم دفع الرشوة لأي مسؤول.

٣ - قرار الحاكم ما يدل عليه الظاهر، لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّم حلالاً.

٤ - ينظر: صورة الأهلة، كما في الملحق.

٥ - الآية (١٨٩) فيها تنبيه على وصل العلم بالعمل والسؤال عما فيه عمل لتربية الفكر على البحث فيما يترتب عليه فائدة تعود على المرء بما يصلح دينه وآخرته.

٦- في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ اهتمام بحقيقة المفهوم والمصطلح وأن تسمية الأشياء على غير حقيقتها مضر بسلوك الفرد وتصوره. ومرجع ذلك في الدين كتاب الله وسنة رسوله، فالخير ما دلانا عليه والشر ما حذرانا منه.

٧- وجوب جهاد الدفع إذا اعتُدِي على الوطن أو على المسلمين.

٨- تحريم الاعتداء في الحرب على الأطفال والنساء والتمثيل بالأسرى.

٩- تحريم القتال في المسجد الحرام إلا إذا باشر العدوُّ القتالَ فيه.

١٠- تحريم القتال في الأشهر الحرم.

١١- وجوب إيقاف القتال إذا توقف العدو عن القتال.

١٢- من استباح دَمَ غيره حُلَّ إباحة دمه، سواء في الحرم أو في الأشهر الحرم وغيرهما.

١٣- وجوب المماثلة في ردِّ الاعتداء. ويُستنبط من ذلك وجوب الإعداد لكل ما تحتاج إليه الأُمة، حسبما تمتلكه الأُمم الأخرى.

١٤- ترك الإنفاق في سبيل الله يؤدي إلى الضعف والبوار.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى؛ فإنَّه يحب مَنْ أحسن في القول والعمل.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

١٩٦- سبب النزول:

عن كعب بن عجرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ وقف عليه ورأسه يتهافت قملاً، فقال: أيؤذيك هوامُّك؟ قلت: نعم. قال: فاحلق رأسك. قال: ففيَّ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ

﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فقال لي رسول الله ﷺ: «صُمْ ثلاثة أيام، أو تَصَدَّقْ بعذق بين ستة مساكين، أو انسك ما تيسر». (صحيح البخاري – تفسير سورة البقرة – باب ٣٢ برقم ٤٥١٧. وصحيح مسلم – الحج – باب ١٠ برقم ٨١، واللفظ لمسلم).

وفي رواية لمسلم بلفظ: «احلق رأسك ثم اذبح شاة نُسُكاً». (الصحيح – الحج برقم ٨٤).

التفسير:

وأدُّوا مناسك الحج والعمرة على وجه التمام والكمال بأركانهما وشروطهما، قاصدين بهما وجه الله، فإن منعكم من إتمامهما عدو أو مرض أو نازلة وأنتم حُرم، فيجب عليكم ذَبْحُ ما تيسَّر من الإبل أو البقر أو الغنم للتحلُّل من الإحرام، ولا تحلقوا رؤوسكم للإحلال من الإحرام حتى يُذْبَحَ الهدي في الحرم أو في مكان الإحصار، ثم يحل من إحرامه. ومَنْ كان مريضاً، أو برأسه علَّة تستوجب الحلق، فليحلق، ويجب عليه فدية يخير فيها: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو إهداء شاة لفقراء الحرم. فإذا كنتم في صحة وأمن من الخوف، فمَنْ استمتع بالعمرة إلى الحج - أي: تحلَّل بعمرة فاستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب، والنساء، وغيرها – أو قَرَنَ العمرة بالحجِّ فعليه ذَبْحُ ما تيسر من الهدي – المذكور سابقاً – ، فمَنْ لم يملك ثمن الهدي، فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة منها في أشهر الحج، والسبعة الأخرى يصومها عند الفراغ من أعمال الحج والرجوع إلى الأهل. تلك عشرة أيام كاملة لابد من صيامها. وذلك الحكم في التمتع والهدي لغير أهل الحرم المقيمين في مكة. واتقوا الله في أحكامه، واعلموا أنَّ الله شديد العقاب لِـمَنْ خالف أمره.

١٩٧ – سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يَحُجُّون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾».

(صحيح البخاري – الحج، باب ٦ برقم ١٥٢٣).

التفسير:

زمن الحجِّ يستغرق أشهراً معلومات، وهي: شوَّال، وذو القعدة، وذو الحجَّة أو عشر من ذي الحجَّة، فمَنْ ألزم نفسه الحج بالإحرام فيحرم عليه الجماع ودواعيه، ويحرم عليه المعاصي، والجدال الذي يفضي إلى النزاع. وما تفعلوا في الحج من أعمال البر يعلمه الله ويثيب عليه، وتزودوا للحج بزاد الطعام والنفقة، وللآخرة بالعمل الصالح، فإنَّ خير ما تزودتم به هو التقوى، وخافوا عذابي يا أصحاب العقول السليمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:... وأشهر الحج التي ذكر الله تعالى: شوال وذو القعدة وذو الحجة فمن تمتع في هذه الأشهر فعليه دم أو صوم. (صحيح البخاري - الحج، باب ٣٧ برقم ١٥٧٢).

١٩٨ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثَّموا أن يَتَّجِروا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج». (صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة، باب ٣٤ برقم ٤٥١٩).

التفسير:

لا حرج ولا إثم عليكم أن تطلبوا الرزق بالربح من التجارة أيام الحج، فإن انطلقتم من عرفات إلى المزدلفة فاذكروا الله باتباع النبي ﷺ، وإن كنتم من قبل هذا الهدي لَـمِنَ الجاهلين البعيدين عن الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العناية بشعائر الحج والعمرة والقيام بها حسبما أمر الله تعالى، ومنها إتمام الحج والعمرة لِـمَنْ بدأ فيهما من الميقات، فلا يجوز له التحلل منهما قبل تمام الحج، ما لم يتعرض لإحصار.

٢- التيسير للمحرم في الحج: فله أن يتحلل من الإحرام إن أصابه مرض أو فاجأه عدو، يَفْدي عن ذلك ما تيسر من الإبل أو البقر أو الغنم، وله أن يحلق إذا أصيب بأذى في رأسه، ويدفع فدية ذلك.

٣- إباحة التمتع في الحج من التيسير في الحج.

٤- في الآية (١٩٧) بيان أن التخلص من هذه الآفات يحتاج إلى دفع نوازع الشر وإعمال العقل الذي يختار الأبقى على الفاني ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾.

٥- تحريم الجماع ودواعيه في الحج، وكذلك تحريم الجدال فيما لا ينفع.

٦- الحثُّ على أعمال البرّ في الحج.

٧- جواز التجارة والعمل للمحرم في الحج.

٨- ينظر: صورة موقع عرفات ومزدلفة، كما في الملحق.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ
مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ
إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا
تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى
نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

التفسير:

١٩٩- ثم اندفعوا من المزدلفة صباح يوم العيد لرمي الجمار وذبح الهدي وبقية أعمال الحج. وهذا يشمل أيضاً أمر الاندفاع من عرفات التي أفاض منها إبراهيم ﷺ، مخالفين بذلك مَنْ لا يقف بها من أهل الجاهلية، واسألوا الله تعالى المغفرة. إنَّه غفور لعباده المستغفرين، رحيم بهم.

٢٠٠- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهمَّ اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام وِلادٍ حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

(ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٣٠٣).

التفسير:

فإذا فرغتم من أعمال الحج، فأكثروا من ذكر الله بالتهليل والتكبير والثناء، مثل ذكر مفاخر أسلافكم، بل أكثر ذكراً وتضرعاً، فمِنَ الناس من يقتصر على طلب الدنيا وما فيها، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة نصيب؛ لأنَّ هَمَّهم الدنيا.

٢٠١- ومِنَ الناس طائفة من المؤمنين يسألون الله تعالى من نِعَمِ الدنيا، وكذلك يسألونه الجنة في الآخرة، وأن ينجيهم من عذاب النار.

٢٠٢- أولئك أصحاب الدرجات العالية الذين جمعوا بدعائهم سعادة الدارين لهم ثواب عظيم؛ بسبب ما قدَّموه من الأعمال الصالحة. والله سريع الحساب لجميع خلقه.

٢٠٣- واذكروا الله تعالى تعظيماً وشكراً له في أيام التشريق الثلاثة (١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجَّة) فمَنْ أراد التعجل بالخروج من منى قبل غروب الشمس في اليوم الثاني عشر فلا حرج عليه، فقد قضى حَجَّه، إن كان قد اتقى الله في حَجِّه ولم يرفث ولم يفسق، ومَنْ تأخر إلى اليوم الثالث عشر فلا حرج عليه، إن اتقى الله في حجِّه. وخافوا الله في جميع أموركم، واعلموا أنكم مجموعون إلى الله في الآخرة؛ لنيل الجزاء.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النحر ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يقول: مَنْ نفر من مِنَى في يومين بعد النحر فلا إثم عليه ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تأخره فلا حرج عليه.

٢٠٤-٢٠٥- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أصيبت هذه السرية أصحاب خبيب بالرجيع بين مكة والمدينة، فقال رجال من المنافقين: يا ويحَ هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا! لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدَّوا رسالة صاحبهم! فأنزل الله ﷻ في ذلك من قول المنافقين، وما أصاب أولئك النفر من الشهادة والخير من الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يظهر بلسانه من الإسلام ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ أي: من النفاق ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي: ذو جدال إذا كلَّمك وراجعك ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: خرج من عندك ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب عمله ولا يرضاه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الذين شَرَوا أنفسهم لله بالجهاد في سبيل الله والقيام بحقه حتى هلكوا على ذلك - يعني هذه السرية - أخرج الشيخان عن عائشة مرفوعاً: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ».

(صحيح البخاري- تفسير سورة البقرة، باب ٣٧ برقم ٤٥٢٣، وصحيح مسلم- العلم، باب الألد الخصم برقم ٢٦٦٨).

التفسير:

يُحَذِّر الله تعالى محمَّداً ﷺ والمسلمين من المنافقين: وبعض الناس من المنافقين يروقك - أيها النبي - قوله في الدنيا بفصاحته ومجاملته للمؤمنين، ويحلف على صدق ما في قلبه من محبة الرسول والإسلام، وهو أشد الناس عداوة وخصومة للمؤمنين، وإذا انصرف عنك بذل جهوده ليفسد في الأرض بالتخريب، ويدمِّر الزرع وذرية الإنسان ونسل الحيوان. والله لا يحب عمل الفساد، ولا يرضى به.

٢٠٦- وإذا وُعِظَ ذلك المنافق، وذُكِّر بالله والخوف منه، فإنه يرفض، وتحمله الأنفة والكِبْر على الاستمرار بفعل الفساد والملابسة للإثم والظلم، فعقابه نار جهنم تكفيه، وبئس الموضع الذي يُؤْويه.

٢٠٧- وبعض الناس من المؤمنين يبيع نفسه طلباً لرضا الله عنه بالجهاد في سبيل الله، والقيام بحقه حتى بلوغ أجله. والله شديد الرأفة بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- جواز التعجل بالخروج من منى قبل غروب الشمس في اليوم الثاني عشر.

٢- من علامات المنافقين القول الجميل مع العمل السيء.

٣- تحذير المؤمنين من مكر المنافقين.

٤- المنافق يرفض النصيحة والوعظ غالباً.

٥- يقول الخبراء: من وسائل المفسدين في الأرض في إهلاك الحرث:

أ- استخدام كيماويات خطرة بتركيزات مميتة للمزروعات ومبيدة للثروة النباتية في الدول المعادية لها. ومن أشهر هذه المواد الحربية مادة T4D وهي تسبب حدوث سرطانات في جسم النبات، واستخدام القنابل الذرية والهيدروجينية.

ب- إحراق النباتات بالقنابل الحارقة مثل النابالم الشديد الاشتعال وغيره من وسائل الإحراق.

(الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٧٦-٧٧).

٦- إنَّ المؤمن إذا أخطأ أو أذنب لم تأخذه أنفةٌ ولا كِبْرٌ عن الاعتراف بالذنب، والإقلاع عنه حال النصيحة له.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ
فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ
إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ
ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٠٨- يخاطب الله جميع المؤمنين: ادخلوا في الإسلام بكلِّيته، عاملين بجميع أحكامه، وادخلوا في السلم جميعاً، ولا تتبعوا مسالك الشيطان وأعماله. إنه لكم عدو ظاهر العداوة، ومن ذلك إشعال الفتن بينكم.

٢٠٩- فإن اتبعتم مسالك الشيطان، وعَدَلْتم عن طريق الحق بعد ما قامت عليكم الحجج الواضحة، فاعلموا أنَّ الله عزيز في انتقامه، حكيم في أحكامه.

٢١٠- يُنكر الله على الكفار ويهددهم: ما ينتظر هؤلاء الكفار بعد قيام الحجج الواضحة إلا أن يأتيهم الله فيما يشاء في كُتَل مُظِلَّةٍ من السحاب، وأن تأتي الملائكة المكلَّفون بأمور العباد لتنفيذ أمر الله فيهم، وإلى الله مرجع أمور العالمين.

٢١١- يوبِّخ الله بني إسرائيل في زمن النبيِّ ﷺ، فيأمر نبيَّه ﷺ أن يسأل ذريَّة يعقوب عليه السلام: كم أعطيناهم من المعجزات الواضحة التي تُرْشدهم إلى الحقِّ، ولكنَّهم جحدوها وحَرَّفوها. ومَنْ يجحد الحقَّ ويغيِّره بعد معرفته فإنَّ الله شديد العقاب له.

٢١٢- جُعلت شهوات الدنيا قرة عين للذين كذَّبوا بالله ورسوله، وهم يهزؤون بالمؤمنين. والذين خافوا الله فوق الذين كفروا يوم القيامة؛ لأنهم في درجات عالية من الجنة، ويضحكون من الكفار الذين سيستقرون في الدرك الأسفل من النار، والله يمنح الرزق الواسع مَنْ يشاء من خلقه بغير حساب.

قال ابن عاشور: «حُذف فاعل التزيين؛ لأن المزيِّن لهم أمور كثيرة: منها خَلْقُ بعض الأشياء حسنة بديعة كمحاسن الذوات والمناظر، ومنها إلقاء حُسن بعض الأشياء في نفوسهم، وهي غير حسنة كقتل النفس. وقوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف على جملة ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إلخ، وهذه حالة أعجب من التي قبلها، وهي حالة التباهي والغرور؛ إذ لم يقتصروا على افتتانهم بزهرة الحياة الدنيا حتى سخروا بمَنْ لم ينسج على منوالهم من المؤمنين». (التحرير والتنوير: ٢/٢٧٨-٢٧٩).

٢١٣- كان الناس منذ زمن آدم إلى زمن نوح متفقين على الإيمان بالله تعالى، ثم اختلفوا، فبعث الله الأنبياء هداية للبشر، مبشِّرين المؤمنين بالجنة، ومُنذرين الكفار من النار، وأنزل معهم الكتب السماوية بالحق الثابت ليحكموا بها فيها بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف في الكتب السماوية إلا اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل؛ إذ فيها الأدلة الواضحة على صدق الكتاب ونبيه محمد ﷺ. وهذا الخلاف من أجل الظلم والحسد، فوَفَّق الله المؤمنين بفضله إلى تمييز الحق من الباطل، والله يُوَفِّق مَنْ يشاء من عباده إلى الطريق القويم.

أخرج الطبري والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشِّرين ومُنذرين. قال: «وكذلك هي في قراءة عبدالله: «كان الناس أُمة واحدة فاختلفوا».

(وصححه الحاكم ووافقه الذهبي- المستدرك ٢/ ٥٤٦. وصحح إسناده ابن كثير في التفسير ١/ ٢٥٠).

قال ابن عاشور: «والتعريض بأهل الكتاب - وهم أشهر أهل الشرائع يومئذٍ - فيما صنعوا بكتبهم من الاختلاف فيها، وهذا من بديع استطراد القرآن في توبيخ أهل الكتاب. وجيء بالموصول دون غيره من المعرفات لما في الصلة من الأمر العجيب، وهو أن يكون المختلفون في مقصد الكتاب هم الذين أعطوا الكتاب؛ ليزيلوا به الخلاف بين الناس، فأصبحوا هم سبب خلاف فيه». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- طريق الإسلام واحد، وطرق الشيطان متعددة.

٢- التحذير من مداخل الشيطان.

٣- تقرير أنَّ الله ﷻ يأتي في ظُلَلٍ من الغمام يوم القيامة للحساب.

٤- إعطاء الله تعالى لبني إسرائيل الكثير من الآيات الباهرة والدلائل الظاهرة، ولكنهم لم يَرْعَوْها حق رعايتها.

٥- مَنْ جَحَدَ نِعَم الله تعالى استحق العقاب.

٦- غرور الكفار بملذات الدنيا أحد أسباب السخرية بالمؤمنين.

٧- مقام المؤمنين في الآخرة أعلى وأغلى من منازل الكفار.

٨- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لم يبين هنا فوقية هؤلاء المؤمنين على هؤلاء الكفرة، ولكنه بيَّن ذلك في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٥] وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

٩- قال ابن عاشور: «الآية (٢١٣) تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين، أي: في أصول الإسلام، فالخلاف الحاصل بين علماء الإسلام ليس اختلافاً في أصول الشريعة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٤).

١٠- البشرية كانت على التوحيد مدة عشرة قرون من الزمن، ثم دَبَّ الشرك فيها.

١١- من رحمة الله تعالى إرسال الرسل للتبشير بالجنة، والتحذير من النار.

١٢- الرجوع إلى حكم الله تعالى لحلِّ الخلاف والنزاع.

١٣- المؤمنون يتبعون الحق، فيرشدهم الله إلى الطريق الصحيح.

١٤- في الآية (٢١٢) إخبار عن أمر مستقبلي عن رزق الله تعالى بغير حساب لِـمَنْ يشاء من عباده.

١٥- في الآية (٢١٣) إخبار عن أمر مستقبلي عن هداية الله تعالى إلى الإسلام لِـمَنْ يشاء.

١٦- ينظر: شجرة الأنبياء والرسل، كما في الملحق.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ
مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟
مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ
إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

التفسير:

٢١٤- هل تظنون - أيها المؤمنون - أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان وحده، ولمَّا يُصبكم الابتلاء مثل ما أصاب المؤمنين الذين سبقوا، فقد أصابهم الفقر، والمرض، والرعب، وأُزعجوا بأنواع من البلايا، حتى استبطأ الرسول والمؤمنون معه النصر من الله تعالى، فيقولون: متى يأتينا نَصْرُ الله الذي وُعِدْنا به؟ ألا فأَبْشِرُوا بالنصر، فإنه قد حان أوانه.

٢١٥- يسألك أصحابك أيها النبيُّ: ماذا ينفقون؟، وعلى مَنْ ينفقون؟ فأجبهم: أنفقوا ما تيسر من أصناف المال الحلال للوالدين والأقربين من أهليكم، واليتامى الذين فقدوا آباءهم، ولم يَبْلُغوا الحُلُم، والفقراء، والمسافرين الذين فارقوا أموالهم، وما تقدِّموا من خير فإن الله عالم به، ومجازٍ عليه.

٢١٦- فُرض عليكم - أيُّها المؤمنون - قتال الكفار لحماية الدين وأهله، وهو شاقٌّ تستثقله النفوس؛ لما فيه من التضحيات، وربما تكرهونه وهو خير لكم، وقد تحبون الراحة وترك القتال وهو شرٌّ لكم. وهذا الفرض فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ويكون فرض عين على كل مسلم إذا داهم العدو بلاد المسلمين. والله يعلم ما فيه مصالحكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فاستجيبوا لله.

٢١٧- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فجلس. فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، فقال: «لا تُكْرِهَنَّ أحداً على السير معك من أصحابك». فلما قرأ الكتاب، استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلَقُوا ابن الحضرمي، فقتلوه. ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى؟ فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ الآية. (وأخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ١١)، وحسنه الحافظ ابن حجر (العجاب في بيان الأسباب ق ٨٧ ب) وصححه السيوطي في الدر المنثور).

التفسير:

يسألك بعض الناس - أيها النبيُّ - عن جواز القتال في الشهر الحرام في شهر رجب عندما قُتل أحد المشركين على أيدي أحد المسلمين، فجاء الجواب: قل يا محمد: القتال فيه ذنب عظيم، ولكن منعكم في الشهر الحرام عن الدخول في الإسلام، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم النبي ﷺ والمؤمنين من أهل مكة أعظم ذنباً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والشرك الذي أنتم عليه، وفتنة المؤمنين عن دينهم أكبر إثماً من القتل. ولا يزال الكفار يقاتلونكم أيها المؤمنون، وهذا القتال مستمر حتى يردُّوكم عن دينكم إلى الكفر إن تمكنوا من ذلك، ومن تنازل إلى رغبتهم منكم، وارتدَّ عن دينه فمات على الكفر، فأولئك البعداء عن الحقّ بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا والآخرة، وأولئك البعداء عن رحمة الله أهل النار هم فيها ماكثون أبداً.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ لم يبين هنا هل استطاعوا ذلك أولا؟ ولكنه بيَّن في موضع آخر أنهم لم يستطيعوا، وأنهم حصل لهم اليأس من رد المؤمنين عن دينهم، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] وبَيَّنَ في مواضع أخر أنه مظهر دين الإسلام على كل دين كقوله في براءة، والصف، والفتح ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٨]».

٢١٨- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: «بعث رسول الله ﷺ رهطاً، وبعث عليهم عبد الله بن جحش فقال بعض المشركين: إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾».

(التفسير الصحيح ١/ ٣١٧).

التفسير:

إنَّ المؤمنين الذين عملوا الصالحات، والذين فارقوا الأهل والأوطان، وقاتلوا الأعداء لإعلاء كلمة الله، أولئك أصحاب المنزلة العالية يرغبون في ثواب الله وفضله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «﴿أم﴾ في الإضراب كـ «بل» إلا أنَّ «أم» تؤذن بالاستفهام، وهو هنا تقرير بذلك وإنكاره إن كان حاصلاً أي: بل أَحَسِبْتُم أن تدخلوا دون بلوى، وهو حسبان باطل لا ينبغي اعتقاده». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٧).

٢- من حكمة الله تعالى ابتلاء الأُمة؛ للتعوَّد على الصبر والمرابطة حتى تؤهل للنصر.

٣- وجوب الصبر على الأذى والعذاب فإنه اختبار للمؤمنين، والمهم أن ينجحوا في هذا الاختبار.

٤- وَعْدُ الله حق بنصره لعباده المؤمنين.

٥- خير النفقة ما كانت للوالدين والأقرب فالأقرب.

٦- فرضية الجهاد للدفاع عن الدين والوطن والمسلمين، وإعلاء كلمة الله تعالى.

٧- من حكم تحريم القتال في الأشهر الحرم تأمين سبل الحج والعمرة.

٨- تحذير المؤمنين من فتن الكفار، وخطورة الردة فإنَّها تحبط أعمال الدنيا.

٩- بيان فضل مَنْ يهاجر ويجاهد في سبيل الله ابتغاء رحمة الله ومغفرته.

١٠- قال ابن عاشور: «حكمة تشريع قتل المرتد - مع أنَّ الكافر بالأصالة لا يُقتل- أن الارتداد خروج فرد أو جماعة من الجماعة الإسلامية فهو بخروجه من الإسلام بعد الدخول فيه ينادي على أنَّه لما خالط هذا الدين وجده غير صالح، ووجد ما كان عليه قبل ذلك أصلح، فهذا تعريض بالدين واستخفاف به، وفيه أيضاً تمهيد طريق لِـمَنْ يريد أن ينسلَّ من هذا الدين وذلك يقضي إلى انحلال الجماعة».

(التحرير والتنوير: ٢/ ٣١٩).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن
نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ
يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ
مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ
وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

٢١٩-٢٢٠- سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية في سورة البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ قال: فدُعِيَ عمرُ، فقُرئت عليه. فقال: اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أَنْ لا يقربَنَّ الصلاة سكران، فدُعِيَ عمر، فقُرِئَتْ عليه. فقال: اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة. فدُعِيَ عمر، فقرئت عليه فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا.

(مسند الإمام أحمد برقم ٣٧٨، وأبو داود (السنن، الأشربة برقم٣٦٧٠)، والترمذي (السنن - التفسير برقم٣٠٤٩)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٢٧٨)، ونقل ابن كثير تصحيحه عن علي بن المديني. وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، وصححه محققو المسند (١/ ٤٤٢ برقم ٣٧٨).

التفسير:

يسألك المسلمون - أيُّها الرسول - عن حكم الخمر، وهو كل مسكر خامر العقل. ويسألونك عن حكم القمار - وهو أَخْذُ المال وإعطاؤه بالمقامرة، وهي المغالبات التي فيها عوض من الطرفين - قل لهم: في تعاطيها ذنب كبير، ومفاسد كثيرة، وفيهما أيضاً منافع مالية ضئيلة لكنها خبيثة، وجرمهما أكبر من نفعهما؛ لما فيهما من الصَّدِّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، ووقوع العداوة، وكان هذا تدرُّجاً وتمهيداً لتحريمهما. ويسألونك عن القدر الذي ينفقونه في سبيل الله، قل: أنفقوا ما زاد على الحاجة ونفقة العيال. مثل ذلك التوضيح يبيِّن الله لكم الآيات والأحكام؛ كي تتأملوا في سعادة الدارين.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لم يبيِّن هنا ما هذا الإثم الكبير؟ ولكنه بيَّن في آية أخرى أنه إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، والصَّدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]».

ويسألونك عن معايشة اليتامى ومخالطتهم والإشراف على شؤونهم وأموالهم. قل لهم: العيش معهم لإرشادهم والمحافظة على أموالهم خير من تركهم، وإن تخالطوا أموالهم مع أموالكم فلكم ذلك؛ لأنهم إخوانكم في الدين، وعلى الأخ أن يحافظ على مصلحة أخيه، والله يعلم المفسد لأموالهم، بأَكْلِها وتضييعها، ويعلم المصلح لها بتنميتها وإصلاحها. وفي ذلك وَعْدٌ ووعيد. ولو أراد الله لَضَيَّق عليكم بتحريم المخالطة، ولكنه يَسَّرَ لكم الأمر. إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره.

٢٢١- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من نكاح المشركات: لا تتزوجوا المشركات الوثنيات حتى يدخلن في الإسلام، واعلموا أن التزوج بمملوكة مسلمة خير من حُرَّةٍ مشركة، وإن أعجبتكم المشركة بجمالها أو مالها، ولا تُزَوِّجُوا المشركين بالمؤمنات، وتزويج مملوك مؤمن خير من حرٍّ مشرك، وإن أعجبكم المشرك، فهؤلاء المتصفون بالشرك البعداء عن رحمة الله يدعون كلَّ مَنْ يعاشرهم إلى الخبائث الموجبة للنار، والله يدعوكم إلى هذا الدينِ، الإسلامِ المؤدي إلى الجنة ومغفرة الذنوب، ويوضِّح الله آياته وأحكامه للناس؛ لكي يتعظوا.

قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر عمومه شمول الكتابيات، ولكنه بيَّن في آية أخرى أن الكتابيات لسن داخلات في هذا التحريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة:٥] فإن قيل: الكتابيات لا يدخلن في اسم المشركات بدليل قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١] قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] والعطف يقتضي المغايرة، فالجواب: أن أهل الكتاب داخلون في اسم المشركين كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١]».

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ثم استثنى نساء أهل الكتاب فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥]. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٣٢١).

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال الدكتور محمد جميل الحبّال: «إن الخمر هي من المشروبات المسكِرة التي تحتوي على مادة مخدرة سامة لخلايا الجسم عامة، وللخلايا العصبية خاصة، وهي الكحول الأثيلي(Ethyl Alcohol-Ethanol) الذي يؤدي الى الإدمان، والإدمان هو التعلق الجسدي والنفسي (Addiction- Physical and Psychological) بالمادة المخدِّرة، واللجوء إلى زيادة الجرعة منها تدريجياً للحصول على المفعول المخدر نفسه الذي يحصل عليه المدمن سابقاً، ويحصل ذلك حتى لو تناولها الشخص بكميات قليلة وبصورة دائمية، حيث إن مفعولها تراكمي، وينتج عنه عشرات الأمراض في مختلف أجهزة الجسم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أ- الجهاز الهضمي: التهابات وتقرحات ونزيف وتصلب وضمور وسرطان يصيب مختلف أعضاء الجهاز الهضمي، كالفم والمريء والمعدة والأمعاء والبنكرياس والكبد (التهاب وتشمع وسرطان الكبد الكحولي) (Alcoholic Hepatitis, Cirrhosis and Cancer).

ب- القلب وجهاز الدوران: ارتفاع ضغط الدم، والخنّاق الصدري، وتضخم عضلة القلب مع قصوره (اعتلال القلب الكحولي-Alcoholic Cardiomyopathy)، واضطراب في النظم القلبية (Dysarrhythmias) وتصلب الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية (الأوعية الدموية) نتيجة لتراكم الدهون على جدرانها، فتصبح متصلبة ضيقة مؤدية للإصابة بالجلطات القلبية والدماغية، وكذلك في الأطراف لقلة التروية الدموية (Ischemia).

ج- الجهاز العصبي: ضمور في المخ والمخيخ في رجفة، وتراجُعٌ في القوى الفكرية وداء الصرع، والتهاب الأعصاب الكحولي في الأطراف (Alcoholic Peripheral Neuropathy)، واضطراب في التصرفات السلوكية والشعورية، وعُصاب وذُهان حاد و مزمن، واكتئاب وصداع، وضياع عقلي حاد أو مزمن مع غيبوبة (Alcoholic Encephalopathy).

د- الجهاز البولي والتناسلي: قصور في عمل الكليتين، وتضخم وسرطان البروستات، وسرطان المثانة، وضعف الباءة بالرغم من زيادة الشعور بالإثارة الجنسية، والإصابة بالعقم.

هـ- السرطان: إن ثلث الأمراض السرطانية هي نتيجة إدمان الخمر والتدخين.

و- أمراض المرأة: إن جسم المرأة لا يتحمل نصف الكمية التي يتحملها الرجل من الكحول، والكفيلة بإحداث جميع الأمراض الوبيلة المذكورة أعلاه وغيرها، فضلاً عن إصابتها باضطراب الدورات الشهرية، وكثرة الإجهاض، والتشوهات الخلقية في الجنين في حالة الحمل، وولادة أجنَّة ناقصة تسمى بـ(متلازمة الجنين الكحولي) (Alcohol Fetal Syndrome).

ز- كثرة حالات دخول المستشفيات بسبب الخمر: في بريطانيا وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. تسبب الخمر بدخول أكثر من ٤٠٪ من نزلاء المستشفيات بمختلف الأمراض المتعلقة بها. وفي مستشفيات الأمراض العقلية في هذه البلدان ايضاً فإن مابين ثلث ونصف نزلائها هم من المرضى الذين يتعاطون الكحول بكثافة».

٢- تحريم شرب الخمر، ودلَّت النصوص الشرعيَّة على أنَّها من كبائر الذنوب.

٣- تحريم لعب القمار، ودلَّت النصوص الشرعيَّة على أنَّه من كبائر الذنوب.

٤- بيان حق رعاية اليتيم وتنمية أمواله.

٥- تحريم زواج المشركات وتحريم تزويج المشركين من المؤمنات.

٦- جواز نكاح الكتابية المحصنة، وكَرِهَ ذلك بعضُ أهل العلم.

٧- تحريم نكاح المرأة المسلمة الرجلَ المشرك أو الكتابي.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ
فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ
لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

٢٢٢- سبب النزول:

عن أنس ﷺ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت. فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من

أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا، فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجَدَ عليهما. فخرجا فاستقبلهما هديةٌ من لبن إلى النبي ﷺ. فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما.

(صحيح مسلم - الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها برقم٣٠٢) (لم يَجِدْ: لم يغضبْ).

التفسير:

ويسألك - أيُّها الرسول - المؤمنون عن جماع النساء وقت الحيض. قل لهم: الجماع وقت الحيض مستقذر، يضر بالدنيا والآخرة، فلا يجوز ذلك، فاجتنبوا جماع النساء في مدة الحيض حتى ينقطع الدم، فإذا انقطع الدم واغتسلن، فجامعوهنَّ في الفرج الذي أحلَّه الله. إنَّ الله يحبُّ المكثرين من الاستغفار، والمتنزهين عن الفواحش والأقذار.

٢٢٣- سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. (صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة برقم ٤٥٢٨. وصحيح مسلم - النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها برقم١١٧ - ١١٨).

التفسير:

زوجاتكم موضع نسلكم، وزَرْعُ نُطَفِكم، فجامِعُوهُنَّ في الفرج بأيّ كيفية شئتم، وأَحْسِنوا لأنفسكم بفعل الأعمال الصالحة، وخافوا الله وتيقَّنوا أنكم ملاقوه يوم القيامة للحساب، وبشِّر المؤمنين بالجنة وما فيها.

٢٢٤- ينهى الله تعالى المؤمنين أن يجعلوا الحلف بالله مانعاً من فعل الخير والتقوى والصلح بين الناس، وذلك بأن يُدعَوا إلى فعل خير أو صلح، فيحتجُّوا بأنهم أقسموا ألا يفعلوا ذلك، بل ينبغي فِعْلُ الخير والتكفير عن اليمين، والله سميع للأقوال، عليم بالأحوال والأفعال.

عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ مرفوعاً: «وإذا حَلَفْتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفِّر عن يمينك وَأْتِ الذي هو خير». (صحيح البخاري - الأيمان والنذور، باب ١ برقم١٦٢٢).

٢٢٥- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قالت: أُنزِلَتْ في قوله: لا والله، وبلى والله.

(صحيح البخاري ١١/ ٥٤٧ برقم٦٦٦٣ - الأيمان والنذور، باب ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾).

التفسير:

يعفو الله عنكم إذا حلفتم بغير قصد، فلا ذنب عليكم ولا كفَّارة، ولكن يعاقبكم بما قَصَدَتْه قلوبُكم. والله غفور لِـمَنْ تاب، حليم على مَنْ عصاه لا يعاجل بالعقوبة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجماع وقت الحيض فيه أذى للرجل والمرأة.

٢- جواز إتيان الرجل زوجته مقبلة ومدبرة إذا كان في صمام واحد، بشرط أن يكون في فرجها.

٣- قال الدكتور محمد جميل الحبال: «أذى المحيض أنواع:

أ- منها قذارة دم الحيض أو نجاسته، كما في العرف الفقهي.

ب- ومنها أن جريانه في وقته لا يمكن ضبطه كما يضبط البول والغائط .

ج- ومنها كراهته؛ لأنَّه يمنع الصلاة والصوم.

د- ومنها أنه يتضمن تغيرات نسيجية وكيميائية وحيوية في المجرى التناسلي ويجعله عرضة للالتهاب، حيث تكون بطانة الرحم متقرِّحة تماماً، كما يكون الجلد مسلوخاً، فهو معرض بسهولة لعدوان البكتيريا الكاسح، ومن المعلوم طبياً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر المايكروبات ونموها، وتقل مقاومة الرحم للمايكروبات الغازية نتيجة لذلك، ويصبح القضيب يشكل خطراً داهماً على الرحم. ومما يزيد الطين بِلَّةً أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض، إذ يقل إفراز المهبل للحامض الذي يقتل المايكروبات، كما تقل المواد المطهرة الموجودة في المهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها، ليس ذلك فحسب، ولكن جدار المهبل المكوَّن من عدة طبقات من الخلايا يرق أثناء الحيض، ويصبح جداره رقيقاً ومكوناً من طبقة رقيقة من الخلايا، لهذا فإن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء الحيض ليس إلا إدخالاً للمايكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع أن تقاوم، كما أن وجود الدم يساعد في نمو تلك المايكروبات وتكاثرها، ولا يقتصر الأذى على الحائض في وَطْئِها، وإنما ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وَطِئها أيضاً بتكاثر المايكروبات، والتهاب قناة مجرى البول لدى الرجل، وتنتقل المايكروبات إلى البروستات والمثانة وبقية المسالك البولية، وذلك أنه ما من نجاسة إلا ويتوقع حصول الضرر من التلوث بها. فلما كان المحيض كذلك اقتضى الأمر أخذ الاحتياط لئلَّا يتحول الأذى إلى ضرر، وذلك بتكرار تنظيف المنطقة في فترة الحيض، وعدم تركه يتراكم برائحته الكريهة، وكذلك بالامتناع عن الجماع».

٤- قال ابن عاشور: «﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ غاية للنهي فإذا آمنَّ زال النهي، ولذلك إذا أسلم المشرك ولم تسلم زوجته تَبِين منه إلا إذا أسلمت عقب إسلامه بدون تأخير». (التحرير والتنوير: ٢/ ٣٤٣).

٥- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ جاء النهي عن قربانهم تأكيداً للأمر باعتزالهنَّ، وتبييناً للمراد من الاعتزال، وأنه ليس التباعد عن الأزواج بالأبدان.

٦- قال ابن عاشور: «الفاء في ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ فاء فصيحة لابتناء ما بعدها على تقرر أن النساء حرث لهم، لاسيما إذا كانوا قد سألوا عن ذلك بلسان المقال أو بلسان الحال». (التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٣)

٧- النهي عن كثرة الحلف بالله تعالى.

٨- جواز قول: لا والله، وبلى والله، من غير تأكيد وعزم.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي
عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ
بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا
إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٢٦-٢٢٧- للذين يحلفون بالله ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن: انتظار أربعة أشهر، فإن رجعوا عن يمينهم، فإن الله غفور لما وقع منهم من الحلف؛ بسبب رجوعهم، رحيم بهم، وإن قصدوا الطلاق باستمرارهم على اليمين وترك الجماع، فإن الله سميع لأقوالهم، عليم بمقاصدهم.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ دليل الجواب، أي: فحنثهم في يمين الإيلاء مغفور لهم؛ لأن الله غفور رحيم، وفيه إيذان بأن الإيلاء حرام. وقوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ دليل الجواب، أي: فقد لزمهم وأمضى طلاقهم، فقد حدَّ الله للرجال في الإيلاء أجلاً محدوداً، لا يتجاوزونه، فإما أن يعودوا إلى مضاجعة أزواجهم، وإما أن يُطَلِّقوا». (التحرير والتنوير: ٢/ ٣٦٦-٣٦٧).

٢٢٨- وعدة النساء المطلقات: انتظار من غير زواج بآخر ثلاث حيضات، أو ثلاثة أطهار، حسب مصلحة الزوجين في الأخذ بالأقل زمناً أو بالأكثر، ويحرم عليهن إخفاء ما خلق الله في أرحامهن من الحمل أو الحيض، إن كنَّ يصدقن بالله واليوم الآخر.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ظاهر هذه الآية شمولها لجميع المطلقات، ولكنه بيّن في آيات أُخَرَ خروج بعض المطلقات من هذا العموم، كالحوامل المنصوص على أن عِدَّتَهن وَضْعُ الحمل، في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وكالمطلقات قبل الدخول المنصوص على أنهن لا عدة عليهن أصلاً، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[الأحزاب: ٤٩]. وأزواج المطلَّقات أحقُّ بمراجعتهنَّ في فترة العدة إن قصدوا الصلح والخير، وللزوجات على الرجال من الحقوق مثل ما عليهنَّ من الواجبات بحسن المعاشرة، وللرجال على النساء منزلة زائدة هي القِوامة، بسبب الإنفاق، والقيام بمسؤولية الجهاد. والله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره.. ولم يبيِّن هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء، ولكنه أشار لها في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤] وقد أشار تعالى إلى نقص المرأة وضَعْفها الخَلْقيين الطبيعيين، بقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] وأشار بقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] إلى أن الكامل في وصفه وقوته وخلقته يناسب حاله أن يكون قائماً على الضعيف الناقص خلقة».

٢٢٩- سبب النزول:

أخرج مالك والترمذي والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح عن عروة بن الزبير ﷺ: كان الرجل إذا طَلَّق امرأته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عِدَّتُها كان ذلك له، وإن طلَّقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته، فطلَّقها، حتى إذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طَلَّقها، ثم قال: لا والله لا آويك إلي، ولا تَحِلِّين أبداً، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ مَنْ كان طَلَّق منهم، أو لم يطلق. واللفظ لمالك. (الموطأ - الطلاق - باب جامع الطلاق ٢/ ٥٨٨. السنن - الطلاق واللعان ٣/ ٤٨٨. وأخرجه الترمذي والحاكم وصححه (المستدرك ٢/ ٢٧٩، ٢٨٠) والبيهقي (السنن الكبرى ٧/ ٣٣٣) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على الطبري كلهم عن عروة عن عائشة وتكلم في سنده بسبب يعلى بن شبيب، ولكنه رُوي من طرق مرسلة تقويه).

التفسير:

الطلاق المشروع الذي تجوز بعده الرجعة مرتان، واحدة ثم الأخرى، وبعد كل طلقة ينبغي إمساك المرأة بحسن العشرة، أو فراق بإحسان وطيب قول، مع إعطائها هدية أو شيئاً من المال، ولا يحلُّ لكم - أيها الأزواج - أخْذُ شيء مما أعطيتموهن من المهر أو غيره، إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة، فحينئذ يَعْرِضان أمرهما على الأولياء أو الحُكّام. فإن ظهر أنهما لا يقومان بالحقوق الزوجية، فلا إثم على الطرفين إذا أرادت الزوجة أن تختلع، بأن تدفع المرأة ثمن مهرها، أو شيئاً من المال، فلا إثم عليهما بذلك. تلك الأحكام العالية القَدْرِ فلا تتجاوزوها، ومن يتجاوزها فأولئك البعداء عن الحقِّ، وهم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم.

٢٣٠- فإن طلَّق الزوج زوجته طلقة ثالثة فلا تحلُّ له رجعتها حتى تتزوج زوجاً آخر زواجاً صحيحاً دائماً، ويجامعها فيه بصدق رغبة، فإن طَلَّقها الزوج الثاني، أو مات عنها وانقضت عدتها، فلا حرج على الزوج الأول والمرأة أن يتزوجا بعقد جديد إن علما أنهما سيقيمان أحكام الله. وتلك أحكام الله يوضحها لقوم يعلمون حقَّ أحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١- المحافظة على حقِّ المرأة إذا حلف الزوج إنه لا يجامعها للإضرار بها.

٢- تقرير تشريع الطلاق والالتزام بأحكامه وعدم التساهل فيه.

٣- يحقُّ للزوج مراجعة مطلقته إذا لم تكن عِدَّتُها قد انتهت، ولا يجوز لها أن تُخْطَبَ، ولا أن تتزوج خلال هذه المدة.

٤- بما أنه ثبت عن جمع من الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله أنَّ القُرءَ هو الحيض، وكذلك ثبت عن جَمْعٍ منهم أنه الطهر، فيمكن الجمع بين القولين أن يُنْظَر في حال الزوجين: فإذا كان ثمة أمل في الصلح فيؤخذ أبعد الأجلين لإتاحة الفرصة للصلح، وأما إذا كان الأمر قد بلغ أشُدَّه من الخلاف، وأنه لا أمل في الصلح، فيؤخذ أقصر الأجلين للتفريق بينهما بأقرب وقت للقضاء على الخلاف.

٥- لا يجوز للمرأة المطلقة إذا ثبت أنها حامل أن تكتم ذلك، كما لا يحل لها أن تكتم وقت حيضها أو طهرها.

٦- إذا طلق الزوج زوجته طلقة ثالثة حَرُمَتْ عليه إلا بعد نكاح صحيح غير محلل، أو بعد وفاة زوجها.

٧- من التيسير في الدين أنَّ الطلاق مفرق، ويملك الزوج مراجعة زوجته بعد كل طلقة من الطلقتين.

٨- قال ابن عاشور: «﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ هي أحكامه وشرائعه، شبهت بالحدود، لأن المكلف لا يتجاوزها فكأنه يقف عندها». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٠٠).

٩- قال الدكتور محمد جميل الحبال عن الآية (٢٢٨): «إن كون عدة المطلقة ثلاثة قروء - حيضات - تكفي لنفي الحمل، وذلك أن المتخصص في طب النساء والتوليد يجد نسبة قليلة من الحوامل تخالف القاعدة العامة في عدم الحيض أثناء الحمل، فهي قد تحمل ويحصل عندها نزف فيسيولوجي يشبه دم الحيض، وذلك نتيجه انغراس البيضة الملحقة في بطانة الرحم Implantation في نهاية الأسبوع الثالث من آخر دورة شهرية - قرء -، أو نهاية الأسبوع الأول لبدء الحمل، أي: في موعد الدورة الشهرية تقريباً، وقد يحصل كذلك نزف فيسيولوجي ثانٍ مابين الأسبوع السابع والثامن للحمل نتيجة انخفاض نسبة هرمون البروجيستيرون Progesteron في هذه الفترة، حيث تقل نسبته لتوقف تكوينه من الجسم الأصفر Corpus Luteum في المبيض وتحول إفرازه إلى المشيمة Placenta، حيث يؤدي هذا الانخفاض أثناء التحول في تكوينه وإفرازه لحدوث نزف رحمي يشبه الدورة الشهرية الثانية، مما يجعل الحامل تعتقد أنه حيض للمرة الثانية وهي حامل ولكنها تجهل ذلك، ولكن لا يحدث نزف فيسيولوجي ثالث يلتبس على الحامل، ما عدا في حالات النزف الناتج عن الإسقاط المهدد أو المحتم التي يحدث غالباً في الأشهر أو الأسابيع الأولى للحمل، وفي أي وقت منه، وبضمنه موعد الدورة الشهرية السابق، ويكون عادة مصحوباً بأعراض وعلامات طبية أخرى معروفة. وهذه هي الحكمة في تشريع الطلاق، إذ جعل الله ﷻ مدة العدة لثلاث حيضات - قروء-، حيث إن الحامل قد تَسْتحيض -يحصل عندها دم يشبه الحيض- مرة أحياناً، ومرتين نادراً - الأسباب الفسيولوجية المذكورة أعلاه -، بينما لا يمكن أن تستحيض للمرة الثالثة، وبذلك تعرف أنها حامل، فتنتهي عدتها في هذه الحالة بعد وَضْعِ حَمْلِها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]».

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

التفسير:

٢٣١- يخيِّر الله تعالى الأزواج بين أمرين: وإذا طَلَّقتم نساءكم مرَّة أو مرَّتين، فقاربن انتهاء عدتهنَّ، فراجعوهنَّ قبل انتهاء العدَّة بنيَّة حسن العشرة، أو اتركوهنَّ حتى تنقضي العدَّة بإحسان من غير تطويل العدة عليهنَّ، ولا ترجعوهنَّ بقصد الإضرار بهنَّ، كالإلجاء إلى الخلع وغيره، ومَنْ يمسكها للإضرار بها فقد عرَّض نفسه للعقوبة، ولا تهزؤوا بأحكام الله سبحانه، واذكروا فضل الله عليكم، وما أنزل عليكم القرآن العظيم والسنَّة المشرَّفة، واشكروه على ذلك. يُذكِّركم الله ويرشدكم فخافوه، واعلموا أنَّه أحاط بكلِّ شيء علماً.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ جعل ظلمهم نساءهم ظلماً لأنفسهم؛ لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت، وفوات المصالح بشغب الأذهان في المخاصمات. وظلم نفسه أيضاً بتعريضها لعقاب الله في الآخرة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٠٣).

٢٣٢- وإذا طَلَّقتم نساءكم طلاقاً رجعياً مرةً أو مرتين وانتهت عدتهنَّ فلا تمنعوهنَّ - أيها الأولياء - من العودة إلى أزواجهنَّ إذا رضي كلٌّ منهما بالآخر بحسن العشرة. وذلك النهي يتعظ به المؤمن بالله وباليوم الآخر، وذلك النهي العالي القدر أطهر وأنفع لكم. والله تعالى يعلم ما فيه الصلاح، وأنتم لا تعلمون. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضاء عدَّتهن بالفعل، ولكنه بيَّن في موضع آخر أنه لا رجعة إلا في زمن العدة خاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، لأن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة قروء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فاتضح من تلك الآية أن معنى ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربنَ انقضاء العدة، وأشرفنَ على بلوغ أجلها.

أخرج البخاري عن الحسن: أن أخت معقل بن يسار ﷺ طَلَّقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها فأبى معقل فنزلت: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾.

(صحيح البخاري – التفسير – سورة البقرة، باب ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ برقم٤٥٢٩).

الفوائد والاستنباطات:

١- النهي عن الإضرار بالزوجة، وعدم التساهل في حقها عند الفراق.

٢- قال ابن عاشور:«قوله: ﴿لِّتَعۡتَدُواْ﴾ جُرَّ باللام ولم يعطف بالفاء؛ لأن الجر باللام هو أصل التعليل، وحَذْفُ مفعول (تعتدوا)؛ ليشمل الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله تعالى، فتكون اللام مستعملة في التعليل والعاقبة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٠٣).

٣- التأكيد المغلظ للالتزام بأحكام الطلاق.

٤- على الأولياء أن يراعوا المراضاة بين الزوجين، فلا ينبغي منعهن من الرجوع إلى بيت الزوجية.

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾﴾

التفسير:

٢٣٣- يجب على الأمهات إرضاع أولادهنَّ سنتين كاملتين لِـمَنْ أراد كمال الرضاعة، ويجوز ما دونها برضا الوالدين، ويجب على الآباء نفقة الوالدات المطلقات للطعام والكسوة، من غير إسراف ولا تقتير؛ لأنَّ الله لا يشُقُّ على النفوس، ولا يحمِّلُها فوق قدرتها، ولا يجوز إضرار الوالدة بسبب ولدها، ويجب على وارث الأب الوصي على المولود مثل الواجب الذي كان على أبيه من نفقة المرضعة وكسوتها. فإذا أراد الوالدان فطام الولد عن الرضاع قبل الحولين بعد التشاور، فلا إثم عليهما، وإن اتفق الوالدان على إرضاع المولود من مرضعة أخرى غير والدته، فلا حرج عليهما، إذا سَلَّم الأب ما ينبغي أن يعطيه بإحسان دون تقصير. وخافوا الله، واعلموا أن الله بصير بأعمالكم وأقوالكم.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ انتقال إلى حالة إرضاع الطفل غير والدته إذا تعذَّر على الوالدة إرضاعه، لمرضها، أو تزوجها أو إن أبت ذلك حيث يجوز لها الإباء، أي: إن أردتم أن تطلبوا الإرضاع لأولادكم فلا إثم في ذلك». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤١٨).

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان حقِّ الطفل في الرضاعة. قال الدكتور محمد جميل الحبال عن الآية (٢٣٣): «فيها إشارة طبية إلى أهمية وأفضلية إتمام الرضاعة لمدة عامين، وقد أثبتت الدراسات والبحوث الطبية أفضلية وأهمية الرضاعة الطبيعية (رضاعة الثدي) مقارنة للرضاعة البقرية أو الصناعية (رضاعة القنينة) للمحافظة على الصحة الجسمية والنفسية للطفل وللأُم على حد سواء، حيث أوصت تقارير منظمة الصحة العالمية والجمعيات الطبية العالمية المتخصصة بطب الأطفال، فضلاً عن منظمة اليونسيف بالاستمرار على الرضاعة الأمومية لأطول مدة ممكنة وحتى العامين؛ لأنَّ هؤلاء الأطفال يكونون أَقَلَّ إصابة بالأمراض العضوية والانتقالية والنفسية مقارنة بغيرهم من الأطفال الذين لا ترضعهم أُمهاتهم».

٢- أهمية المشاورة بين الزوجين في تربية الطفل ورضاعه.

٣- جواز اتخاذ المرضعات إذا تعسر الرضاع من الأُم.

٤- تحريم المضارة بين الأب والأُم، فلا تمتنع الأُم عن إرضاعه إضراراً بأبيه، ولا يجوز مَنْعُ الأُم من ذلك.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٢٣٤- والذين يموتون من الأزواج ويتركون زوجات، يجب عليهنَّ عدة الحِداد أربعة أشهر وعشرة أيام، فلا يتزوَّجْنَ، ولا يتزيَّنَّ، ولا يخرجنَ من منزل الزوجية إلا لحاجة، فإذا انتهت هذه المدة فلا إثم عليكم يا أولياء النساء إن رجعنَ إلى أحوالهنَّ المعتادة بحسب المتعارف عليه شرعاً. والله بكل ما تعملون خبير، وسيجازيكم عليها. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل مُتَوَفٍّ عنها تعتدُّ بأربعة أشهر وعشر، ولكنه بيَّن في موضع آخر أن محلَّ ذلك مالم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً كانت عدَّتها وَضْعَ حَمْلِها، وذلك في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] ويزيده إيضاحاً ما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن النبي ﷺ لسبيعة الأسلمية رضي الله عنها في الزواج بوضع حملها بعد وفاة زوجها بأيام، وكون عدة الحامل المتوفَّى عنها بوضع حَمْلِها هو الحقُّ، كما ثبت عنه ﷺ خلافاً لِمَنْ قال: تعتدُّ بأقصى الأجلين ا.هـ».

٢٣٥- ولا ذنب عليكم - أيها الرجال - في التلميح بخطبة النساء المعتدات بسبب وفاة الزوج، أو الطلاق البائن، ولا حرج عليكم فيما أخفيتم في أنفسكم من الرغبة في زواجهنَّ بعد انتهاء عدتهِنَّ. عَلِمَ الله أنكم ستذكرونهنَّ في أنفسكم، ولكن احذروا أن تواعِدُوهنَّ على النكاح سرَّاً في أثناء العدة، إلا أن تقولوا قولاً حسناً، كالقول: إنَّك جميلة، أو صالحة. ولا تعقدوا عقد الزواج حتى تنتهي العدة، واعلموا أنَّ الله تعالى يعلم ما في أنفسكم فخافوه، واعلموا أن الله غفور لعباده، حليم عليهم لا يعاجلهم بالعقوبة.

٢٣٦- لا ذنب عليكم إذا طلَّقتم النساء قبل الجماع، وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهراً، وقدِّموا لهنَّ هدية أو مالاً بحسب قَدْرِ سَعَةِ الرزق على الوجه المعروف شرعاً، وهو حق ثابت على الذين يحسنون معاملة المطلقة.

٢٣٧- وإذا طَلَّقتم النساء ولم تَدْخُلوا بهنَّ، وقد حَدَّدْتُم لهنَّ مقدار المهر، فالواجب عليكم أن تدفعوا لهنَّ نصف المهر، إلا أن تتنازل المطلقة عن المهر كله أو بعضه، أو يتسامح الزوج، بأن يترك للمطلقة المهر كله، أو يسقط ولي أمرها المهر، وأن تتسامحوا أيها الرجال والنساء فإنه أقرب إلى مخافة الله، ولا تنسوا الإحسان بينكم. إن الله بكل ما تعملون بصير.

الفوائد والاستنباطات:

١- حِداد المرأة على الزوج (١٣٠) يوماً لاستبراء رحمها من زوجها المتوفَّى. وفيه تعبير عن مكانة الزوج.

٢- جواز التعريض بخطبة النساء المعتدَّات بسبب وفاة الزوج، أو الطلاق البائن.

٣- الحثُّ على إعطاء الهدية للمطلقة.

٤- حقُّ المرأة في أخذ نصف المهر إذا طُلِّقت ولم يُدْخَلْ بها، ولها حقُّ التنازل عن ذلك، وكذا لوليها حقُّ التنازل عن أخذ نصف المهر.

٥- الحثُّ على العفو والتسامح في الحقوق المالية.

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

٢٣٨- سبب النزول:

عن البراء بن عازب ﷺ قال: نزلت هذه الآية: (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر). فقرأناها ما شاء الله. ثم نسخها الله. فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾. فقال رجل كان جالساً عند شقيق له: هي إذن صلاة العصر. فقال البراء: قد أخبرتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله؟ والله أعلم. (صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١/ ٤٣٨ برقم٦٣١).

التفسير:

حافظوا - أيُّها المؤمنون - على إقامة الصلوات الخمس، بأدائها في أوقاتها بشروطها وأركانها، وحافظوا على صلاة العصر، وداوموا على عبادة الله والصلاة خاشعين ومطيعين.

٢٣٩- فإن خفتم من عدوٍ لكم، فصَلُّوا صلاة الخوف، مشاةً على الأقدام، أو راكبين، مستقبلي القبلة، أو غير مستقبليها، فإذا زال الخوف، فصَلُّوا صلاة الآمنين. واذكروا الله فيها كما عَلَّمكم من الشرائع، ما لم تكونوا على علم به.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - كان إذا سُئِل عن صلاة الخوف قال: يتقدم الإمام وطائفة من الناس، فيصلي بهم الإمام ركعة، وتكون طائفة منهم بينهم وبين العدو لم يصلوا، فإذا صلى الذين معه ركعة استأخروا مكان الذين لم يصلوا ولا يسلمون، ويتقدم الذين لم يُصَلُّوا فيصلون معه ركعة، ثم ينصرف الإمام وقد صلى ركعتين، فيقوم كل واحد من الطائفتين، فيصلون لأنفسهم ركعة بعد أن ينصرف الإمام، فيكون كل واحد من الطائفتين قد صَلَّى ركعتين. فإن كان خوف هو أشد من ذلك صَلَّوا رجالاً قياماً على أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها. قال مالك: قال نافع: «لا أرى عبدالله ابن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ». (صحيح البخاري ٨/ ١٩٩ برقم٤٥٥٣ - كتاب التفسير، باب سورة البقرة).

٢٤٠- والذين يموتون من الأزواج ويتركون زوجاتهم فليوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تُمتع أزواجهنَّ بعدهم سنة كاملة بالنفقة والسكنى، ولا يُخْرَجْنَ من سكن أزواجهنَّ، فإن خرجن باختيارهنَّ فلا حرج عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ من تَرْكِ الحداد والإقامة والتزيُّن ونحوه من الأمور المباحة بعد انقضاء عدَّة الوفاة. والله عزيز في ملكه، حكيم في أحكامه. وهذا الحكم نُسخ بآيات المواريث، وبإيجاب عدَّةِ الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام. أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فنسخ ذلك بآية الميراث، بما فرض لهنَّ من الربع والثمن، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشراً.

(وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود - الطلاق، باب نسخ متاع المتوفى عنها برقم٢٠١٢).

٢٤١- ويحقُّ للمطلَّقات عموماً، المدخول بهنَّ وغير المدخول بهنَّ، متعة من كسوة ونفقة بإحسان، وبالقدر المستطاع للأزواج. وهذه المتعة حقٌّ واجب على المتقين الذين يخافون الله تعالى.

٢٤٢- مثل ذلك البيان الواضح في الحقوق يبيِّن الله لكم أحكام الشريعة؛ كي تفهموها وتعملوا بها.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب المحافظة على الصلوات المفروضة، ولاسيما صلاة العصر.

٢- وجوب إقامة الصلاة حتى في ميدان القتال، وفي هذا دلالة على عظم أهمّيتها ومنزلتها.

٣- الحث على إكرام المطلقة بمالٍ أو لباسٍ أو هدية.

٤- حقُّ المرأة في النفقة والسكن بعد موت الزوج.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ
أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ
مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا
وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ
أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى
ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٢٤٣- ألم تسمع - أيُّها الرسول - خبر الألوف الكثيرة من الذين فرُّوا من أرضهم خوفاً من أسباب الموت، فلم ينجوا، فأماتهم الله جميعاً، ثم تَفَضَّل عليهم فأحياهم؟ إنَّ الله لذو فضل وإحسان، ومن فضله إحياء هؤلاء بعد إماتتهم وجعلهم عبرة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله.

٢٤٤- وبعد هذه الموعظة أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال لنصرة دين الله، فإنَّ الجهاد في سبيل الله لا يقرِّب أجلاً ولا يبعده، ثم أكَّد هذا الحكم بأنَّ الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم.

٢٤٥- وبما أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى عَتَاد، فقد رَغَّب الله تعالى في الإنفاق في سبيل الله، وجعل مقابل ذلك مضاعفة الأجر الجزيل، والله هو الرزَّاق، يقلل على مَنْ يشاء، ويوسع على مَنْ يشاء، وإليه ترجعون يوم القيامة؛ لنيل الجزاء.

٢٤٦- ثمَّ قَصَّ الله تعالى بعض وقائع الجهاد: ألم تعلم - أيُّها الرسول - قصَّة أشراف الناس من بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام؟ حين سألوا نبياً لهم أن يولِّي عليهم قائداً خبيراً بالقتال؛ لقتال أعدائهم في سبيل الله، فأجابهم: أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثمَّ لا تقاتلوا، وتجبُنوا من العدو. فاستنكروا قائلين: وأيُّ عذرٍ يمنعُنا من القتال وقد طَرَدَنا العدوُّ من بلادنا، وسبى أبناءنا؟ فلمَّا فرض الله عليهم القتال: تخلَّفوا إلا قليلاً منهم ثبتوا على العهد، والله عليم بالظالمين الذين يخالفون عهد الله تعالى.

٢٤٧- وقال لهم نبيُّهم عليه السلام: إنَّ الله قد أرسل إليكم طالوت قائداً، فاستنكروا قائلين: كيف يكون طالوت قائداً علينا وهو فقير، ونحن أحقُّ منه بهذا المقام؟ فردَّ عليهم نبيهم بأن الله اختاره عليكم، وزاده سعة في العلم، وقوة في الجسم. والله يعطي سلطانه مَنْ يشاء من عباده، والله واسع الفضل، عليم بكل شيء.

٢٤٨- وقال لهم نبيُّهم عليه السلام مُسْتَدِلَّاً على صدق طالوت: إنَّ علامة مُلك طالوت أن يأتيكم الصندوق الذي فيه التوراة، فيه طمأنينة ورحمة من خالقكم، وفيه بقية من آثار آل موسى عليه السلام وآل هارون عليه السلام تحمله الملائكة حتى تضعه في بيت طالوت. إن في ذلك لَأعظمَ برهانٍ لكم على اختياره، إن كنتم مصدِّقين بالله واليوم الآخر.

الفوائد والاستنباطات:

١- لا يجوز الخروج من البلد الذي يحلُّ به مرض مُعْدٍ كالطاعون؛ لما في ذلك من الفرار من قَدَرِ الله تعالى.

٢- قضاء الآجال بيد الله تعالى، فلا ينفع الحذر من الموت، كما قال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

٣- فضل الإنفاق في سبيل الله تعالى في مضاعفة الثواب والبركات في الدارين.

٤- التحذير من ترك الدفاع عن الوطن، وعدم نصرة المظلوم.

٥- الغنى بالمال ليس مقياساً على صلاحية القيادة، بل لابد من المؤهل العلمي والجسدي.

٦- في الآية (٢٤٧) إخبار عن أمر مستقبلي عن إعطاء الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء.

٧- تقرير معجزة التابوت فيه سكينة.

٨- موعظة أنَّ الأُمة التي تعصي الله تعالى وتتعدى حدوده، يُسَلِّط عليها الأعداء فيهزمونها.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي
وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ
الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

التفسير:

٢٤٩- فلمَّا خرج طالوت بجنوده من بيت المقدس لقتال العدو، قال طالوت: إنَّ الله ممتحنكم على الصبر والطاعة بنهر تعبرونه، فمَنْ شَرِب منه فليس من أتباعي، ومَنْ لم يشرب منه فإنه من أتباعي، إلا مَنْ أخذ بيده قليلاً من الماء فلا حرج عليه، فشربوا منه وعصوا الأمر إلا قليلاً منهم، وعددهم ثلاثمئة وبضعة عشر، بعدد أصحاب بدر ﷺ، فلمَّا عبر طالوت النهر ومعه هذه القلة ورأوا كثرة عدد العدو قال بعضهم: لا قدرة لنا على قتال الطاغية جالوت وجيشه الكثير. فردَّ المؤمنون بلقاء الله: كم من جماعة قليلة صابرة انتصرت على جماعة كبيرة بمشيئة الله، والله مع الصابرين بنصره وتوفيقه.

قال البراء ﷺ: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممَّنْ شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر: بضعة عشر وثلاثمئة. قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن».

(صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر ٧/ ٢٩٠ برقم٣٩٥٧).

٢٥٠- ولما ظهرت الفئة المؤمنة للطاغية جالوت وجيشه في ميدان القتال دعوا الله: ربنا أَنْزِلْ على قلوبنا صبراً عظيماً، وثبتنا في ميدان القتال، وانصرنا على القوم الكافرين.

٢٥١- فاستجاب الله دعاءهم فنصرهم، وهزموا جيش جالوت بإذن الله، وقتل داود ﷺ جالوت، قائد جيش الكفرة، وداود هو أحد جنود طالوت، وهو والد سليمان ﷺ، ثم أعطى اللهُ داودَ الملكَ والنبوَّة

في بني إسرائيل، وعَلَّمه ربه مما يشاء من العلوم، ولولا أن يدفع الله شرَّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، ولكن الله ذو فضل على المخلوقين جميعاً.

٢٥٢- هذه آيات الله العالية القدر التي قصصناها عليك أيُّها الرسول بالصدق بواسطة جبريل عليه السلام، وإنَّك من المرسلين الصادقين حقاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أهمية اختبار الجند عند المواقف الحاسمة.

٢- وجوب طاعة الجند لقائدهم الشرعي وإلا تعرضوا للهزيمة.

٣- فضل الدعاء في المعركة بالصبر والتثبيت ثم النصر.

٤- بشرى للفئة المؤمنة بالنصر، وإن قل عددها وعدتها.

٥- من حكمة الله تعالى أن يُسَلِّط على القوي مَنْ هو أقوى منه، فيهزمه، ويسلط على الطاغية مَنْ هو أقوى منه.

٦- إنَّ من سنن الله تعالى لمنع الفساد في الأرض ما يكون من دَفْعِه سبحانه النَّاس بعضهم ببعض، فيردّ شرَّ الأشرار بجهاد الأخيار.

٧- تثبيت الله لرسوله ﷺ بما يُنزِّل عليه من آياته البيِّنات.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

التفسير:

٢٥٣- أولئك الرسل - أصحاب المنازل العالية - فَضَّل الله بعضهم على بعض، فمنهم مَنْ كلَّم الله، كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ورفع بعض الرسل درجات عالية، كإبراهيم وإدريس ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وأعطى عيسى بن مريم المعجزات العظيمة، وأيَّده بجبريل. ولو أراد الله ما اقتتل الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الرسل من بعد مجيء الأدلة والمعجزات، ولكن اختلفت أُمم الأنبياء حتى اقتتلوا: فمنهم مَنْ صدَّق بالله، ومنهم مَنْ جحده. ولو أراد الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا، ولكنَّ الله يفعل ما يريد أن يفعله.

٢٥٤- يأمر الله المؤمنين بالإنفاق في شتى طرق الخير من مال الله الذي منحهم إياه، فيأمرهم بدفع الزكاة والصدقات قبل مجيء يوم القيامة الذي لا تستطيعون أن تفدوا فيه أنفسكم بمال، ولا تجدون حبيباً يدفع عنكم العذاب، والمُكَذِّبون بالله هم المعتدون على أنفسهم، وعلى غيرهم.

٢٥٥- فضل آية الكرسي:

عن أُبَي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «والله لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر».

(صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم ٨١٠).

ومن فضلها: أنَّها إذا قُرئت عند النوم فإن قارئها لا يقربه شيطان حتى يصبح، ويبقى محفوظاً بحفظ الله تعالى. (أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ الصحيح، كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلاً فترك الوكيل شيئاً برقم ٢٣١١).

التفسير:

الله هو الذي له جميع معاني الألوهية، ولا يستحق العبودية إلا هو، الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بجلاله، القائم على كل شيء، لا يعتريه نعاس، ولا يغلبه نوم، مالك جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يملك أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، يحيط علمه ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية، وما خلفهم من الأمور الماضية، ولا يَطَّلع أحد من الخلق على شيء من علمه إلا بما أعلمه الله، وكرسيه العظيم الذي هو موضع القدمين وسع السموات السبع والأرض السبع، ولا يثقله سبحانه حفظ السموات والأرض، وهو العليُّ بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، العظيم الذي اجتمعت فيه جميع صفات العظمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الكرسي موضع القدمين. (أخرجه وكيع في تفسيره كما صرح ابن كثير في التفسير، وأخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٨٢) وذكره الهيثمي ونسبه إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦).

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير التفاضل بين الرسل.

٢- التعجيب والتحذير من فِعْلِ الأمم في التقاتل.

٣- وجوب الإنفاق في سبيل الله تعالى.

٤- فضل آية الكرسي وفائدتها في الرقية.

٥- دَلَّت الآية على تحقيق العبودية المطلقة لله تعالى.

٦- جملة ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ مقررة لمضمون جملة (الله الحي القيوم)، فالجملة منزَّلة مَنْزِلَة البيان لمعنى الحي القيوم؛ ولذلك فصلت عن التي قبلها.

٧- الاستفهام في قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ مستعمل في الإنكار والنفي بقرينة الاستثناء منه بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

٨- قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تقرير لما تضمنته الجمل كلها من عظمة الله تعالى وكبريائه وعلمه وقدرته، وبيان عظمة مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه.

٩- على المؤمن بالله تعالى أن يستشعر عظمة الخالق ﷻ فيما دلَّت عليه هذه الآية العظيمة (آية الكرسي)، وأن يحقِّق العبوديَّة الخالصة له ﷻ من خلال أسمائه وصفاته العليا، وقد اشتملت هذه الآية على أعظمها، وكانت بذلك أعظم آية في القرآن الكريم.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

٢٥٦- سبب النزول:

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾. قال أبو داود: «المقلات: التي لا يعيش لها ولد». (أخرجه أبو داود في السنن ٣/ ٥٨ – كتاب الجهاد – باب في الأسير يكره على الإسلام. وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١/ ٣٥٢، برقم١٤٠) وقال محقق الإحسان: «إسناده صحيح على شرطهما». وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود برقم ٢٣٣٣).

التفسير:

لا تجبروا أحداً على الدخول في الإسلام، فدلائله يتضح بها الحق من الباطل، فمَنْ يجحد بكل ما عُبِدَ من دون الله ويصدِّق بالله، فقد استقام على دين الإسلام، واستمر عليه. والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم.

قال ابن عاشور: «تعقيب آية الكرسي بهاته الآية بمناسبة أن ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأُمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه». (التحرير والتنوير٢/ ٤٩٩)

٢٥٧- الله سبحانه ناصر الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، يخرجهم من الضلالة إلى الهدى، والذين كَذَّبوا الله ورسوله يقودهم الشيطان، فيخرجهم من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى هم الملازمون للنار الدَّائمون فيها أبداً.

٢٥٨- يقصُّ الله تعالى على رسوله محمَّد ﷺ القصَّة العجيبة التي وقعت بين إبراهيم ﷺ والطاغية النمروذ بن كنعان: ألم تعلم بالذي جادل إبراهيم في توحيد الله تعالى وربوبيته؛ لأنَّ الله تعالى أعطاه المُلك فتجبَّر، وسأل إبراهيم: مَنْ ربك؟ فأجابه: ربِّي الذي يُحيي الخلائق ويميتها. قال زاعماً: أنا أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قَتْلَه، وأستبقي من أردت استبقاءه. فردَّ عليه إبراهيم: إنَّ الله يطلع الشمس من المشرق، فأطْلِعْها من المغرب، فتحيَّر هذا الكافر وأُفحم؟ والله لا يهدي الظالمين إلى الصراط المستقيم.

أخرج آدم بسنده الصحيح عن مجاهد قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، قال: هو نمروذ بن كنعان.

٢٥٩- أو هل علمت - أيُّها الرسول - مثل الذي مرَّ على بلدة خالية من السكَّان، خاوية من البنيان، فقال: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام ثمَّ أحياه، وأرسل إليه مَنْ عنده علم بحال هذا الرجل. قال: كم بَقِيتَ في هذا المكان؟ قال: بَقِيتُ يوماً أو بعض يوم. فأَخْبَره الحقيقة بأنه بقي ميتاً مئة عام، وطلب إليه أن ينظر إلى طعامه وشرابه، فإذا هو لم يتغير، وأن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظاماً متناثرة؟ وليكون مثالاً مُشاهَداً دليلاً على البعث بعد الموت، وانظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض، ونَضُمُّ أجزاءها، ثم نسترها باللحم، ثم نعيد إليها الحياة؟ فلمَّا رأى ذلك رأي العين تيقَّن أنَّ الله على كل شيء قدير، ومن ذلك: البعث.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾ تقرير حرية الاعتقاد، فلا إجبار على إدخال الناس في الإسلام، ولكن بعضهم استدل بهذه الآية على أنَّ لكل فرد الحرية في أن يختار أي دين، وهذا مجانب للصواب، ولا ينطبق على المسلمين لأنَّها رِدَّةٌ محضة، وكفر صريح.

٢- أشارت الآية إلى أن هذه فائدة المؤمن تنفعه في دنياه بأن يكون على الحق والبصيرة، وذلك مما تطلبه النفوس، وأشارت إلى فائدة ذلك في الآخرة بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الذي هو تعريض بالوعد والثواب.

٣- الآية دليل على جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقائد، والقرآن مملوء بذلك، وأما ما نُهِيَ عنه من الجدل فهو جدال المكابرة والتعصُّب وترويج الباطل والخطأ.

٤- بشرى الله تعالى بنصره للمؤمنين.

٥- تقرير عقيدة البعث وقدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

٦- في القصة موعظة عظيمة.

٧- ينظر: صورة منطقة النمرود وما فيها من الأوثان، كما في الملحق.

٨- ينظر: صورة النخل، كما في الملحق.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ
قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ
وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ
سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ
فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٢٦٠- واذكر- أيها الرسول- حين طلب إبراهيم عليه السلام إلى ربِّه أن يريه كيفية البعث، فأجابه الله تعالى: أوَلم تصدِّق؟ قال: بلى، ولكن سألت ذلك؛ ليزداد يقيني باجتماع الرؤية والإيمان. قال: فخذ أربعة طيور، فضُمَّهن إليك واذْبَحْهُنَّ وقَطِّعهنَّ، ثم اجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً، ثم نادِهنَّ، يجئن إليك مسرعات. فنادى إبراهيم، فإذا كل جزء يعود إلى موضعه، وإذا بها تأتي مسرعة. واعلم أن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾. ا.هـ. وعلى هذا فإن إبراهيم لم يشك، وإنما أراد التأكد والاطمئنان». (صحيح البخاري - كتاب التفسير- سورة البقرة - باب ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ٨/ ٤٩ برقم ٤٥٣٧).

٢٦١- يحثُّ الله تعالى على إنفاق الأموال في سبيل الله، فيُشَبِّه الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله بزارع حبَّة أنبتت سبع سنابل في ساق واحدة، في كل سنبلة مئة حبَّة، والله يضاعف عطاءه لِـمَنْ يشاء. والله واسع الفضل، عليم بأقوال وأفعال عباده.

٢٦٢- يمدح الله الذين يُعطون من أموالهم في الخير والبر، ثم لا يعقبون ذلك بالمنِّ والأذى، كالتحدث عن مقدار العطاء ونحوه، والإساءة بالقول أو الفعل، فهؤلاء الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات لهم ثوابهم عند ربهم، ولا خوف عليهم عند الحساب، ولا هم يحزنون على شيء من حطام الدنيا.

٢٦٣- كلامٌ حسن، ودعاء الرجل لأخيه المسلم، وسترٌ منه عليه؛ لما عَلِم من سوء حالته، خيرٌ من صدقة يعقبها إساءة من قول أو فعل مكروه. والله غني عمَّا يتصدقون به، حليم لا يعاجل العقوبة.

٢٦٤- يا أيها الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، لا تحبطوا ثواب صدقاتكم بسبب المنِّ على الفقراء وأذاهم بالقول أو الفعل، كالمنافق المرائي الذي ينفق ماله ليحمده الناس، وهو لا يصدِّق بالله ولا بيوم القيامة. فمثل هذا كمثل حجر أملس عليه تراب، فهطل عليه مطر غزير، فأزال عنه التراب، وبقي أجرد لا ينبت شيئاً، فكذلك هؤلاء المراؤون تضمحلُّ أعمالُهم عند الله، ولا يجدون شيئاً من الثواب على إنفاقهم. والله لا يهدي المكذِّبين بالله إلى الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٦٠) إخبار عن أمر مستقبلي عن ثواب الله تعالى لِـمَنْ ينفق في سبيله، ومضاعفة ذلك الثواب.

٢- قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تشبيه حال جزائهم وبركتهم.

٣- جملة ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ إلى آخرها مستأنفة استئنافاً بيانياً، وتنكير ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ للتقليل، أي: أقل قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى.

٤- فَضْلُ الله تعالى على عباده بمضاعفة الحسنات أضعافاً كثيرة تبلغ سبعمئة ضعف، ومِنْ فَضْلِه أيضاً أنَّه لا يضاعف السيئات.

٥- التحذير من التمنن على الفقراء والمحتاجين فإنه يُبْطِلُ العمل، ويمحق الثواب.

٦- الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة المصحوبة بإساءة.

٧- خطر الرياء؛ فإنه محبط للأعمال.

٨- المنفق المؤمن لا يُتْبِعُ نفقته منّاً ولا أذى، بل يجمِّلها بالكلمة الطيبة المظهرة لمشاعر الأخوَّة والمحبَّة في تواضع واحترام للمنفق عليه.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

التفسير:

٢٦٥- وصفة الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا الله، وثقةً من أنفسهم بصدق وعده، تشبه الحديقة الواقعة في أرض مرتفعة، هطلت عليها أمطار غزيرة، فتضاعف ثمرها، وإن لم تسقط عليها الأمطار الغزيرة فمطر خفيف يكفيها. والله بكلِّ ما تعملون بصير.

٢٦٦- سبب النزول:

قال عمر ﷺ يوماً لأصحاب النبي ﷺ: «فِيمَ ترون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا بن أخي قل ولا تُحقِّر نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لِرجلٍ غني يعمل بطاعة الله ﷻ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله». (الصحيح برقم ٤٥٣٨ - تفسير سورة البقرة، باب قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾).

التفسير:

هل يحب أحدكم أن يكون له بستان حافل بأشجار النخيل والعنب، تجري من تحت أشجاره المياه العذبة، وله فيه من كل أصناف الثمرات، وأدركته الشيخوخة، وله أولاد صغار في حاجة إلى البستان، فأصابته عاصفة شديدة فيها نار فأحرقته؟ وهذا تشبيه بنفقة المرائي وهي تضيع يوم القيامة. مثلَ ذلك يوضِّح الله لكم الآيات لكي تتأملوا، فتُخلصوا في نفقاتكم.

٢٦٧- سبب النزول:

عن البراء بن عازب ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ قال: «نزلت في الأنصار، كانت الأنصار تُخرِج - إذا كان جذاذ النخل - من حيطانها أقناء البسر، فيعلقونه على حدِّ رأس أسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، فيعمد أحدهم فيُدْخل قِنْوَ الحشف، يظن أنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمَنْ فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ يقول: لو أُهدي لكم لم تَقْبلوه إلا على استحياء من صاحبه...». (هذا حديث غريب صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. المستدرك ٢/ ٢٨٥).

التفسير:

يأمر الله تعالى المؤمنين أن يتصدقوا من أطيب مالهم الذي كسبوه، وممَّا رزقهم الله من الأرض، كالزرع والثمار والمعادن، ونهاهم عن تَعَمُّد الرديء منه؛ لأنهم لو أُعطُوه لم يأخذوه إلا إذا تساهلوا، بغضِّ النظر عنه زهداً فيه، فكيف تؤدُّون منه حقَّ الله؟! واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم، محمود في جميع أفعاله وأقواله.

٢٦٨- الشيطان يُخَوِّفُكم الفقر إذا أنفقتم أو قصدتم الإنفاق، ويأمركم بالمعاصي، والله تعالى يَعِدُكم على إنفاقكم غفراناً لمعاصيكم ورزقاً واسعاً. والله واسع الفضل، عليم بالأعمال والأقوال.

٢٦٩- يرزق الله الإصابة للحق مَنْ يشاء من عباده، ومَنْ حَظِيَ بذلك فقد أعطاه الله خيراً عظيماً، وما يتعظ بهذا إلا أصحاب العقول السليمة.

٢٧٠- وما بذلتم من مال، كثيراً كان أو قليلاً للصدقة، أو ألزمتم أنفسكم شيئاً من مال أو عمل صالح فإنَّ الله يعلمه ويُحْصيه ويثيبكم عليه. وليس للذين يتعدَّون على الحقوق من أنصارٍ يوم القيامة.

٢٧١- إن تُظْهروا صدقاتكم خالية من الرياء فذلك محمود لكم، وإن تعطوها الفقراء سرّاً فهو خيرٌ لكم من إظهارها، وهذه الصدقات تمحو الذنوب. والله بكل ما تعملون خبير.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان أهمية كفاية الماء ودوره في زيادة الإنتاج، إذ إن وابلاً واحداً لا يغطي الحاجة المائية للجنة وزروعها وأشجارها طوال مواسم النمو والأزهار والأثمار والنضوج. (تأثير التعرية المطرية في التربة، ص ٩).

٢ - أثبت العلم الحديث أن الندى له دور مهم في حياة النبات، حيث إن هناك مدداً مائياً لن ينقطع، وهو الندى الذي تعتمد عليه النباتات أكثر من اعتمادها على مياه الأمطار في بعض البيئات؛ لكونها تستطيع أن تمتص قطرات الماء المتكاثفة على سطح أوراقها، ولما له من أهمية كبرى، فإنَّ الوسائل التكنولوجية الحديثة اتجهت إلى إنشاء مصائد للضباب في سقاية مزروعات المناطق الجافة. (أهمية الندى (الطل): من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص١).

٣- يقرر العلماء أن البيئة المثلى لزراعة أشجار الثمار هي بيئة «الروابي»، حيث إنها أراضٍ مسطحة مرتفعة دون الجبل وفوق التل، وهذه حقيقة علمية أثبتتها التجارب على مدى عقود متتالية. (إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران يحيى وزيري ص ١٦٣).

٤ - يقول الخبراء: إنَّ الإعصار يهاجم الأرض فجأة فلا يُبقي ولا يذر، ويصاحب الإعصار نار، وذلك من جراء التقاء شحنات كهربائية مرتفعة القيمة والجهد مع الأشجار والجبال والموجودات، فيكون لمرور التيار الشديد في الأجسام التي تقابله وتقاومه شرارة هائلة يحترق بها كل ما يصادفها. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم : الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص١٠٦-١٠٧).

٥ - بيان فضل الإنفاق في التكافل الاجتماعي؛ لأنَّ المجتمع المؤمن يَتَّسِمُ بالإنفاق والتَّكافل.

٦ - ينبغي أن يكون الإنفاق من المال الحلال الطيب.

٧- لا يجوز إخراج الرديء من المال أو الطعام.

٨- أثبت العلم الحديث أنَّ هناك أنواعاً من الأعفان تُفْرِز في الثمار المريضة أنواعاً من السموم الفطرية تُعرف باسم (افلاتوكسين) تسبب للإنسان سرطانات خطيرة وأمراضاً مستعصية. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص١١٠).

٩ - التحذير من وساوس الشيطان في التثبيط والإغواء.

١٠ - الحكمة موهبة من الله تعالى.

١١ - فضل صدقة السر، وجواز الصدقة في العلن، شرطَ ألَّا يشوبها رياء.

١٢ - الإنفاق مهما كان قليلاً فإن أجره عند الله ثابت.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ
وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ
وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ
إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

٢٧٢- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يعطوا لأنسبائهم من المشركين، فسألوا فرخّص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

(أخرجه النسائي في التفسير ١/ ٢٨٢ برقم٧٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (برقم ٣٢٤٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤ برقم١٢٤٥٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٥،٤/ ١٩١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٤) في رواية البزار: ورجاله ثقات. وقال ابن حجر في (مختصر زوائد البزار ٢/ ٧٥ برقم١٤٥٠): صحيح).

التفسير:

يُخفِّف الله تعالى عن نبيِّه محمَّد ﷺ في دعوته للكفَّار، بأنَّك لست مسؤولاً عن توفيقهم للهداية، ولكنَّ الله يوفِّق مَنْ يشاء لهدايته إلى الإسلام، وما تبذلوا - أيّها المؤمنون - من مال، كثيراً كان أو قليلاً، فلأنفسكم ثوابه، والمؤمنون لا ينفقون إلا طلباً لرضا الله، وما تنفقوا من مالٍ فثوابه يكون لكم مضاعفاً، لا تُنقصون شيئاً من ذلك.

٢٧٣- قدِّموا صدقاتكم للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله أو لطلب العلم، إذ لا يستطيعون السفر طلباً للرزق، يظنهم مَنْ لا يعرفهم غير محتاجين إلى الصدقة؛ لأنهم لا يسألون الناس،

تعرف فقرهم من علامات الحاجة عليهم، لا يطلبون العون، وإذا طَلَبوا لم يُلِحُّوا بالسؤال. وما تتصدقوا به من مال في سبيل الله، فالله به عليم، وسيجازيكم عليه.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبين هنا سبب فقرهم، ولكنه بيّن في سورة الحشر أن سبب فقرهم هو إخراج الكفار لهم من ديارهم وأموالهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾».

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال:«الذي لا يجد غنىً يُغنيه. ولا يُفْطَنُ له، فيُتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». (صحيح مسلم - الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ٢/ ٢١٩ برقم ١٠٣. وصحيح البخاري - التفسير، باب لا يسألون الناس إلحافاً ٨/ ٢٠٢ برقم ٤٥٣٩).

٢٧٤- الذين يُقدِّمون أموالهم في سبيل الله كل وقت، ليلاً ونهاراً، خفيةً وجهاراً، فلهم ثوابهم عند ربهم، ولا خوف عليهم يوم الحساب، ولا يحزنون على ما فاتهم من متاع الدنيا.

٢٧٥- يحذِّر الله تعالى من وبال أكل الربا في الدنيا والآخرة - والربا هو ما زاد على مقدار القرض أو البيع - فيُخبر أنَّ الذين يتعاملون بالربا لا يقومون من قبورهم في الآخرة إلا كما يقوم الذي يصرعه الشيطان من الجنون، ذلك بسبب قولهم: إنما البيع مثل الربا، أي: كلاهما حلال، فردَّ الله عليهم بالفرق بينهما، فقد أحلَّ البيع وحرَّم الربا؛ لما في البيع والشراء مِنْ نفعٍ للعباد، ولما في الربا من الاستغلال والضياع. فمَنِ اتعظ بالنهي عن الربا فلا إثم عليه وأمره إلى الله في المستقبل، ومَنْ رجع إلى الربا معتقداً حِلَّه فأولئك البعداء عن الحقِّ ملازمون للنار، لا يخرجون منها.

٢٧٦- يُنقص الله الربا ويُذهب بركته، ويبارك في المال الذي أخرجت صدقته. والله لا يحب كلَّ مُتمادٍ بالكفر والإثم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أحقُّ الناس بالصدقة الفقراء الذين لا يسألون الناس، بل يتعففون.

٢- الداعية غير مكلف بأن يهتدي المدعو؛ فإن ذلك التوفيق للهداية بيد الله تعالى.

٣- بشارة الله للمؤمنين المنفقين بعظيم أجرهم عنده، وبأمنهم واطمئنانهم يوم القيامة، فلا خوف عليهم ولا حزن.

٤- خطر أكل الربا في الدنيا والآخرة.

٥- تحريم الربا، وجواز البيع الذي يعود نَفْعُه على البائع والمشتري.

٦- مَنْ يَتُب عن أكل الربا فإنَّ الله تعالى يقبل توبته، ومَنْ يعتقد أنه حلال ويُنْكِر تحريمه، فإن النار مثواه خالداً فيها!.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧٧- يخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين صدَّقوا الله ورسوله وأحسنوا عملاً، وأدَّوا الصلاة في أوقاتها بشروطها وأركانها، وأخرجوا زكاة أموالهم، لهم ثواب عظيم عند ربهم، ولا خوف عليهم يوم الحساب، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا.

٢٧٨- يُنبِّه الله تعالى المؤمنين: أنْ خافُوا الله، واتركوا طلب ما بقي لكم من زيادة على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل تحريم الربا، إن كنتم مُصدِّقين بالله ورسله.

٢٧٩- فإن لم تنتهوا عن التعامل بالربا فكونوا على يقين من أنكم في حرب من الله ورسوله؛ للعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن رجعتم عن أكل الربا فلكم أخْذُ ما أقرضتم دون زيادة، لا تعتدون على أحد بأخذ ما زاد على رأس المال، ولا يعتدي عليكم أحد بنقص ما أقرضتم.

٢٨٠- وإن كان المستدين مُعْسِراً غير قادر على وفاء الدَّين فأمهلوه إلى وقت اليسر، وإن تنازلتم عن الدَّين أو عن بعضه فهو أفضل لكم، إن كنتم تعلمون فضل ذلك.

٢٨١- وخافوا يوم القيامة الذي ترجعون فيه إلى الله ليحاسبكم، فيجازي كلَّ فرد بما عمل من خير أو شرٍّ، دون نقص في الثواب، ولا زيادة في العقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل إمهال المعسر عظيم عند الله تعالى. عن حذيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «تلقَّت الملائكة روح رجل ممَّنْ كان قبلكم، فقالوا: أعَمِلْتَ من الخير شيئاً؟ قال: كنت آمر فتياني أن يُنْظِرُوا ويتجاوزوا عن الموسر. قال: فتجاوزوا عنه». (صحيح البخاري ٤/ ٣٠٧ برقم ٢٠٧٧- البيوع، ٩باب من أنظر موسراً).

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا». (صحيح البخاري برقم٤٥٤٤) - تفسير سورة البقرة، باب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ . وعلق الحافظ ابن حجر بقوله: وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ، ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه، وكذا أخرجه من طرق جماعة من التابعين وزاد عن ابن جريج قال: يقولون إنه مكث بعدها تسع ليال. ونحوه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وروى عن غيره أقل من ذلك وأكثر فقيل: إحدى وعشرين، وقيل: سبعاً. وطريق الجمع بين هذين القولين: أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن. (الفتح ٨/ ٢٠٥).

٣- استرداد رأس المال من المَدِين بلا زيادة ولا نقصان عدالة.

٤ - وجوب إنظار المعسر، وفيه رعاية للمعسرين.

٥- أسلوب الترغيب من أساليب القرآن التربويَّة للنفوس في حَثِّها على الصَّالحات، وإبعادها عن السيئات.

٦- التذكير بالآخرة وما فيها من الحساب والوفاء من أساليب القرآن التربويَّة في إصلاح النفوس.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

التفسير:

٢٨٢- يا أيها المؤمنون، إذا أَقْرض بعضكم بعضاً إلى وقت معلوم وجب أن تكتبوه، وليكتب عقد القرض كاتب عادل بالحق، ولا يمتنع كاتب من الكتابة حسب شرع الله، وليقم المستدين بإملاء ما عليه من الدَّين، وليَخَفِ الله ربَّه، ولا ينقص من دينه شيئاً.

قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أنَّ كتابة الدَّين واجبة؛ لأنَّ الأمر من الله يدل على الوجوب، ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ لأن الرهن لا يجب إجماعاً، وهو بدل من الكتابة عند تعذُّرها في الآية، فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجباً. وصرّح بعدم الوجوب بقوله: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾».

فإن كان المستدين سيئ التصرف، أو كان صغيراً أو مجنوناً، أو لم يقدر على الكلام، فليتولَّ الإملاءَ وَلِيُّه أو وَصِيُّه، واطلبوا مع الكتابة أن يشهد شاهدان مسلمان عدلان، فإن لم يوجد رجلان فاطلبوا شهادة رجل وامرأتين ترضون شهادتهم، حتى إذا نسيت إحداهما ذكَّرتها الأخرى، ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة إذا طُلب منهم ذلك.

ولا تَملُّوا أن تكتبوا الدَّين قليلاً كان أو كثيراً إلى وقت حلول موعده. ذلكم الذي أمرناكم به أعدل عند الله، وأثبت للشهادة، وأقرب ألا تشكُّوا في قدر الدَّين والأجل، إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوضاً فلا بأس بعدم كتابته، وأشْهِدُوا على التبايع سواءً كان البيع حاضراً أو دَيناً. ومن الواجب على الشاهد والكاتب أداء الشهادة والكتابة على حقيقتها، ولا يجوز للدائن والمستدين إلحاق الضرر بالكاتب والشاهد بالتحريف والتبديل في الكتابة، أو الامتناع من الشهادة، أو تكليفهما بمشقة كالسفر الطويل.

وإن فعلتم ما نُهيتم عنه فقد خرجتم عن طاعة الله، وخافوا الله، ويُعَلِّمكم الله العلم النافع الذي فيه سعادة الدارين، والله بكلِّ شيء أحاط علماً سبحانه.

٢٨٣- وإن كنتم - أيها المتداينون - مسافرين ولم تجدوا كاتباً لعقد المداينة، فليقَدِّم المستدين شيئاً يكون عنده ضماناً لحقِّه؛ كي يردَّ المستدين ما عليه من دين، فإن وثق بعضكم ببعض فلا حرج من ترك الكتابة والرهن، وليدفع المستدين للمؤتمن دَينه المستحق عليه، وليراقب الله ولا يَخُنِ الأمانة، ولا تُخْفُوا الشهادة أيها الشهود، ومن يُخْفِ الشهادة يأثم ويعاقب. والله بكل ما تعملون عليم لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب كتابة الدَّين قليلاً كان أو كثيراً، وتحديد أجله.

٢- وجوب الإشهاد في الدين برجلين من المسلمين، أو رجل وامرأتين.

٣- وجوب استجابة الشهداء إذا دعوا لها.

٤- وجوب الإشهاد على البيع في الأشياء الكبيرة، كالعقار والمزارع.

٥- جواز الرهن في السفر والحضر توثيقاً للدين وضماناً للمال.

٦- آية الدَّين أطول آية في القرآن الكريم، وهي شاهدة على عظمة التشريع القرآني؛ بما فيها من تفصيلات دقيقة في أمر الدَّين والاحتياط للدَّائن والمدين.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

٢٨٤- سبب النزول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أَيْ رسول الله! كَلِّفْنا من الأعمال ما نطيق. الصلاة والصيام والجهاد والصدقة. وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذَلَّتْ بها ألسنتهم. فأنزل الله في إثرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (قال: نعم) ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ (قال: نعم) ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ (قال: نعم) ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (قال: نعم).

(صحيح مسلم ١/ ١١٥-١١٦ - كتاب الإيمان، باب بيان أنه ﷺ لم يكلف إلا ما يطاق).

التفسير:

يخبر الله تعالى أنَّ له ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهنَّ وما بينهنَّ، وأنَّه المُطَّلع على كل شيء يفعله العباد مما يظهرونه ومما يخفونه في نفوسهم، وسيحاسبهم على ذلك، فيعفو عمَّنْ يشاء، ويعاقب

مَنْ يشاء. والله على كل شيء قدير، وقد تفضَّل الله تعالى على هذه الأُمة بعد ذلك، فعفا عن حديث النفس من غير فِعْلٍ.

عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: أحسبه ابن عمر - ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. (صحيح البخاري برقم ٤٥٤٦ -كتاب التفسير- باب ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾، وباب ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ برقم٤٥).

٢٨٥- صدَّق النبي ﷺ بما أُوحي إليه من ربه، وصدَّق به المؤمنون معه، كل فرد منهم صدَّق بالله ربَّاً ومعبوداً بحق، وبملائكته أجمعين، وكتبه المنزَّلة، ورسله جميعاً بدون تفرقة وإنكار لبعضهم. وقال الرسول والمؤمنون: سمعنا يا ربنا ما أوصيت به، وأَطَعْنا في ذلك، نرجو أن تغفر لنا ذنوبنا، أنت وَلِيُّنا، وإليك المرجع.

٢٨٦- لا يأمر الله تعالى عباده بالأمور الشاقة التي هي فوق الطاقة البشرية، وإنما يأمرهم على قدر المستطاع، فمَنْ فعل خيراً نال خيراً، ومَنْ فعل شرّاً نال شرّاً، ويعلِّم الله عباده الدعاء: ياخالقنا لا تُعَذِّبنا بسبب النسيان أو الخطأ من غير قصد، ولا تشقَّ علينا بالأمور الشاقة التي كَلَّفت بها مَنْ قبلنا من المعاندين، ربنا ولا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف، وسامحنا واستر علينا ذنوبنا، وارحمنا برحمتك الواسعة، أنت وليُّ أمرنا، فانصرنا على الذين جحدوا دينك.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

٢- وجوب الإيمان بجميع المرسلين.

٣- وجوب السمع والطاعة للنبي ﷺ.

٤- رحمة الله ﷻ بعباده بألّا يكلفهم فوق قوتهم وقدرتهم، ولا يحاسبهم على ما يدور في خواطرهم إلا ما عزموا عليه، فإنَّه يحاسبهم عليه.

٥- من رحمة الله ﷻ ألّا يؤاخذ الناسي والمخطئ غير العمد. ومن رحمته أن عَلَّمَنا هذا الدعاء العظيم، وقد بشَّر بالاستجابة وضَمِنَها.

النزول: مدنية.

فضل السورة: تَقَدَّم مقروناً بفضل سورة البقرة.

المقاصد:

١- تقرير توحيد العبوديَّة والربوبيَّة.

٢- إقامة الحجَّة على النصارى عامَّة، ونصارى نجران خاصَّة.

٣- بيان عظمة الله تعالى في الخلق والتدبير والرزق.

٤- الإيمان بكتب الله تعالى ورسله، والقدر خيره وشرِّه.

٥- إبطال ألوهيَّة عيسى عليه السلام.

٦- أهمِّية الاتحاد بين المسلمين، والتحذير من الفرقة والتشرذم.

٧- عَرْضُ غزوة أُحد عرضاً دقيقاً، مصحوباً بالتوجيهات القرآنية المبيِّنَة لأسباب النصر القرآنية، وبناء مجتمع الإيمان وأفراده، وتميزه عن مجتمع الشرك والنفاق.

٨- بيان جملة من الأحكام الشرعية، كفريضة الحج، وأحكام القتال، وتحريم الربا، وترهيب مانعي الزكاة.

٩- بيان فَضْلِ الذكر والدعاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١ - هذه الحروف المقطعة تقدَّم الكلام عليها في مطلع سورة البقرة، وتشير إلى إعجاز القرآن.

٢ - فَضْلُ الآية:

قال النبي ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾». (أخرجه الترمذي في السنن ٥/٥١٧ برقم ٣٤٧٨-كتاب الدعوات، باب ٦٥. قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني: حسن. صحيح الترمذي برقم ٢٧٦٤).

التفسير:

الله لا معبود بحقٍّ إلا هو، الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بعظمته، القائم على كلِّ شيء.

٣-٤ - نَزَّل عليك - أيُّها الرسول - القرآن بالحقِّ الذي لا ريب فيه، موافقاً لما قبله من كتب ورسل، وأنزل التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، من قبل نزول القرآن؛ لأجل هداية الناس إلى الإسلام، وأنزل ما يفرق بين الحقِّ والباطل. إنَّ الذين كَذَّبوا بآيات الله التي بَيَّنها الله في القرآن وغيره لهم عذاب عظيم موجع. والله عزيز في ملكوته، ذو انتقام ممَّن كذَّب بآياته.

٥-٦- إنَّ الله يعلم كلَّ شيء، ظاهراً أو باطناً في الأرض والسماء، هو وحده الذي يخلقكم في الأرحام كما يشاء: من ذكرٍ أو أنثى، شقي أو سعيد. لا معبودَ بحقٍّ سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في تدبيره.

الفوائد والاستنباطات:

١- القرآن الكريم معجز.

٢- تقرير هداية القرآن الكريم.

٣- تقرير نزول القرآن والتوراة والإنجيل.

٤- قال رسول الله ﷺ: «أُنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لستٍّ مَضَيْنَ من رمضان، والإنجيل لثلاثَ عشرةَ خلت من رمضان، وأُنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان». (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٠٧، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة برقم١٥٧٥).

٥- تأكيد توحيد العبوديَّة.

٦- وجوب مراقبة الله تعالى وخشيته في السر والعلن.

٧- خَلْقُ الإنسان في رحم أُمِّه حسب مشيئة الله تعالى.

٨- في الآية (٦) إخبار عن أمر مستقبلي في خلق الله تعالى الجنين في الرحم كيف يشاء.

٩- ينظر: صورة مراحل خلق الإنسان في الرحم، كما في الملحق.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي
ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ
ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ
وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٧- هو الله وحده الذي أنزل عليك - يا محمَّد - القرآن: منه آيات واضحات الدلالة، هنَّ أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود. ومنه آيات أُخَرُ فيها اشتباه على كثير من الناس أو بعضهم في الدَّلالة. فمَنْ كان في قلبه شكٌّ وانحراف عن الحقِّ يأخذون من الآيات المتشابهات، فيستدلون بها على مقاصدهم الفاسدة، ويحرِّفونها على حسب مذاهبهم الباطلة ليُضِلُّوا الناس. ولا يعلم بيان المتشابه وحقيقته إلا الله تعالى. والعلماء المتضلِّعون في العلم يؤمنون بالمتشابه والمحكم؛ لأنَّه كلَّه من عند الله تعالى. وما يتعظ ويتدبَّر المعاني على وجهها الصحيح إلا أصحاب العقول المهتدية.

٨-٩- وهؤلاء العلماء يطلبون من الله الثبات على الحقِّ، فيتضرَّعون قائلين: يا ربَّنا لا تُمِلْ قلوبنا عن الحقِّ الذي هديتنا إليه، وارزقنا من عندك رحمة واسعة، إنَّك أنت الوهَّاب، كريم العطاء لِـمَنْ تشاء، ياربَّنا

إنَّك ستجمع بين خَلْقك ليوم لا شكَّ فيه وهو يوم القيامة. إنَّ الله وعدُه حقٌّ، لا يُخلف ما وعدَ به العبادَ، كالبعث وغيره.

١٠ - إنَّ الذين كذَّبوا الله سبحانه لن تَدْفَعَ عنهم أموالهم ولا أولادهم عذاب الله، وأولئك البعداء عن الحقِّ هم حطب النار يوم القيامة.

١١ - حال الكافرين في تكذيبهم بآيات الله شبيهة بحال قوم فرعون والذين من قبلهم من الكفَّار، كقوم نوح وهود وصالح أنكروا آيات الله، فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم. والله شديد الأخذ، أليم العذاب.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ موقع كاف التشبيه موقع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبَّه به، والتقدير: دأبهم في ذلك كدأب آل فرعون، أي: عادتهم وشأنهم كشأن آل فرعون».

(التحرير والتنوير: ٣/ ٣٣).

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب العمل بالمحكم.

٢- وجوب الإيمان بالمتشابه.

٣- العلماء الربَّانيون لا يعلمون المتشابه، لكنَّهم يؤمنون به.

٤ - على المؤمن أن يقف أمام المتشابهات من الآيات موقف العلماء الربانيين، فيفوِّض العلم بحقيقتها لله تعالى، ولا يتجاوز حدَّه من العلم.

٥- حَذَّر النبيُّ ﷺ من الذين يتبعون المتشابه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم». (صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٣ برقم ٢٦٦٥ - كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، واللفظ له. وصحيح البخاري ٨/ ٢٠٩ برقم٤٥٤٧ - كتاب التفسير- سورة آل عمران).

٦- تعليم الله تعالى المؤمنين الأدعية العظيمة، ومن أهمِّها طلب الثبات على الدين والحقِّ.

٧- سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك مَنْ كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تُكَذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه». يتدارؤون: يختلفون.

(أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم٦٧٤١، وصححه محققه. وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع برقم٢٣٧٠).

٨- قال ابن عاشور: «من بدائع البلاغة أن ذكر في القصر فعل أنزل، الذي هو مختص بالله تعالى، إذ الإنزال يرادف الوحي، ولا يكون إلا من الله، بخلاف ما لو قال هو الذي آتاك الكتاب».

(التحرير والتنوير: ٣/ ١٤).

٩- قال ابن عاشور: «في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق؛ لأنَّه لما قَسَّم الكتاب إلى محكم ومتشابه، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعاني، تَشَوَّفت النفس إلى معرفة تَلَقِّي الناس للمتشابه. أمَّا المحكم فتَلَقِّي الناس له على طريقة واحدة، فلا حاجة إلى تفصيل فيه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢١).

١٠- وجوب الدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى.

١١- أموال الكفَّار وأولادهم لن تنفعهم في الآخرة.

١٢- الاعتبار بأحوال الأُمم الماضية.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٢- يُبَشِّر الله تعالى محمَّداً ﷺ ومهدِّداً الكافرين: قل لهم إنَّكم ستُهْزَمُون في الدنيا، وتُجمعون وتُساقون إلى جهنَّم؛ لتكون مستقراً لكم ومأوى، وساء ذلك مستقراً ومأوى.

١٣- قل يا محمَّد للكفَّار: لقد كان لكم عبرة واضحة في طائفتين تقابلتا في معركة (بدر)، إحداهما: تقاتل من أجل نصرة دين الله، وهم المؤمنون، وعلى رأسهم محمَّد ﷺ، والأخرى: كفَّار قريش يرون المؤمنين ضِعفين عياناً. والله يُقَوِّي بنصره مَنْ يشاء. إنَّ في ذلك لموعظة لأصحاب البصائر الحكيمة.

١٤- حُسِّن للناس الميل نحو الشهوات من النساء، وجُبِلُوا على حُبِّ كثرة البنين، والأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضَّة، والخيل الأصيلة المعلَّمة، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والمزارع الغنَّاء، ذلك ما يُمَتَّعُ به في الدنيا الزائلة. والله عنده حسن المنقلب وهو الجنَّة.

١٥- يأمر الله تعالى محمَّداً ﷺ بأن يبشِّر المؤمنين بالجنَّة ويُشَوِّقهم إليها: هل أُخبركم بخير من هذه الشهوات؟ لِـمَنْ خاف الله: جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها المياه العذبة من الأنهار ماكثين فيها أبداً، وفيها أزواج مُطَهَّرة من عيوب النساء ومن عيوب الرجال- فالطهارة حسِّية ومعنوية للجنسين- ولهم رضوان دائم من الله. والله عليم بأحوال العباد.

١٦-١٧- من صفات المتقين أنَّهم يَدْعُون الله، يقولون: يا ربَّنا إنَّنا صَدَّقْنا بك، فلا تؤاخذنا على ما فَعَلْنا من ذنوب، ونَجِّنا من عذاب النار. وأنَّهم يصبرون على الابتلاء، ويصدقون في أقوالهم وأفعالهم، ويطيعون الله، وينفقون من أموالهم سرّاً وعلانية، ويستغفرون ربَّهم في وقت السحر آخر الليل.

الفوائد والاستنباطات:

١- بشرى للنبي ﷺ وأصحابه ﵃ بالنصر.

٢- في الآية (١٣) إخبار مستقبلي عن تأييد الله تعالى بنصره لِـمَنْ يشاء.

٣- الاختبار بزينة الحياة الدنيا من النساء والبنين والأموال.

٤- الآخرة أفضل وأمثل من زينة الحياة الدنيا.

٥- المؤمن التقي لا تفتنه الشهوات.

٦- الثناء على المستغفرين والصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين في سبيل الله تعالى.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ (١٨) إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (١٩) فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ
أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ
وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (٢٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٢١) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ
(٢٢) أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ
وَهُم مُّعۡرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ (٢٤) فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ (٢٥) ﴾

التفسير:

١٨ - شهادة عظيمة يشهد بها الله تعالى أنّه المتفرِّد بالعبودية، وكذلك تشهد الملائكة والعلماء على قيامه بالعدل، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو سبحانه، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وشهادة الربِّ وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله تارة... وأمّا شهادته بفِعْلِه فهو ما نَصَبَه من الأدلّة الدَّالّة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل». (مجموع الفتاوى ١٧/ ١٦٨).

١٩ - يُخبر الله تعالى بأنّه لا دين يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتِّباع الرسل فيما بعثهم الله به كلَّ حين حتى خُتِمُوا بمحمَّد ﷺ. وما اختلف اليهود والنصارى إلا من بعد ما جاءهم العلم بأمر النبي ﷺ في التوراة والإنجيل فأنكروه حسداً، وبغى بعضهم على بعض. ومن يكذِّب بدلائل الله على توحيده فإنّ الله سريع الجزاء لعباده.

٢٠ - يُعَلِّم الله تعالى محمَّداً ﷺ كيف يناظر أهل الكتاب: فإن جادلوك في شأن الدين فقل لهم: إنّني أخلصت عبادتي لله وحده، أنا ومَنِ اتبعني من المؤمنين. وقل لأهل الكتاب ولمشركي العرب: هل قَبِلْتم الإسلام؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم، وإن أعرضوا فإنّما عليك أن تُبَلِّغَهم ما أُنزل إليك. والله عليم بمَنْ يستحق الهداية ممّن يستحق الضلالة، لا يخفى عليه شيء.

٢١-٢٢- إنَّ الذين يُكَذِّبون بدلائل الحق، ويقتلون الأنبياء ظلماً، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل، فبشِّرهم بعذاب موجع. أولئك البعداء عن رحمة الله الذين يتصفون بتلك الجرائم الخطيرة بطلت حسناتهم في الدارَين، وليس لهم ناصر من عذاب الله تعالى.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال المؤكِّدة لمضمون جملة ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّنَ ﴾ إذ لا يكون قَتْلُ النبيين إلا بغير حق. والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فِعْلِهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٢).

٢٣- سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المِدْراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه. فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً! فقال رسول الله ﷺ: فهلمُّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم! فأبيا عليه، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ١٨).

التفسير:

يُخاطب الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ مُنكِراً على اليهود والنصارى: ألا تعجب من هؤلاء الذين يَدْعُون إلى الحقِّ المذكور في التوراة والإنجيل؛ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، فترفض طائفة منهم، وهم مُعْرِضون عن سماعه؟

٢٤-٢٥- هذا الإعراض عن الحقِّ بسبب ادِّعائهم أنَّهم لن يُعَذَّبوا إلا أياماً قليلة، فقد خدعوا أنفسهم بهذا الكذب. فكيف يكون حالهم يوم بعثهم الذي لاشكَّ في وقوعه، ونالت كلُّ نفس جزاءها العادل على ما عملت، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة؟.

قال ابن عاشور: (كيف) هنا خبر لمحذوف دلَّ على نوعه السياق، و (إذا) ظرف منتصب بالذي عمل في مظروفه، وهو ما في (كيف) من معنى الاستفهام التفظيعي كقولك: كيف أنت إذا لقيت العدو؟ (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٦).

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما فُتِحَتْ خيبر أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان ها هنا من يهود»، فجمعوا له، فقال: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقِيَّ عنه؟» فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. فقال: «كذبتم، بل أبوكم فلان». قالوا: صدقت. قال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كَذَبْنا عرفت كذبنا كما عرفته في

أبينا. فقال لهم: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟» قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يَضُرَّك.

(الصحيح برقم ٣١٦٩ - الجزية والموادعة - باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد تضمَّنَتْ هذه الآية ثلاثة فصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّه قائم بالقسط، وأنَّه العزيز الحكيم، فتضمَّنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمَّنت عدله المنافي للظلم، وتضمَّنت عزَّته وحكمته المنافية للذلِّ والسفه، وتضمَّنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه، ففيها إثبات التوحيد». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٨٤).

٢- قال ابن عاشور: «هذا شروعٌ في أول غرض أنزلت فيه هذه السورة: غرض مُحاجَّة نصارى نجران. فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن والتوراة والإنجيل، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأنَّ هَدْيَه يفوق هدي ما قبله من الكتب». (التحرير والتنوير: ٣/ ٤٥).

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإثبات شهادة أولي العلم يتضمَّن أنَّ الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين، الملائكة والبشر، وهذا متَّفق عليه، يشهدون أن لا إله إلا الله، ويشهدون بما شهد به لنفسه». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٨٠).

٤- بيان فضل العلماء.

٥- وجوب التحاكم إلى شرع الله تعالى.

٦- الرد على مزاعم اليهود الذين زعموا أنَّهم لم تَمَسَّهم النَّار إلا فترة يسيرة.

٧- الحذر من الاختلاف في الدِّين، والتفرُّق والتشرذم.

٨- قال ابن عاشور: «الاستفهام المستعمَلُ في الاستبطاء والتحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. وجيء بصيغة الماضي في قوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ دون أن يقول: أتُسْلِمون على خلاف مقتضى الظاهر، للتنبيه على أنه يرجو تحقُّق إسلامهم، حتى يكون كالحاصل في الماضي».

(التحرير والتنوير: ٣/ ٥٩).

٩- الردُّ على مزاعم اليهود الذين زعموا أنهم لن تمسهم النار إلا وقتاً يسيراً.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ
مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً
وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ
رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٧- يُرشد الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ والمؤمنين كيف يَدْعُونه ويُعَظِّمونه؟ فيقولون: يا الله، يا مالك الملك، تهب الملك والمال لِـمَنْ تشاء من عبادك، وتمنع مَنْ تشاء، وترفع مَنْ تشاء، وتخفض مَنْ تشاء، بيدك الخير وحدك، إنّك على فِعْل كلِّ شيء قدير، لا يقدر على ذلك غيرك. تُدْخِلُ ما نَقَصْتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتَزيد من ساعات النهار، وتُدْخِلُ ساعات النهار في ساعات الليل، فتَزيد من ساعات الليل. وتُخرج الشيء الحيَّ من الشيء الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج النبات الأخضر من الحبوب اليابسة، وتخرج الشيء الميت من الحي، كإخراج الحَبِّ اليابس من النبات الأخضر، وتعطي مَنْ شئت مِن المال ما لا يقدر على إحصائه.

٢٨- لا تتخذوا - أيُّها المؤمنون - الكفّار ظَهْراً وأنصاراً، ومَنْ يتولَّهم فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة فلا حرج في ذلك. ويُخوِّفكم الله من نفسه أن تخالفوه. وإلى الله مرجعكم وحسابكم.

٢٩- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يخبر المؤمنين: إن تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم أو تظهروه، فإنَّ الله قد أحاط به علماً، وأحاط بكلِّ شيء في السموات السبع والأرضين السبع. والله على كلِّ شيء قدير لا يتعذَّر عليه شيء أراده.

٣٠- فليحذر الذين يخالفون أمره يوم القيامة، إذ تجد كلُّ نفس عملها من خيرٍ مهما قلَّ أو كثر مشاهداً، وتجد ما اقترفته من ذنوب تتمنَّى أن تكون بعيدة عن ذلك العمل بُعْداً شاسعاً خوفاً من الحساب، ويحذِّركم الله نفسه أن تسخطوها عليكم بفعل المعاصي، والله عظيم الرأفة بعباده.

٣١-٣٢- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يبلِّغ كلَّ مَن ادَّعى أنَّه يحبُّ الله تعالى حقَّاً فعليه اتِّباعه وتصديقه ﷺ، فإنَّ ذلك علامة محبَّة الله لهم، فهؤلاء يَحْظَون بمحبَّة الله تعالى ومغفرته لذنوبهم. والله عظيم المغفرة لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم، وهو اتِّباع الرسول، فأثابهم على ذلك بأن أحَبَّهم، وجزاء الشرط وثواب العمل ومُسَبَّب السبب لا يكون إلا بعده لا قبله». (مجموع الفتاوى ٧/ ٤٤٣).

ثمَّ أمرهم بطاعة الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، فإن أعرضوا فإنَّ الله لا يحبُّ الجاحدين للحقِّ ويسخط عليهم. عن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أَعْدَدْتَ لها؟» قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنتَ مع من أحببت». (صحيح البخاري ١٠/ ٥٥٧ برقم ٦١٧١- كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٦) إخبار عن أمر مستقبلي في إعطاء الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء، وإخبار مستقبلي عن نزع الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء، وإخبار عن أمر مستقبلي في معزَّة الله تعالى لِـمَنْ يشاء، وإخبار مستقبلي عن إذلال الله تعالى لِـمَنْ يشاء.

٢- تعليم الله تعالى النبي ﷺ وأُمته بهذا الدعاء العظيم.

٣- فضل الدعاء بهاتين الآيتين العظيمتين.

٤- قال ابن عاشور: «خُصَّ الخير هنا لأنَّ المقام مقام تَرَجِّي المسلمين الخير من الله». (التحرير والتنوير ٣/ ٦٨).

٥- في الآية (٢٧) إخبار عن أمر مستقبلي في رزق الله تعالى لِـمَنْ يشاء بغير حساب.

٦- ينظر: صورة ولوج وتكوير الليل والنهار، كما في الملحق

٧- تحريم موالاة المؤمنين للكفار، وهذه الموالاة المحرمة لها عدة حالات منها:

أ- الموالاة بالقلب كمَنْ يواليهم وقلبه متعلق بهم، ويُظهر للمسلمين خلاف ما يبطنه لهم من العداوة.

ب- تحسين صورة الكافرين في نفوس المؤمنين.

ج- الموالاة الناتجة عن التساهل مع الكفار في تركهم ينشرون الردة عن الإسلام.

د- التواطؤ معهم على إضعاف المؤمنين.

٨- قال ابن عاشور: «انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن، والمناسبة أن الترهيب المتقدم ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] والرأفة تستلزم محبة المرؤوف به الرؤوف، فجعل محبة الله فعلاً للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة».

(التحرير والتنوير: ٣/ ٧٨).

٩- محبَّة الله تعالى تكون بإخلاص العبوديَّة له سبحانه.

١٠- كثير من الناس اليوم يَدَّعون محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ وهم قائمون على المعاصي والمنكرات وكبائر الذنوب، وهذا مخالف لدعواهم فإن المُحِبَّ لِـمَنْ يحب مطيع، فعلى هؤلاء أن يتقوا الله ويرجعوا عمَّا هم فيه حتى تصدق دعواهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ
وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ
وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ
لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ
رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى
ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ
رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ
بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٣-٣٤- إنَّ الله اختار الأنبياء آدم ونوحاً والمؤمنين من ذريَّة إبراهيم وذريَّة عمران، كمريم وعيسى عليهما السلام، وفضَّلهم على العالمين في زمانهم. وهؤلاء الأنبياء والرسل سُلالة متواصلة في النيَّة والإخلاص لله والتوحيد له. والله سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم.

٣٥- واذكر - أيُّها الرسول - قِصَّة امرأة عمران واسمها: (حنة بنت فاقوذ) حين حملت دعت: يا ربِّ إنِّي نذرت لعبادتك ما أحمله في بطني خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة (بيت المقدس) فتقبَّل منِّي نَذري. إنَّك أنت السميع لدعائي، العليم بقصدي.

٣٦- وحينما وَلَدَت امرأة عمران ابنتها (مريم) قالت متأسِّفة: يا ربِّ إنِّي وضعتها أنثى- والله تعالى أعلم بما ولدت - وليس الذَّكَرُ الذي يصلح لخدمة (بيت المقدس) كالأنثى التي لا تستطيع ذلك، وإنِّي سَمَّيْتُ هذه الأنثى (مريم)، وإنِّي أجيرها بك وذريتها من الشيطان المطرود من رحمة الله.

٣٧- فتقبَّلَ الله مريم نَذْراً لأُمِّها أحسن القبول، وتَوَلَّى مريم بالعناية، وأنبتها نباتاً حسناً وشكلاً مليحاً، وهيَّأ الله تعالى زكريا (زوج خالتها) أن يتكفَّل مريم، وأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما جاء مريم

لرعايتها وجد عندها رزقاً كريماً فيسألها متعجِّباً: يا مريم من أين لك هذا الرزق؟ فأجابت: هو رزق من فضل الله. إنَّ الله يرزق مَنْ يشاء من عباده بغير إحصاء ولا حدود.

٣٨- لمَّا رأى زكريا ﷺ الرعاية الربَّانية لمريم دعا: يا ربِّ ارزقني من فضلك ولداً مباركاً، إنَّك يا الله تسمع دعاء مَنْ دعاك.

٣٩- فاستجاب الله له دعاءه وناداه جبريل ﷺ ومَنْ معه من الملائكة حال كون زكريا ﷺ قائماً في المحراب يُصلِّي: إنَّ الله يبشِّرك بأنَّك سترزق بولد اسمه (يحيى) مصدِّقاً بعيسى بن مريم، وسيكون يحيى سيداً في قومه، زاهداً في شهوة النساء، وممتنعاً عن المُحرَّمات، ونبيّاً من أهل الصلاح.

٤٠- سأل زكريا ربَّه مُتحقِّقاً من البشارة: يا ربِّ كيف يُوْجَدُ لي غلام وقد أدركَتْني الشيخوخة، وامرأتي عقيم لا تلد؟ فأجابه ربُّه: مثل ذلك الخلق غير المعتاد يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا القدر الذي بلغ من الكِبَر، ولكنه بَيَّن في سورة مريم أنه بلغ من الكبر عِتِيّاً. وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] والعِتِيُّ: اليبس والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر».

٤١- طلب زكريا أن يطمئنَّ: يا ربِّ اجعل لي علامة أستأنس بها على تحقيق البشارة؟ فأُجيب: بأنَّ علامتك عجزك عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، واذكر خالقك ذِكراً كثيراً، وسَبِّحه تعظيماً وتنزيهاً له في الصباح والمساء.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الله تعالى على مَنْ يشاء من عباده الذين اصطفى، ومنهم مريم الصدِّيقة.

٢- بشرى الاستجابة لزكريا ﷺ بأن يَهَبَ الله تعالى الذرية لِـمَنْ دعاه من الصالحين.

٣- الاستفادة من القصص في استجلاب الخير، ومنه ما ذُكِرَ في هذه القصة العظيمة.

٤- فضل الدُّعاء وذِكْرِ الله تعالى.

٥- في الآيتين (٣٣ - ٣٤) تنبيه على مكانة الأسرة المسلمة عند الله تعالى وأهميتها في تماسك المجتمع المسلم وقوته. وأن آل إبراهيم وآل عمران أسرتان مباركتان فيهما الأنبياء والصالحون.

٦- في الآيتين (٣٦) و(٣٨) أصل من أصول تربية الأولاد وهو الاستعانة بالله على تربيتهم ورعايتهم، وطلب التوفيق من الله تعالى في تحمل مسؤولية تنشئتهم، والدعاء لهم بالصلاح والفلاح.

٧- في الآية (٣٧) دليل على صحة قاعدة السلف التربوية «التأديب من الآباء، والصلاح من الله تعالى».

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾
يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ
أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ
وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ
عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا
صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٢-٤٣- هذا إخبار من الله تعالى للنبيِّ ﷺ بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك: إنَّ الله اجتباكِ وزَكَّاكِ من كلِّ عيب، واجتباك مرَّة أخرى لتفضيلك على نساء العالمين، يا مريم أكثري من الطاعة والشكر والخضوع لربِّكِ، وصَلِّي مع المصلِّين.

٤٤- ذلك الذي قصصناه عليك - يا محمَّد - من عظيم أخبار الغيب التي أعلمناك إيَّاها، وما كنت مع المتنازعين حين اقترعوا على حضانة مريم بإلقاء أقلامهم، فمَنْ وقف قلمه فهو الكافل، فوقف قلم زكريا، وما كنت عندهم إذ يختلفون، ويتسابقون على ثواب الله.

٤٥- واذكر - أيُّها الرسول - حين نادت الملائكة مريم: إنَّ الله يبشِّرك بمولود يحصل بكلمة من الله وهي ﴿ كن ﴾ فيكون بأمر الله تعالى، اسمه المسيح عيسى بن مريم، ذو جاه عظيم في الدنيا بالنبوَّة، وفي الآخرة بعُلُوِّ الدرجة؛ لأنَّه من المقرَّبين إلى الله يوم القيامة. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبين هنا هذه الكلمة التي أطلقت على عيسى؛ لأنَّها هي سبب في وجوده، من إطلاق السبب وإرادة مسببه، ولكنه بيَّن في موضع

آخر أنها لفظة ﴿كن﴾، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]».

٤٦ - ومن خصائصه في الدنيا: أنّه يكلِّم الناس وهو طفل رضيع في المهد حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٠-٣٣]، ويُكلِّم الناس في حالة الشيخوخة حين يوحي الله إليه، وهو من الصالحين في قوله الفصيح، وعمله الصحيح.

٤٧ - تعجَّبت مريم من وجود الولد دون زواج: كيف يكون لي ولد ولم يقربني رجل؟! فأجابها الوحي: مثل تلك المعجزة يخلق الله ما يشاء من العدم، إذا أراد شيئاً فإنّما يأمره بكلمة ﴿كن﴾ فيكون كما أراد.

٤٨ - ويُعلِّمه الكتابة وسنن الأنبياء، والتوراة المنزلة على موسى ﷺ، والإنجيل المنزل عليه.

٤٩ - ويبعثه رسولاً إلى ذريَّة يعقوب ﷺ داعياً لهم: أنّي أتيتكم ببرهان من خالقكم يدلُّ على صدق رسالتي، حيث إنّي أصوِّر لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ في تلك الصورة، فتصير طيراً بمشيئة الله، وأُشفي الأعمى والمصاب بالبرص، وأُحيي مَنْ كان ميتاً بإذن الله، وأُخبركم بما أكلتم، وما خبَّأتم في مساكنكم. إنَّ في ذلك البرهان البعيد عن الشكِّ لدليلاً واضحاً على صدق نبوَّتي إن كنتم مصدِّقين بالله ورسله.

٥٠ - وأُرسلت إليكم مُصَدِّقاً لما سبقني من شريعة التوراة، ولأبيح لكم بعض ما حُرِّم عليكم من قبل، وجئتكم بمعجزات من ربِّكم، فخافوا الله وأطيعوني، وتابعوني في ديني.

٥١ - إنَّ الله الذي أرسلني إليكم وحده ربِّي وربُّكم، فاعبدوه وحده لا شريك له، وهذا هو الطريق القويم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان فضل مريم رضي الله عنها.

٢ - تقرير نبوة عيسى ﷺ وبيان فضله.

٣ - بيان فضل الركوع والسجود.

٤ - هذه القصَّة من دلائل النبوَّة؛ فهي من قبيل الإخبار بغيب الماضي.

٥ - إظهار عظمة قدرة الله تعالى في خلق عيسى ﷺ بقوله (كن) فيكون.

٦ - الردُّ على مَنْ قال بعقيدة التثليث بأن عيسى على التوحيد، ويدعو إلى توحيد العبودية لله تعالى.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ
وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير:

٥٢- فلمَّا دعا عيسى عليه السلام اليهود واستشعر منهم الإصرار على التكذيب نادى: مَنْ أعواني في الدعوة إلى الله؟ قال أصحاب عيسى الأصفياء: نحن أنصار دين الله، صَدَّقْنا بالله، واشهد لنا بأنَّا منقادون لله وحده.

٥٣- ودَعوا: يا ربَّنا إنَّنا صدَّقنا بالذي أنزلت من الوحي، وامتثلنا أوامر رسولك عيسى عليه السلام، فاجعلنا من الذين شهدوا لك بالوحدانية.

٥٤- وتآمر كفرة اليهود على عيسى عليه السلام، وقرَّروا أن يقتلوه، ومكر الله بهم بأن ألقى الله شبَهَ عيسى على رجل منهم، فقتلوه وظنُّوا أنَّهم قتلوا عيسى، ورفع الله عيسى إلى السماء، ولهذا قال: والله خير الماكرين؛ لأنَّه مكرٌ بحق، وأعظم من مكرهم.

٥٥- يُذكِّر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ حين أنقذ الله تعالى عيسى عليه السلام قال: يا عيسى إنِّي قابضك من الأرض، ورافعك إليَّ، ومنجيك من خبث الكفَّار ومكرهم، وجاعل الذين صَدَّقوا بنبوَّتك منصورين على الذين جحدوا نبوَّتك إلى قيام الساعة، ثمَّ يكون مآلُكم إليَّ جميعاً، فأقضي بين المؤمنين والكافرين فيما اختلفوا فيه من أمر عيسى عليه السلام.

٥٦- فأمَّا المكذِّبون بالله ورسله فأعذِّبهم عذاباً شديد الوجع في الدنيا بشتَّى العقوبات، وفي الآخرة بجهنَّم، وليس لهم أعوان يدفعون عنهم عذاب نار جهنَّم.

٥٧- وأمَّا المؤمنون الذين يقومون بالأعمال الصالحة فيعطيهم الله ثوابهم تامّاً. والله لا يحبُّ المعتدين المخالفين أمره.

٥٨- ذلك الخبر العظيم الذي نقرؤه عليك - يا محمَّد - بواسطة جبريل من البراهين الواضحة التي تدلُّ على صدق نبوَّتك، وصحة القرآن ذي الحكمة الفاصلة بين الحقِّ والباطل.

الفوائد والاستنباطات:

١- مَنْ يمكر بالأنبياء والدعاة فإنَّ الله تعالى يمكر به عاجلاً أو آجلاً.

٢- إنَّ الله تعالى ناصر رسله بأسباب متعددة، ومن أهمِّها ما يُهيِّئه لهم من الأنصار المؤمنين.

٣- تقرير رَفْعِ عيسى عليه الصلاة والسلام حياً، خلافاً للذين يعتقدون أنه قُتِلَ مصلوباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

٤- جزاء المكذِّبين للرسل العذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير:

٥٩- إنَّ شَبَهَ عيسى في خلقه من غير أب كشبه آدم خلقه الله من تراب، ثمَّ أوجده بكلمة (كن) فكان.

٦٠-٦١- هذا هو الحقُّ الذي جاء من ربِّك - أيُّها الرسول - في شأن عيسى عليه السلام، فاستمر على يقينك، ولا تكن من المرتابين في بطلان اعتقاد اليهود بشأن عيسى عليه السلام. فمَنْ جادلك في شأن عيسى بعد ما وضح لك الحقُّ من الوحي فقل لهم: هَلُمُّوا نجتمع ونُحْضِرُ الأبناء والنساء من الطرفين، ثم نتضرَّع إلى الله بالدعاء أن يُنْزِلَ عقوبته ولعنته على الكاذبين في شأن عيسى عليه السلام.

٦٢- يؤكِّد الله تعالى أنَّ خبر عيسى عليه السلام الذي أنبأتك به هو الحقُّ الواقع، وليس ثمة معبود يستحقُّ العبادة إلا الله وحده. وإنّ الله لهو العزيز في ملكه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

٦٣- فإن أعرضوا عن هذا الحق فهذا هو الفساد. والله عليم بالمفسدين وسيعاقبهم.

٦٤- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يدعو اليهود والنصارى إلى كلمة عدل وهي: لا إله إلا الله، فنلتزم بها جميعاً، وألا تكون عبادتنا إلا لله وحده، ولا نجعل له أيَّ شريك، ولا يطيع بعضنا بعضاً في عبادة لغير الله، فإن أعرضوا عمَّا دُعُوا إليه فقولوا لهم: اشهدوا علينا بأنَّا مسلمون، منقادون لله.

الفوائد والاستنباطات:

١- اشتراك آدم وعيسى عليهما السلام في كيفية الخلق من غير أب، وخَلْقُ آدم أعجب من خَلْق عيسى عليه السلام.

٢- قال ابن عاشور: «يستفاد من قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إلى آخره، التعريض بالذين عبدوا المسيح كلهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ١١٧).

٣- مشروعية المباهلة، وهي الابتهال إلى الله تعالى أن يجعل اللعنة على الكاذبين.

٤- التنصيص على أنَّ هذا القصص هو الحق فيه إشارة إلى القصص غير الحق في التوراة والإنجيل.

٥- وصف الرافضين لدعوة الإيمان بالمفسدين.

٦- في الآية (٦٤) دليل على جواز استخدام الحوار والحجاج مع غير المسلمين عموماً وأهل الكتاب خصوصاً.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ
بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- يُوَبِّخ الله تعالى اليهود والنصارى الذين قالوا: إنَّ إبراهيم كان على مِلَّتهم، فيقول لهم: لِمَ تُجادلون في ذلك وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد عهد إبراهيم؟ أفلا تدركون فساد قولكم؟

٦٦- يُنبِّه الله تعالى أهل الكتاب، ويُوَبِّخهم أنَّهم قد جادلوا محمَّداً ﷺ فيما لهم به علم من التوراة والإنجيل، فلماذا تجادلون فيما ليس لكم به علم، وهو الزعم بأنَّ إبراهيم ﷺ كان على دينكم؟ والله يعلم الحقَّ، وأنتم لا تدركونه.

٦٧-٦٨- تكذيبٌ من الله دعوى الذين جادلوا في إبراهيم بأنَّه كان على مِلَّتهم، بل كان مُتَّبعاً لأمر الله، متذلِّلاً له، وما كان من الذين يشركون مع الله غيره. إنَّ أحقَّ الناس بالانتماء لإبراهيم هم الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي محمَّد ﷺ والذين صَدَّقوا به. والله ناصر الذين صَدَّقوا بالله ورسله.

٦٩- يُخبر الله تعالى عن حسد جماعة من اليهود بأنَّهم تمنَّوا لو يَصُدُّون المسلمين عن دينهم، فيهلكونهم، وما يهلكون بفعلهم هذا إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يدركون ذلك.

٧٠- ينكر الله على اليهود والنصارى: لِمَ تُكَذِّبون بالقرآن والمعجزات التي أُنزلت على محمَّد ﷺ وأنتم تعلمون أنَّ ذلك حقّ؟

٧١- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية، حتى نُلَبِّس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧١-٧٣].

(التفسير الصحيح ٢/ ٣٨).

التفسير:

ثمَّ يُوَبِّخهم بقوله: لِمَ تخلطون بين الحقِّ المنزل في الكتب السماوية، والباطل الذي فيه التحريف، وتُخْفُون الحقَّ ومنه صفة النبيِّ ﷺ وأنتم تُوقنون بذلك؟

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العبودية لله تعالى على جميع البشر الذين بلغتهم الدعوة.

٢- قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أفاد الاستدراك بعد نفي الضدِّ حصراً لحال إبراهيم فيما يوافق أصول الإسلام، وعطف قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لييئس مشركو العرب من أن يكونوا على مِلَّة إبراهيم». (التحرير والتنوير: ١٢٢-١٢٣).

٣- إبطال مزاعم أهل الكتاب أنَّ إبراهيم ﷺ على مِلَّتِهم؛ لأنَّه توفي قبل نزول التوراة والإنجيل، بل هو على الإسلام.

٤- تحريم الكذب على الله تعالى وعلى أنبيائه صلوات الله عليهم، وتحريم المُحاجَّة بلا علم.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ
أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن
تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ
وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦)
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ
وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ
أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾

التفسير:

٧٢-٧٣- وقال الضالُّون من علماء اليهود لأتباعهم: صَدِّقوا بالقرآن أوَّل النهار، ثمَّ اكفروا به آخر النهار؛ كي يرتدَّ المسلمون عن دينهم، ولا تُصَدِّقوا إلا مَنْ كان يهودياً. ثمَّ أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم. قل: إنَّ أمر الهداية إلى الحقِّ ليس بأيديكم، وإنَّما هو هدى الله يهدي إلى الحقِّ مَنْ يشاء. ثمَّ ذكر حسد اليهود وقولهم: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلَّمون، فيساوونكم في العلم. ثمَّ ردَّ عليهم: قل يا محمَّد إنَّ الهداية والعطاء كلّه بيد الله وتحت تصرُّفه يعطيه مَنْ يشاء. والله واسع الإنعام، عليم بمَنْ يستحقُّ الإكرام.

٧٤- يبشِّر الله المؤمنين بأنَّه يختص مَنْ يشاء من خلقه بالنبوَّة والهداية إلى الإيمان، والله صاحب الفضل العظيم على عباده.

٧٥- يُخبر الله تعالى عن أهل الكتاب: أنَّ منهم طائفة أمناء، لو أمَّنتهم على مالٍ كثير يُؤَدُّونه إليك، ومنهم طائفة لو أمَّنتهم على دينار أو أقلَّ لا يَرُدُّونه إليك، إلا ما دمت ملازماً لهم بالمطالبة؛ وذلك بسبب سوء اعتقادهم بأنَّه لا حرج عليهم في ظلم العرب والأُمم الأخرى غير اليهود، واستباحة أموالهم. وهذا القول افتراء على الله، وهم يعلمون أنَّهم مفترون.

٧٦- حقًّا لقد افتروا على الله الكذب، ولكن مَنْ أوفى بعهد الله من القيام بحقوق الله وحقوق خَلْقِه، وخاف الله بامتثال أوامره، فإنَّ الله يحبُّ الذين يَتَّقونه بأداء الحقوق التي أوصى بها سبحانه.

٧٧- سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: أقام رجل سِلْعَتَه، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطها. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

(صحيح البخاري ٥/ ٢٨٦ برقم ٢٦٧٥- الشهادات، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حلف يمين صبرٍ؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: فدخل الأشعث بن قيس وقال: ما يُحَدِّثك أبو عبد الرحمن؟ قلنا كذا وكذا، قال: فيَّ أُنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عَمٍّ لي، قال النبي ﷺ: «بيِّنتك أو يمينه». فقلت: إذاً يحلف يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «مَنْ حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».

(صحيح البخاري ٨/ ٦٠-٦١ كتاب التفسير، باب سورة آل عمران-الآية... برقم ٤٥٤٩-٤٥٥٠، وصحيح مسلم ١/ ١٢٢-١٢٣برقم ١٣٣٨- كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار).

التفسير:

إنَّ الذين يعتاضون عمَّا ائتمنهم الله عليه من العهود والوصايا العظيمة بحطام الدنيا القليل لا نصيب لهم في الآخرة، ولا يكلِّمهم الله بما يَسُرُّهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ولا يُطَهِّرهم من الذنوب، ولهم عذاب موجع.

٧٨- يُحَذِّر الله من تحريف المُضلِّين من اليهود؛ إذ ينطقون بكلام ليس من التوراة؛ ليوهموا غيرهم، فيدَّعوا أنَّ هذا من كلام الله، وليس هو من عند الله، ويفترون على الله الكذب، وهم متيقِّنون أنَّهم مفترون.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من بعض أهل الكتاب الذين يَوَدُّون صرف المسلمين عن دينهم.

٢- التحذير من خداع الذين يدخلون الإسلام من أجل التشكيك.

٣- كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ اسم نكرة غلب استعمالها في سياق النفي، ومعناها شخص أو إنسان، وهو معدود من الأسماء التي لا تقع إلا في حيز النفي، فيفيد العموم.

٤- في الآية (٧٤) إخبار مستقبلي عن تخصيص الله تعالى برحمته لِـمَنْ يشاء، وفيه بشرى للمؤمنين.

٥- ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب، وهو مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦- قال ابن عاشور في الآية (٧٧): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّ في خيانة الأمانة إبطالاً للعهد، وللحِلْفِ الذي بينهم وبين المسلمين وقريش». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٥).

٧- وجوب أداء الأمانة على مَنْ اؤتمن عليها.

٨- بيان ما كان يفعله بعض اليهود من التحريف والتبديل في التوراة.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن
تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ
ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ
ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ
عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

٧٩-٨٠- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني أو كما قال»، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

(التفسير الصحيح ٢/ ٤٣).

التفسير:

يَرُدُّ الله على أحبار اليهود والنصارى الذين دعاهم رسول الله ﷺ، فقالوا له بمكر وتكبُّر: أتريد أن نعبدك؟ فأجابهم الله: أنَّه لا يصحُّ لبشر يُنزل اللهُ عليه الكتابَ والملك والنبوَّة أن يأمر الناس أن يعبدوه! ولكن يأمرهم بأن يكونوا حكماء علماء عاملين بما أنزل عليهم، وبما كانوا يدرسونه، ولا يأمركم بأن تجعلوا الملائكة والأنبياء آلهة من دون الله، وهل يعقل أن يأمركم بالجحود بالله بعد خضوعكم وانقيادكم لله تعالى؟! قال ابن عاشور: «قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ نَفْيٌ لاستحقاق أحد لذلك القول، واللام فيه للاستحقاق». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٩).

٨١- يُذَكِّر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ حين أخذ الله العهد المؤكَّد من أنبياء أهل الكتاب: قسماً لئن أعطيتكم من كتاب وحكمة، ثمَّ جاءكم رسول موافق لما معكم، وجب عليكم أن تُصَدِّقوه وتُعِينُوه حقَّاً. فهل وافقتم، واعترفتم بذلك، وأخذتم على ذلك عهدي؟ فأجاب الأنبياء: أقررنا ووافقنا. ثمَّ أمرهم الله أن يشهد بعضهم على بعض، وأنَّه شاهد على إقرارهم وشهادتهم.

٨٢- فمَنْ أعرض عن الإيمان بعد هذا العهد، فأولئك البعداء عن رحمة الله تعالى، وهم الخارجون عن طاعة ربِّهم.

٨٣- يُنْكِرُ الله تعالى على الفاسقين: أيبتغي هؤلاء ديناً غير الإسلام، وقد خضع له كلُّ مَنْ في السموات السبع والأرض طوعاً كالمؤمنين، وكرهاً كالكفَّار؟ وإلى الله يرجع الجميع يوم الحساب.

٨٤- يؤكِّد الله تعالى أهمية الإيمان، فيأمر النبيَّ ﷺ وأُمته أن يعلنوا عن إيمانهم الكامل الشامل، وهو التصديق بالله العظيم وبالقرآن الكريم، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام والأسباط، وهم القبائل من ذريَّة أولاد يعقوب عليه السلام، وما أعطى الله موسى وعيسى عليهما السلام من التوراة والإنجيل، وما أُوتي النبيون من ربِّهم، لا نُفَرِّق بين أحد من هؤلاء، ونحن لله تعالى وحده منقادون بالطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تنزيه الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أن يدعوا الناس إلى عبادتهم؛ لأن ذلك شرك محض.

٢- تحريم كل عبادة لغير الله تعالى.

٣- الإنكار الشديد على مَنْ يُعرض عن دين الإسلام، ويبتغي غيره.

٤- وجوب الإيمان بكل ما جاء به رسل الله تعالى، ووجوب الإيمان بالكتب التي أنزلت عليهم.

٥- ينظر: شجرة الأنبياء في الملحق.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

٨٥- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]، فأنزل الله ﷻ بعد: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ٤٦).

التفسير:

ومَنْ سلك طريقاً غير ما شرعه الله سبحانه من الدين فلن يتقبَّلَ الله منه، ويشمل ذلك الأوَّلين والآخرين، ويوم القيامة سيُعاقَب، وهو من الخاسرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبيَّن أنَّ الدِّين الذي رضيه ويقبله من عباده الإسلام، ولا يكون الدِّين في محلِّ الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل». (مجموع الفتاوى ٧/ ٣٦٠).

٨٦- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد، ولحق بالشرك، ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن فلاناً قد ندم، وإنَّه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأرسل إليه فأسلم». (أخرجه النسائي في السنن ٧/ ١٠٧ كتاب تحريم الدم، باب توبة المرتد، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/ ٣٢٩ برقم ٤٤٧٧) قال محققه: إسناده صحيح. وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/ ١٤٢) قال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي).

التفسير:

كيف يرشد الله إلى الصواب، ويُوَفِّق للإيمان قوماً ارتدوا، فجحدوا نبوَّة محمَّد ﷺ بعد تصديقهم إياه وإقرارهم أنَّه رسول الله حقّاً، وأنَّ البراهين التي جاء بها تدلُّ على صحَّة نبوَّته؟ والله لا يوفِّق للحقِّ القوم المعتدين.

٨٧-٨٩- أولئك البعيدون عن الحقِّ الذين ارتدُّوا جزاؤهم الطرد من رحمة الله، وتلعنهم الملائكة والناس جميعاً، ماكثين في النار دائماً لا يُرفع عنهم العذاب ولا هم يُمْهَلُون، إلا الذين رجعوا عن الردَّة بالتوبة النصوح، وأصلحوا العمل، فإنَّ الله يتقبَّل منهم، فهو غفور للذنوب، رحيم بعباده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأخبر سبحانه أنَّ من ازداد كفراً بعد إيمانه لن تُقبل توبته، وفَرَّق بين الكفر المزيد كفراً، والكفر المجرَّد، في قبول التوبة من الثاني دون الأوَّل، فمن زعم أنَّ كلَّ كفر بعد الإيمان تُقبل منه التوبة فقد خالف نصَّ القرآن». (الصارم المسلول ٣٧٤).

٩٠-٩١- يتوعَّد الله تعالى الذين ارتدُّوا، ثمَّ ازدادوا كفراً بمعاداة المؤمنين، بأنَّ الله لن يقبل توبتهم؛ لأنَّهم ضلُّوا وأصرُّوا على الضلال. وكذلك الذين جحدوا نبوَّة محمَّد ﷺ، وماتوا على ذلك، فلن يقبل الله من أحدهم يوم القيامة لو فدى نفسه بملء الأرض ذهباً من العذاب، وعقابهم عذاب موجع، وما لهم من أعوان يخلِّصونهم منه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٥) إخبار مستقبلي عن عدم قبول الله تعالى لِـمَنْ يريد غير دين الإسلام.

٢- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الدِّين عند الله الإسلام في كلِّ زمان ومكان». (الجواب الصحيح٢/ ١١٧).

٣- الإسلام هو دين الحق.

٤- التحذير من الإعراض عن الدِّين.

٥- في الآية (٩٠) إخبار عن أمر مستقبلي في أن الله تعالى لا يقبل توبة الكفَّار، إذا ازدادوا كفراً بعد إيمانهم.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

التفسير:

٩٢- لن تنالوا - أيُّها المؤمنون - ثواب البرِّ، وهو الجنَّة؛ حتى تَتَصَدَّقوا ممَّا تحبون. وما تنفقوا من قليل أو كثير فإنَّ الله عليم به، وسيثيبكم عليه.

٩٣- جميع الأطعمة كانت حلالاً لذريَّة يعقوب ﷺ، إلا ما حَرَّم يعقوب على نفسه، كلحوم الإبل وألبانها، فقد نذر ذلك حين أُصيبَ بمرض، من قبل أن تنزل التوراة على موسى، ثمَّ حَرَّم ذلك ذريَّةُ يعقوب اتِّباعاً لأبيهم، فأمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم: بأن يأتُوا بالتوراة، فيقرؤوها إن كانوا صادقين في ادِّعائهم تحريم لحوم الإبل وألبانها.

٩٤- فمَنْ اختلق منهم الكذب على الله من بعد بيان الحقِّ في التوراة، فأولئك البعداء عن رحمة الله، هم المعتدُون بقولهم الباطل.

٩٥- قل يا محمَّد لهؤلاء الكاذبين: صدق الله فيما أخبر به، فاتَّبِعُوا دين الإسلام والاستقامة عليه، وما كان إبراهيم ﷺ من الذين يعبدون الأوثان.

٩٦-٩٧- يخبر الله تعالى بعظمة بيته الحرام، فهو أوَّل البيوت التي بُنيت لعبادة الله في الأرض الذي يقع في (مكَّة)، وفيه البركة والهداية للناس أجمعين، وفيه علامات واضحة منها: مقام إبراهيم - وهو الحِجْرُ الذي كان يقف عليه في أثناء بناء الكعبة - وفيه الأمن، فمَنْ دخله كان آمناً على نفسه. وقد أوجب الله على مَنْ يستطيع حجَّ هذا البيت، ومَنْ أنكر فريضة الحجِّ فإنَّ الله غني عنه وعن الناس أجمعين.

عن أبي ذر ﷺ قال قلتُ: يا رسول الله أي مسجد وُضِعَ أولَ؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم المسجد الأقصى» قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون». ثم قال: «حيثُما أدركتكَ الصلاة فصلِّ، والأرض لك مسجد». (الصحيح ٦/ ٤٥٨ برقم٣٤٢٥-كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾).

الفوائد والاستنباطات:

١ - الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، وأن ينفق الشيء الجيِّد غير الرديء.

٢ - الردُّ على مزاعم اليهود، وأمرهم باتِّباع دين إبراهيم عليه السلام، وهو الإسلام.

٣- وجوب الأمن لِـمَنْ دخل البيت الحرام ولكن هذا لا يمنع أَخْذُ الجاني بجنايته.

٤ - الحج ركن من أركان الإسلام، وهو مرة واحدة في العمر.

٥- قال ابن عاشور في الآية (٩٧): «في هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان: لام الاستحقاق، وحرف ﴿عَلَى﴾ الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٦٧).

٦- من الآيات البينات في الحرم المكي:

أ- ضبط اتجاه أضلاع الكعبة المشرفة: فالكعبة المشرفة مبنية بأضلاعها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تماماً، وتحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة ينفي إمكانية كونه عملاً بشرياً.

ب- الحجر الأسود من أحجار السماء؛ لأنها تشبه أحجار النيازك، وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص.

ج- مقام إبراهيم عليه السلام يحمل طبعة قدميه.

د- بئر زمزم آية من آيات الحرم المكي، لتدفق الماء منه على مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، من قلب صخور نارية ومتحولة شديدة التبلور. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٨٧-٥٩٤). وينظر: صورة مقام إبراهيم، كما في الملحق.

٧- ثبت علمياً حمايةُ مكة المكرمة من الهزات الأرضية والثورات البركانية، على الرغم من وجود أكثر من تسعين ألف كيلو متر مربع من الطفوح البركانية وآلاف الفوهات البركانية على طول أرض الحجاز، وعلى الرغم من هذه الخصوصية لا (ولم) تمنع تعرض تلك الأرض المباركة لبعض الهزات الأرضية الخفيفة، ولعدد من التغيرات المناخية التي تسبب هطول الأمطار الموسمية بغزارة على ندرة حدوث ذلك. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٩٥-٦٠٢).

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ
تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ
وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا
وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ
عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

التفسير:

٩٨-٩٩- يُنكِرُ اللهُ على اليهود والنصارى، فيأمر محمَّداً ﷺ أن يقول لهم: لِمَ تجحدون بآيات الله الدالَّةِ على صدق رسالة محمَّد ﷺ، والله شهيد على أفعالكم؟ وكذلك يُنكر عليهم: لِمَ تمنعون المؤمنين عن دين الله ونبيِّه بالشبهات والفتن والتحريف، وأنتم تعلمون أنَّهم على الحقِّ؟ وليس الله بغافل عن صنيعكم.

١٠٠- يحذِّر الله المؤمنين من طاعة طائفة من مكرة اليهود والنصارى، فإنَّهم حريصون على إضلالكم، وانتكاسكم في الكفر بعد الإيمان.

١٠١- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم والطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت بين الأوس والخزرج حرب في الجاهلية، فبينما هم يوماً جلوس إذ ذكروا ما بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت: ﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ٢/ ٥٧).

التفسير:

ثمَّ حثَّهم على الثبات على الإيمان واستبعاد الكفر: كيف تجحدون بالله وآيات القرآن تقرأ عليكم، وفيكم سنَّة رسول الله ﷺ؟ ومَنْ يتمسَّك بالإسلام فقد وُفِّق إلى الطريق الصحيح.

١٠٢- يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله، خافوا الله الخوف الواجب، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وداوموا على الالتزام بالإسلام إلى آخر حياتكم.

١٠٣ - وتمسَّكوا جميعاً بالقرآن العظيم، واحذروا من التفرُّق والاختلاف المذموم، واشكروا الله على نعمته عليكم بالائتلاف بينكم، وجمع الكلمة بعد أن كنتم متعادِين في الجاهلية، فغَدَوْتُم بفضل الله عليكم مصاحبين نعمته، متآخين متحابِّين، وكنتم أوشكتم الوقوع في نار جهنَّم، فأنقذكم منها بالإسلام. وبمثل ذلك البيان الواضح يُفَصِّل الله لكم آياته الدالَّة على الخير؛ كي تهتدوا إلى طريق الرشاد والتوفيق.

عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحَرَّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وِسادةً فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأُحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقوله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومَنْ مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية».

(أخرجه مسلم الصحيح ٣/ ١٤٧٨ برقم ١٨٥١ - كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن).

الفوائد والاستنباطات:

١ - إنكار الله تعالى على أهل الكتاب جحودهم برسالة رسول الله محمد ﷺ.

٢ - تحذير المؤمنين من طاعة أعدائهم لأنهم يسعون إلى إعادتهم إلى الضلال.

٣- في الآية (١٠٠) إخبار عن أمر مستقبلي في خطر طاعة أهل الكتاب؛ الذين يسعون إلى رِدَّة المؤمنين إلى الكفر.

٤ - قال ابن عاشور في الآية (١٠١): «في الآية دلالة على عِظَم قَدْرِ الصحابة، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول ﷺ فإنَّ وجوده عصمة من ضلالهم».

(التحرير والتنوير: ٣/ ١٧٢).

٥ - إنكار الله تعالى على الذين يسمعون كلام أعدائهم ويصدقونهم.

٦- وجوب الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ.

٧- وجوب الوحدة بين الأُمة، والنهي عن الاختلاف في العقيدة والأصول، أمَّا الاختلافُ الفقهي المبني على الفروع فلا بأس به.

٨- مَنْ أخذ بالقرآن والسنَّة فقد نال الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الإسلام.

٩- رحمة الله تعالى بالخَلْقِ، إذ بعث لهم رسول الله محمَّداً ﷺ.

١٠ - في الآية (١٠١) بَيَّنَ الله تعالى لعباده وسائل التربية على تحقيق كلمة التوحيد عن طريق: معرفته تعالى بالكتاب والسنة بفهم سلف الأُمة.

١١-في الآيتين (١٠٣) و (١٠٤) بيّنَ الله تعالى أن الوسائل التربوية لتحقيق الأخوة تتم بأمرين هما: شكر الله على هذه النعمة ومعرفة قدرها، حيث ذكر نعمة الأخوة مرتين في الآية لبيان مكانتها عند الله تعالى. والتعاون على الطاعة والإصلاح والدعوة.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ
﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا
وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

التفسير:

١٠٤- يؤكّد الله تعالى وجوب إيجاد جماعة من المؤمنين يدعون إلى الإسلام، ويأمرون بطاعة ربِّهم وينهون عن معصيته، وأولئك أصحاب المنزلة العالية القائمون بهذه الأعمال هم الفائزون بالجنَّة.

١٠٥- نهى الله المؤمنين عن التفرقة والعداوة، كما تفرَّق اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة، وأولئك البعداء عن رحمة الله تعالى لهم عذاب شديد مؤلم.

١٠٦-١٠٧- يتفاوت الخلق يوم القيامة، إذ تَبْيَضُّ وجوه المؤمنين حسناً بطاعتهم، وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين سوءاً بمعاصيهم، فأمّا الذين اسودَّت وجوههم فيُوَبَّخون: أكذَّبتم بعد ما عرفتم الحقَّ بالبراهين الواضحة؟ فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم، وأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم ففي جنَّة الله ماكثين فيها أبداً.

١٠٨- تلك الآيات العالية القدر والحجج العظيمة نَقُصُّها عليك يا محمَّد بالصدق. ولا يريد الله ظلم أيِّ أحدٍ من المخلوقين.

١٠٩ - ولله وحده ملك السموات السبع والأرَضين السبع، وإليه مصير المخلوقين؛ ليجازيهم.

١١٠ - هذا تفضيل من الله لهذه الأُمَّة بما تميَّزت به، فإنَّهم خير الناس يأمرون الناس بما أمر به الله ورسوله ﷺ، وينهون عمَّا نهى عنه الله ورسوله ﷺ، ويُصدِّقون بالله، ولو صدَّق اليهود والنصارى رسالة النبيِّ ﷺ لكان إيمانهم أنفع لهم عند ربِّهم، بعضهم يصدِّقون بذلك، وأكثرهم خارجون عن طاعة الله.

١١١ - هؤلاء الفسقة من أهل الكتاب لن يستطيعوا أن يَضُرُّوكم إلا بألفاظ سيئة، وإن يقاتلوكم يُهزموا مُوَلِّين الأدبار هرباً، ثمَّ هم مخذولون فلا ناصر لهم.

١١٢ - وهؤلاء الكفرة من أهل الكتاب أُلزموا الذلَّة والهوان أينما وجدوا، إلا بعهد من الله وعهد من الناس، يأمنون على أنفسهم وأموالهم، ورجعوا مستحقين لغضب الله، فلَزِمَتْهم المذلَّة والاستكانة بسبب تكذيبهم بآيات الله واستمرارهم على قَتْلِ الأنبياء ظُلماً. ذلك العقاب بسبب معاصيهم وتجاوزهم أوامر الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند الآية (١١٢): «بيَّن سبحانه أنَّهم أينما ثقفوا فعليهم الذلَّة إلا مع العهد، فعُلِمَ أنَّ مَنْ له عهد وحبل لا ذلَّة عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإنَّ المسكنة قد تكون مع عدم الذلّة». (الصارم المسلول ٢٧).

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عن حذيفة بن اليمان ﵁، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تَدْعُونه فلا يستجاب لكم». (أخرجه الترمذي في السنن ٤/ ٤٦٨ برقم ٢١٦٩ -كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسنه الألباني وانظر (صحيح سنن الترمذي برقم١٧٦٢).

٢- تحريم الاختلاف والفرقة والتشرذم.

٣- قال ابن عاشور: «حَذْفَ مفاعيل: يدعون ويأمرون وينهون؛ لقصد التعميم أي: يَدْعون كل أحد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٨١).

٤- تتصدَّر الأُمَّةُ الخيريَّةَ على الأمم إذا قامت بحقِّ الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- العقوبة تحلُّ بالأمم إذا خالفوا أوامر الله تعالى، كما حصل لليهود.

٦- جرائم اليهود قديمة ومتكرِّرة.

٧- بشرى الله تعالى للمؤمنين أنَّ اليهود لن ينتصروا في قتالهم معهم، بل ستكون الهزيمة عاقبتهم.

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟
بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

التفسير:

١١٣-١١٤ - ليس أهل الكتاب متساوين في الصفات: منهم طائفة مطيعة لله عادلة يُرتِّلون القرآن في صلاة التهجُّد، ذاكرين الله مُتذَلِّلين له، يُصدِّقون بالله تعالى وبالبعث يوم القيامة، ويأمرون بما أمر الله من الخير، وينهون عمَّا نهى الله عنه من الشر، ويُسابقون إلى فعل الخيرات. وأولئك أصحاب الدرجات العالية الذين اتصفوا بهذه الصفات من عباد الله الصالحين.

١١٥ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيها الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومَنْ أسلم من اليهود معهم، فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبار اليهود وأهل الكفار منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا أشرارنا! ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(التفسير الصحيح ٢/ ٦٧).

التفسير:

وما يُقَدِّموا من أعمال الخير فلن يضيع ثوابه عند الله سبحانه. والله ذو علم بمَنِ اتَّقاه بطاعته واجتناب معصيته.

١١٦- إنَّ الذين كذَّبوا بالله ورسوله لن تنفعهم أموالهم وذريَّاتهم شيئاً في التخلُّص من عذاب الله. وأولئك البعداء عن رحمة الله ملازمون للنار، ماكثون فيها أبداً.

١١٧- شَبَّه ما يتصدَّق به المكذِّبون بالله ورسوله في وجوه الخير في الدنيا، بريح فيها برد شديد أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر فدمَّرَتْه، وما ظلمهم الله بضياع ثواب أعمالهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر.

١١٨- يُنادي الله تعالى المؤمنين ويُحَذِّرهم: لا تتخذوا غير المؤمنين أصدقاء وأصفياء تطلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يُقَصِّرون في إفساد أموركم، إذ هم يحرصون على إرهاقكم والضرر بكم، وقد ظهرت علامات الكراهية من ألسنتهم، وما تضمره قلوبهم أعظم، قد وَضَّحْنا لكم الحجج، إن كنتم تعقلون أمر الله وموعظته.

١١٩- ينبِّه الله تعالى المؤمنين الذين وقعوا في موالاة المنافقين الذين يُظهرون الإيمان، فيحبُّهم المؤمنون وهم لا يحبُّون المؤمنين! وأنتم - أيُّها المؤمنون - تؤمنون بكلِّ ما أنزل الله من كتب، ولكنّهم لا يؤمنون بكتابكم، وإذا قابلوكم أعلنوا الإيمان بأفواههم، وإذا انفردوا فيما بينهم تحسَّروا وعَضُّوا أطراف أصابعهم من الحقد والغضب؛ لما يرون من قوَّة المسلمين، ثمَّ أمر الله تعالى نبيه أن يدعو عليهم بالهلاك كَمَداً وأسفاً. إنَّ الله ذو علم بما تُضْمِرُ الصدور.

١٢٠- ومن بلايا هؤلاء - أيُّها المؤمنون -: أنهم إن أكرمكم الله بفضلٍ وخير يحزنوا، وإن تقع بكم نازلة أو مكروه يفرحوا بذلك، وإن تصبروا على أذاهم وعلى المصائب، وتخافوا الله في طاعته لا تضرّكم عداوتهم شيئاً. إنَّ الله أحاط علماً بما يفسدون، وسيعاقبون على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- الثناء على المؤمنين من أهل الكتاب، وبيان فضلهم وثوابهم.

٢- مهما أنفق الكفَّار في الدنيا فإنَّها لن تنفعهم في الآخرة.

٣- مَنْ أشرك بالله تعالى، أو مات كافراً فلن ينفعه عمله الصالح.

٤- تنزيه الله تعالى عن الظلم، وأنَّ أهل الكفر هم الذين يظلمون أنفسهم.

٥- في الآية (١١٥) إخبار عن أمر مستقبلي في ثواب الله تعالى المؤمنين من أهل الكتاب على كلِّ فعل خير، وأنَّ أموال المشركين وأولادهم لا تُغْنيهم شيء من الله تعالى.

٦- تحذير المؤمنين من موالاة الذين تبدو منهم العداوة للمسلمين.

٧- عدم جواز شهادة العدو على عدوه.

٨- بيان صفات أعداء المسلمين، فهم لا يريدون لهم الخير.

٩- حقد أهل الباطل على جماعة المسلمين.

١٠-في الآية (١٢٠) إخبار عن أمر مستقبلي في استياء المشركين إذا مَسَّ المؤمنين حسنة، وعن فرح المشركين إذا أصاب المؤمنين سيئة، وعن عدم قدرة المشركين الإضرار بالمؤمنين فيما إذا صبروا، واتقوا الله.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢١- واذكر - أيُّها الرسول - غزوة أُحد، حين خَرَجْتَ من بيتك صباحاً تُرَتِّب صفوف القتال ومواقعه للصحابة المشاركين في هذه الغزوة. والله سميع للأقوال، عليم بالأفعال.

١٢٢- سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب - وقال سفيان مرة: وما يَسُرُّني - أنها لم تنزل، لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٧٣ برقم ٤٥٥٨ -كتاب التفسير، سورة آل عمران. وصحيح مسلم ٤/ ١٩٤٩ - كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار ﷺ).

التفسير:

واذكر أيضاً - أيها الرسول - حين وسوس الشيطان في بني سلمة وبني حارثة، إذ جاءتهم فكرة الرجوع عن القتال يوم أُحد، ولكنَّ الله دفع عنهما هذه الوسوسة وحفظهم منها. وعلى الله وحده فليتوكَّل المؤمنون، وبه يستعينون.

١٢٣- قسماً لقد نصركم الله - أيّها المؤمنون - على المشركين يوم بدر - بلدة تبعد عن المدينة (١٦٠) كيلاً جنوباً - وأنتم قلَّة (ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً) فاتقوا الله تعالى بطاعته؛ كي تبلغوا مقام الشاكرين لنعمه.

١٢٤- واذكر - أيّها الرسول - حين تُطَمْئِنُ هذه القلَّة وتبشِّرهم بالمدد من الله: ألا يكفيكم أن يعينكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلِين من السماء؟

١٢٥- نعم يكفيكم ذلك، وبشرى ثانية لكم: إن تثبتوا تجاه العدو، وتخافوا الله بطاعته، ويأتيكم كفَّار مكَّة فجأة من ساعتهم هذه، فإنَّ خالقكم يعينكم بخمسة آلاف من الملائكة، مُعَلَّمين بعلامات يعرفونهم بها.

١٢٦-١٢٧- وما جعل الله هذا العون إلا بشارة لكم، ولتسكن قلوبكم من الاضطراب. وما هذا النصر إلا من عند الله وحده العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره. ودَبَّر هذا التدبير ليهلك طائفة من الكفَّار، أو يغيظهم ويخزيهم فيرجعوا مهزومين.

الفوائد والاستنباطات:

١- مُهِمَّة القائد تنظيم صفوف الجند، ووَضْع الخطَّة المحكمة في القتال.

٢- التحذير من الخلاف والفرقة، ولاسيما في ميدان المعركة.

٣- وجوب التوكل على الله في كل أمر يهم به المسلم، فهو من أسباب النصر.

٤- وجوب شكره سبحانه على ما أنعم.

٥- بيان منزلة الصبر وفضله في القتال.

٦- حقيقة اشتراك الملائكة في المعركة.

٧- ينظر: خريطة غزوة بدر، كما في الملحق.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ
﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ
ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا
أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

١٢٨ - سبب النزول:

عن أنس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرت رباعيته يوم أُحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُت الدم عنه، ويقول: «كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم، وكَسَروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾. (الصحيح ٣/ ١٤١٧ برقم١٧٩١ - كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحد).

عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعوَ لأحد قَنَتَ بعد الركوع، فربَّما قال إذا قال: سمع الله لِـمَنْ حمده اللهم ربنا لك الحمد: «اللهم انْجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ، واجعلها سنين كسني يوسف» يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهمَّ العَنْ فلاناً وفلاناً» - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية. (صحيح البخاري ٨/ ٧٤ برقم٤٥٦٠ - كتاب التفسير، سورة آل عمران. وصحيح مسلم ١/ ٤٦٦ -كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة نحوه).

التفسير:

ليس لك - أيُّها الرسول- من أمر الخلق إلا أن تُنَفِّذ فيهم أمري، إنَّما أمرهم كلُّه إلى الله، فإمَّا أن يقبل توبة مَنْ تابوا، أو يعاقبهم على كفرهم، فإنَّهم معتدون.

١٢٩ - ولله وحده ملك جميع ما في السموات السبع وما في الأرضين السبع، يتصرَّف في ملكه، فيغفر لِـمَنْ يشاء من عباده برحمته، ويعذِّب مَنْ يشاء بعدله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

وينظر: تفسير آخر سورة البقرة الآية (٢٨٤).

١٣٠-١٣١- ينهى الله المؤمنين عن التعامل بالربا في القرض، بأخذ زيادة على رؤوس الأموال، مهما قَلَّت أو كَثُرت، فإنَّها تتراكم كلَّما مرَّت السنون، وخافوا الله في أحكامه؛ كي تفوزوا بالجنَّة. ثمَّ يؤكِّد الله ذلك بالتخويف من نار جهنم التي هَيَّأها عقوبة للكافرين. وينظر: سورة البقرة الآية (٢٤).

١٣٢- وأطيعوا الله تعالى والرسول ﷺ في كلِّ أمر ونهي؛ كي تنالوا رحمة الله تعالى.

وينظر: سورة آل عمران الآية (٣٢).

١٣٣- وسابقوا - أيُّها المؤمنون - بالأعمال الصالحة؛ لتنالوا من ربِّكم مغفرة لذنوبكم، وتدخلوا جنَّة واسعة عرضها كعرض السموات والأرض، هَيَّأها الله للذين يخافونه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

١٣٤-١٣٥- صفة هؤلاء المتقين أنَّهم يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، ويكتمون غضبهم بالصبر، ويتجاوزون عَمَّنْ أساء لهم. والله يحبُّ الذين يُحسنون في تعاملهم، ويطلبون المغفرة من الله إذا ارتكبوا كبيرة أو صغيرة، وهم موقنون أنَّه لا يغفر الذنوب إلا هو، فلا يقيمون على ما اقترفوا من المعاصي، فهم يعلمون بقبح المعاصي، وإن تابوا منها تاب الله عليهم.

١٣٦- هؤلاء أصحاب الدرجات العالية الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات لهم منزلة رفيعة عند ربِّهم من المغفرة للذنوب وجنات تجري من تحت أشجارها المياه العذبة ماكثين فيها أبداً، ونِعْمَتِ الجنَّة ثواباً للعاملين بأحكام الله. وينظر: سورة البقرة الآية (٢٥).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «مناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تَقَدَّم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين، ولمَّا كان شأن المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحداً، ودخيلتهما سواء، وكانوا يعملون على ما تُدَبِّره اليهود، جمع الله مكايد الفريقين بذكر غزوة أُحد». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٠٤).

٢- تحريم الربا بكلِّ أنواعه.

٣- بشرى الله تعالى عباده بالمغفرة لِـمَنْ يسارع في التوبة.

٤- التحذير من الإصرار على المعصية، وبيان فضل عدم الإصرار عليها.

٥- عظمة حجم الجنَّة.

٦- فضل العفو عن الخطأ، وكظم الغيظ.

٧- وجوب الاستغفار من الأخطاء والمحرمات التي يقع فيها العباد.

٨- في الآية (١٣٣) يربي الله تعالى عباده على طلب رضا الله تعالى وإرادة الآخرة بالتماس الطاعات والمسابقة إليها.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا
بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ
وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ
عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى
ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣٧ - قد مضت من قبلكم - أيُّها المؤمنون - طرائق الله تعالى في عقاب الأُمم الظالمة بالهلاك، فامشوا في الأرض؛ لتعتبروا فانظروا مصير المكذِّبين لله ورسله.

١٣٨ - هذا القرآن العظيم فيه بيان شافٍ للناس عامّة، وإرشاد وعبرة للمتقين خاصَّةً.

١٣٩ - يُعزِّي الله تعالى الصحابة ﷺ على ما أصابهم من الجراح والقتل يوم أُحد: لا تضعفوا عن جهاد عدوِّكم، ولا تَهِنُوا وَهْناً بالشكِّ في وعد الله بنصر دينه حتى ولو غُلِبْتم، ولا تأسَوا لما أصابكم، فإنّكم أنتم الظاهرون عليهم إن كنتم مصدِّقي رسولِ الله ﷺ فيما يَعِدُكم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهم الأعلَون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا، وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة:

ليسوا مفاريحَ إن نالَتْ رماحُهم ... يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا». (جامع الرسائل ٢/ ٣٦١).

١٤٠ - إنْ أصابكم جراح أو قَتْلُ سبعين من المسلمين يوم أُحد، فقد أصاب الكافرين جراح وقتل مثل ذلك يوم بدر. وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين المسلمين والمشركين ما بين نصر وهزيمة؛ ليختبرهم، فيتميَّز المؤمن الصادق من غيره، ويصطفي منكم مَنْ ينال الشهادة في سبيل الله. والله لا يُحِبُّ المعتدين بل يعاقبهم.

١٤١ - وليبتلي الله تعالى المؤمنين بالمصيبة التي نزلت بهم، فيتخَلَّصوا من المنافقين، ويستأصل الكافرين وينقصهم.

١٤٢ - أظننتم أن تدخلوا الجنَّة ولمَّا يتبيَّنْ لعبادي المؤمنون المبتَلُون بالشدائد، والمجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون عند البأس؟

١٤٣ - ولقد كنتم تطلبون الشهادة في سبيل الله قبل غزوة أُحد، فها قد حصل ما كنتم تريدون، فرابطوا وقاتلوا واصبروا.

١٤٤ - يُنكر الله تعالى على الذين هَمُّوا بالردَّة عندما أُشيع قتل النبيِّ محمَّد ﷺ في غزوة أُحد: ليس محمَّد إلا رسولاً قد مضت قبله رسل، فمنهم مَنْ مات، ومنهم مَنْ قُتل، أفإن مات بانقضاء أجله، أو قتله الكفَّار ارتددتم عن دينكم؟ ومن يرتدَّ عن دينه فلا يضرُّ الله شيئاً، وسيثيب الله الشاكرين قولاً وعملاً وثباتاً على الدين. قال الشيخ الشنقيطي: «أنكر الله في هذه الآية على مَنْ ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]».

١٤٥ - لا يمكن أن يموت أحد إلا بقضاء الله وقدره، وقد كَتَبَ لكلِّ نفس أجلها في كتاب مؤقَّت بوقت محدَّد. ومَنْ يطلب بعمله ثواب الدنيا نعطه، منها وليس له في الآخرة من نصيب، ومَنْ يطلب ثواب الآخرة أعطيناه أجره كاملاً، مع ما قسمناه له في الدنيا، وسنثيب الشاكرين الذين يُعَظِّمون الله في القول والفعل. هذه الآية مقيدة بمشيئة الله تعالى وإرادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

الفوائد والاستنباطات:

١ - عاقبة المكذبين للرسل الهلاك والدمار.

٢ - قال ابن عاشور: «قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأُمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٢٧).

٣ - مكانة المؤمنين وعلوهم في الدنيا والآخرة.

٤ - ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة، هي بمعنى (بل) الانتقالية؛ لأن هذا الكلام انتقال من غرض إلى آخر، وهي إذا استعملت منقطعة تؤذن بأن ما بعدها استفهام، لملازمتها للاستفهام.

٥ - العتاب من الله لِـمَنْ خالف وصية رسول الله ﷺ.

٦ - عدم الحزن على ما فات.

٧- قال ابن عاشور: «﴿لَمَّا﴾ حرف نفي أخت (لم) إلا أنها أشد نفياً من (لم)، لأنَّ (لم) لنفي قول القائل فعل فلان، و﴿لَمَّا﴾ لنفي قوله قد فعل فلان، قاله سيبويه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٣٤).

٨- الآجال بيد الله تعالى، والجهاد في سبيل الله لا يقدم ولا يؤخر الأجل.

٩- تأكيد البشرى للذين يشكرون الله تعالى بالقول والعمل.

١٠- التمهيد لبيان أن رسول الله محمداً ﷺ مُعَرَّضٌ للموت؛ للاستعداد لهذه الفاجعة الكبرى.

١١- إذا مات رسول الله محمد ﷺ فإنَّ رسالته باقية حتى تقوم الساعة.

١٢- ينظر: خريطة غزوة أُحد، كما في الملحق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

التفسير:

١٤٦- وكم من الأنبياء قاتل مع كلِّ واحدٍ منهم جموع كثيرة من أتباعهم الذين عاصروهم، أو جاؤوا بعدهم، فما جَبُنوا لما نالهم من جروح وقَتْلٍ في سبيل الله، وما عَجَزوا وما ذَلُّوا لأعدائهم، إنَّما صبروا. والله يحبُّ الصابرين على عبادته، وسيثيبهم على صبرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كون النبيِّ قاتل معه أو قُتل معه ربِّيون كثير لا يستلزم أن يكون معهم في الغزاة، بل كلُّ من اتَّبع النبيَّ وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كلُّ مَنْ قُتِلَ على دينه فقد قُتل معه». (جامع المسائل ٤/ ٦٠).

١٤٧- هؤلاء الصابرون ما كان قولهم مع ثباتهم إلا طَلَبَ المغفرة من الله عن ذنوبهم وخطاياهم، وأن يجعل أقدامَهم راسخة في القتال، وأن ينصرهم على الذين كَذَّبوا الله ورسله.

١٤٨- فاستجاب الله لهم، وأكرمهم بالنصر والتمكين في الدنيا، وبالجنَّة في الآخرة. والله يحبُّ كلَّ من أحسن في عمله وقوله.

١٤٩-١٥٠- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من طاعة الذين كَذَّبوا الله ورسوله؛ لأنَّهم يحرصون على إضلالكم عن الحقِّ ليردُّوكم عن دينكم، فتعودوا بخسارة الدنيا والآخرة. فهم ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم، بل الله تعالى ناصركم، وهو وحده خير ناصر ومعين.

وينظر: الآية (٢٨) من السورة نفسها، وأما الآية (١٥٠) فبيانها في قوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران].

١٥١- ومِنْ نَصْرِه سبحانه للمؤمنين أن يقذف الرعب في قلوب الكفَّار؛ بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم الأوثان من غير حجَّة ولا برهان، فمآلُهم نار جهنَّم، وقَبُحَ مقام المعتدين.

١٥٢- قسماً لقد حَقَّق الله تعالى الوفاء بما وعدكم به - أيُّها المؤمنون - من النصر على عدوِّكم حين بدأتم تقتلونهم يوم (أُحد) بإرادة الله تعالى، حتى إذا جَبُن فريق منكم واختلفتم في أمر الله، وخالفتم رسول الله ﷺ بتَرْكِكم جبلَ الرماة من بعد ما أراكم ما تحبُّون من النصر على المشركين. وسبب النزاع أنَّ منكم مَنْ يريد الغنائم، ومنكم مَنْ يطلب الجنَّة، ثمَّ رَدَّكم عن الكفَّار منهزمين بعد أن سيطرتم عليهم ليختبركم. ولقد عفا الله عنكم حين نَدِمْتُم على فِعْلِكم. والله ذو فضل عليكم بالعفو والموعظة.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور في الآية (١٤٦): «جاءت هذه الآية على هذا النظم البديع الصالح؛ لحَمْلِ الكلام على تثبيت المسلمين في حال الهزيمة، وفي حال الإرجاف بقتل النبي ﷺ». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٤).

٢- ثناء الله تعالى على المجاهدين في سبيل الله الذين يصبرون، ويثبتون في ميدان المعركة.

٣- فضل الصبر، وإخلاص الدعاء لله تعالى.

٤- قال ابن عاشور: «قدَّم خبر (كان) على اسمها في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ﴾ لأنَّه خبر عن مبتدأ محصور، لأنَّ المقصود حَصْرُ أقوالهم حينئذ في مقالة ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ فالقصر حقيقي؛ لأنَّه قصر لقولهم الصادر منهم، حين حصول ما أصابهم في سبيل الله». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٥).

٥- وقال أيضاً: «استئناف ابتدائي للانتقال من التوبيخ واللوم والعتاب إلى التحذير؛ ليتوسَّلَ منه إلى معاودة التسلية، على ما حصل من الهزيمة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٦).

٦- التحذير من طاعة الكفار؛ لأنَّهم يرغبون أن يوقعوا المؤمنين في الردة.

٧- بشرى الله تعالى للمؤمنين المجاهدين أنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم.

٨- في الآية (١٥١) إخبار عن أمر مستقبلي في إلقاء الله تعالى الرعب في قلوب المشركين بسبب إشراكهم به.

٩- عفا الله تعالى عن الذين تركوا جبل الرماة.

١٠- بيان أهمِّية طاعة القائد.

١١- حَثُّ المؤمنين على القتال، وتحذيرهم من الفرار.

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ
قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ
إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا
هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ
﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى
لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

التفسير:

١٥٣ – واذكروا حين تصعدون الجبل ولا تلتفتون إلى أحد، والرسول ﷺ يناديكم من خلفكم، ويحثُّكم على العودة إلى مواقعكم، فلم تستجيبوا، فعاقبكم الله بمصيبة القتل والجراح، ثمَّ بمصيبة الإشاعة بأنَّ محمَّداً ﷺ قد قُتِلَ؛ لأجل ألَّا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على ما أصابكم من الجراح والقتل. والله وحده خبير بكلِّ أعمالكم.

١٥٤ – ثمَّ ألقى الله عليكم – أيُّها المؤمنون – من بعد الهَمِّ أَمْناً بالنعاس الذي غشي فئة أهل الإيمان. وأمَّا فئة المنافقين فلا هَمَّ لهم سوى نجاة أنفسهم، وأساؤوا الظنَّ بربِّهم سبحانه بأنَّه لن ينصر نبيَّه حين يقولون: هل كان لنا من خيار في الخروج للقتال؟ قل لهم يا رسول الله: إن كلَّ الأمور والآجال بيد الله تعالى، وهم يُضمِرُون في أنفسهم ما لا يظهرون لك، يقولون: لو كان لنا أدنى اختيار ما قُتِلْنا هاهنا. قل لهم: لو كنتم في مساكنكم لخرج الذين كَتَبَ الله عليهم القتل إلى مصارعهم التي يُقْتَلون فيها؛ وليختبر الله ما في قلوبكم، فيظهر أمر المؤمن من المنافق. والله عليم بما تضمر صدور عباده.

عن أنس ﷺ أن أبا طلحة قال: «غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مصافِّنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه». (الصحيح ٨/ ٧٦ برقم ٤٥٦٢ -كتاب التفسير- سورة آل عمران).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال معتِّبٌ الذي قال يوم أُحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هاهنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر القصة. (التفسير الصحيح ٢/ ٨٩).

١٥٥ - إنَّ الذين انهزموا من المسلمين يوم أُحد حين التقى جيش المسلمين بجيش الكفَّار، إنَّما أوقعهم الشيطان في خطيئة الهزيمة؛ بسبب مخالفتهم أمر النبيِّ ﷺ، ولقد تجاوز الله عنهم فلم يعاقبهم. إنَّ الله غفور للمذنبين، حليم بهم لا يعاجلهم بالعقوبة.

١٥٦ - يُحَذِّر الله المؤمنين أن يُقَلِّدوا المنافقين في قولهم لإخوانهم من الكفَّار إذا سافروا للتجارة أو للقتال فماتوا، فإنَّهم يقولون: لو أقاموا معنا، ولم يسافروا ما ماتوا وما قتلوا؛ ليجعل الله ذلك القول في عاقبة أمرهم ألماً وحزناً في قلوبهم. والله يُحيي مَنْ قَدَّر له الحياة، حتى ولو كان في قلب المعركة، ويُميت من انتهى أجله حتى لو كان في بروج مُشيَّدة. والله بكل ما تعملون بصير، فيجازيكم به.

قال الشيخ الشنقيطي: «ذُكر في هذه الآية الكريمة أنَّ المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون: لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قُتلوا، ولم يُبيِّن هنا: هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليثبطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، ولكنه بيَّن في آيات أُخَر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو ليثبطوهم، كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١] الآية، وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب:١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]».

١٥٧ - ويؤكِّد سبحانه: لئن استشهدتم في سبيل الله أو جاءكم الموت وأنتم قاصدون القتال؛ ليغفرنَّ الله لكم وليرحمنَّكم، فتفوزون بالجنَّة. وذلك خير ممَّا يجمع الناس من حطام الدنيا.

١٥٨ - وقسماً إن مُتُّم أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله فلن يضيع أعمالكم، بل ستجمعون إلى الله وحده، فيجازيكم على أعمالكم.

وينظر: الآيات (١٦٩-١٧١) من السورة نفسها، وينظر: سورة البقرة الآية (١٥٤).

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذَمُّ الذين يظنون بالله ظنَّ السوء، وتحقيرهم.

٢ - قال ابن عاشور: «أحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك يَذْكُرُه القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٥٩).

٣- وقال أيضاً: «مناسبة ذِكْرِ هذه الآية عقب التي قبلها أنَّه تعالى بعد أن بيَّن لهم مرتبة حق اليقين بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبيَّن لهم أنَّه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلَّهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٦٢).

٤ - الحذر من ورطات المنافقين وكيدهم.

٥ - إنَّ الله كتب الآجال وقدرها، والفرار من المعركة لن ينجي من الموت.

٦- التحذير من إغواء الشيطان وتخذيله.

٧- تحريم اتباع الكفار أو التمثيل بهم، في أقوالهم وأفعالهم.

٨- ذَمُّ الذين يظنون أن التخَلُّف عن الجهاد يدفع عنهم الموت.

٩- في الآية (١٥٧) إخبار عن أمر مستقبلي في جزاء مَنْ قُتِلَ أو مات في سبيل الله أن يغفر الله تعالى ذنوبه.

١٠ - في الآية (١٥٣) يبيِّن الله تعالى أن تربية المؤمنين على لزوم الاعتدال في حالة اليسر والعسر يورثهم التواضع والخضوع لله تعالى والعدل في التعامل مع الآخرين.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ
لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ
لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ
أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ
ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

التفسير:

١٥٩- فبسبب رحمة من عند الله تعالى جعلها في قلبك - أيُّها الرسول - كنت رفيقاً ومسامحاً لأصحابك، ولو كنتَ جافيَ الطبع قاسيَ القلب لانصرفوا عنك، فتجاوز عمَّا نالك من أذاهم يوم أُحد، واطلب لهم من الله المغفرة، واستشرهم في الأمور المهمَّة، فإذا صَمَّمْتَ على أمر بعد الاستشارة فامضِ على ما عزمت معتمداً على الله وحده. إنَّ الله يحبُّ المتوكِّلين، فهو كافيهم في كلِّ حاجاتهم.

١٦٠- إن يُؤيدكم الله تعالى - أيُّها المؤمنون - بعونه ضدَّ الأعداء فلا أحد يستطيع أن يغلبكم، وإنْ تَرَكَكم لأنفسكم من غير عونه فلن تجدوا أحداً ينصركم من بعد الله أبداً. وعلى الله يعتمد ويلجأ المؤمنون.

١٦١- يُبرِّئ الله تعالى نبيَّه ﷺ من أيِّ خيانة في شأن الغنائم، فإنَّه لا يأخذ شيئاً منها غير ما اختصَّه الله به. ومَنْ يفعل ذلك يأت بما أخذه يوم القيامة، ثمَّ تُعطى كلُّ نفس جزاء ما عملت كاملاً، وهم لا يُظْلَمُون بنقصان ذرَّة منه.

عن عديِّ بن عميرة الكِنْدي ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل، فكتَمَنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «ومالك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن: مَنْ استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أُوتي منه أخذ، وما نُهيَ عنه انتهى».
(الصحيح ٣/ ١٤٦٥ برقم ١٨٣٣ - كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال).

١٦٢-١٦٣- لا يستوي مَنْ سعى في طلب رضا الله فاستحق الجنَّة، ومَنْ هو واقع في الخطايا مسخط لربِّه فمآله نار جهنم. وقَبُحَ ذلك المرجع، ومنازلهم متفاوتة: فأصحاب الجنَّة لهم درجات عليا، وأصحاب النار لهم دركات سفلى.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إنَّ في الجنة مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال: وفوقه عرش الرحمن- ومنه تفجر أنهار الجنة». قال محمد بن فليح، عن أبيه: «وفوقه عرش الرحمن».

(صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله برقم ٢٧٩٠).

١٦٤ -يُخبر الله تعالى مؤكِّداً أنَّه تفضَّل على المؤمنين إذ أرسل إليهم رسولاً عربياً من جنسهم، يقرأ عليهم آيات القرآن ويُطَهِّرهم من المعاصي، ويُعَلِّمهم القرآن والسنَّة، وقد كانوا من قبل البعثة في انحراف وجهل واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١٦٠) إخبار عن أمر مستقبلي: مَنْ كتب الله له النصر فإنَّه لا غالب له، وإخبار مستقبلي من أنه لا أحد يستطيع النصر من دون الله إن أراد له الله الخذلان.

٢ - الرحمة والرفق من صفات القائد الحكيم.

٣- قال ابن عاشور: «دَلَّتْ الآية على أنَّ الشورى مأمور بها الرسول ﷺ فيما عبَّر عنه بـ(الأمر) وهو مهمات الأمة ومصالحها في الحرب وغيره، وذلك في غير أمر التشريع؛ لأنَّ أَمْرَ التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٦٧).

٤ - فضل اللين وحسن تعامل الحاكم مع الرعية.

٥ - مبدأ المشاورة بين القائد والرعية أمر في غاية الأهمية.

٦- وجوب التوكل على الله تعالى بعد بذل الأسباب.

٧- النصر من عند الله تعالى مهما بلغ الإنسان من القوة.

٨- تحريم الغلول بكل صوره.

٩- حكم الغالِّ التعزير.

١٠ - في الآية (١٦٠) يُربيِّ الله تعالى عباده المؤمنين على لزوم الاعتدال عند الانتصار أو الانهزام، ففي الفرح بالنصر يذكرهم ﷻ بأن الفضل منه سبحانه حتى لا يصيبهم الغرور بنشوة الانتصار.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

١٦٥ - سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «لما كان يوم أُحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أَخْذِهم الفداء، فقُتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ فكُسِرَتْ رَباعيته ﷺ، وهُشِّمَتِ البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بأخذكم الفداء».

(أخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وصححه محققه). (التفسير الصحيح ٢/ ٩٧).

التفسير:

أجَزِعْتُمْ حين أصابتكم مصيبةٌ يومَ أُحُد بقَتْلِ سبعين منكم، وكنتم قد أصبتم يوم بدر مثْلَي ذلك، فقتلتم سبعين وأسرتم سبعين، فقلتم مُتَعَجِّبين: من أين أصابنا هذا الانهزام؟ أجِبْهم أيُّها الرسول: أنَّ ذلك المصاب هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرسول ﷺ. إنَّ الله وحده على كلِّ شيء قدير يفعل ما يشاء.

١٦٦-١٦٧ - يُبيِّن الله تعالى بعض فوائد الابتلاء يوم أُحد: وما وقع بكم من جراح وقَتْلٍ بقضاء الله وقدره؛ ليتميَّز المؤمن الصادق من الدخيل المنافق، فيفضح المنافقين حين قال لهم المؤمنون: هلمُّوا جاهدوا في سبيل الله، أو كثِّروا سواد المسلمين. فأجابوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون العدوَّ لَقاتلنا معكم. إنَّهم يوم قالوا ذلك هم أقرب إلى الكفر من الإيمان؛ لأنَّهم يُظْهِرُون على ألسنتهم الإيمان ويُضْمرون الكفر في قلوبهم، والله أعلم بما يضمرون في أنفسهم. أي: في غزوة أُحد، وينظر: الآية (١٧٢-١٧٤) من السورة نفسها.

١٦٨ - هؤلاء المنافقون الذين تخلَّفوا يوم أُحد قالوا في شأن إخوانهم في النسب الذين قُتلوا: لو أطاعونا في الرجوع عن القتال ما قُتلوا. ثمّ أمر الله تعالى أن يَرُدَّ عليهم النبيُّ ﷺ: قل فادفعوا عن أنفسكم الموت، إن كنتم صادقين في دعواكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «عُطِفَ الاستفهام الإنكاري التعجبي على ما تقدَّم، فإن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مما ينكر ويتعجَّب السامع من صدوره منهم بعد ما عَلِموا ما أتَوا من أسباب المصيبة». (التحرير والتنوير:٣/ ٢٧٨)

٢- ما يصيب الإنسان من مصائب هو نتيجة أخطائه.

٣- ما يحدث في الكون إنما هو بعلم الله تعالى.

٤- خطأُ مَنْ يعتقد أن القعود عن الجهاد يحميهم من الموت.

٥- الحذر من المنافقين الذين ينبثُّون بين المسلمين في كلِّ زمان.

٦- في الآية (١٦٥) يربِّي الله تعالى عباده رحمة منه وفضلاً على مراجعة أنفسهم بعد ملاقتهم العدو بما يجنبهم العودة للأخطاء ذاتها مستقبلاً، بأن ما يصيب المؤمن في ساحة الوغى من انكسار وتقهقر إنما هو من إغواءات النفس الأمارة بالسوء.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ
مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ
ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟
بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ
إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

التفسير:

١٦٩-١٧٠- يُبَشِّر الله النبيَّ ﷺ والمؤمنين بأحوال الشهداء ومقامهم عند ربِّهم: ولا تَظُنَّنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله يوم أُحد من الأموات لا يحسُّون شيئاً، بل هم أحياء في مقام كريم عند ربِّهم، وحالهم في سرور؛ بسبب العطاء الجزيل من كرم الله تعالى، ويستبشرون خيراً بما سيلاقيه إخوانهم المجاهدون الذين

فارقوهم أحياء بعدهم، بأنّهم لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا.

١٧١ - يفرحون بما حباهم الله به من عظيم نعمه وكريم عطائه، وأنَّ الله لا يضيع ثواب الصادقين بالله ورسوله.

قال الشيخ الشنقيطي: «نهى الله تبارك وتعالى في هذه الآية عن ظن الموت بالشهداء، وصرَّح بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، ولم يبين هنا: هل حياتُهم البرزخ يدرك أهلُ الدنيا حقيقتَها أو لا؟ ولكنه بيَّن في سورة البقرة أنهم لا يدركونها بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، لأنَّ نفي الشعور يدل على نفي الإدراك من بابِ أَوْلى كما هو ظاهر».

عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق قال: «سألنا عبد الله - هو ابن مسعود - عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت. ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلمّا رأوا أنهم لن يتركوا مِن أن يُسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن تُرَدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا».

(الصحيح ٣/ ١٥٠٢-١٥٠٣ برقم ١٨٨٧ -كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة).

١٧٢ - الذين أطاعوا الله ورسوله وخرجوا في أُحُد؛ لتعقُّبِ المشركين إلى حمراء الأسد - قرية تبعد عن المدينة (٢٠) كيلاً جنوباً - من بعد الهزيمة وقد تعَرَّضوا لإصابات جراح بالغة، فجزاء مَنْ أحسن من هؤلاء وخافوا الله هو الجنّة.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لِعروة: يا بن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر. لما أصابَ رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: مَنْ يذهب في أثرهم، فانتُدِب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير.

(صحيح البخاري ٧/ ٤٣٢ برقم٤٠٧٧ -كتاب المغازي، باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية).

١٧٣ - هؤلاء المطيعون لله ولرسوله هم الذين قال لهم مرجفو المشركين: إنَّ قريشاً قد حشدت لكم جيشاً لقتالكم فاحذروهم، فزادهم هذا الإرجاف تثبيتاً وتصديقاً بوعد الله لهم، وقاموا بواجبهم، وقالوا: الله كافينا وحافظنا، ونِعْمَ الوكيلُ في نُصْرة أوليائه.

١٧٤ - ولَمَّا رأى المشركون هذه العزيمة من المؤمنين على مواصلة الجهاد جَبُنوا عن اللقاء، فعاد المؤمنون بنعمة وسلامة ولم يتعرَّضوا لمكروه، وسلكوا بذلك طريق رضاء الله. والله ذو فضل عظيم عليهم وعلى المؤمنين.

١٧٥ -يُحَذِّر الله المؤمنين من الذين يخوِّفونهم بأعدائهم المشركين؛ ليجبُنوا، فأولئك ليسوا إلا أعواناً للشيطان، فلا تخافوا المشركين، وخافوا الله وحده إن كنتم مصدِّقين به.

١٧٦ - لا تحزن - أيُّها الرسول - من المنافقين والكفَّار الذين يُبادرون إلى التكذيب بالله والتشكيك في الدين، إنَّهم بذلك لن يَضُرُّوا الله شيئاً، بل يريد الله ألا يجعل لهم نصيباً من ثواب الآخرة، ولهم عذاب شديد مؤلم.

١٧٧ - إنَّ الذين استحبُّوا الكفر على الإيمان لن يَضُرُّوا الله شيئاً، ولهم عذاب موجع.

الفوائد والاستنباطات:

١ - حقيقة فضل المجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله تعالى، وأنَّهم أحياء عند ربِّهم.

٢ - بشرى للمجاهدين الذين قُتلوا في سبيل الله أنهم لا يعرفون الخوف والحزن.

٣ - من عدل الله ﷻ أنَّه لا يضيع أجر المؤمنين، بل يُنَمِّيه لهم في الآخرة.

٤ - بيان فضل الصحابة الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ للقاء المشركين.

٥ - التحذير من تخويف الشيطان وإغوائه.

٦ - الذين اختاروا الكفر لا يضرُّون إلا أنفسهم بالعذاب الموجع.

٧ - يعلِّمنا الله تعالى كلمة (حسبنا الله ونعم الوكيل)، وهي كلمة عظيمة تقال عند الشدائد.

٨ - ينظر: خريطة موقع غزوة حمراء الأسد، كما في الملحق.

٩ - قال ابن عاشور في الآية (١٧٧): «تكرير لجملة ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا﴾ قُصِدَ به مع التأكيد إفادة هذا الخبر استقلالاً للاهتمام به بعد أن ذكر على وجه التعليل لتسلية الرسول».(التحرير والتنوير: ٣/ ٢٨٩)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

التفسير:

١٧٨- ولا يظنَّنَّ الكفَّار أنَّا نمهلهم بدون عذاب، وإنَّما نُمهِلُهم ونُؤخِّر عذابهم؛ ليكتسبوا مزيداً من المعاصي، فتزداد آثامهم وعقوباتهم بالعذاب المُذلّ.

قال الشيخ الشنقيطي: «ذُكِرَ في هذه الآية الكريمة أنه يُمْلي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب، وبيَّن في موضع آخر: أنه لا يمهلهم متنعِّمين هذا الإمهال إلا بعد أن يَبْتَلِيَهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة، كقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥]، وبيَّن في موضع آخر أن ذلك الاستدراج من كيده المتين، وهو قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

١٧٩- ما كان الله ليترككم - يا معشر المؤمنين - على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق، حتى يميز المنافق من المؤمن، وما كان من حكمة الله أن يطلعكم على الغيب، ولكنَّ الله يصطفي من رسله

مَنْ يشاء، فيطلعهم على ما يشاء من غيبه، فآمنوا بالله ورسله جميعاً، وإن تؤمنوا وتخافوا الله فجزاؤكم الجنَّة.

١٨٠- ولا يظنَّنَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله من كرمه هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم؛ لأنَّ ذلك المال الذي جمعوه سيكون طوقاً من نار في أعناقهم يوم القيامة. ولله جميع ما يتوارثه أهل السموات السبع والأرض من مال وغيره. والله بكل ما تعملون خبير لا يخفى عليه شيء.

١٨١- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل أبو بكر الصديق ﷺ بيت المِدْراس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع. فقال أبو بكر ﷺ لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدوَّ الله، فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، إنَّ عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص، رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. (التفسير الصحيح٢/ ١٠٥).

التفسير:

يفضح اللهُ كَفَرَة اليهود، إذ يؤكِّد أنَّه سمع قولهم الشنيع: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب هذا القول في صحف أعمالهم، وأنَّهم يَسْتَحِلُّون قَتْلَ الأنبياء ظلماً بغير حقٍّ، وسنعاقبهم ونُوَبِّخهم على ذلك، ونقول لهم وهم في العذاب: ذوقوا عذاب نار جهنَّم المحرقة.

١٨٢- ذلك العذاب الشديد بسبب اقترافهم الجرائم والكبائر، وأنَّ الله عادل في عقابه، لا يظلم أحداً من عباده.

١٨٣-١٨٤ - إنَّ اليهود الذين زعموا: إنَّ الله أمرنا ألَّا نصدِّق رسولاً حتى يأتينا بصدقة فتنزل نار من السماء تحرقها. ثمَّ أمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم موبِّخاً: قد جاء أسلافكم رسل من قبلي بالمعجزات وبالذي ادعيتم، فلِمَ كَذَّبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم؟ فإن كَذَّبوك فلا تحزن؛ لأنَّ هذا دأبهم مع المرسلين السابقين إذا أتوا بمعجزات عظيمة وكتب واضحة.

١٨٥ - يُخبر الله تعالى أنَّ كلَّ نفس مصيرها الموت ثمَّ تُبعث يوم القيامة لتأخذ حَقَّها تامَّاً، فمَنْ أُبعد عن النار وأُدخل الجنَّة فقد أفلح، وليست الدنيا إلا متعة زائلة يزيِّنها الشيطان؛ ليغترَّ بها الناس.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إنَّ الله يمهل الكافرين، ولا يهملهم.

٢ - ابتلاء الله عباده؛ لينفضح المنافق، ويتبيَّن الصادق في دينه.

٣- وجوب الإيمان برسل الله تعالى.

٤ - ذمُّ البخل، والحثُّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

٥- تكذيب أحبار اليهود الذين ادَّعوا أنَّ الله عهد إليهم ألَّا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان.

٦- حقيقة الموت أنَّه نهاية كلِّ إنسان.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

التفسير:

١٨٦- يكشف الله تعالى للمؤمنين أمراً غيبياً مؤكَّداً بالقسم، وسيقع في المستقبل: إنَّه سيأتيكم الامتحان في نقص الأموال، وفي النوازل التي تصيب الأنفس، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الأذى الكثير من الإشاعات والكلام السيئ، وإن تصبروا على ذلك الأذى، وتخافوا الله بلزوم طاعته، فإنَّ ذلك من الأمور الصالحة التي يجب العزم على تنفيذها.

١٨٧- يُذكِّر الله تعالى المؤمنين بنقض اليهود والنصارى العهود، حين أخذ الله عليهم العهد بأن يُوَضِّحوا للناس ما في التوراة والإنجيل من الأحكام، ولا يكتموا ذلك، فنقضوا العهد، وحَرَّفوا كتبهم، فاستعاضوا بذلك حُطام الدنيا الزائل، فبئس تلك التجارة الخاسرة.

١٨٨- سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسولُ الله ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسولُ الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبُّوا أن يُحْمَدُوا بما لم يَفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾ الآية.

(صحيح البخاري ٨/ ٨١ برقم ٤٥٦٧ - كتاب التفسير- سورة آل عمران، باب ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾، وصحيح مسلم ٤/ ٢١٤٢-كتاب صفات المنافقين وأحكامهم).

التفسير:

ولا تَظُنَّنَّ - يا محمَّد - الذين يفرحون بما أتوا من كتمان الحقِّ وغيره، ويحرصون على مدح الناس لهم بما لم يفعلوا، فلا تظنَّهم قد نجوا من عذاب النار، بل لهم عذاب موجع.

عن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوَّابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منَّا فرح بما أَتَى، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل، مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أُنزلت هذه الآية في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ هذه الآية. وتلا ابن عباس: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره. فخرجوا قد أَرَوه أن قد أخبروه بما سألهم عنه. واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أَتَوا، من كِتمانهم إياه، ما سألهم عنه.

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٣ برقم ٢٧٧٨- كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. وصحيح البخاري - التفسير- باب ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾ برقم ٤٥٦٨).

١٨٩- ولله وحده ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهما. والله وحده على كلِّ شيء قدير، ومَنْ كان في ملكه كان في قبضته. وينظر: سورة البقرة الآية (١١٧).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٨٦) إخبار عن أمر مستقبلي في ابتلاء الله تعالى للمؤمنين في أموالهم وأنفسهم، وأنَّ المؤمنين سيسمعون من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذىً كثيراً.

٢- عظمة الصبر على الابتلاء، وأنَّه من عزم الأمور.

٣- تحريم كتمان العلم، ووجوب بيانه.

٤ - التحذير من طلب الثناء للعبد على عمل لم يفعله العبد.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ
بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

التفسير:

١٩٠- إنَّ في إبداع السموات والأرض، وفي تعاقُب الليل والنهار بانتظام لَدلائلَ واضحة على وحدانية الله وعظمته لأصحاب العقول السليمة.

١٩١- ومن صفات هؤلاء: أنَّهم يُكثِرُون من ذكر الله في جميع أحوالهم، قائمين في صلاتهم، وقاعدين ومضطجعين على جنوبهم، ويتدبَّرون في إيجاد وإبداع السموات والأرض، ويَدْعُون الله: يا ربَّنا ما أَوْجَدْتَ هذه المخلوقات عبثاً من غير حكمة سبحانك، فاحفظنا من عذاب النار.

١٩٢-١٩٤- يُعَلِّم الله المؤمنين كيف يَدْعُونه: يا خالقَنا إنَّك مَنْ تدخله النار من عبادك بسبب الذنوب فقد أذللته، وليس للمعتدين مَنْ يُخَلِّصهم من العذاب، يا ربَّنا إنَّنا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان - وهو رسول الله محمَّد ﷺ - أن صدِّقوا بخالقكم، فاستجبنا وصَدَّقْنا، يا ربَّنا فلا تؤاخذنا بذنوبنا، وتجاوَزْ عن معاصينا، وأمِتْنا مع الصالحين، يا ربَّنا أَنْجِزْ لنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من نصر ورحمة، ولا تُذِلَّنا يوم العرض عليك، قد علمنا أنَّك لا تخلف الوعد.

١٩٥ - سبب النزول:

عن أُم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، لا أسمع اللهَ ذَكَرَ النساء في الهجرة بشيء؟» فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

(أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٠٠. وصححه ووافقه الذهبي).

التفسير:

ثمَّ أجاب الله تعالى هؤلاء الداعين: بأنِّي لا أضيع جهد من عمل عملاً صالحاً ذكراً كان العامل أو أنثى، فالأنثى من الذكر، والذكر من الأنثى، وهم في أخوَّة، ينصر بعضهم بعضاً، فالذين هاجروا من بلادهم وألجأهم الكفَّار من ديارهم، ونالهم الأذى في سبيلي، وقاتلوا أعدائي وقُتِلوا في سبيلي لأمحونَّ عنهم ذنوبهم، ولَأُدخلنَّهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، جزاءً كريماً من فضل الله، والله وحده عنده حسن الجزاء وهو الجنَّة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الثناء على المؤمنين الذين يتفكَّرون في خلق السموات والأرض، ويدعون الخالق.

٢ - وجوب التفكُّر في خلق السموات والأرض؛ لمعرفة عظمة الله تعالى.

٣ - فضل الدعاء والبشرى باستجابة الله تعالى.

٤ - قال ابن عاشور: «دلَّت الفاء على سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودلَّت على أنَّ مناجاة العبد ربَّه بقلبه ضرب من ضروب الدعاء قابل للإجابة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٣١٣).

٥ - جزاء الله تعالى على الأعمال الصالحة من المؤمنين والمؤمنات، فلا فرق بينهم في ذلك.

٦ - مكانة المرأة وكرامتها في الإسلام.

٧ - في الآية (١٩٠) دعوة لتربية العقل على التدبر والتأمل في خلق الله تعالى وملكوته.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

التفسير:

١٩٦-١٩٧- لا يخدعَنَّك تَنَعُّمُ الكفَّار في ملذَّات الدنيا ونشاطهم ورحلاتهم في البلاد، فإنَّهم يتمتَّعون بذلك قليلاً، ثمَّ يزول، ثمَّ مصيرهم إلى جهنَّم، وبئس القرارُ نار جهنَّم.

١٩٨- ذلك جزاء الكافرين، أمَّا الذين خافوا ربَّهم بالتزام طاعته فجزاؤهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ماكثين فيها أبداً، مكرمين بفضل من عند الله، وما عنده من الثواب للمطيعين الأخيار أفضل وأكرم ممَّا يتمتع به الكفَّار.

١٩٩- سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لـمَّا مات النَّجاشي، قال النبي ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: تأمرنا أن نستغفر له وقد مات بأرض الحبشة؟ فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. (أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣/ ٣٢٣ برقم ٢٦٨٨، والضياء المقدسي في المختارة ٥/ ٤٠-٤١ برقم ١٦٤٨، ١٦٤٩). وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجال الطبراني ثقات. مجمع الزوائد ٣/ ٣٨).

التفسير:

يُثني الله تعالى على طائفة من اليهود والنصارى من الذين يُصَدِّقون بالله وبالقرآن وبالتوراة والإنجيل متذلِّلين لله، لا يُحَرِّفون حكماً، ولا يكتمون علماً، لعرضٍ خسيس من متاع الدنيا. أولئك أصحاب الدرجات العالية لهم مقام كريم وثواب عظيم عند ربِّهم. إنَّ الله سريع الحساب لجميع الناس.

٢٠٠- يُنادي الله تعالى المؤمنين: اصبروا على فعل الطاعة وتَرْكِ المنكرات، وغالِبُوا أعداءكم بالصبر على شدائد الحرب، ولازموا ثغوركم لحمايتها من الاعتداء، وخافوا الله؛ لكي تفوزوا بالفلاح في الدنيا بحياة طيبة، وفي الآخرة بجنَّة عظيمة.

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «إسباغ الوُضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». (الصحيح ١/ ٢١٩ برقم ٢٥١ - كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره).

الفوائد والاستنباطات:

١- مهما بلغ تَنَعُّم الكفَّار في الدنيا فهو متاع لا يستحقُّ الاكتراث به؛ لأنَّه زائل وقليل مقابل نعيم الآخرة الدائم.

٢- الثناء على بعض أهل الكتاب من المؤمنين الخاشعين لله تعالى.

٣- وجوب الصبر على إقامة الطاعات، وحماية البلاد من الأعداء.

٤- تقرير شرعة الحساب في نيل العقاب والثواب.

النزول: مدنية.

فضل السورة:

عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أخذ السبع الأول فهو حَبْرٌ».

(أخرجه الإمام أحمد: المسند ٦/ ٧٣. قال الهيثمي: رواه أحمد والبزَّار، ورجال البزَّار رجال الصحيح، غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة. مجمع الزوائد ٧/ ١٦٢. وأخرجه الحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي: المستدرك ١/ ٥٦٤).

المقاصد:

١- تقرير حقِّ صلة الرحم، وحقِّ اليتامى، وحقِّ المرأة في المهر.

٢- بناء البيت المسلم على أُسُس متينة.

٣- بيان حُقوق المرأة وواجباتها.

٤- تقرير أحكام الصَّلاة في السِّلم والحرب وأمور الجهاد.

٥- التخفيف والتيسير في الشريعة الإسلامية.

٦- حِماية المُجتمع المسلم، وتحصينه من الفتن والدَّسائس والمكايد.

٧- بَيان أحكام المواريث وحِفظ الأموال.

٨- دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان.

٩- بيان أُصول الحكم في الإسلام.

١٠- تقرير البعث والحساب.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ
بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا
طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ
﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ
ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن
كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١ - افتتح الله تعالى هذه السورة بنداء عظيم للبشرية جميعاً، أكّد فيه عبادته وحده، بأن يخافوا خالقهم بالتزام طاعته، فهو الذي خلقهم من آدم عليه السلام، وخلق من هذه النفس زوجها وهي حواء، ونَشَرَ منهما بالتوالد الكثير من الرجال والنساء، ثم كرَّر الأمر بقوله: وخافوا الله الذي يَسأل باسمه بعضُكم بعضاً، وخافوه بصلة الأرحام. إن الله لم يَزَلْ على الناس رقيباً لأعمالهم.

٢- يأمر الله تعالى أوصياء اليتامى - وهم الأطفال الذين مات آباؤهم وهم دون سنِّ البلوغ - بأن يُعطوهم أموالهم إذا بلغوا سِنَّ الرشد، ونهاهم عن أخذ الجيد من كرائم أموالهم، ووَضْعِ الرديء من الأموال مكانه، ونهاهم أيضاً عن ضَمِّ أموال اليتامى مع أموالهم من أجل السَّطْوِ على أموال اليتامى، وحذَّر من ذلك بأنه إثم عظيم يُعاقَبون عليه. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة أن أكْلَ أموال اليتامى حَوْب كبير، أي: إثم عظيم، ولم يُبيِّن مبلغ هذا الحَوْب من العِظَم، ولكنه بيَّنه في موضع آخر، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]».

٣- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عَذْقٌ وكان يُمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلَتْ فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العَذْق وفي ماله». (صحيح البخاري ٨/ ٨٦-٨٧، برقم ٤٥٧٣ - كتاب التفسير- سورة النساء، باب ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾).

التفسير:

وإن خفتم من الجَوْر في يتامى النساء اللاتي في حُجوركم فاتركوهنَّ، وانكِحُوا غيرَهنَّ مِمَّا أحلَّ الله لكم من النساء اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فإن خفتم ألَّا تعدلوا بينهنَّ فانكِحُوا واحدة، أو ما عندكم من الإماء. ذلك الشرع أقرب إلى عدم الظلم. وهذا التعدد في النكاح يفيد اليتامى عامةً في التمكين من رعايتهم بتعدد الأيادي الحانية. ذلك الحكم العظيم أقرب إلى مراعاة حقِّهم، وحقِّ النساء.

٤-٥- وأعطوا - أيها المؤمنون - مَنْ نكحتم من النساء مهورهنَّ عطيَّة واجبة عن طيب نفس، فإن طابت نفوسهنَّ بالتنازل عن شيء من المهر فخذوه حلالاً طيباً، ولا تُعْطُوا من يُبَذِّرُ من الرجال والنساء والصبيان أموالهم التي هي قِوام معاشهم، وأَنْفِقُوا عليهم في إطعامهم وكسوتهم، وقولوا لهم قولاً حسناً يُطَيِّبُ نفوسهم.

٦- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أنَّها نزلت في مال اليتيم، إذا كان فقيراً أنَّه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. (صحيح البخاري ٨/ ٨٩ برقم ٤٥٧٥ - كتاب التفسير- سورة النساء، باب (الآية)، وصحيح مسلم ٤/ ٢٣١٥- كتاب التفسير).

التفسير:

واختبروا اليتامى الذين في عهدتكم؛ لمعرفة حسن التدبير في أموالهم، حتى إذا بلغوا الحُلُمَ، فإن وجدتم فيهم صلاحاً في دينهم ومالهم فسَلِّموا لهم أموالهم، ولا تعتدوا عليها بالإسراع في صرفها وتبذيرها قبل أن يكبَروا فيأخذوها. ومَنْ كان من الأوصياء غنياً فلْيَعِفَّ عن مال اليتيم، ومَنْ كان فقيراً فليأخُذْ بقَدْر حاجته، أو بقَدْرِ جهده تجاه اليتيم وماله، فإذا سَلَّمْتم إليهم أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشْهِدُوا عليهم بأنَّهم تَسَلَّموا مالهم، ويكفيكم أنَّ الله رقيب عليكم، ومحاسِبٌ لكم على رعايتكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب التَّواصل مع الأقارب.

٢- تأكيد تقوى الله تعالى.

٣- إباحة التعدُّد في الزواج إلى أربع، بشرط إقامة العدل بينهنَّ في إعطاء حقوقهنَّ.

٤- تقرير حَقِّ المرأة في المهر، ومن حقِّها التصرُّف فيه كيف تشاء.

٥- قال ابن عاشور عند الآية (٥): «دَلَّت الآية بحكم القياس على أنَّ مَنْ طرأ عليه السَّفَه وهو بالغ، أو اختلَّ عقله لأجل مرض في فكره، أو لأجل خَرَفٍ من شِدَّة الكِبَر، أنه يُحَجَّر عليه؛ إذ علَّة التحجير ثابتة.. وحكم الآية شامل للذكور والإناث بطريق التغليب: فالأنثى اليتيمة - إذا بلغت رشيدة - دُفِعَ مالُها إليها». (التحرير والتنوير: ٤/ ٣٣).

٦- المحافظة على مال اليتيم، والسعي لتنميته، وتحريم بَخْسِه وظلمه.

٧- حَقُّ الولاية على مال اليتيم مرهون بعدم بلوغه.

٨- نَهْيُ أولياء اليتامى عن إعطائهم أموالهم، إذا كانوا غير قادرين على التصرُّف فيها.

٩- تحريم الإسراف في مال اليتيم.

١٠- يجوز للوليِّ الفقير أن يأخذ من مال اليتيم على قَدْر حاجته.

١١- يجب على الوصِيِّ اختبار اليتيم حتى يتثبَّتَ من ضَبْطِه للمال، وحسن التصرُّف فيه.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا
قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم
مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ
فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ
فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ
مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ
فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٧- يخبر الله تعالى عن حقوق الورثة في الآيات الست الآتية: للذكور الأقرباء صغاراً أو كباراً حصةٌ مالية ممَّا ترك المتوفَّون، وللنساء صغيرات وكبيرات حصة ممَّا ترك المتوفَّون، قليلاً كان المال أو كثيراً، فَرَضه الله لهنَّ حقّاً محدَّداً واضحاً.

٨- وإذا حضر قسمةَ التركة أقاربُ الميت والفقراء واليتامى والمساكين من غير الورثة، فأعطوهم شيئاً من التركة، وقولوا لهم قولاً حسناً.

٩- ولْيَخشَ الأوصياء وأصحاب الأموال الذين لو تركوا من خلفهم أولاداً صغاراً لا يجيدون التصرف بالمال، خافوا عليهم الاعتداء والتبذير، فليخافوا الله فيمَنْ معهم من اليتامى والمساكين، وذلك بحِفْظِ حقوقهم، ولْيقولوا لهم قولاً حسناً طيباً.

١٠ - يُخوِّف الله سبحانه الذين يعتدون على أموال اليتامى فيأخذونها بغير حق، بأنَّ عقوبتهم أَكْلُ النار تتأجَّج في بطونهم يوم القيامة، وسيدخلون ناراً شديدة الحرارة.

١١ - سبب النزول:

عن جابر ﷺ قال: «عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سَلِمةَ ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأفقتُ، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾». (صحيح البخاري ٨/ ٩١ برقم ٤٥٧٧ - كتاب التفسير - سورة النساء (الآية). وصحيح مسلم ٣/ ١٢٣٥، كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة).

التفسير:

يأمركم الله في حقِّ أولادكم من الميراث، إذا مات أحدكم وترك أولاداً، فميراثه كله للذكر مثل نصيب الأنثيين، إذا لم يكن ثمة وارث غيرهم، فإن ترك بنات فقط، فللبنتين فأكثر ثلثا ما ترك، وإن كانت ابنة واحدة فلها النصف، ولوالدي الميِّت لكلٍّ واحدٍ منهما السدس إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه والداه فلأُمِّه الثلث، ولأبيه الباقي. فإن وُجِدَ مع الأبوين إخوة للميت اثنان فأكثر، فللأُم السدس والباقي للأب. وهذه الحقوق تكون بعد تنفيذ وصية الميت الشرعية وقضاء ديونه، ولا يَعْرِفُ أحدٌ أيُّ الأصول أو الفروع أنفعُ للميت؟ وهذه الأحكام العظيمة واجبة من الله تعالى، إنَّ الله سبحانه لم يزل ذا عِلْمٍ بخَلْقِه، حكيماً في شرعه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «لكون هذه الآية كالمقدمة جاءت بإجمال الحق والنصيب في الميراث، وتلاه تفصيله؛ لقصد تهيئة النفوس. وحكمة هذا الإجمال حكمة ورود الأحكام المراد نَسْخُها إلى أثقلَ؛ لتسكنَ النفوس إليها بالتدريج».

وقال أيضاً: «من الاهتمام بهذه الأحكام تصديرُ تشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لأنَّ الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، وفيه اهتمام الآمر لشدَّة صلاحه». (التحرير والتنوير: ٤/ ٣٨، ٤٤).

٢ - تقرير حقوق الرجال والنساء في الميراث.

٣- حقُّ المرأة في الميراث، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة.

٤ - وجوب قضاء الدَّين قبل تقسيم الإرث.

٥ - التحذير من التلاعُب في وصيَّة الميِّت.

٦ - تحريم الوصيَّة لأحد الورثة، لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله أعطى لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصيَّة لوارث». (أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الوصايا - باب ما جاء في الوصية للوارث برقم ٢٨٧٠، وقال الألباني: حسن صحيح. صحيح سنن أبي داود برقم ٢٤٩٤).

٧- وجوب تقسيم الإرث كما فرض الله تعالى؛ لأنَّه هو الخالق، وهو أعلم بالحقوق، وحُكْمُه عدل.

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَالَّٰتِى يَأْتِينَ الْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰٓئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْـَٰٔنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

١٢- يُفَصِّل الله تعالى حقوق الزوجين والإخوة والكَلالة في الميراث: ولكم - أيها الأزواج - من الرجال نصف ما تركت الزوجات إن لم يكن لهن ولد، ولكم الربع مما تركْنَ إن كان لهنَّ وَلَدٌ منكم، أو من زوج آخر، وذلك بعد أداء الديون، وتنفيذ الوصايا الشرعية. وللزوجات الربع من الميراث إن لم يكن للأزواج ولد، فإن كان لهم ولد فللزوجات - واحدة أو أكثر - الثمن من بعد وفاء الدين وإنفاذ الوصية المشروعة. وإن مات رجل أو امرأة وليس له - أو لها - ولد ولا والد، وله أو لها أخ أو أخت من أم فلكلِّ واحد منهما السدس، فإن كان الإخوةُ أكثرَ من واحد فهم شركاء في الثلث، وذلك من بعد حقوق الدَّين والوصية، إن كان قد أوصى بشيء لا غَبْنَ فيه على الورثة بما لا يزيد على الثلث. بذلك الأمر العظيم أوصاكم الله وصية حكيمة. والله عليم بما يُصْلح خَلْقَه، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة.

١٣ - تلك أحكام الله العظيمة القَدْرِ. ومَنْ يُطع الله ورسوله في هذه الأحكام وغيرها يُدخله الله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك الجزاء العظيم القَدْرِ هو الفلاح العظيم في جنات النعيم.

١٤ - ومَنْ يخالف شريعة الله ورسوله، ويتجاوز أحكام الله، يَجْعَلْه في نار جهنم ماكثاً فيها أبداً، وله عذاب مُذِلٌّ.

١٥ - يُبَيِّنُ الله تعالى التدرُّجَ في حَدِّ جريمة الزنى: والنساء اللاتي يرتكبن فاحشة الزنى فاطلبوا أربعة شهود عدول من المسلمين، فإن شهدوا عليهنَّ بذلك فاحبسوهنَّ في البيوت حتى الموت، أو يجعل الله لهنَّ طريقاً بعقوبة أخرى وقد جعل الله لهنَّ حكماً آخر، وهو الرجم للمحصنة، ولغير المحصنة الجلد مئة جلدة، كما سيأتي في مطلع سورة النور.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ لم يبيِّن هنا هل جعل لهن سبيلا أولا؟ ولكنه بيَّن في مواضع أنه جعل لهنَّ السبيلَ بالحدِّ كقوله في البكر: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] الآية».

١٦ - والرجل والمرأة اللذان يفعلان فاحشة الزنى فآذُوهما بالتعزير والضرب بالنِّعال، ثم نُسِخ ذلك بالرجم والجلد، كما سيأتي في تفسير مطلع سورة النور. فإن تابا من الزنى قبل إقامة الحدِّ، وأصلحا أحوالهما، فلا تؤذوهما. إنَّ الله كان توَّاباً على مَنْ تاب، رحيماً به.

١٧ - يبشِّر الله التائبين من ارتكاب المعاصي بجهل، بأنَّهم إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله قبل معاينة الموت، فإنَّ الله يقبل توبتهم؛ لأنَّ كل مَنْ عصى ربه فهو جاهل حتى يُقْلِعَ عن معصيته. وكان الله عليماً بعباده، حكيماً في تدبيره وأحكامه.

١٨ - ولا يقبل الله توبة مَنْ يُصِرُّ على ارتكاب المعاصي، وعند قدوم سَكَرات الموت يقول: ياربِّ إنِّي تُبْتُ الآن، ولا يقبل توبة مَن مات على الكفر. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى هيأنا لهم عذاباً موجعاً.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ فأنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فحرَّم الله تعالى المغفرة على مَن مات وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، فلم يُؤَيِّسْهم من المغفرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير حقِّ الزوج والزوجة في الميراث.

٢ - تحريم الإضرار في الوصيَّة، فإذا أخطأ الميِّت في وصيَّته وَجَبَ تصحيحها، وكذا تحريم التغيير فيها من الشهود أو الورثة.

٣- وجوب إعطاء حقِّ اليتيمات المؤهَّلات للزواج من مهر ونفقة وغيرها.

٤ - وجوب دَفْعِ المهر كاملاً للمرأة، إلا إذا تنازلت عن طِيب نفس.

٥ - من مقاصد القرآن حفظُ الأعراض والنسب؛ لبناء مجتمع طاهر من الفواحش.

٦ - شَرَعَ الله سبحانه عقوبة الزنى للحفاظ على الأعراض، ولا تثبت إلا بشروطها.

٧- تقرير نسخ التعزير والضرب بالرجم أو الجلد.

٨- وجوب حسن معاشرة الزوجة.

٩- وجوب التوبة على المذنب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ
ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ
شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ
إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ
وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ
ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾
حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ
ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم
بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ
بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ ﴾

١٩ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ قال: «كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زَوَّجوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، وهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك». (صحيح البخاري ٨/ ٩٣ برقم ٤٥٧٩ - كتاب التفسير - سورة النساء، باب (الآية).

التفسير:

يخاطب الله المؤمنين مُذَكِّراً ومُشَرِّعاً حقوق المرأة المالية والزوجية في الآيات السبع الآتية: لا يباح لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من رجل ميت إلى رجل من أقاربه، وهُنَّ كارهات لذلك، ولا تمنعوهنَّ من الزواج بآخرين لتأخذوا ميراثهنَّ بعد الموت، أو تأخذوا صداقهنَّ إذا أَذِنْتُم لهنَّ بالزواج، إلا أن يرتكِبْنَ فاحشة بيِّنة واضحة، فيحِلُّ لكم أن تأخذوا منهنَّ الصداق بالخُلْع، وصاحبوهنَّ بالإحسان والرِّفْق، فإن كرهتموهنَّ لسبب غير الفاحشة فاصبروا، فعسى أن يجعل الله لكم في المكروه خيراً كثيراً، كإنجاب الولد الصالح وغيره.

٢٠- وإن أردتم نكاح امرأة بدل امرأة أخرى طَلَّقتموها، وقد أعطيتم لِـمَنْ أردتم طلاقها مالاً كبيراً مهراً لها، فلا يحلُّ لكم أن تأخذوا منه شيئاً، ولو كان مالاً قليلاً، أتأخذونه كذباً وافتراءً ظاهراً؟!

٢١- يُنكر الله تعالى على من استردَّ شيئاً من المهر، وكيف تأخذونه وقد استمتع بعضكم ببعض، وأخذنَ منكم عهداً مؤكداً في عقد النكاح الذي يضمن الحقوق الزوجية؟

٢٢- يُحَرِّم الله عليكم تَزَوُّجَ زوجة الأب، إلا ما مضى قبل التحريم فمَعْفُوٌّ عنه. إنَّ هذا الزواج فاحش القبح، يُبغضه الله لما فيه من سوء الاختيار.

٢٣- حَرَّم الله تعالى عليكم التزوُّج بالأمهات والجَدَّات من جهة الأب أو الأم، وبناتكم، وبنات الأولاد، وبنات أولاد الأولاد، والأخوات الشقيقات لأب أو لأُمٍّ، وأخوات آبائكم وأجدادكم، وأخوات الأُمهات والجدات، وبنات الأخ، وبنات الأخت وبناتهنَّ مهما نَزَلْنَ، والأُمهات المرضعات، وأُمهات الزوجات وجداتهنَّ، والربائب اللاتي تَرَبَّيْنَ في بيوتكم ودخلتم بأمهاتهنَّ. فإن لم تكونوا دخلتم بأُمهات الربائب فلا حرج عليكم في نكاحهنَّ، وحُرِّم عليكم زوجات أبنائكم الذين من ظهوركم، وحُرِّم عليكم الجمع بين الأختين ولو من رضاع، ومثلُهما سائر المحارم، كالعمَّة والخالة، إلا ما مضى قبل نزول التحريم فلا مؤاخذةَ فيه. إنَّ الله كان غفوراً لعباده إذا تابوا، رحيماً بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم ما كان معروفاً في الجاهلية من انتقال المرأة إلى قريب زوجها بعد وفاته، فلا يجوز إلا برضاها.

٢- المهر مهما كان كثيراً أو قليلاً فإنَّه حقٌّ للمرأة.

٣- وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف.

٤- إباحة الطَّلاق، والتزوُّج من امرأة أخرى.

٥- جواز كثرة الصداق.

٦- تحريم أَخْذِ أيِّ مال من الزوجة إذا فارقها زوجها، إلا إذا كان برضاها دون إكراه.

٧- تحريم زواج الابن من زوجة أبيه إذا طَلَّقها، أو مات عنها.

٨- بيان المحرَّمات في الزَّواج من النسب.

٩- بيان المحرَّمات في الأزواج من المصاهرة، كزوجة الأب، وأُمِّ الزَّوجة، وبنت الزَّوجة، وزوجة ولده من صلبه، وزوجة ابنه من الرضاع، وأخت الزَّوجة ما دامت في عصمته.

١٠- تقرير حَقِّ المرأة في الزَّواج، والتَّحذير من ظُلْمِها في منع حقوقها.

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

٢٤- سبب النزول:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشاً إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقُوا عَدُوّاً فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَأَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي ذَلِكَ: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أَيْ: فَهُنَّ لَكُمْ حَلاَلٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ.

(صحيح مسلم، باب جَوَازِ وَطْءِ الْمَسْبِيَّةِ بَعْدَ الاِسْتِبْرَاءِ وَإِنْ كَانَ لَهَا زَوْجٌ انْفَسَخَ نِكَاحُهَا بِالسَّبْيِ، برقم ٣٦٨).

التفسير:

لما ذكر الله المحرَّمات فيما سبق عطف عليهنَّ المحصنات، فقال: وحُرِّمت عليكم المحصنات من النساء، ذوات الأزواج، ويُستثنى من ذلك المسبيَّات في القتال مع المشركين، فإنه يحلّ لكم نكاحهنَّ بعد استبراء أرحامهنَّ بمقدار حَيْضة، كَتَبَ الله عليكم نكاح هؤلاء وألزمكم به. وأحلَّ لكم ما عدا أولئكم المحرمات، على أن تبتغوهنَّ بأموالكم بالطريق الشرعي، متعفِّفين بذلك عن الزنى، ومُعِفِّين نساءكم. وإتيانُكم إياهنَّ أجورَهنَّ فرضٌ فرضه الله عليكم، وإذا زاد الزوج في المهر أو أسقطته الزوجة عن رضا وطِيبِ نَفْس، فلا حرج في ذلك. والله ﷻ بعِلْمِه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحَدَّ لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

٢٥- وإذا لم يمتلك الحر المسلم المهر لنكاح الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه الزنى بسبب غلبة الشهوة عليه والمشقة البالغة، فله نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. ولما كان الإيمان أمراً قلبياً، لا يطلع على حقيقته إلا الله، أعقبه ببيان أنه يُكتفى فيه بالظاهر، مع ضرورة التحري من جهة الدين، ثم لابُدَّ أن يكون زواج الأَمَة بإذن سيدها فهو الوليُّ، ولا يصح نكاحها إلا بإذنه. وكما يجب المهر للحُرَّة فكذلك يجب للأَمة، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كُنَّ عفيفات عن الزنى، غير زانيات، وليس لهن أخِلَّاءُ في السر. فإذا تزوجت الأَمة ووقعت في فاحشة الزنى أُقيم عليها الحدُّ، كما يقام على الحرة، وهو الجَلْدُ المُعَيَّن. وشرع الله هذه الأحكام رحمةً منه بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يُضَيِّق عليهم، بل وسَّع غاية السَّعة.

٢٦- يريد الله أن يُبَيِّن لكم ما خَفِيَ عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج مَنْ كان قبلكم من الأنبياء والصالحين التي سلكوها في دينهم؛ لتَقْتَدُوا بهم في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة. ثم تُختم الآية بعِلْمِ الله وحكمته، فعن العلم والحكمة تصدر تشريعاته، ومن العلم والحكمة تجيء توجيهاته، وهو العالم بنفوس عباده وأحوالهم.

٢٧- والله ﷻ يُحَرِّضُكم أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم، توبة تلمُّ شَعْثكم، وتجمع متفرقكم، وأما الذين يُرضون شهواتهم، فيريدون انصرافكم عن الحق، وميلكم عنه إلى المعاصي؛ لأنَّهم يوافقون شهوات أنفسهم.

٢٨- والله ﷻ يريد بكم اليسر دون العسر؛ لأنَّ هذا الدين بَيَّنَ حِفْظَ المصالح ودرء المفاسد، في أيسر السبل وأرفقها؛ وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه وبخاصة في أمر النساء ، فناسب ذلك أن يخفف عنه ما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

الفوائد والاستنباطات :

١- تحريم أن يكون للمرأة أكثر من زوج واحد، وبُطلان عقد النكاح إذا عُقِدَ.

٢- تحريم أزواج المشركين، إلا المسبيَّات في قتال المسلمين مع المشركين.

٣- قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ﴾ دليل على ولاية السيد لأَمَتِه، وأنه إذا نُكِحَتِ الأَمة بدون إذن السيد فالنكاح مفسوخ.

٤- قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ ﴾ إضافة الأجور إليهنَّ، دليل على أنَّ الأَمة أحقُّ بمهرها من سيدها.

٥- لا يُسْتَدلُّ بقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ في جواز نكاح المتعة، فإنَّ سياق الآيات ينافي ذلك.

٦- وجوب المهر للحُرة والأَمة المؤمنة.

٧- قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي: أحصنهنَّ، أي: فإذا تزوَّجْن. فالآية تقتضي أن التزوج شرط في إقامة حدِّ الزنى على الإماء، وأن الحدَّ هو الجَلْدُ المعين؛ لأنَّه الذي يمكن فيه التنصيف بالعدد.

٨- قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تحريض على وجوب الوقوف عند كتاب الله.

٩- المقصد من تقدير المهر والوفاء به من قِبَلِ الزوج هو الوثاق، وحسن السمعة.

١٠-الله ﷻ يكشف للمسلمين عن دخائل أعدائهم، وهي إرادة صَدِّهم عن الحق، والغرق في وَحْلِ الشهوات.

١١- العدل مع الإماء، والرفق معهن فمن رحمة الله تعالى أن جاء بكلمة ﴿أَهْلِهِنَّ﴾ بدل أسيادهن.

١٢- التحذير من نكاح الإماء، وأنه لا يجوز الإقدام عليه إلا عند الضرورة.

١٣- تقييد نكاح الأَمة بها إذا كانت مؤمنة، فلا يجوز التزوُّج بالأَمة الكتابية، سواء كان الزوج حراً أو عبداً.

١٤- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾ معناه: اعملوا على الظاهر في الإيمان، فإنَّكم مكلفون بظواهر الأمور، والله يتولى السرائر والحقائق.

١٥- ذِكْرُ المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أنَّ الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده.

١٦- أسند التحليل إلى الله تعالى بإسناد الخير لله، ولم يُسْنِد الشرَّ إليه، وأسند التحريم إلى المجهول في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ لأنَّ التحريم مشقة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

التفسير:

٢٩- لما بيَّنَ ﷻ طريقة التصرف في النفوس بالنكاح، بيَّن طريقة التصرف في الأموال الموصلة إلى النكاح، وإلى ملك اليمين، فنهى ﷻ عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهو ما لم تُبِحْه الشريعةُ كالسرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا، ولكن أباح لهم أَكْلَها بالتجارات والمكاسب المشروعة التي تكون عن تراضٍ، ثم نهى عباده المؤمنين أن يقتل بعضهم بعضاً، أو يقتل الإنسان نفسه، لأنه

رحيم بخلقه. و من رحمته بهم أن عصم دماءهم وأموالهم، وصانها ونهاهم عن انتهاكها، ولم يُكَلِّفْهم قَتْلَ أنفسهم في التوبة، كما كَلَّف بني إسرائيل بذلك.

٣٠- ومَنْ يتعاط ما نهاه الله عنه مثل أكل الأموال بالباطل، وقَتْلِ النفوس بغير حق، متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، عالماً بتحريمه مُتجاسِراً على انتهاكه، فسوف يدخله الله ناراً يصليه فيها. وهذا العذاب هَيِّنٌ على الله لا يمنعه منه مانع، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه شافع.

٣١- ومن فضل الله وإحسانه على المؤمنين أنه وَعَدَهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات - وهي كل جريمة تُؤْذِنُ بقلة اكتراث مرتكبها بالدين - غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريماً كثير الخيرات، وهو نعيم الجنات.

الفوائد والاستنباطات :

١- إنَّ الله تعالى يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، مع إقامة الفرائض.

٢- ما كان على طريق التجارة فشَرْطُه التراضي، وهو من اثنين: الباذل للثمن، والبائع للعين، وخَصَّ التجارة بالذِّكر، لأنَّ أكثر أسباب الرزق متعلق بها.

٣- النهي عن قتل الإنسان نفسه. ويندرج في ذلك مَنْ يتعاطى مُحَرَّماً كالخمر والمخدرات، أو يُعَرِّض نفسه للقتل بسبب سرعة القيادة، أو الإهمال في المركبة وغير ذلك.

٤- الجمع بين التوصية بحفظ المال والوصية بحفظ النفس من الملاءمة؛ لكون المال شقيق النفس من حيث إنه سبب لِقوامها، وتحصيل كمالاتها، واستيفاء فضائلها.

٥- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ قيّده بالعدوان والظلم؛ ليخرج أَكْلُ المال بوجه الحق، وقتل النفس كذلك، كقتل القاتل.

٦- في إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين دلالة على أنَّ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد، إذ كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

٧- قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ يدخل تحته أَكْلُ مالِ الآخرين بالباطل، وأَكْلُ مالِ نفسه بالباطل، وهو إنفاقه في معصية الله.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

التفسير:

٣٢- لما نهى ﷻ المؤمنين عن أَكْلِ المال بالباطل، وعن قَتْلِ الأنفس، نهاهم عن تَمَنِّي ما فَضَّل الله به بعضهم على بعض، فللرجال مزاياهم وحقوقهم، وللنساء مزاياهنَّ وحقوقهنَّ، فلا تتمنَّوا ما في يد الآخرين، واسألوا الله من فضله؛ فإنَّ فضل الله يَسَعُ الإنعام على الكل، فلا أثر للتمني إلا تعب النفس؛ فعِلْمُ الله محيط بجميع الأشياء، فهو عالم بما فَضَّل به بعضكم على بعض، وما يصلح لكلٍّ منكم من توسيع أو تقتير، فإياكم والاعتراضَ بتَمَنٍّ أو غيره، وهو عالم بسؤالكم من فضله، فيستجيب دعاءكم.

٣٣- ولَمَّا نهى عن التمني المذموم، وأمر بسؤال الله من فضله، أخبر تعالى بشيء من أحوال الميراث، وأنَّ في شرعه ذلك مصلحةً عظيمةً من تحصيل مال للوارث لم يَسْعَ فيه، فقال: ولكلٍّ واحد منكم جعلنا ورثة يرثون ممَّا ترك الوالدان والأقربون، والذين تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة على النصرة وإعطائهم شيئاً من الميراث، فأَعْطُوهم ما قُدِّر لهم. إنَّ الله مطلعٌ بعلمه المحيط بكل شيء ومُجازٍ عليه. وفي ذلك تهديد للعاصي، ووعد للمطيع، وتنبيه على أنه شهيد على الصلة والمعاقدة بينكم، فأَوْفُوا بالعهد، وقد نُسخ التوارث بين الحُلَفاء.

٣٤- الرِّجال قوَّامون على النساء بإلزامهنَّ بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، والالتزام بأحكامه، وقوَّامون عليهن قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي، بسبب فَضْلِ الرجال على النساء بإنفاق أموالهم. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: يَغْزُو الرِّجَالُ وَلاَ تَغْزُو النِّسَاءُ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ. فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

(سنن الترمذي، باب سورة النساء برقم٣٢٩٥، قال الألباني : صحيح الإسناد).

ثم بَيَّنَ ﷻ أن النساء على قسمين: صالحات مطيعات لله تعالى ، ومطيعات لأزواجهنَّ حتى في الغيب، تحفظ بَعْلَها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهنَّ وتوفيقه لهنَّ. واللاتي تخشون تَرَفُّعَهن عن طاعة أزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل فإنه يُؤَدِّبها تدريجياً، فأول ما يُبدأ به لتأديبها بيانُ حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، فلا يُضاجِعَها، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح. فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأَطَعْنَكم فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضرُّ ذِكْرُها، ويحدث بسببها الشر. فإنَّ الله العليَّ الكبير وليُّهن، وهو منتقم مِمَّنْ ظلمهنَّ وبغى عليهنَّ، وإنَّكم تعصونه تعالى، مع علوِّ شأنه وكبرياء سلطانه، ثم يتوب عليكم، فيحق عليكم أن تعفوا عنهنَّ إذا أطعنكم.

٣٥- ولـمَّا ذكر عند نشوز المرأة أنَّ الزوج يَعِظُها، ثم يهجرها، ثم يضربها، بَيَّن أنَّه لم يَبْقَ بعد الضرب إلا المحاكمة إلى مَنْ ينصف المظلوم من الظالم. فإن خفتم الخلاف والعداوة بين الزوجين، فأرسلوا إلى الزوجين لإصلاح ما بينهما من شقاق رجلين عَدْلَيْنِ مُتَّصِفَين بحسن السياسة والنظر في حصول المصلحة، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يُلْزِمان كُلَّاً منهما ما يجب، ومهما أمكنهما من الجمع والإصلاح فلا يعدلان عنه. والله عالمٌ بجميع الظواهر والبواطن، مُطَّلِعٌ على خفايا الأمور وأسرارها، فمِنْ عِلْمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الغراء.

الفوائد والاستنباطات :

١- خَصَّ الأهل لأنَّهم أطلبُ للصَّلاح، وأعرف بباطن الحال، وتسكن إليهم النفس، فيطَّلعون على ما في ضمير كل فرد مِنْ حُبٍّ وبغض، وإرادة صحبة، أو فرقة، وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزويانه عن الأجانب، ولا يحبان أن يطلعوا عليه. فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما، ورأيا أنَّ التفريق بينهما أصلح، فَرَّقا بينهما.

٢- متى عجز الرجل عن النفقة على زوجه كان لها فَسْخُ العَقْدِ؛ لزوال المعقود الذي شُرِعَ لأجله النكاح.

٣- قيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي.

٤- تأديب الزوجة الناشز: الوعظ عند خوف النشوز، والضرب عند ظهوره. وللعظة والهجر والضرب مراتب، إن وقعت الطاعة عند إحداها لم يَتَعَدَّ إلى سائرها. ومهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يَجُز الإقدام على الطريق الأشق.

٥- لا يجوز الهجر والضرب بمجرد توقع النشوز قبل حصوله.

٦- قال الشافعي يرحمه الله: «الضرب مباح، وتَرْكُه أفضل». (نظم الدرر: ٢/ ٢٥٢).

٧- وجوب بَعْثِ الحكمين عند نزاع الزوجين النزاع المستمر المعبر عنه بالشقاق.

٨- قال الشافعي يرحمه الله: «المستحَبُّ أن يبعث الحاكمُ عَدْلَين ويجعلهما حكمين ، والأَولى أن يكون واحد من أهله، وواحد من أهلها؛ لأنَّ أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب، وأشد طلباً للصلاح، فإن كانا أجنبيين جاز. وفائدة الحَكَمين أن يخلو كل واحد منهما بصاحبه، ويستكشف حقيقة الحال؛ ليعرف أن رغبته في الإقامة على النكاح، أو في المفارقة، ثم يجتمع الحكمان فيفعلان ما هو الصواب من إيقاع طلاق أو خُلع». (مفاتيح الغيب ١٠/ ٧٥).

٩- اقتصر على إرادة الإصلاح؛ لأنَّها التي يجب أن تكون المقصد لولاة الأمور والحكمين، فواجب الحكمين أن ينظرا في أمر الزوجين نظراً منبعثاً عن نية الإصلاح، فإن تيسَّر الإصلاح فذلك، وإلا صارا إلى التفريق، وقد وعدهما الله بأن يوفق بينهما إذا نويا الإصلاح. ومعنى التوفيقِ بينهما إرشادُهما إلى الرضا بالحق والواقع.

١٠-قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ دالٌّ على أنه لا يتمُّ شيء من الأغراض والمقاصد إلا بتوفيق الله تعالى.

١١-جواز التحكيم في سائر الحقوق.

١٢-الولاية تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة.

١٣-النهي: أن يتمنى الإنسان لنفسه ما فُضِّلَ به عليه غيرُه في الوظيفة والمكانة، وفي الاستعدادات والمواهب، وفي المال والمتاع، وفي كل ما تتفاوت فيه الأنصبة في هذه الحياة، لكن التمني المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يَتَّكل على نفسه، ولا على غير ربه.

١٤-المرأة لا تكون صالحة إلا إذا كانت مطيعة لزوجها؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ والألف واللام في الجمع يفيدان الاستغراق، فهذا يقتضي أنَّ كل امرأة تكون صالحة، فهي لابُدَّ أن تكون قانتة مطيعة.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾

التفسير:

٣٦- لما أرشد ﷻ كلَّ واحدٍ من الزوجين إلى المعاملة الحسنة، أمر بمعالي الأخلاق الحسنة، وبدأ بإفراد الله تعالى بالعبادة محبةً وذلاً وإخلاصاً له، ونهى عن الشرك؛ لأنَّ له التدبير الكامل الذي لا يشركه، ولا يُعينه عليه أحد، ثم قرن بها إلزام برِّ الوالدين، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقهما، ووجوب برِّهما، والإحسان إليهما، ثم أوصى بالإحسان بكل مَنْ بينه وبين المؤمن قربى من أخ أو عم أو غيرهما، واليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، والجارِ الذي قرب جواره، والجارِ الذي جوارُه بعيد، والمصاحب الملازم للمكان، سواء كان زوجة أو ضيفاً، أو رفيقاً في السفر، والغريب المجتاز بقوم غير ناوٍ الإقامة، ثم أمر الله تعالى بالإحسان إلى كل مملوك من آدمي وحيوان. ومَنْ لم يفعل ذلك فهو مُعْجَبٌ بنفسه متكبرٌ على الخلق، فَخُور، أي: يُثني على نفسه، ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بحقوق العباد، ويحرمهم محبة الرب الكريم، ورضاه عنهم.

٣٧- ثم ذمَّهم بصفات قبيحة: وهي البخل بالحقوق الواجبة في المال، ودعوة الناس إلى البخل قولاً وعملاً، والبخل بالعلم الذي يهتدي به الضالُّون، ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، فسعوا في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، فكان جزاؤهم أن أعدَّ الله لهم عذاب الإهانة بالعذاب الأليم، والخزي الدائم المقابل لفخرهم وخيلائهم.

٣٨- ثم ذَمَّ - سبحانه - الذي ينفق ماله لغرض الرياء والسمعة، لا لغرض الإخلاص والإيمان بالله ورجاء ثوابه في الآخرة، وهذا من خطوات الشيطان المقارِن لهم. فبئس هذا القرين الذي يُضِلُّ صاحبه عن دار النعيم، ويورده موارد الهلاك.

٣٩- وأيُّ وَبالٍ وضرر يَحيق بهم، لو حصل منهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم؟ وختم الآية بوعيد وتنبيه على سوء بواطنهم، وأنَّه تعالى مُطَّلِعٌ على ما أخفوه في أنفسهم، ومجازيهم عليه.

٤٠ - ولما استحق هؤلاء العقابَ بكفرهم نَبَّه أنه في حقهم عدل، وأنَّ الله منزه عن الظلم قليله وكثيره، فهو سبحانه لا ينقص من الأجر، ولا يزيد في العقاب شيئاً مقدار ذرة، وهي النملة الصغيرة الحمراء التي لا تكاد تُرى من صغرها، وإن كانت الذرة حسنة يُضاعف ثوابها، ويعطي صاحبها من عنده على سبيل التفضيل زائداً على ما وُعِدَ في مقابلة العمل، أجراً عظيماً، وما وصفه الله بالعِظَمِ فمَنْ يعرف مقداره؟

٤١ - ولَمَّا أعلم تعالى بعَدْلِه وإيتاء فضله، أتبعه بأن ذلك يجري بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق، فقال سبحانه: كيف تكون الأحوال، وكيف يكون الحكم إذا جئنا يوم القيامة من كل أُمة من الأُمم وطائفة من الطوائف بشهيد يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد، وقبائح الأعمال، وجِئْنا بك يا محمد على أُمتك شَهِيداً؟

٤٢ - في هذا اليوم يتمنى الذين جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصيةِ الرسول، لما رأوا جزاء المشهود عليهم من الأُمم السابقة، ورأوا عاقبة كَذِبِ المُرسل إليهم، لو يكونون تراباً، فتُسَوَّى بهم الأرض، ولا يكونون قد كتموا الله، وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عبادة الله تعالى بالتذلل والإخلاص له.

٢ - الإحسان إذا عُدِّي بالباء كان متعلقاً بمعاملة الذات، أي: ذات الأبوين روحاً وجسداً وتوقيرهما واحترامهما، والنزول عند رغبتهما وامتثال أمرهما، وقدَّم الأمر بعبادة الله تعالى وتوحيده للاهتمام بهذا الأمر، وأنه أحق ما يتوخَّاه المسلم.

٣- النهي عن الشرك بأنواعه سواء كان الشرك في الألوهية، أو الشرك في الفعل، أو الشرك في العبادة.

٤ - الإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجيران الأقارب والأباعد، والأصحاب.

٥ - النهي عن التكبر والخيلاء والتفاخر والتعاظم.

٦ - رَبْطُ كل مظاهر السلوك، وكل دوافع الشعور، وكل علاقات المجتمع، بالعقيدة.

٧- اتصاف الله بكل كمال، وتَنَزُّهه عن كل نقصان، فلا يبخس الناس، ولا ينقصهم من ثواب أعمالهم وزن ذرة، بل يجازيهم بها، ويثيبهم عليها.

٨- بدأ بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ إذ بذلك تحصل السعادة الأبدية، ثم عطف عليه الإنفاق في سبيل الله، إذ به يحصل نفي تلك الأوصاف القبيحة من البخل، والأمر به وكتمان فضل الله والإنفاق رئاءَ الناس.

٩- إشفاق الرسول ﷺ على أمته ورحمته لهم من هول يوم القيامة، فإنه كان إذا قرأ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فاضت عيناه، وإذا كان الشاهد تفيض عيناه فماذا يصنع المشهود عليه؟

١٠-على العبد أن يعمل عملَ مَنْ يعلم أنه راجع إلى المُطَّلِعِ عليه، الذي لا تخفى عليه خائنة عين، ويجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾

٤٣- سبب النزول :

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ دَعَاهُ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَسَقَاهُمَا قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ فَأَمَّهُمْ عَلِيٌّ فِي الْمَغْرِبِ فَقَرَأَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] فَخَلَطَ فِيهَا فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾. (سنن أبي داود: باب في تحريم الخمر، برقم ٣٦٧٣، قال الألباني: صحيح).

التفسير:

لما أمر تعالى بعبادته والإخلاص فيها، وكانت الصلاة أفضل العبادات ناسب أن تخلص الصلاة من شوائب الكدر التي يُوقعها على غير وجهها، فنهى تعالى عباده المؤمنين أن يُصَلُّوا حال السكر حتى يعلموا قبل الشروع فيها ما سيقرؤونه وما سيعملونه؛ وذلك لأنَّ حال السُّكرِ لا يتأتَّى معها الخشوع والخضوع

والحضور مع الله بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة، كالمسجد، فإنه لا يُمَكَّن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنَّه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، وهذا الحكم قبل نزول تحريم الخمر. ولا تقربوا الصلاة أيضاً حالة كون أحدكم جنباً، إلا أن تمروا في المسجد، ولا تمكثوا فيه، فإذا اغتسلتم زال سبب المنع. ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لازمة؛ لأنَّها تُذَكِّر المرء بربه، وتُعِدُّه للتقوى، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر في بعض الحالات، ويتعذر في بعضها الآخر، رَخَّص سبحانه في ترك استعمال الماء والاستعاضة عنه بالتيمم حالَ المرض الذي يُخاف زيادته باستعمال الماء والسفر القصير والطويل، وفَقْد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل، وأمرهم أن يقصدوا ويتحرَّوا وجهاً طاهراً من الأرض لا قذارة فيه، ثم يمسحوا وجوههم وأيديهم منه، ثم يصلُّوا. ثم ختم الآية بأنَّه كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، من حُكم الرخصة إذ عفا عن المسلمين، فلم يُكَلِّفْهم الغسل أو الوضوء عند المرض، ولا يرقب وجود الماء عند عدمه، حتى تكثر عليهم الصلوات فيعسر عليهم القضاء.

٤٤ - ألم تنظر - يا محمد ﷺ - إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهي، كيف حُرِموا هدايته واستبدلوا بها ضدها، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم، ويريدون أن تضلوا - أيها المؤمنون - طريق الحق القويم، كما ضَلُّوا هم، فهم دائبون على الكيد لكم؛ ليردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا؟

٤٥ - والله أعلم بهم منكم، وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون لكم؛ لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم، وهو أعلم بحالهم ومآل أمرهم. وكفى به متكفِّلاً في جميع أموركم ومصالحكم محباً لكم. وكفى به نصيراً في كل المواطن، فثِقُوا به، واكتفوا بولايته ونصرته، ولا تَتَوَلَّوا غيره، ولا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء؛ فإنَّه تعالى مُعين لكم يكفيكم مكرهم وشرهم.

٤٦ - ثم بَيَّنَ سبحانه كيفية ضلالهم، فهم يُغَيِّرون النص، أو يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله قصداً منهم، وافتراء على الله، ويقولون: سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يَتَوَلَّون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم من الإثم والعقوبة ويقولون للنبي: اسمع ما نقول لا سمعتَ، تظاهروا بتعظيمه، وأرادوا في الباطن الدعاء عليه وسَبَّه، والكيد للإسلام والاستخفاف به، و هذا دأبهم في كل عصر. ثم أرشدهم إلى المنهج اللائق، والأدب الجدير بهم في مخاطبة الرسول ﷺ، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطُّف في طلبهم العلمَ بقولهم: أفهِمْنا، وتَمَهَّلْ علينا حتى نفهم عنك، ونَعِي قولك، لكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر أبعدهم الله عن الهدى، فلم يؤمن منهم إلا قليل، كعبدالله بن سلام وأصحابه.

الفوائد والاستنباطات :

١ - ينبغي للمصلِّي أن يتحرَّز عما يُلهيه، ويشغل قلبه وفكره.

٢ - استدل الفقهاء بقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً﴾ بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت.

٣ - اختيار ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ دون (لا تصلوا) للإشارة إلى أنَّ تلك حالة منافية للصلاة، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام.

٤ - مشروعية التيمم بالصعيد الطيب، وهو كلُّ ما تصاعد على وجه الأرض سواء أكان له غبار أم لا.

٥ - من صفات الله العفو والمغفرة، ومن عفوه ومغفرته أَنْ رَحِمَ هذه الأُمة، فشَرَعَ طهارة التراب بدل الماء، عند تَعَذُّر استعماله.

٦ - الحذر الشديد من الركون إلى اليهود؛ لإرادتهم إضلالَ المؤمنين، والتلبيس عليهم؛ لكي يخرجوا عن الإسلام.

٧ - ليس ثمة أسوأ ولا أقبح ممن جمع بين الضلال والإضلال؛ لأنَّ ضلاله متعدٍّ.

٨ - الله تعالى وليُّ المسلمين وناصرهم، ومَنْ كان الله ولياً وناصراً له لم تَضُرَّه عداوة الخلق.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير :

٤٧ – خاطب ﷻ من يُرجى إيمانه من اليهود والنصارى: أن آمِنُوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزلنا عليه من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها، من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فنمحو الوجوه، ونُحَوِّلها قِبَلَ الأقفاء، أو نلعنكم بمَسْخكم قردةً وخنازير، كما لَعَنَّا اليهود مِن أصحاب السبت، الذين نُهُوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا، فغضب الله عليهم، وطردهم من رحمته. وكان أمر الله نافذاً في كل حال لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ.

٤٨ – ولما بَيَّن سبحانه أنَّ الوعيد واقع لا محالة، ذَكَرَ أنَّ هذا الوعيد وهذا التهديد لجريمة الكفر، فإنَّه سبحانه لا يغفر الشرك ممَّنْ اتصف به بلا توبة وإيمان، ويغفر ما دون الشرك في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة، تَفَضُّلاً من لدنه وإحساناً من غير توبة عنها، لكن لا لكل أحد بل للمؤمنين. ومَنْ أعظم جرماً وافتراء ممَّنْ سَوَّى بين المخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه؟

٤٩ – ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، ومُنْكِراً على اليهود تزكيةَ أنفسهم: انظر – يا محمد – إلى تزكيتهم أنفسهم بالباطل إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما التزكية تكون بالإيمان والعمل الصالح، وقد حُرِمُوها بكفرهم وظلمهم، فالله ﷻ لم يظلمهم شيئاً، ولو كان مقدار الفتيل الذي في شق النواة.

٥٠ – ولما أخبر تعالى أنَّ التزكية إنما هي إليه سبحانه بما له من العظمة والعلم الشامل، قال مخاطباً رسوله ﷺ: انظر – يا محمد – إلى كذبهم، وزعمهم أنَّهم أبناء الله وأزكياء عنده. وكفى بذلك وحده إثماً، ولو لم يكن لهم من الذنوب إلا هذا الافتراء لكان إثماً عظيماً.

٥١ – ثم انظر – يا محمد ﷺ – إلى قبائح اليهود فقد آمنوا وصدقوا، بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، بل قالوا ما هو أشنع من ذلك قالوا: إنَّ دين المشركين خير من دين محمد ومَنْ معه، وإنَّ

المشركين أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ﷺ، ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود. إنَّه موقفهم دائماً من الحق والباطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل. إنَّهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم، إنَّما يجدون العون والنصرة دائماً عند الباطل وأهله.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجزاء من جنس العمل؛ كما تركوا الحق، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جُوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم، كما طَمَسُوا الحق.

٢- الآية (٤٨) من أجَلِّ الآيات؛ لأنَّها تُؤْذِنُ بأنَّ ما دون الشرك من الذنب مغفور بحسب المشيئة والوعد المعلَّق بالمشيئة من الكريم المحقق الإنجاز، ولاسيَّما لعباده الموحِّدين المخلِصين.

٣- دَلَّت الآيات على عظم جريمة الشرك، وأنَّه لا مغفرة له إذا مات صاحبه عليه.

٤- كل صاحب كبيرة في مشيئة الله تعالى: إن شاء عفا عن ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى.

٥- المُزَكِّي هو الله تعالى، وأنه تعالى هو المعتدُّ بتزكيته، إذ هو العالم ببواطن الأشياء، والمطَّلع على خفياتها.

٦- التحذير من إعجاب المرء بعمله.

٧- إنَّ الله لا يظلم الناس، ولو بمقدار الفتيل الذي في شق النواة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

التفسير:

٥٢- ثم أخبر سبحانه بجزاء اليهود على أفعالهم الشنيعة، أن أبعدهم الله تعالى من رحمته، وأحلَّ عليهم نقمته. ومَنْ يكن هذا مصيره فلن تجد له من دون الله نصيراً في الدنيا والآخرة.

٥٣- ولما وصف سبحانه اليهود بالجهل الشديد، وهو اعتقادهم أنَّ عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى، وصفهم بأنه لا حَظَّ لهم من المُلك؛ لظلمهم وطغيانهم وبَخْلهم، وحبِّهم أنفسهم دون غيرهم؛ ولأنَّ الملك والبخل لا يجتمعان.

٥٤- ثم وَبَّخهم الله تعالى على الحسد الذي هو أسوأ من البخل، فهم يتمنون أن يكون الخير كله بأيديهم، ويريدون قَصْرَ فضل الله عليهم، ولا يحبُّون أن يكون لأُمة فضل مما لهم؛ لذا حسدوا محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضل النُّبوة والعلم، وزعامة الدولة ورئاسة الحكم، وكثرة الأعوان والأنصار.

٥٥- ثم بَيَّنَ الله تعالى ما يدفع ذلك الحسد، ويقلل من أهمية الأشياء التي حسدوا عليها محمداً ﷺ، فهم إن يحسدوه على ما أوتي، فقد أخطؤوا؛ إذ له نظائر وأمثال كثيرة، وهي أنَّه تعالى آتى مثل هذا لآل إبراهيم، والعرب منهم؛ لأنَّهم من ذريَّة ولده إسماعيل، وآتاهم الله الكتاب الإلهي المشتمل على تشريع الأحكام، والحكمة التي هي فهم أسرار التشريع، والملك العظيم في أبنائه وذريته، وأولئك الأنبياء كإبراهيم وذريته بالرغم من اختصاصهم بالنُّبوة وإيتائهم الملك، لم تُؤْمِنْ أُممهم جميعاً برسالتهم، بل منهم مَنْ آمن بهم، ومنهم مَنْ أعرض وظَلَّ على كفره، فلا تعجب - يا محمد ﷺ - من موقف قومك، فهذه سُنَّةُ الله في الأمم مع أنبيائهم، وإن لم يصبهم عذاب في الدنيا، فكفاهم عذاب جهنم في النار المسعَّرة الشديدة اللَّظى، وبئس المصير.

٥٦- ولما ذكر قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أتبع ذلك بما أعدَّه للكافرين بآياته، بأنَّه سيصليهم ناراً عظيمة الوقود شديدة الحرارة، كلما احترقت جلودهم بَدَّلها جلوداً غيرها؛ ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع،

فكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفاً لهم وسَجِيَّة؛ كرر عليهم العذاب جزاء وِفاقاً، ثم ختم الآية بصفتين هما العزة والحكمة، فهو عزيز لا يمتنع عليه شيء ممَّا يريده بالمجرمين، حكيم لا يعذب إلا بعدلٍ مَنْ يستحقه.

٥٧- ولما ذكر تعالى وعيد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين على سبيل المقابلة، وزيادة الحسرة على الكافرين، فقال: والذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا صالح الأعمال، سيدخلهم ربُّهم سريعاً جنَّات تجري من تحتها الأنهار، يتمتعون فيها بالنعيم الدائم، وهم خالدون فيها أبداً، لا يَحُولون ولا يَزُولون، ولا يبغون عنها حِوَلاً، فلا ملل ولا سأم ولا ضجر؛ جزاء لعملهم الصالح، ولهم أزواج بريئات من العيوب الجسدية والخلقية أو الطباع الرَّديئة، فليس فيهنَّ ما يعكر المزاج، أو يكدر الصَّفْوَ، ونجعلهم في مكان ظليل، لا حَرَّ فيه ولا برد، وتلك نعمة كاملة، ونعيم دائم.

الفوائد والاستنباطات:

١- اليهود قوم مغرورون مخدوعون، يظنون أنَّ فضل الله مقصور عليهم، ورحمته لا تتعداهم، ولا يستحقها غيرهم.

٢- عبَّرعن جزاء الكافرين بـ ﴿سَوْفَ﴾ وعن ثواب المؤمنين بالسين؛ ليفيد تحقق الثواب بسرعة ويقين، ويبيِّن بعد العقاب المنتظر للكافرين؛ لأنَّهم في أهوال المحشر قد يكونون في عذابٍ أشدَّ من عذاب النَّار.

٣- البخل والحسد أسوأ أخلاق اليهود، والحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا
يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن
تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟
إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾
فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل
لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ
أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ
تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

التفسير :

٥٨- لما ذكر سبحانه وَعْدَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجَّهَهُم لعملين من الأعمال الصالحة هما أداء الأمانة، والحكم بين الناس بالعدل، والخطاب لكل مُؤتَمَنٍ على أيِّ حقٍّ لله تعالى أو لعباده، ولاياتٍ أو أموالٍ أو غيرها. ثم مدح الله أوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودَفْعِ مَضارِّهما؛ لأنَّ شارعَها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

٥٩- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ. (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، برقم ٤٥٨٤).

التفسير:

ولما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية، أَمَرَ الرعية بطاعة الولاة قال: أطيعوا الله فيما شرع، وأطيعوا الرسول فيما أمر، وأطيعوا كلَّ مَنْ ولي أمراً من أمور المسلمين ولاية صحيحة، فإن اختلفتم أنتم وأولو

الأمر في شيء من أمور الدين فارْجِعُوا فيه إلى الكتاب والسنة؛ فإنَّ هذا من لوازم الإيمان، وذلك أحسن عاقبةً لكم في الدنيا والآخرة.

٦٠-٦٣- ولما أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، ذكر أنه يَعْجَبُ تعالى من حال المنافقين الذين يَدَّعُون الإيمان، ويريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، وهذا من إضلال الشيطان لهم. وإذا قيل لهم: تعالَوا إلى حكم الله ورسوله، رأيتهم يعرضون إعراضاً، وإذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول في أوقات السلامة على هذه الحال، فكيف يكون حالهم في شدة الغمّ والحسرة إذا أتَوا بجناية خافوا بسببها منك، ثم جاؤوك شاؤوا أم أبَوا، ويحلفون بالله على سبيل الكذب: ما أَرَدْنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والغيظ والعداوة، وسيجازيهم بما يعلم. فأَعْرِضْ عن معاتبتهم، وقبول أيمانهم وأعذارهم، وخَوِّفْهم بعذاب الله وازْجُرْهم، وأَنْكِرْ عليهم أن يعودوا لمثل ما فعلوا.

٦٤-٦٥- سبب النزول:

عَنْ عُرْوَةَ ﷺ قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يا زُبَيْرُ اسْقِ، ثُمَّ أَرْسِلْ. فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: إِنَّهُ ابْنُ عَمَّتِكَ. فَقَالَ ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ يَبْلُغُ الماءُ الْـجَدْرَ ثُمَّ أَمْسِكْ. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: فَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

(صحيح البخاري: باب شرب الأعلى قبل الأسفل، برقم ٢٣٦١).

التفسير:

ثم حَثَّ سبحانه على طاعة الرسول ﷺ فقال: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بتوفيقنا وإعانتنا. ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم بسخطهم لقضائك، أو بتحاكمهم إلى غير حكم الله تعالى، جاؤوك فاستغفروا الله بالإخلاص، واعتذروا إليك، وشفعت لهم في غفران ذنوبهم، لَتاب عليهم، ورَحِمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها. ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة إنَّهم لا يؤمنون حتى يُحَكِّموا رسوله في كل أمر وقع بينهم فيه نزاع وتَجاذُب، من غير حَرَج يصرفهم عن تحكيمه، أو يسخطهم من حكمه بعد تحكيمه، ثم يُسَلِّموا لحكمه تسليماً بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأمانة و العدل من أسس الحكم الراشد في الإسلام، إذا قام بهما الحاكم دامت دولته، وجمع عليه قلوب رعيته.

٢- قيَّد الأمر بالعدل بحالة التصدِّي للحكم بين الناس، وأطلق الأمر برَدِّ الأمانات إلى أهلها عن التقييد؛ لأنَّ كل أَحَد لا يخلو من أن تقع بيده أمانةٌ لغيره، بخلاف العدل فإنَّما يؤمر به ولاة الحكم بين الناس، وليس كل أَحَد أهلاً لتولِّي ذلك.

٣- طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحقَّ.

٤- في الآيات دليل على أنَّ مقترف المعاصي يُنْصَح سراً، ويبالَغُ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

٥- مَنْ رَدَّ شيئاً من أوامر الله، أو أوامر الرسول ﷺ، فهو خارج عن الإسلام، سواء كان رَدُّه من جهة الشك، أو من جهة التمرد.

٦- في الآيات دليل على أنَّه لا رسول إلا ومعه شريعة؛ ليكونَ مُطاعاً في تلك الشريعة، ومتبوعاً فيها.

٧- عصمة الرسل فيما يُبَلِّغونه عن الله، وفيما يأمرون به، ويَنْهَون عنه؛ لأنَّ الله أمر بطاعتهم مطلقاً.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ
أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾
وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ
النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ
اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير :

٦٦-٦٨- ثم وَبَّخ سبحانه المنافقين توبيخاً عظيماً على عصيانهم، فقد ذكر أنَّه لو فرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم بأيديهم، أو بقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم، كما فرض ذلك على بني إسرائيل حين استُتيبوا من عبادة العجل، لم يُطِعْ منهم إلا القليل. ولو أنَّهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما يُنهَون عنه، لَكان خَيْراً لهم من مخالفة الأمر وارتكاب النهي وأشد تصديقاً، ولَرزقناهم من فضلنا الجنة، ولأرشدناهم إلى دين الإسلام حقاً.

٦٩-٧٠- ومَنْ عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإنَّ الله ﷻ يُسْكِنُه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء الذين فضَّلهم الله بوحيه، واختصَّهم بدعوة خلقه، ثم الصِّديقين الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصَدَّقوه بيقينهم، والشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا، وعموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. وإنَّما

استحقوا هذه المنازل بفضل الله، فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ومع استوائهم معهم في الجنة فهم متباينون في المنازل. والتذييل بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ للإشارة إلى أن الذين تَلَبَّسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم الناس، فإنَّ الله يعلمهم والجزاء بيده، فهو يُوَفِّيهم الجزاء على قَدْرِ ما عَلِمَ منهم.

الفوائد والاستنباطات :

١ - في الآيات دليل على صعوبة الخروج من الديار؛ إذ قرنه الله تعالى بقَتْلِ الأنفس.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾ في نسبة إصابة الفضل إلى جانب الله تعالى دون إصابة المصيبة، تعليم لحسن الأدب مع الله تعالى.

٣ - بيان فضل طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

٤ - جواز عطف الرسول على الربِّ تعالى بالواو في الطاعة.

٥ - في الآية (٦٩) الترتيب من الأعلى إلى الأدنى، فالنبي أفضل من الصدِّيق، والصدِّيق أفضل من الشهيد، وهكذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

التفسير:

٧١ - لما رغَّب الله المؤمنين في طاعته وطاعة رسوله، رَغَّبهم في أعظم الطاعات التي يحصل بها تقوية الدين وهو الجهاد، فأمرهم باليقظة والاحتراز من العدو، وأَخْذِ التأهب والاستعداد لملاقاته بجميع الأسباب، التي بها يُستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، وعدم تمكينه من أنفسهم، والخروج لجهاد عدوهم في جماعات متفرقة سَرِيَّةً بعد سَرِيَّةٍ إلى جهات شتى، أو مجتمعين كوكبة واحدة، ولا يتخاذلون، فيُلْقُوا بأنفسهم إلى التهلكة.

٧٢ - ٧٣ - ثم أخبر عن ضرورة أَخْذِ الحَذَرِ من المعوِّقين المبطِّئين المخذِّلين المندسِّين في الصف، الذين يتثاقلون عن الجهاد ويُثَقِّلون غيرهم، فإن أصاب المؤمنين قتلٌ وهزيمة فرحوا بقعودهم، حامدين الله على نجاتهم ممَّا أصاب المؤمنين من البلاء والشدة والشهادة، ولئن أصاب المؤمنين فتح وغنيمة تمنَّوا أن يكونوا معهم، فتتحقق لهم المغانم. ليس لهم رغبة ولا قصد غير ذلك، كأنَّهم ليسوا منكم يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينهم مودة الإيمان.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب النفير إذا دعا الإمام لمواجهة العدو.

٢- ذم التباطؤ من مواجهة العدو.

٣- مقتضى مودة الإيمان أنَّ المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودَفْعِ مَضارِّهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين ويألمون بفقدها.

٤- أَخْذُ الحَذَرِ بالتحرُّز من العدو، وإعداد الأسلحة اللازمة لمواجهته هو من التوكل على الله.

٥- وجوب النهوض لقتال العدو، إذا دعا الإمام الناس إلى النفير لقتال العدو، على وَفْقِ ما يرى القائد الحربي من مصلحة، معتمداً على استطلاع أحوال العدو واستعداداته، واحتمالات تطور المعركة.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ
ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ
وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا
تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧٤- لما ذَمَّ المبطِّئين في الجهاد عاد إلى الترغيب فيه، فقال: فلْيقاتل في سبيل الله مَن أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويبذلها، ويجعل الآخرة ثمناً لها وعوضاً منها، لأنّه يكون قد أعزَّ دين الله وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى. ومَن يقاتل في سبيله فيظفر به عدوه، أو يظفر هو بعدوه، فإنَّ الله سيؤتيه أجراً عظيماً من عنده خالداً أبداً في دار كرامته.

٧٥-٧٦- ثم حَثَّ الله المؤمنين على استنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين ليس لهم القوة والمنعة، من الظلم الذي نالهم من أعدائهم، إذ كانوا يُعَذِّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، فيلجؤون إلى الدعاء والاستنصار بالله تعالى أن يجعل لهم ولياً ونصيراً. فاستجاب الله دعوتهم، فجعل لهم من لدنه خيرَ وليٍّ وناصر، وهو محمد ﷺ، فتولَّاهم أحسنَ التولِّي، ونَصَرَهم أقوى النصر.

ثم بَيَّنَ سبحانه أقسام المقاتلين فقال: إنَّ المؤمنين يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق، والكافرين يقاتلون اتباعاً لوسوسة الشيطان وتزييناً للكفر، ثم حَثَّهم مرةً أخرى على القتال، وبَيَّنَ لهم ضَعْفَ عدوِّهم، فقال: فقاتلوا أولياء الشيطان؛ فإنَّكم تغلبونهم لقوتكم بالله، وكيد الشيطان ضعيف، فلا يُقاوِمُ نَصْرَ الله وتأييده، وشتان بين عزمٍ يرجع إلى إيمان بالله، وما وعد به على الجهاد، وعزمٍ يرجع إلى غرور وأمانيَّ كاذبة.

٧٧- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَأَصْحَاباً لَهُ، أَتَوا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ: إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلاَ تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ فَلَمَّا حَوَّلَهُ اللهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ ﴾.

(سنن النسائي، باب وجوب الجهاد، برقم ٣٠٨٦، قال الألباني: صحيح الإسناد).

التفسير:

يعتب الله على بعض الصحابة موقفهم من الجهاد في سبيله، مخاطباً رسوله ﷺ من ذلك بأسلوب التعجب: ألم تعلم خبر الذين طلبوا القتال وهم في (مكة) فقيل لهم: أمْسِكوا عنه فلم يَحِنْ وقتُه، وأعِدُّوا أنفسكم بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين، فلمَّا فُرِضَ عليهم قتال المشركين، إذا طائفة منهم يبالغون في الخوف من المشركين، كخوفهم من الله أو أشد، وأفصحوا عمَّا في نفوسهم من الخوف فقالوا: ياربنا لِمَ فرضت علينا القتال؟ هَلَّا أمهَلْتنا عن الأمر بالقتال إلى وقت قريب؛ لنأخذ راحة ممَّا كنَّا فيه من الجهد والمشقة مع كفَّار مكة؟ أجبهم يا محمَّد: ما تنشدونه هو متاع الدنيا، وهو قليل زائل، وثواب الآخرة خير عظيم لِـمَنْ خاف الله بطاعته، ولا تُنْقَصون من أعمالكم أيَّ شيء مهما كان قليلاً.

٧٨- يُوَضِّح الله تعالى لهم منهج الإيمان بالقدر: في أيِّ مكان عِشْتُمْ فإنَّ الموت ملاقيكم، ولو كنتم في قصور محصَّنة، وإن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى، وإن نزلت بهم مصيبة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، أجِبْهم بأنَّ كل ذلك ابتلاء من الله بالخير والشر، فما شأن هؤلاء لا يكادون يفقهون أي حديث؟

الفوائد والاستنباطات:

١- ينبغي للمقاتل في سبيل الله أن يُوَطِّن نفسه على أحد الأمرين: إما أن يقتله العدو، ويكرم نفسه بالشهادة، وإما أن يَظْفَرَ به فيعزَّ كلمة الحق والدين.

٢- ذكر اللهُ الوِلْدان مبالغة في شرح ظلم الظالمين، فقد بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأُمهاتهم، ومبغضة لهم بمكانهم، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما وردت السُّنة بإخراجهم في الاستسقاء.

٣- ينبغي للمجاهد في سبيل الله أن يَتَحَلَّى بأعلى مراتب الصبر والجَلَد، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحقِّ أولى بذلك.

٤- أكَّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ و﴿كَانَ﴾ الدالة على تقرر وصف الضعف لكيد الشيطان، مع اسمية الجملة؛ لتقرير هذا المعنى في النفوس، ممَّا يزيد المؤمنين قوةً وثباتاً في مواجهة أولياء الشيطان.

٥- سلك القرآن في الحثِّ على الجهاد في سبيل الله مسالك متنوعة منها: الترغيب في فضله وثوابه، والترهيب من عقوبة تركه، والإخبار أنَّه لا ينفع القاعدين قعودُهم.

٦- في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأنَّهم جمعوا إلى الإخلال بتعظيمهم لله تعالى، الإخلال بالأدب مع الرسول ﷺ الذي أرسله ليُطاع بإذن الله.

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾
مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ
فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا
كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٩- ما أصابك من حسنةٍ فمِنْ فَضْلِ الله ورحمته ولطفه وتوفيقه، حتى تسلك سبيل النجاة والخير، وما أصابك من سيئةٍ فمن قِبَلِك ومن عملك أنت؛ لأنَّك لم تسلك سبيل العقل والحكمة والاسترشاد بقواعد الهداية الإلهية. وبعثناك يا محمد رسولَ رحمة للعالمين، وحسبك أن يكون الله شهيداً على صدقك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تُبَلِّغهم إياه، وبما يَرُدُّون عليك من الحق كفراً وعناداً.

٨٠- ثم قال مُرَغِّباً مُرَهِّباً ليُسكن قلبه ﷺ، ويخفف من دوام عصيانهم له، دالّاً على عصمته في جميع حركاته وسكناته: مَنْ يُطِعِ الرسول لكونه رسولاً مبلِّغاً إلى الخلق أحكام الله فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله، وذلك لا يكون إلا بتوفيق الله، ومَنْ تَوَلَّى فما أرسلناك عليهم لتحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلِّغاً ومبيِّناً وناصحاً.

٨١- فهؤلاء المنافقون يُظْهِرون لك الطاعة إذا كانوا عندك، فإذا خرجوا وخَلَوا إلى حالة لا يُطَّلع فيها عليهم، بَيَّتوا ودَبَّروا مَكْرَ طواغيتهم، واللهُ يحفظُ عليهم ما يُدَبِّرون، وسيجازيهم عليه أتمَّ الجزاء. ثم وجَّه سبحانه الخطاب لرسوله ﷺ، فقال: لا تُحَدِّث نفسك بالانتقام منهم، و لا تخبر بأسمائهم، ولا تَخَفْ منهم، وتَوَكَّلْ في شأنهم وغيره على الذي لا يخرج شيء عن مراده، المحيط علماً وقدرة. وكفى به وليّاً وناصراً ومُعيناً لِـمَنْ تَوَكَّل عليه، وأناب إليه.

٨٢- يقول تعالى آمراً عباده بتدبُّر القرآن: أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي، فلا يعرضون عنه؟ ففي تَدَبُّره يظهر برهانه، ويَسْطع نوره، فكل مَنْ نظر في معانيه وجد فيه التناسق والصدق والكمال، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لَوَجَدوا فيه الاختلاف والكذب والقصور.

٨٣- قال تعالى منكراً على مَنْ يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويُفْشيها وينشرها: إنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة يتعلق بالأمن وسرورللمؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يَرُدُّونه إلى الرسول وإلى أهلِ الرأي والعلم ورجاحة العقل، الذين يبصرون الأمور، ويُدْرِكُون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرُّزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك. وإن رأوا أنَّه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مَضَرَّته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه. ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته بالرسول ووُرَّاثِ علمه لاسْتُبيحت بإشاعاتهم هذه بيضةُ الدين، واضمحَلَّت أمور المسلمين؛ ولاتَّبعتم الشيطان إلا قليلاً منكم، فإنَّهم لا يَتَّبِعونه حِفْظاً من الله ﷻ بما وَهَبَهم من الثبات على الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تَدَبُّر القرآن؛ لأنَّه مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، ويزداد الإيمان في القلب وترسخُ شجرتُه، وكلما ازداد العبد تأمُّلاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة.

٢- الدعوة إلى النظر والاستدلال.

٣- وجوب تَعَلُّم معاني القرآن.

٤- ينبغي أن يُولَّى في التباحث في الأحداث العظام والنوازل الجسام، مَنْ هو أهلٌ لها، فإنَّه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

٥- وجوب التثبت من الأخبار قبل روايتها وحكايتها، وضرورة الرقابة العامة على الأخبار المعلنة، حفاظاً على أسرار الأمة ووحدتها، والعمل على إبقائها قوية متماسكة متعاضدة، لا تتأثر بالدعايات الكاذبة والإشاعات المغرضة.

٦- دَلَّ قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الاستنباط واجب على العلماء.

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ
شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ
أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ
وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير :

٨٤ - ولما بَيّنَ ﷻ نفاقهم المقتضي لتقاعدهم عن الجهاد بأنفسهم، وتثبيطهم لغيرهم، كان ذلك سبباً لأن يمضي الرسول ﷺ لأمره ﷻ من غير التفات إليهم وافقوا أو نافقوا، فقال ﷻ: فقاتِلْ يا محمد في سبيل الله الذين يقاتلونك ولو أفردوك وتركوك وحدك، لطالما أردتَ الظفر على الأعداء، لا تُكَلَّفُ غير نفسك وحدها أن تُقَدِّمَها إلى الجهاد، فإنَّ الله ناصرك، فإن شاء نصرك وحدك، كما ينصرُك وحولك الألوف، وما عليك إلا التحريض على القتال. عسى الله أن يَرُدَّ بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً، شدةَ الذين كفروا وقوتهم. والله أشدُّ قوة وعزة، وأشد تعذيباً ومعاقبة، وهو قادر عليهم في الدنيا والآخرة؛ لكفرهم وجرأتهم على الحق.

٨٥- مَنْ يَسْعَ في أمر، فيترتب عليه خير، كان له نصيب منه بانتصار الحق على الباطل، وما يتبعه من شرف وغنيمة في الدنيا، وبما يحظى به من الثواب في الآخرة. ومَن يَسْعَ في سيئة يكن عليه وِزْرٌ ممَّا ترتَّب على سعيه ونيته. والله تعالى مطلع عالم بأغراض الشفعاء، مُجازٍ كلَّ واحد بحسب مقصده، وبما يستحق.

٨٦- ثم عَلَّمَ الله المؤمنين التحية وآدابها، وهي كالشفاعة الحسنة من أسباب التواصل والتقارب بين الناس، فقال: فإذا سَلَّم عليكم المسلم، فالواجب الردُّ عليه بأفضلَ ممَّا سَلَّم، أو الردُّ عليه بمثل ما سَلَّم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. والله يحفظ على العباد أعمالهم، حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بها اقتضاه فَضْلُه وعَدْلُه وحكمه المحمود.

٨٧- لما ذكر أنَّ الله كان على كل شيء حسيباً، تلاه بالإعلام عن محلِّ الحساب وهو يوم القيامة، فقال: الله لا إله إلا هو، فلا تُقَصِّروا في عبادته، والخضوع لأمره ونهيه، فإنَّ في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم، وهو سبحانه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة، وهو يوم لا ريب فيه، ولا فيما يكون فيه من الجزاء على الأعمال. ولا أحدَ أصدقُ منه كلاماً ﷻ، إذ كلامُه تعالى عن علمٍ محيطٍ بسائر الكائنات، فلا يمكن أن يكون خبرُه غيرَ صادق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحريض على القتال في سبيل الله من قبيل الشفاعة الحسنة، وتثبيط الناس عن الجهاد من قبيل الشفاعة السيئة.

٢ - الترغيب في التحية والسلام على مَنْ عَرَفْتَ، ومَنْ لم تَعْرِفْ .

٣ - ذكر آية السلام بعد آية الجهاد إشارة إلى أن مَنْ بذل السلام وَجَبَ الكفُّ عنه، ولو كان في الحرب.

٤ - التوحيد والعدل متلازمان فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إشارة إلى العدل.

٥ - الشفاعة الحسنة تكون فيما استحسنه الشرع، والشفاعة السيئة تكون فيما كرهه، أو حرَّمه.

٦ - القرآن كلام الله؛ لأنَّه وحي منه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أمَّا كلام غير الله وغير النبي ﷺ فمحتمل للصدق والكذب عمداً أو سهواً أو جهلاً.

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن
يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن
يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا
إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا
قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ
فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ
أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ
وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾

٨٨- سبب النزول:

عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قال: لَـمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إلى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نَقْتُلُهُمْ فَنَزَلَتْ: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الحَدِيدِ. (صحيح البخاري، بَاب المَدِينَةُ تَنْفِي الخَبَثَ، برقم ١٨٨٤).

التفسير:

قال تعالى مُبَكِّتاً لِـمَنْ توقف عن الجزم بتكفير المنافقين، والتردُّد في أمرهم، وتقسيمهم فئتين، مع أنَّ دلائل كفرهم ظاهرة جلية: ما لكم أيها المؤمنون، قد صِرْتم في المنافقين فئتين، واختلفتم في كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه؟ فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم، بل عليكم أن تقطعوا بثبوته، والله قد صرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك، واجترحوا من المعاصي، فليس في استطاعتكم أن تُبَدِّلوا سُنَنَ الله في نفوس الناس، فتريدوا أن تَحْصُلوا على مقاصدَ وغايات خلاف ما انطبع فيها من الأخلاق

والصفات، بتأثير ما كسبته طوال عمرها من الأعمال، ومَنْ تَقْضِ سُنَنُه في خَلْقِه أن يكون ضالّاً عن طريق الحقِّ فلن تجد له سبيلاً يصل بسلوكها إليه، فإنَّ للحق سبيلاً واحدة هي صراط الفطرة المستقيم.

٨٩- ولما أخبر بضلالهم وثباتهم عليه، أخبر بما يجول في صدورهم من أمانيَّ فقال: إنَّ هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغَواية، بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم، وتحذوا حَذْوَهم حتى يُقضى على الإسلام الذي أنتم عليه، فأنتم ترجون هدايتهم، وهم يَوَدُّون كفركم وضلالكم، ثم أمرهم بالبراءة منهم فقال: فلا تتخذوا منهم أنصاراً يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا، ويشاركوكم في سائر شؤونكم. فإن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله، ولزموا مواضعهم في خارج المدينة، فخذوهم إذا قدرتم عليهم، واقتلوهم أينما وجدتموهم في الحِلِّ أو في الحرم، ولا تتخذوا منهم ولياً يتولّى شيئاً من مهامِّ أموركم، ولا نصيراً ينصركم على أعدائكم.

٩٠- ثم استثنى من المنافقين مَنْ تُؤْمَنُ غائلتهم، فقال: إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون في عهدهم، ويرضون بحكمهم فيمتنع قتالهم مثلهم، أو جاؤوكم قد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم، فلا تنشرح لأحد الأمرين. إنَّ الله تعالى رحمكم بأن كفَّ بأس هاتين الفئتين وصرفهم عن قتالكم، وقذف الرعب في قلوبهم، ولو شاء لَسَلَّطهم عليكم بأن يلهمهم من الآراء، ويسوق إليهم من الأخبار ما به يرجِّحون ذلك فيقاتلوكم، فإن اعتزلتكم إحدى هاتين الفئتين ولم تقاتلكم، بل ألقت إليكم السَّلَم، وأعطتكم زمام أمرها، فما جعل الله لكم من سبيل تسلكونها للاعتداء عليها.

٩١- ثم بَيَّنَ سبحانه حال جماعة منهم ، وبالغ في ذَمِّهم فقال: هؤلاء فريق مِمَّنْ لم يهتدوا بالإسلام، ولم يتصدوا لمجالدة أهله وقتالهم، فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين، فهم قد غَلَبَتْ عليهم أرواحهم، ورَخُصَتْ عليهم عقولهم، يظهرون لكل من الفئتين أنَّهم منهم أو معهم، كلما دَعَوا إلى الشرك، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين، إما بإظهار الإسلام، وإما بالعهد على السلم وترك القتال، ثم يفتنهم المشركون، فيحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين، فيرتكسون ويتحوَّلون شر التحول معهم، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة، فهم قد شَبُّوا على النفاق، فإن لم يتركوكم وشأنكم، ويلتزموا الحياد، ويُلْقُوا إليكم زمام المسالمة على الطريق التي ترونها نافعة لكم، ويَكُفُّوا أيديهم عن القتال مع المشركين أو عن الدسائس، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، فلا علاج لهم غير ذلك، كما ثبت بالتجربة والاختبار، وأولئكم جعلنا لكم عليهم حجة واضحة، وبرهاناً ظاهراً على قتالهم.

٩٢- وبعد أن بَيَّنَ سبحانه أحكام قتال المنافقين الذين يُظْهرون الإسلام خداعاً، ويُسِرُّون الكفر، ويساعدون أهله على قتال المؤمنين، والذين يُعاهِدُون المسلمين على السِّلْمِ، ويحالفونهم على الولاء والنصرة، ثم يَغْدِرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم، ذَكَرَ هنا قَتْلَ مَنْ لا يَحِلُّ قَتْلُه من المؤمنين، فقال: ليس من شأن المؤمن ولا من خُلُقه أن يقتل أحداً من المؤمنين؛ إذ الإيمان يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمداً، لكنه قد يفعل ذلك بدون قصد، فإذا وقع منه ذلك فكفارته عِتْقُ رقبة من أهل الإيمان؛ لأنَّه لما أعدم نفساً مؤمنة كانت كفارته أن يُحَرِّر نفساً، وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول، إلا أن يعفوا عنها ويُسقطوها باختيارهم؛ لأنَّها إنَّما وجدت تطييباً لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل، وتعويضاً عمَّا يفوتهم من المنفعة بقتله، فإذا هم عَفَوا فقد طابت نفوسهم وانتفى المحذور، وكانوا هم ذوي الفضل على القاتل. فإن كان المقتول من أعدائكم، فالواجب على قاتله عِتْقُ رقبة من أهل الإيمان فقط، ولا تجب الدية لأهله لأنَّهم أعداء يحاربون المسلمين، فلا يُعْطَون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم. فمَنْ لم يجد رقبة يعتقها فعليه صيام شهرين متتابعين قمريين لا يفصل بين يومين منهما إفطار في النهار، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعي استأنفه، وكان ما صامه قبلُ كأن لم يكن، تَوْبَةً مِنَ اللهِ شرعها لكم؛ ليتوبَ عليكم ويُطَهِّرَ نفوسكم من التهاون، وقلة التحرِّي التي تُفْضي إلى القتل الخطأ. وكان الله عليماً بأحوال النفوس وما يُطَهِّرها، حكيماً فيما شرعه من الأحكام والآداب التي فيها هدايتكم وإرشادكم إلى سعادتكم في الدنيا والآخرة.

٩٣- ثم لما بَيَّنَ تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد فقال: ومَنْ يَعْتَدِ على مؤمن، فيقتله عن عمد بغير حق، فعاقِبَتُه جهنم، ماكثاً فيها على حسب جنايته، مع سخط الله تعالى عليه وطَرْدِه من رحمته، وتهيئة أشد العذاب له، ولكن الله يتفضَّل على أهل الإيمان بعدم الخلود في النار.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ القَتْلَ بغير حقٍّ من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

٢- عبَّر في جانب محاولة المؤمنين بالإرادة في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وفي جانب محاولة المنافقين بالود ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ لأنَّ الإرادة ينشأ عنها الفعل، فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان من المنافقين، لأنَّ الإيمان قريب من فطرة الناس، والمنافقون يعلمون أنَّ المؤمنين لا يَرْتَدُّون عن دينهم، ويرون منهم محبتهم إياه، فلم يكن طَلَبُهم تكفيرَ المؤمنين إلا تمنِّياً، فعبر عنه بالود المجرد.

٣- مَنْ صدر منه شيء يحتمل الكفر لا يؤاخذ به حتى يتقدم له، ويعرف بما صدر منه، ويعذر إليه، فإن التزمه يؤاخذ به، ثم يستتاب.

٤- هَوَّل الله تعالى أَمْرَ قَتْلِ المسلم أخاه المسلم، وجَعَلَه في حيِّزِ ما لا يكون، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فجاء بصيغة المبالغة في النفي، وهي صيغة الجحود.

٥- من أسرار الشريعة الإسلامية حِرْصُها على تعميم الحرية في الإسلام بطريقة منتظمة، منها كفارة القتل؛ وقد نَبَّهَتْ الشريعة لهذا على أنَّ الحرية حياة، وأنَّ العبودية موت، فمَنْ تَسَبَّبَ في موت نفسٍ حيَّة كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة.

٦- تحريم قتالِ المُنْضَمِّين إلى المعاهدين الذين تعاهدوا مع المسلمين وقَتْلِهم، وكذا المحايدون الذين وقفوا على الحياد، فلم يقاتلوا المسلمين، ولم يقاتلوا قومهم.

٧- دَلَّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ على مشروعية الموادعة (الهدنة) بين أهل الحرب وأهل الإسلام، إذا كان في الموادعة مصلحة للمسلمين.

٨- دَلَّ قوله تعالى : ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ على جواز العفو عن الدِّية والتصدُّق.

٩- أجمع العلماء على أنَّ دية المرأة على النصف من دية الرجل؛ لأنَّ لها نصف الميراث، وشهادتها نصف شهادة الرجل. (التفسير المنير للزحيلي : ٥/ ٢١٠).

١٠- صيام شهرين متتابعين لِمَنْ لم يجد الرَّقبة ولم يتَّسع ماله لشرائها، فلو أفطر يوماً بلا عذر استأنف. وهذا قول الجمهور. فإن وُجِد عُذْرٌ كالحيض، أو مرض، لم يستأنف.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ
لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم
مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي
ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ
بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا
﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ
فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ
وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا
﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾

٩٤- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: لَقِيَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلاً فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَأَخَذُوهُ فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾.

(صحيح مسلم، كتاب التفسير، برقم ٢٧٦٦).

التفسير:

ولا تقولوا لِـمَنْ انقاد لكم، واستسلم ولم يقاتلكم، وأظهر أنه من أهل مِلَّتِكم: إنك لست بمؤمن حقاً، فتقتلونه ابتغاء متاع الدنيا، وحطامها الزائلِ، السريعِ التحولِ والانتقال، فعند الله أرزاق كثيرة ونِعَمٌ لا تحصى ولا تُعَدُّ، يُغَنِّمكموها فيغنيكم إذا شاء، فإنَّكم أولَ ما دخلتم في الإسلام حُقِنَتْ دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة من غير انتظار لمعرفة أنَّ ما في القلب موافق لما في اللسان، ومَنَّ الله عليكم بذلك، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين في الإسلام كما عمل معكم، وأن تعتبروا بظاهر القول، ولا تقولوا إن إقدامهم على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف، فكونوا على بَيِّنة من الأمر الذي تقدمون عليه، ولا تأخذوا بالظن. إنَّ الله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء من البواعث التي حَفَزَتْكم على الفعل.

٩٥-٩٦- يخبر الله تعالى عن عدم التساوي بين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين - غير أصحاب الأعذار، كالمريض والأعمى والعجوز - والمقاتلون في سبيل الله بالأموال والأنفس، فَضَّل الله المجاهدين على القاعدين درجة عالية في الجنَّة، وكُلّاً من الفريقين: المجاهدين والقاعدين وعده الله الجنَّة،

وفَضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين لما بذلوا من التضحية بالنفس والمال ثواباً جزيلاً. وهذا الثواب منازل عالية في الجنَّة من فضل الله، وتكفير لذنوبهم، ورحمة واسعة ينعمون فيها. وكان الله غفوراً لِمَنْ تاب، رحيماً بعباده.

٩٧- ٩٩- سبب النزول:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَاساً مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾. (صحيح البخاري، كتاب الوحي، برقم ٤٥٦٩).

التفسير:

ولما ذكر ثواب مَنْ أقدم على الجهاد، أتبعه بعقاب مَنْ قعد عن الجهاد، فذكر الذين تقبض أرواحَهم الملائكةُ حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمي أنفسهم؛ برضاهم بالإقامة في دار الذل والظلم، حيث لا حرية لهم في أعمالهم الدينية، ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده، تقول لهم الملائكة بعد تَوَفِّيها لهم: في أيِّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ أي: إنهم لم يكونوا في شيء منه، إذ هم قدروا على الهجرة، ولم يهاجروا. قالوا: إننا لم نستطع أن نكون في شيء يُعْتَدُّ به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا، فعَجَزْنا عن القيام بواجبات الدين، وهذه حجة لم تتقبَّلْها الملائكة، ومن ثَم رَدُّوا عليهم المعذرة، فقالوا لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ فترحلوا إلى قطر آخر من الأرض، تقدرون فيه على إقامة الدين، وتحرروا أنفسكم من رقِّ الذل الذي لا يليق بالمؤمن، ولا هو من خصاله. إنَّ أولئك الذين فَصَّلْتُ حالهم نسكنهم في الآخرة جهنم؛ لتركهم ما كان مفروضاً عليهم، وقَبُحَتْ جهنم مصيراً لهم؛ لأنَّ كلَّ ما فيها يسوءُهم.

إنَّ أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم، وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله، غيرُ صادقين في اعتذارهم. أما الاستضعاف الحقيقي فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة، والنساء، والولدان، فإنَّهم قد ضاقت بهم الحِيَلُ، فلم يستطيعوا ركوب واحدة منها، وعُمِّيت عليهم الطرق، فلم يسلكوا طريقاً منها: إمَّا للعجز كمرض وزَمانة، وإمَّا للفقر، وإمَّا للجهل. والمراد بالوِلْدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ، وعقلوا ما يعقل الرجال والنساء، فيلحقون بهم في التكليف بوجوب الهجرة معهم، أو أنَّ تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر.

إنَّ أولئك المستضعفين الذين لم يُهاجروا للعجز وتَقَطُّعِ الأسباب، يُرْجَى أن يعفو الله عنهم، ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر. وكان شأن الله تعالى العفوَ عن الذنوب التي لها أعذار صحيحة، فيتجاوز عنها، ويغفرها بسَتْرِها، ولا يَفْضَحُ صاحبها في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أعاد كلمة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مرة أخرى؛ لتأكيد التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه.

٢ - في الآيات تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيرَه أحوالاً كان هو عليها تُساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذة المعلم التلميذ بسوء إذا لم يُقَصِّرْ في إعمال جهده. وكذلك هي عظة لِـمَنْ يمتحنون طلبة العلم، فيعتادون التشديد عليهم، وتَطَلُّبَ عثراتهم، وكذلك ولاة الأمور وكبار الموظفين في معاملتهم صغار الموظفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم.

٣ - دَلَّت الآيات على حكمة عظيمة في حِفْظِ الأُمة، وهي بَثُّ الثقة والأمان بين أفرادها، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنَّه إذا فُتح هذا الباب عَسُرَ سَدُّه.

٤ - النكوص عن الجهاد لا يكون مذمَّة وبخلاً إلا مع القدرة، أما مع العجز والضرر كالعمى والزَّمانة والمرض فلا تَبِعَةَ فيه حينئذ.

٥ - مَنْ تُوُفِّي فقد استكمل، واستوفى ما قُدِّر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك؛ لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفِّياً.

٦ - في الآيات دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكَّن فيه من إقامة دينه، أو عَلِمَ أنه في غير بلده أقوم بحقِّ الله وأدوم على العبادة، وجبت عليه الهجرة.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ
فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ
وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾
وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

١٠٠ - يُرَغِّب الله سبحانه في أمر الهجرة ويُنَشِّط المستضعفين، ويُبَيِّن أن مَنْ يهاجر لقصد رضا الله وإقامة دينه، يجد في الأرض سبيلاً يُرغم به أنوف أعدائه، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل، ثم نَوَّه الله بشأن الهجرة بأن جعل ثوابها حاصلاً بمجرد الخروج من بلد الكفر، ولو لم يبلغ المهاجر إلى البلد المهاجَر إليه، فبَيَّن أنَّه مَنْ يخرج من بيته قاصداً ربه ورضاه، ومحبةً لرسوله، ونصراً لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد، ثم يدركه الموت بقتل أو غيره، فقد حَصَلَ له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالى. ثم ختم الآية بالمغفرة والرحمة، أي: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، ولاسيما التائبين المنيبين إلى ربهم، ويرحم جميع الخلق في الدنيا.

١٠١ - ولما تحدَّث عن الجهاد، ذكر هنا أحكام مَنْ سافر للجهاد أو هاجر في سبيل الله، إذا أراد الصلاة وخاف أن يُفْتَنَ عنها، فإذا سافرتم أيَّ سفر فليس عليكم حرج ولا إثم أن تقصروا من الصلاة، بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما. وإذا كنت - أيها الرسول - في جماعتك من المؤمنين، وأردت أن تقيمَ بهم الصلاة، فلتَقُمْ طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدوّ يحرسون المصلِّين خوفاً من الاعتداء، وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم، ولا

يَدَعُوها وقت الصلاة، فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم، إذ أحوج ما يكون المصلّي للحراسة حين السجود؛ لأنّه لا يرى مَنْ يَهُمُّ به، ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلُّوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلُّوا كما صلت الطائفة الأولى، وليأخذوا حِذْرَهم وأسلحتهم في الصلاة كما فعل الذين من قبلهم. وتمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تنشغلون بالصلاة عن أسلحتكم وأمتعتكم، فيميلون حينئذ عليكم، ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة، واضعون السلاحَ، تاركون حماية المتاع والزاد، فيصيبون منكم غِرَّة، فيقتلون مَنْ استطاعوا قتله، وينتهبون ما استطاعوا نَهْبَه، فلا تغفلوا عنهم. ولا إثم عليكم في وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه، فيشقُّ عليكم حَمْلُ السلاح مع ثِقَلِه في ثيابكم، أو إذا كنتم مرضى بالجراح، أو غير الجراح من العلل، ولكن يجب عليكم في جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم، ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم، فإنَّ عدوَّكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم، والله قد هداكم للأخذ بأسباب النصر، وذلك بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة؛ رجاءَ ما عند الله من المثوبة والأجر.

١٠٣ - فإذا أدَّيتم الصلاةَ على هذه الصورة، فاذكروا الله تعالى في أنفسكم، بتذكُّر وعده بنصر مَنْ ينصرونه في الدنيا ونيل الثواب في الآخرة، وبألسنتكم بالحمد والتكبير والدعاء، وعلى كل حال تكونون عليها من قيام في المسابقة والمقارعة، وقعود للرمي أو المصارعة، واضطجاع من الجراح أو المخادعة، فذِكْرُ الله ممَّا يقوِّي القلوبَ، ويُعْلِي الهِمم، ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر، فإذا سكنت قلوبكم من الخوف، وأَمِنْتُم بعد أن تضع الحرب أوزارها، فأدُّوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها، ولا تُقَصِّروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف. إنَّ الصلاة كانت في حكم الله فرضاً مؤكداً في أوقات محدودة لابُدَّ من أدائها فيها بقدر الإمكان، فأداؤها في أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها؛ لتؤدَّى تامة كاملة.

١٠٤ - ولا تضعفوا في طلب القوم الذين ناصبوكم العداوة، بل عليكم أن تستعدُّوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة مع أَخْذِ الحذر، وحَمْلِ السلاح عند أدائها، فإنَّ ما ينالكم من الآلام ينالهم منه مثلُه، فهم بشر مثلكم، وهم مع هذا يصبرون، فما لكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر؟ فإنَّكم تَرْجُون من الله ظهور دينكم الحقّ على سائر الأديان الباطلة، ومن الثواب الجزيل والنعيم المقيم في الآخرة. وهذا ما ثَبَتَ في واسع علم الله، ومَضَتْ به سُنَنُه أنَّ العاقبة للمتقين، والنصرة لهم على الكافرين، ما داموا عاملين بهديه، سائرين على طريقه ونهجه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لما كان القَصْرُ خاصاً ببعض الصلوات، أتى بمدعاة ذلك لإفادة أنَّه في المقدار لا في الطريقة، فقال: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: فاقصُروا إن أردتم، وأتمُّوا إن أردتم.

٢ - في الآيات مشروعية قصر الصلاة الرباعية في السفر.

٣- حكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أنَّ العدوَّ قلَّما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها، فهو إذا رآهم صَفًّا ظنَّ أنَّهم قد اصطفُّوا للقتال، واستعدُّوا للحرب والنزال، فإذا رآهم سجدوا عَلِمَ أنَّهم في صلاة، فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها في الصلاة، كما أنَّه يتربَّص بهم عند كل غفلة.

٤ - إذا أَمَرَنا اللهُ بالذِّكْر على كل حال نكون عليها في الحرب، فأَجْدَرُ بنا أن نحرص عليه في حال السلم.

٥ - الحكمة في توقيت الصلاة في الأوقات المعلومة: أنَّ الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجَمُّ الغفير من الناس.

٦ - في الآيات تعليم للمسلمين أن يطلبوا المسببات من أسبابها، فإذا أخذوا حِذْرَهم أمِنُوا من عَدُوِّهم.

٧- في الآيات إيجاز بديع، فإنَّه لما قال: فلتقم طائفة منهم معك، عُلِمَ أنَّ ثمة طائفة أخرى، فالضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ للطائفة بحسب أفرادها، وكذلك ضمير قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ للطائفة التي مع النبي ﷺ، لأنَّ المعية معية الصلاة، وقد قال: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾. وضمير قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ للطائفة الأخرى المفهومة من المقابلة، لظهورِ أنَّ الجوابَ وهو ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ متعيَّنٌ لِفِعْلِ الطائفة المواجهة العدو.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

١٠٥-١٠٦ - سبب النزول :

عن قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ ﷺ قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو أُبَيْرِقٍ بِشْرٌ وَبَشِيرٌ وَمُبَشِّرٌ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً مُنَافِقًا يَقُولُ الشِّعْرَ، يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَلِكَ الشِّعْرَ قَالُوا: وَاللهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلاَّ هَذَا الخَبِيثُ، أَوْ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ، وَقَالُوا ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا. قَالَ: وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلاَمِ، وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرَ وَالشَّعِيرَ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَكِ ابْتَاعَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَخَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ، فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلاً مِنَ الدَّرْمَكِ، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ لَهُ، وَفِي الْمَشْرَبَةِ سِلاَحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ فَنُقِبَتِ الْمَشْرَبَةُ وَأُخِذَ الطَّعَامُ وَالسِّلاَحُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا فَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلاَحِنَا. قَالَ: فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ وَسَأَلْنَا فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلاَ نُرَى فِيمَا نُرَى إِلاَّ عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ. قَالَ وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ، وَاللهِ مَا نُرَى صَاحِبَكُمْ إِلاَّ لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلاَحٌ وَإِسْلاَمٌ فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ، وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ فَوَاللهِ لَيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ. قَالُوا: إِلَيْكَ عَنْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا. فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا ابْنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ. قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ جَفَاءٍ عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ، وَأَخَذُوا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلاَحَنَا فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلاَ حَاجَةَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَآمُرُ فِي ذَلِكَ». فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: أَسِيرُ بْنُ عُرْوَةَ فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلاَمٍ وَصَلاَحٍ يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلاَ ثَبْتٍ. قَالَ قَتَادَةُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ فَقَالَ: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ

وَصَلاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ». قَالَ: فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا بْنَ أَخِي مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ بَنِي أُبَيْرِقٍ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أَيْ: لَوِ اسْتَغْفَرُوا اللهَ لَغَفَرَ لَهُمْ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قَوْلَهُمْ لِلَبِيدٍ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسِّلاحِ، فَرَدَّهُ إِلَى رِفَاعَةَ، فَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسِّلاَحِ وَكَانَ شَيْخاً قَدْ عَمِي أَوْ عَشِيَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أُرَى إِسْلامَهُ مَدْخُولاً فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلاحِ قَالَ: يَا بْنَ أَخِي هُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلامَهُ كَانَ صَحِيحاً فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بَشِيرٌ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سُمَيَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ، فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانَ مَا كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ. (سنن الترمذي، باب ومن سورة النساء برقم ٣٠٣٦، قال الشيخ الألباني: «حسن»). الضَّافِطُ والضَّفَّاط: الذي يَجْلبُ المِيرَة والمَتاعَ إلى المُدن. الدَّرْمَكُ: الدَّقيقُ الحوَّارَى.

التفسير:

إنَّا لما لنا من العظمة أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه، لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام، ولا تكن لِـمَنْ خان مدافعاً تدافع عنه مَنْ طالَبه بحقِّه الذي خان فيه، وَاسْتَغْفِرِ اللهَ ممَّا يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم بالميل إلى مَنْ تراه ألحنَ بحجته، أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسيناً للظن به. إنَّ الله يغفر الذنب العظيم لِـمَنْ استغفره، وتاب إليه وأناب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجِب لثوابه، وزوال عقابه.

١٠٧ - لا تدافع - أيها الرسول - عن هؤلاء الخونة، ولا تساعدهم عند التخاصُم. إنَّ الله يُبغض من اعتاد الخيانة، وألِفَتْ نفسُه اجتراح السيئات، واعتادت عليها.

١٠٨- ثم بَيَّنَ أحوال الخائنين، ونعى عليهم أفعالهم، فبَيَّنَ أنَّ من شأن هؤلاء الخَوَّانين أنَّهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام إما حياءً، وإما خوفاً مِنْ ضَرَرِهم، ولا يستترون من الله، ولا يَسْتَحْيُون منه بتركها لضعف إيمانهم، إذ الإيمان يمنعُ من الإصرار وتكرار الذنب، ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لا تدوم، فمَنْ يعلم أنَّ الله يراه في الظلمات لابُدَّ أن يترك الذنب والخيانة حياءً منه تعالى، وخوفاً من عقابه، وهو تعالى شاهدهم حين يُدَبِّرون ليلاً ما لا يرضى من القول، فيُبرِّئون أنفسهم، ويرمون غيرهم بجريمتهم. إنَّ الله حافظ لأعمالهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه.

١٠٩- ثم حَذَّر المؤمنين من مساعدة هؤلاء الخوَّانين: ها أنتم جادلتم عنهم، وحاولتم تبرئتهم في الحياة الدنيا، فمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة، يوم يكون الخصم والحَكَم هو الله تعالى المحيط بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة؟ أي: فلا يمكن أن يجادل هناك أحد عنهم، ولا أن يكون وكيلاً بالخصومة لهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ تشريف للرسول ﷺ، بإسناد الحكم إليه، ودلالة على أنَّه ﷺ ما كان يحكم إلا بالوحي والنص.

٢- الاعتقاد الشخصي والميل الفطري لا ينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء، بل على القاضي أن يساويَ بين المتخاصمين في كل شيء.

٣- قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ دليل على وجوب الاجتهاد في فهم الشريعة.

٤- تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

٥- التعبير بالجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ - مع أن الذي نزلت فيه الآية واحد - للتعميم وتهديد مَنْ أعانه من قومه، ويجوز أن يكونَ أشار بصيغة الافتعال إلى أنَّ الخيانة لا تقع إلا مكررة، فإنَّه يَعْزِمُ عليها أولاً ثم يفعلها.

٦- عاتب الله ﷻ خير الخلق عنده وأكرمهم لديه هذه المعاتبة، وما فعل إلا الحقَّ في الظاهر، فكيف بمَنْ يعلم الباطنَ ويُساعد أهلَ الباطل؟

٧- في الآيات إيماءٌ إلى أنَّ حكم الحاكم في الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن يأخذ به إذا عَلِمَ أنَّه حكم له بغير حقه.

٨- في الآيات جواز الدخول في نيابة الخصومة لِـمَنْ لم يُعْرَفْ منه ظلم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

التفسير :

١١٠ - يُرَغِّب الله تعالى في التوبة من الذنوب، ويحُثُّ عليها بأنَّ مَنْ يعمَلْ قبيحاً يسوء به غيره، أو يظلم نفسه بفعل معصية تختص به كالحلف الكاذب، يجد الله غفاراً لذنوبه، رحيماً متفضلاً عليه بالعفو والمغفرة.

١١١ - ثم حَذَّر من فِعْلِ الذنوب والآثام وذِكْرِ عظيم ضررها، فمَنْ يعمل الإثم ويعتقد أنه قد كسبه وانتفع به فإنَّ ما كسبه وبالٌ على نفسه، وضررٌ لا نفع له فيه، كما يخطر على بال مَنْ يجهل عواقب الآثام في الدنيا والآخرة، من فضيحة للآثم، ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل، ومن خزي في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم، فالله تعالى بعلمه الواسع حَدَّد للناس شرائع يَضُرُّهم تجاوُزُها، وبحكمته جعل لها عقاباً يضر المتجاوز لها، فهو يضرُّ نفسه، ولا يضرُّ الله شيئاً.

١١٢ - ومَنْ يكسب ذنباً خطأً بلا تعمُّدٍ، أو إثماً يصدر عنه مع ملاحظة أنّه ذنب، ثم يُبَرِّئ نفسه، وينسبه إلى بريء، ويزعم أنه هو الذي كسبه، فقد كلَّف نفسه وِزْرَ البهتان بافترائه على البريء واتهامه إياه.

١١٣ - وبعد أن ذكر المُخْتانين أنفسَهم، ومحاولتهم زحزحةَ الرسول ﷺ عن الحق، بَيَّن فضلَه ونعمته عليه، فذكر سبحانه أنّه لولا فَضْلُه على النبي ﷺ بالتأييد بالعصمة ورحمته له ببيان حقيقة الواقع، لَـهَمَّتْ طائفة منهم أن يُضِلُّوه عن الحكم العادل الموافق لحقيقة القضية في نفسها، ولكنهم قبل أن يطمعوا في ذلك ويهمُّوا به، جاءه الوحي ببيان الحق، وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق، ثم لم يزل يوحي الله إليه، ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذَّر على الأوَّلِين والآخِرين الوصول إليه، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ففَضْلُه على الرسول ﷺ أعظمُ من فَضْلِه على كلِّ مخلوق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإنسان قاصرُ النظر، محدودُ التفكير، فتراه إذا حاول ارتكاب ذنب يستتر، ويستحيي من الناس، ولا يستتر ولا يستحيي من الله، والله أحقُّ أن نخشاه، وأن نستحييَ منه؛ لأنَّ المصير إليه، وبيده وحده الجزاء.

٢- باب التوبة للعصاة والمذنبين مفتوح.

٣- وبالُ الذَّنْبِ وعاقبته على المذنب نفسه.

٤- البهتان جريمة عظمى، وهو إلقاء التهمة واختلاق الكذب على البريء، أو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه بريء.

٥- لما كان البهتان شديداً جداً، وقَلَّ مَنْ يجترئ عليه، أشار إليه بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أي: ينسبه إلى مَن لم يعمله، فيجمع بين اختلاقه وافترائه على الأبرياء.

٦- عَظَّمَ اللهُ جُرْمَ فاعل البهتان بصيغة الافتعال في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ وبقوله: ﴿بُهْتَـٰنًا﴾ أي: خطر كذبٍ يَبْهَتُ المَرْمِيَّ به لعِظَمِه، وكأنه إشارةٌ إلى ما يلحق الرامي في الدنيا من الذم.

٧- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من أعظم الأدلة على أن العلم أشرف الفضائل، وفيه بيان عظم فضل الله على نبيه محمد ﷺ.

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾
إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ
لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾

التفسير:

١١٤ – يُنبِّه الله تعالى على أنّه لا خير في كثير ممَّا يتناجى به الناس، ويتخاطبون فيه من الحديث، إلا من كان ساعياً في الحثِّ على أعمال الخير من صدقة من مال أو علم، أو أيِّ نفع ينتفع به الخلق، أو من الإحسان والطاعة، أو التوفيق بين الناس. وقد استثنى الله من النجوى التي لا خير في أكثرها أموراً ثلاثة؛ لأنَّ خيريتها أو كمالها تتوقف على الكتمان، وجعل التعاون عليها سراً، والحديث فيها نجوى. ومَنْ يفعل هذه الأعمال الثلاثة من الطاعات لوجه الله وطَلَبِ مرضاته فإن الله سيؤتيه الثواب العظيم، والأجر الجزيل.

١١٥ – وبعد أن وعد الله الجزاء الحسن مَنْ يتناجَون بالخير، ويبتغون نفع الناس؛ مرضاةً لله ﷻ أوْعَدَ الذين يتناجَون بالشر، ويُبيِّتون ما يكيدون به للناس، فبيَّنَ أنَّه مَنْ يشاقق الرسول بارتدادِه عن الإسلام وإظهار عداوته له من بعد ما ظهرت له الهداية على لسانه، وقامت عليه الحجة، ويتبع سبيلاً غير سبيل أهل الهدى، نتركه وما اختار لنفسه ونَكِلُه إلى ما تَوَكَّل عليه، ثم ندخله جهنم، ونعذِّبه أشد العذاب؛ لأنَّه استحبَّ العمى على الهدى، وعاند الحق واتبع الهوى، وما أقبحها عاقبةً لِـمَنْ تفكر وتدبر!.

١١٦ – يحذر الله سبحانه من الشرك فإنَّه لا يغفر البتةَ لأحدٍ أشرك به سواه، وأنَّه قد يغفر لِـمَنْ يشاء من المذنبين ما دون الشرك من الذنوب، فلا يعذبهم عليه. ومَنْ يشرك بالله شيئاً فيَدْعُه معه فقد ضلَّ عن القصد، وبَعُدَ عن سبيل الرشد ضلالاً بعيداً في سبيل الغواية؛ لأنَّه ضلال يفسد العقل، ويُكَدِّر صفاء الروح، ويجعله يخضع لعبد مثله.

١١٧ –١١٨ – ثم ذكر سبحانه حال المشركين مبيِّناً أنَّهم لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أمواتاً، فقد كانوا يُعَظِّمون الموتى ويَدعُونهم، كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب وبعض مسلمي اليوم، أو إلا إناثاً كاللات والعُزَّى، وقد كان لكل قبيلة صنم يُسَمُّونه أنثى بني فلان، وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً متمرداً متجرداً من الخير عاتياً، إذ هو الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم بها، فكانت طاعتهم له عبادة؛

لذا كان جزاؤه أن أبعده الله عن رحمته وفَضْلِه، فإنَّه داعية الشر والباطل في نفس الإنسان بما يوسوس في صدره ويَعِدُه ويُمَنِّيه، وقال: لأجتهدنَّ في أن آخذَ من عبادك الذين هم تحت قهرك، ولا يُخْرجون عن مرادك شيئاً أنت قدَّرْتَه لي.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ تربية اجتماعية لأُمة؛ فإن شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، لأنَّ الصراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا لأمر يناسبه إخفاء الحديث.

٢ - قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنَّه لا يجزي من الأعمال، إلا ما كان فيه رضا الله تعالى، وخلوصه لله دون رياءٍ ولا سمعة.

٣- ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل له في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتمَّ له الأجر، سواء أتمَّ مقصوده أم لا؛ لأنَّ النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل.

٤ - يُفْهَمُ من نفي الخير عن كثير من نجواهم أو متناجِيهم، أن قليلاً من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تَناجٍ فيه نَفْعٌ.

٥- ظاهر قوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ الإصلاح في كل شيء يقع فيه اختلاف ونزاع.

٦- خصَّ من أَمَرَ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، وفي ضمن ذلك أنَّ الفاعل أكثر استحقاقاً من الآمر.

٧- قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليل على أنَّ الإجماع حجة.

٨- من أعظم الجرم أن يَطَّلِعَ المرءُ على الحق، ويعمل بخلافه على سبيل العناد لله تعالى، وقد جعل له نوراً يهتدي به.

٩- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ دليل على وجوب عصمةِ الرسول ﷺ، وعلى أنَّ كل مجتهدٍ آخذٍ بقواعد الاجتهاد يسقط عنه الإثم.

١٠ - في قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ كنى بالدعاء عن العبادة،؛ لأنَّ مَنْ عبد شيئاً دعاه عند حوائجه ومصالحه.

١١ - قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٍ﴾ لأنَّ من النجوى ما يكون في الشؤون الخاصة كالزراعة والتجارة مثلاً فلا توصف بالشر، ولا هي مقصودة من الخير، وإنَّما المراد بالنجوى الكثيرة المنفيِّ عنها الخيرُ هي النجوى في شؤون الناس، ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التي هي جِماع الخير للناس.

١٢ - تنطبق هذه الآية الكريمة في عصرنا على أحاديث الناس عبر الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وبرامج الغرف المغلقة و(الفيسبوك، والتويتر)، وما يدور فيها من هزلٍ ولغوٍ وتأثيمٍ ومضيعةٍ للوقت ومفسدة للدين، فلا خير في هذه المحادثات إلا لِـمَنْ خاضها بنية الإصلاح، ونشر الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ
خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا
مَحِيصًا (١٢١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)﴾

التفسير:

١١٩ - ثم ذكر سبحانه قَسَمَ الشيطان، فقال على لسانه: ولَأُضِلَّنَّهم عن طريقك السويِّ بما سَلَّطْتني به من الوساوس وتزيين الأباطيل، ولَأُمَنِّيَنَّهم كل ما أقدر عليه من الباطل من نفي البعث وغيره من طول الأعمار، وبلوغ الآمال من الدنيا والآخرة بالرحمة والعفو والإحسان ونحوه، مما هو سبب للتسويف بالتوبة ولآمرنهم، فيُقَطِّعُنَّ تقطيعاً كثيراً آذان الأنعام، ويُشَقِّقونها علامةً على ما حَرَّموه على أنفسهم، ولآمُرَنَّهم فليغيِّرُنَّ خَلْقَ الله الذي له الحكمة الكاملة فلا كُفْءَ له، بأنواع التغيير من تغيير الفطرة الأولى السليمة إلى ما دون ذلك من الوشم، ويدخل فيه كل ما خالف الدين، ومَنْ يتبع الشيطان ووسوسته وإغواءه وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله، فقد خسر خسراناً ظاهراً في الدنيا والآخرة، إذ إنه يكون أسير الأوهام والخرافات، يتخبَّط في عمله على غير هدى، ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التي أوتيها الإنسان، وميَّز بها من بين خَلْقِه.

١٢٠- ثم ذكر سبحانه ما يَعِدُ الشيطان به أولياءه، فبَيَّنَ أنَّ الشيطان يَعِدُ الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئاً من أموالهم في سبيل الله، ويُخَوِّفُهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، ويَعِدُ مَنْ يُغريه بالتعصُّب لرأيه، وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه بالجاه والشهرة وبُعْدِ الصِّيت، ويؤيد هذه الوعودَ بالأماني الباطلة يلقيها إليهم، وما يَعِدُهم الشيطان إلا باطلاً يغترُّون به، ولا يملكون منه ما يحبُّون، فيزيِّن لهم النفع في بعض الأشياء، وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضارّ، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيَّل إليه أنه يتمتع باللذات، بينما هو في الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى، وخيمة العواقب، إلى عذاب أُخْروي لا يعلم كُنْهَه إلا مَنْ أحاط بكل شيء علماً.

١٢١- وبعد أن بَيَّنَ حال أولياء الشيطان وما يَعِدُهم به الشيطان، ذكر عاقبتهم بأن أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته، أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه، مأواهم جهنم لا يجدون عنها مهرباً يَفِرُّون إليه، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها، ويتهافتون عليها تهافُتَ الفراش على النار، فتَصْلَى وجوههم وجنوبهم وظهورهم.

١٢٢- بعد ما ذكر عاقبة مَن اتبع الشيطان، ذكر عاقبة مَنْ لا يستجيب لدعوته، فبَيَّنَ أنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سيتمتعون بالنعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. وذلك هو الفوز العظيم لِـمَنْ سَمَتْ نفسُه عن دَنَسِ الشرك، فلم تجعل لله أنداداً، ولم تُحِطْ بها الخطيئة في صباحها ومسائها في غُدُوِّها ورَواحها، ثم ذكر أن ما وعدهم به هو الوعد الحق الذي لا شك فيه، فقال: ذلك الذي وعدكم الله به هو الوعد الحق، فهو القادر على أن يعطي ما وعد بفضله وجوده، وواسع كرمه ورحمته، وأمَّا وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور، إذ هو عاجز عن الوفاء، فهو يُدْلي إلى أوليائه بباطله، فحقه ألا يُستجاب له أمر ولا نهي، ولا تُتَّبع له نصيحة، فوساوسه أباطيل.

١٢٣- ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم: إنَّ ديني أفضل وأكمل، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه، فإنَّ الجزاء إنما يكون على العمل، لا على التمني والغرور، ثم أكد ذلك، وبَيَّنه بقوله: إنَّ مَنْ يعمل سوءاً يلق جزاءه؛ لأنَّ الجزاء - بحسب سننه تعالى - أثر طبيعي للعمل، لا يتخلف في أتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم، كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون، ومَنْ يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له ولياً غير الله يتولَّى أمره، ويدفع الجزاء عنه، ولا نصيراً ينصره وينقذه مما يَحِلُّ به لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم، ولا من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من نزغات الشيطان.

٢- تحريم تغيير خلق الله ﷻ.

٣- في قوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ أسند الفعل إلى نون العظمة، اعتناء بأنّه تعالى هو الذي يتولى إدخالهم الجنة وتشريفاً لهم.

٤- على الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله، وأن يجعل ذلك المعيار في سعادته.

٥- في الآيات من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأماني التي يأوي إليها الكُسالى، وذوو الجهالة من الذين يفخرون بالانتساب إليه، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عن الاهتداء بهديه.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا
يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ
وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا
﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى
ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ
وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ
بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ
ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾﴾

التفسير:

١٢٤- ومَنْ يعمل كلَّ ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية - سواء كان العامل ذكراً أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان - فأولئك أصحاب الدرجات العالية، العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر، يدخلون الجنة بزكاة أنفسهم وطهارة أرواحهم، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئاً ولو حقيراً، كالنُّقرة في ظهر النَّواة.

١٢٥- وبعد أن بَيَّنَ سبحانه أن النجاة والسعادة متعلقان بصالح الأعمال مع الإيمان، أردف ذلك ذِكْرَ درجات الكمال، فبَيَّنَ أنّه لا أحدَ أحسنُ ممَّنْ جعل قلبه خالصاً لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا

رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنّه سبحانه رَبَطَ الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها، وهي السنن والأسباب التي سَنَّها في الخليقة، وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل، مُتَحَلٍّ بأحسن الأخلاق والفضائل، واتبع إبراهيم في سيرته التي كان عليها، بميله عن الوثنية وأهلها، وتبرئته ممَّا كان عليه أبوه وقومه منها، وقد بلغ من الزُّلفى عند ربه ما صَحَّ به أن يسمى خليلاً، فقد اختصَّه بكرامة ومنزلة عظيمة واصطفاه برتبة الخُلَّة، ومَنْ كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تُتَّبَعَ مِلَّتُه، وتُؤتَسى طريقته.

١٢٦- سبب النزول:

عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ إِلَى ﴿وَرُبَعَ ﴾ فَقَالَتْ: يَاابْنَ أُخْتِي هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يُنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ وَالَّذِي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ فِيهَا: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَآءِ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ يَعْنِي هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ (عَنْ يَتِيمَتِهِ) الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ. (صحيح البخاري، باب شَرِكَةِ الْيَتِيمِ وَأَهْلِ الْمِيرَاثِ، برقم٢٤٩٤).

التفسير:

ثم ذكر سبحانه ما هو كالعلة لما سبق بأنَّ كلَّ ما في السموات والأرض ملك له، مهما اختلفت صفات المخلوقات، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير، وإحاطة وجود؛ لأنَّ هذه الموجوداتِ ليس وجودُها من ذاتها، ولا هي ابتدعت نفسها، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود، فوجب أن يُخْلِصَ له الخلق، ويتوجه إليه العباد، من أهل التقوى وأهل المغفرة.

١٢٧ - يطلبون منك أيها الرسول ﷺ الفتيا في شأن النساء ببيان ما غَمَضَ، وأشكل من أحكامهنَّ، من جهة حقوقهنَّ المالية والزوجية، كالعدل في المعاملة حين العشرة، وحين الفرقة والنشوز، قُل: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ بما يوحيه إليك من الأحكام في كتابه، ويُفتيكم في شأنهنَّ بما يتلى عليكم في الكتاب، مما نزَّل قبل هذا الاستفتاء في أحكام معاملة يتامى النساء اللاتي قد جَرَتْ عادتكم ألَّا تعطوهنَّ ما كتب لهنَّ من الإرث إذا كان في أيديكم، لولايتكم عليهنَّ، وترغبون في أن تنكحوهُنَّ لجمالهنَّ والتمتع بأموالهنَّ، أو عن أن تنكحوهنَّ لدمامتهنَّ فلا تَنكحوهنَّ، ولا تُنكحوهُنَّ غيركم حتى يبقى ما لهنَّ في أيديكم، وما يتلى عليكم أيضاً في شأن المستضعفين من الولدان الذين لا تُعْطونهم نصيبهم من الميراث، وقد كانوا إنما يُوَرِّثون الرجال دون الأطفال والنساء، ويُفتيكم أن تقوموا لليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين بالعدل، بأن تهتموا بهم اهتماماً خاصاً وتُعْنَوا بشأنهم، ويجري العدل في معاملتهم على أكمل الوجوه وأتمّها، فإنَّ ذلك هو الواجب الذي لا تَهاونَ فيه، ولا خيرة في شأنه. ثم رَغَّبهم في العمل بما فيه فائدةٌ لليتامى، وحَبَّبَ إليهم العدل، فقال: وما تفعلوه من الخير لليتامى فهو ممَّا لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه، وهو مجازيكم به ولا يضيع عنده شيء منه.

١٢٨ - وإن تَوَقَّعَتْ امرأة من بعلها نشوزاً وترفُّعاً عليها، بما لاح لها من مخايل ذلك وأماراته، بأن منعها نفسه ونفقته، أوالمودة والرحمة التي تكون بين الرجل والمرأة، أو آذاها بسَبٍّ أو ضَرْبٍ أو نحو ذلك، أو إعراضٍ عنها بأن قَلَّلَ من محادثتها ومؤانستها؛ لنفور منها أو سآمة بسبب طعن في سِنٍّ أو دَمامة أو شيء في الأخلاق أو الخَلْقِ أو طموح إلى غيرها، فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما صلحاً كأن تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة أو المبيت معها، أو بحقها كله فيهما أو في أحدهما؛ لتبقى في عِصْمته مُكَرَّمةً، أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق، أو بكل ذلك ليطلِّقها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٢٩]، وإنَّما يحلُّ له ذلك إذا كان برضاها، لاعتقادها أن في ذلك الخيرَ لها بلا ظلم لها ولا إهانة. والصُّلْحُ خَيْرٌ من التسريح والفراق؛ لأنَّ رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحَقّها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق، وبما أنَّ النفوس البشرية عُرْضَةٌ للشُّحِّ. فإذا عرض لها داعٍ من دواعي البذل ألمَّ بها الشح والبخل، ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح، فالنساء حريصات على حقوقهنَّ في القَسْم والنفقة وحسن العشرة، والرجال حريصون على أموالهم أيضاً، فينبغي أن يكون التسامح بينهما كاملاً. ثم رَغَّبَ في بقاء الرابطة الزوجية جهد المستطاع، فقال: وإن تُحْسِنُوا العِشْرة فيما بينكم، وتتقوا أسباب النشوز والإعراض، وما يترتب عليهما من الشقاق، فإنَّ الله تعالى كان بكل شيء تعملونه عليماً.

الفوائد والاستنباطات:

١- ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ للتبعيض؛ لأنَّ كل واحد لا يتمكَّن من عمل كل الصالحات، وإنَّما يعمل منها ما يناسب تكليفه ووسعه.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ دليل على أن الإيمان شرط في الانتفاع بالعمل؛ لأنَّ الإيمان هو الأصل والأساس الذي يُبنى عليه كل شيء، فالإيمان شرط لقبول الأعمال.

٣- اقتصر سبحانه على عِلْمه بالخير في قوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ لأنَّه هو المرغَّب فيه ها هنا.

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ نَدْبٌ من الله إلى الإحسان في العِشْرة إلى النساء وإن كرههنَّ؛ مراعاة لحقِّ الصحبة، وأمر بالتقوى في حالهنَّ؛ لأنَّ الزوج قد تحمله الكراهة للزوجة على أَذِيَّتِها وخصومتها، ولاسيما قد ظهرت منه أمارات الكراهة من النشوز والإعراض.

٥- إسلام الوجه لله يعني تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية، وهو من أحسن الكنايات؛ لأنَّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه تجتمع المحاسن.

٦- دَلَّ قوله تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ على شدة الترغيب في الصلح بمؤكدات ثلاثة: وهي المصدر المؤكد في قوله: ﴿صُلْحًا﴾، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، والإخبار عنه بالمصدر أو بالصفة المشبهة، فإنَّها تدلُّ على فعل سَجِيَّة.

٧- دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أنَّ الاستفتاء في الدِّين أمر مطلوب شرعاً.

٨- ينبغي الإحسان ليتامى النساء بالميراث والصداق والنكاح وغير ذلك، كما ينبغي الإحسان إلى الولدان الضعفاء الصغار.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا
كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا
مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾

التفسير:

١٢٩ - ومِنْ علمه سبحانه: أنَّكم - أيُّها الرجال - لن تقدروا دائماً على إقامة العدل التام بين النساء في المحبَّة ورغبة النفس، ولو بذلتم كل جهد، فلا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً، فتجعلوها كالمُعلَّقة التي ليست بذات زوج ولا مُطلَّقة، فتأثموا بظلمها. وإن تُحْسنوا بفعل المأمور، وتتقوا بترك المحظور فإن الله كان غفوراً لذنوب عباده، رحيماً بهم.

١٣٠ - وإذا تعذَّر الاتفاق فإنَّه لا بأس من الفراق، فإن وقعت الفرقة بطلاق أو خلع، فإنَّ الله يغني كلاًّ منهما من رزقه وجوده، إنَّه كان واسع الفضل، حكيم الحكم.

١٣١ - وبعد أن أمر الله سبحانه بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين، بَيَّنَ أنَّه لم يأمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد؛ لأنَّ كل ما في السموات والأرض خَلْقاً ومُلكاً له وحده، فهو مدبِّر الأكوان، لا يتعذَّر عليه الإغناء بعد الفقر، ولا الإيناس بعد الوحشة، ونحو هذا مما يُنْبِئُ بعظيم القدرة وكمال الجود والإحسان. ولقد أَمَرْنا مَنْ قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأُمم، كما أمرناكم بتقوى الله في إقامة سننه وإقامة شريعته، فبالأُولى ترقى معارفكم، وبالثانية تزكو نفوسكم، وتنتظم مصالحكم الدينية والدنيوية. وإن تكفروا أَنْعُمَ الله وتجحدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنَّه سبحانه مالك الملك والملكوت، لا يضره كفركم ومعاصيكم، كما لا ينفعه شكركم وتقواكم ، وقد وصَّاكم وإياهم بهما لرحمته لا لحاجته. وكان الله غنياً عن كل شيء بذاته، محموداً بذاته وكمال صفاته، فهو لا يحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه.

١٣٢-١٣٣ - ثم قرَّر أن له سبحانه ما في السموات والأرض خَلْقاً ومُلْكاً، يتصرف فيهما كيفما شاء إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة. وكفى به قيِّماً وكفيلاً يُوَكَّل إليه أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم، وإن يُرِدْ إفناءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قومٍ آخرين من البشر يَحِلُّون مَحَلَّكم في الحكم

والتصرف فهو قادر على ذلك؛ لأنَّ كل ما في السموات والأرض في قبضته، وخاضع لسلطانه. وكان الله قديراً على ذلك الإفناء وإيجاد خَلْقٍ آخر، إذ بيده ملكوت كل شيء، لكنه لحِكَمٍ يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك.

١٣٤- ثم نَبَّههم الله ﷻ أنَّ خير الدنيا والآخرة بيده، فإن اتقوه نالوا الخيرَين فقال: ومَنْ يُرِدْ منكم بسعيه وجهاده في حياته نعيم الدنيا بالمال والجاه ونحوهما، فعند الله ثواب الدارَين معاً بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الحواس، فعليكم أن تطلبوهما معاً، ولا تكتفوا بما هو أدناهما، وهو ما يفنى، وتتركوا أغلاهما وهو ما يبقى، مع أنَّ الجمع بينهما هيِّن ميسور لكم، وهو تحت قدرتكم وسلطانكم، فعليكم أن تقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. فالله سميعٌ لأقوال عباده وقت مخاطباتهم ومناجاتهم، بصيرٌ بجميع أمورهم في سائر حالاتهم، فعليهم أن يراقبوه في الأقوال والأفعال، وبذلك تزكو نفوسهم، وتقف عند حدود الفضيلة التي بها تستقيم أمورهم في دنياهم، ويستعدون لحياة أبدية في آخرتهم يكون فيها نعيمهم وثوابهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- جاء قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بـ ﴿لَنْ﴾ للمبالغة في النفي؛ لأنَّ أمر النساء يغالب النفس. وفي ذلك عذر للرجال فيما يقع من التفاوت في الميل القلبي، والتعهد، والنظر، والتأنيس، والمفاكهة؛ فإنَّ التسوية في ذلك مُحال خارج عن حدِّ الاستطاعة.

٢- أقام الله ميزان العدل بين النساء بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: لا يُفَرِّط أحدكم بإظهار الميل إلى إحداهنَّ أشد الميل حتى يسوء الأخرى بحيث تصير الأخرى كالمعلقة.

٣- دل قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ على أنَّ المحبة أمر قهري، وأن للتعلق بالمرأة أسباباً تُوجبه، قد لا تتوافر في بعض النساء، فلا يُكَلَّفُ الزوج بما ليس في وسعه من الحب والاستحسان، ولكنَّ من الحب حظاً هو اختياري، وهو أن يُرَوِّضَ الزوج نفسه على الإحسان لامرأته، وتَحَمُّلِ ما لا يلائمه من خُلُقِها أو أخلاقها ما استطاع، وحسن المعاشرة لها، حتى يحصل من الإلف بها والحنو عليها اختياراً ما يقوم مقام الميل الطبيعي، ويتحقق هذا بطول التكرر والتعوُّد.

٤- الفراق قد يكون خيراً للزوجين؛ لأنَّ الفِراق خير من سوء المعاشرة.

٥- تعليم للمؤمنين ألَّا يصدهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا، إذ الكلُّ من فضل الله.

٦- في الآية (١٢٩) إخبار عن أمرٍ مستقبلي في عدم قدرة الرجال على تحقيق العدل التام بين النساء في المحبَّة وميل القلب، مهما بذلوا في ذلك من الجهد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ
إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

التفسير:

١٣٥ - بعد أن أمر سبحانه بالعدل في النساء واليتامى، عَمَّمَ الأمر بالعدل بين المؤمنين فأمرهم: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالعدل في الحكم بين الناس، ممَّنْ يولِّيه السلطان، أو يُحَكِّمه الناس فيما بينهم، أو في العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من العدل والمساواة بينهم، وكونوا شهداء لله بأن تتحرَّوا الحق الذي يرضاه ويأمر به، من غير مراعاة أحد ولا محاباته، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم، أو على والديكم، وأقربِ الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم. فإن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، وشرعه أحق أن يُتَّبَعَ فيهما، فحذار أن تحابُوا غنياً طمعاً في بِرِّه، ولا خوفاً من أذاه وشره، ولا فقيراً عطفاً عليه وشفقة به، فلا تتبعوا الهوى؛ لئلَّا تعدلوا عن الحق إلى الباطل؛ إذ في الهوى الزلل، وإن تَلْوُوا ألسنتكم بالشهادة وتُحَرِّفوها، أو تُعرضوا عنها، فلا تُؤَدُّوها، فالله خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه قَصْدُكم، فهو مجازيكم بما تعملون.

١٣٦ - ثم أمر الله عباده المؤمنين بأن يزدادوا في الإيمان طمأنينة ويقيناً، ويُصَدِّقُوا برسوله خاتم النبيين، وبالقرآن الذي نَزَّله عليه، وبالكتب التي نَزَّلها على رُسُلِه من قبله، فإنه لم يترك عباده في زمنٍ ما محرومِين من البينات والهدى، وبعد أن أمر بالإيمان تَوَعَّد مَنْ كفر بذلك: ومَنْ يكفر بالله أو بملائكته أو ببعض كتبه أو رسله أو اليوم الآخر، فقد ضَلَّ عن صراط الحق الذي يُنَجِّي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم، ويمتعه بالنعيم المقيم.

١٣٧ - إنَّ هؤلاء المنافقين أحوالهم مضطربة من إيمان إلى كفر، ثم من كفر إلى إيمان ثم إلى كفر، وهكذا أنَّهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان، وفِقْهِ مزاياه وفضائله، ومثلهم لا يرجى لهم أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه، ومغفرته وإحسانه.

١٣٨- ثم أمر رسوله ﷺ بتبشير المنافقين بالعذاب الموجع، والبشارة لا تستعمل غالباً إلا في الأخبار السارَّة، إذ هي مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، فاستعمالها في الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ.

١٣٩- ثم بَيَّنَ بعض صفاتهم التي تستوجب الذمَّ، فهؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصاراً، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، فإن كانوا هم بذلك يطلبون عندهم الغلبة والمنعة، فإنَّ العزة لله يؤتيها مَنْ يشاء، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العدل بين الناس.

٢- القيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدلُّ على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام.

٣- عبَّر الله ﷻ بـ(الخبير)؛ لأنَّ الخبرة هي العلم بدقائق الأمور وخفاياها، والشهادة يكثر فيها الغِشُّ والاحتيال، وقد يغشُّ الإنسان فيها نفسه، ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها.

٤- أجمع المسلمون على أنَّ الإيمان يَجُبُّ ما قبله، ولو كفر المرء مئة مرة، وأنَّ التوبة من الذنوب كذلك.

٥- تحريم الردَّة، والردُّ على بعض المعاصرين الذين يَرَوْنَ جوازها إنطلاقاً من حرية الاعتقاد، وهي مغالطة باطلة.

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ
حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ
لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ
قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

التفسير :

١٤٠ - نهى الله المؤمنين أن يجلسوا مع مَنْ يتنقَّص الدِّين، ويزدري بأحكامه: إذا سمعتم الكلام الذي يتضمن جعل الآيات في موضع السخرية والاحتقار فابتعدوا عنهم، ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر، إنَّكم إن قعدتم معهم تكونوا شركاء لهم في الكفر؛ لأنَّكم رضيتم به، ووافقتموهم عليه، فإنَّهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا سيجتمعون في العقاب يوم القيامة.

١٤١ - ثم بَيَّنَ بعض أحوال المنافقين، فهؤلاء المنافقون ينتظرون ما يحدث لكم من هزيمة أو نصر، وشرٍّ أو خيرٍ، فإنْ نَصَرَكم الله وفتح عليكم ادَّعَوا أنَّهم كانوا معكم، فيستحقون مشاركتكم في النعمة وإعطاءهم من الغنيمة، وإن كان للكافرين نصيب من الظفر مَنُّوا عليهم بأنَّهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين، بتخذيلهم والتواني في الحرب معهم، وإلقاء الكلام الذي تخور به عزائمهم عن قتالكم، فاعرفوا لنا هذا الفضل، وهاتوا نصيبنا ممَّا أَصبتم. إنَّ الله يحكم بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويُبطنون الكفر حكماً يليق بشأن كل من الثواب والعقاب، فيثيب أحبَّاءه ويعاقب أعداءه، فإنَّ المؤمنين ما داموا مستمسكين بدينهم، مُتَّبعين لأمره ونهيه، قائمين بعمل ما يستدعيه الدفاع عن بيضة الدين من أخذ الأهبة وإعداد العدَّة لن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان.

١٤٢ - إنَّ المنافقين يخادعون رسول الله، فيظهرون له الإيمان ويُبطنون الكفر. ونسب ذلك إلى الله من جهة أنَّ معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به، وهو سبحانه مجازيهم على خداعهم، وإذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا متباطئين متثاقلين، ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل، ولا نشاط يدفعهم على فِعْل؛ لأنَّهم لا يرجون ثواباً في الآخرة، ولا يخشون عقاباً إذ لا إيمان لهم، وإنَّما يخشون الناس، يبتغون بذلك أن يراهم

المؤمنون، فيَعُدُّوهم منهم، ولا يُصَلُّون إلا قليلاً، فإذا لم يَرَهم أَحَد لم يُصَلُّوا، وإذا كانوا مع الناس راؤوهم وصَلَّوا معهم.

١٤٣ - وإنَّ المنافقين مضطربون مائلون تارة إلى المؤمنين، وتارة إلى الكافرين، لا يخلصون إلى أَحَدِ الفريقين؛ لأنَّهم طلاب منافع، ولا يَدْرُون لمن تكون العاقبة، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما ادَّعَوا أنَّهم منه. ومَنْ قضت سنته أن يكون ضالاً عن الحق مُوغلاً في الباطل، بما قدَّم من عمل، وتَخَلَّق به من خلق، فلن تجد له سبيلاً للهداية باجتهادك، أو المبالغة في إقناعه بالحجة والدليل، فإنَّ سنة الله لا تتبدل ولا تتحول.

الفوائد والاستنباطات:

١ - حكمة النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ وجوب إظهار الغضب لله، وأنَّ هذا النهي يقتضي الأمر بمغادرة مجالسهم، إذا خاضوا في الكفر بالآيات والاستهزاء بها.

٢ - في الآيات دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله، بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية.

٣ - في الآيات دليل على أنَّ مَنْ يُقِرُّ المنكر ويسكت عليه يقع في الإثم، وإلى أن إنكار الشيء يمنع من انتشاره بين الناس.

٤ - جاء التعبير عن ظَفَرِ المؤمنين بالفتح وأنَّه من الله، وعن ظفر الكافرين بالنصيب. وفي هذا إيماء إلى أنَّ العاقبة للحق دائماً، وأنَّ الباطل ينهزم أمامه مهما كان له أول أمره من صَوْلة ودولة، وقد يقع في أثناء ذلك نصيب من الظفر للباطل، ولكن تنتهي بغلبة الحق عليه مادام أهله مُتَّبعين لسنة الله بأَخْذِ الأُهْبَةِ، وإعداد العُدَّة، كما أمر بذلك الكتاب العزيز.

٥ - تُطَبَّقُ على المنافق في الدنيا أحكام الشريعة في الظاهر، وفي الآخرة.

٦ - في الآية (١٤٣) إخبار مستقبلي أنَّ مَنْ صرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمساك بهديه، فلن يجد له طريقاً إلى الهداية واليقين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

التفسير:

١٤٤ – وبعد أن ذَمَّ سبحانه المنافقين بأنَّهم مذبذبون، لا يستقر لهم قرار، فهم تارة مع المؤمنين، وأخرى مع الكافرين، حَذَّر المؤمنين أن يفعلوا فِعْلَهم، ونهاهم أن يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بيِّنة في استحقاقكم للعقاب، إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين؟.

١٤٥ – ثم أخبر سبحانه عن مآل المنافقين أنَّهم في أسفلِ الدرجات من العذاب، وشرِّ الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار لأنَّهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجهٍ لا يشعر به ولا يحس. ورَتَّبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحَقُّوا أشدَّ العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

١٤٦ – ثم أخبر سبحانه أن هذا الجزاء الشديد الذي أعَدَّه للمنافقين لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر، وندموا على ما فرط منهم، وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة: اجتهادِهم في صالح الأعمال التي تغسل أدران النفاق، بأن يلتزموا الصدق في القول والعمل مع الأمانة والوفاء بالوعد، ويخلصوا النصح لله ورسوله، ويقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع ومراقبة الله في السر والعلن، واعتصامهم بالله بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله، مع التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، والاعتبار بمواعظه، والرجاء في وعده، والخوف من وعيده، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، وإخلاصهم لله بأن يَدْعُوه وحده، ولا يَدْعُوا من دونه أحداً لكشف ضُرٍّ، ولا لجلب نفعٍ، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصاً له وحده. فأولئك التائبون يكونون مع المؤمنين؛ لأنَّهم يؤمنون كإيمانهم، ويعملون كعملهم، فيُجْزون جزاءهم، وسوف يعطيهم الله الأجر العظيم الذي لا يُقَدَّرُ قَدْرُه، وأعظمه الجنة.

١٤٧ – ثم بَيَّنَ سبحانه أنَّ تعذيبهم إنَّما كان لكفرهم بأَنْعُمِ الله عليهم، فبَيَّنَ أنَّه تعالى لا يعذب أحداً من خلقه انتقاماً منه، ولا طلباً لنفع ولا دَفْعاً لضر، لأنَّه تعالى غنيٌّ عن كلِّ أَحَد، مُنَزَّه عن جَلْبِ منفعة له،

وعن دَفْعِ مَضَرَّة عنه، بل ذلك جزاء كفرهم بأَنْعُمِ الله عليهم، ولو آمنوا وشكروا لَطَهُرَتْ أرواحهم، وظهرت آثار ذلك في عقولهم وسائر أعمالهم التي تصلحهم في معاشهم ومعادهم، واستحقوا بذلك رضوان الله الذي يجعل ثواب المؤمنين الشاكرين بحسب علمه بأحوالهم، ونَيْلِهم من الدرجات أكثر ممَّا يستحقون، جزاءً على شكرهم وإيمانهم، فهو يجزي بيسير الطاعات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نِعَماً في الآخرة غير محدودة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات دليل على كمال عدل الله، وأنَّ الله لا يُعَذِّب أَحَداً قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإنَّ فاعلَها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

٢- التحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق، لأنَّ المنافقين تظاهروا بالإيمان، ووالَوا الكافرين.

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إشارة إلى أنَّ دار العذاب في الآخرة ذات دركات بعضها أسفل من بعض، كما أنَّ دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض.

٤- قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أتى بـ﴿سوف﴾ لأنَّ إيتاءَ الأجر هو يوم القيامة، وهو زمان مستقبل ليس قريباً من الزمان الحاضر.

٥- توبة المنافق مقبولة بشروط هي: أن يُصْلِحَ قولَه وفِعْلَه، ويعتصم بالله، فيجعله ملجأ ومعاذاً، ويخلص دينه لله.

٦- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ خصَّ الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾؛ لأنَّ الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، ولاسيما في هذا المقام الحَرِجِ الذي يُمَكِّن النفاقَ من القلوب.

٧- في قوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾ تحذير ونَدْبٌ إلى الإخلاص.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ
تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن
يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

التفسير:

١٤٨ - لما ذَمَّ الله فيما مضى من هذه السورة أعداء الدين، وفضح مكايدهم، بَيَّنَ سبحانه لعباده المؤمنين أنّه لا حرج في نعت الظالم بظلمه، وفَضْحِ المتآمر بتآمره؛ دفعاً للشر، وأَخْذاً للحذر، وزَجْراً عن الظلم. والمجاهرة بالسوء من القول من مساوئ الأخلاق التي نهى عنها دينُنا الحنيف، لا يُحِبُّها الله تعالى، ولا يرتضيها من عباده المؤمنين، ولا يأذنُ فيها إلا لِـمَنْ اضطرَّ إليها؛ لدفعِ ظُلمٍ، أو رَدْعِ ظالمٍ، أو للمطالبة بحقٍّ مهضوم، دون مجاوزةٍ للحَدِّ الذي رَخَّص به الشرعُ، رحمةً بالعباد، ونَصَفةً لهم، فلا يتمادَى المظلومُ في ذلك، ولا يجاوزُ حَدَّ الشرع، ويُغالي في التشفِّي والانتقام، وليراقب العبدُ ربَّه تعالى فهو السميع لكلِّ قول، العليم بكل سريرة وفعل.

١٤٩ - بعد أن أباح الله نَعْتَ الظالم بظلمه، نَدَبَ إلى ما هو أفضل، فإظهار الخير مرغوبٌ إذا كان لحفز الهمم، وبَعْثِ النفوس، واستنهاض العزائم، وتنبيه الغافل. والإخفاء مطلوبٌ إذا لم يأمَنِ العبدُ على نفسه مَخايلَ الزهو ودخائلَ الرياء. ومن دواعي الإخفاء أيضاً قَصْدُ السَّتْرِ على الفُقَراءِ والمساكينِ، وصَوْنُ كرامتِهم، ومراعاةُ مشاعرِهم، كما يحضُّ الله عباده على العفو والتسامح، فالعفو من شيم الكرام، والإحسان إلى الناس مع الصبر على أذاهم، والعفو عن زَلَّاتهم من معاقد الخير، وجوامع البر، فإنَّ الله يعفو عنهم عفواً واسعاً، وهو القادر عليه أتمَّ القدرة.

١٥٠ - لـمَّا ذكر الله تعالى أحوال المنافقين ورَهَّبهم وتَوَعَّدهم، وحَذَّر من سلوك دروبهم، ذكر أحوال الكفرة وجملةً من صنوف الكفر ودروب الضلال، محذِّراً منها، وفَضَح أهل الزيغ والضلال، مما رخَّص اللهُ فيه لكشف جرائمهم في حقِّ الإنسانية. وأيُّ جرمٍ أشنعُ من السعي إلى التفريق بين الله ورسله الكرام، والمماراة في رسالاتهم، ونكران صلتِهم بربِّهم؛ ليصرفوا الناس عن الهدى؟

١٥١- هؤلاء البعداء عن الحق هم الجاحدون جحوداً بيّناً، وقد هَيَّأْنا لهم عذاباً مُذِلّاً فيه إهانة؛ لأنَّهم استهانوا بالرسل.

١٥٢- في مقابل الحديث عن الكفرةِ ومصيرهم، بَيَّنَ اللهُ تعالى مقام أهل الإيمان، وعاقبة المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله ورسله، ولم يُفرِّقوا بين أَحَدٍ من الرسل، بل آمنوا بهم جميعاً، وعرفوا لهم فَضْلَهم. هؤلاء أصحاب المنازل العالية سوف نجازيهم على أعمالهم بما لنا من العظمة، ونمنحهم أجورهم، وَعْداً لا خُلْفَ فيه وإن تأخر، فهو سبحانه متصف دائماً بالرحمة والمغفرة الواسعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة القرآن في منهجه الفريد، وأسلوبه الحكيم في الأمر والنهي بما يُرَغِّبُ النفوسَ، ويُرَقِّقُ القلوب إلى الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، مع تَدَرُّجِه في إقامة الحجج وإصدار الأحكام وما ينبني عليها من نتائج.

٢- النهي عن الجهر بالسوء من القول يدفعُنا إلى انتقاء أطايب الكلام، فالكلمة الطيبة لها عذوبتُها وحلاوتُها، ووَقْعُها الحسنُ على النفوس، وهي من أسباب تأليف القلوب، وغرس الفضائل، وشحذ الهمم.

٣- لا يجوز تَتَبُّعُ عورات الناس، وهَتْكُ أستارهم، وفَضْحُ سرائرهم، أمّا مَنْ تمادى في الظلم فيجوز شكايتُه لردِّه عن ظلمه، أو للتحذير من شرِّه.

٤- نَهْيُ الله عن الجهر بالسوء من القول لا يعني جواز الإسرار به في الخَلَوَات إلا لمظلوم؛ فقد ذَمَّ الله المتناجِين بالإثم والعدوان.

٥- الإيمانُ بالرسل جميعاً ركنٌ من أركان الإيمان، لا يتمُّ ولا يستقيمُ بدونه.

٦- في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ترغيب لليهود والنصارى في الإيمان برسول الله ﷺ؛ لأنَّهم إذا آمنوا غُفِرَ لهم ما كان منهم في حال الكفر. (لباب التأويل للخازن ١/ ٦١٦).

٧- العَفْوُ من جليل الصفات التي اتصف بها ربُّ العباد، فهو تعالى العَفُوُّ، يعفو عن عباده بفضله، وهو القادر على مؤاخذتهم بعَدْلِه، فمَنْ أراد نَيْلَ عَفْوِ المولى الكريم فلْيَعْفُ عن الناس مع قدرته على أن ينتصر لنفسه.

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا
أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا
عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ
الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا
لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥٣ – سأل اليهودُ نبيَّنا محمداً ﷺ سؤالَ المتعنِّتِ المكابر، الجاهلِ بقَدْرِ الله وجلاله، الغافل عن سننهِ وآياته، سألوا الرسولَ كتاباً ينزله عليهم من السماء، فيُبْصِرونه ويلمَسونه. فلا تعجب يا محمد، فقد اتبعوا سُنَنَ أسلافِهم الذين انتكَسُوا بعد أن رأوا الآياتِ، وضَلُّوا بعد هُدى، وطلبوا إلى موسى رؤية الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة عقوبةً لهم، وقَمْعاً لعِنادهم ولَجاجهم، بعدما رأوا من الآيات، وهذا من جحودهم ومكابرتهم. وأشنع من ذلك أن جعلوا العِجْل معبوداً لهم من دون الله تعالى من بعد أن شاهدوا المعجزات الباهرة ، فعاملهم الله تعالى بعفوه ، ووهب موسى حجة واضحة ومعجزة ساطعة.

١٥٤ – لَمَّا تَعَنَّتَ اليهود بالتحدي هددهم الله تعالى، فرفع جبل الطور فوق رؤوسهم في مشهدٍ مُرَوِّع، وتَوَعَّدهم حتى يتوبوا، وأمرهم وقد تَجَلَّتْ شواهد العظمة أمام أعينهم أن يدخلوا باب بيت المقدس خاشعين، ونهاهم عن هتك حرمة يوم السبت، وأَخَذَ المواثيق المغلَّظة عليهم، لكنهم نكثوا ونقضوا.

١٥٥ – يُبَيِّنُ الله تعالى خيانات اليهود في نَقْضِ المواثيق مع جَلالِها، والجحد بآياتِ الله مع جلائِها، وقتلُهم الأنبياءَ خيرةَ الخلق، بدونِ جريرةٍ ولا حقّ، ثم يتعللون بقسوةِ قلوبِهم، ويتذرَّعون بأن هذا قَدَرٌ لا مفرَّ منه، وجِبِلَّةٌ لا حيلةَ في التخلُّصِ منها، وما طرأ على قلوبهم من قسوةٍ وجفاءٍ عقوبةٌ بسبب تراكُمِ ذنوبِهم وكثرةِ مِرائِهم، وجحودِهم وإعراضهم، فما آمن إلا القليلُ منهم، أمَّا أكثرُهم فيُصَدِّقون ما يناسب مصالحهم الدنيوية، ويُكَذِّبون ما لا يناسب أهواءهم.

١٥٦ - وهذا الختم على القلوب بسبب جحودهم وافترائهم على مريم بنت عمران الصديقة العابدة، فقد اتهموها في عِرْضِها، وغَمَزُوها في عفافِها، ثم كَذَّبوا بولدها نبي الله عيسى، وتآمروا عليه.

١٥٧ - ١٥٨ - واستحقوا هذا العقاب بسبب تآمرهم على قتله، فنجّاه الله من أعدائه، توفّاه ورفعه إلى السماء، وصلبوا رجلاً يشبهه ظَنّاً منهم أنّه المسيح، فوَهِمَ اليهودُ أنّهم قتلوه، وأُلبس عليهم بمكر كُبرائهم. وقد اختلف اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام وحياته اختلافاً عظيماً: اختلفوا في حقيقته ورسالته، كما اختلفوا في مماته على فرقٍ شتى وطوائف متباينة ضَلَّت في شأنه عليه السلام، وحارَتْ في طبيعته، حتى كفَّر بعضُهم بعضاً، وطَعَنَ بعضُهم في بعض، وقد بَنَوا عقائدهم على ظنونٍ وأوهام، ونسجوها على أساطير وخرافات. فليس الأمر كما يظنون، وما قتلوه قطعاً، وما استيقنوا من قتله، بل رفعه الله بقدرته العظيمة إلى السماء حياً بروحه وجسده. وكان الله عزيزاً في ملكوته، حكيماً في تدبيره.

١٥٩ - ولَسَوف يدرك اليهود والنصارى هذه الحقيقةَ في آخر الزمان قبل موت المسيح، ويوم القيامة يشهد لِـمَنْ صدَّق به، كما يشهد على مَنْ كَفَرَ به، وضَلَّ في أمره.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الردُّ على مطالب أهل الكتاب المتعنِّتة، والتي يمضون فيها على سنن أسلافهم الذين شدَّدوا، فشدَّد الله عليهم، وتعنَّتوا فضيَّق الله عليهم.

٢ - اليهود هم اليهود، مهما تغيَّر الناسُ وتَبَدَّلَ الزمانُ، يتوارثون الأخلاق والطباع جيلاً بعد جيل.

٣ - تسليةٌ للنبي ﷺ ليتأسّى بأخيه موسى عليه السلام ويتمَثَّل به، فكم احتمل من اليهود ما لا يُطاق، وعامَلَهمْ بالصبر والمداراة!!

٤ - شؤم المعاصي وسوء عاقبتها، فهي سبيلٌ للحِرْمان من الطيبات، وسببٌ في نكدِ الحياة وضيق العيش، فضلاً عن الحرمان والبُعد عن الله.

٥ - نزولُ المسيحِ آخرَ الزمانِ إماماً عادلاً، وحَكَماً مُقْسِطاً.

٦ - تفنيد ادعاء اليهود والنصارى بأنَّ المسيح قد صُلب.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ
وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ
أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ
وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ
إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

التفسير:

١٦٠-١٦١ - لما تمادى اليهود في الظلم، وأوغلوا فيه مع ما جاءهم من البينات، عاقبهم ربُّهم بالتضييق والحرمان من طيبات كثيرة، كانت لهم حلالاً بسبب الظلم الشنيع المتغلغل فيهم، والصدود المتكرر الذي ركبوا إليه كلَّ وسيلةٍ، ونهجوا فيه كلَّ فنٍّ وحيلةٍ. ومن صور ذلك أَكْلُهم السُّحْتَ، وتحريف الكتاب؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، واستباحة أموال الأميين والقروض الربوية، وسيكون مصيرهم في الآخرة ما أعدَّه الله تعالى لهم من العذاب الموجع، وكان التضييق عليهم عقوبةً لهم، ولعلهم يَرْعَوُون ويَتُوبون، ومَنْ أصرَّ على كفره ولازمه فقد أعدَّ الله له عذاباً موجعاً.

١٦٢- أما مَنْ عصمهم الله تعالى بالعلم الراسخ والإيمان بما أنزل الله، واستقاموا على منهج الله، فداوَموا على الصلاة، وحافَظوا على شروطها وأركانها، وآتوا الزكاة، وهم بعيدون عن التكلُّف مُجانبون للعَنَتِ؛ لأنَّهم يعرفون طريق الأنبياء ويُصَدِّقونهم. وتكرارُ ذِكْرِ الإيمان لحلاوته وعذوبته، فهو حَرِيٌّ بأن يُكَرَّر، كذلك لاختلاف متعلَّقِه، ولتفصيل أركانه. وإنَّما جعل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بين قُطبي الإيمان؛ لأنَّها ثمرةُ الإيمان ولبابُه وبرهانُه، فالصلاةُ من أعظم حقوق الله، والزكاةُ من أهمِّ حقوق العباد، كما أنَّ الإيمانَ للأعمال الصالحة عصمةٌ، وسياجٌ، يحيطُ بالأعمال ويزينُها، هؤلاء الذين تسامَتْ درجاتهم سنؤتيهم بعظمتنا الباهرة أجراً لا منتهى له.

١٦٣- إنَّا - لِما لنا من العظمة والقدرة - أوحينا إليك أيها النبي، كما أوحينا إلى مَنْ سبقك من الأنبياء؛ فدعوته ﷺ امتداد لِـمَنْ سبقه، نوح ومَنْ بعده، وأعطينا نبينا داود كتاباً.

١٦٤- وأوحينا إلى رسل آخرين، وقصصنا أخبارهم عليك - أيها الرسول - قبل نزول هذه الآية، وأرسلنا رسلاً لم نقصصهم عليك، وخَصَّ الله موسى عليه السلام فكلَّمه كلاماً حقيقياً بلا واسطة.

١٦٥- أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، هدايةً للخلق وتذكيراً لهم، وحجةً عليهم، حتى لا يبقى لأحدٍ عذر. وكان الله عزيزاً في ملكوته حكيماً في آياته.

١٦٦- إذا أنكر أهل الكتاب نبوتك، وجحدوا رسالتك، فإنَّ الله تعالى يشهدُ لك يا محمد أنَّك مُرْسَلٌ من عنده، وأنَّ ما جئت به هو الحقُّ من عنده، فهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، كذلك أنزله تعالى، وهو العليمُ بحال مَنْ أنزله عليهم، والملائكة يُصَدِّقون ويؤيِّدون، وحَسْبُك بالله شاهداً على صدقك.

الفوائد والاستنباطات:

١- فَضْحُ مثالب اليهود ومفاسدهم، وإثبات ملازمتهم لطبائعهم وخصالهم الذميمة.

٢- الصلة الوثيقة بين فساد الاعتقاد، وفساد الأخلاق والمعاملات.

٣- تحريم الربا وشناعته؛ فأضراره بالغةٌ، ومفاسده ظاهرة.

٤- منهج القرآن الحكيم في الرد على مطالب الكفار، ودَحْضِ ما يثيرونه من شُبَهٍ.

٥- فضل العلم الراسخ والإيمان الخالص، فهما عصمةٌ ونجاةٌ من مُضِلَّات الفتن.

٦- التحذير من الغلو في الأنبياء والصالحين.

٧- ذِكْرُ شهادة الملائكة الأبرار تشريفاً لهم، وشهادته تعالى دائمةٌ، ففي كل وقتٍ وحينٍ يُظْهِرُ الله لعبادِهِ شواهدَ صدق نبيِّه، ودلائل نبُوَّته.

٨- جميع كتب الله تعالى خرجت من مشكاة واحدة.

٩- شرف الزبور وما فيه من بشارات تدلُّ على بعثة خاتم النبيين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ
وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا
تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ
وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ
إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن
يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ
فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

التفسير:

١٦٧ - بَيَّنَ تعالى حال الذين قرنوا بين الكفر البواح والصدِّ عن سبيل الله، فهم قد أوغلوا في طريق الضلال، وأغربوا فيه، وتاهُوا في دروبه المتشعبة.

١٦٨-١٦٩ - إن مَنْ أصَرَّ على ضلاله، وبات على ظُلْمِه لنفسه ولغيره، لن يغفرَ اللهُ لهم، ولا يرشدهم إلى سبيل الهداية والجنة، بل يسوقهم إلى عذاب النار، يمكثون فيها إلى ما لا نهاية. وكان هذا العذابُ المُهين على الله سهلاً وهيناً.

١٧٠ - يُرشد الله الناس جميعاً إلى حقيقة صدق ما جاء به النبيُّ ﷺ، بدعوتهم للإيمان، فهو مُرْسَلٌ من عند الله، والإيمان خيرٌ للإنسانية في دنياها وأخراها، ويُحَذِّرهم مِنْ مَغَبَّةِ كفرهم، وأنه لا يَضُرُّه جلَّ وعلا، فله ملك السموات والأرض. وكان الله عليماً بأحوالكم، حكيماً بتصريف شؤونكم.

١٧١ - ينهى الله تعالى اليهود والنصارى بنداء لطيف يحمل روح العتاب، عن الغُلُوِّ في الدين، والتقوُّل على الله ربِّ العالمين، وفيه ملاطَفَةٌ في العتاب، وحَفزٌ لهم إلى معاودة النظر في كتبهم التي يؤمنون بها، واحتجاج عليهم بما تنطوي عليه كتبُهم من بشاراتٍ وإشارات، وعهود ومواثيق بالإيمان بخاتم النبيين واتباعه ومناصرته، كَمْ تقاعسُوا عنها، وانسَلُّوا منها! بل ناصبوا النبيَّ العداء، مع تصديقه لما بين أيديهم،

كما نهاهم عن المغالاة في عيسى عليه السلام، وبيّن تعالى القول الصحيح في المسيح، وأنّه بشرٌ رسولٌ، شأنُ غيرِه من الرسل، وكذلك رَدٌّ على ضلال اليهود وغلوِّهم فيه، فقد كفروا برسالته، واتهموا أُمّه، واستخَفُّوا بدعوته، فالمسيح خُلِقَ بكلمة الله، فوهبه الحياة، وخَلَقَ الروح التي أودعها المَلَكُ في أُمّه فكان عليه السلام. وقد دعا اللهُ تعالى إلى الإيمان به إيماناً خالصاً والإيمان برسله، وبيّن حقيقته التي لا يخرج عنها، وحذَّر أهل الكتاب من الضلال في شأن عيسى. تعالى الله وتقدّس عن الافتقار والحاجة إلى الولد، الذي هو شأن المحتاجين في تدبير أمورهم إلى مَنْ يساعدُهم، أو ينوبُ عنهم، أو يَخْلُفهم.

١٧٢-١٧٣- بعد إقامة الحجة على مَنْ ضَلَّ في شأن عيسى عليه السلام تُزيلُ هذه الآيات ما استعذَبَتْه بعض النفوس من كذبٍ، وما استهواها من ضلالٍ في شأن المسيح عليه السلام، فهو عبدٌ لله تعالى، فلن يأبى أن يكون عبداً لله، ولن يرغب عن ملازمة العبودية لله، وكذا الملائكة المقربون مع جلالة قدرهم ورفعة منازلهم، لا يرغبون عن عبوديتهم لربهم، والعبودية لله تعالى شرفٌ وعزٌّ. ثم تَوَعَّد الله تعالى مَنْ رغب عن عبادة ربه واستكبر عنها بأنَّ مصيرَه إليه، يُوقفه بين يديه، ويُشْهِدُه على نفسه، ويجازيه بما يستحقُّه. فأما المُصَدِّقون بالله ورسوله والمتبعون ذلك بالأعمال الصالحة، فسيجازيهم بالثواب الكامل، ويزيدهم درجات من فضله، وأما المستكبرون فيعذبهم عذاباً مؤلماً للأجساد والأرواح، ولا يجدون لهم من دونه مَنْ يلي أمرهم، فيَجْلِبُ لهم مطلوباً، ولا مَنْ ينصرهم، فيدفع عنهم مرهوباً.

الفوائد والاستنباطات:

١- النهيُ عن الغلوّ في الدين، فهو من أعظم الآفات.

٢- حسن عاقبة مَنْ آمن بالله واعتصم به، وسوء عاقبة مَنْ استكبر عن عبادته.

٣- العبودية لله تعالى عزٌّ وشرفٌ.

٤- بيان فضل الملائكة وعبوديتهم التامة لربهم.

٥- يستنبط من الآية (١٧٣) الوقف النبوي عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، فقد صَحَّ عن حذيفة رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ إذا مَرَّ بآية فيها ذِكْرُ الجنة سأل، وإذا مَرَّ بآية فيها ذِكْرُ النار تَعَوَّذ، وكان إذا مَرَّ بآية فيها تنزيه سَبَّح». (صحيح مسلم، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ٢/١٨٧). وثبت أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إنَّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف اقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا تختموا ذكر عذاب برحمة». (السنن الصغرى للبيهقي، باب ما جاء في قوله: أنزل القرآن، ١/٣٢٥). قال الحافظ أبو عمرو الداني: فهذا تعليم التام من رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام إذ ظاهره إذا كان بعدها ذكر الجنة والثواب وكذلك يلزم أن يقطع على

الآية التي فيها ذِكْرُ الجنة والثواب وتفصل ممَّا بعدها أيضاً إذا كان بعدها ذِكْرُ النار والعقاب. (المكتفى ص١٣١). وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد عن أبي طلحة ﷺ مرفوعاً بنحوه، وكذا عن أبي بكرة ﷺ. (المسند ٢٦/ ٢٨٥ برقم ١٦٣٦٦) حسنه شعيب الأرناؤط. والمسند ٣٤/ ١٤٧ برقم ٢٠٥١٤ قال محققوه: صحيح لغيره. وحسنه الحافظ ابن كثير ١/ ٢٢ طبعه الأثري وصححه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٣٤٢). وينظر: المزيد في تفسير سورة الأنعام الآية (٦٥) الفائدة رقم (٥). (ح)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾
يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا
تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا
وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

التفسير:

١٧٤- بعد قيام الحجج وجلائها، وتداعي الشُّبَه ودَحْضِها، يرشدُ تعالى الناس جميعاً إلى حقيقة صدق رسالة النبي ﷺ وما جاء به من براهين ومعجزات، وأعظمها القرآن الذي أنزله الله بما له من العظمة والقدرة والعلم والحكمة، فأقام الحجة بإعجازه وحسن بيانه، وأبان المحجَّة بجمعه بين تحقيق النقل وتبصير العقل؛ فلم يَبْقَ لأحَدٍ من المخاطبين به أيُّ عذر، وأنار للبشرية طريقها بما حَواه من حِكَمٍ وأحكامٍ، ومقاصدَ وفوائدَ.

١٧٥- وعد الله مَنْ آمن به واستمسك بحبله المتين برحمةٍ واسعةٍ لا منتهى لها وفضلٍ عظيمٍ، لا حَدَّ له في الآخرة، اختصَّ الله بهما وادَّخرهما لِـمَنْ آمن به واعتصم، ويرشدهم إلى دين الإسلام وما فيه من المعالم العظام.

١٧٦- خُتِمَتْ الآيات بما استهلَّتْ به من أحكام الميراث التي شرعها الله تعالى؛ رحمةً بعباده، وهدايةً لهم، وصوناً لحقوقهم، وحمايةً لثرواتهم بإيصالها إلى مَنْ هو أولى بها وفق التشريع الرباني العادل، وقد سأل الصحابةُ ﷺ رسولَ الله ﷺ عن الرجل يموت، ولا وارثَ له من والد أو ولد، وله أخت لأبوين أو لأب، فكان هذا البيان القرآني: للأخت نصف ما ترك أخوها من مال أو عقار أو أثاث أو متاع، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد؛ لأنَّه عاصبٌ فيأخذ ما تبقَّى بعد أصحاب الفروض، أو ينفرد بالمال إن لم يكن ثمَّةَ وارثٌ،

فإن كانتا اثنتين - أي: أختين - فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً، فهم عَصَبةٌ، وللذَّكَر مثل حظ الأنثيين بعد أصحاب الفروض إن وُجِدُوا. والله عليم بما فيه المصلحة للعباد والبلاد.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من رحمة الله ﷻ إثبات البراهين التي تقيم الحجة وتنير الطريق.

٢ - بيان فضل التمسك بأحكام الله ﷻ.

٣ - وجوب السؤال لمعرفة الحكم الشرعي، فالسؤال مفتاح العلم والفهم.

٤ - بيان الحقوق المالية في الميراث، وتأكيدها.

النزول: مدنية.

فضل السورة: من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْره في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١ - بيان موقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام.

٢- تقرير عدالة الإسلام ورحمته للإنسانية.

٣- بيان كثير من أحكام الأطعمة و الأشربة.

٤ - حِماية المجتمعات من الجريمة، وتوجيهها إلى الفضائل.

٥ - التَّحذير من مُوالاة اليهود والنَّصارى.

٦- حرص الشريعة على تيسير الأحكام على الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

التفسير:

١ - جاء النداء الأول في هذه السورة بدعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود. والعقود تشمل كلَّ ما عقده الله على عباده، وألزمهم به من الأحكام، وما بين العباد من عقودٍ، كعقود الأمانات، والمبايعات، وسائر أنواع العقود المشروعة. ومن رحمة الله وتيسيره بالعباد وعنايته بهم أن أحلَّ لهم ما فيه خيرٌ ومنفعةٌ، من ذلك الإبل والبقر والمعز والضأن، وما يشبهها من سائر الحيوانات التي ترعى، فهي حلال إلا ما استثناه الله تعالى، كما حَرَّم الله الصيد على المحرمِ بالحج أو العمرة أو بهما، ولو في غير الحَرَم. وختامُ الآية تقريرٌ لهذا الحكم، فهو تعالى خالقُ كل شيءٍ ومليكه، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

٢ - نداء من الله لعباده المؤمنين ينهاهم عن استحلال نُسُكِه وفرائضِه، والتقصيرِ فيها، أو التهاون في أدائها، كما نهى عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم، وهي: رجب وشوال وذو القعدة وذو الحجة، فلا يقاتَلُ فيها إلا مَنِ اعتدى. ولا يجوز التعرُّض للهَدْي الذي يسوقُه الحُجَّاجُ والعُمَّارُ، ولا لقلائد الهدي فهي أعظم حرمة لأنَّها مقلَّدةٌ تعظيماً لله، ولا يجوز التصدي لِـمَنْ قصد البيت الحرام بمنعه من أداء النسك بعد أن شرع فيها، كيف يُمنع وهو يرجو الفضل العظيم والرضوان الكبير من خالقه، ومُدَبِّرِ شؤونه؟ ولا يَحْمِلَنَّكم بُغْضُ قومٍ على الاعتداء عليهم، أو ظلمهم، وهضم حقوقهم، فتلك جريمةٌ شنيعةٌ. ولما نهى عنه أمر بالتعاون على البرِّ والتقوى والبرُّ جماعُ الخير، والتقوى هي الخوف من الله تعالى، واجتناب محارمه، وامتثال أوامره، كما نهى الله تعالى عن التعاون على الإثم والاعتداء، فليس هذا من أخلاق أهل الإيمان، ثم أمر عباده بالتقوى، وتَوَعَّدَ مَنْ خالف بالعقاب الشديد.

الفوائد والاستنباطات:

١ - اشتملت هذه السورة على ستة عشر نداءً إيمانيّاً، كلُّ نداءٍ يحملُ للمؤمنين توجيهاً وإرشاداً فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم في الدارَين.

٢- وجوب الوفاء بالعقود التي أوجبها الله تعالى وشرعها، وتشمل حقوق الله تعالى، وحقوق العباد.

٣- فَضْلُ الله وتيسيره على عباده؛ إذ وَسَّعَ لهم نطاقَ المباح، وضَيَّقَ دائرة المحرمات، فهي مقصورة على ما فيه ضررٌ للنفس، أو إضرارٌ بالآخرين.

٤- حكى بعض المفسرين: أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعملُ مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجَتْ سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحَلَّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أَحَد أن يأتي بهذا. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣١).

٥- تعظيم حُرُماتِ الله تعالى وشعائِرِه فيه خيرٌ عظيمٌ، وبرهانٌ جَلِيٌّ على صدق التقوى.

٦- وجوب التعاون على البر والتقوى، وحرمة التواطؤ على الإثم والعدوان.

٧- شرائع الإسلام تهدف إلى تأليف القلوب، وتوحيد الجهود، وتحقيق الخير للإنسانية. وتلك رسالة الإسلام، رسالة الخير والرحمة للإنسانية والنهوض بها.

٨- تكرار الأمر بتقوى الله تعالى؛ لترسيخها في القلوب، فينبغي أن يكون المؤمنُ تقيّاً وعوناً لغيره على تقوى الله، وينبغي التواصي بذلك؛ فالتقوى وصية الله للأوَّلِين والآخرين.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

التفسير:

٣- حَرَّمَ الله الميتة، التي ماتت دون تَذْكِيَةٍ، والدمَ المسفوح، وكانوا يطبخونه في الجاهلية، أو يسفحونه من الأنعام وهي حية، فيحتسونه أو يطبخونه، وحَرَّم لحم الخنزير، وما ذُبِح لغير الله تعالى، كمن يذبح للصنم أو للنار أو للجن، أو لغير ذلك من الطواغيت، وسائرِ ما يُعْبَدُ من دون الله، وكذلك المنخنقةُ سواءٌ خَنَقَتْ نفسَها أو خَنَقَها غيرُها، والموقوذةُ وهي التي ضُربت بعصا أو بحديدة أو خشبة ونحوها حتى ماتت، والمتردِّية التي تَرَدَّتْ من شاهقٍ، أو تَرَدَّتْ في بئر ونحوِه ، والنطيحةُ التي نُطِحَتْ حتى فارقت الحياة دون ذكاةٍ، وأكيلةُ السبع إلا ما أُدرِك وذُكِّيَ، وكذلك ما ذُبِح على النُّصُب، وهي الحجارة التي كانوا يضعونها حول الأصنام، وما يترتب على الاستقسام بالأزلام - وهي القِداحُ التي كانوا يستخدمونها في الجاهلية لمعرفة ما قُسِمَ لهم من الخير والشر - وهو ضَرْبٌ من الكِهانة، ورَجْمٌ بالغيب. وكلُّ ذلك من الخروج عن شرع الله ودينه، وقد يئس أعداءُ الإسلام من إطفاء نوره، بعد أن أظهره الله تعالى، فلا تخشوهم، فالخشية لله جلَّ وعلا، وقد أكمل لنا الدينَ، وأتمَّ علينا النعمة، ورَضِيَ لنا الإسلام، اختاره لنا واخترانا له. وهذا من رحمته تعالى بنا وتَفَضُّلِه علينا، فعلينا أن نرتضيه شرعةً ومنهاجاً، وسلوكاً وآداباً. فمَنِ اضْطُرَّ لشيء من هذه المحرمات لجوعٍ شديدٍ فله أن يأكل منها بقَدْرِ ما يَسُدُّ الرمق، دون أن يميل قلبُه إليها، فيستمرئ الإثم، ويستعذب الحرام، فما هي إلا الضرورةُ المُلِحَّة، والله تعالى يغفر له ما أسلف. وهذا من رحمته تعالى: عن طارقِ بنِ شهابٍ قال: قال رجلٌ من اليهودِ لعمرَ بنِ الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابِكم، لو علينا معشرَ اليهودِ نزلت هذه الآية، لاتَّخذنا ذلك اليومَ عيداً، فقال عمر: والله

إني لَأعلمُ أيَّ يومٍ نزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله، والساعةَ التي نزلَتْ فيها، وأينَ أُنزِلَتْ؟ وأينَ رسولُ الله حين أنزلتْ؟ نَزَلَتْ عشيةَ يومِ عرفةَ، وفي يومِ الجمعةِ، وإنَّا واللهِ بعرفةَ، ورسولُ الله واقفٌ بعرفة، وكلاهُما بحمدِ الله لنا عيدٌ. (صحيح البخاري، كتاب المغازي باب حجة الوداع، برقم ٤١٤٥، وصحيح مسلم، التفسير ٤/ ٢٣١٢، ٤/ ٣٠١٧).

٤- بعد بيان ما حَرَّم عليهم من الذَّبائح بَيَّنَ تعالى ما أحلَّ لهم، فكل ما طاب أكلُه وناسب طبيعة الإنسان فهو حلالٌ طيِّبٌ؛ ولذا شرع الإسلام التذكية، وحرَّم كلَّ مستخبثٍ، وحرَّم الميتةَ، وكلَّ ما لم تُدْرَكْ ذكاتُه وهو حيٌّ، وأحلَّ الله تعالى ما صادته الكلاب والطيور وغيرها من الجوارح التي يصيدون بها بمهارة وحِذْقٍ، وهو من العلوم النافعة التي امتَنَّ الله بها عليكم. فاذكروا اسم الله على الصيد عند إدراكه، واتقوا الله في سائر أموركم، فإنَّ حسابه آتٍ، وهو الذي يَفْصِلُ بين عباده في زمن يسير. وفي هذا تحذيرٌ لِـمَنْ انتهك الحدود.

٥- أحلَّ الله طعام أهل الكتابِ، كما صرَّح بحِلِّ طعامنا لهم، وأحلَّ الله نكاحَ المحصنات، أي: العفائف من المؤمنات، كما أحَلَّ المحصناتِ من الكتابيَّاتِ يهوديةً كانت أو نصرانيةً، وقدَّم المؤمنةَ لأنَّها أولى وأجدرُ، وبَيَّنَ تعالى حَقَّ الكتابية في المهر، وحَذَّرَ من الكفر بأصول الإيمان أو شرائعه؛ لما قد يترتب على مخالطة أهل الكتاب من ميلٍ قلبي يُفضي إلى انتكاسة، أو تضييعٍ للدين؛ وذلك لبيان أن الزواج بالكتابية لا يعني قبول ما هي عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- أفاد قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ على كل آخذٍ علماً ألَّا يأخذه إلا مِنْ أَقْتَلِ أهله علماً، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل. (انظر: الكشاف للزمخشري ١/ ٦٤١). والعالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأنَّ الكلب المُعَلَّم له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له عِلْمٌ أولى. (انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٧٤).

٢- الأمر بتقوى الله في سياق بيان أحكام الصيد إشارةٌ إلى أنَّ الحياة كلَّها - جِدَّها ولهوَها - ينبغي أن تخضع لتقوى الله تعالى، وأنَّ المؤمن يراقبُ الله تعالى في سرِّه وعلنه، في خلواته وجَلَواته، وفي سائر المواطن وشتى الميادين، حتى البراري والقفار التي يصيد فيها ينبغي أن يعمرَها بتقوى الله.

٣- في حِلِّ طعام أهل الكتاب ونسائهم تيسيرٌ على الأمة، ورَفْعٌ للحرج، ودعوة للترابط بهذا الميثاق الغليظ، والتعايش بين المسلمين وأهل الكتاب.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾

٦- سبب النزول:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: سَقَطَتْ قِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المدِينَةَ، فَأَنَاخَ النَّبِيُّ ﷺ وَنَزَلَ فَثَنَى رَأْسَهُ فِي حَجْرِي رَاقِداً، فأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَلَكَزَنِي لَكْزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ! فَبِي المَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَتْ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ: لَقَدْ بَارَكَ اللهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَةٌ لَهُمْ. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المائدة برقم٤٣٣٢).

التفسير:

نداء الرحمن لأهل الإيمان؛ لبيان مشروعية الوضوء إذا قاموا إلى صلاتهم، فالطهارةُ من الحدث شرطٌ من شروط صحة الصلاة، لا تَصِحُّ ولا تُقبَلُ بدونها، فجميع الصلوات يُشترط لِـمَنْ دخلها الطهارة، فأمر تعالى بغسل الوجه واليدين إلى المرفقين، وحدود الوجه من الأذن إلى الأذن عَرْضاً، ومن منبت الشعر إلى منتهى اللَّحْيين طولاً، والفرضُ فيه الغسلُ، والفرض في اليدين الغسل إلى المرافق، أي: معها، فهي داخلةٌ في الفرض، والمسح على الرأس كله، ويجوزُ مسحُ بعض الرأس، وقوله: ﴿ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ عطفٌ على ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ فالفرض في الأرجل الغَسْلُ؛ لأنَّ العطف هنا يقتضي الاشتراك في الحكم، وأمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة التي تحصلُ بنزول المني أو الإيلاج، كما بَيَّنَ تعالى الحكمة من الوضوء وهو التطهر، ورفع الحرج والتيسير على الأمة، وإتمام النعمة، فيسَّر اللهُ تعالى لعبادِه وشَرَعَ لهم ما فيه طُهْرُهم وارتقاؤُهم وصلاحُهم، وفلاحُهم، فكان التطهُّر للصلاة لأنها معراجٌ إلى الملكِ القدوس، فواجبُ العبد أن يتهيَّأ لها بطهارة الروح والبدن؛ ليكون أهلاً للوقوف في ساحةِ القُدْسِ، ويظلَّ متأهِّباً لهَدْي الله ورسوله. وقد شرع اللهُ التيمم تيسيراً على عباده المؤمنين، ورفعاً للحرج عنهم، إذا فُقِدَ الماءُ، أو تَعَذَّرَ استعمالُه لقلَّته، أو لمرضٍ أو لبردٍ شديدٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإسلام دينُ الطهر والنقاء، جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن.

٢- رفعة القرآن الكريم وروعة أساليبه. تأمَّلْ كنايته عن قضاء الحاجة، كذلك التعبير عن الجماع بالملامسة، ففيه من السمو والرفعة ما فيه.

٣- رحمة الله تعالى بعباده، وتيسيره عليهم، ورفع الحرج عنهم.

٤- في الآية رَدٌّ على الموسوسين الذين يبالغون في استعمال الماء.

٥- شعائر الإسلام تستوجب الشكر؛ لأنَّها تهدف إلى طهارة المسلم، وتمام الإنعام.

٦- من سمات أسلوب القرآن الفصاحة في الألفاظ والعذوبة في الكلمات، تأمَّلْ التعبير بالمرافق، ولم يعبر بالمرفقين، كذا في التعبير بالكعبين، دون التعبير بالكعوب لسهولة كلمة (الكعبين).

٧- عَطْفُ الأرجل على مسح الرأس؛ للتنبيه على وجوب الاقتصاد في غسل الأرجل؛ لأنَّ غَسْلَها مَظِنَّةُ الإسراف، فكأنَّها جمعت بين الغَسْل والمسح: الغَسْلُ من جهة تنظيفها فهي عرضةٌ للاتساخ، والمسح يعني الاقتصاد في استعمال الماء عند غسلها.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٧- أمر الله عباده المؤمنين باستحضار نِعَمِه عليهم، ومن جملتها: الهداية والتوفيق والنصرة والتيسير والتمكين، وميثاقه العظيم على السمع والطاعة، فهو تعالى عليم بما يَسْتَكِنُّ في الصدور، وما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، مع عِلْمِه تعالى بظواهر الأمور.

٨- ثم ينادي الله عباده المؤمنين أن يكونوا حريصين أبلغَ الحِرْصِ على القيام لله بالحق، متجرِّدين لذلك إخلاصاً لله وإرضاءً له، لا لأجل الناس أو لحاجة في النفس. وأمرهم بالقسط في الشهادة، فلا يجورون فيها، ودعاهم ألَّا يَحْمِلَهم بُغْضُ قومٍ على تَرْكِ العدل فيهم، بل العدل في الرضا والغضب هو ميزان الحق وطريقُ التقوى، ثم أكَّد الأمر بتقواه في سائر الشؤون مقرراً ذلك بعلمه تعالى، وإحاطته ببواطن الأمور.

٩- ولما أمرهم بالتقوى وحَضَّهم على العدل بَيَّنَ تعالى جزاء المؤمنين، فقرن بين الإيمان والعمل الصالح؛ لما بينهما من تَلازُمٍ، فالإيمان أساسُ العمل والعملُ ثمرةُ الإيمان، فمَنْ جَمَعَ بينهما نال المغفرة والأجر العظيم. وهذا وعدٌ ثابتٌ مؤكدٌ، وليس أعظم من رضوان الله وجَنَّتِه.

١٠ - أما عن مصير الكافرين المُكَذِّبين بآيات الله فإلى الجحيم، وَفْقَ قضاءٍ عادلٍ من الله تعالى، فهو العليم بأعمالهم، الحكيم في أقداره وحُكمِه.

١١ - وينادي الله عباده المؤمنين، فيُذَكِّرهم بما امتَنَّ عليهم من نعمة الأمن، وكَفِّ الأذى عنهم، وردِّ كيد عدوهم، فكم صرف عنهم من شرٍّ، وكم جَنَّبَهم من بلاءٍ! وكم سَلَّمهم من مكروه! وكم كَفَّ من أيادٍ بُسِطَتْ بالشرِّ والأذى! وكم لله مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ بأوليائه، فليتقوا الله تعالى فهو كافيهم وحافظهم، وهو وحده الذي يُتَّقى، فمَنِ اعتصم بتقواه حَفِظَه ورعاه، ومَنْ توكَّل عليه كفاه، فعليه وحده يتوكل أهل الإيمان. فإذا اتقاه المؤمن وتَوَكَّلَ عليه، فلن تُرْهِبَه قوى الغدر، ولن تهزمه جحافل الطغيان. ولا يستقيم معنى التوكل إلا بالاجتهاد في الأخذ بالأسباب والارتقاء بها، وعلوِّ الهمة في ذلك؛ فإنَّ السير وَفْقَ سُنن الله تعالى هو السبيل لتحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

الفوائد والاستنباطات:

١- استحضار النعم وشكرها، وتجديد العهد والبيعة مع الله على السمع والطاعة.

٢- من سُنَنِ القرآن أن يتبع ذكر ثواب المؤمنين ببيان عقاب الكافرين؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء، وليزداد أهلُ الإيمان حرصاً وثباتاً على الحق ومسارعةً إليه؛ ففي ذكر جزاء مَنْ عاداهم تثبيتٌ لهم وتسليةٌ.

٣- العدلُ حقٌّ لجميع الناس مؤمِنهم وكافرِهم، وعدوِّهم وصديقِهم.

٤- ذِكْرُ نِعَمِ الله على عباده المؤمنين، ودفاعه عنهم.

٥- الترغيب في تقوى الله تعالى، والتوكل عليه وحده.

٦- استحضار أسماء الله تعالى وصفاته العُلى ممَّا يزيد العبد تعظيماً ومحبةً ويقيناً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى
مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ
فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ
لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا
كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١٢ - يخبر الله جل وعلا مؤكداً هذا الحدث العظيم في تاريخ بني إسرائيل، إذ أخذ عليهم المواثيق، وجَعَلَ فيهم العُرَفاء، وهم المُوَكَّلون بأمر أقوامهم وعشائرهم، الذين يُنَقِّبون في أحوالهم وشؤونهم، ورَغَّبهم اللهُ تعالى في الوفاء والامتثال، وبَشَّرهم بمَعِيَّته لهم، يحفظهم ويَكْلَؤُهم، ويؤيدهم وينصرهم، ووعدهم بالمغفرة والثواب، إن حافظوا على الصلاة، وأدَّوا الزكاة لأهلها، وصَدَّقوا وامتثلوا لرسل الله وآزروهم وعَظَّموهم، وبذلوا الأموال في وجوه الخير وميادين البرِّ، لَيُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم بغفرانها وسَتْرِها، ولَيُدْخِلنَّهم جناتٍ وارفةَ الظلال، يانعةَ الثمار، جاريةَ الأنهار. فمَنْ كفر بعد ذلك، بنقض الميثاق أو إنكار شيء منه، فقد ضَلَّ عن طريق الحق الواضح المستقيم.

١٣ - فبسبب نَقْضِهم الميثاقَ، وقلة اكتراثهم بالحقِّ، استوجبوا اللعن، واستحقوا الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وعُوقبوا بالحرمان من نعمته، مع قساوة قلوبهم فلا تنزع إلى خير، ولا تَرِقُّ لذِكْر، ولا تلين لموعظة، ولا تتفتَّح لقبول آياته لتفيء إلى أمر الله، حتى بلغت هذا الحَدَّ من التلاعب بالألفاظ بالزيادة والنقص والتصحيف، والتحريف للمعاني بالتأويلات الفاسدة، وصرفِ اللفظ عن معناه ومغزاه، حتى صار ذاك دَيْدَنهم وهِجِّيراهم، فلا عجب أن تفضي بهم إلى النسيان لحظٍّ وافرٍ مما ذُكِّروا به من خيرٍ وهُدى. وجرائم اليهود المتعاقبة دليلٌ على نَقْضِهم للعهودِ ونبذهم للمواثيق، وما طُبِعوا عليه من غدرٍ وخيانةٍ، فلا يمرُّ يومٌ ولا ينقضي ليلٌ إلا ويُسْفِرُ عن جرائمهم التي لا حَدَّ لها. وقد دعا الله تعالى، ورغَّب في العفو

والصفح والتسامح تأليفاً للقلوب وإزالةً للضغائن ونزعاً للأحقاد، فالله تعالى يحب عباده المؤمنين الذين يقابلون الإساءة بالإحسان.

١٤ - بَيَّنَ تعالى حال الطائفة الأخرى، الذين زعموا أنَّهم يناصرون المسيح، وأنَّى ذلك وقد أُخِذَ عليهم الميثاق لكنهم تركوا حظّاً مما ذُكِّروا به، فبَدَّلوا وغَيَّروا ووقعوا في الغلوِّ والضلال، فتفرَّقوا أحزاباً وشيعاً، وتفرَّقوا طوائف ونِحَلاً. تلك الآفة عقوبة لهم على النسيان، مع العداوة التي دَبَّت إلى قلوبهم، وخَيَّمت في صدورهم والبغضاء التي ألقت بكَلْكَلِها عليهم، فلا تجتمع لهم كلمةٌ، ولا تصفو مودةٌ، بل يقاتلُ بعضُهم بعضاً، ويضطهدُ قويُّهم ضعيفَهم ويقهرُه، ولا تزالُ كلُّ طائفةٍ منهم تَدَّعي أنَّها الباقيةُ على الحقِّ، وتُكَفِّرُ غيرها، وتَحْمِلُ البغضاء لها، ولَسوف يحاسبهم الله تعالى على جرائرهم، ويجازيهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - النسيانُ الذي يراد به الترك والتضييع للأوامر، وهو آفةٌ من الآفات، تُفْضِي إلى الحِرْمان والحَسَرات، وهو عمليٌّ وعلميٌّ، وقد نَتَجَ عن النسيان الـحَيرةُ والفُرقة والشقاق، وعبَّر بالماضي ﴿وَنَسُوا﴾ لأنَّ النسيانَ مضَى وانقضَى مع بقاءِ آثارِه، ومنها ضَياعُ نصيبٍ كبيرٍ من كلام الله، واختلاطُ ما بقي بكلام غيرِه. وعَطَفَ النسيانَ على التحريفِ لما بينهما من تلازُمٍ، فالنسيانُ آفةٌ ناجمةٌ عن التحريف.

٢ - نَقْضُ اليهود للمواثيق والعهود دَيْدنهم وهِجِّيراهم، فينبغي الحذرُ منهم.

٣ - قسوة القلوب آفة عظيمة، كم أفْضَتْ إلى أهوالٍ عظامٍ، فقد دفعت اليهود إلى تحريف كلام الله إلى ما يوافق أهواءهم الجامحة ونفوسهم المعتلة وميولهم العدوانية ونزعاتهم العنصرية، وهنا تبرز الصلةُ الوثيقةُ بين قسوةِ القلوبِ، وتحريفِ الكلم عن مواضعِه، ولا قسوةَ أعظمُ من الجُرأة على تغييرِ كتابِ الله وتحريفِهِ.

٤ - بيان من إعجاز القرآن الكريم التاريخي والمستقبلي، فقد نشر صفحات من الماضي، وجلَّى أنباء المستقبل، وأكَّد بقاء كثير من اليهود والنصارى على موقفهم العدائي، وخياناتهم المتكررة، فلا يمرُّ يومٌ، ولا ينجلي صبحٌ إلا على مكايدَ لأعداء الدين من اليهود والنصارى، تُضاف إلى سِجِلِّهم الحافل بالضغائن، مع ما تبوح به ألسنتهم، وتنفثه صدورهم من عداوات.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ
تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن
يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ
أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ
مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - بعد أن تحدَّث القرآن عن أحوال الطائفتين، دعاهم إلى الإيمانِ بهذا النبيِّ ﷺ الذي جاء ليُبيِّنَ لهم كثيراً مَّا أخفوه من الحقائق والحوادث التي وردت في التوراة والإنجيل، وقد أخفاها بعضُ الأحبار والرهبان عن أتباعهم، أو تناسَوها، كإخفائهم لأوصاف النبي ﷺ وإخفائهم لآية الرجم، وغير ذلك من الحقائق والأحكام، وإن ترك ما لا تدعو الحاجةُ إلى بيانه، ففيما بَيَّنَه الكفايةُ والغُنْيَةُ.

١٦ - والنبي ﷺ نور من الله تعالى لأنَّه جاء بالهدى والحق، والقرآن نُورٌ عظيمٌ وكتاب مُبِينٌ؛ لأنَّه أضاء للناس طريقَهم، وأنار دروبَهم، وأبانَ لهم ما خَفِيَ عليهم، وبَدَّد ظلامَ الشكِّ والحَيرةِ، فهو الهداية إلى سبل الهدى والسلام في الدارين، وهو المخرج من ظلمات الفتن، ودياجير الضلال والحيرة، إلى نور العصمة والهداية.

١٧ - وتُقرِّر الآية كُفْرَ مَنِ اعتقد أنَّ المسيحَ ابنُ الله، فالمسيح ﷺ بشرٌ رسولٌ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وإن أراد الله أن يُهلكه وأُمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً فلا يملك أحدٌ من الخلق أمراً، وكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أَحَدٌ من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضُرّاً كتبه الله، فضلاً عمَّنْ يدفع عن غيره ما حَلَّ به.

١٨- زعم اليهود والنصارى أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، فما البيِّنة على حُبِّ الله لهم؟ وماذا قَدَّموا لينالوا محبة الله؟ وهل يُقَصِّر المحبُّ في شأن حبيبه، ويفرِّطُ في حقوقه، ويأتي بما يُسخطُه، أو أنَّهم من جنسٍ آخر؟ بل هم بشرٌ كسائر البشر، قد أثقلتهم الخطايا، والخلق كلُّهم سواء. مَنْ شاء الله عذَّبه ومَنْ شاء غفر له، فإن عذَّب فبعَدْله، وإن غفر فبرحمته وفضله، فالكلُّ عبيدُه، يتصرف فيهم كيفما أراد، وإليه مآبهم يحكم فيهم.

١٩- ويأتي النداء لأهل الكتاب يُعْلِمُهم بمجيء خاتم النبيين بعد اندراس السبل، وفترة من الرسل بالبيانِ القاطعِ والبرهانِ الساطعِ؛ لئلَّا يكونَ لهم على الله حُجَّةٌ، ولا يبقى لهم عذرٌ. والله تعالى قادرٌ على إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات الباهرة والآيات البيِّنة، وقادرٌ على نصرهم وخِذْلانِ مَنْ تولَّى عنهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- حَثُّ أهل الكتب، وترغيبهم في الإيمان بخاتم النبيين، فقد جاء بالحجج النيِّرة، والآيات الباهرة، والخير للإنسانية.

٢- جمع ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لتعدد أسباب السلام وميادينه وكثرتها.

٣- بطلان معتقد النصارى في المسيح؛ إذ الابن لا يكون عبداً لأبيه، وبطلان دعاوى اليهود والنصارى أنَّهم أبناء الله البررة وأحباؤه.

٤- جواز تَرْكِ ما لا تدعو الحاجة إلى بيانه أو تأخيره، اكتفاء بما بُيِّن.

٥- خُلُق المداراة والإعراض من أدب النبي ﷺ يدلُّ على حسن المعاشرة، ودوام الألفة والإقبال، والتشويق والترغيب.

٦- بعثة الرسول بعد فترةٍ من الرسلِ، وقد هاجَتِ الأشواق، واشرأبَّت الأعناق أدعى إلى المبادرة للإيمان به، ومناصرته ومحبَّتِه، لا إلى مُناصَبَتِه العداءَ، وجحودِه والتآمُرِ عليه؛ فالقلوب الصافية تَحِنُّ شوقاً لهذا النبيِّ ﷺ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم
مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ
وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ
يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا
هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير

٢٠- في هذه الآياتِ مشاهدُ ومُساجلات بين موسى عليه السلام وقومه، تكشفُ عن تمرُّدِهم وعنادهم، وتنمُّ عن سوء أدبهم وتقاعسهم عن نصرة نبيهم، وهذا موسى عليه السلام يُذَكِّرهم بنِعَمِ الله الجليلة عليهم، لعلَّ قلوبهم تَرِقُّ وتلين، ومن بينها أن جعل فيهم أنبياء يهدون للخير، وجعل منهم الملوك بعد أن كانوا أرقَّاء مستضعفين، خَدَماً مقهورين، كطالوت وداود وسليمان عليهم السلام، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من عالَمِي زمانهم، وفَضَّلهم على عالَمِي زمانهم، كما فَضَّل أُمة محمد ﷺ على سائر الأُمم قاطبةً.

٢١ - وبعد أن ذكَّرهم بنِعَمِ الله عليهم، وذكرهم بماضيهم القريب، وما آل إليه أمرُهم من هدايةٍ وتمكينٍ هيَّأهم لهذا التكليف الذي ينتظرهم فأمرهم بدخول بيت المقدس، وبشَّرهم بأنَّ الله تعالى كتب لهم دخوله، تأكيداً للأمر، وحضّاً على المبادرة إليه فالنتيجةُ سابقة، وما عليهم إلا المبادرة والعاقبةُ مأمونةٌ والمعركة محسومة، فإن تقاعسوا عن أمر الله فقد ارتدُّوا على أدبارهم، وانتكسُوا، وباؤوا بالخذلان والخسران.

٢٢- و بعد كلِّ هذه المقدمات أظهروا تخاذُلهم، ونقضوا عهد الله ووعده، وقالوا لنبيهم: إنَّ فيها قوماً أشداء أقوياء، نخشى بأسهم، ولا طاقة لنا بلقائهم، وعَلَّقوا دخولهم على خروجِ أهلها عندئذٍ يدخلون آمنين سالمين.

٢٣- لكنَّ للحقِّ رجالَه وإن عَزُّوا، فهذان رجلان صالحان من خيرة الرجال يقفان وقفةً جديرةً بأن يسجِّلها الله في أشرف كتبه وأعظمها. إنَّما الرجولةُ والشهامة التي تظهر في المواقف العظام، مع دوام الخوف من الله؛ فإنَّ مَنْ خافه لا يخاف من أحد سواه، ومَنْ لم يخف الله تعالى خاف من كلِّ شيء. من أجل ذلك

جاءت نصيحتهم العظيمة: لتكن المبادرة منكم، فخذوا بالأسباب، وأطيعوا ربكم، واتَّبِعُوا نبيَّكم، واقتحِمُوا على الجبابرة معاقلهم، تنالوا النصر والغلبة عليهم. ومع الأخذ بالأسباب فتوكَّلوا على واهبها ومليكها إن كنتم مؤمنين، فالتوكُّل من أحوال الصادقين، وبقدر الإيمان يكون التوكُّل.

٢٤- لكنَّ القومَ مع هذا كله أصرُّوا على موقفهم، وتمادَوا في غيهم، وحسموا موقفهم، موقف التمرُّدِ والعصيان والتقاعس والخذلان، فأجابوا إجابة الجبان المتخاذل، دون اكتراثٍ ولا احتشامٍ، خاطبوا نبيَّهم بما ينمُّ عن سوء أدبٍ، مؤكِّدين أنَّهم لن يدخلوها أبداً طالما بقي فيها أولئك الجبارون، إلا أن يخرجوا، فعندئذ يدخلونها فاتحين ظافرين دون أن يُراقَ لهم دم، أو تتغبَّر لهم قَدَمٌ، أو يُقَدِّموا أدنى تضحيةٍ.

٢٥- وهنا لم يملك موسى ﷺ إلا أن يتوجَّه إلى خالقه وناصره، مبيِّناً ثباته على العهد، وتأهُّبه هو وأخوه هارون للأمر، ويقينهما بالوعد، ومبدياً الأسى والاعتذار، وراجياً المفاصلة بينه وبين الخارجين عن طاعته المارقين عن أمره.

٢٦- فعاقبهم الله تعالى في التيه بصحراء سيناء، وحَرَّم عليهم دخول بيت المقدس أربعين سنة تأديباً لهم، وأوصاه بألَّا يأسفَ عليهم؛ فهم خارجون عن الطاعة، مجاهرون بالمعاصي.

الفوائد والاستنباطات:

١- دلَّت القصة على طبائع غالب اليهود الرديئة، وأخلاقهم الذميمة، ومنها: الجبن والتخاذل والتقاعس، وسوء الأدب، وما لحق بهم من المذلَّة والهوان والحرمان.

٢- في القصة تسليةٌ للنبي ﷺ؛ فإذا نكث اليهود مع نبيهم الذي بُعث فيهم ونجَّاهم الله به، فما عسى أن يفعلوا مع خاتم النبيين عليهم السلام! وقد عرفوا فأنكروا، ولاحت لهم الحُجَجُ فكابروا، وحَمَلَهم البغي والحسد على معاداته.

٣- بقَدْرِ المحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، يكون امتثال العبد لربه.

٤- التوكل على الله تعالى من ثمرات الإيمان وعلاماته.

٥- التقاعس عن الجهاد يقود إلى التيه والضياع والشتات.

٦- ينظر: صورة صحراء سيناء في الملحق لبيان مكان التيه.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧ – في هذه القصة بيانٌ لأول جريمة في تاريخ البشرية، ودوافع أول بادرة غدرٍ، فهي جديرةٌ بأن تتلى؛ ليُنتفع بها. وقد بدأت فصولُها بتنافسٍ بين الأخوين ابني آدم في القربان، أما أحدهما فقدَّم أجودَ ما عنده عن طيبِ نفسٍ راجياً القَبول، وأما الآخر فتقاعس في هذا التنافس، وقَصُرَتْ هِمَّتُه، فقدَّم أردأ ما لديه، وجلس يترقَّب القَبول، فتقبَّل اللهُ من الصالح قُرْبانَه، ولم يَتَقَبَّلْ من الآخر. وهنا قال لأخيه متوعِّداً: لأقتلنَّك، فأفصح عما يختلج في صدره، وفضح ما يضمره، دون أن يُفكِّر في سبب ردِّ عمله وخيبة أمله. وكان جوابُ هابيل كافياً لإطفاءِ النار التي تضطرمُ في القلب الحاسد بهذا البَلْسَمِ الرقيق، حين لفت أخاه إلى أنَّ التنافس على رضا الله تعالى ميدانٌ رحيبٌ يتَّسعُ للجميع، وأنَّ ما عند الله من الثواب والعطاء لا منتهى له ولا حَدَّ، فلماذا تَضِيقُ النفوسُ، وتَقْصُرُ الهِمَمُ، والمضمارُ فسيحٌ؟ ولماذا لا ينشغلُ العبدُ بإصلاح نفسه، وتزكيتها وإخلاص نيته وتنقيتها، وتجويدِ عملِه؟ إنَّ القَبولَ للأتقياء، فكن يا أخي تَقِيّاً يقبل الله منك، وفي ذكر التقوى في هذا المقام تخويفٌ له وزجرٌ وصَرْفٌ عن هذا الخاطرِ الرديء.

٢٨-٢٩- ويواصلُ الأخُ البارُّ نُصْحَه متدرِّجاً ومهيِّجاً لمشاعر الأخوة، ومُحَذِّراً من هذا العملِ الآثم فيقول لأخيه: لن أقابل صنيعك بمثله، فأتساوى بك في الخطيئة والجُرم، فكَفُّ يدي عنك ليس عن ضعفٍ أو عجز، لكنه الخوفُ من الله ربِّي وربِّك وربِّ كل شيءٍ، وقَتْلُ النفس الإنسانية عدوانٌ على مَنْ خلقه اللهُ وربَّاه. وهنا تصلُ الكلماتُ إلى نهايةِ المطاف، ويأتي الهتافُ الأخيرُ لعله ينهضُ بتلك النفسِ العليلةِ، ويثيرُ خوفَها من العاقبة الوخيمة، إن هي أقبلت على الجريمة، فلَطالما أصرَّ الحاسدُ على قَتْلِ أخيه البارِّ فإنَّه لن يُبديَ مقاومةً، وليَتَحمَّلِ الجاني مسؤوليةَ جنايتِه، وأوزار من جنى عليه؛ ليهويَ بها في جهنم. وهذا هو الإنذارُ الأخيرُ للجاني؛ لعله يتراجعُ عن عزمِه، كما بَيَّنَ له أنَّ ما يتوعَّد به ظلمٌ، وعاقبة الظالمين النار، وفيه تعريضٌ بما يريدُه أخوه من شرٍّ وهلاكٍ، وتوجيهٌ له إلى الإرادةِ المحمودة، وهي إيثار السلامة.

٣٠- لقد استفرغ الأخ البارُّ جُهْدَه في نُصْحِ أخيه ليَثْنِيَه عن وعيده، ويَصْرِفَه عن جريمته، فهل استجاب ذلك الأخُ القاسي لموعظة أخيه واستعطافه له؟ كيف ونفسُ الحسودِ قد زَيَّنَتْ له هذا الفِعْلَ الشنيع وحَرَّضَتْه عليه، فانقاد لها، وأَقْدَمَ بكلِّ وحشيَّةٍ على قتل أخيه التقي؟ ومثلَ هذا الفعل الشنيع لا تُهَوِّنُه إلا النفوس الجامحة، فباء بالخسران، وأيُّ خُسارةٍ أعظم من قتل نفس بريئة استجابةً لنفسِه الأمَّارةِ وإرواءً لقلبٍ مفعمٍ بالحقد والكراهية؟ وأيُّ خسارة أعظم من أن يتحمل قِسماً ونصيباً من كل جريمة قَتْلٍ على وجه الأرض، ويحرم من صفوِ العيش، ويشعر دائماً بوخز الضمير؟!

٣١- وبعد الجريمة النكراء لم تَطُلْ حيرتُه، إذ بعث الله له مَنْ يرشدُه كيف يَتَصَرَّف؟ غرابٌ يحطُّ على الأرض، وينبشُ فيها، وهنا استوعب الدرسَ وأدرك المطلوبَ منه، ورجع إلى نفسه باللوم؛ كيف وقف عاجزاً عن مواراة أخيه، وساءه ما أقدم عليه، وشعر بالندم على فعلته؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - مشروعية التقرُّب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، وأحبِّها إليه تعالى.

٢ - الحسد من أسباب الصدود عن الحقِّ والكيد لأهله؛ إذ يُعْمِي عن البصائر، ويُصِمُّ عن المواعظ، فينبغي رَدُّ الحاسد عن حسده بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وصَرْفُه إلى النظرِ في أسباب قصوره عن نيل المطالب، والسموِّ إلى المعالي، وتدارُكِ الحظوظ بالعملِ وسلامة القلب.

٣ - في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جَمَعَ في الكلام بين لفظ الجلالة وعنوان الربوبية؛ لتدورَ النفس بين مقام الهيبة والإجلال والتعظيم والمحبة.

٤ - التلطُّف واللِّينُ، والتدرُّج في النصح، أرجى لسماعه، وأدعى لقبوله.

٥ - حاجة المجتمعات إلى التدابير الواقية من الجريمة، بالتربية الراشدة، وغرس بذور المودة والتسامح، ونبذ أسباب الشقاق والعداوة. وكم تَعَلَّمَتِ البشرية - ولا تزال - كثيراً من المعارف، وكم أبدعت كثيراً من الآلات والتقنيات استلهاماً واقتباساً من العوالم المحيطة بها!!

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

٣٢- لخطورةِ جريمة سفك الدماء، وشناعة قتل النفس البريئة، والاعتداء على حقها في الحياة، أوجب الله تعالى على بني إسرائيل في كتبه، وعلى لسان رسله وألزمهم، أنَّ مَنْ قتل مَنْ لا يستحق القتل؛ لأنَّه لم يَقْتُلْ أو يُفْسِدْ في الأرض، فكأنَّما بجُرْمِه هذا قَتَلَ الناس جميعاً؛ فقَتْلُ فردٍ كقَتْل شعبٍ بأسره، ومَنْ أنقذها أو حماها، كمَنْ ينقذ غريقاً أو ينتشل حريقاً، وكالطبيب الذي يداوي العلل، ورجل الأمن الذي يمنع الجرائم قبل وقوعها، والقاضي الذي يحكم بالقصاص على القاتل، ففيه حياةٌ للنفوس، وسائر مَنْ ساهم في إنقاذ نفسٍ فكأنَّما أحيا الإنسانية جميعاً. لقد أرسل الله رسله في بني إسرائيل بالحُجَجِ الباهرة والشرائع القويمة، لكنَّ الكثيرَ منهم بقي على فِسْقِه وإسرافه في الأرض بإهدار الدماء، وهَتْكِ الأعراض، واستحلال الأموال.

٣٣- بيان جزاء المحاربين لله ورسوله؛ فإنَّ حَرْبَ المؤمنين وأَذِيَّتهم حربٌ لله ورسوله، وخروجٌ عن طاعة الله ورسوله، والحكم يشمل كلَّ محاربٍ، سواءً كان في بادية أو حَضَرٍ، في طريق أو في بلدٍ، فكلُّ مَنْ يقطع الطريق ويُرَوِّع الآمنين، ويُرَهِّبهم، ويسعَى في الأرض مفسداً فيها، ومفسداً لها، فالفساد وسيلتهم وغايتهم، فجزاؤه القتلُ أو الصلب بلا هوادة ولا رفقٍ، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خِلاف - بقَطْعِ اليد اليمنى من الرسغ، والرِّجْل اليسرى من الكعب - بدون لينٍ ولا رأفة، أو النفي من الأرض. فمَنْ قتل ونهب المال قُتِلَ وصُلِبَ، ومَنْ أخذ المال ولم يَقْتُلْ قُطعت يده ورِجْلُه من خِلاف، ومَنْ أخاف السبيل ولم يَقْتُلْ ولم ينهب مالاً نُفِيَ من الأرض التي يستقوي فيها، ويفسدُ عليها. هذا العقاب المهين خزيٌ في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عذابٌ أليمٌ لا يطاقُ.

٣٤- واستثنى الله مَنْ تاب قبل أن يُقْدَرَ عليه، والكافر المحارب إذا أسلم؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، أما مَنْ حارب مِنْ أهل القبلة، وتاب قبل التمَكُّن منه، فقد سقط عنه حقُّ الله، وبقي حقُّ الآدميين من دماء وأموال. ويَحِقُّ لولي الدم أن يعفوَ كما يحقُّ لصاحب المال إسقاطه. وفي ختم الآية بالاسمين الجليلين ترغيبٌ في العفو والمسامحة لِـمَنْ تاب قبل أن يُقدر عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في تخصيص بني إسرائيل بالذِّكْرِ تقريرٌ للحكم الشرعي، وبيانٌ لكونه أصلاً من الأصول التي اتفقت عليها الشرائع، وإنكار لحال المفسدين منهم.

٢- بَيَّنت الآيةُ الثانيةُ حدَّ الحِرابة، وهو يتفاوت بحسب الجُرم.

٣- يجمعُ القرآنُ بينَ الحُكْمِ الشرعِيِّ والحكمةِ منه. وفي هذا تقريرٌ للأحكام، وترسيخٌ لها في القلوب، ودَفْعٌ لما قد يثار حولها من شُبَهٍ واعتراضاتٍ، كما يَعْقُبُ الحديث عن المعاصي - مهما عظمت - الدعوةُ إلى التوبة، وفتح باب الأمل والصلاح أمام العصاة.

٤- النفوس الخبيثة التي جُبِلَتْ على الشر تحتاج إلى ما يردعها، ويَكُفُّ شَرَّها، والنفوس الطيبة الوادعة تحتاج إلى مَنْ يحميها ويَصُونها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ
بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ
وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣٥- لما بَيَّنَ الله تعالى حالَ مَنْ تَعَرَّض لسخَطِه بالإفساد في الأرض، نادى عباده المؤمنين؛ لِيُبَيِّن لهم طريق رضاه، فأمرهم بالتقوى، فهي حِرْزٌ أمينٌ، وسياجٌ حصينٌ للنفس والمجتمع، والمجتمع التَّقي مجتمع صالحٌ آمن، غايته رضا الله تعالى. وأَمْنُ المجتمع وحمايتُه من أعداءِ الإنسانية لن يتحقق إلا بالجهاد، فهو سبيل الأمن والاستقرار والعدل والإنصاف، ومجتمعٌ مؤمنٌ يتنافسُ أفراده على رضا الله تعالى وحده بالقُرُبات والطاعات، ويجاهدون في سبيله تعالى بكلِّ ما يملكون من قوةٍ وعتادٍ، رَفْعاً لكلمته، وحمايةً لعباده، مجتمعٌ آمنٌ مطمئنٌّ، لا مكان فيه للجريمة والفساد، ولا حاجة حينئذ إلى النفقات الباهظة على حماية الأمن.

٣٦- لما ذكر تعالى طريق التقرب إليه وابتغاء مرضاته، بَيَّنَ الله تعالى حال الكافرين، وأنَّ باب التوسُّل أمامهم مُوصَدٌ؛ إذ لم يطرقوه في الدنيا، فلو تملكوا ما في الأرض جميعاً من كنوزٍ وأموالٍ وسهولٍ وجبالٍ وغيرِ ذلك من خيراتِ الأرضِ، ومثل ذلك معهم؛ ليخلصوا به من عذابِ الآخرةِ، ويَتَقَرَّبُوا إلى ربِّهم، ما تقبَّلَ منهم، كيف وقد طُلِبَ إليهم اليسير في دنياهم التي انقضت؟ فمصيرهم إلى عذاب النار الموجع.

٣٧- ثمَّ بَيَّنَ تعالى حالَهم في جهنم وسَعْيَهم إلى الخروج منها، وما هم بخارجين منها، بل ماكثون أبد الآبدين، ولابثون في العذاب المقيم الذي لا انقطاع لوَيْلاته، ولا سبيل إلى الفرار منه.

الفوائد والاستنباطات:

١- قدَّم التقوى على التوسُّل لأنَّها هي الأساس، وبها يتقرب العبد لربِّه، وبدونها لا يُقبل العملُ.

٢- معيارُ القبول هو الإيمان والعمل الصالح مصحوباً بتقوى الله تعالى.

٣- بيانٌ لمنهج الإسلام في تهذيب النفوس والنهوض بها، وترويضها وتزكيتها، بعد أن فتح باب التوبة أمام الجُناةِ والآثمين.

٤- الإيمان والتقوى والتوسُّل إلى الله تعالى بصالح الأعمال وأحبِّها إليه، والجهاد في سبيل الله من أسباب الفلاح في الدارَين.

٥- بَيَّنَتْ الآية صورة المجتمع الذي ينشده الإسلام، مجتمع الإيمان والتقوى، مجتمع الرقي والنهوض، مجتمعٌ تسامَتْ هِمَمُ أفراده، وصَدَقَتْ نياتهم، وتَوَحَّدت أهدافهم، فرِضا الله وقُرْبُه غايتهم، والجهاد سبيلهم إلى العزة والكرامة والفلاح في الدارَيْن.

٦- المنهاج الرباني يقيم الفرد المسلم، وينهض بالمجتمع، ويَصُونه بالأحكام الراشدة والبينات والمواعظ والأمثال البليغة التي تسمو بالأرواح، وتستنهض الهِمَمَ، وتُوقظ الضمائر، وتَجْلُو القلوب، وتزكو بها النفوس، وبذلك تَسْلَمُ المجتمعات من الجرائم.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

التفسير:

٣٨- بيَّنَ الله تعالى جزاء مَنْ سَرَقَ غصباً، وروَّع الآمنين، وعطف السارقةَ على السارقِ؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ المرأةَ إذا سرقت لا يُقامُ عليها الحدُّ رأفةً بها. وتقديمُ السارق على السارقة لأنَّ الرجالَ أجرأُ على تلك الجريمة، وأكثر ما تقع السرقة منهم، وأمر تعالى بقطع يد السارق اليمنى، تُقْطَعُ الكَفُّ إلى المِعْصَم، كما جاء بيان ذلك في السنة. وهذا الجزاءُ عادلٌ لا ظلم فيه، وفيه تنكيلٌ بالسُّرَّاق، أي: عقوبةٌ لهم وردْعٌ وزجرٌ لكلِّ مَنْ هَمَّ بهذا الأمر، والذي حكم هو الخالق سبحانه ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عَزَّ تعالى فحكم، وفي شرعه العزةُ لأوليائه في الدارين، والمذلةُ والهوانُ لِـمَنْ خالفه وعصاه، وهو العزيزُ فلا يمتنعُ عليه شيءٌ، وهو تعالى حكيم في شرائعه وأقداره وسُننه، شرع تلك الأحكام المنطوية على حِكَمٍ ومصالح.

٣٩- فمَنْ نَدِمَ على ما فات، وتدارَكَ ما ضَيَّع، وكفَّ ظُلْمَه، وأصلح ما فَسَدَ من أمرِه، تاب اللهُ عليه وأصلح من شأنه، فهو تعالى الغفور لكلِّ ذنبٍ مهما عظُمَ، الرحيمُ بعباده التائبين، وكما قَبِلَ الله التائبَ فالواجب على المجتمع أن يقبلَه أخاً صالحاً وعضواً نافعاً، لا أن تلفظه المجتمعات، فيعود إلى أوكار الجريمة، ويرتمي في أحضان أهل الشرِّ بعد أن تَبَرَّأ منه أهل الخير، فلا عملٌ شريفٌ يحتويه، ولا بيتٌ كريمٌ يُؤْوِيه، ولا صُحبةٌ صالحةٌ تأخذُ بيده.

٤٠- في الآيةِ تقريرٌ لما سبق من أحكام، فالذي حَكَمَ وَشَرَّعَ هو مَنْ له المُلْكُ التامُّ والتصرُّفُ المطلقُ، وللمالكِ أن يتصرَّف في ملكِه كيف يشاءُ، يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ بعدلِه، ويغفرُ لِـمَنْ يشاءُ برحمتِهِ ولطفِه، وهو القادرُ على إنفاذِ وعيده وإنجاز وعده، فلا يُعْجِزُه شيءٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١- قَطْعُ يدِ السارق عقوبة عادلةٌ ومتوازنة. وإذا نظرنا إلى عقوبات السرقة على مرِّ العصور وجدنا وسطية التشريع الرباني، وعَدْلَه وواقعيته، فالسارق كان يُقتل في بعض الأمم، أو يصيرُ عبداً أسيراً عند من سرقه، بينما في القوانين المعاصرة يُودَع في السجن. وقد يرى بعضهم أنَّها عقوبة يسيرة بالمقارنة بالقتل أو

الاسترقاق أو القطع، لكنها ليست رادعة، وليست كافية لإصلاحه وتهذيبه. وهذه العقوبة وإن كان ظاهرها الشدة فإنَّ باطنها الرحمة، فهي رحمةٌ بالضحايا الذين لا ذنب لهم، رحمةٌ بالضعفاء، ورحمة باللصوص، وهي فَتْحٌ لباب التوبة والإصلاح، ورحمة بالمجتمع حماية له من هذه الجريمة، وتخليصٌ من تلك الآفات، ففيها مراعاة لمصالح العباد وأَمْنِهم، وقد أدَّى التهاون في هذه الحدود وتعطيلها في كثير من البلدان إلى انتشار السرقات.

٢- المنهج القرآني يهدف إلى إصلاح المجرم، وتأهيله للعودة إلى المجتمع، عضواً نافعاً ومؤمناً صالحاً، وعاملاً منتجاً.

٣- التنويه بمنهج القرآن الكريم في بيان الأحكام وتقريرها، ودفع ما يُثار حولها من شبهات.

٤- في خَتْمِ الآيات الثلاث بأسماء الله الحسنى ما لا يُحصى من الفوائد واللطائف، فكل خاتمة مناسبة لآيتها مقررة لما ورد فيها. إذ تُنَوِّه بثمرات معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى، وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع واستقامة الحياة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٤١- نداءٌ للرسول ﷺ، ينهاه الله فيه عن الأسى والحزن من كيد العِدا، الذين يسارعون في الكفر، ويتهافتون عليه، ويتساقطون في ظلماته، من المنافقين الذين أظهروا الإيمان ولَمَّا يَسْرِ إلى قلوبهم التي تمادت في كفرها وغَيِّها، وكذلك من اليهود الذين أولعوا بسماع الكذب حتى صار لهم إلفاً يستعذبونه، وينفرُون

من الصدقِ ويَضيقُون به، ويميلُون إلى مَنْ على شاكلتهم، يلوذون بهم ويألفونهم، ويستجيبون لهم، وينقلون لهم الأخبار، إذ لم يحضروا مجالسك، ولم يأتوا لسماع كلامك، بل تَجافَوا عنك؛ نفوراً وحقداً، وكِبْراً وحَسَداً، وهم مع ذلك يتأوَّلون كلام الله بغيرِ تأويله، ويصرفونه عن معناه ومغزاه، ويحرفون اللفظ بإزالتِه واستبدال غيرِه به، كما فعلوا في آية الرجم، فقد كتموها، واستبدلوا بها الجَلْد والتَّحْميم، فانكشف أمرُهم، وقد صار التحريف لهم أمراً مألوفاً، بل أضحى صنعةً يتفَنَّنون فيها، وحِرْفةً يتكسَّبون بها، قَلْباً للحقائقِ، ونَشْراً للأباطيلِ، وسعياً إلى التلبيسِ، فتعطيلُهم لحدِّ الرجم وتبديله من تحريف الكَلِمِ من بعد استقراره واشتهاره في كتبهم يسعون إلى إخفائه وتبديله، بل ويتواصَوْن على أن يأخذوا منك ما لا يُعارِضُ أهواءهم، ويحذَروا من حكم الله تعالى، وفيه العدل والرحمة! لكنَّها حكمة الله تعالى بهؤلاء المبعَدين المحرومين ألَّا يطهرهم من رجس الكفر وأدران الشرك التي انغمسوا فيها، فلا سبيل إلى خروجهم من هذا المستنقع، فهم ليسوا أهلاً للطُّهر؛ فما تملك لهم، وقد سقطوا في جحيم الفتنة مختارين؟

٤٢- أَلِفُوا سماع الكذب حتى صار لهم دَيْدَناً، وكأنَّهم لا يسمعون غيره، وبَلَغَ بهم الحرصُ كلَّ مبلغٍ، حتى أدمنوا أَكْلَ الحرام الذي يُذْهِبُ البَرَكَةَ ويَمْحَقُها. ودَلَّ اقتران الوصفين على فساد الأخلاق، وشدة الولَعِ بالباطل، واستعذاب سماعه، والنَّهم بالحرام، وبعد أن فضح اللهُ أمْرَهم خيَّر نبيَّه بين التحكيم بينهم أو الإعراض، فإذا حكم بينهم يتعين عليه أن يحكم بما أنزل الله، وإن يُعرِض عنهم، فلا مَضَرَّة في ذلك، فإنْ حَكَمَ فليحكُمْ بالقسط فهو مطلوبٌ ومرغوبٌ، والله تعالى يحبُّ العادلين.

٤٣- يُنْكِرُ الله تعالى عليهم: كيف يحتكمُون إليك والتوراةُ بين أيديهم فيها الرجمُ، وهو حكمُ الله؛ ثم هم لا يُذْعِنُون للحق، ولا يَرْضخون له! فما هؤلاء البعداء بمؤمنين بحكمِك يا محمد، وليسوا مُقِرِّين بالكتابِ الذي أنزله اللهُ عليك، وبالكتابِ الذي نزل على موسى ﷺ!

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية النبي ﷺ، وتثبيته على طريق الدعوة الذي كان محفوفاً بالمخاطر والتحديات.

٢- قَدَّم المنافقين على اليهود لأنَّ خطرهم أشد، وما تمكَّن اليهود، ولا قامت لهم قائمة إلا بمساندة المنافقين، وضعاف النفوس.

٣- بيان ما جُبِلَ عليه اليهود من حُبٍّ للكذب، وشغف لسماعه، وتحالُفٍ مع الآخرين؛ لضرب الإسلام والوقيعة بالمسلمين، وماذا يُنتظر من أُمةٍ أمسى الضلالُ منارَتها، وأضحى الحرامُ شعارها.

٤- التعامل مع أعداء الحق يتطلَّب حكمة ورويَّة، لسَبْرِ طبائعهم، وفهم أساليبهم.

٥- الرضا بحكم الله تعالى مِنْ طهارة القلوب وصفاء النفوس.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ
وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾
وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ
وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ
مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ
لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

التفسير:

٤٤ - بعد الحديث عن التوراة التي بين أيديهم، وقد امتدَّ إليها التحريف والكتمان، فضلاً عن التعطيل والهجران، يأتي الحديثُ عن التوراةِ الحقيقيةِ وعن نزولِها ومضمونِها وثمراتِها الطيبةِ، فالتوراةُ وحيٌ من الله تعالى، وتنزيلٌ من لدنه، نزلت بالهدى والنور، هدى للناس، وهي شجرةٌ ظليلةٌ مثمرةٌ استظلَّ بها النبيُّون الذين انقادوا لأوامرِ اللهِ ورَضُوا بحُكْمِه، فهي شِرعتُهم ومنهاجُهم، وبها حَكَمَ الربانيُّون الذين جمعُوا بين تحصيلِ العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وكذلك الأحبار الذين بلغوا معالي الرُّتب في العلم يُحَبِّرونه تحبيراً، وهم أُمَناءُ على كتاب الله، شهداءُ عليه، فهلَّا تأسَّى بهم مَنْ خَلَفَهُم مِنَ اليهودِ، فلا يخافون لومةَ لائمٍ، ولا يستبدلونَ بأحكام دينِهم عَرَضاً زائلاً، فيُفَرِّطون في آياتِ الله، ويُضَيِّعونها لقاء ثمنٍ زهيدٍ، فإن الحكم بغير ما أنزل الله كفرٌ.

٤٥ - ومن جملة ما كتبه الله في التوراة القصاصُ العادل في القتل والجراحات؛ حمايةً للأرواح، وصيانةً للأبدان مع تشريع العفو والترغيب فيه؛ رحمةً وتخفيفاً على العباد. فمَنْ عفا كان عَفْوُه كفارةً لذنوبه؛ لما في ذلك من نزع الشحناء، وحفظ النفوس وسلامة الأعضاء، والترهيب من ترك هذه الأحكام، فمَنْ ترك الحكم بما أنزل الله فهو ظالمٌ لنفسه ولغيره.

٤٦ - وعلى درب النبيين والربانيين والأحبار سار عيسى عليه السلام مُصَدِّقاً لما بين يديه من التوراة، مؤمناً بها وداعياً للاحتكام إليها، وقد آتاه الله الإنجيل، ووصفه بأنه هدى عظيم ونورٌ مبينٌ، متوافقٌ مع أحكام

التوراة، وموعظةٌ للمتقينَ، وكرَّرَ وَصْفَه بالهُدى؛ لتقريرِ هذا المعنى، ولبيان كونه هدايةً عامَّةً لبني إسرائيل، هدايةَ بيانٍ وإرشادٍ ، فوق أنَّه هدايةٌ خاصَّةٌ لِـمَنْ انتفع به من المتَّقين، وكلامُ الله تعالى يُصدِّقُ بعضُه بعضاً.

٤٧- كما أمر اللهُ النصارى أن يحتكموا إلى الإنجيل الذي أنزله اللهُ على عيسى ﷺ، لا الأناجيل المحرَّفة التي يُؤمِنُ بها النصارى الآن، وهي مزيجٌ من الحقائق والأباطيل، والتشريعات والأهواء، وليعمل أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ممَّا لا يزالُ باقياً لم يُحرَّفْ، فمَنْ ترك الحكم بما أنزل الله فقد خرج عن طاعة الله، وسنن الأنبياء والصالحين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مقاصد التوراة المنزلة وثمراتها في حياة بني إسرائيل، حين حكم النبيون والربانيون والأحبار بها.

٢- التعريض بما آل إليه حالُ اليهود من إفراطٍ وتفريط وإضاعةٍ، ونكبة عن سَنَنِ النبيين والربانيين والأحبار.

٣- بيان كُفْرِ مَنْ ترك الحكم بما أنزل الله وظلمه وفسقه، فمَنْ ترك الحكم بها منكراً وجاحداً لها، أو مستهيناً بها فهذا كفر، ومَنْ تركه مع إقراره بها فهو ظالمٌ أوفاسق، ظالمٌ لأنَّه ترك شريعةَ العدلِ والرحمةِ، وفاسقٌ لخروجِه عن الطاعةِ والاتباعِ، وإعراضه عن سنن الأنبياء والصالحين.

٤- الكفر مراتب: منها الكفر البواح، ومنها كفر دون كفر.

٥- الترهيب من خطورة التحاكم لغير ما أنزل الله من قوانين وضعية لا تحقق المصلحة، ولا تلائم الفطرة، ولا تعيد الحقوق لأصحابها، ولا تضع الأمور في نصابها.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٨- وأنزل الله تعالى القرآن العظيم آخر كتبه على خاتم رسله ﷺ؛ امتداداً لما سبقه من الكتب وتصديقاً بها؛ فنزوله دليلٌ على صدقها، وهو مهيمنٌ عليها: أمينٌ ورقيبٌ، وحَكَمٌ وشاهدٌ، ومبيِّنٌ لما خَفِيَ منها، ومُوَضِّحٌ لما أُشكل فيها، وحافظٌ يُقَوِّمُ ما اعتراها من اعوجاجٍ، وينفي ما لابسها من أباطيلَ وخُرافاتٍ، مستوعبٌ لما جاء في أصولها، ومتمِّمٌ لها، هو المرجعُ الذي يُحْتَكَمُ إليه عند التنازعِ في شأنِها، وأمر تعالى بتحكيم كتابه والعمل به، وتعظيمه، ونهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواء. وقد جعل الله لكلِّ أمةٍ شرعةً تحتكم إليها، ومنهاجاً تسير عليه بها يحقق مصالحها، ويُلَبِّي حوائجها. ولو شاء الله لَجمع البشرية على منهجٍ واحدٍ وشرعةٍ واحدة، ولكن اختلاف الناس، وتبايُنَ مشاربهم وتوجُّهاتهم من سنة الله ومشيئته. ومن حِكَمها البالغة ابتلاء الناس، مؤمنهم وكافرهم، بَرِّهم وفاجِرِهم، فعلى المؤمن أن ينشغل بما يصلحه في دنياه وأخراه من التنافس في عمل الخيرات والاستباق إليها، دون أن ينشغل بمَنْ ضَلَّ ويسألَ عمَّنْ هلك، بل يمضي في طريقه جاعلاً الخيرات وسيلته إلى رضا ربِّه، فإليه تعالى المرجع والمآب، وكما بَيَّنَ الحُجَجَ والبينات في الدنيا، فإنَّه تعالى يوم القيامة يقضي بين العباد، ويَفصِلُ بينهم، ويحكم فيهم، ويقيم عليهم الحجج ويجازيهم.

٤٩-٥٠- ثم يأمرُ الله تعالى بتحكيم شَرْعِه، ففيه الخيرُ والصلاحُ والرحمة بالإنسانية، وفيه البركةُ والسَّعْدُ لكلِّ مَنْ أذعن له ورضي به، وينهى عن اتِّباع ما عليه أهل الضلال من أهواءٍ يحتكمون إليها مع ما فيها من تَعَسُّفٍ وظُلمٍ، ويُحذِّر من كيد أعداء الدين، وتَحايُلِهم لصَرْفِ أهل الإسلام عن شريعتهم ومنهاجهم، والتلبيس عليهم وتعطيل الأحكام؛ لنشر الظلم وإشاعة الفوضى في المجتمعات. إنَّ الاستجابة لبعض دعواتهم والانقياد لهم، والسقوط في مكايدهم بتعطيل بعض ما أنزل الله فتنةٌ يجب الحذرُ منها. فإن أعرضوا وانصرفوا عن شرعة الله ومنهاجه الذي ارتضاه لعباده وجعل فيه صلاحهم، فاعلم أن الله تعالى

يريد عقوبتهم وحرمانهم، ثم أنكر الله على مَنْ هَجَرَ شريعته، ورضي بأهواء الجاهلية مع ما تحمله من جهل وسفهٍ وتناقض وظلم، ومع ذلك تجد مَنْ ينادي بها ويطالب بتطبيقها. وأنكر تعالى على مَنْ يعتقد خلافَ ذلك، ويقرر أنَّ حكمه تعالى هو المقدَّم، فلا يضاهيه ولا يضارعه حُكْمٌ، ولا يمتثل لشريعة الله إلا أهل اليقين الذين وَقَرَ الإيمان في قلوبهم، ونَوَّر بصائرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- نزول القرآن الكريم مصدِّقاً لما قبله، ومهيمناً عليه.

٢- في التعبير بـ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بنون العظمة تعظيم للمنزِّل وما أنزل. وفي تقديم الجار والمجرور تشويقٌ للمنزَّل، واعتناءٌ بالمنزَّل عليه.

٣- الحذر من تحكيم الأهواء أو تقديمها على شرع الله؛ لأنَّ شريعة الله نور وحكمة، وعدل ورحمة. أما القوانين الجائرة فإنَّها تُعيدُ الناس لعهود الظلم والاستبداد، والقهر والاستعباد، وتُعَطِّل مسيرة البشرية نحو التقدُّم والنهوض.

٤- الاستباق إلى الخيرات ممَّا يَحُدُّ من فورةِ الخلاف، ويُسَكِّنُ من ثورته، بل ويجمعُ الناس على هدفٍ واحدٍ، ويضع التنافس في موضعه الصحيح.

٥- من أوجه تصديق القرآن بما سبقه من كتب: أنَّها بَشَّرَتْ بنزوله، كما بَشَّرَتْ بخاتم الأنبياء عليهم السلام، وتصديقُه لها لأنَّها أخبرَتْ بمجيئِه، ووقوعُ المخبَرِ به يدلُّ على صِدْقِ من أَخبَرَ، كما يَدُلُّ على صدقِ القرآنِ، لأنَّه لو كان من عند غير الله لم يُوافِقْها، كما جاء مُصَدِّقاً لما نزلَتْ به من أُصولٍ وأحكام وقصصٍ وأمثالٍ ووعدٍ ووعيد، وبما تبقَّى من أُصول وأحكام.

٦- جَمَعَ القرآنُ الكريم بين كونه مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب والهيمنة عليها. وبين التصديق والهيمنة تلازمٌ، فهو مُصدِّقٌ لما في هذه الكتب من حقائقَ لم تتبدَّل، ومُصَدِّقٌ بالكتب المنزلة قبل أن تُحرَّفَ وتُبدَّلَ.

٧- التعبير بـ ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ لأنَّ محاولاتهم ومساعيَهم قائمةٌ على التزيين والتلبيس والتضليل.

٨- خطورة تعطيل شرع الله أو شيءٍ منه، والتحذير من مكايد أعداء الدين، وأنَّهم لا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

التفسير:

٥١- نداء إلهي لأهل الإيمان يحملُ نهياً عن موالاة اليهود والنصارى بعدما انجلى من أحوالهم؛ فهم أهل نقضٍ للعهود ومكابرة وجحود، وتضليل وتحريف وتبديل، فكيف يُؤمَنُ مَكْرُهمْ، وتُرجى مودَّتُهم، وبعضهم أنصار بعضٍ! والمرء يوالي مَنْ على شاكلته، ومَنْ يجتمع معه على هدف واحد، فمَنْ تَوَلَّاهم كان منهم، لما تقتضيه الموالاة من دُنُوٍّ وتغاضٍ فكيف تُرجى هدايةُ من والاهم وقد مالأهم على ظلمهم؟ إن الله تعالى لا يرشد الذين خرجوا عن طاعته.

٥٢- ثم لما نهى الله وحَذَّرَ المؤمنين من موالاة الكفرة، بَيَّنَ حال ضعاف الإيمان ومرضى القلوب، كيف يُسارعون إلى موالاة أعداء الدين، ويُهْرَعُون إليهم، ويَتفانَوْن في مرضاتهم؛ مع ما سَبَقَ من تحذيرٍ؟ فتراهم يَتَوَجَّسون خيفة أن تدول الدولة لأعداء الله، وتدورُ الدائرةُ على المسلمين. إنَّها صورةٌ مُزْرِيَةٌ، صورة المنافق الضعيف الإيمان حين يهرولُ إلى أعداء الله رغبةً وطمعاً أو رهبةً وهَلَعاً. والله تعالى قادرٌ على أن يبدِّل الأحوال، ويأتي بالنصر الذي تنكسر به شوكةُ الأعداء وتخمدُ نيرانُهم، والفتح أعمُّ من النصر؛ لأنَّه تحصيل المطلوب وتحقيق المرغوب، والنصر وسيلة لذلك، و«عسى» من الله نافذة؛ لأنَّ الكريم لا يُطمِعُ إلا فيما يُعطي، وقد لا يتحقَّقُ النصرُ المرتجى في المستقبل القريب، لكن ما وراء الحُجُبِ من أقدارٍ لا يخطر ببال، ولذا جاء ﴿أَمْرٍ﴾ منكَّراً لإفادة الإبهام، فهو أمرٌ عجيب يفوق الحسابات ويسبق العقول. وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ لأنَّه من خفايا المقدور، وعجائب التصاريف، فيفضح الله المنافقين ويُوقع بهم، وتدور الدائرة عليهم، بل يتبرَّؤون منهم، ويَتَنَصَّلُون من أفعالهم، فيندمون على مودَّتهم لأعداء الله وموالاتهم، يندمون على ما بدر منهم، ولم يُجْدِ عنهم شيئاً، بل كان سبباً في افتضاح أمرهم، وقد أفاقوا على نورِ صبحِ الحقيقة بعد طولِ تَخَبُّطهم بين ظلام الشبهات ودياجير الفتن.

٥٣- عندما يَنْصُرُ اللهُ عباده، ويأتي الفتحُ، ويُسْفِرُ نورُ الصبح، يقولون للمنافقين: أهؤلاء اليهود والنصارى الذين أقسمتم بالله بأغلظ الأيمان إنَّهم لَمعكم؟ حبطت أعمالهم، وضَلَّ سعيهم، وافتضح أمرهم، وأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - حُرْمَةُ موالاة اليهود والنصارى، وخطرها على الفرد والمجتمع.

٢ - صلاح القرآن لجميع العصور.

٣ - مَنْ تَبَصَّر بالعاقبة لم يقع في المرهوب، وظَفِرَ بالمطلوب.

٤ - موالاة أعداء الله لا يقع إلا من أصحاب القلوب المفعمةِ بالهواجس والشهوات.

٥ - مِنْ صدق القرآن الكريم في أنبائه، ما يُشاهَد على مرِّ العصور: كيف باء بالخسران، وظَفِرَ بالخِذْلان مَنْ والى أعداء الدين؟ كيف كانت موالاةُ أعداءِ الله وبالاً على الذين في قلوبهم مرضٌ ممَّنْ عَلَّقوا عليهم الآمال؟

٦ - بيان عاقبة الظالم الوخيمة، وحرمانه من التوفيق والسداد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٤ - بعد أن نهى الله عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وحذَّر من مفاسدها وشرورها، ناداهم محذِّراً مِنْ تَرْكِ دينه، أو التقاعس عن نصرته بأن يستبدل به مَنْ ينصر الدين، وينهضُ بالأُمة. ومن أجلِّ صفات جيل النصر المنشود وأسمى مراتبهم، محبةُ الله لهم. وتلك نعمةٌ لا تعادلها نعمة ومنحةٌ لا تُضارِعُها كنوزُ الدنيا، ومحبتهم الصادقة لله تعالى، وهي دليلٌ على صدق إيمانهم. ومن ثمرات هذه المحبة بُغْضُ مَنْ أبغضه الله، وحُبُّ مَنْ يحبه، والشدة مع الكافرين والقوة في الحق، ولا يتعارض هذا مع إنصافهم والتسامح معهم والرحمة بهم، والرفق واللين وخفض الجناح للمؤمنين، مع الحُنُوِّ والعطف. ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالجهاد فهو سبيل العزة، ومنبع القوة. ومَنْ عَظُمَتْ محبة الله في قلبه فإنَّه يسعى إلى إرضاء الله لا يخشى في الحق لومة أي لائم؛ فإن رضا الله غايتُه ومبتغاه، وما كان للعبد أن يبلغ هذه المنزلة الرفيعة،

ولا يصل إلى هذا الفهم الصحيح والعمل الصالح إلا بفضل من الله تعالى، وفَضْلُ الله تعالى منحةٌ منه لِـمَنْ يشاء من عباده. والله واسعٌ في عطائه، عليمٌ بأحوال خلقه. وفي الآية ما لا يخفى من التعريض بأحوال المنافقين.

٥٥- الناصرُ هو الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين الذين يحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها، وبكمال طهورها، وتمام أركانها، ويدفعون الزكاة لمستحقيها كما فرض ربُّنا، مع ملازمتهم للركوع والخضوع لله.

٥٦- وَعَدَ اللهُ مَنْ تولَّاه ورسولَه وعباده المؤمنين بالنصر والتمكين، فحزب الله غالبٌ.

٥٧- يأتي النداء للطائفة المؤمنة ومعه النهي والتحذيرُ من موالاة أعداء الدين المستخفِّين بشرائعه وشعائره من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، فليس أشدُّ على النفس من أن تسمع السخرية والاستخفاف بما تُعَظِّمُه. وإن الذي يتهاون ويَسْتَخِفُّ بشعائر الله ليس أهلاً للموالاة؛ لذا رَتَّب النهي عن موالاتهم بهذا الحال المستهجن؛ لبيان العلة في الحكم. والأمر بتقوى الله تعالى فيه زَجْرٌ عن هذه الموالاة المنكَرة التي لا تليق بمؤمن، أي: إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله ولا تُوالُوهم.

٥٨- ومن صور هذا الاستهزاء والتلاعُب، مشهد سماعهم للنداء، وهو من شعائر الإسلام، كيف يتخذونه مثاراً للسخرية ومادةً للتسلية والتندُّر، مع أن تعظيم شعائرِ الله من تعظيمه؟ فكيف بالاستخفاف بها مع وجوب تعظيمها ورَفْعِها؟ فهل يَسْتَهزئ بدين الله إلا جاهلٌ أحمقُ؟ وهل يَسْتَهين بشعائر الله مَنْ لديه مُسكة عقل؟

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥٤) إخبار مستقبلي أنَّ الله ﷻ يُحَذِّر من الردَّة. فإن حصل ذلك فإنَّ الله تعالى سوف يأتي بدلهم بقوم يحبُّهم ويحبُّونه.

٢- في الآية (٥٤) معجزةٌ غيبية؛ فقد ارتدَّ بعض مَنْ دخل في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، وفيها إشارةٌ إلى ضرورة استشراف المستقبل، والتخطيط الدقيق، ومجابهة المخاطر المحتملة، ووضع الحلول.

٣- ذِكْرُ سُنَّةِ الاستبدال، فمَنْ تخاذل عن نصرة الدين فسوف يستبدل الله به مَنْ يؤيد دينه، ويقوم به.

٤- من صفات الجيل المنشود محبة الله تعالى لهم، ومحبتهم الصادقة له، وموالاة أولياء الله، والترفُّق بهم، ولين الجانب والتلطف، والتواضع معهم، مع القوة والحزم في التعامل مع الكافرين بما لا يتنافى مع العدلِ، ولا يتعارض مع التسامح الذي دعا إليه الإسلام.

٥- هذا الجيل إنَّما يكون بفضل الله تعالى ومشيئته، فهو تعالى واسعٌ في فضله كريمٌ في عطائه وتعامله مع عباده عليم بهم، وبمَنْ يستحقُّ النصر والتمكين.

٦١- تكشف الآيةُ حالةَ اليهود إذ يَدَّعون الإيمان، فإذا جاؤوا المؤمنين، تظاهروا بالإيمان، وقد دخلوا جاحدين، قد لابسهم الكفرُ، ولازمهم وصاحَبَهم، وكما دخلوا خرجوا، ولم يتغيَّرْ من حالهم شيءٌ، بما يَدُلُّ على قسوة وجمودٍ، ومكابرة وجحود. والله أعلم بما تنطوي عليه ضمائرُهم من خبايا.

٦٢- وممَّا يثير العجبَ حالُ كثير منهم، إصرارٌ واستمرارٌ على المسارعة إلى العصيان والاعتداء على المحارم ومجاوزة الحدِّ، فلبئس ما كانوا عليه من أعمالٍ طالحةٍ تُزْري بمرتكبِها وتُرْدِيه مع اغتراره وعُجْبه!

٦٣- فهلَّا أنكر عليهم علماؤهم هذه المنكرات من قول الإثم، وأَكْلِ السُّحْت؟ فلبئس الصنيع ما هم عليه من الرهبنة ولُبْسِ المسوح، والتقاعس عن واجب النصح والسكوت على المنكرات، والصنعةُ تشير إلى مبالغتهم، وتَفَنُّنِهم في ارتكاب المحرمات، كأنها صارت صنعةً يباشرونها، وحِرْفَةً يمتهنونها. ولبئس تَصَنُّعُ الربَّانيين والأحبار وامتهانهم للعبادة والنسك والعلم الذي صار لهم حِرْفةً يقتاتون بها.

الفوائد والاستنباطات:

١- ليس لدى أهل الكتاب ما يُسَوِّغ نقمتهم وعداءهم للمسلمين، إلا ما انطوت عليه قلوبهم من حسد وكراهيةٍ لهم.

٢- نقمة أهل الكتاب على المؤمنين ظُلْمٌ بَيِّنٌ، ينمُّ عمَّا انطوت عليه قلوبهم من حسدٍ وضغينة.

٣- التحذير من السكوت على المنكر.

٤- دقة القرآن الكريم في التعبير وإنصافه في الأحكام، فإنَّه لا يُعَمِّمُ الحكم على جميع أهل الكتاب، بل يُبَيِّن أنَّ هذا حال أكثرهم.

٥- دَرْسٌ لأهل العلم أن يَجِدُّوا، ويبادروا لأداء واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦- قَدَّم محبته تعالى على محبتهم تعظيماً للمقدَّم، ولأنَّها هي الأساس، وبمحبته تعالى أحَبُّوه، فالمحبة كلها منه.

٧- تَرْكُ الجهاد من أسباب ضعف الأمة وهَوانها، وتَسَلُّطِ أعدائها.

٨- الولاء والبراء من مسائل الإيمان، وهو دليلٌ عليه وبرهان على صدقه.

٩- خَصَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر؛ لشرفهما وأهميتهما في حياة الفرد والمجتمع، وفي صلاح الدنيا والدين.

١٠- موقف كثيرٍ من أهل الكتاب الذين يَسْتَخِفُّون بدين الحقِّ بوجهٍ عام، وبشعيرة الأذان خاصة.

١١- تعظيمُ ما عظَّمه الله تعالى من شعائرَ وحُرُمات، وغَيْرَةُ الله تعالى على دينه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ
(٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ
وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ
وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

التفسير:

٥٩- أمر تعالى نبيَّه بسؤال أهل الكتاب على وجه الإنكار والعتاب: لماذا تَنْقِمُون منا؟ ألأننا صَدَّقْنا بالله وبالقرآن وما سبقه، أم تنقمون لأنَّكم خرجتم عن دائرة الإيمان، وانحرفتم عن سَنن الأنبياء، وفطرة الإسلام؟

٦٠- قل لهم يا محمد: هل أنبِّئكم بشَرٍّ من موقفكم هذا البعيد عن الحق، فإذا كان حالُنا شرّاً كما تظنون، فكيف بحال أسلافكم الذين لعنهم الله، وغَضِبَ عليهم ومَسَخهم؟ فما أشدَّه من عقابٍ! أن تجتمع اللعنة والغضب مع المسخ إلى أقبح الصور، وأزراها صورة القردة والخنازير؛ بتمرُّدهم وعصيانهم وعبادتهم لشياطين الجن أو الإنس. هؤلاء البعداء شرٌّ مكاناً، وأضَلُّ عن طريق الحق، فبِئْسَ ما هم عليه من شرٍّ وضلالٍ لا نظير له.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ
أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ
مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- افترى اليهودُ على الله، فقالوا بكلِّ جرأةٍ ووقاحة: يد الله ممسكة عن الإنفاق؛ تَعَلُّلاً وتَمَحُّلاً حين طُلِبَ منهم الإنفاق، أو شكايةً من ضيق العيش. وهذا من سوء أدبهم مع ربهم، ونسيانهم لكريم أياديه، وقولهم مردودٌ عليهم؛ إذ البخلُ والتقتيرُ والحرصُ طبعُهم وسَجِيَّتُهم، واستحقُّوا الحرمان من رحمته، على كذبهم؛ فخزائنه تعالى ملأى، بَسَطَ جودَه، ونَشَر إحسانَه، وعَمَّ خيرُه، لكنهم عَمُوا عن ذلك، ولم تَزِدْهم دعوتُهم إلى الحقِّ إلا بُعْداً وحرماناً، بإعراضهم وكيدهم للنبي ﷺ، فازدادوا جحوداً وطغياناً، فعاقبهم الله بالفرقة والشتات، فتفرَّقوا شِيَعاً، كلُّ فرقةٍ تُعادي غيرَها، وتراشقوا التُّهم، حتى صار بأسُهم بينهم شديداً، واحتدم بينهم الخصامُ، وطال الجدلُ، واتسع الخلافُ، وامتدَّتْ نار حقدِهم؛ لتنال من الأُمم الأخرى، فأضرموا نيران الحروب والمحن. وفي ختم الآية ذَمٌّ وتنفيرٌ من فسادهم وفساد غيرهم. وفي نفي المحبة إيذان بأنَّ الله تعالى لا يرفع لهم راية، ولا يصلح لهم بالاً.

٦٥- يُقبل الله تعالى على أهل الكتاب، داعياً لهم مع ما سلف منهم إلى إصلاح ما فسد ووصل ما انقطع، والتحلِّي بالإيمان؛ لتُفتحَ لهم باب التوبة والرجاء. ولو صَدَّقوا بجميع الرسل وسائر الكتب، واتقوا محارم الله، لَكَفَّر الله ذنوبهم، ولَأَدْخَلهم الجنات؛ لينعموا فيها، ولو عملوا بأحكام التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم من سائر الكتب التي بين أيديهم، لآمنوا بخاتم النبيين.

٦٦- وَعْدٌ لهم بالخير والبركة إن هم أقاموا التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة. وخصَّ الأكل لأنَّه هو أكثر ما ينتفع به الإنسان، ويهتمُّ له، وينفق عليه. ففي تأمينه راحةٌ للبال فضلاً عن رَغَدِ العيش، وبَيَّنَ تعالى أنَّ منهم مَنْ سلك طريق القصد والاعتدال، لكن الكثير منهم ساء ما يعملون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٦٤) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال طوائف اليهود، من أنَّهم سيَظَلُّون إلى يوم القيامة يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، وكلَّما تآمروا على كيد المسلمين بإثارة الفتن وإشعال الحرب رَدَّ الله كيدهم، وفرَّق شَمْلَهم.

٢- تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بذاته تعالى من صفات النقص التي افتراها اليهود.

٣- بيانُ حالِ السوادِ الأعظمِ من اليهود الذين لم يقيموا للتوراة وزناً، ولم يرفعوا لها رايةً.

٤- نفي محبة الله للمفسدين يدل على محبته تعالى للمصلحين في الأرض، وتأييده لهم.

٥- طريق الإيمان وإقامة شرع الله يجلبُ البركاتِ والفوز بالجنات.

٦- في التذييل ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ احتراسٌ، ودَفْعٌ لما قد يُتَوَهَّمُ من بقائهم كلهم على الكفر والفساد، بل منهم أهلُ القصد والصدق، الذين لا يخلو منهم زمانٌ، ولكنهم يَقِلُّون إن عَمَّ الفساد، وتَسَلَّط الطغيان، وشاع الباطل، فلا يُسْمَعُ هُتافُهم، ولا يُلتفتُ لهم مع دَوِيِّ الضلال، وهديرِ الباطل. وفيه دليلٌ على دقة القرآن في بيانه، وإنصافه في أحكامه.

٧- بيانٌ لحالِ اليهودِ والنصارى، وموقفِهم من كتبِهم التي يزعمون الإيمانَ بها والدعوةَ إليها، وهم مُعْرِضُون عنها، يأخذون بطرفٍ منها، ويضربون الذِّكْرَ عمَّا يخالف أهواءهم.

٨- إن إقامة التوراة والإنجيل على الوجه الأمثل أمرٌ مستحيلٌ، فقد اتسع الخَرْقُ بين الكتب المنزَّلة والكتب المُتداولة بما اعتراها من تحريف؛ ومن ثَمَّ فلا سبيل لإقامة هذه الكتب إلا بالقرآن العزيز.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

التفسير:

٦٧- لما كان سياق الآي في كشف خبايا أعداء الإسلام ومصارحتهم بعِلَلِهم - وهذا أمرٌ يحتاجُ إلى جِدٍّ وعزمٍ في تبليغه، وصبرٍ وثبات على تَبِعَتِه - كان هذا الأمرُ الإلهي للنبي أن يُبَلِّغ ما أنزل إليه، والله تعالى يعصمه من كيد الكائدين، أما الكافرون فإنَّ الله تعالى يخذلهم، ولا يُوَفِّقُهم لخير، ولقد بَلَّغَ نبيُّنا ﷺ على الوجه الأتمِّ، فالآية وإن خاطبت النبي ﷺ على وجه الخصوص فهي عامَّةٌ لكل مسلم أن يُبَلِّغَ دعوة الله تعالى، لا يَثْنِيه عن ذلك أحدٌ.

٦٨- ناداهم بشعار الكتاب لبعث روح الحقِّ فيهم، فلماذا لا يلتمسون الهدى، ويُصَحِّحُون المسار، ويُجَدِّدون العهد، وهم أهل الكتاب؟ وفيها دعوةٌ ضمنيةٌ إلى الإيمان بالقرآن، فمَنْ آمن به فقد أقام التوراة والإنجيل وسائر كتب الله، أمَّا صدودهم وإعراضهم فلن يزيدهم إلا ضلالاً على ضلال، وكفراً على كفر، وفي صَدِّهم وتكذيبهم وكيدِهم للدين الحق مجاوزةٌ للحدِّ، وطغيانٌ في الأرض، ومَنْ حالُه كذلك فإنه خاسرٌ هالك، فلا تأس عليهم - أيها الرسول - فقد اختاروا الكفر وأقاموا عليه.

٦٩- لما بَيَّنَ تعالى أنَّهم ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بَيَّنَ طريق الإيمان وعاقبته، فالذين صَدَّقوا بالله وبرسوله، واليهود، والخارجون عن دينِ اليهود والنصارى من عبدة الكواكب أو الملائكة، والنصارى، مَنْ صَدَّق بالله تعالى، وأقرَّ له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

٧٠- أخذ الله عليهم المواثيق العظيمة، وأرسل لهم الرسل؛ لتجديد العهد وهدايتهم، فكذَّبوا بهم، وقتلوا فريقاً منهم عدواناً وبَغْياً ونصرةً للهوى، وإسكاتاً لصوت الحق. وأيُّ جريمةٍ أشدُّ من قَتْلِ صفوة

خلقِ الله، وحَمَلَةِ مشاعل النور وبشائر الخير؟ إنَّها جريمةٌ بشعةٌ لن تُمحى من ذاكرة التاريخ، بل تظلُّ شاخصة وماثلة للأذهان!

٧١- ظنَّ أولئك الغادرون أنَّهم في مأمنٍ من عذاب الله وبلائه، وازدادوا جُرأةً على حرماتِ الله وانتهاكاً لحدوده، ثم تاب الله عليهم، إمهالاً لهم أو استدراجاً، ثم أعادوا الكَرَّةَ، فتمادَوا في الغَيِّ والفساد، فعَمُوا عن بصائر الحق، وصَمُّوا عن سماعه، وغفلوا عن سنن الله في الأُمم، وفُتِنُوا بسَتْرِ الله وإمهاله، واغترُّوا باستدراجه، وهو تعالى بصير بأعمالهم مطلعٌ عليها، ومجازيهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تبليغ دعوة الله تعالى، وعصمة النبي ﷺ من كيد الأعداء وغَدْرِهم.

٢- أصلُ الداء هو الإعراض عما أنزل الله، والدواء إقامة دينه وكتابه.

٣- الكفر والعصيان من أسباب زوال النعم، وحُلول النِّقَم على المجتمعات والأُمم.

٤- دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان والعمل الصالح، فهو طريق الأمن والسَّعْد.

٥- ما صنعه اليهود في عهد النبي ﷺ هو حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافُهم من قبل، وهذا درسٌ لأمتنا في كلِّ عصر؛ كيما تأخذَ حَذَرَها.

٦- الحرص على إرضاء الأهواء وإرواء الضغائن، بدلاً من إزالتها، يُفْضي إلى الكبائر العظام والجرائم الجسام، كما وقع من اليهود قتلةِ الأنبياء.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِنْ
لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى
اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴾

التفسير:

٧٢- بعد الحديث عن حال بني إسرائيل، ونَقْضِهم الميثاق، وقَتْلهم للأنبياء، وتكذيبهم بما جاؤوا به، يأتي الحديثُ عن ضلال النصارى في شأن المسيح ﷺ وزعمهم أنَّه ابن الله، وأنَّ الله ثالث ثلاثة. تعالى الله عما ينسبونه إليه من الولد والشريك. وفي هذه الآيات بيانٌ صريحٌ بكفرِ مَنْ ضَلَّ في شأن المسيح، فادَّعى أنه إله أو ابن إله، فالمسيح ﷺ بريءٌ مما ادَّعاه النصارى، فقد جاء بالتوحيد ودعا إلى الإيمان الخالص، وحَذَّر من الشِّرْك وعاقبته، وبَيَّنَ أنَّه سببٌ للحرمان من الجِنان، ودخول النار، وأنَّ المشرك لن يَجِدَ مَنْ ينصُرُه، وربط الشرك بالظلم لأنَّه أعظمه وأقبحه.

٧٣- ويؤكِّدُ اللهُ تعالى كُفْرَ مَنْ قال بالتثليث، فما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عن هذا الكذب، فإنَّ مصيرهم إلى العذاب الأليم بهذا الاعتقاد الفاسد.

٧٤- حَثٌّ على التوبة، وحَضٌّ على الاستغفار من كلِّ ذنبٍ مهما عَظُمَ، وهل هناك ذنب أعظم من الشرك! فليتوبوا إلى الله تعالى منه ويستغفروه، فإنَّه تعالى غفور لِـمَنْ تاب وأناب رحيم بعباده، ولا سبيل لمغفرة الذنوب إلا بالتوبة والاستغفار.

٧٥- ثم يُبَيِّن الله تعالى القول الحقَّ في المسيح ﷺ، وهو أنَّه بشرٌ رسول، ونسبته لمريم، لأنَّه لا أب له، ولو كان له أبٌ لَنُسِبَ إليه، وإنَّما خَلَقَه الله بلا أبٍ لحكمةٍ بالغةٍ، تدلُّ على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسى ﷺ بشرٌ رسولٌ، شأنه شأنُ مَنْ سبقه من الرسل، أرسله الله على نهجهم، وأقامه على سَنَنِهم، وأُمُّه صِدِّيقةٌ عابدةٌ، كانا يأكلان الطعام، والحاجةُ إلى الطعام والشرابِ غريزةٌ إنسانيةٌ، أما الإلهُ فهو غنيٌّ

قويٌّ، ليس كمثله شيء، فكيف يَدَّعُون أنه إله أو ابن إله! فتأمَّلْ كيف يُقيمُ الله الحجة عليهم من وجوهٍ عديدةٍ، ثم هم يُصْرَفون عن الحقِّ، ويَقْلِبون الحقائق، ويُقِرُّون الأباطيل، مع جَلاء الآيات وتصريفها؟

٧٦- فكيف تعبدون المسيح، وترجونه من دون الله، وتَدَّعُون أنَّ ضلالكم في المسيح يضمن لكم الخلاص، والمسيح لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً، فكيف تُرَدِّدُون هذا الكفر؟ واللهُ تعالى سميعٌ لأصواتكم، عليمٌ بأعمالِكم الظاهرةِ والباطنةِ!

الفوائد والاستنباطات:

١- الضلال في شأن عيسى عليه السلام، وادعاء أنه إله أو ابن إله، كفر صريح، وإثمٌ عظيم.

٢- الصِّدِّيقية مرتبة من مراتب الإيمان، وهي من أعلى المراتب بعد النبوة، وهي غاية الصدق مع الله ومع النفس ومع الخلق، وأساسها العلم واليقين، وثمرتها العمل الصالح والرضا والتسليم.

٣- الذي يأكل ويشرب يحتاجُ إلى الخلاء، وقد تعتريه العِلَلُ، ويفتقر إلى غيره، وليس هذا من شأن الخالق جلَّ وعلا فهو تعالى الغنيُّ، ليس كمثله شيءٌ. وهذا دليلٌ جليٌّ على بشريَّة المسيح عليه السلام، وقد ثبت في الأناجيل أن المسيح كان يأكل ويشرب.

٤- قَدَّم الضرَّ؛ لأنَّ النفوس بدفعه مشتغلة أكثر من اشتغالها بجَلْب النفع.

٥- باب التوبة من كل ذنب مفتوحٌ مهما عَظُم، ولقد رَغَّبَ اللهُ في التوبة، وحَثَّ على المبادرة إليها قبل فوات الأوان. وهذا من رحمته تعالى ولُطْفِه، وترفُّقه بالعباد.

٦- إثبات صفة المغفرة والرحمة والسمع والبصر لله تعالى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟
مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

التفسير:

٧٧- ينادي الله تعالى عليهم بصفة أهل الكتاب؛ لينهاهم عن الغُلُوِّ في الدين، وهم أهل كتاب لا يزالُ يحوي ما يدعو إلى التوحيد، ونَبْذِ الشرك، وهم كذلك أمناءُ على دينهم، فكيف يُقْحِمون فيه ما ليس منه؟ لذا نَسَبَ الدِّين إليهم، ثم نهاهم عن اتباع أهواء مَنْ سبقهم في هذا الضلال، فضَلُّوا وأضَلُّوا، وضَلُّوا عن طريق الحق وسبيلِ القصدِ.

٧٨-٧٩- لعن الله الكافرين من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، بسبب كفرهم وتماديهم في العصيان، واعتدائهم على الحُرُمات، وترك النهي عن أي منكرٍ، حتى عمَّت المنكرات، بل صارت مألوفةً معروفةً، وأمسى المعروفُ منكراً مستغرَباً، فلبئس ما كانوا عليه من ذميم الخصال، وسوء الفعال، فلو كان في قلوبهم تعظيمٌ لله ومحبةٌ وغَيْرَةٌ على محارمه لَمَا تَخَلَّوا عن واجبهم في إنكار المنكرات.

٨٠- موالاة كثير منهم للكفرة من عبّاد الأوثان وغيرهم من طوائف الكفر، فكيف سَوَّلَتْ لهم أنفسهم هذا الأمر المنكرَ حتى استجازوا لأنفسهم مناصرةَ مَنْ يوقنون بكفرهم؟ فبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لهم ولمعادهم ما استوجب سَخَطَ الله وعذابه الأبدي، فقد سَوَّلت لهم أنفسُهم تلك الرزايا، وهَوَّنت عليهم الخطايا، فاستحقوا عذاب نيران جهنم، فهم فيها خالدون.

٨١- ولو كانوا مؤمنين بالله حَقَّ الإيمان، وبالنبيِّ الذي بُعِثَ فيهم وما أُنزل إليه، ما اتخذوا أولئك الكفرةَ أولياء، فموالاةُ الكفار ليست من خصال أهل الإيمان، بل من نواقضه ومُحْبِطاته، وهي من شأن الفسقة المجاهرين بالعصيان الخارجين عن الطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- النهي عن المنكر حِفْظٌ للدين وحمايةٌ للأخلاق والآداب، وسياج للمجتمعات.

٢- السكوت عن إنكار المنكر آفة عظيمة تُفْضِي إلى مفاسد كثيرة على الفرد والمجتمع، منها: انتشار المنكرات، وانحسار المعروف، وتَعاظُمُ أهلِ الشَّر، وضَعْفُ أهلِ الحق، واندراسُ العِلْمِ، وكثرةُ الجُهَّال، والتلبيسُ والخَلْطُ حتى يصير المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

٣- قال القرطبي: «وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، وأَمْرٌ بتَرْكِهم وهِجْرانهم» وقال: «على أنَّ مَنِ اتخذ كافراً ولياً فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله». (الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٥٤).

٤- الإيمان عصمة ونور ومنهاج.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم
مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ
مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

التفسير:

٨٢- قسماً ستسفر لك - أيها الرسول - الأيامُ، وتكشف لك الأحداث، عن شدة عداوة اليهود لك ولدعوتك. وقَدَّمَ اليهود بالذِّكرِ لأنَّ عداوتهم أشَدُّ من غيرهم؛ ذلك أنَّ اليهود عداوتهم متوارثة بينهم؛ فهم يقفون في وجه الدعوة عناداً واستكباراً على الخلق، وحسداً من عند أنفسهم؛ و كان كفرهم كفرَ عناد وجحود، وتَنَقُّصاً بحَمَلَةِ العلم. وأما المشركون فهم عَبَدَةٌ للأوثان، وقد أسرفوا بالمعاصي والشهوات؛ وأَلِفُوا الكفر والضلال مدة طويلة. ولتجدنَّ - يا محمد - أقربهم مودةً للمسلمين هم الذين قالوا: إنَّا نصارى. وتعليل قربهم مودةً أنَّ منهم علماءَ بدينهم، يدينون لله تعالى بالخير والرحمة والعدل، وهم منقطعون في معابدهم للصلاة والعبادة، لا يستكبرون عن قبول الحق، وهؤلاء هم الذين قَبِلُوا دعوة الرسول ﷺ، ودخلوا في دينه.

٨٣- ويَدُلُّ على قُرب مودَّتهم أنَّهم لما سمعوا القرآن يُتلى عليهم اهتزَّتْ مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينُهم بالدمع؛ ولم يكتفوا بهذا الشعور، وإنَّما أذعنوا للقرآن وآمنوا به، وعلموا أنّه كلامُ الله المنزل على قلب رسوله محمد ﷺ، وسألوا اللهَ بتضَرُّعٍ وذُلٍّ أن يُكْرِمَهم بشرف الشهادة؛ ليكونوا من أُمةِ محمدٍ ﷺ الذين هم شهداء على الأُمم يوم القيامة.

٨٤- وأكّدوا إيمانهم بقولهم: وأيُّ شيءٍ يمنعنا من الإيمان بالله تعالى والتصديق بما جاءنا به محمد ﷺ من الحق من ربه، ونرجو من الله أن يُدْخِلَنا الجنة مع الصالحين؟ وفي الكلام إضمار، أي: ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، وهم المسلمون من أُمة محمد ﷺ.

٨٥- فجازاهم على إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بنبوة محمد ﷺ، جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها؛ وذلك جزاء إحسانهم وصنيعهم.

٨٦- وأما الذين كفروا بالله وأشركوا معه غيره، وكَذَّبوا بآياته المنزلة على رسله، فأولئك المبعَدُون عن رحمته، المستحقون للخلود في النار التي تتأجج بهم من شدة حَرِّها ولهيبها.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان شدة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين على مَرّ الأزمان.

٢- اللام في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القسم، والغرض منها التأكيد. وأكّد الفعل بشيئين: لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، وذكر المشركين مع اليهود لمناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين وهذه حالةٌ معروفةٌ قديماً وحديثاً.

٣- تقديم عداوة اليهود للمسلمين على المشركين؛ لأنَّها أشَدُّ ضراوة، وأشنع جرماً.

٤- تحالف اليهود والوثنيين على حرب المسلمين، وأكدت الآية بالقَسَم اعتناءً ببيان تحقق مضمونها.

٥- ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ للتبعيض متعلقة بـ﴿عَرَفُوا﴾ على معنى: عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف لو عرفوه كله، وقَرَؤُوا القرآن، وأحاطوا بالسُّنَّة؟

٦- شدة عداوة اليهود للمؤمنين، وصعوبة إجابتهم إلى الحق.

٧- فضل إسلام الكتابي إذا أسلم، والتنكير في ﴿وَرُهْبَانًا﴾؛ لإفادة الكثرة.

٨- التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات، صفاتٌ محمودة أينما كانت.

٩- بيان منهج القرآن في استعمال أسلوب الترغيب والترهيب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ
﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ
فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا
تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا
حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

٨٧- يا مَنْ آمنتم بالله تعالى لا تجعلوا الحرام حلالاً، ولا الحلالَ حراماً؛ كأنْ تُحرِّموا شيئاً من المطاعم والمشارب والملذات المباحة على أنفسكم، أو تُحِلُّوا شيئاً من المطاعم والمشارب المحرمة. إنَّكم إنْ فَعَلْتُم ذلك فإنَّكم تُضَيِّقون ما وَسَّع الله عليكم، وتُوَسِّعوا ما ضَيَّق الله عليكم؛ فلا تتجاوزوا الحدَّ، فتُحِلُّوا ما حرَّم الله، وتحرِّموا ما أحلَّ الله؛ فالله يُبْغِضُ المعتدين، وليس المرادُ من النَّهْيِ أَنْ يَلْفِظَ بلَفْظِ التَّحْرِيمِ خاصَّةً، بل أَنْ يَتْرُكَه تَشْدِيداً على نَفْسِهِ سَواءٌ لَفَظَ بِالتَّحْرِيمِ، أَمْ لم يَلْفِظْ به.

٨٨- وكُلُوا من الطيبات التي أحَلَّها الله لكم؛ فهو رِزْقٌ رزقكم الله إياه، وأعطاكم حقَّ التصرف به، وما دمتم قد آمنتم بالله تعالى، فاتقوا الله باتِّباع أوامرِه، واجتناب نواهيه.

٨٩- يَعْلَمُ الله بشريَّة الإنسان وضعْفَه ونَقْصَه، وقد راعى هذا الجانب في صورةِ القَسَمِ الذي يجري على اللسان بدون قصد قلبي، مثل: لا والله، والله لَأذهب...، وهو ما يُعرف باللَّغْوِ؛ فيبشركم - أيها المؤمنون- أنَّه عفا عنكم فلا يحاسبكم عليه، ولكن يحاسب على ما حلفتم به بألسنتكم، وعزمتم في قلوبكم عزيمةً تُثْبِتُ صدق نيتكم في الحلف. وقد منع الله العقوبة وسَتَرَها بالكفارة، فإن حلف وأكَّده بنيةٍ تُثبت صدق ما حلف به ولم يفعله؛ فإنَّه يستلزم عليه إخراج كفارة، وهي إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يُطعم به الأهل، لكل مسكين مُدٌّ، أو كسوتهم من إزارٍ ورداءٍ وقميص، أو أيِّ لباس يسترهم بحسب اختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، أو إعتاق عبدٍ مملوك ذكراً كان أو أنثى. وهذه الأشياء الثلاثة مخيرٌ بها، فمَنْ لم يجد من ذلك شيئاً فعليه صيامُ ثلاثة أيام، وهي مُكَفِّرات لأيمانكم، فاحفظوا أيمانكم، واجتنبوا الحَلْفَ، فإن كان لابُدَّ منه فالتزِمُوا بوفائها إن حَلَفْتُم، والتزموا بالكفارة إن لم تَفُوا به، وقد بَيَّنَ الله لكم أحكام دينكم؛ لتشكروه على رحمته وهدايته لكم. فله الفضلُ والثناءُ على بيان شرعه.

الفوائد والاستنباطات:

١- عِظَمُ تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه.

٢- حرمة القول على الله بغير علم.

٣- شمول الرزق على الحلال والحرام في قوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾؛ إذ لو لم يقع الرزق على الحلال والحرام لم يكن لذِكْرِ الحلال فائدة سوى التأكيد، وهو خلاف الظاهر. واقتصر على الأكل؛ لأنَّ معظم ما حرَّمه الناس على أنفسهم هو المآكل، والأمر بالتقوى تأكيد للوصية بما أمر به، وزاده تأكيداً قولُه: ﴿الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

٤- مراعاة مُتَطَلَّبات الحياة، ودواعي الفطرة السليمة السوية من إيفاء حَقِّ الروح والجسد، وهو دينٌ جاء وسطاً بين المسيحية واليهودية، فالمسيحية مُفْرِطَةٌ في الروحانية، واليهودية مُفْرِطَةٌ في المادية، فكان الإسلام وسطاً بينهما.

٥- بيان تشريع أحكام كفارة حَلْفِ اليمين على اليسر والرحمة، من غير مشقة.

٦- لا مؤاخذة بالأيمان التي تُحْلَفُ بلا قصد، ولا يتعلّق بها حُكْمٌ، وهي اليمين اللغو، كما قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

٧- رحمة الله بعباده المؤمنين في تشريع كفارة الحَلْفِ.

٨- أَكْلُ اللذائذ لا ينافي التقوى، وذلك ظاهر مِنْ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ
وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا
وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

التفسير:

٩٠- يا أيها المؤمنون، إنما الخمر وهو الشراب المُسْكِرُ الذي يذهب العقل، والميسر وهو المراهنات المالية التي تدفع من الجانبين وهو ما يعرف بالقِمار، والحجارة التي تُنْصَب للعبادة، والأزلام وهي القِداح التي

يستقسم بها المشركون قبل أن يُقْدِمُوا على شيء؛ ليعرفوا أمرهم: أَيُقْدِمُ أم يُحجم؟ أو يفعل الشيء أو لا يفعله، أو يسافر أو لا يسافر... إنَّ كل ما تقدَّم ذكرُه وبيانه إثمٌ من عمل الشيطان؛ فابتعدوا عنه ولا تقربوه. وتقدَّم بيان الاستقسام في الآية (٣) من هذه السورة.

٩١- إنَّ خطة الشيطان في شرب الخمر واللعب بالميسر مكشوفةٌ، وهي الكيد، وإيقاع العداوة والبغضاء، والحقد والكراهية بين المسلمين، فكل هذه الآثام ثبت تأثيرها في الناس: فالخمر تُفْقِد العقل فتسبب النزوات وتثير النعرات؛ وأما الميسر فتترك في النفوس الأحقاد وتؤجج الكراهية. ومن آثارها أنَّها تَصُدُّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة؛ بسبب غياب العقل وعدم إدراكه، فعليكم اجتنابَ ذلك كله.

وما ظهر من مفاسد الخمر والميسر كافٍ في انتهاء الناس عن تعاطيهما، ومن هنا يقبل الله على عباده بهذا الخطاب الذي يجمع بين العظمة والروعة، ويحمل معنى النهي القاطع بهذا الأسلوب الحكيم، مما دفعهم إلى المبادرة للامتثال؛ ولذلك رُوي أن عمر ﷺ لما سمع الآية قال: انتهينا انتهينا.

وقد اقتصرت الآيةُ على المفاسد في شُرْبِ الخمر وتعاطي الميسر، من غير بيان ما في عبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام من مفاسد، لأنَّ إقلاع المسلمين عنهما قد تقرر قبل هذه الآية من حين الدخول في الإسلام؛ ولأنَّهما من مآثر عقائد الشرك، وليس في النفوس من اللذَّات ما يدافع الوازع الشرعي عنهما، بخلاف الخمر والميسر، فإنَّ ما فيهما من اللذَّات التي تُزجي بالنفوس إلى تعاطيهما قد يدافع الوازع الشرعي؛ فلذلك أكَّد النَّهْيَ عنهما أشدَّ مما أكَّد النهي عن الأنصاب والأزلام. إذ كَرَّرَ الحَثَّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ وهذا الاستفهام ذمٌّ أُريد منه الأمر، أي: انتهوا، وهو من أبلغ ما يُنهى به إيذاناً بأنَّ الأمر في الزَّجْرِ والتحذير قد بَلَغَ الغاية القُصوى.

٩٢- ثم التزموا - أيها المؤمنون - بطاعة الله وطاعة رسوله؛ فهو الفوزُ والفلاح لكم، واحذروا من مخالفته وعصيانه. فإن لم تستجيبوا لذلك، وأعرضتم عن هدي ربكم، وطاعة رسوله، فإنَّما على رسولنا البلاغ الواضح البيِّن.

٩٣- سبب النزول:

عن أنس ﷺ عنه قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خَمْرُهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي «ألا إنَّ الخمر قد حُرِّمَتْ» قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأَهْرِقْها؛ فخرجت، فهرقتها، فَجَرَت في سِكَك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قومٌ وهي في بطونهم؛ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق برقم ٢٣٣٢).

التفسير:

وهناك من الصحابة ﷺ مَنْ كان يشرب الخمر، ثم مات قبل نزول تحريمها، فهؤلاء ليس عليهم مؤاخذةٌ إذا كانوا قد اتقوا الله في محارمه، وآمنوا به، وكانت لهم أعمالٌ صالحة قدَّموها بين أيديهم، ثم اتقوا الله، وراقبوه في السرِّ والعلن.

الفوائد والاستنباطات:

١ - جاء التعبير بـ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ وهو أبلغ من التعبير بلفظ حُرِّم، لأنَّه يفيد التحريم وزيادة، وهو التنفير والإبعاد عنه بالكلية يدفع كلَّ سبب داعٍ ومُحَفِّز إليه.

٢ - أكَّد الله تحريم الخمر والميسر في هذه الآيات بفنون التأكيد البيانية، إذ صُدِّرت الجملة بـ﴿ إِنَّمَا ﴾ وقُرنا بالأصنام والأزلام، وسُمِّيا رِجْساً من عمل الشيطان تنبيهاً على غاية قُبْحِهما، ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية.

٢ - حرمة تعاطي الخمر والميسر، وحرمة تعظيم الأنصاب والاستقسام بالأزلام. وحكمة ترتيبها في الآية: أنَّه لما كانت الخمر غاية في الحمل على إتلاف المال، قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار، ولما كان الميسر مفسدةَ المال، قَرَنَ به مفسدة الدين وهي الأنصاب، ولما كان تعظيم الأنصاب شِرْكاً جليّاً إن عُبِدَتْ، قَرَنَ بها نوعاً من الشرك الخفي، وهو الاستقسام بالأزلام.

٣ - الانتهاء فوراً من تعاطي المحرمات السابقة الذكر. ووَحَّد الخبر للنص على الخمر، والإعلام بأن أخبار الثلاثة حُذِفَتْ وقُدِّرَتْ، لأنَّها أهلٌ لأن يقال في كل واحد منها على حِدَتِها كذلك، ولا يكفي عنها خبر واحد.

٤ - بيان علَّة تحريم شرب الخمر والميسر من إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، والصدِّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة.

٥ - المداومة على تقوى الله في السر والعلن حتى الموت، وكرر التقوى مع الإيمان والعمل الصالح مرة، ومع الإيمان مرة، ومع الإحسان مرة؛ ليدلَّ «أنَّ الاتقاء الأول هو تَلَقِّي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرُّب بالنوافل». (تفسير ابن جرير الطبري ٧/ ٥٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ
فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم
مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ
عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ
﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- مناسبة هذه الآيات أنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ثم استثنى الخمر والميسر من ذلك، فصارا من المحرمات، ثم استثنى نوعاً آخر وهو هذا النوع من الصيد: وهو صيد الإحرام، وبَيَّنَ جزاءه، فصار مستثنى ممَّا أحلَّ الله، داخلاً فيما حَرَّمه ومنعه على المؤمنين، فينادي الله تعالى المؤمنين، ليُعْلمهم أنه سيبتليهم بالصيد حالةَ إحرامهم مع احتمال قُرْبِه منهم في متناول أيديهم، ومرمى رماحهم؛ ليعلموا أنَّ الله تعالى يعلم مَنْ يخافه ويراقبه، فحَرَّم على المسلمين صيد البر في حال إحرامهم بالحج أو العمرة؛ وكان ذلك في يوم الحديبية؛ فكان الصيدُ يَغْشاهم وهم على رِحالهم، وكان بمقدورهم صيدُه طعناً برماحهم، أو أَخذاً بأيديهم. فمَنْ تجاوَزَ هذا الأمر بعد هذا البيان، فخالف أمره ووقع في الصيد وهو مُحْرِمٌ، فله عذابٌ موجع.

٩٥- يا أهل الإيمان، لا تقتلوا الصيد إن كنتم مُحْرمين بالحج أو بالعمرة أو بهما معاً، وإن لم تكونوا مُحْرمين فلا تقتلوا الصيد وأنتم في منطقة الحرم؛ فالله ﷻ جعل للحَرَم حدوداً لا يُصاد صيدُه، ولا تُلْتقط لقطتُه؛ تعظيماً له. فمَنْ وقع في المحظور، وقَتَلَ صيداً فعليه جزاءٌ في المِثْلية، بأن يُقوِّم الشيء المقتول بمثيلٍ له مما يُذْبح، ويكون قريباً إلى شَكْلِهِ من الأنعام مثل البقر أو الإبل أو الغنم. والمِثْلِيَّةُ هنا مثلية الشكل يُقوِّمها عَدْلان ينظران إلى الصيد وما يشبهه من النَّعم من صغرٍ وكبرٍ، ومما لا جنسَ له مما له جنس؛ فمَنْ وجب عليه شيءٌ من ذلك فعليه هديٌ يسوقه إلى مكة ليُطْعِمَه فُقَراءَها، أو يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به، أو يصوم بدل كل نصف صاعٍ يوماً، وعَلَّلَ إيجاب الجزاء؛ ليذوق القاتل ثِقَلَ فِعْلِه، وسوء عاقبة أمره، وهَتْكَه لحرمة الإحرام، وقد عفا الله عما مضى قبل التحريم، ولكن مَنْ عاد إلى المخالفة والنهي متعمداً؛ فإنَّه سيُعاقبه على مخالفته ومعصيته، فالله عزيز قوي ينتقم ممَّنْ عصاه.

٩٦- أحلَّ الله لكم - أيها المؤمنون - صيد البحر حال إحرامكم بالحج أو العمرة؛ وصيد البحر يشمل كل ما يُستخرج منه من حيوانات تعيش فيه، أو ما يقذفه البحر على ساحله ميتاً، وقد جعل الله طعام البحر متاعاً يتزوَّد منه المقيمون والمسافرون، وبعدها يؤكِّد تحريم صيد البر حال الإحرام بالحج والعمرة، واتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنَّكم راجعون إلى الله يوم القيامة لا محالة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الدنيا دار ابتلاء واختبار، وحكمته معرفة مدى صلابة المؤمنين في التمسك بأحكام دينهم، وأصول شرعهم.

٢- ابتلاء الله الأُمة الإسلامية في صيد البر كابتلاء اليهود في صيد البحر، فنجحت الأُمة في ابتلائها، وفشلت اليهود فيه، والتنكير في ﴿ بِشَىْءٍ ﴾ للتحقير المؤذن بأنَّ ذلك من الفتن الهائلة التي تَزِلُّ فيها أقدام الراسخين. وفائدته التنبُّه على أنَّ مَنْ لم يثبت في مثل هذا، كيف يثبت عند شدائد المحن؟

٣- بيان فضل الأُمة في إباحة صيد البحر وطعامه في حِلِّها وإحرامها.

٤- تحريم صيد البر على المحرم بالحج أو العمرة أو بهما معاً.

٥- بيان جزاء مَنْ صاد وهو مُحْرِم؛ وفيه: التخفيف على الأُمة، ورَفْعُ ما كان على مَنْ قبلها من الآصار، وألحق الخطأ بالعمد، وقيَّد العَمْدَ في ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾ بحسب الغالب.

٦- بيان التحكيم في الصيد، إذ لا يجوز للصائد أن يُكَفِّر بنفسه؛ لأنَّ وجوه المشابهة بين الصيد والنَّعَم كثيرة فاحتاج ذلك إلى زيادة التأمل فقال: ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾.

٧- الله ﷻ شديد ينتقم ممَّنْ يتعدَّى حدوده، ويخالِفُ أمره، ويُصِرُّ على معاصيه. وقد أتى بالاسم الأعظم لما اقتضاه المقام من الرهبة والخوف والجلال.

٨- ينظر: صورة الكعبة، كما في الملحق.

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٩٧- يُعَظِّمُ الله تعالى الكعبة المشرفة تعظيماً للبيت الحرام الذي جعله صلاحاً ومعاشاً وأمناً وسلاماً للناس يأمنون فيه من الخوف والفزع، ويُعَظِّم جميع أشهر الحرم، وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) إذ جعلها قياماً، أي فيها صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة، فيأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ومعايشهم وتجاراتهم، وينصرفون إلى العبادة والحج وصلة القربى، وتحصيل الأقوات كفاية العام، وقد اكتسبت الحرمة بوَصْفِها أشهر الحج والعمرة، فلا يُعتدى بها على أحدٍ، كذلك حَرَّم الاعتداء على الهدي الذي يُهدى إلى الكعبة والأنعام التي توضع عليها القلائد؛ إشعاراً أنّها مُهْداةٌ إلى الحرم، ذلك لتعلموا أنَّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض؛ فهو مُدَبِّرٌ لهم، لا تَخْفَى عليه خافية.

٩٨- اعلموا - أيها الناس - أنَّ الله شديدُ العقاب لِـمَنْ خالف أمره وعصاه، وأنَّ الله غفور رحيم لِـمَنْ امتثل أمره وأطاعه، وهو غفور رحيم لِـمَنْ تاب وأناب. وقَدَّم العقاب على الرحمة دلالة على أنَّ جانب الرحمة أغلب؛ لأنَّ رحمته تعالى سبقت غضبه، كما صَحَّ في الحديث؛ لذا قال تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [المائدة: ١٥].

٩٩- إنَّ مهمة الرسول محمد ﷺ هي البلاغ للبشرية، وعليهم تنفيذ ذلك البلاغ؛ فإن امتثلوا وأطاعوه فازوا بالجنة، وإن عَصَوه وخالفوا فلهم النار. والله يعلم ما يبدونه في قلوبهم، وما يُسِرُّونه.

١٠٠- قل - يا أيها الرسول - لا يستوي الخبيث والطيب: فالكافر لا يُساوي المؤمن، والجاهل لا يساوي العالم، والظلمات لا تساوي النور، والمال الحرام لا يساوي الحلال، فلا تَغْتَرَّ بكثرة الخبيث على الطيب؛ فقد يُعَجِّلُ الله للكافرين كثرة المال لحكمة هو يعلمها، فالعبرة ليست بالكثرة والقلة، وإنَّما هي بالطيب النافع ولو كان قليلاً. فاتقوا الله يا أصحاب العقول النيِّرة، وامتثِلُوا أمره، واجتنِبُوا نَهْيَه، لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعظيم الكعبة والأشهر الحرم عند الله تعالى.

٢- عِظَمُ حكمة الله في جَعْلِ مكان آمنٍ، وهو البيت الحرام، فأوجد له المهابة والمكانة والتعظيم في قلوب الناس.

٣- ذكر الله في هذه الآية أمام العقاب وصفين من أوصاف الرحمة، وهو كونه غفوراً رحيماً، قال الرازي: «وهذا تنبيه على دقيقةٍ، وهي أنَّ ابتداء الخلق والإيجاد كان لأجل الرحمة، والظاهر أنَّ الخَتْمَ لا يكون إلا على الرحمة». (تفسير الرازي: ١٢/ ١٠٢).

٤- يستنبط من الآية (٩٨) الوقف النبوي عند قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ينظر: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥). (ح)

٥- تنبيه على لزوم الطيِّب في المعتقد والعمل، وخُصَّ أولو الألباب بالذكر؛ لأنَّهم المتقدمون في مَيْزِ هذه الأمور، والذي لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم.

٦- تقوى الله فلاح للمؤمن في الدنيا، وفوز بالجنة في الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا
كَٰفِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

١٠١- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خُطبةً ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: لو تعلمون ما أعلم لَضحكتم قليلاً، ولَبكيتم كثيراً، قال: فغَطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ؛ فقال رجلٌ: من أبي؟ قال: فلان؛ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾. (صحيح البخاري، باب الرجاء، برقم ٤٣٤٥).

التفسير:

هذا تأديبٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهيٌ لهم أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، ولا حاجة لهم بها؛ لأنَّها - إن أظهرت لهم تلك الأمور - ربما ساءتهم، وشَقَّ عليهم سماعها؛ فإذا نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها، وإن لم تأت الإجابة فلا يقولَنَّ أحدٌ: ليس عنده جواب.

١٠٢ - وقد سأل قوم من قبلكم كاليهود والنصارى بأن يُنَزِّل لهم آية؛ فتوَعَّدهم الله إن لم يؤمنوا بها سيهلكهم، فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها.

١٠٣ - أبطل الله تعالى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحلَّ الله كَذِباً وافتراءً عليه، مثل شق أذن الناقة علامةً أنها مُحَرَّمة فلا يتعرض لها أَحَدٌ؛ فلا يُشْرَبُ لبنها، ولا يُرْكَبُ ظهرُها، ولا يُجَزُّ صوفُها، ويُسَمُّونها البَحيرة، وهي الناقة التي وَلَدَتْ عدداً من البطون، أو يُسَيَّب البعير بنذر يَنْذُره الرجلُ إن سَلَّمه الله من مرضٍ أو بَلَّغه منزلةً أن يفعل ذلك، وهي السائبة فتترك للأصنام، والوصيلة، وهي التي تتصل ولادتها بأنثى بعد أنثى، والحامي، وهو الذَّكَرُ من الإبل إذا وُلِدَ من صُلْبه عدد من الإبل، وقد نسب الكفار ذلك لله تعالى؛ فردَّ الله عليهم بأنه ما سَمَّى الله ولا شرَعَ ذلك حكماً ولا تعبداً؛ بل نسبوه كذباً وافتراءً عليه، وكثير منهم لا يُعملون عقولهم.

١٠٤ - وإذا دُعِيَ هؤلاء المشركون إلى ما أنزل الله وما شرع الرسول، رَدُّوا ذلك بوقاحة أنه: يكفينا ما أخذناه من آبائنا من قول وعمل؛ كيف يقولون ذلك وآباؤهم لا يعقلون ولا يعرفون الحق، ولا يميزون بينه وبين الباطل، ولا يهتدون إلى الحق سبيلاً؟

١٠٥ - لما ذكر الله مكابرة المشركين عن سماع الحق عَذَر المسلمين بقيامهم بما فرض الله عليهم من دعوة الناس إلى الخير؛ فعلى الداعي تبليغ الناس ودعوتهم إلى الدين الصحيح بالحُجَجِ والبراهين؛ فإذا لم يستجيبوا فليس عليه شيءٌ فالهداية من الله، كما قال تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

يطلب الله من عباده المؤمنين أن يسلكوا منهج القرآن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يسلكوا سُبُلَ المخالفين الذين يتبعون آباءهم وأسلافَهم من غير هَدْيٍ ولا بصيرة، فالزَموا - أيها المؤمنون - بعضكم بالنصح، ولا يَضُرُّكم ضلال المشركين، وإعراض الكافرين والمخالفين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - توازن بين التزام الأوامر والنواهي والوفاء بعهد الله، وبين عدم التشديد على النفس فيما لم يأمر به الله تعالى.

٢- نَهْيُ المؤمنين عن الأسئلة المحرجة المتنطِّعة من غير حاجة.

٣- تحريم الابتداع في الدين. وهذه الآية تدعو إلى التوازن، فإذا كان الله تعالى قد أمَرَنا بالوفاء بالعقود، فلا ينبغي أن يُوصلنا ذلك في التضييق على أنفسنا.

٤ - النهي عن التقليد الأعمى، ولاسيما تقليد الجهال الذين لا عِلْمَ عندهم.

٥ - وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يقتصر ذلك على رجال الحسبة، بل يجب على كل مسلم. عن أبي بكر الصديق ﷺ أنَّه قال: أيها الناس، إنَّكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب منه». (سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي - برقم ٤٣٣٨، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، برقم ٣٦٤٤).

٦- لا يَضُرُّ المؤمنين إعراضُ الناس عن هدي الله، إذا أمروهم بالمعروف، ونَهَوْهم عن المنكر.

٧- غلبةُ أهل الإسلام، وإن قَلُّوا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

١٠٦- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان تميمٌ الداريُّ وعَدِيُّ بنُ بدَّاء رجلين نصرانيين، يتَّجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النَّبي ﷺ حَوَّلا متجرهما إلى المدينة، فخرج بديل السهمي مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعا تجاراً إلى الشام، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصية بيده، ثم دَسَّها في متاعه وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه، فأخذا منه شيئاً - إناءً من فضة منقوشاً بالذهب - ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه، فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا». فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالوا : ما كتمنا له شيئاً، فترافعوا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾.. إلى قوله: ﴿ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴾. فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر: بالله الذي لا إله إلا هو، ما قبضنا غير هذا ولا كَتَمْنا، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموَّه بالذهب، فقال أهله: هذا من متاعه؟ قالا: نعم، ولكنا اشتريناه منه، ونَسِينا أن نذكره حين حلفنا، فكرهنا أن نُكَذِّب نفوسنا، فترافعوا إلى النبيِّ ﷺ فنزلت الآية: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ فأمر النبيُّ ﷺ رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغَيَّبا، ويستحقانه.

(صحيح البخاري، كتاب الوصايا، برقم ٢٧٨٠).

التفسير:

يُرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يُسْعِدُهم في حياتهم الدنيوية، ولاسيما في أمر الوصية حين حضور الأجل؛ فإنْ كنتم على سفرٍ، وأحسَّ الواحدُ منكم بدُنُوِّ أجله، فليُشْهِدْ اثنين من أهل الدين والاستقامة

ويوصيهما؛ فإنْ لم يجد اثنين أمِينين من المسلمين؛ فليُشْهد اثنين من غير المسلمين عند الحاجة على الوصية. فإن شككتم في صِدْقهما وشهادتهما فقِفُوهما من بعد صلاة المسلمين - وليكن بعد صلاة العصر - فيقسمان بالله إنَّهما لم يأخذا عوضاً دنيوياً على شهادتهما، ولم يُحابيا بذلك قرابةً أو رَحِماً، وإنَّهما لم يكتما شيئاً من الشهادة.

١٠٧- فإن اتُّفِق الاطلاع على أنَّ الشهيدين المُقْسِمَين استحقا إثماً بالكذب أو الكتمان في الشهادة، أو بالخيانة وكتمان شيءٍ من التركة في حالة ائتمانهما عليها؛ فليَقُمْ رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين. وهذان الرجلان الوارثان ينبغي أن يكونا هما الأَوْلَيَيْنِ بالميت، أي: الأقربين إليه الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع، فيقسمان بالله: على أن ما يشهدان به من خيانة الشهيدين اللذين شهدا على وصية ميِّتهما أحقُّ وأصدق من شهادتهما بما كانا شَهِدَا به، وأنَّهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة، ولم يتجاوزا الحق، فإن اعتدينا الحق وقلنا الباطل فإنَّنا من الظالمين.

١٠٨- إنَّ ذلك الذي ذُكِرَ من تكليف المؤتمن على الوصية والقيام على مشهد من الناس بعد الصلاة، وإقسامه تلك الأيمانَ المغلظة أقرب الوسائل إلى أن يؤدِّي الشهداءُ الشهادةَ على وجهها بلا تغيير ولا تبديل، تعظيماً لله ورهبةً من عذابه، ورغبةً في ثوابه، أو خوفاً من الفضيحة التي تَعْقُبُ استحقاقهما الإثم في الشهادة، بردِّ أيمانٍ إلى الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها، فمَنْ لم يمنعه خوفُ الله وتعظيمُه أن يكذب أو يخون لضعف دينه، فإنَّ خوفَ الفضيحة على أعين الناس يمنعه. واتقوا الله - أيها المؤمنون - في الشهادة والأمانة وفي كل شيء، واسمعوا سَمْعَ إجابةٍ وقَبول هذه الأحكامَ، وسائر ما شرعه الله تعالى لكم، فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم فاسقين عن أمر الله تعالى محْرُومين من هدايته، مستحقين لعقابه.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية الوصية قبل الموت، والحثُّ عليها في الحضر والسفر.

٢- وجوب الإشهاد على الوصية.

٣- إباحة سفر المسلم مع الكافر، إذا لم يكن ثمة محذور.

٤- جواز استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين في حال فقدان المسلم.

٥- تحليف الشاهد على أنَّه صادق في شهادته، وتخصيص الحَلْف في الآية باثنين من أقرب الورثة؛ لخصوص الواقعة التي نزلت لها.

٦- مشروعية اختيار الوقت الذي يؤثِّر في نفوس الشهود الذين حَلَفُوا الأيمان؛ رجاءَ أن يَصْدُقوا في كلامهم، فقد جُعِلت بعد الصلاة، وكونها عقب الصلاة للتغليظ والتهويل.

٧- إرشاد إلى حبس مَنْ تَوَجَّبَ عليه الحقُّ حتى يؤدِّيه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ
يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى
ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ
بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

التفسير:

١٠٩- لما تمَّ الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين، ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى؛ فإنَّ الأديان وصايا الله إلى خلقه.

واذكروا - أيها الناس - يوم القيامة عندما يجمع الله الرسل، فيسألهم وهو أعلم بهم عن جواب أممهم لهم؛ ويُقْصَدُ من السؤال توبيخُ أُممهم، وإقامة الحجة على الكافرين منهم؛ فيقول: ماذا أجابتكم الأُمم عن أمر التوحيد، وعبادة الله وحده؟ أكانت إجابة إيمان وإقرار، أم إجابة كفرٍ واستكبارٍ؟ فتتبرأ الرسل من العلم بالسؤال، وتُفوِّضه إلى الله تعالى. فيقولون للرب: لا عِلْمَ لنا إلا علمٌ أنت عَلَّمتنا إياه، ونحن لا نعلم ماذا أَحْدَثَتِ الأُمم بعدنا، أنت سبحانك عظيم العلم بكل غيب.

١١٠- واذكر حين قال الله تعالى لنبيه عيسى بن مريم عليه السلام واذكر نعمتي العظيمة عليك وعلى والدتك؛ إذ أيَّدْتُك وقوَّيْتُك بروح القدس جبريل عليه السلام، وقد خَلَقْتُك من غير أبٍ، واصطفيتُ والدتك على العالمين؛ فبرَّأتها مما نُسِبَ إليها، وعَلَّمْتُك الكتابة، فتكلم الناس وأنت صغيرٌ في مهدك تُكَلِّمهم بأمور الدعوة في حال كهولتك. ووهبتُك الحكمة، وهي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام، وعَلَّمْتُك التوراة التي أنزلتُها على موسى عليه السلام، والإنجيلَ الذي أنزلتُه عليك ليكون هدايةً للناس؛ ففيه ما أوحيتُه إليك من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام. وإذ تَصْنَعُ من الطين مثلَ هيئة الطير؛ فتنفخ فيها، فيكون الطينُ المصنوع على هيئة الطير طيراً حقيقياً بإذني، وكنتَ تَشفي الأعمى فيصير مُبصراً، وتَشفي الأبرص، فيعود جِلْدُه سليماً بإذن الله، وكنت تدعو الله أن يُحْيِي الموتى، فيقومون من قبورهم أحياءً بإذن الله؛ وإذ تُخرج الموتى من قبورهم أحياء، وقد سمَّى الله الإحياء خروجاً في قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقال:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]. واذكر نعمتي عليك حين منعتُ بني إسرائيل من قَتْلِك وصَلْبِك، وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك، وزَعْمهم أن ما جئت به من البينات لم يكن إلا سحراً ظاهراً.

١١١- ومن نِعَمي عليك - يا عيسى - أن ألهمتُ أصحابَك وخُلَصاءَك أن يؤمنوا بك وبرسالتك، وقد كَذَّبك جمهورُ بني إسرائيل؛ فجعلتُهم أنصارك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك بعدك؛ فقالوا: آمنا بك يا ربنا، وصَدَّقْنا عيسى، وأنَّه رسولك إلينا، ونشهد أنَّنا خاضعون لجلالك وسلطانك.

الفوائد والاستنباطات:

١- كرر كلمة ﴿بِإِذۡنِي﴾ تأكيداً؛ لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى وإيجاده.

٢- لكلِّ عصر ما يناسبه من المعجزة، فازدهر عصر عيسى ﷺ بالطِّبِّ والعلوم، فأجرى الله على يديه ما يفوق الطِّب البشري والعلوم والثقافة البشرية المعهودة، وازدهر عصر موسى ﷺ بالسِّحر والشَّعوذة، فأيَّده الله تعالى بما يفوق سحر السحرة، باليد والعصا، وفَلْقِ البحر، وتفجير الماء من الحجر ينابيع، هي اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط (قبائل بني إسرائيل). وازدهر عصر النبي محمد ﷺ بسحر البيان في الكلام شعراً ونثراً وخطابةً، فأنزل الله عليه القرآن الكريم، وفيه أعلى البيان وأسمى الفصاحة والبلاغة، فكان إعجاز القرآن البياني معجزة النبي ﷺ إلى يوم القيامة.

٣- جواز نسبة الإنسان إلى أُمِّه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

٤- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عليهم الشكر، كما يجب على مَنْ أُرْسِلُوا إليهم؛ لأنَّ الله أَمَرَ عيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى أُمِّه.

٥- اللقب الفاضل لجبريل هو روح القدس؛ فإنَّ القدس بمعنى الطهارة، والنزاهة من كل عيب.

٦- هذه الآية العظيمة التي أعطاها الله لعيسى، وهو أنَّه يُكَلِّمُ الناس في المهد وكَهْلاً على السواء.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

التفسير:

١١٢ - واذكر حين طلب أنصار عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أن يُنزل الله تعالى عليهم مائدة من السماء؟ فأجابهم عيسى بأن يتقوا الله إن كانوا مؤمنين حقَّ الإيمان، والمقصود بكلمة الاستطاعة مع أنَّ الطلب صادر من الحواريين، وهم مؤمنون يعلمون أنَّ الله قادر على كلِّ شيء، أي: هل يفعل ذلك، وهل يجيبك إلى مطلبك أو لا؟ فأرادوا علم المعاينة والمشاهدة والاطمئنان بعد توافر الاعتقاد والعلم بقدرة الله تعالى، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لأنَّ عِلْمَ النَّظر والخبر قد تدخله الشُّبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة المحسوس لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ كما قال إبراهيم: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾. (انظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٦٥، وتفسير الرازي: ١٢/ ١٢٩).

١١٣ - قال أنصاره المؤمنون: إننا نريد أن نأكل منها؛ فتطمئن قلوبنا برؤيتها، ونؤمن بها؛ لتتحقَّق المشاهدة واللمس والذَّوق والشمُّ، ونعلم علماً يقينياً صِدْقَ نُبُوَّتك، وصِدْق ما وَعَدْتنا من ثمرات الإيمان، ونكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل؛ فيؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

١١٤ - فوافق نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام طَلَبَ الحواريين؛ فدعا الله عز وجل قائلاً: اللهم ربَّنا أنزل علينا مائدة تكون مناسبة لعيد، يفرح بها الأولون والآخرون، وتكون آيةً على وحدانيتك وعلى صدق نبوتي، وأني مرسل من عندك إلى بني إسرائيل، وأنت خير الرازقين.

١١٥ - استجاب الله طَلَبَ عيسى بن مريم عليه السلام؛ فقال: إني منزلٌ عليكم مائدة الطعام، ولكن مَنْ كَذَّبَ وجَحَدَ وحدانية الله، وأنكر نبوة عيسى بن مريم بعد نزولها؛ فإني أُعَذِّبه عذاباً شديداً لا أعذبه أَحَداً من العالمين، وقد نزلت المائدة عليهم؛ فآمن مَنْ آمن، وكفر مَنْ كفر.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوبُ التأدُّب مع الله جلَّ جلاله، والتحذير من سوء الأدب معه، أو يُقترح عليه شيءٌ.

٢- فَرْقٌ بين طَلَبِ الحواريين وطَلَبِ عيسى بن مريم؛ فالحواريون قدَّموا بشريَّتهم، فطلبوا من المائدة أولاً الأكل والطعام؛ فقالوا: نريد أن نأكل منها، وتطمئنَّ قلوبنا، أما عيسى بن مريم فقد أخَّر الطعام عن القيم المعنوية؛ فقال: اللهمَّ ربَّنا أنزِلْ علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين، وأتى عيسى بكلمة الرزق عند دعاء ربه، وهي عامةٌ تشمل كلَّ أنواع الرزق؛ لتشمل الطعام والشراب والملبس والعلم والحلم.

٣- مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذِّكْر؛ شكراً لله تعالى.

٤- مكانة الأنبياء والمرسلين عند ربهم، واستجابة دعائهم.

٥- تقوى الله وقاية من الوقوع في المحذور، والنزوع من أسلوب الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولم يقل: (فقلت اتقوا الله) تحذيراً للمسلمين من أن نكون مثلَ مَنْ مضى في اقتراحهم الذي كان سبب هلاكهم.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ
سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ
مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ
تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ
لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾

التفسير:

١١٦-١١٧- واذكر يوم القيامة حين يقول الله لنبيِّه عيسى: أأنت قلت للناس: اتخذوني وأُمي إلهين من دوني؟ عندئذٍ يجيب عيسى مُنَزِّهاً الله ﷻ ومُتَأدِّباً؛ إجلالاً وهيبة لذلك المقام: ما ينبغي لي أن أقول للناس ما ليس لي بعلم؛ إن كنتُ قلتُ هذا فقد عَلِمْتَه، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، فأنت عظيم العلم بكل غيب. ما قلتُ لهم يا ربي إلا ما أمرتني به أن أُبَلِّغَه للناس من توحيد الله وعبادته، وكنت

شاهداً على أفعالهم وأقوالهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ - والمراد منه وفاة الرفع إلى السماء، أي: رَفَعْتني إليك - كنت أنت الرقيب على أعمالهم، وأنت يا ربِّ رقيب حفيظ.

١١٨- إنَّك - يا الله - إن تُعَذِّبْ مَنْ مات منهم على الشرك؛ فأنت على ذلك قدير، وإن تغفر لِـمَنْ مات منهم على التوحيد، فتُدْخِلْه جناتك؛ فإنَّك أنت العزيز الغالب على أمره الحكيم الذي يضع كلَّ شيء في موضعه.

١١٩- أجاب الله تعالى عيسى بن مريم ﷺ: هذا اليوم يوم الجزاء ينفع المؤمنين الذي آمنوا بالله، فأَخْلَصوا له العبادة، وانقادوا لشرعه؛ فلهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، لا يخرجون منها أبداً. ذلك الفوز العظيم.

١٢٠- الله وحده مالك السموات والأرض وما فيهنَّ، يفعل فيها ما يشاء، لا ينازعه في ملكه أحد، وهو سبحانه على كل شيء قدير.

الفوائد والاستنباطات:

١- توبيخ النصارى يوم القيامة أمام الناس جميعاً على تأليه عيسى بن مريم وأُمِّه عليهما السلام.

٢- أدبُ عيسى ﷺ يوم القيامة حين سؤاله، ورَدُّ عِلْمِ ذلك إلى الله ﷻ، فمن الأَولى أن يتأدب الخلق مع خالقهم، فهم أقل رتبةً ومنزلة من رتبة الأنبياء والمرسلين.

٣- ثراء أسلوب الاستفهام في دلالة المعنى وبيان مقاصده، وليس الاستفهام في الآية على حقيقته بمعنى أن السائل لا يستفهم عن شيء لا يعلمه، ولكن يريد منه أن يلفت المسؤول إلى شيء يريده، وقد فَهِمَ عيسى ﷺ السؤال على الوَجْه الذي ينبغي أن يُفْهَم به، وهو أَنَّه واردٌ على سبيل استنطاقه بما يعلمه الله، ويَعْلمه هو، من ادِّعاء النصارى هذا الكَذِبَ على عيسى تكذيباً لهم وتبكيتاً، ورَدّاً على افترائهم هذا في حقِّ الله، وفي حقِّ عيسى ﷺ تَبْرِئَةً له، وإقامة للحُجَّة عليهم؛ ولذا أجاب مُسْنِداً عِلْمَ ما في الضمير والعلم المطلق لله، نافياً ذلك عن نفسه؛ تنبيهاً للسامعين أنَّ سؤال ربِّه إيَّاه ليس طَلَبَ علْمٍ، بل هو استنطاق له بما يَعْلَمُه الله ﷻ، فالاستفهام إذاً للتقرير بما يعرفه عيسى ﷺ.

٤- الأنبياء والرسل والأولياء والصالحون لا يَدْعُون أَحَداً لعبادتهم.

٥- براءة عيسى ﷺ ممَّا نسبه قومه إليه.

٦- هولُ يوم القيامة وشدَّتُه على الناس جميعاً

النزول: مكية.

فضل السورة: من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْرُه في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١ - بيان أصول العقيدة والإيمان والبعث والمعاد، وذِكْرُ النبوة.

٢ - حماية البيئة في النهي عن قَتْلِ أنواع من الحيوانات.

٣ - الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمان ومكان.

٤ - إقامة المجتمع الصالح الآمن.

٥ - الأصل في الجنس البشري وحدة المنشأة، ثم التزاوج، ثم الانتشار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ
(١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ
إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٥)﴾

التفسير:

١ - صيغة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تفيد القصر، وفيها الثناء والشكر والمجد كلُّه لله تعالى، فاحْمَدُوا الله الذي خلق السموات والأرض، وخَلَقَ الظلمات والنور، من خلال تعاقُب الليل والنهار، وهي دلائل باهرة على قدرته واستحقاقه للعبادة. وجمع الظلمات وأفرد النور؛ لأنَّ الظلمات متعددة الأسباب، أما النور فليس له إلا سببٌ واحد، وقُدِّمت الظلمات على النور؛ لأنَّها أسبق في الوجود، فقد وُجِدَتْ مادة الكون المظلمة أولاً. وهذه الآية تقرر حقيقة خلق الوجود الكوني، الذي ينبغي للإنسان شُكْرُ خالقه على ذلك؛ لذلك نَبَّه في البداية على شكره. ومع هذا الوضوح وتلك الصفات المطلقة، فإنَّ الذين كفروا بربهم يُسَوُّون الله بغيره، ويجعلون له شريكاً، وهُم الذين بلغوا الغاية في صفات النقص، تعالى الله عمَّا يقولون.

٢- هو الذي خلقكم لا غيره، فخلق آدم من طين، وجعل البشرية منه متعاقبة، وكتب مدةَ بقاء كل واحد في الحياة الدنيا، فجعل له أجلاً محدداً لا يحيد عنه وهو الموت والبعث، وكتب أجلاً آخر لا يعلمه إلا الله، وهو ابتداء القيامة والآخرة، ثم أنتم تَشُكُّون في وَعْدِ الله ووعيده، وقدرته على البعث والنشور.

٣- إنَّ الله جلَّ جلاله هو المعبود في السموات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم، خاضعون له، وهو يعلم جميع ما يُخفونه وما يُعلنونه، ويعلم أعمالهم من خيرٍ وشرٍّ، فهو الله المستحق للعبادة.

٤- فقد جاءت الحُجَجُ والبراهين على وحدانية الله وقدرته، وبانت لهم نبوة الرسول محمدٍ ﷺ، ولكنَّ هؤلاء الكافرين أعرضوا عنها، ولم يقبلوها، وأشركوا بالله.

٥- لقد جحد هؤلاء الكفار بالحق، ولم يقابِلُوه بالشكر والإذعان له؛ عناداً واستكباراً من أنفسهم، وغروراً بما عندهم من مالٍ وجاه، فسوف يرون عاقبة تكذيبهم واستهزائهم به، وأنَّه الحق جلَّ جلاله.

الفوائد والاستنباطات:

١- نِعَمُ الله على عباده كثيرةٌ لا تحصى.

٢- جمع الظلمات؛ لتعددها وسيادتها في الكون، وأفرد النور؛ لخصوصيته ومحدوديته في الوجود، وعدم تعدده. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار،٢٣٣-٢٥٤). وينظر: نسبة الظلمات والنور في الملحق.

٣- كثرة دلائل قدرة الله في كونه العظيم.

٤- الحمد والثناء والشكر لله تعالى.

٥- القلوب مجبولة على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وبُغْضِ مَنْ أساء إليها.

٦- الحسرة والندامة على مَنْ يرى دلائل قدرة الله ولا يؤمن بها. وكان السياق فيه العدولَ عن الخطاب إلى الغيبة، وهو التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، وإعراضاً عن خطابهم.

٧- أَخْذُ العِبْرة من هلاك الأمم السابقة.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم
مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا
عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم
مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٦- ألم يعلم هؤلاء الكفار الذين أشركوا بالله، وكَذَّبوا بما جاءهم الرسول محمد ﷺ، ما حَلَّ بالأُمم السابقة من دمار وهلاك؛ جزاء كفرها وإعراضها عن هدي ربها؟ وقد مَكَّنهم الله في الأرض، وأنعم عليهم من الأمطار والخيرات والزروع والثمار، وأجرى لهم الأنهار، فلم يُغْنِ عنهم ذلك، ولم يشكروا خالقهم، فكفروا به، وكذَّبوا رسله، فأهلكهم بذنوبهم تلك، وأنشأ من بعدهم أُمماً أخرى، فهو القادر أن يفعل ذلك بكم. إنَّه يُذَكِّرهم ويُهَدِّدهم، ويلفت أنظارهم إلى مصارع المكذِّبين مِنْ قبلِهم، وقد تركوا بيوتهم خاويةً، تمر عليها العرب في رحلاتهم، وتتناقل أخبارهم.

٧- لقد أعرض المشركون عن هدي محمدٍ ﷺ مكابرةً وعِناداً، فلو أنَّ الله نزَّل على محمد كتاباً - قرآناً - من السماء مكتوباً في ورق، فلمسوه بأيديهم، لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه، لقالوا: إنه سحرٌ مبين، وقد طلب المشركون ذلك من الرسول ﷺ عناداً واستكباراً.

٨- وقال هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ: هلَّا أُنزل معه مَلَكٌ من السماء يُصدِّقُه بما يقول، وأنَّه مرسل من الله، ولو استجاب الله طلبهم ذلك لَقُضِيَ الأمر بهلاكهم بدون إمهال إن كفروا به.

٩- وهنا يُبيِّن الله جَهْلَ اقتراحهم بأمرين، الأول: أنَّ سُنَّة الله سبقت ألَّا يُستجاب للكافرين طلب، والثاني: لو جَعَلَ الرسولَ المرسلَ إليهم مَلَكاً من ملائكته لجعله على هيئة البشر؛ لأنَّ البشر لا تستطيع معاينته إلا أن يجسِّده الله بشراً، فهم لهم طبيعة خاصة، وسيُهْلَكُون عند رؤيتهم. ولو جاءهم بصورة البشر لاشتبه الأمر عليهم مرة أخرى، كما اشتبه عليهم أمر محمد ﷺ من قبل، وسيقول لهم - أي المَلَكُ- : أنا مَلَكٌ أرسلني الله إليكم؛ لأُصَدِّقَ نبيكم محمداً ﷺ، بينما هم يَرَونه رجلاً مثلهم، فسيقعون في لَبْس. وهو من رحمة الله في عدم استجابتهم، فهلَّا استشعروها، وعرفوا حكمة الله فيها.

١٠ - وبما أنَّ طلبهم من إنزال المَلَكُ كان سخريةً واستهزاءً بمحمد ﷺ، فإنَّ استهزاءهم ذلك ليس جديداً؛ لأنَّ الكفار والمشركين استهزؤوا برسلهم من قبل، فأنزل الله عليهم العذاب عقاباً على فِعْلِهم.

١١ - وهذا أمرٌ إرشاديٌّ منه ﷻ، بمعنى: سيروا سَيْرَ اعتبار بالأحداث والوقائع، وحال الأُمم الماضية. فانظروا كيف أصاب اللهُ المكذِّبين الخزي والعار؟ فاحذروا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب شكر الله على نِعَمِه وآلائه الكبيرة، وقد ضرب نموذجاً فيمَنْ أعرض عن هدي ربه فأهلكه الله بسبب إعراضه.

٢ - التكذيب والجحود بآيات الله الكونية من صفات الكافرين، واشتمل القرآن الكريم على إعجاز علمي أثبت حقائق علمية قبل النهضة العلمية.

٣ - الاستهزاء بالرسل سنة بشرية منذ القديم؛ وعلى الدعاة الصبر والتأسي.

٤ - إثباتُ الأدلة على قدرة الله تعالى في الخلق، والبعث، والنشور.

٥ - السير في الأرض، وأَخْذُ العِبْرة من مصارع الأُمم السابقة وهلاكها.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢ - يُعَلِّم الله الرسول ﷺ السؤال والجواب في بيان الحجة على المشركين المعاندين، فيقول: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: لِـمَنْ مُلكُ السموات والأرض؟ قل: لله؛ ليفروا بتوحيد العبودية لله تعالى، لأنَّهم مهما بحثوا عن مالكٍ للكون فلن يجدوا إلا الله، فالتزموا منهجه واعبدوه، ولا تشركوا به أحداً، فقد كتب على نفسه الرحمة، فلا يعجل بالعقوبة على مَنْ خالفه، ورحمتُه سبقت غضبه، وهو يجمع الخلق يوم القيامة للحساب لا ريب فيه ، والذين لم يؤمنوا بالله قد خسروا أنفسهم، وخسروا دنياهم وآخرتهم.

١٣- والله مالكُ السموات والأرض وما فيهما، وله ما سَكَنَ، أو تحرَّك في الليل والنهار، فكلٌ تحت مشيئته وقهره، ولا أحدَ يخرج عن مُلكه، وهو سميع لأقوالهم، عليم بحركاتهم، لا تخفى عليه خافية، وفي الآية السابقة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ استقصى الخلائق من ناحية المكان، وفي هذه الآية قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان؛ وقَدَّم المكان؛ لأنّه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان.

١٤- جاء الاستفهام على سبيل التوبيخ للمشركين، وخاطب اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ عندما اتخذ المشركون الأصنام آلهة من دون الله، فوبَّخهم وأنكر عليهم، فقال لهم: أغيرَ الله أتخذ ولياً ونصيراً، وهو خالق السموات والأرض، ويُحيي ويميت، ويَرْزُقُ خَلْقَه ولا يُرْزَقُ، فكيف أتخذ غيره إلهاً من دونه سبحانه عَمّا يشركون به؟.

قل - يا رسول الله -: إني أُمِرْتُ أن أكونَ أول الخاضعين والمستسلمين له، ونُهيت أن أكون من المشركين، والكلام نهيٌ من الله لرسوله ﷺ، مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام.

١٥- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله: إنّي أخاف إن عصيتُه بعبادة غيره، أو مخالفة أمْرِه أو نَهْيه، أن يُنْزِلَ بي عذابه وسَخَطَه في الدنيا والآخرة.

١٦- مَنْ يُصْرَفْ عنه العذاب يوم القيامة فقد رحمه بنجاته، وهو الفوز والإنعام بالرحمة.

١٧- وإن يصبك الله - أيها الإنسان - بسوء من فقرٍ، أو مرضٍ فلا أحد يكشف الضر، أو يرفع عنك البلاء سواه، وإن يصبك بخيرٍ مثل سعة الرزق أو الغنى أو الصحة والعافية، فلا أحد يردُّ فضله، وهو على كل شيء قدير.

الفوائد والاستنباطات:

١- الله مالك الكون كله، وصَرْفُ العذاب والفوز بنعيم الآخرة بيده جل جلاله، وبيده دفع الشر والضرر، فلا يملك أحد التصرف في الدنيا سوى الله وحدَه، وهو المتصرِّف في خَلْقِه بما يشاء، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

٢- سَعة رحمة الله ﷻ بعباده، أوجبها على نفسه تفضلاً وإحساناً.

٣- تحريم الشرك بالله ﷻ.

٤- اللجوء إلى الله تعالى لكشف الضر، فهو ثمرة التصديق به.

٥- الآية السابعةَ عشرةَ أصلٌ في سلامة العقيدة وحسن اليقين، وصدق الإيمان والثقة بأنَّ الله هو النافع وهو الضارُّ؛ فلا يجوز أن يلجأ الإنسان إلى الشفعاء والوسطاء والكَهَنَة والأولياء، بل يسأل الله تعالى وحده، ويُخلص في الدعاء، ويأخذ في الأسباب التي تُعين على دَفْعِ الضر، وجَلْب الخير.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٨ - والله غالب وقاهر فوق عباده، يُدير كونه بحكمة وعلم، وهو خبير بأفعالهم، لا يخفى عليه شيءٌ، يضع كل شيء بحكمة وتدبير.

١٩ - قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره: أيُّ شيءٍ أعظم شهادة فيما أخبرتكم به بأنّي رسول من عند الله؟ والجواب يُبيِّنه الله بقوله: قل: اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم، فالله هو أعظم وأصدق، شهيدٌ بأنّي رسوله من عنده، وأنّي صادق فيما أخبرتكم به عنه، وأوحى إليَّ هذا القرآن الذي تلوتُه عليكم لأنذركم به، وأُنْذِرَ مَنْ بَلَغه ووصل إليه، أو سمعه من البشر جميعاً. واقتصر على جَعْلِ علّةِ نزول القرآن للنِّذارة دون ذكر البشارة؛ لأنَّ المقام مخاطبة المكابرين عن الحق الذين لا يناسبهم إلا الإنذار، ثم يُوَبِّخهم بقوله: إنّكم لتتخذون مع الله شريكاً آخر، فإنّي لا أشهد معكم، ولا أُقِرُّكم على ما تشركون به، فالله واحدٌ متفردٌ بجلاله وعظمته، لا إله غيره، وأبرأ إليه ممّا تشركون به.

٢٠ - أنكر اليهود والنصارى صفات محمدٍ ﷺ في التوراة والإنجيل الدّالة على نبوته، فبَيَّنَ الله تعالى فيما سَبَقَ أنَّ شهادة الله على صحة نبوته كافية في ثبوتها وتحققها، ثم بَيَّن في هذه الآية أنهم كَذَبوا في قولهم: إنّا لا نعرف محمداً ﷺ؛ لأنهم يعرفونه بالنبوة والرسالة، كما يعرفون أبناءهم، وإنكم تعلمون يا أهل مكة أنَّ نبوة محمد ﷺ ليست مفاجِئةً للكون، بل هي دعوةٌ بُشِّرَ بها على لسان كل رسول. وإذا كان أهل مكة بعيدين عن موطن الرسالات، فإنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى بجوارهم، يعرفون محمداً ﷺ، فقد أخبرتهم رسلهم عنه بالشكل والصورة والصفات، فليرجعوا إليهم، وليسألوهم عنه، فهم يعرفونه من غير شك، كما يعرفون أبناءهم، ولكنَّ الخاسرين منهم اتبعوا أهواءهم، فكذَّبوا به، فخسروا أنفسهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - استشعار محبة الله، ومواجهةُ كلِّ مَنْ يشرك به بثقة ويقين، وأنَّ الله مع عبده المتوكِّل عليه، ويلاحظ في كل ما سبق أنَّ كلمة (قل) تأتي دائماً بعد كلمة (هو)، وكأنَّ المعنى استشعار المعية مع الله.

٢ - شهادة الله تعالى أنَّ محمداً ﷺ رسول من عنده.

٣- تقرير حقيقة التوحيد، والبراءة من الشرك.

٤ - معرفة أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ، ولكنَّه الكِبْرُ والجحود.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢١- لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ افترى على الله كذباً، وكذَّب بآياته مع جلالها وجلائها. وإنَّ مِنْ عدل الله وسُنَنه في العباد أنَّ الظالم لا ينال الفلاح أبداً، بل يبوء بالخيبة والخسران.

٢٢- يُوَبِّخ الله هؤلاء المشركين عندما يحشرهم يوم القيامة، فيسألهم سؤال توبيخ: أين شركاؤكم الذين عبدتموهم من دوني، لماذا لا يتقدَّمون لنجاتكم ودَفْعِ العذاب عنكم؟

٢٣- فما كان جوابهم حين اختبارهم بالسؤال عن شركائهم إلا الجحودَ وإعلانَ التبرئة من الشرك والشركاء.

٢٤- ويُبَيِّنُ الله تعالى لنبيه ﷺ كَذِبَ المشركين، فيقول: انظر - يا محمد - وهو نَظَرُ تَعَجُّبٍ واعتبار- كيف كَذَبُوا على أنفسهم حقيقة ما وقع منهم في الدنيا من الشرك؟ فهم كَذَبُوا على أنفسهم في الدنيا عندما

قالوا: إنَّ عبادة الأصنام تُقَرِّبنا إلى الله زلفى، وهاهم أولاء في الآخرة أعلنوا التبرئة منها، واعترفوا بالحق لَـمَّا غاب عنهم افتراؤهم، فأَقَرُّوا بربوبية الله وحده.

٢٥- وإنَّ من هؤلاء المشركين - يا محمد - مَنْ يستمع إلى القرآن لا بقصد الانتفاع والهدي، وإنَّما بهدف الطعن في آيات الله استهزاءً وسخرية منهم، فهم يستمعون، ولكن لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحقِّ، فهم بمنزلة مَنْ لا يسمع ولا يفهم، ولما عَلِمَ اللهُ حالَهم جعل على قلوبهم أغطية؛ لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم صمماً؛ لئلا ينتفعوا به، مهما رأوا من آيات جَلِيَّة.

فإذا جاؤوك وهم على ما هم عليه، من إغلاق قلوبهم وآذانهم، جادلوك وخاصموك، وتلمَّسوا أسباب الرد والتكذيب ثم قالوا: ما هذا الكلامُ الذي يقوله إلا حكايات الأولين، وأكاذيبهم.

٢٦- لقد عَلِمَ المشركون تأثير القرآن في مستمعه، فأوصى بعضهم بعضاً ألّا يسمعوه، وأمروا غيرهم بالابتعاد عنه، وعدم الاستجابة له، فهم صَدُّوا أنفسهم عن هدي القرآن، وصَدُّوا غيرهم؛ لتبقى الرئاسة لهم، فارتكبوا إثمين كبيرين: إثم أنفسهم، وإثم غيرهم، وهم بذلك يُهلكون أنفسهم؛ لأنَّ دين الله محفوظ، وكتابَه مصون من التبديل والتحريف، وسيُظْهِرُ رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليُظْهِرَه على الدين كله.

وقد وقف هؤلاء المعاندون موقف الصدِّ عن هدي القرآن ودعوة محمد ﷺ؛ فكانوا ينهون أتباعهم أن يستَمِعُوا لهذا القرآن؛ كما كانوا هم أنفسهم يبتعدون عن سماعه، خوفاً عليها أن تتأثر وتستجيب، ولكنَّ هذا العمل الذي يسلكونه، وهذا الجهد والتعب الذي يبذلونه فيه هلاك لأنفسهم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الله مُظْهِرٌ دينه، وناصر نبيَّه ﷺ.

٢٧- الخطاب للرسول ﷺ، وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقُّق وقوعه. ولو رأيت - يا محمد - هؤلاء المشركين الذين ضَلُّوا، وأضَلُّوا غيرهم، حين يُحبسون على النار، ويَرَوْن العذاب الشديد، فلا يستطيعون دَفْعَها أو الهروب منها، بل سيقولون: يا ليتنا نَرْجِعُ إلى الدنيا، فنؤمن بآيات ربنا، ولا نُكَذِّب بها، ونكون من المؤمنين. وقد حذف جواب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور، وهذا من بلاغة الأداء القرآني. (تفسير الشعراوي ٦/ ٣٥٨١).

٢٨- وإنَّ الله يعلم طبيعة هؤلاء المكذبين المعاندين، فعندما جاؤوا يوم القيامة، ووُضِعت الموازين، وأظهر الله ما في صحائفهم من كفرٍ وتكذيبٍ، ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من توحيد الله وصدق رسالة الرسل، وإن كانوا في الدنيا يُظْهِرُون خلافه، وهاهم اليوم يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليرجعوا عن كفرهم وجحودهم، ولكن هيهات لهم، فإنَّهم كاذبون في قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الله عليم خبير بحالهم، لو أعادهم إلى الدنيا، لَصاروا ورَجَعوا إلى ما نُهوا عنه من الشرك والكفر، وفي

قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ جيء بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، أي: إنَّ الكذب سَجِيَّةٌ لهم قد تَطَبَّعوا عليها من الدنيا، فلا عجب أن يتمنَّوا الرجوع ليؤمنوا، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه.

٢٩- فهم لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الحياة الدنيا، فلم يلتفتوا إلى وجود حياة أخرى، يبعث الله فيها الناس للحساب والجزاء: فإمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار، بل كانوا مُصِرِّين على عِنادهم وجحودهم، وأنَّ حياتهم فقط هي الحياة الدنيا يَحْيَوْن فيها، ثمَّ يهرمون، ثمَّ يموتون. ويقصدون بالموت هنا أنهم كانوا نُطَفاً ثمَّ يحيون في الدنيا، أو على وجود تقديم وتأخير، بمعنى: نحيا في الدنيا، ونموت فيها.

٣٠- الاستفهام لتقرير حالهم، والمخاطب النبي محمد ﷺ قائلاً له: ولو ترى- يا محمد- أولئك المنكرين للبعث، عندما يقفون بين يدي ربهم، وقد رأوا أهوال القيامة وما فيها من حساب وجزاء وعقاب قائلين: ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فيقال لهم: أليس هذا - وهو استفهام توبيخي - الذي كنتم تُكَذِّبون به حقاً، فيَحْلِفُون بالله، ويقولون: بلى. فيقول لهم: ذوقوا العذاب بسبب جُحودكم وتكذيبكم، عدلاً منا بلا ظلم.

الفوائد والاستنباطات:

١- بشارة الكتب السماوية السابقة بنبوة محمد ﷺ.

٢- عِظَم عقوبة المشركين المكذبين يوم القيامة.

٣- الكذب والاستكبار سببُ كفر المشركين بالله ﷻ، وأكَّدوا اعترافهم بحَلْفِ اليمين ﴿ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ رغبةً منهم أن ينفعهم ذلك، ويُنَجِّيهم من عذاب الله.

٤- لا فلاح للمشركين في الدنيا والآخرة.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٣١- وقد خسر أولئك الذين كذَّبوا بلقاء الله، وأنكروا البعث؛ لأنَّهم باعوا بالأجل الطويل العمر العاجلَ القصير. حتى إذا جاءتهم الساعة بغتةً فوجئوا بمصيرهم الأليم، وشعروا بمرارة الخسران، وعندها يقولون حسرةً وندامةً وتألماً: يا حسرتنا على ما فَرَّطنا فيها، وهاهم أولاء يحملون عقوبة ذنوبهم على ظهورهم، وهم لا يحملونها فقط، بل يحملونها ويحملون عقوبة ذنوبِ مَنْ كانوا سبباً في ضلالهم، فبئس وقَبُحَ ذلك الوِزْرُ.

٣٢- وما الحياة الدنيا - مهما أقبلت وطالت - إلا لَعِبٌ ولهو، فهي فانية مُنْقَضِية. وإنَّ الدار الآخرة هي الحياة الباقية الخالدة، وهي الخير للأتقياء، فهل من عاقل يعي ذلك؟

٣٣- سبب النزول:

عن علي ﷺ: أنَّ أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنَّا لا نكذِّبك، ولكن نُكَذِّب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾. (سنن الترمذي ٤/ ٣٤٨ برقم ١٩٧٣، وقال الترمذي: حسن).

التفسير:

يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ، فيطيِّب خاطره، ويشدُّ من عزمه؛ ليزيده ثباتاً على دعوته، فيقول: له إنا لنعلم أنَّك تحزن من تكذيب قومك لرسالتك، واتهامك بالسحر، والتقوُّل عليك زوراً وبهتاناً، فهم لا يُكَذِّبونك؛ لأنك عِشْتَ معهم، فوصفوك بالأمين؛ ولكنهم يكذِّبون ما جئت به من آيات الله.

٣٤- وقد مَضَتْ سُنَّةُ الله من قبلُ، فإنَّ رُسُلَه كُذِّبوا كما كُذِّبْتَ يا محمد، وأُوذوا كما أُوذِيتَ من قبلُ، فصبروا وتَحَمَّلوا مشاقَّ أقوامهم، ولم يُثْنِهم ذلك عن الدعوة إلى الله، فإذا كانوا قد صبروا، وهم رسل إلى قومهم، فكيف الحال بك يا محمد وأنت خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أُرْسِلْتَ إلى الناس كافة؟ فعليك أن

تصبر، فالله ناصرك ومؤيدك، فلا أحدَ قادرٌ على دَفْعِ أمر الله وقضائه، ولا أحدَ يستطيع تأخير وعده، فإنَّ لكل أجلٍ كتاباً. وقد قَصَّ الله على رسوله محمد ﷺ قصص الأنبياء والمرسلين، فلم يكتف بالقول لرسوله هنا: إن الرسل قد كَذَّبَتْهم أقوامهم، بل أورد قصصهم على نحوٍ مفصَّل، فأفرد لها في القرآن الكريم سوراً خاصة، كيف كذَّبوهم وآذوهم، فصبروا على أذاهم، فأيَّد الله رُسُلَه بالثبات والتمكين والنصر المبين؟

٣٥- إن كان كَبُرَ عليك - يا محمد - إعراضُهم عن هَدْيِك، وشقَّ عليك تَوْلِيَتُهم عنك، وأصَرُّوا على كفرهم وعنادهم حتى تأتيهم بآية؛ لتكون شاهداً على صحة ما تقول، وأنك رسول من عند الله، فافعَلْ واطلب ذلك، كأن تَشُقَّ لهم نفقاً في الأرض، أو أن تبنيَ لهم سُلَّماً؛ لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية. فافعل، فإنك لن تستطيع ذلك؛ لأنه فوق استطاعتك وقدرتك، فليس إذن أمامَك إلا الصبرُ والثبات. والسخرية بالرسل والإعراض عنهم من قِبَلِ أقوامهم معروفة لكل رسول بُعِث إلى قومه. ولو شاء الله لَجعل الناس جميعاً مؤمنين وطَبَعَهم عليه، فلا يشتدُّ حُزْنُك عليهم، فتقاربَ حال الجاهلين الذين يَجْزَعون ولا يصبرون.

الفوائد والاستنباطات:

١- خسارة الكافرين لآخرتَهم؛ بسبب كفرهم بالله.

٢- عدم الاغترار بالدنيا، فإنَّها متاع قليل. والاستفهام في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتنبيه والحثِّ على التأمل.

٣- أمْرُ الساعة عظيم، فهي لا تأتي إلا بغتة، فليحذر الغافلون من ذلك.

٤- تسلية الرسول ﷺ، وحَمْلُه على الصبر، أسوةً بإخوته المرسلين. وصُدِّرت الآية ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ بالقسم؛ لتأكيد التسلية.

٥- بيان سُنَّةِ الله في هلاك الأُمم السابقة.

٦- بشرية الرسول ﷺ لا تتنافى مع نبوته، فهو بشر يجري له ما يجري للبشر من حزن وفرح.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا
طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ
تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

التفسير :

٣٦- إنَّ الذين يستجيبون لدعوتك - يا محمد - هم الذين يسمعون بآذانهم الواعية وقلوبهم الصادقة، مع الحب الصادق للهدى، وإنفاذ ما سمعوه. وهذه أوصاف المؤمنين الصادقين الذين يثبتون معك، ويصبرون على تبليغ الدعوة. أما الذين لا يستجيبون كالكفار والمشركين فهم موتى ولو كانوا أحياءً؛ لأنَّ الحياة الحقيقية للإنسان تكمن في قبول نور الإيمان والإسلام والإذعان له. وهؤلاء الكفار هم أموات في صور أحياء، يبعثهم الله عندما تنتهي حياتهم في الدنيا، وسيرجعون إليه؛ ليسألَهم عن أفعالهم في الحياة الدنيا.

٣٧- ولم يكتف المشركون بمعجزة القرآن البليغة التي جاءت في مجال نبوغهم، بل واصلوا الجدال وطلبوا معجزة حسية كونية يرونها، وقد أعماهم الحقُّ عن ذلك؛ فإنَّ المعجزة الحسية تكون موقوتةً على مَنْ شهدها ورآها، فمَنْ يراها يُصدِّق، ويقول: إنَّها معجزة، ومَنْ لم يرها فقد يُصدِّق بها وقد لا يُصدِّق، وهي تنتهي بموت النبيِّ، إلا أنَّ القرآن قد جاء للناس كافة إلى يوم القيامة، وقد تحدَّاهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة ممَّا فيه. والله قادر على الإتيان بمعجزة حسِّية كونية تكون آية للنبي ﷺ، ولكن طلبهم لم يكن حقيقاً يبتغون به الحق، بل مجرد جدال وتَعَنُّتٍ حتى لا يؤمنوا. ثمَّ إنَّ الأنبياء السابقين الذين جاؤوا بمعجزات حسية كانت رسالاتهم إلى أُمم مخصوصة وفي زمان محدود، ولكنَّ الرسول محمداً ﷺ جاء لعموم الناس في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة؛ فناسب أن تكون معجزته - القرآن - دائمة في كل زمان ومكان، فهم لا يعلمون الحكمة في ذلك.

٣٨- إنَّ دلائل قدرة الله في هذا الكون كثيرة لا تُعَدُّ، فالناس فيه لم يُخْلَقُوا عَبَثاً أو مصادفة؛ بل هناك عوالم أخرى تحيط بهم مثل: الدواب والطيور والحشرات...، وهم أُممٌ ذات خصائص واحدة، شأنها في هذا شأن أُمم الإنسان، وهي مفتقرةٌ إلى خالقها؛ كي يرزقَها ويرعاها ويتولَّى أمرها، وهي في النهاية تحشر

إلى ربها؛ ليقضي بينها، ولم يغفل الله شيئاً منها، وقد أثبت الله في كتابه المحفوظ كل شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، فهل يُعقل أنَّ الله بهذه القدرة عاجز عن إنزال آية! وأكَّد الطيران بالجناحين، وهو لا يكون عادة إلا بهما، لدَفْعِ تَوَهُّمِ المجاز؛ لأنَّ الطائر قد يُستعمل مجازاً للعمل، كقوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

٣٩- يأمر الله نبيَّه ﷺ مؤكِّداً خطابه بمجيء الكاف في ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره، إنَّما أشركوا؛ لأنَّهم أغلقوا آذانهم عن سماع الهدى والحق ونور الإيمان. ولو أنَّهم أحسنوا استعمال ما وهبهم الله من هذه الحواس لاستجابوا إلى الهدى، ولكنهم اختاروا الضلال، فهم لم يخرجوا عن مشيئته، وهي المشيئة التي جاءت وَفْقَ سُنَنِه في خلق الإنسان أن يختار الهدى أو الضلال، من غير إلزام منه ﷺ.

٤٠- قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين توبيخاً لهم: أَخْبِروني، إن نَزَلَ بكم عذابٌ من عند الله انتقاماً منكم، أو أتاكم يوم القيامة فجأة، مَنْ إلهٌ غير الله تدعونه، إن كنتم صادقين؟

٤١- إنكم لن تَدْعُوا آلهتكم أو أصنامكم. إنَّ فطرتكم ستتوجَّه إلى خالقها، وستدعوه مفتقرة إليه متضرعة، إنها الفطرة، ولو لم تنطق ألسنتكم بها، وعندها ستتوجه إليه، وتنسى أنَّها أشركت معه أحداً، وهناك ستنكشف الحقائق.

الفوائد والاستنباطات:

١- تأخير إرسال آيات الله تعالى للمشركين؛ لعِلْمِ الله أنهم لا يؤمنون بها، وهنا قال ﴿قَادِرٌ﴾، وفي مواطن أخرى في القرآن قال (قديراً)؛ لأنَّ (قديراً) من صيغ المبالغة على وزن فعيل، يأتي بها إذا عَمَّم القدرة ولم يقيِّدها، قال: (وهو على كل شيء قدير) أو أطلقها (وهو العليم القدير)، و(قادر على كل شيء) ليست من صيغ المبالغة، لكن يأتي بها إذا قَيَّدها بشيء، كما في هذه الآية: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] فقد قُيِّدت بإنزال آية.

٢- تَعَدُّد أجناس الأمم في الأرض.

٣- جميعُ الأُمم بتنوع أجناسها خاضعةٌ لله تعالى.

٤- تبيَّن للباحثين أنَّ كُلَّ نوع من أنواع الأحياء بأُممه وأفراده هو كيان خاص معزول عن غيره من الأفراد والأُمم والأنواع، وأنَّ كُلَّ صلات القربى المتعلقة به محصورة في أفراده، ولا تمتد إلى غيره من الأنواع، وهي حقيقة بدأت أعداد من نتائج العلوم المتلاحقة، مثل علوم الوراثة، علم الأحياء الجزيئي، علم الكيمياء الحيوية وغيرها تتحدث عنها بوضوح. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٥١-٥٢).

٥- تَضَرُّع الإنسان في شدَّته إلى الله تعالى، على الرغم أنّه أشرك معه غيرَه في العبادة؛ تلبيةً لداعي الفطرة. والاستفهام يُستعمل في الاستخبار عن حالة عجيبة.

٦- في الآية (٤١) إخبار عن أمرٍ مستقبليٍّ في وقوع العذاب، فيجب الالتجاء إليه بالدعاء، فيُكشف إن شاء تعالى.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٢- يُخَفِّف الله عن نبيه محمد ﷺ إعراض المشركين عن هديه، وإصرارهم على كفرهم، بأنَّه قد أرسل رسلاً من قبله إلى أُمم سابقة، فدَعوهم إلى الإيمان بالله وحده وإفراده بالعبودية والألوهية، وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان، فأعرضوا وكفروا به، فأخذهم الله بالشدائد والعذاب: فمنهم مَنْ ابتلاهم بضيق العيش، وشدة الفقر، ومنهم مَنْ ابتلاه بالأمراض والأوجاع، ومنهم مَنْ أرسل عليه الرِّجز من العذاب؛ لعلهم يتضرَّعُون فيرجعوا إلى الإيمان.

٤٣- ولكن مع مجيء البأس لم يعتبروا أو يتضرعوا، بل قست قلوبهم، وأغراهم الشيطان بالإصرار على الشرك والمعاصي، فزَيَّنها لهم.

٤٤- فلما أعرضوا عن هدي الله، ولم يستجيبوا لأوامر رسلهم، استدرجهم الله، ففتح عليهم أبواب الدنيا من رزقٍ وخيرٍ وصحةٍ في أجسادهم، فابتلاهم بالرخاء كما ابتلاهم بالشدة. حتى إذا فرحوا وبطروا، وغمرتهم الخيرات من كل مكان، لم يشكروا الله على ذلك؛ واسترسلوا بالمعاصي والآثام، ففسدت طبائعهم، وعَمَّ فسادهم في الحياة كلها، عندها جاء أمر الله فجأة من غير سابق إنذار، فإذا هم حائرون آيسون من النجاة.

٤٥- فاستأصلهم الله تعالى عن آخرهم؛ بسبب ظُلْمِهم، فالحمد لله على خالق الخلق.

الفوائد والاستنباطات:

١ – جاء التنوين في ﴿أُمَمٍ﴾ للتكثير، أي: لقد أرسلنا رُسُلاً إلى أُمَمٍ كثيرة في زمانٍ قبل زمانك.

٢ – الظلم في الأرض سبب في هلاك الظالمين.

٣– دعوة الناس إلى التوبة، ومحاسبة النفس قبل فوات الأوان، وقَدَّم الكشف مع تأخُّرِه عن النسيان كتأخُّرِه عن الدعاء؛ لإظهار كمال العناية بشأنه، والإيذان بترتبه على الدعاء.

٤ – نزول البلاء من أسباب تَضَرُّع العبد لربه، وصِدْق العودة إليه ﷻ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ
كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً
هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾
قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤٦ – يُثْبِتُ الله الحجة تلو الحجة على ألوهيته وتَفَرُّده بالكون، وأنه لا إله إلا هو سبحانه؛ فتبطل بذلك دعاوى المشركين الذين اتخذوا أصنامهم آلهة من دون الله، فبيَّن لهم حقيقة ما يشركون به بأسلوب فيه التوبيخ المكرر؛ لقصد تأكيد الحجة عليهم، فيقول: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني إنْ سَلَبَ الله منكم السمع، فجعلكم صُمّاً لا تسمعون، وأَخَذَ أبصاركم فصِرْتم عُمْياً لا تُبصرون وطبع على قلوبكم، هل هناك إلهٌ غير الله يَرُدُّ لكم ما سُلِبَ منكم، أو هل هناك إلهٌ غير الله تلجؤون وتتضرعون إليه؛ ليردَّ لكم ما أخذ منكم؟

انظر – يا رسول الله – وتَعَجَّبْ كيف نُنَوِّع الآيات ما بين حُجَجٍ عقلية وتوجيه إلى آيات كونية، ومع هذا كلِّه فإنَّ الكافرين مُصِرُّون على عنادهم وكفرهم.

٤٧ – أخبروني إن أتاكم عذاب الله فجأة من غير علامات أو مقدمات تدلُّ على العذاب، أو أن يأتيكم جهرة بعد ظهور مقدمات تدل عليه، ما يهلك إلا الظالمون؛ لأنَّهم فقدوا حياتهم الدنيوية وما فيها من مُتَعٍ وشهوات، والحياة الأخروية التي يلقون فيها الخسران والعذاب والخزي في النار. والاستفهام هنا للتقرير.

٤٨ – أما الأنبياء والمرسلون فإنَّ الله بَيَّنَ مهمتهم، وهي أنَّهم مُبَلِّغون عن ربهم. فمَنْ آمن منكم بقلبه واهتدى لدين الله، ولم يُفْسد في الأرض، بل سعى في إصلاحها وعمارتها، فلا خوف عليهم عند لقاء ربهم، ولا يحزنون على شيء تركوه خلفهم؛ لأنَّ ما عند الله خيرٌ لهم وأبقى.

٤٩ – والذين كَذَّبوا بالقرآن والمعجزات، وكَذَّبوا بمحمد ﷺ، فأولئك يصيبهم العذاب؛ بسبب كفرهم ومعاصيهم. وخُتِمَتْ بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ﴾، فاستعمل الفعل (كان) والفعل (يفسقون) ولم يقل: بما فسقوا بالماضي للفتة لطيفة، وهي أن العذاب نزل بهم؛ لإصرارهم على الفسق، فالفعل المضارع (يفسقون) يدل على التجدد والاستمرار.

٥٠ – قل – يا رسول الله – لهؤلاء المشركين: إني لا أملك خزائن السموات والأرض، فكيف تطلبون إليَّ بيوتاً وقصوراً، وأنا لا أدَّعي علم الغيب، فكيف تطلبون إليَّ أن أُخبِرَكم بما سيقع في المستقبل، ولم أقل لكم: إني مَلَك من الملائكة، فكيف تطلبون إليَّ الأفعالَ الخارقة التي لا يطيقها البشر؟ ما أنا إلا عبدٌ رسول مُبَلِّغ عن ربي، أَتَّبِعُ ما يوحي إليَّ منه.

قل: هل يستوي الكافر الذي عَمِيَ قلبُه عن قبول الهدي والحق وأعرض عن آيات ربه، والمؤمن الذي فتح قلبه لنور الإيمان، فأبصر الهدي، وآمن بالله ورسوله؟ أفلا تتفكرون في آيات الله فتؤمنوا به؟

الفوائد والاستنباطات:

١ – نِعَمُ الله على عباده كثيرة ومتنوعة، منها السمع والبصر، وهي تستوجب شكر الله تعالى.

٢ – مهمة الرسل البلاغ وهي البشارة لِـمَنْ أطاع، والإنذار لِـمَنْ عصى.

٣ – من سنن الله هلاك الظالم عاجلاً أو آجلاً.

٤ – افتقار رسول الله محمد ﷺ إلى ربه، فهو بشر لا حول ولا قوة له إلَّا بالله العلي العظيم.

٥ – لم يكن الرسول ﷺ مَلَكاً من ملائكة الله.

٦ – علم الغيب مَرَدُّه إلى الله تعالى، والاستفهام في ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ للإنكار، والمراد إنكار استواء مَنْ لا يعلم ما ذُكِرَ من الحقائق، ومَنْ يعلمها.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
(٥١) وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَآءَكَ
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ
مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ
وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ
قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾

التفسير:

٥١- وأعْلِمْ - يا محمد - بالقرآن الذين يخشون ربهم؛ لأنَّهم أكثر استجابةً من غيرهم؛ فهم مؤمنون بالله، ومُصَدِّقون بيوم الحشر، ليس لهم ناصر غير الله ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله. لعل هذا الإنذار والإعلام يزيدهم في المستقبل ثباتاً وإيماناً.

٥٢- سبب النزول:

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كُنَّا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسَمِّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ ٤/ ١٨٧٨ برقم ٢٤١٣).

التفسير:

يردُّ الله تعالى على المشركين الذين طلبوا من رسول الله تعالى أن يطرد بعض الصحابة من الضعفاء، فنهى اللهُ رسولَه ﷺ عن ذلك؛ لأنَّهم كانوا مخلصين بعبادتهم لله تعالى في أول النهار وآخره، لا يبتغون أحداً غيره، ثمَّ لماذا تطردهم؟ فلستَ مسؤولاً عن خطاياهم، ولم يُكَلِّفْك الله بكفاية أرزاقهم، ولا هم مسؤولون عنك، فإن فعلت ذلك فأبعدتهم فإنك من المتجاوزين لحدود الله، الظالمين لشرعه. وحاشا أن يكون ﷺ من الظالمين.

٥٣- وكذلك فَتَنَ اللهُ الناسَ بعضهم ببعض، فجعل منهم الغني والفقير، والقوي والضعيف، والشريف والذليل؛ ليقول الأغنياء للفقراء من المؤمنين استخفافاً بهم، واحتقاراً لهم: أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم بالهداية والإسلام والإيمان؟ فيردُّ عليهم: بلى مَنْ شكر يستحق الإنعام والإكرام.

٥٤- وإذا جاءك - يا رسول الله - هؤلاء المستضعفون الذين نُهِيَت عن طَرْدهم من المؤمنين، والذين يسخر منهم الكبراء من أشراف قريش، فبادِرْ بالسلام عليهم؛ تطييباً لخاطرهم وإكراما لهم، وبَشِّرْهم بسَعة رحمته وعِظَمِ مغفرته. فمن رحمته أنّه مَنْ عمل السوء وارتكب المعصية، وتاب وأناب، ورَجَعَ إلى الله تائباً مستغفراً نادماً؛ فإنَّ الله يغفر ذنبه ويجبر زلّته؛ لأنّه غفور رحيم.

٥٥- وبمثل هذا البيان الذي فَصَّلْناه لك - يا محمد - في هذه السورة من دلائل قدرة الله ومُحاجَّة المشركين، نُبيِّن الأدلة والبراهين في كلِّ حقٍّ ينكره أهل الباطل، حتى تستبين - يا محمد - وأُمَّتُك معك طرقَ المجرمين.

٥٦- قل - يا رسول الله - لأولئك المشركين الذين يَدْعُونك لعبادة آلهتهم معهم، أو موافقتك على عبادتهم: إنَّ الله نهاني أن أعبد ما تدعونني إليه من أصنام وأوثان، ولن أتبع الطرق والسُّبُلَ التي اتبعتموها. فإنْ فَعَلْتُ فسأكون من الضالِّين الذين سلكوا طرق العمى والضلال، وحادوا عن طريق الصلاح.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل التلطُّف والرفق بالمستفتين عن أمور الدين.

٢- عدم اتباع أهواء المضلين. والعدول إلى الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، أي: دوام النفي واستمراره.

٣- إكرام الله للمستضعفين الذين نهى الله نبيَّه ﷺ عن طَرْدِهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسَّلام.

٤- جعل الناس متفاوتين، فمنهم الغني والفقير، والشريف والذليل.

٥- فضل الصبر على أهل الفسق والضلال من أسئلتهم المضلِّلة.

٦- بيان سعة رحمة الله في قبول توبة المذنبين.

٧- الرسول ﷺ مبلِّغ عن ربه، لا يملك شيئاً من أمور الكون.

٨- توحيد الله أهَمُّ عملٍ يُقَدِّمه المسلم بين يدي ربه.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٥٧- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: إنِّي على بيِّنة واضحة من أمر ربي؛ فإنِّي أعبده وأُفرِدُه بالعبادة، فهو إله عظيم لا شريك له في كونه، وأمَّا المشركون فهم الذين كذبوا بالله وأشركوا معه غيره، فهم يَرُدُّون أمر الله، ويطلبون إلى الرسول محمد ﷺ تعجيل العذاب، فإنَّه - أي الرسول ﷺ - لا يملك تعجيله؛ فالحكم والأمر كلُّه لله تعالى، فإن شاء أن يُنزل عذاباً، ويعجل به في الدنيا، كما أنزل على بعض الأُمم، فلا رادَّ له، وإذا أراد أن يؤخِّره إلى أجل أو إلى الآخرة فلا مُعقِّبَ له، فهو وحده يفصل بين الحق والباطل دون هوى.

٥٨- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: إنَّ أحداث الكون إنما مَرَدُّها إلى خالقها، وهو الله جلَّ جلاله، فهو يُجريها ﷻ بإرادته وعِلْمِه، ولو كان الأمر بيدي - أي: بيد محمد ﷺ - وبقدرتي، لأتيتكم بما تستعجلون به من عذاب، ولأهلكتكم به؛ انتصاراً لربي وانتقاماً لحرمته، ولكن الأمر كلَّه لله تعالى، فهو الإله الحكيم الخبير العليم بالظالمين، يمهلهم عن علم، ويُمْلي لهم عن حكمة منه، ولكن إذا أَخَذَ فإنَّ أَخْذَه أليمٌ شديد.

٥٩- يقرر الله علمه الشامل الواسع المحيط بكل شيء، فهو الذي خلق الكون كلَّه، وأودع فيه خلقه، لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يَحُدُّه زمانٌ ولا مكانٌ، فهو العليم الخبير في الأرض وفي السماء، وفي البر والبحر، وخَصَّهما بالذكر؛ لأنَّهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، ويعلم عدد خَلْقِه من إنس وجان وحيوان ونبات...، وكل ورقة يعلمها الله ويعلم متى، وكيف، وأين تسقط؟ ولا حبة إلا يعلم متى تنبت؟ وكم تنبت ومَنْ يأكلها، كلٌّ في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ.

الفوائد والاستنباطات:

١- سَعَةُ عِلْمِ الله ﷻ في كونه الكبير، وقدَّم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب، وأكَّد ذلك الاختصاصَ بأسلوب القصر، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، واكتفى بحال السقوط في ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ دون الاكتفاء بغيرها من الأحوال لشدَّة ملاءمتها؛ ولأن التغيير فيها أظهر، فهو أوفق لما سِيقت له الآية.

٢- تحقيق مبدأ الحساب يوم القيامة.

٣- بيان تكذيب مشركي مكة بالقرآن.

٤- الله أعلم باستحقاق الظالمين الإمهال، أو بتعجيل العذاب.

٥- في ظلام التربة وتحت الثرى توجد الحبوب والبذور والثمار المزروعة والبرية الكامنة لعشرات السنين والتي لا تنبت إلا عندما يحين موعد إنباتها وتتهيأ لها العوامل الداخلية والخارجية (البيئية) المساعدة على الإنبات. توجد في ظلمات الأرض كورمات القلقاس الرطبة أو الطرية، ودرنات البطاطس، وجذور البطاطا، وريزومات الموز والغاب والكانا، وجذور النباتات العادية الوتدية والليفية، والجذور المتدرنة كاللفت والبنجر والجزر، وتوجد ثمار نبات الفول السوداني في التربة.

(http://www.nazme.net/ar/index.php?p-show_articles&id-773)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى
ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا
لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ (٦٢) قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ
أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٣) قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ
ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦)
لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) ﴾

التفسير:

٦٠- يُبَيِّنُ الله دليلاً على قدرته وعلمه، فهو الذي يقبض أرواحكم التي في نفوسكم، والتي بها تميزون. ومن قدرته أنه يُعيدها؛ ليبعثكم في النهار، فتستيقظون وتقومون إلى كَسْبكم وأرزاقكم، فيعلم ما كسبتم فيه من أعمال وأرزاق، وخيرٍ وشر؛ ليستوفيَ كلُّ واحدٍ أَجَلَه الذي حُدِّد له في عِلْمِه الغيبي، ثم يرجعون إليه في الآخرة؛ ليجازيَهم، ويخبرَهم بعملهم. وإذا أمهل الله الكافرين في الدنيا فليس غفلةً منه سبحانه، ولكن ليستوفي كلُّ واحدٍ رِزْقَه وأَجَلَه في الدنيا.

٦١- وهو الله القاهر فوق عباده، العظيم المتجبر الذي خضع كل شيء لجبروته وعظمته، فيرسل على خلقه الملائكة الكرام البررة، فيكتبون أعمالهم، ويُحصونها عليهم، فإذا استوفَتْ آجالهم تَوَكَّلَتْ رسلُنا بقَبْضِها وعودتها إلينا، وهم مأمورون بتنفيذ أوامر الله، لا يُقَصِّرون، ولا يضيعون ما أُمروا به.

٦٢- وبعد قَبْضِها وموتها يُعيدها الله إليه؛ ليفصلَ بينهم، فله سبحانه الحكم وحدَه يوم القيامة، وهو أسرع الحاسبين، لا يحتاج ما يحتاج إليه خَلْقُه من فكر وتدبُّر.

٦٣- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: مَنْ يُخَلِّصكم وينقذكم إذا ضلَّ أحدكم في البر، فدخل عليه الليل، أو ركب البحر، فضرب به الموج في ظلمات الليل، فأصابه الخوف والهلع، فمَنْ يدعو، وإلى مَنْ يلتجئ؟ إنَّ الفطرة تدعوه أن يتوجه إلى الله الذي خلقه فسَوَّاه وعَدَله، وحينها يدعو الله، فيتضرَّع إليه سِراً وجهراً، بذُلٍّ وضعفٍ وانكسارٍ، خائفاً قائلاً: لَئِنْ أنجيتني من هذه الشدة والهَلَكَة لَأكونَنَّ لك من الشاكرين.

٦٤- قل لهم - يا رسول الله - جواباً لقوله: مَنْ ينجيكم؟ إنَّه الله الذي يخلصكم وينقذكم من تلك الهلكة التي وقعتم بها ومن كل شدة أو كرب، ولكن مع هذا فإنَّكم تشركون به.

٦٥- قل - يا رسول الله - لهؤلاء الذين يدعونه ويتضرعون إليه، ثم يشركون به: إنه قادر على تعذيبكم من فوقكم، بأن يرسل عليكم حجارةً أو طوفاناً أو ريحاً أو صيحةً، أو من تحت أرجلكم، فيرسل عليكم خَسْفاً أو تأتيكم الرجفة، أو يجعلكم فرقاً وأحزاباً وشيعاً، فتصبحوا أعداءً يقتل بعضكم بعضاً. انظر يا محمد: كيف نُبيِّن لهم الحُجَجَ والبراهين؛ لعلهم يفقهون، فيعتبرون، ويرجعون إلى الله؟

٦٦- وكذَّب قومُك - يا رسول الله - بهذا القرآن. والتعبير عن المكذبين بقوله :﴿ قَوۡمُكَ ﴾ تسجيل عليهم بسوء معاملتهم لِـمَنْ هو من أنفسهم ومن بين ظهرانَيهم، فظُلْمُ ذوي القربى أشدُّ على النفس ممَّنْ يكون بعيداً، فكَذَّبوا بوَعْدِه ووعيده؛ وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خلفِه. قل يا محمد: لستُ حافظاً على أعمالكم حتى أُجازِيَكم عليها.

٦٧- لابُدَّ لكل خبر من قرار، ولكل شيء وقت يقع فيه من غير تَقَدُّم و لا تأَخُّر، وسوف تعلمونه عندما يحل بكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- وفاة الإنسان شبيهة بالنوم؛ ولذلك أُطلق على النوم وفاة، وهذا من الإعجاز العلمي الذي أثبته العلم الحديث، فإنَّ النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النَّفْسُ، وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت.

٢- إمهال الله الكفار ليس لغفلة عن كفرهم؛ ولكن ليقضي أجلاً مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه، فيجازيهم.

٣- من أدلة بطلان الشرك عند الإنسان دعوة الله في الشدة.

٤- التحذير من الاختلاف المؤدي إلى الانقسام والاقتتال.

٥- في الآية (٦٥) دليل صحيح على الوقوف النبوية، فصحَّ عن جابر ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر». (صحيح البخاري ٨/ ١٤١ برقم ٤٦٢٨ - كتاب التفسير، باب ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا﴾). ويستنبط من هذه الآية والرواية ثلاثة وقوف نبوية. (ح)

٦- يستنبط أيضاً الفترة الزمنية للوقف وذلك من خلال الفترة التي يستغرقها الدعاء وهو مقدار بضع ثواني.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٨- وإذا رأيت - يا رسول الله - هؤلاء الذين يُكَذِّبون، ويستهزئون بآياتنا، فانصرف عنهم، ولا تجالِسْهم حتى يأخذوا في حديث آخر؛ فإن امتثلوا ولم يخوضوا، فلا مانع بعدها أن تجالِسَهم، وتسمعَ أمر الله، لذلك انتهِزْ فرصة عدم خوضهم بآيات الله، فذَكِّرْهم وأسمِعْهُم موعظة، لعلهم يرجعون. وإذا أنساك الشيطان أن تنصرف عن مجالستهم بعد نَهْينا، فجالَسْتهم ثمَّ تَذَكَّرْتَ، فقُمْ عنهم، ولا تقعد مع الظالمين.

٦٩- وإذا قمت - يا رسول الله - من مجلس هؤلاء المشركين الذين يخوضون في آيات الله، فليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزارهم من شيء، وليس عليك من حسابهم من شيء، ولكن قيامك من مجلسهم هو تذكرة لهم؛ لعلهم يخشون الله، فينأون بأنفسهم عن الخوض في آيات الله.

٧٠- اترك - يا رسول الله - هؤلاء الذين أشركوا بالله، وجعلوا دين الله - الإسلام - لعباً ولهواً واستهزاءً بآيات الله، وغَرَّتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها، وذَكِّرْ بالقرآن هؤلاء المشركين الذين يخالفون أوامر الله؛ حتى لا تَرْتَهِنَ كل نفس بذنوبها، فتُلْقِي بنفسها إلى الهلكة والعذاب، وليس لها ناصر غير الله ينصرها، ولا شافع يشفع لها عند الله، ولا يُقبل منها فدية تفتدي بنفسها من عذاب الله. أولئك الذين حُبِسوا بذنوبهم، لهم في جهنم شراب من ماء حميم يغلي في بطونهم، وعذاب موجع؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١- حرمة الجلوس في المجالس التي يُسْخَرُ فيها من الإسلام وشرائعه.

٢- وجوب القيام من المجلس الذي يُعصى الله فيه.

٣- الحث على الإعراض عن المستهزئين بالإسلام.

٤- شدة عذاب جهنم.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٧١- يخاطب الله رسوله ﷺ أن يوبخ المشركين: كيف نعبد أصناماً من دون الله لا تضر ولا تنفع؟ فنرجع كفاراً مشركين به، بعد أن مَنَّ الله علينا بهدايته وعبادته، وشعرنا بحلاوة الإيمان به. فإن رجعنا فسيكون حالنا كحال مَنْ أضَلَّته الشياطين في الصحراء لا يهتدي لجهة أمره، وله أصحاب ورفقاءُ عقلاء يَدْعونه إلى الطريق الصحيح. قل يا محمد: إنَّ هُدى الله هو الطريق الموصل إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بجنانه، وأُمِرنا أن نُسْلِمَ أمْرَنا لله تعالى؛ لأنَّه أعلم بأمورنا.

٧٢- لقد أُمِرْنا بإقامة الصلاة، وتقواه وخشيته في السر والعلن، فهو دليل محبة العبد لربه؛ لأنَّه سبحانه تُحشر إليه الخلائق يوم القيامة.

٧٣- وهو الذي ينبغي أن يُعبد؛ لأنَّه خلق السموات والأرض بالحق، فلم يَخْلُقْها عبثاً وباطلاً. ويومَ القيامة يتجلَّى الله على الخلائق جميعاً، فيكون أمره بين الكاف والنون، لا يُعجزه شيء، وقولُه حق لاشك ولا مرية فيه؛ فهو مالك كل شيء. ويوم القيامة يأمر الملك بالنفخ في الصور النفخة الثانية، فتُعاد الأرواح إلى الأجسام لبدء الحساب، فالله عالم الغيب، ومن بابِ أولى أنَّه يعلم الشهادة، وهو الحكيم الذي يضع كل أمرٍ في مكانه، وهو الخبير بكل شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عِظَمُ ذنب الارتداد عن دين الله بعد الدخول فيه.

٢ - الردَّة من نزغات الشيطان.

٣ - المداومة على إقام الصلاة وتقوى الله، فهي زاد المتقين، وخُصَّ من المأمورات الصلاةُ في ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾؛ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى.

٤ - يوم القيامة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ
رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي
ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ
يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

التفسير:

٧٤- واذكر - يا رسول الله - عندما قال إبراهيم لأبيه آزر: أتجعل من هذه الحجارة آلهة وأرباباً تعبدها أنت وقومك من دون الله، إنَّك تعدل عن طريق الحق والصراط المستقيم، إلى طريق الغواية والضلال المبين؟

وخَصَّ إبراهيم بالذكر؛ لمنزلته في قلوب العرب، وليوضِّح لهم قضية العقائد توضيحاً يؤنسهم بمَنْ له في نفوسهم ذِكْرٌ. وأكَّد الإخبار بحرف التأكيد؛ لما يتضمنه ذلك الإخبار من كون ضلالهم بَيِّناً. وفائدة عطف ﴿وَقَوْمَكَ﴾ لينبِّه من أول وهلة علة أنَّ موافقة جَمْعٍ عظيمٍ له على ضلاله لا تعضد دينه، ولا تشكك مَنْ ينكر عليه ما هو فيه.

٧٥- وكذلك نُري إبراهيم مظاهر قدرتنا في السموات والأرض، وأنَّ ملكنا عظيم وواسع، وقدرتنا باهرة؛ ليكون من المؤمنين الراسخين بتوحيد الله وإخلاص العبادة له. وقد أتى بالخبر جاراً ومجروراً فقال: ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ ولم يقل: «وليكون موقناً»؛ لأنَّها أبلغ بالمقصود، لأنَّ الإخبار بأنَّه من الموقنين يفيد أنَّه واحد من الفئة التي تُعرف عند الناس بفئة الموقنين، فيفيد أنَّه موقنٌ، إفادةً بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه، وهي أبلغ.

٧٦- وقد واجه إبراهيم قومه عبدة الكواكب بالحقيقة التي لا يحجبها ظلام الكفر، والتي من خلالها يبطل عقيدة الشرك وعبادة غير الله. فلما أظلم عليه الليل، ورأى كوكباً قد بزغ، ثم غاب، قال:- على سبيل الاستدراج، ويسمَّى في علم الجدل بـ(مجاراة الخصم) وليستميل آذانهم، ويأخذ قلوبهم معه، وليصل بهم إلى الحقيقة - هذا ربي على زعمكم وقولكم. فلما غاب الكوكب قال: لا أحب الآلهة التي تغيب بمعنى لا أرضى، واسم الإشارة لقصد تمييز الكوكب عن غيره من الكواكب.

٧٧- فلما رأى إبراهيم القمر بازغاً، وقد اتخذه قومه آلهةً من دون الله، قال لهم على سبيل استدراج الخصم: هذا ربي! وهو إنكارُ أن يكونَ مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر رباً، فلما غاب وأفل قال- وهو يحدد لهم مصير مَنْ يعبد تلك الكواكب-: لئن لم يهدني ربي إلى الطريق المستقيم، والمنهج القويم في توحيده وعبادته، لَأكونَنَّ من القوم العادلين عن طريق الحق.

٧٨- فلما رأى الشمس طالعة- وقد اتخذوها آلهة من دون الله- قال: هذا ربي، هذا أكبر الكواكب، أي: أهذا ربي على زعمكم وقولكم، وقَصَدَ بالأكبرِ الأكثرَ إضاءة والأَولى باستحقاق الإلهية، وهو أيضاً على سبيل استدراج الخصم؛ فلما أَفَلَتْ وغابَتْ بدخول الليل قال: إنِّي بريء ممَّا تشركون من عباده الأصنام والكواكب. وقد ذكر الشمس هنا، فقال: (هذا)، ولم يقل: (هذه)؛ ليجعل الأمر على سياق واحد، وهو بهذا يُنَزِّه كلمة الرب تنزيهاً مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث، وأيضاً فإنَّ (الشمس) ليست مؤنثاً حقيقياً، بل هي مؤنث مجازي. وقد وصل إبراهيم إلى الحقيقة التي أراد أن يصل إليها معهم من إبطال عبادة الكواكب، والرجوع إلى الفطرة التي فطر الناس عليها من عبادته وتوحيده.

٧٩- إني وَجَّهْتُ وجهي في العبادة للذي خلق السموات والأرض غير مشرك به، فهو الذي يستحق ذلك، لا كما تفعلون، فتتوجهون لأصنامكم التي لا تملك شيئاً، وأُعلن براءتي منكم وما تعبدون من دون الله.

٨٠- أقام إبراهيمُ الدليلَ على وحدانية الله، وأنَّه مستحق للعبادة، وأعلن براءته من الشرك وعبادة الأوثان، وجادله قومُه ليصرفوه عن دينه الحنيف، فقال لهم مُنْكِراً فِعْلَهم: كيف تجادلونني في عبادة الله وتوحيده، وتَرْكِ الأصنام والأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع، وقد هداني الله إلى توحيده، وتبرَّأت من آلهتكم؟ وهنا لجأ قومُه إلى تهديد إبراهيم وتخويفه بأنَّه قد يصيبُه مكروه من آلهتهم أو منهم، فردَّ عليهم قائلاً: ولا أخاف من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؛ لأنَّها صَمَّاء لا تَضُرُّ ولا تنفع، فإن شاء الله أن يُنزل في عبدٍ من عباده أذى، فإنَّه لا دخل للكواكب به؛ لأنَّ النافع والضارَّ هو الله.

٨١- ثم كيف أخاف أصنامكم الجامدة وهي من مخلوقات الله لا تضر ولا تنفع، ولا تخافون الله الذي خلقكم وخلق السموات والأرض، يحيي ويميت بيده كل شيء؟ فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن وعدم الخوف: مَنْ كان يعبد الله الذي يتصف بتلك الصفات، أو مَنْ عبد أصناماً لا تضر ولا تنفع؟

ومن أدب الحوار والجدال عند إبراهيم مع خَصْمِه أنه لم يقل: أأنا أم أنتم أحقُّ بالأمن، بل قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، إن كنتم تعرفون الحجج والبراهين، وهو شبيهٌ بما عَلَّم الله نبيه محمداً ﷺ عندما جادل المشركين، فقال الله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبا: ٢٤]، فلم يُصَرِّح بأنَّ منهجهم على ضلالٍ، وأنَّ منهجه على صواب، حتى لا يستثيرهم، بل ترك الأمر لفِطَرِهم وعقولهم حين يستعرضون المنهجَين، وسيحكمون بأنَّه على هدىً، وأنَّهم على ضلال.

٨٢- وهنا يأتي الجواب من الله لسؤال إبراهيم الذي ألقاه على المشركين في أثناء المجادلة فقال: الذين آمنوا بالله ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، لهم الأمن في الدنيا، وهم مهتدون إلى الحق، ثابتون عليه.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال أصحابه: وأيُّنا لم يَظْلِمْ؟ فنزلت: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ١٤٤، برقم ٤٦٢٩، كتاب التفسير، سورة الأنعام).

الفوائد والاستنباطات:

١- جواز جدال المشركين وإقامة الحجة عليهم؛ لعلهم يهتدون. وعندما فرغت القلوب بما أُلقي من حجج إبراهيم، وأدلة بطلان آلهة الكواكب، وتهيَّأت قلوبهم لقبول الحق، ختمت الآية بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: إذ لم يبق في العالم العُلْوِيِّ كوكب أكبر من الشمس، فقال مستنتجاً ممَّا دَلَّ عليه الدليل العقلي: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢- الدعوة إلى الله بالرِّفْقِ واللِّين والحجة والبرهان، وبان ذلك بقوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، ولم يقل: (فأينا) تعمياً للمعنى.

٣- فِقْهُ أدب الحوار مع المخالفين، ولو كانوا مشركين.

٤- بيان ظلمة الكفر في قلوب المشركين.

٦- خير ما يُعطى المرء هداية قلبه إلى الطريق المستقيم.

٧- من أعظم الذنوب المحبطة للعمل الشركُ بالله ﷻ.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ
وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ
وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ
يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

التفسير:

٨٣- وقد أعطى الله إبراهيم تلك الحجج والبراهين التي حاجَّ بها قومه، فغلبهم وأقام الحجة عليهم، ورفعه بالعلم والحكمة واليقين، والله حكيم في تدبيره.

٨٤- وبعد أن مَنَّ الله على إبراهيم بالغلبة والحجة على أعدائه ذكَّره بمنَّةٍ أخرى، وهي أنه وهبه إسحاق ويعقوب، وقد هدى الله كُلّاً من الجَد والولد والحفيد، فجعلهم أنبياء محسنين يدعون إلى الله، وقد هدى الله من قبلُ نوحاً، وجعل من ذرية إبراهيم الأنبياء والمرسلين، وهم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكانوا جميعاً محسنين؛ فجزاهم الله من جنس عملهم.

وهؤلاء جمعوا بين النبوة والرسالة، وبين الملك والإمارة والحكم. وقد أراد الله أن يكون داود وسليمان نبيين ملكين، فتمثَّلت بهما القدرة وسعة الملك والسلطان، أما أيوب فقد كان أميراً، وأخذ جانب الابتلاء والصبر مع النبوة، ويوسف كان وزيراً ابْتُلي كثيراً فصبر؛ فأعطاه المُلْكَ والسلطان إلى جانب النبوة، ومنح موسى وهارون النبوة فكانا حاكمين، ورُزِقا كثرة الأتباع من الناس، وقد ذَكَرَهم القرآن على طريقة الترقِّي في هدي الدين، فأفضلُهم موسى وهارون، ثم أيوب ويوسف، ثم داود وسليمان..

٨٥- وقد هدى كُلّاً من زكريا ويحيى وإلياس، فكانوا صالحين يدعون إلى توحيد الله وعبادته، وقد أخذوا جانب الزهد والعبادة.

٨٦- وهَدَى الله كُلّاً من إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وفَضَّلهم على عالمي زمانهم مكانةً ومنزلةً وصلاحاً، فسلكوا عظيم الفعال وكريم الخصال، وبقي لهم الذِّكْرُ الحَسَنُ، وجاء ترتيب أسماء الأنبياء في الآيات مقصوداً، فذكر إبراهيم واسحق ويعقوب، وإسحق بن إبراهيم ويعقوب بن إسحق (العلاقة

بينهم هي النبوة)، ثم داود وسليمان (العلاقة بينهم النبوة والمُلك)، وأيوب ويوسف (العلاقة بينهما أنهما يشتركان في الإنعام بعد البلوى، فكلاهما ممَّنْ أنعم الله تعالى عليه بعد الابتلاء)، وسليمان وأيوب (العلاقة بينهما قوله تعالى فيهما: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]. فأيوب هو العبد الصابر، وسليمان هو العبد الشاكر، والصبر والشُكر جماع الإيمان)، ويوسف وهارون (العلاقة بينهما هي الأخوَّة)، وزكريا ويحيى (علاقة النبوة)، ويحيى وعيسى (كلاهما مُستغرَبُ الولادة، فيحيى جاء من أبوين، أحدهما شيخ، والآخر عقيم، وعيسى جاء من أُم بلا أب)، وقد ذكرهما تعالى معاً في سورة آل عمران ومريم.. وقد ختم تعالى هذه المجموعة بعيسى عليه السلام؛ لأنَّه ليس له أب فكان خاتمة النسب الأول عنده. ثم تأتي سلسلة أخرى من ذرية أخرى: إلياس ليس من ذرية إسحق، إسماعيل أخو إسحق، واليسع صاحب إلياس (وحيث وَرَدَ اليسع وَرَدَ إلياس)، ويونس ليس من ذرية إبراهيم، وكذلك لوط ليس من ذرية إبراهيم، ويونس ولوط كلاهما مهاجر إلى ربه.

٨٧- وقد هدى بعض آباء المذكورين وبعض ذرياتهم وإخوانهم وإن لم يَذْكُرْ أسماءهم، فهم كثيرٌ هداهم جميعاً إلى ما هدى الآباء من الهدي والحق والطريق المستقيم، واجتباهم للنبوَّة.

٨٨- ذلك الهَدْيُ والاجتباء والتفضيل هو توفيقٌ من الله تعالى، ولو أشركوا بالله وعبدوا غيره فَرَضاً لَبطل عملهم، ولن تنفعهم منزلتهم وعلوُّ درجاتهم، ولكن لن يكون ذلك منهم؛ لأنَّ الأنبياء والرسل معصومون، وهذا الافتراض عِبْرة وعظة للناس بأن يحذروا الشرك، وعبادة غير الله.

٨٩- أولئك الأنبياء والرسل الذين سبق ذكرهم أنعم الله عليهم بالنبوة والهداية، وآتاهم الكتاب كصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وأعطاهم العلم والفَهْمَ الصحيح مع النبوة الصادقة. فإن يكفر بها قومك يا محمد فقد وَكَّلنا بها قوماً آخرين، من المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة.

٩٠- أولئك الرسل السابقون هداهم الله، وهم قدوةٌ حسنة لِـمَنْ يأتي مِنْ بعدِهم من الأنبياء والرسل، فاتخِذْهم يا محمد مَثَلاً في كمال أخلاقهم، وقدوةً حسنةً في جميل أوصافهم وأفعالهم، فعندها يجتمع فيك يا محمد كمال الخُلُق، فتصبح أكمَلَهم خُلُقاً، وقد كان ﷺ كذلك، قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بربهم، وكذَّبوا برسالتك وكتابك: لا أسألكم على القرآن الذي أُمِرْتُ بإبلاغه لكم أيَّ أجر، فالقرآن الذي جئتُ به من ربي موعظةٌ لكم وللناس جميعاً، إن أرادوا الاتعاظ، وطَلَبَ الهداية.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٣) إخبار مستقبلي في رَفْعِ درجات عباده في الدارين إن شاء تعالى.

٢- جزاء مَنْ صبر ودعا إلى الله ﷻ أن يكلأه بالحفظ والرعاية.

٣- الاقتداء بالرسول ﷺ وبالصالحين والمتقين من أُمته.

٤- الشرك بالله من أعظم الذنوب.

٥- أثر القدوة الصالحة في الدعوة إلى الله.

٦- على الداعية الإخلاص والاحتساب وابتغاء الأجر من الله.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ
مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ
قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ
ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ
فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

التفسير:

٩١- وما عَظَّم هؤلاء المشركون اللهَ حقَّ تعظيمه، ولا عَرَفوه حَقَّ معرفته، وما عَلِمُوا شأنه وتصرفاته حَقَّ العلم بها. والسبب في ذلك أنَّهم أنكروا أنَّ الله قد اختار أحداً من خلقه؛ ليكون نبياً رسولاً يتلقى الوحي منه، والجواب منه جلَّ جلاله، وهو: قل يا محمد: مَنْ أنزل الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام نوراً وهداية للناس؟ ثم يُوَجِّه الخطاب لليهود توبيخاً لهم: وقد جعلتم التوراة أوراقاً تُظْهِرُون منها ما تريدون، وتُخْفُون منها ما تريدون حسب أهوائكم وأطماعكم؛ وقد عَلَّمكم الله - أيها العرب - بهذا القرآن ما لا يعلمه أنتم و لا آباؤكم من قبل. قل يا محمد : الله الذي أنزله، واترك هؤلاء في حديثهم الباطل يلعبون.

٩٢- وهذا القرآن الذي أنزلناه عليك - يا محمد - فيه خيرٌ وبِرٌّ وبركات وتشريعات ومعجزات، يشهد على صدق ما تقدمه من الكتب السماوية المنزلة، ولتُخَوِّفَ به أهل مكة ومَنْ حولها من البلاد

والأمصار من الوقوع في الضلال أو الكفر بالله تعالى، والذين يؤمنون بالآخرة والبعث بعد الموت يُصَدِّقون بالقرآن، وأنَّه كلام الله المنزل عليك يا محمد؛ ويحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها.

٩٣- الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي: لا أحد أظلم من الذي يفتري على الله، فاختلق على الله شيئاً لم يقله ﷻ، ونَسَبَ إليه شيئاً وهو منه براءٌ، أو ادَّعى كَذِباً أنَّ الله نبّأه وأنَّه نبيٌّ مرسل، أو ادَّعى أنَّه قادر أن ينزل مثل ما أنزل الله من القرآن. ولو رأيت - يا محمد - هؤلاء الظالمين ساعة الاحتضار، وهم يعانون من شدائد سكرات الموت، وقد جاءت ملائكة الموت باسطةً أيديها بالعذاب ونَزْعِ الروح، قائلةً توبيخاً لهم بغضب وشدة: أَخرِجُوا أنفسكم من أجسامكم، وسَلِّموها لنا، فإن استطعتم أن تُخَلِّصوها من العذاب فافعلوا فأنَّى لكم ذلك؟ فاليوم تُهانون، وتُعَذَّبون العذاب المؤلم الشديد؛ بسبب استكباركم عن سماع آيات الله واتباع رسله، وبما كنتم تقولون على الله غير الحق من إنكار إنزال الله الكتبَ على رسله، وكنتم مستكبرين عن سماع آياته.

٩٤- ولقد جئتمونا يوم القيامة؛ للحساب فرداً فرداً، كما خلقناكم في الدنيا أول مرة، حُفاةً عراةً غُرْلاً - والغُرْل جمع أَغْرَلَ وهو الأقلف - وليس معكم شيءٌ من مال أو ولد أو أتباع، فتركتموه وراء ظهوركم، وما نرى معكم أوثانكم التي اتخذتموها آلهةً من دون الله، وتَدَّعون أنَّها شفعاء لكم يوم القيامة عند الله. لقد انقطعت الروابط بينكم، وتَشَتَّتَ جَمْعُكم، وكنتم كاذبين بدعواكم واعتقادكم، فتبيَّن لكم أنكم خاسرون.

الفوائد والاستنباطات:

١- لم يُقَدِّر المشركون اللهَ حقَّ قدره؛ لأنَّهم وصفوه بوصف لا يليق بجلاله.

٢- بيان تحريف اليهود لكتابهم التوراة، فأخفَوا من أحكامه، وتلاعبوا بآياته.

٣- بيان فضل الله على العرب؛ بجَعْلِ كتابه العظيم بلغتهم، ونبيِّهم ﷺ منهم.

٤- ثبت علمياً تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي: إنَّ اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، وأنَّ هذه المدينة المقدسة تُعَدُّ مركزاً لليابسة. ولا يوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة وعند جميع الخطوط الموازية له، باستثناء حالة واحدة، ويظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار خط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية وإعادة إسقاط خطوط طول الكرة الأرضية بدءاً منه أي بالنسبة إلى مكة المكرمة؛ لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٥٧-٥٧٠). وينظر: موقع مكة المكرمة في الخريطة، كما في الملحق.

٥- من أعظم الذنوب وأشنعها عند الله الكذبُ على الله، وادّعاء الإنسان أنّه يَتَلَقَّى وحياً من السماء، وهو كاذب.

٦- تعليم الرسول ﷺ محاجَّةَ المشركين والردَّ عليهم.

٧- بيان السبب في نزول القرآن الكريم، وهو الإيمان والبشارة والإنذار.

٨- الأمر في ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ للتوبيخ والتعجيز.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

التفسير:

٩٥- استئناف ابتدائي انتقل به من تقرير التوحيد والبعث والرسالة إلى الاستدلال بخلق الله تعالى، وعجائب مصنوعاته المشاهدة؛ ليُبيِّن الله الأدلة والبراهين في الكون على قدرته، وليلفت الإنسان إلى النِّعم العظيمة التي سَخَّرها له في هذا الكون البديع. وقد أكّد ذلك بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه، فقال: إنَّ الله هو الذي شَقَّ الحَبَّ الذي لا نواة له مثل الشعير والقمح، فيخرج منه الزرع، وشَقَّ النَّوى مثل الثمر الذي فيه نواة، فيخرج منه الشجر، فعظمة الله تَجَلَّتْ في خَلْقِ هذين النوعين وغيرهما، وهو الذي يخرج الحي من الميت، كخَلْقِ الإنسان والحيوان من النطفة، ويخرج الميت من الحي، كخَلْقِ النطفة من الإنسان والحيوان، فإذا كان الله تعالى بهذه الصفات فهو أولى بالعبادة والتوحيد، فكيف تَصْرِفُون ذلك إلى غيره؟

وجيء بجملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ جملةً فعليةً؛ للدلالة على أنَّ هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مرادٌ معلوم، وليس على سبيل المصادفة والاتفاق، وجيء في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ جملةً

اسمية للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أنَّ كِلا الفعلين متجدد وثابت، أي: كثير وذاتي، وذلك لأنَّ أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه. والاستفهام في آخر الآية تعجبي إنكاري.

٩٦- ثم يُبَيِّنُ الله آية أخرى من أدلته على قدرته الباهرة، فالله جَلَّ جلالُه شَقَّ ضياء الصباح من ظلام الليل، وجعل الليل راحةً للأحياء بعد تعب الحركة في النهار، وسكناً لنفوسهم وأجسادهم، وجعل الشمس والقمر يسيران بحساب؛ ليَعْرِفَ الناسُ الأوقاتَ بها مثل: معرفة العبادات والأعمال والآجال والحقوق، وهو تقدير من العزيز الغالب، الحكيم بتدبير مصالح الخلق.

٩٧- ومِنْ آيات قدرته جلَّ جلاله: أنْ جَعَلَ النجوم في السماء؛ ليهتديَ بها البشر في ظلمات البر والبحر، فيعرفوا بها الطرق ليلاً إذا ضَلُّوا حتى لا يهلكوا، وهي أيضاً نِعمة الله على خَلْقِه، والله بَيَّنَ هذه الآيات التي يعقلها العالمون، فيعرفون قدرة الله في كونه العظيم.

٩٨- ومِنْ مظاهر قدرته أنْ خَلَقكم من آدم ﷺ، فجعل لكم مستقراً في الأرحام، ومستودعاً في الأصلاب، ثم تبدأ الحياة في النمو والانتشار؛ فإذا هي أجناس وألوان، وشعوب وقبائل، والله فَصَّلَ ووضَّح هذه الآيات؛ لتبقى الدلالةُ على توحيد الله واضحةً عند المُبْصِرين الذين يفهمون الحِكَم منها.

٩٩- ومِنْ دلائل قدرة الله أنَّه أنزل من السماء ماءً فأخرج به نباتاً متعدداً ومتنوعاً، وأخرج من النبات زرعاً وشجراً خَضِراً، ثم أخرج من الزرع حباً متراكباً متسانداً في سنابله كالقمح والشعير، وأخرج من النخل عُذوقاً دانية متدلية وقريبة، لا تُكَلِّف مشقة في جَنْيِها، وأخرج سبحانه بساتين من أعناب، وأخرج الزيتون والرمان متشابهاً في ورقه، ومختلفاً في طعمه. والله يُغَذِّي كل الملكات في النفس الإنسانية؛ لأنَّ النفس ليست مَلَكاتِ جوع وعطش فقط، بل هناك مَلَكاتٌ متعددة، وكل مَلَكَةٍ لها غذاؤها؛ فيقول في ذلك: انظروا - أيها الناس - وتأمَّلوا في ثَمَرِه ونضجه، إنها تُغذِّي العينين بالمنظر الجميل، وهي دلائل وبراهين دالة على وجود الله القادر الحكيم التي يعقلها ويصدقها المؤمنون به.

الفوائد والاستنباطات:

١- دلائل قدرة الله في كونه البديع كثيرة ومتعددة.

٢- جاء التعبير فالق الإصباح وجعل الليل سكناً إشارة إلى تبادل كل من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض. وأصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة بدقه كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم عل حركاتها بحساب محكم دقيق يُعِين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٠٣-٥١٢).

٣- تسخير النجوم؛ لتكون دلائل يَهْتَدي بها المسافرون ليلاً، وبدأ في قوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ بالأهمِّ عند الإنسان وهو الصباح، ثم أتبعه بالليل، ثم بَيَّنَ ما يفلق ظلمة الليل، فيبسط الإصباح وهي الشمس، وبَيَّنَ أنَّها والقمر جُعِلا لحساب مصالح الناس.

٤- كلُّ تلك الدلائل وسائل في إثبات وحدانية الله، وأتى بالضمير (هو)، ثم الاسم الموصول (الذي) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ للحصر وتأكيد أنَّ مُسَبِّبَ تقرير إنزال الماء هو الله العليم بمصالح عباده.

٥- دلائل قدرة الله في كونه البديع جَمَعَتْ بين الجلال والجمال في تناسق محكم منتظم. واللفتة البيانية في ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ فـ﴿مُشْتَبِهًا﴾ من الاشتباه، والفعل «اشتبه» أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال. يقال: هذا الشيء اشتبه عليَّ بمعنى التبس. أما التشابه فأكثر ما يفيد التشابه بين شيئين، سواءً أدَّى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤدِّ. ويُبَيِّن الله في سياق الآية الدلالة على قدرته وآياته الباهرة في خلقه، فيتحدث عن المراحل الأولى في إنبات النبات، فيشير إلى أنَّه أنزل من السماء ماء، فأخرج به نبات كل شيء، فأخرج منه خَضِراً، مشيراً إلى تسلسل عملية النمو والإنبات. والنبات في هذه المرحلة يحتاج إلى دقة تأمل ونظر، فهو في مرحلة اشتباه، فيلتبس نوعه وشكله؛ ولذا لَفَتَ الحقُّ الأنظارَ بعد أن قال: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾، ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾. هذه دعوة للتأمل والاعتبار.

٦- جاء هذا التسلسل المُعْجِز من الحَبِّ المتراكب، إلى ثمار كل من النخل والأعناب والزيتون والرمان؛ ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسي للإنسان ولأنعامه. (مقالات الدكتور زغلول النجار، ص ٦٩٦).

٧- اكتشف علماء النبات أنَّ في النبات مادة خضراء، وأن هذه المادة الخضراء يخرج منها المواد الكربوهيدراتية التي هي أساس لتكوين جميع المواد المكونة للثمار والأشجار والزروع. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص٩٥).

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم
بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

التفسير:

١٠٠- وجعلوا الجنَّ شركاء لله تعالى في العبادة؛ وذلك بعبادتهم وطاعتهم فيما زيّنوا لهم من عبادة الأصنام، وكيف يُشركون به غيره وهو خالقهم، سواءٌ العابد أو المعبود من صنم أو وثن؟ ومن ضلالهم وغيِّهم وجهلهم: أنهم اختلقُوا لله البنين والبنات، والله مُنَزَّهٌ عمّا وصفوه به كَذِباً وزُوراً منهم.

١٠١- والله تبارك وتعالى خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، كيف يكون له ولد، ولم تكن له زوجةٌ؟ فالله فرد أحدٌ، ليس كمثله شيء، وهو خالق كل شيء من العَدَم، لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض.

١٠٢- إنَّ ذلكم الله الذي خلق السموات والأرض، والخالق لكل شيء هو ربكم، فاعبدوه لأنّه مستحق للعبادة، وهو على كل شيء وكيل وحفيظ، لا يحتاج إلى أحد من خَلْقِه يدير الكون بنفسه.

١٠٣- والله ﷻ ليس كمثله شيء في الكون، فلا تستطيع الأبصارُ في الدنيا أن تحيط به، فهو فوق الزمان والمكان، أما في الآخرة فإنَّ المؤمنين يرون ربَّهم، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. والله لطيف بعباده، خبير بأفعالهم.

١٠٤- قد جاءكم - أيها الناس - بصائر وحجج وبراهين موضحة، فمَنْ انتفع بها، واستبصر بهديها، فنَفْعُه لنفسه، ومَنْ أعرض عنها ولم يستبصر بهَدْيِها، فضررُه على نفسه، وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم، وإنّما أنا رسولٌ من الله مُبَلِّغٌ رسالته.

١٠٥- كما أننا صَرَّفْنا الآيات في القرآن نُصَرِّفُها لهداية الناس الطالبين للهُدَى والصراط المستقيم، أما غيرهم ممَّنْ عَمِيَتْ قلوبُهم ولم ينتفعوا بها، فسيقولون: يا محمدُ تَعَلَّمْتَ الآياتِ من أهل الكتاب؛ ولنُبَيِّن بتصريف الآيات الهدى والحق للمؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - سَفَهُ عقول الجاهلين، فقد جعلوا من الجن شركاء لله، فعبدوهم.

٢ - تنزيه الله جل جلاله عن الشريك والصاحبة.

٣ - استحالة رؤية الله في الدنيا، وجوازها في الآخرة لعباده المتقين.

٤ - آيات القرآن تبصرة لِمَنْ أخذ بها في طريق النجاة.

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ
أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

التفسير:

١٠٦ - اتَّبِعْ - يا محمد - الوحي من ربك، وهو القرآن الكريم، والله هو المتفرد بالكون لا شريك معه، ولا تشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغِلْ بعبادة الله وذِكْرِه، وأَعْرِض عن المشركين ودعواهم الباطلة الكاذبة.

١٠٧ - إنَّ الله له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون، فله الحكمة إن تركهم في الضلال، ولو شاء الله - يا محمد - عدم إشراكهم بأن يخلق البشر مؤمنين كالملائكة، ولكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر، والطاعة والفسق؛ لأنَّ الإنسان في هذا الكون قد أعطاه الله صفة الاختيار، فالكافر إنما يفعلُ كلَّ فِعْلٍ بما آتاه الله اختياراً، لا غصباً عن الله أو قهراً، بل اختياراً. ولا يُمكنك أن تكون حافظاً لهم من عذاب الله، ولَسْتَ قَيِّماً على أمورهم ومصالحهم؛ إنَّما أنت مُبَلِّغ عن ربك.

١٠٨ - يُبَيِّنُ الله منهجاً حكيماً في الدعوة إلى الله، وهو الإعراض عن المشركين بأدب وترفع، يليق بالمؤمنين، وقد أُمِرُوا ألَّا يَسُبُّوا آلهة المشركين؛ مخافة أن يحمل هذا السبُّ أولئك المشركين على سبِّ الله ﷻ ظلماً واعتداءً بغير علم، فيكون سَبُّ المؤمنين لآلهتهم ذريعة لسَبِّ الله العظيم.

ومن سنن الله في خلقه أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً دافع عنه، ولو كان أمراً قبيحاً، ولذلك لا يَرْضى المشركون أن تُسَبَّ آلهتهم، بل إنَّهم يدافعون عنها، فالله زَيَّنَ لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل الكفرِ الكفرَ، وجميعم يرجعون إلى الله، فيخبرهم بأعمالهم، ويُطْلِعُهم عليها.

١٠٩ - أقسم المشركون بالله أبلغَ أيمانهم وأغلظها، إنهم إذا جاءتهم آية من الآيات، كتحويل جبل الصفا إلى جبل ذهب، آمنوا جميعاً بنبوة محمدٍ ﷺ ورسالته، فردَّ الله عليهم قائلاً قل يا محمد: إنما الآيات من عند ربي فهو الذي يأتي بها، وما يُدْريكم لعلَّ الله يأتي بها، ولا يؤمن بها المشركون.

١١٠ - إنَّ الله يُقَلِّب قلوبهم وأبصارهم عن معرفة الهدى والإيمان، فهم لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ، كما لم يؤمنوا بالقرآن عند نزول آياته أول مرة؛ لذلك يتركهم اللهُ في ضلالهم يتخبَّطون في غَيِّهم وضلالهم، فلا يهتدون إلى الصراط المستقيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإنسان مختار للهدى أو الضلال، وهو يتحمل نتيجة اختياره، فيُجزى جزاءً يناسب اختياره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالجزاء من جنس العمل.

٢- حرمة القول والفعل الذي يؤدِّي إلى سبِّ الله ورسوله.

٣- ثبوت رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، فنَفْيُ الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخصُّ أوصاف الرؤية، دَلَّ على أنَّ الرؤية ثابتة، ولو أراد نفي الرؤية لقال: «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك.

٤- وجوب الأخذ بقاعدة الحُكم بسَدِّ الذرائع في نَهْيِ الله تبارك وتعالى عن سَبِّ آلهة الكُفَّار؛ لئلَّا يكونَ ذلك ذريعةً إلى سب الله تعالى.

٥- الهداية بيد الله ﷻ، والمعجزات قد يراها الإنسان، ولا يؤمن بها.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن
يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾
وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ
مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

التفسير:

١١١ - ولو أنّنا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - جئناهم بمعجزات خارقة، فنزَّلْنا إليهم الملائكة، فرأوهم عِياناً، وأحيينا لهم الموتى فكلَّموهم، وجمعنا لهم كلَّ شيء ممَّا اقترحوه من المعجزات وغيرها، فعُرِضَتْ عليهم، ورأوها عِياناً لم يؤمنوا إلا بمشيئة الله تعالى، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون الطريق الصحيح إلى اتِّباع الحق.

١١٢-١١٣ - ومثلَ ما ابتليناك بأعداء من المشركين، جَعَلْنا لكلِّ نبي قبلك أعداء من شياطين الإنس، كالسحرة ورؤساء الكفر، ومن مَرَدَة الجِنِّ يوسوس بعضهم لبعض القولَ الذي يُزيِّن الباطل؛ ليغترَّ مَنْ سَمِعه، فينصرف عن الإيمان بالله تعالى. ولو أراد الله تعالى ما فعلوا ذلك، فاتْرُكْهم وما يُكَذِّبون، ولتميلَ إلى هذا الكذبِ قلوبُ الكفار ميلاً، وليرضوا هذا الباطل، وليكتسبوا من الجرائم والآثام، وليزدادوا منها.

١١٤ - قل يا رسول الله: هل أطلب حَكَماً بيني وبينكم غيرَ الله تعالى، وهو الذي أنزل إليكم القرآن العظيم ملابساً ومتضمِّناً للحق، ومبيِّناً فيه الهدى والضلال؟ والذين آتيناهم التوراة والإنجيل يُدْرِكُون يقيناً أنَّ هذا القرآن مُنَزَّلٌ عليك بالحق، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين أنَّ هؤلاء لا يعلمون ذلك الحق.

١١٥ - وتحقَّقَتْ كلمة الله تعالى فيما أخبر به، فهو صِدْقٌ، وما أَمَر به من الأحكام فهو عدل، فلن يَقْدِرَ أحد أن يُغيِّرَ في كلامه وأحكامه. والله سبحانه السميع للأقوال، العليم بالأفعال.

١١٦ - وإن تُطِعْ أكثر الإنس والجن يُضِلُّوك عن دين الله تعالى. ما يَتَّبعون في أمر الدين إلا الظنون الباطلة المنقولة عن تقليد الآباء، وما هم إلا يكذبون.

١١٧ - إنَّ خالقَك أعلمُ بالضالِّين عن سبيل الهداية، وهو أعلم بالذين اهتدوا إلى دين الله الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١١١) إخبار عن أمر مستقبلي في حال الكافرين فيما لو أجاب الله ﷻ طَلَبَهم، فأنزل إليهم الملائكة من السماء، وأحيا لهم الموتى فكَلَّموهم، وجُمِع لهم كلُّ شيء طلبوه فعاينوه مواجهةً، فهم لن يصدِّقوا، ولن يعملوا بما دعاهم إليه محمد ﷺ، إلا مَنْ شاء الله له الهداية.

٢- كما ابتلى اللهُ نبيَّه ﷺ بكيدِ الأعداءِ وصَدِّهم عن سبيلِ الله؛ فقد ابتُلِيَ الأنبياءُ من قبله بذلك، فالابتلاءُ سنةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه. ومن حكمة الله تعالى في جَعْلِه للأنبياء أعداءً، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه؛ ليَحْصُلَ لعباده الابتلاء والتمحيص؛ ليتميزَ الصادقُ من الكاذبِ، والعاقلُ من الجاهلِ.

٣- بيانُ المنهج الصحيح في التلقي والقبول، وهو تحكيم شرع الله ﷻ في كلِّ أمرٍ من الأمور، وفي كلِّ ما يَرِدُ إلينا من رُؤى وأفكارٍ نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله، فهو الحَكَمُ والميزانُ، وهو الفُرقانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ.

٤- بيانُ عِلْمِ أهل الكتاب أنَّ التوراة والإنجيل مُنَزَّل من عند الله تعالى.

٥- البشرى بأنَّ أحكام الله تعالى محققة وباقية.

٦- الإيمانُ بأركانِه وشُعَبِه حصنٌ متينٌ من الفتنِ المتتابعةِ، والمكايدِ المستمرةِ، والخطوبِ المدلهِمَّة.

٧- تَجَنُّبُ الاغترار بما عليه أهل الكفر والضلال والبدع والأهواء، مهما كَثُرَ عددُهم، وشاع ضلالُهم، وقَوِيَتْ شوكتُهم؛ فإنَّ مصيرهم إلى الزوال.

٨- قال ابن عاشور: «جِيء في صلة الموصول بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ للدلالة على تمكُّنهم في ذلك الاقترافِ، وثباتهم فيه». (التحرير والتنوير: ٧/ ١٠).

٩- قال ابن عاشور: «تقديم ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿أَبْتَغِى﴾؛ لأنَّ المفعول هو محلُّ الإنكار، فهو الحقيق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري». (التحرير والتنوير: ٧/ ١١).

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ
ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ
بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ
إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا
يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ
يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

١١٨- سبب النزول:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أتى أُناسٌ النبيَّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٢٦٣ - ٢٦٤ برقم ٣٠٦٩- كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي).

التفسير:

فكُلوا - أيها المؤمنون - من الذَّبائح التي ذُكِرَ اسمُ الله تعالى عليها عند الذَّبْحِ، إن كنتم مُصَدِّقين بأحكام الله تعالى.

١١٩- وما المانعُ أن تأكلوا ممَّا ذُكِرَ اسمُ الله تعالى عليه، وقد وَضَّح الله لكم ما حُرِّم عليكم إلا في حال الضرورة؟ - كما تقدم في مطلع سورة المائدة - وإنَّ كثيراً من الكفَّار لَينحرفون عن الحق؛ بسبب اتباع نَزَغات الشيطان بغير حجة ولا دليل. إنَّ ربك - يا رسول الله - هو أعلمُ بالذين يتجاوزون الحقوق والأحكام.

١٢٠- ودَعُوا - أيها الناس - جميعَ الآثام الظاهرة بالجوارح، والخفيَّة بالقلوب. إنَّ الذين يقعون في المعاصي سيُعاقَبون بسبب أعمالهم الخبيثة.

١٢١ - ولا تأكلوا - أيها المؤمنون - مما ذُبِحَ لغير الله تعالى، أو لم يُذْكَر اسم الله عليه. ومَنْ خالف ذلك فإنَّه خارج عن طاعة الله تعالى. وإنَّ شياطين الإنس والجن لَيوسوسون في نفوس أعوانهم؛ ليجادلوكم في إباحة أكل الميتة. وإن أطعمتموهم في اعتقاد إباحة أكل الميتة فقد وقعتم في كبيرة الشرك.

١٢٢ - أو مَنْ كان قبل هداية الله تعالى له ميِّتاً في خِضَمِّ ظلمات الكفر، فأحييناه بنور العلم والهداية، يضيء له طريقه بين الناس، كمَنْ هو غارقٌ في ظُلمات الكفر لا يقدر على التخلُّص منها؟ ومثلَ ما يتخبَّط هذا الكافر، حَسَّنَّا للجاحدين ما كانوا يقترفون من الجرائم.

١٢٣ - وكما جعلنا زعماء الكفر يَصُدُّون الناس عن الإسلام، جَعَلْنا في كل مدينة عُتاة مجرميها؛ ليمكروا فيها بالصدِّ عن الإيمان والإصرار على العصيان، وما يحيق مَكْرُهم إلا بأنفسهم، ولا يَدْرُون أنَّ ضَرَرَ ذلك يُحسب عليهم. قال ابن عاشور: «وجيء بصيغة القصر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يلحقه أذى ولا ضُرٌّ مِنْ صَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعه، ويَلْحَقُ الضرُّ الماكرين، في الدنيا بعذاب القتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب النار». (التحرير والتنوير: ٧/ ٣٩).

١٢٤ - تمادى زعماء الكفر في عنادهم، وإذا جاءتهم حُجَّة دالَّة على صدقه ﷺ اعترضوا وأصرُّوا، وقالوا قولاً كُبَّاراً: لن نُصَدِّق برسالتك حتى يعطينا الله النبوَّة والمعجزة كبقية الرسل. فرَدَّ الله عليهم مُهَدِّداً ومُوَبِّخاً لهم: الله أعلم بمَنْ هو أهل للرسالة، سيصيب هؤلاء المتكبرين خِزْيٌ وذُلٌّ وعذاب شديد الألم؛ بسبب كيدهم المتواصل للدعوة إلى الله تعالى. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعنون أنَّهم لن يؤمنوا حتى تأتيهم الملائكة بالرسالة، كما أتت الرسل، كما بيَّنه تعالى في آياتٍ أُخَر، كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] الآية، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٢] الآية».

وقال ابن عاشور: «فالآية دالَّة على أنَّ الرَّسول يُخْلَقُ خِلْقةً مناسِبة لمراد الله من إرساله، والله حين خَلَقَه عالم بأنَّه سيرسله». (التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢).

الفوائد والاستنباطات:

١ - إباحة الذبائح التي ذُكِرَ عليها اسم الله تعالى.

٢ - قال الدكتور محمد جميل الحبال: «تَوَصَّل فريق طبي سوري بعد ثلاث سنوات من التجارب لدراسة الفرق بين الذبائح التي ذُكر اسم الله عليها، ومقارنتها مع الذبائح التي تُذبح بنفس الطريقة، ولكن بدون ذِكْرِ اسم الله عليها. وأكَّدت الأبحاثُ أهميةَ ذِكْر اسم الله (بسم الله، الله اكبر) على ذبائح الأنعام والطيور لحظة ذبحها، فقد أثبتت النتائج المظهرية المخبرية أنَّ نسيج اللحم المذبوح بدون تسميةٍ

وتكبيرٍ، من خلال الفحوصات المظهرية والاختبارات النسيجية والزراعات الجرثومية أنّها مليئة بمستعمرات الجراثيم، ومحتقِنة بالدماء، ولون اللحم أحمر قاتم يميل إلى الزرقة لا يصلح للاستهلاك البشري (غير صحي) بينما كان اللحم المكبَّر عليه خالياً تماماً من الجراثيم وصحياً، ولا يحتوي نسيجه على الدماء، ولونه طبيعي وسليم. وقد لوحظ أنَّ لحوم الأضاحي التي تُذبح بمناسبة عيد الأضحى المبارك في بلاد المسلمين كافة، ولاسيما في البلد الحرام (الحج) تكون صحيَّة ولذيذة الطعم، حيث إنّها مباركة بالتكبيرات، وذِكْرِ اسمِ الله عليها من كل مكان في هذه الأيام المباركة والمكان الشريف.

٣- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فنسخ، واستثنى من ذلك قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]. (السنن برقم٢٨١٧ كتاب الأضاحي، باب في ذبائح أهل الكتاب، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٢) من طريق أبي داود به، وحَسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود).

٤- العملُ بالأحكام الشرعية من مقتضيات الإيمان.

٥- التمسُّك بشرع الله تعالى عصمة ونجاة من الفتن، ومزالقِ الضلال.

٦- مَنْ يرغب في محبة الله تعالى ويَسْعَ في رضاه فإنَّه يجتنب ما نهى الله عنه، وكيف يَدَّعي محبته أو يطمع في حبه وهو بعيدٌ عن منهجه، مقيمٌ على معصيته، متبعٌ لغير هديه، ناكبٌ عن طريقه؟

٧- قال ابن عاشور: «إظهار لفظ الإثم في مقام إضماره؛ إذ لم يقل: إنَّ الّذين يكسبونه، لزيادة التَّنديد بالإثم، وليستقرَّ في ذهن السَّامع أكملَ استقرار». (التحرير والتنوير: ٧/ ٢٩).

٨- تحذير الله تعالى من الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، ويُرَدِّدها أدعياؤه المُغرِضُونَ من شياطين الإنس والجن، ويَتَلَقَّفها بعضُهم من بعضٍ؛ ليَقْدَحُوا في الشريعة الغرَّاء.

٩- قال ابن عاشور: «جاء التشبيه بديعاً؛ إذ شبَّه حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميِّت، فإنَّ الشرك يحول دون التمييز بين الحقِّ والباطل». (التحرير والتنوير: ٧/ ٣٤).

١٠- الرِّسالة ليست ممَّا يُنال بالأماني ولا بالتَّشَهِّي، ولكنَّ الله يعلم مَنْ يصلح لها، ومَنْ لا يصلح، ولو عَلِمَ مَنْ يصلح لها وأراد إرساله لأرسله.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

التفسير:

١٢٥ - فمَنْ يُرِدِ الله أن يُوَفِّقَه للإيمان يجعل صدره مُنبسطاً رحباً للإسلام، ومَنْ يُرِدْ أن ينكسه في الضلالة يجعل صدره مُنقبضاً مكتوماً، كحال مَنْ يصعد السماء، فإنَّه يتنفس بصعوبة كلما صعد، فينقبض صدره، وتتلاشى أنفاسه، وكما يجعل صدور الكافرين في هذه الحالة النَّكِدَة. كذلك يُرسل الله تعالى العذاب الذي لا يطاق على الذين لا يُصدِّقون به سبحانه.

١٢٦ -١٢٧ - وهذا الدين الذي أنت عليه - يا محمد - هو الدين العظيم مِنْ ربك، قد بيَّنَّا الآيات المسموعة والمرئية لقوم يتعظون بها، وينتفعون منها، وجزاؤهم الجنَّة عند ربهم يَتَوَلَّى أمورهم بالتكريم على أعمالهم الطيبة.

١٢٨ - يُذَكِّر الله تعالى بنبأ حواره يوم القيامة حين يجمع الإنس والجن فيقول للجن: قد حققتم رغبتكم في إضلال حشد كبير من الإنس. وقال أنصارهم من الإنس معتذرين إلى الله: يا ربَّنا قد انتفع بعضنا من بعض بشهوات الدنيا، وبَلَغْنا الوقت الذي حَدَّدْتَه لنا بانقضاء الحياة الدنيا، ثم أزِف هذا الحساب. فرَدَّ

عليهم اعتذارهم المُتأخِّر: نار جهنم منزلكم، ماكثين فيها أبداً إلا مَنْ شاء الله تعالى برحمته عدم خلوده في جهنم من عصاة الموحِّدين. إنَّ ربك الله حكيم في تدبير خَلْقِه، عليم بأمورهم.

١٢٩ - وكما تمتَّع فَسَقَةُ الإنس والجن بعضهم ببعض، نُسَلِّط الظالمين من الإنس والجن بعضهم على بعض في الدنيا؛ عقوبة عاجلة بسبب ارتكابهم الذنوب.

١٣٠ - يُخَوِّف الله تعالى كفرة الإنس والجن من عذاب يوم القيامة مُوَبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم: ألم يأتكم رسلٌ من الإنس ودعاة من الجن يتلون عليكم آياتي المنزَّلة، ويُخَوِّفونكم مواجهة العذاب يوم الحساب؟ أجابوا مُعترفين: بلى أقررنا بأنَّ الرسل قد بَلَّغُونا رسالاتك، وخَدَعَتْ هؤلاء زينةُ الحياة الدنيا وشهواتها، وأقرُّوا على أنفسهم أنَّهم كذَّبوا أولئك الرسل.

١٣١ - ذلك الأمر العظيم من إرسال الرسل؛ لئلا يُؤاخَذَ أحدٌ إن لم تَبْلُغْه دعوة الله تعالى، ولم تُدَمَّرْ بلدة دون تذكيرٍ بالرسل والآيات والعِبَر. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ النفيُ في هذه الآية الكريمة مُنْصَبٌّ على الجملة الحالية، والمعنى: أنه لا يُهْلِكُ قوماً في حال غفلتهم، أي: عدم إنذارهم، بل لا يُهْلِكُ أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، كما بيَّن هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]».

١٣٢ - ولكلٍّ من الجن والإنس درجاتٌ في الجنة والنار، بحسب طاعتهم ومعصيتهم. وما ربُّك بغافل عن شيء مما يفعلون من الخير والشر.

١٣٣ - وربُّك الغنيُّ عن جميع خَلْقِه، ذو رحمة وَسِعَتْ كلَّ شيء، إن يشأ يهلككم، ويأت بقوم يخلفونكم من بعد إهلاككم، مثل ما أوجدكم من نَسْلِ قوم سابقين لكم.

١٣٤ - إنَّ ما توعدون من البعث والعقاب لابدَّ من وقوعِه، ولن تُفْلِتُوا من عذاب الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإيمانُ حياةُ القلوبِ ونورُ البصائر وضياءُ الدروب، أمَّا الكفر فإنَّه ظلماتٌ مُتراكمة في قلبٍ ميتٍ.

٢ - من أسباب الصدودِ ودواعي الإعراض: صنيع أكابر المجرمين من مكرٍ وصَدٍّ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد. ومن أسبابِ صدودِهم ما في صدورهم من كِبْرٍ وحسدٍ وجهالةٍ، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ، ومفاهيمَ خاطئة.

٣- النبوةُ منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ، يختصُّ اللهُ بها مَنْ يشاء من عباده، فالرسلُ هم أصفى الناس معدناً، وأحسنُهم خُلُقاً، وأخلصُهم لله.

٤- بيان سنة الله تعالى في الهداية والإضلال، فمَنْ طلب الهداية، ورغب فيها صادقاً، علم الله ذلك منه، فسهَّل له طُرُقَها وهيأ له أسبابَها، ومَنْ طلب الغَواية، وأخلد إليها، تهيأت له أسبابُها، وفُتِّحَتْ عليه أبوابُها.

٥- دلت الآية الكريمة على نوع من الإعجاز العلمي في القرآن، وهو أنَّ الضغط الجوي يَخِفُّ، كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى، وأنَّ الإنسان كلما صَعِدَ إلى السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة عند نزول القرآن دليل على هذا الإعجاز. وينظر: صورة توضح مراحل نقص الأكسجين عند الصعود لأعلى، كما في الملحق.

٦- بشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بدار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروهٍ وسوءٍ، والعافية من جميعِ الآفات والبلايا والهموم والرزايا.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ إشارةٌ إلى جملة من السنن الإلهية منها:

أ- سنةُ الولاء: إذ يتآمر الكَفَرَةُ، ويتعاونُ الظَّلَمَةُ لتحقيقِ مآربهم والوصولِ إلى مطامحهم. وهذا من باب الاستدراجِ لهم.

ب- سنةُ التعاقب والتداول: إذ يتعاقب الظلمة، يلي بعضهم بعضاً دون اعتبارٍ ممَّنْ سبقهم، فلو دام الملك لِـمَنْ سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله، كذلك يتعاقبون في دخولِ النار، يلي بعضُهم بعضاً في دخولها.

ج- سنةُ التسلط: تَسَلُّطُ الظَّلَمَةِ بعضهم على بعضٍ، وهلاك الظالمين بالظالمين. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظَّلَمَةَ بالظَّلَمَةِ.

د- سنة الاستبدال: وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

٨- في الآية (١٣١) إثبات قاعدة العذر بالجهلِ، وذلك من رحمةِ الله وعدله.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟
هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا
كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ
حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا
ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ
خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ
وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا
رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

التفسير:

١٣٥ - قل - يا أيُّها النبي - لقومك من كفَّار قريش مُهَدِّداً لهم: ياقومِ استمِرُّوا على كفركم، فإني ثابت على دعوتي كما أمرني ربي، ولا يَضُرُّني تصميمُكم على ما أنتم عليه من الكفر، فسوف تدركون عند نزول العقاب لمن العاقبة المحمودة في الآخرة، أنحن أم أنتم؟ إنَّه لا يفلح المعتدون بتكذيبهم، وشركهم.

١٣٦ - يُخبر الله تعالى عن جرائم الكفَّار في تحريم ما أحَلَّ الله مُحذِّراً من ذلك، ومُوَبِّخاً لهم: وجعلوا مِمَّا خلق الله تعالى من الثمار والأنعام سهماً ينفقونه في سبيل الله على الفقراء والمساكين، وجعلوا سهماً آخر لشركاء الله من الأوثان يُصرف للسَّدَنَةِ والخدم والقَرابين، فما كان لأصنامهم فلا يُصرَفُ للوجوه التي شرعها الله تعالى، وما كان لله تعالى فإنَّه يُصْرَفُ منه إلى أوثانهم من القرابين وغيرها. بئس هذا الحكم، وقَبُحَتْ قِسْمَتُه.

١٣٧ - ومِثْلَ هذا التزيين من الشياطين بهذا الحكم، زَيَّن الشياطينُ لجَمْعٍ من المشركين قَتْلَ أولادهم مخافة الفقر أو العار؛ ليورِّطوا هؤلاء الآباء، وليخلطوا عليهم دينهم، فلم يُفَرِّقوا بين الحق والباطل. ولو شاء الله تعالى ما فعلوا ذلك أبداً، فدَعْهم وما يختلقون من الكَذِب.

١٣٨ - وقال المشركون قولاً كُبَّاراً سَفَهاً وجهلاً: هذه أنعام من الحيوانات، وحَرْثٌ من النباتات، حرامٌ لا يأكلها أَحَدٌ إلا مَنْ نشاء من خَدَمَةِ الأوثان، بزعمهم الباطل من غير حُجَّة، وأنعام حُرِّم ركوبها، والحمل عليها، وأنعام عند ذَبْحِها لا يذكرون اسم الله عليها. وكلُّ ذلك كذب مختلَقٌ على الله تعالى، سيعاقبهم بسبب هذا الكذب.

١٣٩ - ومِنْ كَذِبهم أيضاً قولهم: ما في بطون البحائر - جمع بَحِيرة، وهي الناقة التي تُشَقُّ أُذنها، ثم يَحْرُم ركوبُها - والسوائب المسيَّبة، من أَجِنَّةٍ وألبان لأصنامهم، وهو حلال للرجال دون النساء المتزوجات، وذلك إذا وُلِدَ حيَّاً، أمَّا إذا وُلِدَ ميِّتاً فالرجال والنساء مشتركون في ذلك، سيعاقبهم على هذه الأحكام الجائرة. إنَّه حكيم في أحكامه، عليم بخلقه.

١٤٠ - يؤكد الله تعالى أنَّ هؤلاء المشركين خسروا دينهم وأولادهم، حينما قَتَلوا أولادهم جهلاً بغير حجة، وحَرَّموا عليهم طيباتٍ ما رزقهم الله؛ كذباً على الله تعالى. إنَّهم انحرفوا انحرافاً كبيراً عن الحق، وما كانوا مهتدين إلى الصواب، ولا موفَّقين له.

الفوائد والاستنباطات:

١ - المشركون الذين حرَّموا ما أَحَلَّ الله، واستحَلُّوا ما حَرَّم ارتكبوا ضُروباً من الجهل والحماقات والأحكام الضالة.

٢ - مِنْ كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه، أن جعلوا لله سبحانه ممَّا خلق من حَرْثِهم ونِتاج دوابِّهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك، يَصْرِفُونه لسَدَنَتِها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك عوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غنيٌّ عن ذلك.

٣ - وَصَفَ الله المشركين بأوصافٍ سبعة، هي: الخسران والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة، وكلُّ واحدٍ منها سبب تام في حصول الذم. (التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٦١).

٤ - وَضْعُ المرأة المُزْري، وحقوقها الضائعة في تلك الجاهلية الجهلاء، والتقاليد البالية التي لم تَسْلَمْ المرأةُ مِنْ عَنَتِها، فعانت من ظلم أقربِ الناسِ إليها، وعاشت مَهِيضةَ الجناح كسيرةَ الفؤاد حتى أشرقت شمسُ الإسلام.

٥ - تحقيق الفعل بـ﴿قَدْ﴾ في الآية (١٤٠) للتَّنبيه على أنَّ خُسْرانَهم أمر ثابت، فيفيد التحقيقُ التَّعجيبَ منهم كيف عَمُوا عمَّا هم فيه من خسرانهم؟.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ
حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ
ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ
نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ
بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

التفسير:

١٤١ – والله تعالى الذي خلق بساتين فيها أشجار محمولة ومتسلقة على عرائش، وأشجار مرفوعة بسيقانها كالتفاح. وأنشأ النخل، والزرع متنوعاً طعمه ولونه ورائحته، والزيتون، والرمَّان متشابهاً منظره ومُختلفاً طَعْمُه بين الحلو والحامِض. كُلُوا من ثمره إذا نضج، وأَخْرِجُوا زكاته المفروضة عند قِطافِه وجَمْعِه، ولا تُبَذِّروا في الإنفاق. إنَّ الله لا يحب المبذِّرين.

١٤٢ – وخلق الله تعالى لكم من الإبل والبقر والمعز والغنم ما يُرْكَبُ، ومنها ما يُحْمَلُ عليها المتاع، ومنها ما يُستفاد من صوفها وشعرها وأوبارها لصنع الفُرُش الجيدة. كُلوا ممَّا أعطاكم الله من هذه النِّعم، ولا تسلكوا طرائق الشيطان الذي يُزيِّن لكم تحريم ما أحلَّ الله. إنَّه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

١٤٣ – يُنكر الله تعالى على المشركين الذين حَرَّموا ما أحلَّ الله لهم مُوَبِّخاً لهم، ومُبيِّناً جَهْلَهم، فقد خلق الله تعالى من الأنعام ثمانية أصناف مزدوجة من ذكر وأنثى، من الضأن اثنين ذكراً وأنثى، ومن المعز اثنين ذكراً وأنثى. قل لهم يارسول الله: أحَرَّم الله الذَّكَرين منهما؟ أم حَرَّم الأنثيين منهما؟ أم حَرَّم ما اشتملت عليه البطون من الأجنَّة؟ وكل ذلك لم يُحرِّموه. خَبِّروني بحجةٍ أو دليلِ ادِّعائكم إن كنتم صادقين.

١٤٤- وخلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام أي: ذكراً وأنثى، كل واحد منهما زوج للآخر. وتفصيل هذه الثمانية كما يلي: خَلَقَ من الإبل اثنين ذكراً وأنثى، ومن البقر اثنين ذكراً وأنثى، قل لهم: أحرَّم الله الذَّكَرَين منهما؟ أم حَرَّم الأنثيين؟ أم حَرَّم ما اشتملت عليه البطون من الأجنَّة؟ هل كنتم حاضرين تشهدون حين أمركم بهذا التحريم المُفترى؟ فمَنْ أشدُّ ظُلماً ممَّنِ اختلق الكذبَ على الله من أجل انحراف الناس عن شريعة الله تعالى بغير حُجَّة؟ إنَّ الله لا يوفِّق المعتدين على حُرُماته.

١٤٥- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُبيِّن كثرة ما أحَلَّه الله تعالى لعباده، وبعض الأشياء المحرَّمة، وأنَّ أحكام الحلال والحرام مصدرها من عند الله سبحانه. قل للناس: لا أجد فيما أوحى الله إليَّ في القرآن طعاماً أو شراباً محرَّماً على أحد إلا أن يكونَ ميتة غير مُذكَّاة، أو يكون دماً مراقاً، أو لحم خنزير، فإنَّه نجس مستقذر، أو ما ذُبِحَ لغير الله تعالى. فمَنْ أصابته ضرورة تؤدي إلى هلاكه فلا حرج أن يأكل شيئاً من هذه المُحَرَّمات، غير قاصد أو متعمِّد الحرامَ، ولا مُتجاوزٍ قَدْرَ الضرورة التي تدفع عنه الهلاك، فإنَّ الله غفور له رحيم به. وقد صَحَّ من السُّنَّة المشرَّفة تحريم كلِّ ذي نابٍ من السباع، وذي مخلبٍ من الطيور، والحُمُر الأهلية، والكلاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- رَدٌّ على جهالات المشركين الذين حَرَّموا ما أحلَّ الله، وأحَلُّوا ما حرَّمه تعالى حسب أهوائهم.

٢- وجوب الزكاة في الزروع والثمار، عند حَصادها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يُحْسَبُ ذلك من الزكاة، بل يُزَكَّى المالُ الذي يبقى بعده.

٣- دعوةٌ للتمتع بالطيباتِ، ونهيٌ عن اتباع خطوات الشيطان. ومِنْ ضِمْنها: الإسرافُ ومجاوزةُ الحدِّ في الإنفاقِ، وتحريمُ ما أحلَّ الله، أو تحليلُ ما حَرَّم الله، كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية.

٤- إقامة الحجةِ على المشركين، وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ، حَمَلَتْهم على تحريمِ ما أحَلَّ الله، فلم تَدَعْ لهم شبهةً إلا أبطَلَتْها، ولا حُجَّةً إلا أسقطَتها.

٥- دَلَّت الآيات على تَضارُب المشركين، وتناقضهم. وهذا شأن مَنْ يركب الأهواء، ويحتكم إلى الجهل، ويُسَلِّم بالأقاويل الواهية.

٦- قال ابن عاشور: «سُلِكَ في التفصيل طريق التوزيع تمييزاً للأنواع المتقاربة، فإنَّ الضأن والمعز متقاربان - وكلاهما يُذبح - والإبلَ والبقرَ متقاربة، والإبلُ تُنْحَرُ، والبقر تُذبح وتُنحر أيضاً».

(التحرير والتنوير: ٧/ ٩٦).

٧- قال المحققون: «إذا ثبت أنَّ مَنْ افترى على الله الكذب في تحريم مباح، استحق هذا الوعيد الشديد. فمَن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد، كان وعيدُه أشدَّ وأشقَّ». (انظر: التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٦٧).

٨- طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي (الكتاب والسنة).

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ
عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

التفسير:

١٤٦- ذكر الله تعالى ما حَرَّمه على اليهود من ذوات الأظفار غير منفرج الأصابع، كالإبل والنعام والبط، وشحوم البقر والغنم إلا ما علق بظهورها وأمعائها أو اختلط بعظم. ذلك التحريم عقاب على تَشَدُّدِهم وعدوانهم، ثم يؤكِّد سبحانه صِدْقَه في أحكامه وأخباره.

١٤٧- فإن كَذَّبك - أيها النبيُّ - اليهودُ والمشركون فيما أُوحي إليك فقل لهم مُهَدِّداً: إنَّ خالقكم ذو رحمة واسعة؛ إذ لم يعاجلكم بالعقوبة، ولا أحد يقدر أن يَرُدَّ عذابه عن الذين ارتكبوا المعاصي.

١٤٨- يُنَبِّئ الله تعالى رسولَه ﷺ بما سيقوله المشركون من الشبهات، ويُجيب عن ذلك مُنْكِراً عليهم، مُقَرِّعاً لهم: سيقول المشركون: لو أراد الله ما كَفَرْنا ولا أشركنا نحن ولا آباؤنا، ولا حَرَّمْنا شيئاً. فاحتَجُّوا

بالقدَر، ولا حجَّة في هذا لأنَّهم مُكلَّفون بطاعة الله تعالى، فردَّ الله عليهم مُوبِّخاً لهم: مثلَ ذلك التكذيب الخطير الذي كَذَّبه هؤلاء المشركون، كذَّب الكفَّار السابقون لهم، واستمروا على ذلك حتى نزل بهم العذاب الموجع. قل لهم يا رسول الله: هل عندكم بُرهان على ما حَرَّمْتُم من الأنعام فتُظْهِروه لنا؟ ما تعتمدون في افترائكم إلا على الظنِّ المبنيِّ على الجهل، وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله ﷻ.

١٤٩- قل لهم: فلله العظيم سبحانه الحجَّة التي بلغت أعلى درجات الحقِّ في البيان والقوة، فلو شاء تعالى هدايتكم جميعاً إلى الحقِّ لَهداكم إليه.

١٥٠- قل لهم: أَحْضِروا إليَّ مَنْ يشهد لكم بأنَّ الله تعالى حَرَّم ما كَذَبْتُم به من تحريم الأنعام والنبات. فإن قَدَّموا شهوداً فلا تُصَدِّقهم، ولا تَتَّبِعْ آراء الذين جحدوا آياتنا المسموعة والمشاهدة، ولا الذين كذَّبوا بالآخرة وهم يُشركون بالله تعالى، ويُصِرُّون على شركهم.

١٥١- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعوَ المشركين إلى الحق، ويقرأ عليهم ما حرَّم الله تعالى: ألَّا تُشركوا في عبادة الله شيئاً من مخلوقاته، وأن تُحْسِنوا للوالدين بالأقوال والأفعال، ولا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر أو العار في وأد البنات، وأن تجتنبوا الكبائر في العَلَنِ والسِّر، ولا تقتلوا عمداً النفس التي حَرَّم الله قتلها إلا بحق كالقتل قصاصاً. ذلك الأمر العظيم من المُحرَّمات، أَمَرَكم به ربُّكم، وأكَّد تحريمه؛ لكي تفهموا أحكامه سبحانه، وتعملوا بها. عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة». (صحيح البخاري ١٢/ ٢٠٩، برقم ٦٨٧٨ - كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، وصحيح مسلم ٣/ ١٣٠٢ برقم ١٦٧٦ - كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم).

الفوائد والاستنباطات:

١- تشديد الله على اليهود بسبب بَغْيهم وعدوانهم.

٢- رحمةُ الله بأُمَّة الإسلام؛ إذ لم يُشَدِّد عليهم كما شَدَّد على اليهود، بل خَفَّف عنهم، ويَسَّر أَمْرَهم.

٣- جمعت تلك الوصايا الخالدة بين ترسيخ العقيدة الصحيحة، وتقرير الأحكام الشرعية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

٤- تَضَمَّنت الآياتُ الكريمةُ دعوةً إلى تَعَقُّلِ مقاصد الأحكام الشرعية، وتَبَصُّرِ حِكَمِها البالغة، ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحِرْصِها على صلاحِ النفسِ والمجتمعِ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

التفسير:

١٥٢ - واحذروا - أيها الأوصياء - التصرُّف بأموال اليتامى، إلا بما فيه المصلحة والتنمية لأموالهم؛ حتى يصلوا إلى سن البلوغ، وأتمُّوا الكيل والميزان بالعدل. لا نُكلِّف أحداً إلا بمقدار طاقته واحتماله في سائر الأوامر والنواهي، وإذا قلتم قولاً تحكمون به بين الناس، أو تُدلُون بشهادة أو بخبر أو بشفاعة، فاعدلوا، ولو كان المُتَّهم أو المشهودُ عليه من ذوي قرابتكم، وأَوْفُوا بكلِّ العهود التي أمر الله بها. ذلكم الأمر العظيم وَصَّاكم به وأكَّده؛ كي تتعظوا. قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: «هذا جامعٌ كلَّ المعاملات بين الناس بواسطة الكلام وهي الشهادة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصلح بين الناس، والأخبار المُخْبِرة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمؤجَّرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكلُّ ذلك داخل فيما يصدر عن القول». (التحرير والتنوير: ٧/ ١٢٤).

١٥٣ - ووَصَّاكم الله تعالى بشريعة الإسلام، فإنَّه دين الله الذي ارتضاه، فخُذُوا به غاية جهدكم، ولا تَتَّبِعُوا الطرق المخالفة للإسلام؛ لأنَّها تُضِلُّكم عنه، وتجعلكم متفرقين متشرذمين دائماً. ذلكم الدين العظيم الذي أمركم به؛ لكي تتقوا العذاب. عن حماد، عن عاصم، عن أبي وائل قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً، وخطَّه لنا عاصم - فقال: «هذا سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين الخط - وعن شماله فقال: «هذه السُّبُلُ، وهذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا هذه الآية:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ للخطِّ الأول، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ للخطوط، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾». (أخرجه النسائي في تفسيره ١/ ٤٨٥ برقم ١٩٤، وأخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٣٥، ٤٦٥) والدارمي في سننه (١/ ٦٧-٦٨، باب في كراهية أخذ الرأي)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ١/ ١٨١ برقم٧)، والحاكم في مستدركه ٢/ ٣١٨ من طرق عن حماد بن زيد به. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسن إسناده الألباني في ظلال الجنة ١/ ١٣).

١٥٤ - ثم قل - أيُّها الرسول - بعد ذلك: إنَّ الله سبحانه أخبر بنِعمة عظيمة على بني إسرائيل: آتينا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - موسى ﷺ التوراة تماماً؛ للكرامة والنعمة على مَنْ كان مُحسناً، وبياناً موضِّحاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين، وهداية ورحمة لهم في الدنيا والآخرة؛ كي يُصَدِّقوا بالبعث.

١٥٥ - وهذا القرآن العظيم أنزلناه بالوحي على رسول الله ﷺ، نفعه وخيره كثير في الدارين، فاتَّبعوا أحكامه ومواعظه، وخافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ كي تنالوا رحمته الدائمة.

١٥٦ -١٥٧ - أنزلناه لئلَّا تحتجُّوا وتقولوا: ما جاءنا كتاب، وإنما أُنزل على اليهود والنصارى من قَبْلِنا، وإننا كُنَّا عن قراءته لغافلين، أو تقولوا: لو أننا أُنزل علينا كتاب من السماء، كما أُنزل على اليهود والنصارى، لَكُنَّا أهدى منهم إلى الحقِّ. فقد جاءكم القرآن الكريم فيه بيان للأحكام، وهداية إلى الحكمة، ورحمة بالأُمَّة، فمَنْ أعظم ظُلماً ممَّنْ كذَّب بآيات الله المسموعة والمشاهدة، وأعرض عنها؟ سنُعاقب المُعرضين عنها عقاباً شديداً بسبب ذلك الإعراض.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذكر سبحانه أولاً: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثم ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا تعقَّلوا تذكَّرُوا، فاتَّقوا محارمَ الله.

٢ - في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأُوَلُ لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله، جاءت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والمحرمات الأُخَرُ شهوات، وقد يقع فيها من العقلاء مَنْ لم يَتَذَكَّر قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فِعْلَ الفضائل، وتلك درجة التقوى قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٤٠٠).

٣ - نزلت التوراة على موسى ﷺ تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء، أمَّا القرآن الكريم فهو الرسالة المتممةُ الخالدة، والمعجزة الباقيةُ.

٤ - عِلْمُ القرآن أجَلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وبه تَحْصُل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يُحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين. (انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٢٨٠).

٥- ينظر: مخطط الصراط المستقيم، وسبل الشيطان، كما في الملحق.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ
رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾
قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ
صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾
قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

التفسير:

١٥٨- ما ينتظر هؤلاء المكذِّبون إلا أن تأتيهم مقدمات العذاب بمجيء الملائكة لقَبْضِ أرواحهم، أو يأتي ربك بالعذاب، أو الفَصْل بين العباد يوم القيامة، أو يأتي بعض علامات القيامة. فحين يقع ذلك لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت دونَ العمل الصالح. يأمر الله تعالى رسوله أن يَتَوَعَّدَهم: قل انتظروا ما يحلُّ بكم، إنَّا منتظرون ما وَعَدَ به الله تعالى من النعيم المقيم.

١٥٩- يتوعَّد الله تعالى الذين يُحْدِثُون في الدين التفرق والتشرذم والفتن، وأَمَرَ نبيَّه ﷺ أن يتبرأ منهم ومن أفعالهم، ويؤكِّد سبحانه أنَّه سوف يتولَّى جزاءهم وعقابهم، ثم يخبرهم بما ارتكبوا من المعاصي.

قال ابن عاشور: «لَمَّا دَلَّت على التبرِّي منهم وعدم مخالطتهم، كان الكلام مثار سؤال سائل يقول: أَعَلى الرسول أن يتولَّى جَزاءَهم على سُوء عملهم؟ فلذلك جاء الاستئناف بقوله:﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾».

(التحرير والتنوير: ٧/ ١٤٣).

١٦٠- يُرَغِّب الله تعالى في العمل الصالح بأنَّ مَنْ جاء يوم القيامة بعملٍ خصلةٍ حسنة، جُوزِيَ بعشر حسنات أمثالها، فضلاً منه سبحانه، ومَنْ عمل سيئة عوقب بمثلها، وهم لا ينقصون من جزائهم شيئاً.

١٦١ - يأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يعلن ويقول: إنني أكرمني الله بالهداية إلى دين الإسلام، فعَلَّمني ديناً مستقيماً وسطاً، ملّة أبينا إبراهيم عليه السلام، تلك الملّة الحنيفية السمحة الثابتة على التوحيد. وما كان إبراهيم من الذين أشركوا مع الله تعالى غيره.

١٦٢-١٦٣- قل يا محمد: إنَّ صلاتي التي أعبد بها ربي وعبادتي، وما أُقَدِّمُه من خير في حياتي، وما يُقَدِّر الله عليَّ في مماتي، كله لله المعبود بحق، ربِّ المخلوقات، لا شريك له في العبادة. وبذلك التوحيد العظيم الكامل أمرني ربي سبحانه، وأنا أول مَنْ خضع لله تعالى من هذه الأُمة.

١٦٤ - ويؤكِّد الله تعالى للنبي ﷺ إخلاص هذه العبادة له، مُوَبِّخاً للمشركين، قل لهم: هل أطلب غير الله ربّاً؟ وهو خالق المخلوقات ومُدَبِّر أمورها، ولا يقع أي إنسان في معصية إلا كان الإثم عليه، ولا تتحمَّل نفسٌ بريئة ذَنْبِ نفس أُخرى، فلا يؤاخذ أحدٌ بجريمة غيره، ثم إلى خالقكم مصيركم بالحشر يوم القيامة، فيخبركم إخباراً مستوفى بالذي كنتم تختلفون فيه من أمور الدين.

١٦٥ - والله تعالى وحده - لِما له من عظمة وقدرة - هو الذي جعلكم خلفاء في عمارة الأرض، يخلف بعضكم بعضاً، ورفع بعضكم في العلم والرزق والقوة فوق بعض؛ ليختبركم فيما رزقكم. إنَّ خالقكم سريع العقاب لِـمَنْ عصاه، وإنَّه لغفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ الآية، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنّه جلَّ وعلا يأتي في ظُلَلٍ من الغمام، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠] الآية. ومثلَ هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه نؤمن بها، وتمرر كما جاءت».

٢- بالإخلاص تَتَحَوَّلُ العادات إلى عبادات، بل كلُّ قولٍ وفعلٍ، وكلُّ حركةٍ وسكونٍ، وكلُّ لحظةٍ في حياةِ المؤمن هي لله تعالى، فحياته كلُّها عبادةٌ.

٣- مهمة الإنسان عبادة الله ﷻ والقيام بحق الخلافة في الأرض بتعميرها وإصلاحها، وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها وَفْقَ منهجِ الله تعالى.

٤- من مقتضيات الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، واتباع منهج الله تعالى، فهو تعالى خالق هذا الكون.

٥- حكمة الله تعالى في التفاوت بين خَلْقِه، ورَفْعِ بعضِهم على بعضٍ درجات؛ وذلك لتبادل المنافع، واكتمال منظومة الحياة، وتحقيق التعاون بين الناس، وتبادُل الخدمات فيما بينهم.

٦- إذا كان الله تعالى قد بَيَّنَ في أول السورة مُلْكَه للسموات والأرض، فقد أعلن في ختامها أنه استخلف الإنسان على الأرض بما هيَّأ له من مَلَكَاتٍ وطاقاتٍ، تُعينُه على القيام بهذه المهمة الجليلة الشأن التي لن تَتِمَّ إلا بمنطلق إيماني ومنهجٍ رباني، وضمن ذلك تمضي موضوعات السورة الكريمة.

النزول: مكية.

فضل السورة: من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْرُه في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١ - تقرير أصول العقيدة الإسلامية: من توحيد الله ﷻ، وإثبات الرسالة، وتقرير البعث والجزاء.

٢- بيان أحوال الأُمم المكذبة ومصيرهم.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتثبيته ببيان صبر الأنبياء على أقوامهم ونجاتهم.

٤- بيان منهج الأنبياء في الدعوة والحوار.

٥- إبراز دلائل قدرة الله تعالى في خلق الكون وتدبيره.

٦- بيان عداوة الشيطان ومكايده، وحيله لإغواء الإنسانية.

٧- بيان تكريم الله تعالى للإنسان، ورعايته ولُطْفِه به.

٨- دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ بعد جلاء دلائل نبوته.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢)
ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا
فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ
(٥) فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ
(٧) وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٨) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ (٩) وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ
فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (١٠) ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن.

٢ - هذا القرآن العظيم كتابٌ أنزله الله تعالى إليك أيُّها الرسول، فلا يكن في صدرك ضيقٌ من تكذيب الكفَّار، فقد أُنزل عليك من أجْلِ دعوتهم وتحذيرهم من عذاب الله تعالى، وهو موعظة عظيمة للمصدقين بالله تعالى وبرسالتك.

٣- يأمر الله تعالى الناس جميعاً أن يَتَّبعوا ما أوحى الله ﷻ إلى النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنَّة النبوية المشرَّفة، وينهى عن اتِّباع ما دونَ ذلك، ثم يحثُّ على الاهتمام بهذه الأحكام، مع عِلْمِنا أنَّ الناس نادراً ما يتعظون بها.

٤ -٥ - يُحذِّر الله سبحانه عباده من المعاصي واعظاً لهم: وكثيرٌ من الأُمم الذين كذَّبوا رُسُلَهم عاقبناهم بالدَّمار، ففاجأناهم بالعذاب وهم نائمون ليلاً أو نهاراً، فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب إلا أن اعترفوا بظُلْمِهم تحسُّراً وتفجُّعاً، ولكنَّ هذا لا ينفعهم في شيء، فقد استحَقُّوا وعيد الله لهم.

٦- يؤكِّد الله تعالى بيانَه بقوله: فلنسألَنَّ - لِما لنا من العظمة والقدرة - الأمم التي أُرسل إليها المرسلون: هل بَلَّغكم الرُّسُلُ؟ وماذا أجبتم؟ ولنسألَنَّ الرُّسُلَ هل بَلَّغوا الرسالة؟ وماذا أجابتهم أُممهم؟

٧-٩- فلَنُخبِرَنَّ الإنس والجن بأعمالهم بعِلْمٍ منا،وما كُنَّا غائبين عمَّا عملوا في وقت من الأوقات، وتُوزن أعمالهم يوم القيامة بالعدل: فمَنْ رَجَحَتْ موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح، فأولئك أصحاب

المنزلة العالية وهم الفائزون، ومَنْ رَجَحَتْ سيئاته على حسناته فأولئك المُبْعَدُون عن الفوز، الذين خسروا أنفسهم؛ لدخولهم في نار جهنم؛ بسبب تكذيبهم لآيات الله تعالى المسموعة والمشاهدة.

١٠ - قسماً لقد مَهَّدْنا الأرض، وهَيَّأْناها لكم؛ لتتمكَّنوا من البناء عليها، وزراعتها والانتفاع بها، وجعلنا لكم فيها ما تعيشون، وتَحْيَوْن به من المطاعم والمشارب. ومع تلك النِّعَمِ فقليلٌ مَنْ يشكر الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تأكيد تمكينهم في الأرض باللام وقد، مع أنَّهم لم يُنْكِروا ذلك تنبيهاً لهم وتذكيراً، ولأنَّهم بكفرانهم وجحودهم بوحدانية الله في منزلة مَنْ يُنْكِرُ ربوبيته.

٢- التعبير بوصف الربوبية؛ لأن الخالق الرازق المدبِّر المربِّي صاحب العظمة والكمال هو الأحقُّ بالاتِّباع، المتفرِّد بالتحليل والتحريم، العليم بمصالح خلقه.

٣- مصيبة الظلم وشؤمه، فهو من أسباب الهلاك والتدمير.

٤ - لابُدَّ لِـمَنْ أَلِفَ الكذبَ أن يعيش لحظة صدق مع نفسِه، وإن جَرَتْ مع آخر الأنفاس.

٥- العقاب الإلهي عادلٌ، لا يقع إلا بعد استحقاقٍ، وإعذار وإنذارٍ.

٦- أهوال يوم القيامة ومشاهدها الرهيبة، ومواقف السؤال الذي لا يُستثنى منه أحدٌ.

٧- الإيمان بالميزان كما أخبر عنه القرآن، وجاءت السُّنَّةُ بمزيد بيانٍ.

٨- من أعظم النِّعَمِ تمكين الإنسان في الأرض، وتيسير سبل المعيشة فيها، وتسخير ما عليها لمنافعه.

٩- تكريم الله للإنسان وتفضُّله عليه.

١٠-تعظيم القرآن الكريم، وتعظيم مُنَزِّله جلَّ وعلا، وبيان أنَّه نزل تثبيتاً لقلب النبي ﷺ، وتسلية لقلبه، وشَرْحاً لصدره.

١١ - الإعراض عن منهج الله، واتباع مناهج أهل الكفر والضلال من قلة التعقُّل والتذكُّر.

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾
قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾
قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ
وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ
مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ
ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا
نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ
ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا
ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ
وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

١١ - يَذْكُرُ الله تعالى قصّة آدم مع إبليس وما فيها من المواعظ : قسماً لقد خَلَقْنا أصلكم آدم - بما لنا من العظمة التي تقتضي توقير مَن صَوَّرْناه - بأيدينا في أحسن صورة، فأَمَرْنا الملائكة كلَّهم بالسجود له إكراماً وتوقيراً، فاستجابوا لله تعالى، وسجدوا جميعاً، إلا إبليس الذي كان مصاحباً لهم، عصى ولم يسجد.

١٢-١٣- فأنكر الله تعالى عليه، ووَبَّخه بقوله: ما الذي منعك أن تسجد لآدم ﷺ حين أمرتُك؟ فأجاب إبليس مُتكبِّراً: أنا أفضلُ من آدم؛ إذ خَلَقْتَني من نار، وخَلَقْتَ آدم من طين ، فأَمَرَ الله تعالى بطرده من الجنة: اخرُجْ من الجنة، فلا ينبغي لك أن تستكبر عن طاعتي، وتسكن الجنة. وأكّد الأمر بالخروج منها عقوبةً له؛ ليكونَ من الأذلّين بسبب تَكَبُّره.

١٤-١٥- ثم طلب إبليس من ربِّه سبحانه أن يُمْهِلَه بالبقاء إلى يوم البعث، فأمهله الله تعالى إلى ذلك الوقت.

١٦-١٧- ثم تَوَعَّد إبليسُ آدمَ وذريَّته قائلاً: فبسبب ما أَضْلَلْتَني من أجل آدم لأرصُدَنَّه وذريتَه، ولَأَصُدَّنَّهم عن دين الإسلام، ثم لآتِيَنَّهم إتياناً من جميع وجوه الحق والباطل، ومن جميع الجهات الأربع لإغوائهم، فأصُدُّهم عن الحق، وأُزيِّن لهم الباطل، ولا تجد أكثرهم مطيعين شاكرين لفضلك.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ هذا الذي ذكر إبليس أنّه سيوقع بني آدم فيه، قاله ظناً منه أنَّهم سيطيعونه فيما يدعوهم إليه حتى يُهْلِكَهم، وقد بَيَّن تعالى في سورة (سبأ) أنَّ ظنَّه هذا صَدَقَ فيهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ:٢٠] الآية، كما تَقَدَّمت الإشارة إليه».

١٨- فرَدَّ الله تعالى مُقَرِّعاً له: اخرُج من الجنة مَعِيباً مطروداً. ثم أقسم سبحانه مؤكِّداً له ولِـمَنِ اتَّبعه من الإنس والجن إنَّه سيملأ جهنم منهم أجمعين. وأعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيداً للأمرين الأول والثاني قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ [الأعراف: ١٣]».

١٩- وأكرم الله تعالى آدم وزوجته حوَّاء بالسكن في الجنة، وأن يتمتعا بالأكل منها حسب رغبتهما، وأن يجتنبا الشجرة التي نُهِيا عنها حتى لا يقعا في المعصية، فيكونا من المخالِفين لأمر الله تعالى.

٢٠- فلمَّا رأى الشيطان ذلك التكريم لآدم وزوجه أخذ يوسوس لهما؛ ليأكلا من الشجرة، فيقعا في المعصية؛ لتكون عاقبتُهما إظهار ما ستر من عوراتهما، وقال لهما ماكراً بهما: ما نهاكما ربُّكما عن الأكل من ثمر هذه الشجرة إلا لأجل ألَّا تكونا مَلَكَين مُقَرَّبَين، أو تكونا من الماكثين في الحياة إلى الأبد.

٢١-٢٢- وأكَّد هذا المكر بالحَلْفِ بالله إنَّه لهما لمن الناصحين في مشورته الخبيثة التي خَدَعَتْ آدم وحوَّاء في الأكل من تلك الشجرة. فلمَّا أكلا من ثمر الشجرة ظهرت عوراتهما، فساءهما ذلك، فأخذا يلصقان بعض أوراق شجر الجنة لسَتْرِ العورة. وناداهما ربُّهما مُنْكِراً عليهما، ومعاتباً لهما: ألم أُحَذِّرْكما من الأكل من هذه الشجرة، وأَقُلْ لكما: إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ ظاهر العداوة؟

٢٣- فاعترفا بالمعصية، وتَضَرَّعا إلى الله بالدعاء: يا ربَّنا إنَّنا ظلمنا أنفسنا بهذه المعصية، وإن لم تغفر لنا ذنبنا وترحمنا لَنَكُونَنَّ من الهالكين.

٢٤-٢٥- فغفر الله تعالى ذلك لآدم وحوَّاء، وأَمَرَهما وإبليس قائلاً لهم: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، حال كون بعضكم عدوّاً لبعض، ولكم في الأرض مكان استقرار وعيش، وانتفاعٍ بخيراتها إلى وقت موتكم، فيها تعيشون وفيها تُقْبَرُون، ومن قبورها تخرجون للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «طوى القرآن هنا ذِكْرَ التوبة على آدم؛ لأنَّ المقصود من القصة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان، وتحذير الناس من اتِّباع وسوسته». (التحرير والتنوير: ٨/ ٥٣).

٢ - المرأة شريك للرجل في التكليف والمسؤولية والجزاء. وفي القصة مَنْقَبَةٌ لحواء، فقد تابت مع آدم.

٣ - الكِبْرُ والعُجْبُ بالنفس، والاعتداد بالرأي والحسد، من أسباب غَواية إبليس وشقائه، قاس إبليس فأخطأ، وقَدَّم رأيه على أمر الله له، وأصرَّ على ذنبه، وتمادى في غَيِّه.

٤ - من مداخل الشيطان لآدم وحواء إثارة غريزة حُبِّ التملُّك، وحُبِّ التميُّز، وحُبِّ البقاء، وطول الأمل، فليحذر الإنسان من ترك العَنان لهذه الغرائز دون ضبطٍ لها.

٥ - كان كشف العورات وإبداء السوءات هو أولَ أهداف الشيطان الخبيثة. وفي هذا تحذير من ذلك، ودعوة للحياء والستر، وأنَّ وساوس الشيطان لا تجلب لِـمَنْ يستجيب لها إلا الشرَّ.

٦ - التحذير من وسوسة الشيطان فقد جاءت في عدة أساليب لآدم وحواء، تارة بأسلوب الاستفهام وتارة بأسلوب التخيير والإبهام، وتارةً بالقسم وادِّعاء النصح، وأنَّها شجرة الخلد، أو التحول لمقام الملائكة. والظاهر أنَّها تكررت لإغراء الزوجين؛ ولذا جاء التعبير بالفعل (وسوس) الدالِّ في مادته على التكرار.

٧ - إيثار التعبير بـ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ لبيان أنَّ وسوسة إبليس واستجابتهم له هبطت بهما من الرتبة العالية.

٨ - حين وسوس الشيطان لهما، أشار للشجرة باسم الإشارة القريب؛ لتقريبها لأذهانهم وقلوبهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وحين عاتبهم ربُّهم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ تقليلاً لشأنها، فهي ليست - كما زعم إبليس - شجرة الخلد، ولأنَّهما حين أكلا منها ابتعدا عنها.

٩ - خطر المعاصي والذنوب، وعاقبتها الوخيمة، فلا ينبغي لعاقل أن يستهينَ بالذنوب صغيرِها، وكبيرِها.

١٠ - وجوب المبادرة إلى التوبة قبل فوات الأوان، وانصرام الزمان.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٢٨) قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ
وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ
ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (٣٠) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ
عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ
لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٣٢) قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن
تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا
يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٣٤) ﴾

التفسير:

٢٦- يُخاطب الله تعالى البشر جميعاً من أجل العناية بسَتْرِ العورات، والتقوى بالطاعات، والتحذير من نزغات الشيطان في حربه على الفضيلة والأحكام، فيؤكِّد اللهُ ﷻ أنّه قد أنزل اللباس الذي يستر العورة، واللباس الذي يُتزَيَّنُ به، وكلاهما مطلوب، ولكنَّ اللباس المعنوي للقلب هو الأعلى منزلةً - وهو التقوى الذي يُصْلِحُ القلب بالامتثال لطاعة الله تعالى - هو خير لباس للمؤمن، لأنّه سيصلح الجسد كلَّه ويحميه. ذلك الفضل العظيم من الكريم سبحانه من الدلائل على توحيده، وبيان رحمته، وتدبيره للبشر؛ كي يَذْكُروا عظمة الله تعالى.

٢٧- ثم يخاطبهم مرَّةً أخرى للتحذير من إغواء الشيطان، والاعتبار بصنيعه مع آدم وحوَّاء عليهما السلام حين أخرجهما من الجنة، وتَسَبَّبَ في نَزْع لباسِهما، وإظهار عورتهما، ولايزال يحرص حثيثاً على هَتْكِ الأستار.

ويُؤَكِّد الله تعالى هذا التحذير بأنَّ الشيطان يُبْصِرُكم هو وجنوده، وأنتم لا ترونهم، فاحفَظُوا عوراتكم منهم. إنَّا - لِما لنا من العظمة والحكمة - جعلنا الشياطين قرناء وأنصاراً للذين لا يُصَدِّقون بالله تعالى.

وشُبِّه الفتون الصادر من الشيطان للناس بفتنة آدم وزوجه؛ إذ أقدما على الأكل من الشجرة المنهيِّ عنه، وعلى نزع الستر من العورة المغلظة تذكيراً للبشر بأعظم فتنة شيطانية، لايزال مفعولُها يسري في تَعَرِّي كثيرٍ من الناس.

٢٨-٢٩- وإذا ارتكب هؤلاء الكفَّار خطيئة كبيرة اعتذروا عن فِعْلِ ذلك، بما ورثوه عن آبائهم وبكذبهم، وافترائهم أنَّ الله أمرهم بذلك! ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَرُدَّ عليهم ويُوَبِّخهم: قل لهم: إنَّ الله تعالى لا يأمر العباد بالمنكرات والكبائر، أتكذبون على الله تعالى بجهالاتكم؟ قل لهم أيضاً: إنَّ الله ربي أمرني بالعدل، فاتَّبعوني، وأمركم أن تتوجَّهوا بصلاتكم إلى الله تعالى عند كل مكان ووقت وحال يصلح السجود فيه، وتَضَرَّعوا إليه وحده مخلصين له الطاعة، وكما أنَّ الله تعالى أنشأكم أول مرة، يُعيدكم أحياءً تارة أخرى للحساب.

٣٠- ويعيدكم حين البعث طائفتين مفترقتين: طائفة نعمت بالهداية إلى الإسلام، وطائفة انتكست في الغواية فاستحقَّت الضلالة؛ لأنَّهم جعلوا شياطين الإنس والجن أعواناً من غير الله تعالى، فانخدعوا بهم وأطاعوهم، وظنُّوا أنَّهم على الطريق الصحيح لاتِّباع الحق.

٣١- سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: كانوا يطوفون بالبيت عُراة، فأمرهم الله أن يلبَسوا ثيابهم، ولا يَتَعَرَّوا. أهـ. (ينظر التفسير الصحيح ٣/ ٢٠). وقد جاء سبب النزول صريحاً في رواية الإمام مسلم بلفظ، فنزلت هذه الآية، ثم ذكر الآية نفسها. (الصحيح، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى (الآية)، ٤/ ٢٣٢٠، برقم ٣٠٢٨).

التفسير:

ينادي الله تعالى البشر نداءً لطيفاً بنسبتهم إلى أبيهم: يا ذريَّةَ آدم البَسُوا، وتَزَيَّنُوا بمظهرٍ حسنٍ لسَتْرِ العورة عند كل صلاة، وكُلوا واشربوا من الطيبات من غير تبذير. إنَّ الله لا يحب المُبَذِّرين.

٣٢- يَرُدُّ الله تعالى على مَنْ حَرَّم شيئاً من المآكل والمشارب أو الملابس من غير شرع الله تعالى، فيأمر النبي ﷺ أن يقول للمشركين مُنْكِراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم: مَنِ الذي حَرَّمَ عليكم اللِّباس الجميل والمظهر الحسن من الثياب والزينة التي جعلها الله تعالى لجميع العباد؟ ومَنِ الذي حَرَّمَ أطايب المآكل والمشارب المشروعة؟ قل لهم أيها الرسول: إنَّ هذه الزينةَ والطيبات من حقوق المؤمنين، ويشاركهم فيها الآخرون في الدنيا، وفي الآخرة تكون خاصَّة بالمؤمنين فقط. مثلَ ذلك التفصيل البديع نُفَصِّل الآيات الدالَّة على كمال الدين والأحكام لقوم يعلمون أنَّها الحق.

٣٣- قل لهم: إن الله عَيَّن المحرَّمات، ونَبَّه عليها، وهي: الكبائر الظاهرة والخفية، وما يوجب الوقوع في الإثم، والاعتداء على الناس، والشرك في عبادة الله تعالى جهلاً وسفاهة، والتقَوُّل على الله سبحانه بغير حُجَّةٍ، كتحريم ما أحلَّ الله سبحانه.

٣٤- ولكل قَرْنٍ وجيلٍ مُكَذِّبٍ بالله ﷻ وقتٌ محدد للعذاب، فإذا حان ذلك الوقت لحلوله لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يتمتعون بالحياة فيها متجاوزين وقت هلاكهم، ولا يتقدَّمون لبيان أن ما عَلِمَه الله وقَدَّره على وَفْقِ علمه لا يَقْدِر أحدٌ على تغييره وصَرفه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تكرار نداء بني آدم؛ لمزيد اعتناء وتنبيه، وتذكيرٍ بأبيهم آدم عليه السلام، والاعتبار بما وقع له.

٢- جاء التعبير بقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لأنَّ التقوى صيانةٌ وسترٌ وزينةٌ وتجمُّل، كما الثياب، وهي خيرٌ من كل مظاهر التجمُّل والتزيين؛ فإنَّ صيانة الباطن وجماله مقدمٌ على جمال الظاهر.

٣- قال ابن عاشور: «لَمَّا كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بوَرَقِ الجنة مِنَّةً عليه، وقد تَقَلَّدها بنوه، خُوطب الناس بشمول هذه المنَّة لهم بعنوان يدل على أنَّها مِنَّةٌ موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سَمَّى تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه إنزالاً، لقصد تشريف هذا المظهر». (التحرير والتنوير: ٨/ ٥٧).

٤- السَّتر والاحتشام نعمة من نِعَمِ الله تعالى، وبرهان على الإيمان والتقوى، ودليل على الطهر والعفاف، وعنوان للفضيلة والكرامة، بينما العُرْيُ والتبذُّل من إغواء الشياطين ومكايدهم، وهو مظهر من مظاهر الجاهلية والشرك، وفيه امتهان للمرأة.

٥- ذَمُّ التقليد المبنيِّ على الأهواء والتعصُّب للآباء، ووجوب النظر في أدلة الشرع، وإعمال العقل.

٦- النهي عن الإسراف، والتحذير منه؛ فهو باب للمفسدة، وإهدارٌ للنعم. قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «الإسراف في الأكل والشرب يؤدي إلى إنهاك الجهاز الهضمي وإرهاقه، ويؤدي إلى السمنة التي تسبب أمراضاً كثيرة كداء السكر، وارتفاع ضغط الدم، وزيادة الدهون، والتهاب المفاصل، وغيرها».

٧- الأصل في الأشياء الإباحة، فكل ما في الأرض مُسَخَّرٌ للإنسان، إلا ما حَرَّمه الشرع.

٨- حرمة التقَوُّلِ على الله تعالى ومخاطره، فهو قرين الفواحش والإثم والبغي.

٩- ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّي الفعل بـ (على) دون (عن)؛ لتضمينه معنى أتكذبون، أو تتقَوَّلون.

١٠-في الآية (٣٤) إخبار عن أمر مستقبلي أنَّ لكلِّ جماعة اجتمعت على الكفر بالله تعالى وتكذيب رسله - عليهم الصلاة والسَّلام - وقتاً لحلول العقوبة بهم، فإذا جاء الوقت الذي وَقَّته الله لإهلاكهم لا يتأخرون عنه لحظة، ولا يتقدَّمون عليه.

١١ - الصراع بين الحقِّ والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الخير والشر، صراع قديمٌ قِدَمَ الوجود البشري. وفي هذا رَدٌّ على الفلاسفة الماديين الذين يختزلون هذا الصراع.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾
فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ
أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ
ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ
فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ
وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ
وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٥- يُخاطب الله تعالى ذريَّة آدم ﷺ: إن أتاكم رُسُلٌ من جنسكم يُبلِّغونكم ما شَرَعْتُه من الأحكام والمواعظ، فأطيعوهم وصَدِّقُوهم. فمَنِ اتَّقى الله بِفِعْلِ الطاعات، وتَرْكِ المُحرَّمات، وعَمَل الحسنات، فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حُطام الدنيا.

٣٦- والذين جحدوا بآياتنا المسموعة والمشاهدة، وتَكَبَّروا عن الإيمان بها. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى مُلازِمُون نار جهنم، هم فيها ماكثون أبداً.

٣٧- يُنْكِرُ الله على الكفَّار افتراءهم، فيقول: مَنْ أشنعُ ظُلْماً ممَّنْ تَعَمَّدَ على الله تعالى الكذب، أو كَذَّبَ بآيات القرآن المنزلة، أو جَحَدَ رسالة النبي ﷺ؟ أولئك المُكذِّبون البعيدون عن رحمة الله تعالى ينالهم نصيب ممَّا قدِّر لهم في الدنيا من خير أو شر. حتى إذا جاءت الملائكة يقبضون أرواحهم قالوا لهم مُنْكِرِين عليهم: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ أجاب المكذِّبون: غابوا عنَّا. وأقرُّوا على أنفسهم بالكفر.

٣٨- يقول الله تعالى لهؤلاء المكذِّبين مُقرِّعاً ومُعاقِباً لهم: ادخُلوا النار في جملة الأُمم السابقة الكافرة من الإنس والجن. كلَّما دخلت النارَ أُمَّةٌ لَعَنَتْ التي قَبْلَها؛ لضلالها بها، ويستمرون على ذلك. حتى إذا لحق

بعضهم بعضاً، وحُشِروا جميعاً في النار، قال الأتباع لقادتهم: يا ربَّنا هؤلاء القادة هم الذين أضَلُّونا عن الهداية، فآتِهم عذاباً مضاعفاً من النار. فرَدَّ الله تعالى عليهم مُوبِّخاً: لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف، ولكنكم تجهلون أهوال العذاب. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ لم يُبيِّن هنا السبب الذي مَكَّنهم من إضلالهم، ولكنه بَيَّن في موضع آخر: أنَّ السبب الذي مَكَّنَهم من ذلك هو كونُهم سادتَهم وكبراءهم، ومعلوم أنَّ الأتباع يُطيعون السادة الكبراء فيما يأمرونهم به».

٣٩- قال السابقون في الكفر من القادة لأتباعهم: ليس لكم فضلٌ علينا يقتضي تخفيف العذاب عنكم، فذوقوا العذاب بسبب ما ارتكبتم من المعاصي.

٤٠- إنَّ الذين جحدوا آياتنا المسموعة والمشاهدة الدالَّة على الإيمان، وتَكَبَّروا عنها، فلم يعملوا بها، لا تَصْعَدُ أعمالهم الصالحة ولا أرواحهم إلى السماء، فالأبواب تجاهها مُغلقة، لا يدخلون الجنة حتى يدخل الجَمَلُ في ثَقب الإبرة الصغيرة، وهذا أمر مستحيل. وبمثل هذا الجزاء نجزي أرباب الكفر والطغيان.

٤١- جزاؤهم في جهنم: من تحتهم فُرُشٌ من نار، ومن فوقهم أَغْطِيَةٌ من نار. ومثلَ ذلك الجزاء نُجازي المُعتدين المُتجاوِزين أحكام الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- مهمة الرسل البيانُ والإنذار، ومقصودهم غرس التقوى وبذر الإصلاح، وثمرة ذلك الأمن والسعادة في الدارين.

٢- عن البراء ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرَ قَبْضَ روح الفاجر، وأنَّه يُصْعَد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فلا يُفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾. (أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧-٢٨٨). وأصل الحديث عند النسائي في (المجتبى ٤/ ٧٨)، وابن ماجه في (سننه برقم١٥٤٩)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٣٧-٤٠). وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال البيهقي: هذا حديث صحيح الإسناد (شعب الإيمان ٢/ ٣١٦)، وصححه أيضاً القرطبي وابن القيم والألباني وغيرهم، وحسَّنه ابن تيمية (انظر رسالة صحة حديث البراء بن عازب... للدكتور عاصم القريوتي).

٣- سَجَّلَت الآيات ما يقع بين الكفار والظَّلَمَة من تلاعُنٍ، وتَنَصُّلٍ، وتوبيخٍ.

٤- تُفتح أبواب السماء للمؤمنين كرامةً لهم، واحتفاء بهم.

٥- إحاطة النار بالكفار من كل جانب، فهي فراشهم وغطاؤهم.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا
قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم
بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾
وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٢- والذين صَدَّقوا بالله تعالى، وأقَرُّوا له بالوحدانية، وعملوا الأعمال الصالحة تصديقاً لإيمانهم - لا نَشُقُّ على نفس بعبادةٍ إلا على قَدْرِ طاقتها - أولئك أصحاب المنزلة العالية أهل الجنة، هم فيها ماكثون أبداً.

٤٣- وأخرجنا الغِلَّ الذي في قلوبهم، تجري الأنهار في الجنة من تحت القصور والأشجار، وشكروا الله تعالى بقولهم: الثناء كلُّه لله تعالى الذي هدانا إلى الإسلام، وَرَفَعَنا إلى هذا المقام. ولولا هدايةُ الله تعالى وتوفيقُه لَمَا وَصَلْنا إلى هذه المنزلة. لقد صَدَّقْنا الرسلَ فيما أخبرونا من الوعد الحق. ونادتهم الملائكة تُبَشِّرهم، وتُهَنِّئهم: أنْ تلكم الجنة العالية التي مَلَكْتموها بأعمالكم الصالحة.

عن علي بن أبي طالب ﷺ: قوله: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر:٧٣]، حتى إذا انتهوا إلى بابها، إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عينان، فعمدوا إلى إحداهما، فشربوا منها كأنما أُمِرُوا بها، فخرج ما في بطونهم من قذر أو أذى أو قذى، ثم عمدوا إلى الأخرى، فتوضَّؤوا منها كأنما أُمِرُوا به، فجَرَتْ عليهم نضرة النعيم، فلن تشعث رؤوسهم بعدها أبداً، ولن تَبْلَى ثيابهم بعدها، ثم دخلوا الجنة، فتلَقَّتْهم

الوِلْدان كأنَّهم اللؤلؤ المكنون، فيقولون: أَبْشِرْ، أَعَدَّ الله لك كذا، وأعدَّ لك كذا وكذا، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر، يتلألأ كأنَّه البرق، فلولا أنَّ الله قضى ألَّا يذهبَ بصره لذهب، ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه، فيقول: أَبْشِري قد قدم فلان بن فلان، فيُسَمِّيه باسمه واسم أبيه، فتقول: أنت رأيته، أنت رأيته! فيستخِفُّها الفرحُ حتى تقوم، فتجلس على أُسْكُفَّة بابها، فيدخل فيتكئ على سريره، ويقرأ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] الآية.

(أخرجه ابن المبارك في (الزهد ص ٥٠٨-٥٠٩ برقم ١٤٥٠) وعبد الرزاق في (التفسير- سورة الزمر) والضياء المقدسي (المختارة ٢/ ١٦٠ برقم١٥٤١). وقال محقق المختارة: إسناده صحيح. وأورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية المسندة (ل ١٩٨ أ-ب، رواية إسحاق في مسنده ، ثم قال: هذا حديث صحيح وحكمه حكم الرفع إذ لا مجال للرأي في هذه الأمور).

عن أبي سعيد الخُدْري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يُنادي منادٍ: إنَّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشُبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأسوا أبداً» فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٢، برقم ٢٨٣٧ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة...).

٤٤-٤٥- ونادى أهلُ الجنة أهلَ النار بعد أن استقرَّ كلٌّ من الفريقين في منزله: إنَّا قد وَجَدْنا الذي وَعَدَنا اللهُ تعالى على ألسنة رسله من النعيم المقيم حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم من العقاب؟ فأجاب أهل النار: نعم وَجَدْنا ذلك حقّاً. فنادى منادٍ بين الفريقين: أَنْ لعنةُ الله تعالى حَقَّتْ على الكافرين، الذين يمنعون الناس عن اتِّباع سبيل الله تعالى، والدخول في الإسلام، ويريدون أن تكون السبيل مضطربة بإثارة الشبهات والشكوك حتى لا يتبعها أحد، وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مُكَذِّبون.

٤٦-٤٧- وبين أهل الجنة وأهل النار سور عظيم يقال له: الأعراف. وعلى هذا السور رجال، يعرفون أهل الجنة وأهل النار بعلاماتٍ خاصَّةٍ بكل فريق منهما. ونادى أهلُ الأعراف أهلَ الجنة يُحَيُّونهم: سلام عليكم. وهم لم يدخلوا الجنة بعدُ، ولكنَّهم يطمعون في دخولها. وإذا حُوِّلَتْ أبصارُهم تجاه أهل النار قالوا مُتَضَرِّعين: يا ربَّنا لا تَجْعَلْنا مع القوم المعتدين. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أصحاب الأعراف حيث قال الله تعالى، والأعراف: السُّور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، وهو الحجاب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. (الزهد برقم ٢٠٠، أخرجه الطبري من طريق منصور به، وذكره ابن كثير ثم قال: وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة عن جريج به. ثم قال: وقد رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد عن عبد الله بن الحارث من قوله، وهذا أصح، وهكذا روى مجاهد والضحاك غير واحد).

٤٨- ونادى أهل الأعراف رجالاً من أهل النار، يعرفونهم بعلامة مميَّزة لهم، فقالوا مُوَبِّخين لهم: أيُّ شيء نَفَعَكم من جَمْعِكم الأجنادَ والأموالَ، واستكبارِكم عن الإيمان؟

٤٩- وأنكر الله تعالى أيضاً على أهل النار مُوَبِّخاً لهم: أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا، وتحلفون إنَّ الله لا يُدخلهم الجنة؟ ادخلوا الجنة يا أهلَ الأعراف، لا خوفٌ عليكم من العذاب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من حطام الدنيا.

٥٠- يُخبرنا الله تعالى عن الحوار بين أهل الجنة وأهل النار، بعد أن استقر كلُّ فريقٍ في منزله، إذ ينادي أهلُ النار أهلَ الجنة قائلين: أغِيثُونا بشيء من الماء، أو ممَّا رزقكم الله من الشراب والطعام. فأجاب أهل الجنة: إنَّ الله تعالى حَرَّمَهما على الكافرين.

٥١- ومن صفتهم أنَّهم سَخِرُوا من دين الله، وجعلوه هُزْءاً ولَعِباً، وخَدَعَتْهم الحياة الدنيا، وما فيها من الشهوات. ففي هذا اليوم يومِ القيامة نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، وكَذَّبوا بآيات الله الواضحة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجنة مع جَلالة قَدْرِها وعظيم نعيمها، طريقها سهلٌ يسيرٌ على مَنْ يَسَّره الله تعالى.

٢- سُنَّة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، فبعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين والعصاة، أتبعه بوعد المؤمنين الطائعين.

٣- رحمة الله بالعباد، فلا يُكَلِّفهم إلا بما يطيقون.

٤- بيان ما عليه أهل الجنة من مودَّةٍ، وأنهارٍ، وروضاتٍ، ونعيمٍ.

٥- الجنة خاليةٌ من المنغِّصات والمكدِّرات والهموم، زاخرةٌ بالنعيم.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ
يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ
نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟
رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا
وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا
بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى
خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٢- وقسماً لقد جئنا الكفَّارَ بقرآنٍ عظيمٍ بَيَّناه على عِلْمٍ عظيم، هادياً إلى الرشد، ورحمة لقوم يصدِّقون بالله، ويُقِرُّون له بالوحدانية.

٥٣- ما ينتظر هؤلاء الكفَّار إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب، يومَ يتحقق الحساب من ثواب وعقاب. يقول الذين تركوا القرآن والعملَ به في الدنيا: قد جاءَتْنا الرسل بالأخبار الصادقة، وتَحَقَّقَ لنا صِدْقُهم، فلم نُصَدِّقْهم، فهل لنا اليوم من شفيعٍ يُخَلِّصنا من هذا العذاب؟ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعملَ صالحاً؟ قد خسروا أنفسهم حين اقتصروا على شهوات الدنيا، وتركوا نعيم الآخرة، وبَطَلَ عنهم ما كانوا يزعمونه من الأوثان.

٥٤- إنَّ خالِقَكم ومعبودَكم - أيها الناس - هو الله وحده الذي أنشأ السموات السبع والأرَضين السبع في ستة أيام، ثم ارتفع سبحانه على العرش العظيم الذي يسع السموات والأرض وما بينهما - كما يليق بجلاله وعظمته - يُغَطِّي الليل على النهار، فيُذْهِبُ بضوئه، ويطلبه سريعاً، وكذلك النهار، فكلما جاء الليل ذهب النهار، وكلَّما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا إلى يوم القيامة. وخلق سبحانه الشمس والقمر والنجوم بكثرتها وعظمتها، كلُّهنَّ مُسَيَّرات بأمره سبحانه. ألا له سبحانه مُلْكُ المخلوقات كلِّها، وله الأمر كلُّه، تُعَظَّم المعبود بحق، خالق الخلق أجمعين.

٥٥-٥٦- ادْعُوا - أيها المؤمنون - خالقَكم مُتَذَلِّلين بإلحاح سِرًّا؛ فإنَّه سبحانه يحبُّكم، ولا يحب المُتجاوزين حدودَه في الدعاء وغيره، ولا تُفسِدُوا في الأرض بالشرك والمعاصي، بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وادعوه سبحانه خوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه. إنَّ رحمة الله الواسعة قريبة من المُطيعين الذين يُكثرون من الإحسان.

٥٧- يُخبر الله تعالى عن فضله في إحياء الأرض الميتة؛ للاستدلال بها على البعث، فهو الذي يُرسل الرياح المُبشِّرة بالمطر، حتى إذا حملت الرياح سحاباً مُثقلاً بالماء، سُقناه إلى أرضٍ مُجْدِبَةٍ لا نباتَ فيها، فأنزلنا - لِما لنا من العظمة الشاملة والقدرة الكاملة - بهذا السحابِ المطرَ، فأنبتنا به من كلِّ أنواع الثمرات. ومثلَ إخراج الثمرات من الأرض المجدبة نُخرِجُ الموتى أحياء من القبور يوم البعث؛ لكي تَتَذَكَّرُوا قدرة الله تعالى، وتؤمنوا بالبعث.

٥٨- والبلد الطيب التربة يَخْرُجُ نباته حسناً نافعاً بمشيئة الله تعالى، والبلد الخبيث التربة لا يخرج نباته إلا رديئاً وبمشقة، كذلك المؤمن طيِّب، وعمله طيِّب، كالأرض الطيِّبة ثمرُها طيِّب، والكافر خبيث، وعملُه خبيث، كالأرض الخبيثة لا يُنتفع من ثمرها. مثلَ ذلك البيان العظيم نُبيِّنُ الآيات الدالَّة على عظمة قدرة الله تعالى، لقوم يشكرون الله بالقول والعمل.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكون كلُّه لله يُصَرِّفه ويدبره بنظام محكم دقيق، ونواميس ثابتة مُطَّردة، وهذا يدعو إلى العمل بشرعه، والامتثال لأمره الذي ينظم شؤون الحياة ويسيرها.

٢- الاستواء على العرش صفةٌ من صفات العظمة والجلال والكمال، وهو معلوم بلا تكييف، ولا تعطيل ولا تشبيه، قال نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الخُزَاعِيُّ شَيْخُ البُخارِيِّ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الآثَارُ الصَّرِيحَةُ وَالأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الوَجْهِ الذِي يَلِيقُ بِجَلالِه، ونَفَى عَن الله النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبيلَ الهُدَى. (تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩).

٣- قال ابن عاشور: «البَعدية في قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بَعديةٌ حقيقيةٌ؛ لأنَّ الأرضَ خُلِقَتْ من أوَّل أمرها على صلاح قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت:١٠] على نظام صالح بما تحتوي عليه.. والتصريح بالبَعْدِيَّة هنا تسجيل لفظاعة الإفساد بأنَّه إفساد لما هو حسن ونافع، معذرة لفاعله، ولا مساغَ لِفِعْلِه عند أهل الأرض». (التحرير والتنوير: ٨/ ١٣٤).

٤ - قال الطِّيبي: ذكر ﴿لِقَوۡمٍ يَشۡكُرُونَ﴾ بعد ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ من باب الترقِّي لأنَّ مَنْ تَذَكَّر آلاء الله تعالى عَرَفَ حق النعمة، فشكر. وهذا - كما قال غير واحد - مثل لِـمَنْ ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلَّفين، ولِـمَنْ لا يؤثر فيه شيء من ذلك. (يُنظر: روح المعاني للألوسي ٨/ ١٤٨).

٥- تَحَرِّي الأدب في الدعاء، والنهي عن الاعتداء بشتى صوره.

٦- ما وقع على الأرض من فسادٍ أمرٌ طارئ عليها، شاذٌّ عن طبيعتها، ولقد نهى الله البشرية عن الإفساد فيها.

٧- تقوية الرجاء بالله تعالى، واليقين في رحمته وعطائه، مع الجمع بين الخوف والرجاء.

٨- الاستشهاد على الغائب بالحاضر الملموس، وعلى الأمور العقلية بالأمور الحسية.

٩- التربة الطيبة والجوُّ الطيب لا يُنْبِتُ ولا يُثمر إلا طيباً، كما أنَّ الخبيث لا يأتي بخير، وهذه دعوةٌ لإصلاح البيئة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ
وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ
﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى
سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾
أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ
بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

التفسير:

٥٩- حقّاً لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فناداهم باستعطاف: يا قومِ اعبدوا الله وحده دون سواه، لا معبودَ لكم غيره سبحانه. إني أخاف عليكم بسبب الشِّرك عذاباً أليماً، في يوم شديد الهول في الدنيا أو الآخرة.

٦٠- أجاب الجهلة من أشراف القوم مستكبرين: إنّا نعتقد - يا نوح - أنّك على خطأ ظاهر، وانحراف عن الحق.

٦١-٦٣- أجابهم مُتَلَطِّفاً لهم: يا قومِ ليس بي ما تَظُنّون، ولكني رسول إليكم بما أَمَرْتُكم من خالق العالمين، أُبَلِّغُكم ما أرسلني به ربي من الدعوة إلى الله تعالى، وأرشدكم إلى سعادة الدارين، وأعلم ممّا عَلَّمني الله تعالى ما لا تعلمونه، كيف تكذبون، وتعجبون إن أتاكم وَحْيٌ من ربكم على لسان رجلٍ منكم؛ ليُخَوِّفكم من عذاب الله تعالى، ولتتقوا ربَّكم بطاعته، ولكي تَحظَوا برحمته من النعيم المُقيم؟

٦٤- فتمادى أكثر القوم بتكذيبه، فاستحقوا العذاب، فأنجاه الله تعالى هو ومَنْ آمن معه من الطوفان، وأغرق سبحانه المُكذِّبين بما جاءهم نوح من الآيات طوال مدة إقامتِه معهم. إنَّهم كانوا قوماً عُمْيَ البصائر والقلوب عن الهدى.

٦٥- وأرسَلْنا إلى قومِ عادٍ أخاهم هوداً ﷺ في مدينة الأحقاف بحضرموت، فناداهم مُتَوَدِّداً إليهم بقرابة النسب: يا قومِ اعبدوا الله وحده، فليس لكم مِنْ إلهٍ يستحق العبادة غيره سبحانه، أفلا تخافون عذاب الله؟

٦٦- أجاب أشراف القوم المُكَذِّبين مستكبرين: إنَّا لَنعتقدُ يا هود أنَّ فيك حُمْقاً وسخافة عقل، وأنَّك من الكاذبين في ادِّعاء الرسالة!

٦٧- فرَدَّهم بأدبٍ ورِفْقٍ: يا قومِ ليس بي ما تَظُنُّون، ولكني رسول الله إليكم بما أَمَرْتُكم به من خالق الإنس والجن.

٦٨-٦٩- أُبَلِّغُكم ما أرسلني به ربي من الدعوة إليه، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمينٌ على ذلك لا أكذب فيه. هل كَذَّبْتُم وتَعَجَّبتم أن أتاكم موعظة من ربِّكم على لسان رجل منكم؛ ليُخَوِّفكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة؟ وتَذَكَّروا نعمة الله عليكم حين استخلفكم الله في الأرض بعد إهلاك المُكذِّبين من قوم نوح ﷺ، وزادكم على مَنْ قبلكم قوةً وضخامة في أجسامكم، فاذكروا نِعَمَ الله عليكم كي تفوزوا برضوان الله تعالى.

٧٠- فرَدُّوا عليه بتحَدٍّ وتكبُّرٍ، قالوا: يا هود أجئتنا كي نعبد الله وحده، ونترك الأوثان التي وَرِثْنا عبادتها عن آبائنا وأجدادنا؟ فآتِنا عاجلاً بالذي تُخَوِّفنا به، إن كنت من الصادقين في قولك.

٧١- فأنكر هود ﷺ استكبارهم وضلالهم مُرَهِّباً وزاجراً لهم: قد حان أن يقع عليكم من ربكم عذاب شديد، وسخط مُخيف، أتُحاجُونني في أوثان سَمَّيتموها آلهة أنتم وآباؤكم وأجدادكم؟ ما نَزَّل الله تعالى بعبادتها من حُجَّة، فانتظروا نزول العقاب، إني معكم من المُنتظرين لما يحلُّ بكم.

٧٢- فأنجينا هوداً ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين برحمة عظيمة منَّا، ودَمَّرْنا، واستأصَلْنا الكفَّار المُكذِّبين بالبراهين التي جاء بها هود ﷺ، وأصَرُّوا على كُفْرِهم، وكان عقابُهم وهلاكهم بريح باردة شديدة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في القصص القرآني تثبيت للنبي ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين.

٢- الصراع بين الحق والباطل، بين جَحافل الكفر وجموع الإيمان، سنةٌ من سنن الله تعالى في الماضين.

٣- جواب نوح عليه السلام على قومه ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ لأنَّ الضلالة أخصُّ من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كما لو قيل: ألك تمر؟ فقلت: ما لي تمرة، فقد بالغ في النفي، كما بالغوا في الإثبات. (انظر: السراج المنير ١/ ٣٨٣).

٤- قال ابن عاشور: «اقتران جملة جواب القسم بـ﴿قَدْ﴾ لأنَّ القسم يُهيِّئ نفس السامع؛ لتَوَقُّعِ خبر مُهِمٍّ، فيُؤتى بـ ﴿قَدْ﴾، لأنَّها تدلُّ على تحقيق أمر متوقَّع». (التحرير والتنوير: ٨/ ١٤٤).

٥- وقال أيضاً: «قدَّم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، مع أنَّ مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين؛ للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلاً لمسرة السامعين من المؤمنين».
(التحرير والتنوير: ٨/ ١٥٢).

٦- سَعْيُ الملأ وهم الأعيان أصحاب الجاه والسلطان والكلمة، إلى الحيلولة بين دعوة الله التي يرونها تقف في وجه أطماعهم وأهوائهم وبين عوامِّ الناس حتى لا تَصِلَهم. فإذا أخفقوا في حَجْبِها قاموا باضطهادهم، وملاحقتهم.

٧- قال الزمخشري: «وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مَنْ نَسَبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحِلْمِ والإغضاء، وتَرْكِ المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنَّ خُصومَهم أضَلُّ الناس وأسفَهُهم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يَغُضُّون عنهم، ويَسْبِلُون أذيالَهم على ما يكون منهم؟». (الكشاف ٢/ ١١٠).

٨- التعبير بالفعل المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ يَدُلُّ على تَجَدُّد البلاغ واستمراره مادام فيهم، والاسمية في ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾؛ لبيان كونه مقيماً على نُصْحِه أميناً لهم، وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ لبيان اعتنائه بهم.

٩- في الآية (٧٢) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ
مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٣- وأرسل الله تعالى إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً عليه السلام - وكانت تسكن الحِجْر شمال المدينة المنورة- فقال لهم مُتَلَطِّفاً: يا قومِ اعبدوا الله وحده، فليس لكم من إلهٍ يستحق العبادة غيره سبحانه، قد جاءتكم معجزة جلية من ربكم. هذه ناقة الله تعالى لكم جعلها آية وموعظة لِـمَنْ شاهدها وسمع بها، اتركوها ترعى في أرض الله تعالى، ولا تَتَعَرَّضوا لها بشيء من الأذى، فيأخذكم عقاب موجع.

٧٤- وتَذَكَّروا فَضْلَ الله تعالى عليكم حين جعلكم خلفاء في الأرض، تتمتعون بخيراتها من بعد قبيلة عاد، وجعل لكم فيها مساكن - في أرض حَجَرِيَّة - تَبْنُون في سهولها قصوراً فخمة، وتنحتون من الجبال بيوتاً صالحة للسكن، فتَذَكَّرُوا نِعَمَ الله تعالى، ولا تَسْعَوا للإفساد في البلاد والعباد.

٧٥- فقال المُتكبِّرون من أشراف قوم صالح للمؤمنين المُستضعفين، مُنْكِرِين عليهم، ساخرين بهم: هل تعلمون أنَّ صالحاً قد أرسله الله إلينا حقّاً؟ قال المؤمنون بيقين وعِزَّة: إنَّا مُصَدِّقون يقيناً برسالة صالح عليه السلام.

٧٦- فرَدَّ الجهلة من المُستكبرين: إنَّا بالذي آمنتم به مُكَذِّبون.

٧٧- وتجرَّؤوا، فنحروا الناقة، واستكبروا عن اتباع أمر ربهم، وقالوا باستعلاء: يا صالح ائتنا بها تُخَوِّفُنا به من العقاب، إن كنت حقّاً من المرسلين.

٧٨- فجاءتهم الصيحة بعد ثلاثة أيام، وقد أحدثَتْ زلزلة شديدة، فأخَذَتْهم، فصاروا في مساكنهم جثثاً هامدة.

٧٩- فأعرض عنهم صالح عليه السلام بعد هلاكهم، ومشاهدةِ ما جرى عليهم، وقال لهم على سبيل التفجُّع عليهم، والموعظة لغيرهم: واللهِ لقد أبلغتُكم ما أمرني ربي به، وَبَذَلْتُ لكم نصحي، لكن شأنكم هو الاستمرار على كُرْهِ الناصحين لكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «أكَّدَتْ جملة ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾، وزادت على التأكيد إفادةُ ما اقتضاه قوله: ﴿لَكُم﴾ من التخصيص وتثبيت أنَّها آية، وذلك معنى اللام، أي: هي آية مُقْنِعَةٌ لكم، ومجعولة لأجلكم». (التحرير والتنوير: ٨/ ١٦٨).

٢- معجزات الأنبياء من جنس ما برع فيه أقوامهم، فقوم صالح أتقنوا نَحْتَ الصخور، وبَزُّوا فيه غيرهم، فكانت الآية ناقة عظيمة تَنْشَقُّ عنها الصخر، لكنها تنبض بالحياة.

٣- من سمات منهج الأنبياء مع أقوامهم الرفق والتدرج والبلاغة الوافية.

٤- قال أبو السعود في الآية (٧٥): «عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: نعم، أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعةً إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي يُنبئ عنه الجملة الاسمية، وتنبيهاً على أنَّ أَمْرَ إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنَّما الحقيقُ بالسؤال عنه هو الإيمان به». (تفسير أبي السعود ٣/ ٢٤٣).

٥- التَّجانُسُ بين الجريمة والعقاب: فثمودُ لَمَّا استكبروا وعَتَوا أذلَّهم الله بصيحةٍ واحدة، فخَرُّوا صرعى هلكى أذِلَّاءَ صاغرين، فإذا بتلك الأجسام العملاقة تصير جثثاً هامدة.

٦- حرص الأنبياء على أقوامهم، وإشفاقهم عليهم، وتَرَفُّقِهم، مع ما يظهره القوم من فظاظة وقسوة.

٧- وحدة مناهج الأنبياء وأساليبهم في الدعوة إلى الله تعالى.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا
عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ
ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير:

٨٠- يُذَكِّر الله تعالى بقصة لوط - وهو ابن أخي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام - حين قال لقومه مُوبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم فاحشتَهم: أتفعلون الجريمة الشنيعة المتناهية في القُبْحِ والفحش؟ وهي إتيان الذُّكور في الأدبار، ثم وَبَّخهم بأنَّهم أوَّلُ مَنِ ارتكب هذه الجريمة من الإنس والجن.

٨١- ثمَّ بَيَّن بشاعة هذه الجريمة قائلاً لهم: إنَّكم تَغْشَون الرجال في أدبارهم من أجل نَزْوَةٍ شيطانية، وتتركون ما أحَلَّه الله لكم من النساء، بل أنتم مُتمادُون في مجاوزة حدود الله تعالى.

٨٢- لكنهم أصَرُّوا على جريمتهم الشنيعة، ورَدُّوا على نبيِّهم لوط ﷺ بتهكم واستهزاء، إذ قالوا: أَخرِجوا لوطاً وأتباعه من المؤمنين من بَلَدِكم، إنَّهم أناس يَتَرَفَّعُون عمَّا نفعله!

٨٣-٨٤- وعندما قَرَّرنا عقابهم بسوء الجزاء أنجينا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - لوطاً وأهله من العقاب إلا امرأته كانت من الباقين مع قومها في مكان العذاب؛ لأنَّها كانت كافرة، وأمطرنا عليهم مطراً عظيماً، حجارة من طين. فانظر كيف كان مصير المجرمين؟

٨٥- وأرسَلْنا إلى قبيلة مدينَ أخاهم شُعيباً ﷺ فقال لهم مُستعطِفاً: يا قومِ اعبدوا الله وحده، ليس لكم من إلهٍ يستحق العبادة غيره سبحانه، قد جاءتكم حُجَّةٌ واضحة مِنْ خالقِكم تَدُلُّ على صدق ما

أدعوكم إليه، فأَتِمُّوا حَقَّ الكيل والميزان، ولا تُنقِصُوا الناس حقوقهم، ولا تُفسِدُوا في الأرض بالمعاصي بعد إصلاح أهلها بدعوة الرسل. ذلكم الأمر العظيم الذي أدعوكم إليه خير لكم في الدارين، إن كنتم مُصَدِّقين بوحدانية الله وبرسالتي.

٨٦- ولا تجلسوا بكل طريقٍ تُخَوِّفون مَنْ آمن بالقتل، وتمنعون المؤمنين من الإيمان بالله، وتُكَذِّبون نبيَّ الله شعيباً ، وتُثيرون الشُبهاتِ والشكوكَ؛ لتنفير الناس من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، واذكروا فَضْلَ الله تعالى عليكم حين كنتم قليلي العدد، فكثَّر جَمْعَكم بالنَّسْل، واتَّعِظوا بعقاب الأُمم السابقة التي كَذَّبت المرسلين.

٨٧- وإن كان فريقٌ منكم صَدَّقوني فيما جِئتهم به، وفريق لم يُصَدِّقوني، فاصبروا حتى يفصل الله تعالى بيننا، وهو خير مَنْ يفصل، وأعدل مَنْ يحكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قصة لوط وشعيب عليهم السلام بيان للرباط الوثيق بين الإيمان والقيم، بين العقيدة والسلوك، بين الدين والحياة؛ فرسالة الله جاءت لإصلاح البشر وتنظيم شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية.

٢- التعبير بالفاحشة لقُبْحِها واستهجانِها، وكونها من أفحش الكبائر وأشنع الذنوب؛ إذ هي خروجٌ عن الفطرةِ ومجافاةٌ للطبيعةِ، وشذوذٌ وانحرافٌ، مع ما فيها من إفسادٍ وأضرار، ونَعَى عليهم كونَهم أولَ من ابتدعها.

٣- منطقُ أهلِ الكفرِ والضلالِ في كل زمان ومكان منطق باطل، فقد انتكست فطرتهم.

٤- الكافر يعاقب على كفره، ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة.

٥- المعاملات المالية إذا تجرَّدَتْ من القيم والأخلاق، وتَفَلَّتَتْ من ضوابط التشريع، كانت مضماراً للمطامع، وميداناً للجشع، ومثاراً للغِشِّ والتدليس، وغير ذلك من صور الفساد والفوضى.

٦- ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الإشارة للجمع في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ لبيان عموم هذا الخير لهم وشموله، فلا يقتصر على فئة دون فئة، وهكذا شرع الله تعالى يحقق المصلحة للجميع. وتنكير ﴿خَيْرٌ﴾ للتعميم والتعظيم والتكثير، وتقييده بالإيمان لأنه حافزُه وداعِيه، وليعُمَّ خيري الدنيا والآخرة.

٧- تذكير المدعُوِّين بنِعَم الله عليهم العامة والخاصة مِمَّا يُؤَلِّفُ القلوبَ، ويُرَقِّقُها ويُحَبِّبُها إلى المُنْعِمِ جلَّ وعلا.

٨- يضيق المفسدون في الأرض ذَرْعاً بِمَنْ يُعارِضُ نَزَواتهم.

٩- الرِّضا بفِعْل الآخرين للمنكر، وإعانتهم على تعاطيه، سببٌ لاستحقاق العذاب.

١٠ - قد يُعَجِّل الله عقوبته للمفسدين في الأرض، وقد يُؤَخِّرها إلى يوم الدين.

١١ - في قصص القرآن دروس للدعاة بأنَّ نَصْرَ الله قريب.

١٢ - قول شعيب ﷺ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾. قال أبو حيان: «هذا الكلام من أحسن ما تَلَطَّف به في المحاورة، إذ أبرز (المتحقق) في صورة (المشكوك) وهو من بارع التقسيم، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار». (البحر المحيط ٤/ ٣٣٧).

١٣ - ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

التفسير:

٨٨ - قال الأعيان المستكبرون من أصحاب الجاه والسلطان من قوم شعيب، رَدّاً على نصحه لهم: والله لَنُخرِجَنَّك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا؛ بُغضاً لكم، ودَفْعاً لفتنتكم المترتبة على السَّكَنِ معنا ومجاورتنا، أو لَتَرجِعُنَّ إلى ديننا وتقاليدنا التي لن نتركَها. فعليك - يا شعيب - أنت ومَنْ معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين: الإخراج من قريتنا، أو العودة إلى مِلَّتنا، وهذا هو الهدف الأعظم لهم، حيث إنَّ المستكبرين يَهُمُّهم في المقام الأول أن يعود مَنْ فارق مِلَّتَهم إليها ثانية. ولكن شعيباً ﷺ رَدَّ عليهم، متعجباً من أسلوبهم بقوله: أَتُجبِرُوننا على العودة إلى مِلَّتِكم، حتى ولو كنا كارهين لها، لاعتقادنا أنَّها باطلة وقبيحة، ومنافية للعقول السليمة، والأخلاق المستقيمة؟

٨٩ - ثم صارحهم برَفْضِه التامِّ لما يتوهَّمُونه من العودة إلى دينهم، بأنَّه افتراء على الله تعالى الذي نَجَّانا بهدايتنا إلى الدين الحقِّ، وعَصَمَنا عن الإشراك به سبحانه، ولا يَصِحُّ لنا أن نعود في مِلَّتِكم الباطلة، ولكنه

مع ثقته في ذلك يُفَوِّضُ الأمر إلى الله تَأَدُّباً معه، فلا يجزم بمشيئته هو، بل يترك الأمر لله، ففي عِلْمِه سبحانه ما يخفى على البشر، مما تقتضيه حكمته وإرادته. فهو سبحانه وَسِعَ كل شيء علماً.

ثم يُعلن شعيب ﷺ عَجْزَه في مواجهته لأولئك المستكبرين بأنّه مُتَوَكِّلٌ على الله، وأنّه محتاج إليه، وأنّه لا يعتمد إلا على الله وحده، فيتوجَّه إليه بالدعاء أن ينصر المظلومَ وصاحبَ الحق على الظالم المعاند للحق، فهو خير الفاتحين يفتح على عباده، فيُبَيِّن الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويفتح بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.

٩٠- وهنا يئس قوم شعيب من استمالته واستمالة أتباعه إلى ملتهم، فمَضَوا يحذرون، ويُنَفِّرون الناس من اتباع ما جاء به، والسير في طريق دعوته، بدعوى ما في ذلك من خسارة وتضييعٍ لأمجادهم، ومكاسبهم المادية.

٩١- ثم جاءت نهاية المعاندين المشركين المشككين، الذين يَصُدُّون عن سبيل الله، بأن أَخَذَتْهم الزلزلة الشديدة، فأصبحوا في دارهم هامدين صرعى لا حَراك بهم، ووقع بهم هذا العذاب الذي حَذَّرهم فيه نبيُّهم عليه الصلاة والسلام.

٩٢- ثم يُعَقِّب القرآن على مصرعهم بأنَّ الذين كَذَّبُوا شعيباً وهَدَّدوه وأتباعه، كأنّهم عندما جاءتهم العقوبة لم يقيموا في ديارهم، في ظِلِّ العيش الرغيد، بل هلكوا وحُرِمُوا من قريتهم، حتى لكأنّهم لم يقيموا بها، فالخسران لم يَكُنْ من نصيب مَنِ اتَّبع شعيباً، وإنّما كان من نصيب الذين خالفوه وكَذَّبوه.

٩٣- وهنا تُطوى صفحتهم بأن أعرض عنهم شعيب، بعدَ أن أصابهم ما أصابهم من النقمة والعذاب، وقال مؤنِّباً لهم: يا قوم لقد أَبْلَغْتُكُمْ رسالاتِ رَبِّي التي أرسلني بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ، ونَصَحْتُ لكم بما فيه إصلاحُكم وهدايتكم، فكيف أحزن على قوم كافرين بَذَلْتُ جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم، ولكنهم كرهوا النصح، واستحَبُّوا العمى على الهدى؟

الفوائد والاستنباطات:

١- من سنن الله تعالى التي لابُدَّ للدعاة أن يتفَطَّنوا لها: أن الظَّلَمة والمتكبرين يجادلون بالباطل، حتى إذا أعياهم الجدال وأُفْحِمُوا بالحُجَج، فزعوا إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم، أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.

٢- لا يَصِحُّ من أهل الحق - بعد أن عَرَفُوه ودعَوا إليه - أن يتنكَّروا، ويقبلوا الباطل.

٣- يُسْتَحَبُّ رَدُّ المشيئة لله في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلاً.

٤- إنَّ العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد، فالحذر قائم، والخوف لازم.

٥- وجوب التوكل على الله عند تهديد العدو وتخويفه، والمضيِّ في سبيل الحق.

٦- أهمية الدعاء في حياة الدعاة، وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل.

٧- في رَدِّ شعيب عليه السلام تمثيل لأسمى ألوان الحكمة وحسن البيان، فهو يَرُدُّ على وعيدهم وتهديدهم بالرفض التام لما يبغون، والبغض السافر لما يريدونه منه، ثم يَكِلُ الأمور كلها إلى الله، مُظْهِراً الاعتماد عليه وحده، ثم يتجه إليه سبحانه بالدعاء متلمساً منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذي مَضَتْ به سُنَّته.

٨- أهمية الانتباه إلى تشويه أهل الباطل للحق، وصَرْفِ الناس عنه بالاتهامات، وإثارة الشبهات.

٩- نهاية الظلم والطغيان الدمارُ، والخسران في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- جَرَتْ سُنَّتنا أنَّه ما أرسلنا في قرية من نبيٍّ، فكَذَّبه أهلُها إلا أنزَلْنا بهم قبل إهلاكهم ألواناً من الشدائد والمصائب، لعلهم ينقادون لأمرنا، ويثوبون إلى رشدهم، ويُكْثِرُون من التضرع إلينا.

٩٥- بعد أن ابتلَينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء رَفَعْنا ذلك عنهم، وأعطيناهم بدل المصائب نِعماً، فإذا هم في رخاء ويسر وعافية وأمن حتى كَثُرُوا ونَمَوا في أنفسهم وأموالهم. فما كان منهم إلا الغفلة والإعراض، حتى قالوا: قد مَسَّ آباءَنا من قبلنا ما يَسُوء وما يَسُرُّ، وما ينفع وما يضر، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم، فكان عاقبة هؤلاء أن أخذهم الله بالعذاب فجأة، من غير شعور منهم بذلك، ولا خَطَرَ شيء من المكاره ببالهم.

٩٦- ولو أنَّ أهل تلك القرى المهلكة صَدَّقُوا بما جاء به الرسل، واجتنبوا ما حَرَّمه الله عليهم، لَوَسَّعنا عليهم الرزق، ولَعاشوا حياتهم عيشة رغيدة، ولكنَّهم لم يُؤْمنوا ولم يتقوا، بل كذَّبوا الرسل الذين جاؤوا لهدايتهم، فكانت عاقبة تكذيبهم العقوبة؛ بسبب جحودهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- ما يُؤاخِذُ الله به الغافلين من الشدائد والمِحَنِ إنَّما هو من أجل أن تَرِقَّ القلوب القاسية، وتتعظ المشاعر الخامدة، ويتجه البشر إلى خالقهم، فيتضَرَّعون إليه، ويستغفرونه.

٢- يُمهل الله تعالى الظالمين، ولا يُهمِلُهم. حتى إذا أعلنوا تَبَجُّحَهم وظلمهم عَمَّهم الله بالعذاب، وهم غير متوقعين له.

٣- من سُنَّتِه سبحانه فَتْحُ أبواب رحمته للمحسنين، وإنزال نقمه على المكذِّبين الضالين بما كانوا يعملونه.

٤- في الآية (٩٦) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان أهمية الإيمان والتقوى لفَتْحِ البركات من السماء والأرض.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم
بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ
﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا
وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

التفسير:

٩٧- أَبَعْدَ ذلك الأَخْذِ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم عذابنا في الوقت الذي يكونون فيه غافلين، وهو حال النوم بالليل؟

٩٨- أو يَأْتِيَهُمْ عقابنا في حال الضحى بالنهار؛ لأنَّه الوقت الذي يغلب عليهم التشاغل فيه باللذات.

٩٩- أفأَمِنُوا مَكْرَ الله وتدبيره الخفي الذي لا يعلمه البشر، فغفلوا عن قدرة الله على إنزال العذاب بهم ليلاً أو ضَحْوة؟ فإن كانوا كذلك فهم القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم، ولم يستفيدوا شيئاً من أنواع العبر والعظات التي بَثَّها الله في أنحاء هذا الكون.

١٠٠- أولم يتبيَّنْ لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التي وَرِثُوها بعد أهلها المُهْلَكين، أنَّ في قدرتنا إنزال العذاب بهم؛ بسبب ذنوبهم، كما أنزلناه بأولئك المُهْلَكين، فنختم على قلوبهم، فلا يسمعون الحِكَم والنصائح سماعَ فَهْمٍ وتَفَقُّهٍ وتَدَبُّر.

١٠١- تلك القرى - أيها الرسول - نَقُصُّ عليك من أخبارها العظيمة، ولقد جاءتهم رسلهم بالآيات الباهرة والحُجَجِ النيِّرة، فما كانوا ليؤمنوا؛ بسبب بقائهم على التكذيب وإصرارهم عليه. ومثلَ ذلك الطبع يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين يأتون من بعدهم، ويفعلون فِعْلَهم.

١٠٢- ولقد تَحَقَّق ما سبق في عِلْمنا أنَّ كثيراً منهم لا يُوفون بالعهد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح، بل حالُ أكثرِهم خروجٌ عن طاعة الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- حُرْمة الغفلة، ووجوب الذكر واليقظة.

٢- تحذير الآمنين من مَكْر الله، سوءَ العاقبة.

٣- وجوب الاعتبار بما أصاب الأولين، وذلك بترك ما كان سبباً لهلاكهم.

٤- لا يريد الله أن يعيش الناس قلقين، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار؛ لأنَّ القلق الدائم من المستقبل، يَشُلُّ طاقة البشر، ويمنعهم من العمل والإنتاج، وإنَّما الذي يريده الله منهم أن يتعظوا بآيات الله في كونه، وأن يبتغوا فيما آتاهم الله مِنْ فَضْلِه الدار الآخرة، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، وألَّا يَغْتَرُّوا برخاء الحياة؛ كي لا يقودَهم ذلك إلى الفساد والطغيان.

٥- الله سبحانه هو الذي يُورث الأرض، ويُنْعِمُ بأنواع النعم، ويُمهل حين يذنب العباد، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن من طُبِع على قلبه حتى أصبح لا يتأثر بما يسمع ولا يعقل ما يرى، فإنَّه بهذا يستحق العقوبة.

٦- في الآية(١٠٠) إخبار عن أمر مستقبلي في عقاب الناس الذين يَرِثُون الأرض من أهلها الفاسقين.

٧- تقرير الوحي الإلهي، وإثبات نبوة محمد ﷺ؛ لأنَّ ما قُصَّ من أنباء الأولين لا يُتَلَقَّى إلا بوَحْيٍ إلهي.

٨- وجود البينات مهما كان قوياً واضحاً غير كافٍ في إيمان مَنْ لم يشأ الله هدايته.

٩- الطبع على قلوب الكافرين سببُه اختيارهم للكفر والفساد، وإصرارهم على ذلك.

١٠- خَطَرُ نَقْضِ العهد مع الله تعالى.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ
بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا
هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

التفسير:

عاد الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، فتحدَّثَتِ الآيات عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ومع بني إسرائيل.

١٠٣ - ثم بعث الله تعالى موسى بعد أولئك الرسل بالآيات التي تدلُّ على صِدْقه فيما يُبَلِّغه عن ربه إلى فرعون، وأشراف قومه، ووجهاء دولته، فتَلَقَّى فرعون ومَلَؤُه دعوةَ موسى بالكفر بها تَكَبُّراً وجحوداً، فظلموا أنفسهم بسببها، إذ عَرَّضوها للعقاب المهين، وظلموا الناس بصَدِّهم عن الإيمان بهذه الآيات، فانظر كيف كانت عاقبة فرعونَ ومَلَئِه الذين أَفْسدوا في الأرض؟

١٠٤ - وقال مُوسى لفرعون في يقين وثبات: إني مُرْسَلٌ إليك من خالق العوالم كلها.

١٠٥ - بمقتضى هذه الرسالة واجبٌ وحقٌ عليَّ ألَّا أُخبرَ عنه تعالى إلا بما هو حق وصدق، فقد جئتك أنت ومَلأَك بحُجَّةٍ قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، فأطْلِقْ بني إسرائيل مِنْ أَسْرِك، ودَعْهم ليؤمنوا معي بربهم، ويخرجوا أحراراً من تحت قهرك؛ ليذهبوا معي إلى دارٍ غير دارك.

١٠٦ - فكان ردُّ فرعون لموسى أن قال له: إنْ كُنْتَ جِئْتَ بمعجزة تشهد بصدقك من عند مَنْ أرسلك كما تَدَّعي، فأحْضِرْها عندي؛ ليثبت بها صدقُك في دعواك أنَّك من الملتزمين بقول الحق. وهذا من باب التحدِّي والاستخفاف، وليس من باب إرادة معرفة الحق، والتثبُّت منه.

١٠٧ - فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان ظاهر بَيِّنٌ، يسعى في خفةٍ وسرعة كأنَّه جانٌّ.

١٠٨ - ثم أتبع موسى عليه السلام ذلك بمعجزة أخرى تُؤَكِّد صدقه، فأخرج يده من دِرْعِه بعد أن أدخلها فيه، فإذا هي بيضاءُ بياضاً عجيباً من غير أن يكون بها عِلَّة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان سوء عاقبة المفسدين بالشرك والظلم والمعاصي.

٢ - رِفْقُ الأنبياء، وتَلَطُّفُهم في تبليغ الدعوة.

٣- تقرير مبدأ الصدق لدى الرسل عليهم السلام.

٤- رَفْعُ الظلم عن المظلومين من أهم مراحل الدعوة؛ لتنجح الدعوات.

٥- إقامة الله تعالى الحجة على عباده بأنواع كثيرة من الآيات، ومنها المعجزات التي يُجريها الله على يد أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠٩- هنا جاء دور البطانة السيئة لفرعون، من أصحاب الجاه والغنى والمصالح في دولته، فقد غاظهم ما جاء به موسى، فأشاعوا أنَّه ساحر ماهر في علم السحر.

١١٠- ولم يكتفوا بهذا القول الباطل، بل أخذوا يُهَيِّجون فرعون والناس على موسى، ويُهَوِّلون لهم الأمر؛ ليقفوا في وجهه، فاتَّهموه بأنَّه يريد أن يسلب منه الملك. ففزع إليهم فرعون طالباً المشورة لاتقاء هذا الخطر الداهم.

١١١-١١٢- فأشاروا إليه: أن أخِّرْ أمْرَه وأمْرَ أخيه، ولا تتعَجَّلْ بالقضاء في شأنهما، حيث إن فرعون من شدةِ فَزَعِه أراد أن يقتل موسى وأخاه، وطلبوا إليه: أن أرسِلْ في مدائن ملكك مَنْ يجمعون إليك السحرة المهرة؛ لكي يقفوا في وجه هذا الساحر العليم، ويكشفوا عن سحره، ويُبْطِلُوه بسحر مثله، بل هو أشدُّ في ظنهم.

١١٣- واجتمع السحرة المهرة، وأقبلوا على فرعون، يبحثون عن مطامعهم، وقالوا له: أإنَّ لنا لأجراً عظيماً إن كانت لنا الغَلَبَةُ على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولاً من جزالة الأجر.

١١٤- وهنا يجيبهم فرعون جواب العاجز الذي يريد أن يتخَلَّص من عَدُوِّه بأيِّ ثمن: نعم لكم أَجْرٌ جزيل إذا انتصرتم عليه، إضافةً إلى كونكم من المحظوظين بقُرْبي وجواري، فأغراهم بالأجر المادي، ووعدهم بقرب منزلتهم من سلطانه؛ حفزاً وإغراءً لهم، مؤكِّداً لهم ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- من أسباب الصدود عن الحق ومعاداة دعاته: الحرص على الرئاسة والمال والجاه، والهروب من تكاليف الشرع، كما هي عادة الظلمة والطغاة في كل زمان.

٢- مكر الملأ وخبثهم؛ إذ اتهموا موسى بأنّه يريد المُلك، وهو كَذِبٌ محض، وإنّما يريد إخراج بني إسرائيل من مصر، فقد طال استعبادهم وامتهانهم من قِبَلِ الأقباط، وهم أبناء الأنبياء، وأحفاد أنبياء الله إسرائيل وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

٣- فَضْحُ أَمْرِ فرعون، فقد نسي دعوى الربوبية، فاستشار الملأ في شأنه، إذ الربُّ الحقُّ لا يستشير عبيده فيما يريد فعله؛ لأنّه لا يجهل ما يحدث مستقبلاً.

٤- حُرْمَةُ السِّحر، وحُرْمة تَعَلُّمه.

٥- في سؤال السَّحَرة عن استحقاق الأجر ما يَدُلُّ على خبرتهم، والحاجة إليهم، فشرطوا أجْرَهم قبل الشروع في العمل، وهكذا يكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها الطغاة والظالمون، تَبْذُلُ مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم أعداء الإسلام دائماً في كل مكان وزمان.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ
تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

التفسير:

وبعد أن اطمأنَّ السحرة على الأجْر، واجتمع الناس في يوم عيدهم وزينتهم من كل مكان، وجاء فرعون ومَلَؤه ومستشاروه؛ ليحضروا هذا الحدث العظيم، وهنا بدأت المناظرة:

١١٥- فتَوَجَّه السحرة إلى موسى - بلغة الواثق من قوته، المتحدِّي لخصمه - فقالُوا: يا موسى أنت مُخَيَّر بين أن تلقي عصاك أولاً، أو أن نُلْقِيَ نحن أولاً، وأنت تفعل ما تشاء بعدنا، فنحن على ثقة من الفوز والنصر، فأرِحْ نفسَك، واستسلم لنا.

١١٦- وهنا كان جواب موسى بلغة الواثق بربِّه بأن طلب إليهم أن يُلْقُوا أولاً، غير مبالٍ بهم ولا بمَنْ جمعهم، لأنّه قد اعتمد على خالقه، فلما ألقَوا ما كان معهم من الحبال والعِصِيِّ، سحروا أعين الناس، فخَيَّلوا إلى الأبصار أنَّ ما فعلوه حقيقة، فامتلأ القلب بالروعة والرهبة. ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر، وفي عين مَنْ رآه، فقد ألقى كلُّ واحد منهم عصاه فصارت العصِيُّ كأنّها ثعابين، وهذا تهيئة من الله لإظهار معجزة موسى عليه السلام، وأنّها تخالِفُ السِّحْرَ، ولا تُباريه بحال.

١١٧- وفي هذه اللحظة الرهيبة اشرأبّت الأعناق، وتناقلت النظرات، وإذا بموسى عليه السلام يقف أمام هذا الإفك العظيم مُتَوَجِّساً خائفاً، وإذا بالتثبيت والتأييد ينزل عليه بوحي من الله ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ولا تخف، إنَّك أنت الأعلى، فألقاها فإذا هي تبتلع وتلتقم بسرعة ما يُكَذِّب به أولئك السحرة.

فقَصْدُ موسى - بجَعْلِهم يُلْقون أولاً - حَسَنٌ يستوجبه المقام؛ لأنَّ إلقاءهم قبلَه يستلزم إبراز ما معهم من مكايد السحر، واستنفاد أقصى طرقهم ومجهودهم. فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك وابتلاعها لجميع ما ألقَوا من إظهار الحق، وإبطال الباطل، ما لا جدال بعده في الحق، فلو ألقى قبلهم، وألقوا بعده، لم يحصل ما ذكرنا.

١١٨- فظهر وثبت الحق الذي عليه موسى، وفَسَدَ وبَطَلَ ما كانوا يعملون من الحِيَلِ والتخييل، وذهب تأثيره.

١١٩- وترتَّب على ذلك أن أصابت الهزيمةَ المنكرةَ فرعونُ ومَلَؤُه وسحرته في ذلك الحشد العظيم، الذي حشر الناس له في يوم عيدهم وزينتهم، وانقلب الجميع صاغرين بما نزل بهم من الخيبة والخذلان.

الفوائد والاستنباطات:

١- عاقبة الغرور - مهما علا - هي الفشل الذريع.

٢- في المناظرة يحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كَرَّ عليه بالحُجَجِ والبراهين فأبطله، وظهر الحق وانتصر على الباطل. وهذا الأسلوب الذي اتبعه موسى إنما هو بتوفيق من ربه تعالى. فلم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم أو إقراراً بفِعْلِ السحر، بل أراد أن يَقْهَرَهم بالحُجَّةِ، ويظهر لهم أنَّ الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته.

٣- تأثير السحر في أعين الناس حقيقة، بحيث يرون الشيء على خلاف ما هو عليه، إذ العِصِيُّ والحِبال استحالَتْ في أعين الناس إلى حَيَّاتٍ وثعابينَ، وإن لم يكن ذلك حقيقة الشيء في الواقع نفسه، فما يراه الناس إنَّما هو من أثر السحر.

٤- الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه زمناً يسيراً، وقد يسترهب قلوبهم ساعة من الزمان، حتى لَيُخَيَّلُ إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف ، ولكن ما إن يواجهه الحق الهادئ الثابت المستقر بقوته التي لا تغالَب حتى يزهق ويزول، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذُّل والصَّغار، وهم يرون صُروحَهم تتهاوى أمام نور الحق المبين.

٥- بيان سنته تعالى في أنَّ الحق والباطل إذا التقيا في أيِّ ميدان فالغلبة للحق دائماً.

٦- بطلان السحر، فلا يفلح أهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾
وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

التفسير:

١٢٠ - ثم يُبَيِّن الله تعالى نتيجة هذه المناظرة وهذا البيان وتلك الآية، فقد تفاجأ الجَمْعُ العظيم بمشهد يهزُّ القلوبَ، ويقلب الموازين، ويُرْهِبُ المتآمرين. إنَّه مشهد السحرة وهم يَهْوُون على الأرض سُجَّداً لله ربِّ العالمين، فقد ظهر لهم نور الحق، وجعلهم يسارعون إلى الإيمان، حتى لكأنَّ أحداً قد دفعهم إليه دَفْعاً، وألقاهم إليه إلقاء.

١٢١-١٢٢ - وما اكتفَوا بالسجود، بل أعلنوا أنَّ هذا السجودَ لله ربِّ العالمين، وبَيَّنوا أنَّ ربَّ العالمين الذي سجدوا له هو ربُّ موسى وهارون.

١٢٣ - قال فرعون مَذْهُولاً مُنْكِراً على السحرة إيمانهم، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أنا بذلك؟ فلغُرورِه وجَهْلِه ظنَّ أنَّ الإيمان بالحق بعد أن تَبَيَّن يحتاج إلى استئذان، ثم أضاف إلى ذلك اتهامهم بأنَّ إيمانهم لم يكن عن إخلاص؛ ليصرف الناس عنهم فقال: إنَّ ما صنعتموه من الإيمان بربِّ موسى وهارون ليس عن اقتناع منكم، بل هو حيلة احتَلْتُموها أنتم وموسى قبل أن يُلْقِ كلٌّ منكم بسِحْرِه؛ لكي تخرجوا من مصر أهلها، وتُخْلِصَ لكم ولبني إسرائيل، ثم أَتْبَعَ هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم.

١٢٤ - لَأُقَطِّعَنَّ من كل شق منكم عضواً مغايراً للآخر، كاليد من الجانب الأيمن، والرِّجْل من الجانب الأيسر، ثم لأصلبنَّكم أجمعين بشدة وغلظة؛ تنكيلاً بكم وبأمثالكم.

١٢٥ - قابل المؤمنون الجدد هذا الوعيد والترويع بالصبر والثبات، والإيمان العميق، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته قائلين له بكل ثبات واطمئنان: إنَّا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته، وخلاصنا منك ومن لقائك، فيحكم بيننا، فيثيبنا على شدائد القطع والصَّلْب، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما قَدَّره لنا.

١٢٦ - ثم بَيَّنوا له سبب تعذيبه لهم، وذلك بقولهم: وما تكره منا وتعيب إلا إيماننا بالله، مع أنَّ ما تكرهه منا، وتعيبه علينا، هو أعظم محاسننا؛ لأنَّه خير الأعمال، وأعظم المناقب، فلا نعدل عنه طلباً

لمرضاتك، ثم انصرفوا عن فرعون بالخطاب إلى الله تعالى، مُتَضَرِّعين بدعائه بأن أفِض علينا صبراً واسعاً؛ لنثبتَ على دينك، وتَوَفَّنا إليك حالة كوننا مسلمين لك، مُذْعِنين لأمرك ونَهْيك، مستسلمين لقضائك.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إيمان السحرة راسخ؛ لأنّه منبثقٌ عن هدى وبصيرة؛ إذ عرفوا من خلال احترافهم للسحر أنَّ ما جاء به موسى ليس سحراً، وإنّما هو آية له من الله فآمنوا، وضربوا أروع الأمثلة في الثبات.

٢ - أضحى السحرة كافرين، وما برحوا موقفهم حتى أسلموا. وصدق رسولُ الله ﷺ إذ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يُصَرِّفه حيث يشاء.. اللهم مُصَرِّفَ القلوب صَرِّفْ قلوبنا على طاعتك». (صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، برقم ٦٩٢١).

وفي هذا درسٌ للدعاة يبعث الأمل في نفوسهم، وهانحن نرى هداية أعيان من المجتمعات لم يتوقع كثير من الناس هدايتها، كنجوم الرياضة، ومشهوري الفن والساسة والأثرياء، فضلاً عن القساوسة والرهبان وغيرهم.

٣ - أصحاب القلوب المظلمة بالكفر والجرائم لا يتورَّعون عن الكذب، واتهام الأبرياء في نياتهم.

٤ - ليس عند الظالمين والطغاة إلا البطش والقوة عند فُقْدان الحجة.

٥ - مما يُثَبِّتُ المبتلَى ويُقَوِّيه في مواجهة الطغاة أن يستحضر منقلبَه لربه، فإنَّ هذا ممَّا يربط على القلوب ويُقَوِّي العزائم.

٦ - مشروعية سؤال الصبر على البلاء؛ للثبات على الإيمان.

٧ - ضَرَبَ السحرة - بعد إيمانهم - للناس أروع نموذج في التضحية من أجل العقيدة، وفي الوقوف أمام الطغيان بثبات وعزة، وفي الصبر على المكاره والآلام، وفي المسارعة إلى الدخول في الطريق المستقيم بعد أن تَبَيَّن لهم، وفي التعالي بالإيمان عن كل مغريات الحياة.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

التفسير:

١٢٧- وهنا قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون وبطانته له، على سبيل التهييج والإثارة: أَتَتْرُكُ موسى وقومه أحراراً آمنين في أرضك، ليفسدوا فيها بإدخال الناس في دينهم؟ أتتركهم يعبدون ربَّ موسى وهارون، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك، فيظهر للناس عَجْزُك وعَجْزُها؟ فتكون طامَّة كبرى يفسد بها مُلْكُك؟

وهذا الكلام يفصح عن أشدِّ ألوان التآمر والتحريض؛ لذا رَدَّ عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فقال: لا تخافوا، ولا ترتاعوا أيها الملأ، فإنَّ قوم موسى أهون من ذلك، وسنُنْزِلُ بهم ما كنا نفعله معهم من قبل، وهو قَتْلُ الأبناء، وتَرْكُ النساء أحياءً للخدمة والامتهان إذلالاً لهم، وإنَّا فوقهم غالبون كما كُنَّا لا يتغير شيء من حالنا، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء، وهم الأَذِلَّة، ونحن الأعِزَّة.

١٢٨- وأمام هذا التهديد يُوصي موسى عليه السلام المؤمنين بالصبر، ويُبَشِّرهم بالنصر بقوله: يا قوم ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في كل أموركم، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على البلاء، فهذه الأرض ليست ملكاً لفرعون ومَلَئِه، وإنَّما هي ملك لله ربِّ العالمين، وهو سبحانه يورثها لِـمَنْ يشاء من عباده، وقد جَرَتْ سُنَّتُه سبحانه أن يجعل العاقبة الطيبة لِـمَنْ يخشاه، ويفعل ما أمره به، ويترك ما نهاه عنه، ولا يخشى أحداً سواه.

١٢٩- فرَدُّوا بتضجُّرٍ وتبرُّم ينمُّ عن ضَعْفِ إيمانهم: لقد نَكَّلَ فرعون بنا قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة، وبعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى حالنا.

أجابهم موسى عليه السلام: عسى ربُّكم أن يُهلك عَدُوَّكم فرعون الذي ناصبكم العداء، وسامكم سوءَ العذاب، ويجعلكم خلفاءَ في الأرض من بعد هلاكه هو وشيعته، فينظر كيف تعملون حين يُمَكِّنُ لكم؟ فإنَّ استخلافكم في الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم، وإنَّما هو استخلاف للاختبار والامتحان، فإن أحسنتم زادكم الله من فضله، وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- خطر بطانة السوء على الملوك والرعية، تجلَّى ذلك في إثارة بطانة فرعون له، ودَفْعِه إلى البطش للحفاظ على مصالحهم.

٢- منطق الطغاة المستكبرين اللجوء إلى قوتهم المادية؛ ليَحْمُوا بها مصالحهم وأهواءهم.

٣- فضيلة الاستعانة بالله والصبر والتقوى، وأنَّها مفتاح النصر، والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.

٤- في الآية (١٢٨) إخبار عن أمر مستقبلي أنَّ العاقبة المحمودة لِـمَنِ اتَّقى الله، ففَعَلَ أوامره، واجتنب نواهِيَه.

٥- تثبيت المؤمنين بذِكْرِ حسن العاقبة، والتبشير بوعد الله لأوليائه أهلِ الإيمان والتقوى، والتذكير بسننه تعالى.

٦- التمكين في الأرض نصرٌ من الله، كما أنَّه ابتلاء يحتاج إلى عمل وشكر.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم
بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣٠- حقاً لقد بَلَوْنا آل فرعون وأتباعه بالجَدْبِ والقحط، وضيق العيش، وانتشار الآفات وانتقاص الثمرات؛ لعلهم يثوبون إلى رُشْدِهم، ويتذكرون ضَعْفَهم أمام قوة خالِقِهم، ويرجعون عمَّا هم فيه من الكفر والعصيان.

١٣١- لكنهم لم يعتبروا، وإنَّما ازدادوا تمرُّداً، فإذا جاءهم ما يروقهم من الخِصْبِ والسعة والرخاء، قالوا بغرور: ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا، لأننا أهلٌ له، وبكَدِّنا وجِدِّنا؛ ناسين فَضْلَ الله عليهم، غافلين عن شكره على نَعْمائه. وإن اتفق أن أصابتهم حالة تسوءُهم كجَدْبٍ أو قحط، أو مصيبة في الأبدان أو

الأرزاق، تشاءموا بموسى ومَنْ معه من أتباعه، وقالوا: ما أصابنا الذي أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم، ولو لم يكونوا معنا لما أُصِبْنا. ويَرُدُّ الله عليهم بأنَّ سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة عليهم عند الله، فهي التي ساقت إليهم ما يسوءُهم، وليس لموسى ولا لِـمَنْ معه أيُّ تَدَخُّلٍ في ذلك. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يجهلون هذه الحقيقة، فيقولون ما يقولون، ممَّا تُمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم.

١٣٢ - وقالوا لموسى بعد أن رأوا من حُجَجِه الدالة على صدقه: إنك يا موسى إن تأتِنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدلُّ بها على حقيقة دعوتك؛ لأجل أن تَصْرِفَنا بها عما نحن فيه، فما نحن لك بمصدِّقين، ولا لرسالتك بمُتَّبعين. فهم قد صاروا في حالة مستعصية لا يُجدي معها دليل، ولا ينفع فيها إقناع، فقد أعلنوا الإصرار على التكذيب، حتى ولو أتاهم نبيهم بكل دليل يطلبونه.

١٣٣ - فأرسلنا عليهم - بعنادهم وسوء أدبهم - أسرابَ الجراد تأكل زروعهم، فتترك أرضهم جرداء، والقُمَّل، وهو السُّوس الذي أكل حبوبهم، وما اشتملت عليه بيوتهم، والضفادع تُضَيِّق عليهم معايشهم، وتَقُضُّ مضاجعهم، والدم الذي يسيل في شرابهم، ويخضب أنهارهم، فلا يُنتفع بها. ابتلاهم الله بكل هذه الآيات الجليَّة؛ لعلَّهم يتوبون، ويرجعون لرشدهم، ولكن مع كل ذلك استكبروا عن الإيمان بموسى ﵇، وعمَّا جاء به من معجزات، وأصبحت طبيعتُهم الإجرامَ ودَيْدَنُهم الكفرَ والفسوق.

١٣٤ - وبَيَّنَ سبحانه صورةً من هذا الاستكبار والعناد؛ بأنَّهم حين وقع على فرعون وأتباعه العذاب المذكور في الآية السابقة، أخذوا يقولون لموسى بتَذَلُّل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات: ياموسى ادعُ لنا ربَّك، واسأله بحقِّ ما عهد عندك من أَمْرِ إرسالك إلينا؛ لإنقاذنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب، ونحن نقسم لك إنك إن كشفته عنا ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، وهم في ذلك كَذَبَة، لا قصد لهم إلا زوال ما حَلَّ بهم من العذاب، وظنوا إذا رُفِعَ ألَّا يصيبَهم غيرُه.

١٣٥ - فلما كشفنا عنهم العذاب إلى الوقت الذي أُجِّل لهم - وهو وقت إغراقهم في اليم - إذا هم ينقضون عهدهم الذي أبرموه، وينكثون في أَيمانهم التي عقدوها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - العقوبات الإلهية عقوبات عامة تشمل الظَّلَمَةَ وأعوانهم، وتَعُمُّ مَنْ مالأَهم على ظلمهم، واستمرأ كذبهم.

٢ - الشدائد من شأنها أن تُرَقِّقَ القلوب، وتُصَفِّيَ النفوس، وتُرَغِّب في الضراعة إلى الله، وتدعو إلى اليقظة والتفكير، ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاءً للبلايا.

٣- بطلان التطير مطلقاً، وإنَّما الشؤم في المعاصي بمخالفة شرع الله، فيترتَّب على الفسق والعصيان البلاء والعذاب.

٤- الجحود والغفلة مع توارد الآيات دليل على قسوة القلب، وفساد الفطرة.

٥- يظهر ضَعْفُ الإنسان عند نزول البلاء به، فيفزعُ إلى الله تعالى، يدعوه ويتضرع إليه، كما يظهر جحوده ونسيانه عندما يرفع البلاء، حينها ينسى ما نزل به ويعود إلى عادته وإلفه، إلا مَنْ عصمه الله.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾

التفسير:

١٣٦- فنكَّلْنا بهم، وعاقبناهم؛ بسبب تكذيبهم وتغافلهم عن آياتنا الجلية، وعِظاتنا البليغة.

١٣٧- واستخلفنا أولئك القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر، مشارق الأرض ومغاربها، وهي بلاد الشام التي باركنا فيها بالخصوبة، وسعة الأرزاق، ومَضَتْ كلمة ربك الحسنى تامةً، بالنصر والتمكين في الأرض لبني إسرائيل؛ بصبرهم على ظُلْمِ فرعون ومَلَئِه، ودمَّرنا بعظمتنا وقوتنا ما كان يصنع فرعون وقومه من قصور مُنيفة، وبيوت مشيدة، وقلاع وبروج حصينة وصروح شاهقة، وبساتين مثمرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- التكذيب بآيات الله والغفلة عنها سبب العذاب في الدنيا والآخرة، حيث الصُّدودُ عنها، والعُزوفُ عن التفكُّر فيها، والاعتبار بها.

٢- خَتْمُ قصة موسى مع فرعون وقومه بذِكْرِ ما أصاب الظالمين والغادرين، من دمار وخراب، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلافٍ في الأرض؛ ليكون ذلك عِظَةً وعِبْرَةً للعالمين، فهي سُنَّةٌ كونية لرب العالمين.

٣- مظاهر قدرة الله، وصادق وعده، وعظيم آلائه على خلقه، وحسن تدبيره فيهم.

٤- عدل عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب، ومثله ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ والأصل: ما صنعوا، وما عرشوا.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٤٠) وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (١٤١)﴾

التفسير:

هنا يبدأ موسى ﷺ مسيرته الدعوية مع بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين، وما كان منهم من جحودهم لنِعَمِ الله، ونسيانهم لما كانوا فيه من ذُلّ واستعباد، وتفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخالق ﷻ، وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم.

١٣٨ - فبعد أن انتقم الله من فرعون وجنده، فأغرقهم أمام أعينهم، وسار بنو إسرائيل نحو المشرق بعد أن عبروا البحر. وما إن جاوزوا البحر الذي غرق فيه عدوُّهم، حتى وقعت أبصارهم على قومٍ دائبين على عبادة الأصنام، فطلبوا من نبيِّهم موسى ﷺ أن يصنع لهم آلهة، كما كان لأولئك القوم، فغضب عليهم موسى ﷺ غضباً شديداً، ووبَّخهم أشدَّ التوبيخ، ووصفهم بالإصرار، والمداومة على الجهل.

١٣٩ - ثم بَيَّن لهم أنَّ هؤلاء الذين تبغون تقليدهم في عبادة الأوثان محكوم على ما هم فيه بالدمار، ومَقْضِيٌّ على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال؛ لأنَّ دين التوحيد سيظهر في هذه الديار، وستصير العبادة لله الواحد القهار، ولن يعود عليهم من عبادة ذلك الصنم نفعٌ، ولا دَفْعُ ضرر.

١٤٠ - قال لهم موسى ﷺ مُبيِّناً: أغيرَ الله أطلب لكم معبوداً أحملكم على العبودية له، وهو فَضَّلكم على عالمي زمانكم، وقد كان الواجب عليكم أن تَخُصُّوه بالعبادة، كما اختصَّكم هو بالنِّعَمِ الجليلة.

١٤١ - وذَكَّرهم كذلك بنعمة إنجاء الله لهم من العذاب والتنكيل؛ ليبتليهم: أيشكرون أم يكفرون؟ فاذكروا يا بني إسرائيل؛ لتعتبروا وتتعظوا، وتشكروا الله على نِعَمِه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يُعَذِّبونكم أشقَّ العذاب وأصعبَه، إذ كانوا يُزْهِقُون أرواحَ ذُكورِكم، ويَسْتَبْقُون نساءكم ليستخدموهُنَّ، ويَسْتَذِلُّوهُنَّ. وفي ذلكم العذاب الجسدي والنفسي، وفي النجاة منه، امتحان لكم وتمحيص واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١ - جَهْلُ بني إسرائيل بمقام الله تعالى، ونسيانهم لنِعَمِه، وجحودهم لفضله، حَمَلَهم على ما طلبوه من موسى ﷺ أن يجعل لهم آلهة.

٢ - وجوب إنكار المنكر عند وجوده، مع مراعاة مقتضى الحال، وطبيعة المخاطب.

٣- استحباب التذكير بأيام الله للاعتبار والموعظة، واستذكار النِّعَمِ للناس، لعلهم يتوبون.

٤ - الله تعالى يبتلي بالخير والشر، وفي كل ذلك خير لِـمَنْ صبر وشكر.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

التفسير:

١٤٢ - أمر الله تعالى موسى ﷺ أن ينقطع أربعين ليلة؛ ليستعدَّ ويتهيأ لوعد الله، وأَخْذِ التوراة، ويكون لنزولها موقع كبير لديه، وتَشَوُّقٌ إلى إنزالها، فوعد موسى ربَّه بالطاعة والامتثال. فلما تَمَّ الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، وقبل أن يَتَوَجَّه موسى للقاء ربه وَصَّى أخاه هارون وصية، مَفادها: كن خليفتي في قومي، وأَصْلِحْهم بحَمْلِك إياهم على طاعة الله وعبادته، وإياك وطُرُقَ أهل الضلال، وسبل أهل الفساد، فقد كان موسى ﷺ يخشى شراً من قومه؛ لعِلْمِه بضعف إيمانهم، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم.

١٤٣- وحين وصل موسى عليه السلام في الوقت والمكان المحدد الذي وَقَّته الله له، وآنسه بتكليمه، تَشَوَّق لرؤية الله، فقال: رَبِّ بَصِّرْني ومَكِّنّي من النظر إليك، فقال له الله: أنت لن تستطيع رؤيتي، ولكن انظر إلى الجبل في شموخه وثباته، فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني، فلمَّا تَجَلَّى الله تعالى للجبل انهال، وسقط موسى عليه السلام مَغْشِيّاً من هَوْلِ ما رأى، فلمَّا أفاق من غشيته، نَزَّه الله تعالى بالتسبيح والتعظيم، وتاب وأناب إليه.

١٤٤- ثمّ بيَّن الله تعالى صفته لموسى عليه السلام بأني اخترتك، واجتبيتك على الناس في زمانك بإرسالي إياك، وبتكليمي إياك بغير واسطة، وقد أعطيتك من النِّعَمِ العِظام ما أعطيتك، وفيها الوحي بالتوراة، فخذ ياموسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والرسالة والمناجاة والكتاب، وكن من الراسخين في الشكر على ما أنعمتُ به عليك، فأنت أُسْوَةٌ لأهل زمانك.

١٤٥- وبيَّن الله تعالى أنه كتب لموسى عليه السلام في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح؛ ليكون ذلك موعظة لهم، من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيباً وترهيباً، وأمره بأن يأخذها بجِدٍّ وحزم، وصبر وجَلَد، وأمر الله تعالى نبيَّه أن يأمر قومه بأحسنها: وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، وتَوَعَّد الله عز وجل مَنْ خالف أمره بعد هذا الوضوح والتفصيل التام، بأنَّه سبحانه سيريهم عاقبة مَنْ خالف أمره، وخرج عن طاعته، وكيف يصير إلى الهلاك والدمار؟ فتلك سُنَّةُ الله التي لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل.

١٤٦- وكذلك يتوعَّد الله تعالى أعداء الحق بأنَّه سيصرفهم عن الانتفاع بآيات الله وحُجَجِه، بالطبع على قلوبهم لسوء استعدادهم، فلا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يعتبرون، وإذا رأوا كل آية من الآيات المعجزة التي تهدي إلى الحق وترشد إلى الخير، لا يؤمنون بها لفساد قلوبهم، وحسدهم لغيرهم على ما آتاه الله من فضله، وأنَّهم إذا علموا وأبصروا طريق الصلاح والاستقامة والسَّداد لا يتوجهون إليه، ولا يسلكونه؛ لمخالفته لأهوائهم وشهواتهم، وإنْ يَرَوْا طريق الضلال عن الحقِّ يَتَّخِذُوه طريقاً يميلون إليه، ويسيرون فيه بدون تَفَكُّرٍ أو تَدَبُّرٍ. والسبب الذي أدَّى بهم إلى هذا الضلال العجيب هو أنَّهم كَذَّبوا بآيات الله الدالة على بطلان ما هم عليه من أباطيل، وأنَّهم كانوا عن هذه الآيات غافلين لاهين، لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بما اشتملت عليه من عِظات.

١٤٧- ويَتَوَعَّد الله تعالى هؤلاء المكذبين لآياته، والمنكرين للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، ببطلان أعمالهم، وأنَّها صارت هباءً منثوراً، فلا يُجْزَون يوم القيامة إلا الجزاء الذي يستحقُّونه؛ بسبب أعمالهم في الدنيا، فالربُّ سبحانه لا يظلم أحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الوفاء بالوعد من سمات الصادقين.

٢- مشروعية الوصية للخلفاء والنّواب والوكلاء بما هو خير، وبيان مَهامِّهم المفوَّضة إليهم.

٣- ضرورة وجود نائبٍ للسلطان والخليفة، يخلفه في غيابه وأسفاره، وأهمية الاستخلاف في الأرض في مهامِّ الأمور فضلاً عما دونها، مع مراعاة حسن الاختيار.

٤- يُهيِّئ الله تعالى عباده المؤمنين في دار النعيم؛ للتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم.

٥- في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب عند قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ للمبالغة في الحَضِّ على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال: سَأُريهم.

٦- مِنْ شأن مَنْ تربَّى على الضلال، وانغمس في الشرور والآثام، أنه لإلْفِه المنكراتِ يصير الحَسَنُ عنده قبيحاً، والقبيحُ حَسَناً.

٧- لم يَخْلُقِ الله تعالى الضالِّين عن سبيله مطبوعين على شيء ممَّا ذُكِرَ طبعاً، ولم يُجْبِرْهم ويُكْرِهْهم عليه، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم التكذيبَ بآياته الدالَّةِ على الحقِّ.

٨- من عوامل الصَّرْفِ عن آيات الله الكِبْرُ والظلم.

٩- التكذيب بآيات الله والغفلة عنها سبب كل ضلال وشر وظلم وفساد.

١٠-في الآية (١٤٦) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيَصْرِفُ قلوب المتكبِّرين عن طاعته، والمتكبِّرين على النَّاس بغير الحقِّ عن فَهْمِ الحُجَجِ، والأدلَّة الدالَّة على عظمته وشريعته.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ
ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ
إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَآءَ وَلَا
تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ
لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

التفسير:

١٤٨ – لما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه مستخلفاً عليهم أخاه هارون، انتهزوا لِينَ الجانب من هارون عليه السلام، وعبدوا عِجْلاً صنعوه من الحُلِيِّ، له صوت؛ ليكون معبوداً لهم، ولم يَفْطِنُوا – لعَمَى بصيرتهم – أنَّ هذا العِجْلَ لا يقدر على ما يقدر عليه آحادُ البشر، من الكلام والإرشاد إلى أيِّ طريق من طرق الإفادة، ولاشكَّ أنَّهم بهذا كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله، وبوَضْعِهِم الأمورَ في غير مواضعها. وهذا فيه إشعارٌ بأنَّ هذا الظلم دأبُهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ، وأنَّ ما صدر عنهم ليس غريباً منهم، فإنَّهم بمجرد أن أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً.

١٤٩ – ثم بَيَّنَ سبحانه ما كان من نَدَمِهم على عبادة العجل، حين تَبَيَّنُوا ضلالهم واضحاً، كأنَّهم أبصروه بعيونهم، فقد تحسَّروا وطلبوا إلى الله الرحمة والمغفرة.

١٥٠ – رَجَعَ موسى عليه السلام غضباناً حزيناً، لما أحدثه قومه في غيابه، وقال لهم معاتباً: بئس خلافةً خَلَفْتُمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي، وبئس الفعلُ فِعْلُكم بعد فراقي إياكم؛ إذ عبدتم العجل، وتغلغلت في قلوبكم محبتُه، ولم تُعِيرُوا التفاتاً لما عَهِدْتُ به إليكم من توحيد الله، وإخلاص العبادة له، والسير على سنتي، ومن حَقِّ المستخلَفين أن يسيروا بسيرة المستخلِف من بعده ولا يُخالفوه. ثم عاتبهم بقوله: أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربُّكم، وهو انتظاري حافظين لعهدي، وما أوصيتكم به من

التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله، فغيَّرتم وعبدتم العجل؟ فقد كانوا استبطَؤوا قُدومَه ﷺ من الجبل، فخَدَعَهم السامريُّ، وصنع لهم العجل فعبدوه.

ثم بَيَّنَ سبحانه أنَّ غضب موسى ترتَّب عليه أمران، أولهما: أنه ألقى الألواح من يديه لما اعتراه مِنْ فَرْطِ الدهش، وشدة الغضب، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، فإلقاؤه الألواحَ لم يكن إلا غضباً لله، وحَمِيَّةً لدينه، وسخطاً على قومه الذين عبدوا ما يُضْرَبُ به المثل في الضلال.

وثانيهما: أَخْذُ موسى بشَعْر رأس أخيه هارون يَجُرُّه إليه غضباً منه، لظَنِّه أنَّه قد قَصَّرَ في نصحهم، وزَجْرهم عن عبادة العجل. ولكن هارون ﷺ أخذ يستميل موسى بعاطفة الأخوَّة الرحيمة؛ لِيُسْكِنَ من غضبه الشديد، وليبرئ ساحته من التقصير، وألا يعجل بلومه وتعنيفه، فإنه لم يُقَصِّرْ في نصيحتهم، لكنهم قهروه واستضعفوه، وأوشكوا أن يقتلوه، فلا يُمَكِّنَ الأعداء من الشماتة فيه، والاستهانة به، فإنَّ من شأن الأخوة النصرة، وعدم الاتهام بالظلم.

١٥١ - وهنا اقتنع موسى ﷺ ببراءة هارون من التقصير، فدعا ربه دعاء يُظهر فيه لأخيه هارون اعتذاره، وليظهر لأهل الشماتة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته، فقال: ربِّ اغفر لي ما فرط مني من قول أو فِعْلٍ فيه غلظةٌ على أخي، واغفِرْ له ما عسى أن يكون قد قَصَّرَ فيه مما أنت أعلم به مني، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التي وَسِعَتْ كل شيء، فأنت أرحم بعبادك.

١٥٢ - إنَّ عَبَدَةَ العجل سيحيق بهم سخط شديد من ربهم، وسيصيبهم هوانٌ وصغارٌ في الحياة الدنيا. وبمثل هذا الجزاء يجازي الله المفترين جميعاً في كل زمان ومكان، لخروجهم عن طاعته، وتجاوُزِهم حدوده، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة، من بني إسرائيل وغيرهم.

١٥٣ - ثم فتح سبحانه بابه لكل تائب صادق في توبته، فأخبر أنَّ الذين عملوا السيئات، ثم تابوا من بعد فِعْلهم لها توبةً صادقة نصوحاً، ورجعوا إلى الله تعالى نادمين مخلصين الإيمان له، فإنَّ الله تعالى من بعد الكبائر التي أقلعوا عنها سيغفر لهم جرمهم، وسيرحمهم، وكلَّ مَنْ كان مِثْلَهم من التائبين.

١٥٤ - وعندما هدأ غضب موسى بعد اعتذار أخيه، وتوبة قومه، أخذ الألواح التي كان قد ألقاها، وفيها هداية عظيمة إلى طريق الحق، ورحمة واسعة للذين يخافون أشد الخوف مِنْ خالِقِهم ﷻ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان سُنَّةٍ من سنن الكون، وهي أنَّ المرء يتأثر بما يرى ويسمع، والرؤية أكثر تأثيراً في النفس من السماع، فإنَّ نظر بني إسرائيل للآلهة التي مَرُّوا بها وبِمَنْ يعكفون عليها، ثم طلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلهاً مثلها، هو الذي جعلهم يقبلون عِجْلَ السَّامريِّ الذي صنعه لهم، ومن هنا كان لمنظر الباطل وزخرفته أثرٌ بالغٌ في ضعاف الإيمان، فكم أفسد من عقول وأخلاق!!

٢- إذا أراد الله بعبده العاصي أو المبتدع خيراً بَصَّره بحاله، وألهمه التوبة، فيندم ويستغفر.

٣- الغضب من طباع البشر، فلا يُلام عليه المرء مهما بلغ من الكمال، كالأنبياء عليهم السلام، لكن غضبهم للحق دائماً، كما أنَّه لا يخرج بهم إلى أن يقولوا، أو يفعلوا ما ليس بخير وصلاح.

٤- من الآداب الإسلامية الاعتذار عند الخطأ، وإقالة أهل المروءات.

٥- ضرب موسى عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر على قومه.

٦- مشروعية دعاء الله تعالى بأسمائه وصفاته.

٧- كلُّ وعيد لله تعالى تَوَعَّدَ به عبداً من عباده مقيَّدٌ بعدم توبة المتوعَّد.

٨- كلُّ رحمة وهدى ونور في كتاب الله لا ينتفع بها إلا أهل الإيمان والتقوى.

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم
مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ
وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى
يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ
يَعْدِلُونَ (١٥٩) ﴾

التفسير:

١٥٥ - أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتيه مع جماعة من بني إسرائيل بعد توبتهم إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً، وخرج بهم إلى طور سيناء وَفْقَ ميقات محدد له مع ربه، ولكنهم طلبوا رؤية الله، فأَخَذَتْهم الرجفة، فصُعِقوا، وهَلَكوا. وهنا تَوَجَّه موسى عليه السلام إلى ربه داعياً مُلْتجئاً إليه: يا رَبِّ إنني أتمنى لو كانت مشيئتك بهلاكهم سَبَقَتْ خروجَهم معي إلى هذا المكان، وتهلكني معهم؛ حتى لا أقع في حرج مع بقية بني إسرائيل؛ لأنّهم سيقولون لي: قد ذهبت بخِيارنا لإهلاكهم، ألجأ إليك - يا مولاي - ألّا تُهْلِكَنا بذنب غيرنا، فإن كان منّا سفهاءُ قد خرجوا عن طاعتك، وانتهكوا حُرُماتِك، فنحن يا ربِّ مطيعون لك، وخاضعون لأمرك، وما الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك، فأنت الذي اختبرتهم، فالأمرُ كلُّه لك، لا يكشفه إلا أنت. أنت القائم بأمورنا كلها لا أحدَ غيرُك، فاغفِرْ لنا ما فرط منا، وارحمنا برحمتك التي وَسِعَتْ كل شيء، وأنت خير الغافرين، إذ كل غافرٍ سواك إنّما يغفر لغرض، كحُبِّ الثناء، واجتلاب المنافع، أما أنت يا إلهنا فمغفرتك لا لطلب عوض أو غرض، وإنّما هي محضُ الفضل والكرم.

١٥٦ - ثم ختم موسى عليه السلام هذه الدعواتِ الطيبات بأَنْ طلب إلى ربه بعد المغفرة: أن أَثْبِتْ لنا يا ربنا في هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وتوفيق، وأَثْبِتْ لنا في الآخرة أيضاً ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض؛ لأنَّا تُبْنا إليك من المعاصي، فاكتب لنا الحسنات في الدارين، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل. فكان جواب الله ﷻ عن هذه الدعوات: أن يا موسى، إنَّ عذابي الذي تخشى أن يصيب قومك أصيبُ به مَنْ أشاء من العصاة، فلا يتعيَّن أن يكونَ قومُك محلًّا له بعد توبتهم، فقد اقتضت حكمتي أن أجازي الذين أساؤوا بما عملوا، وأجازي الذين أحسنوا بالحسنى، ورحمتي وَسِعَتْ كل شيء من العوالم كلها، فلا مخلوق إلا وقد وصلَتْ إليه رحمتي، وغَمَرَه فضلي وإحساني، فلا تَضِيقُ عن قومك، ولا عن غيرهم من خَلْقي ممَّنْ هم أهلٌ لها، فسأكتب رحمتي للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يُغضب الله، ويُؤَدُّون الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم، وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيماناً تاماً خالصاً لا رياء فيه، ولا نقص معه.

١٥٧ - ثم أضاف سبحانه صفة أخرى لِمَنْ هم أهلٌ لرحمته ورضوانه، وهي ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

وقد وصف الله رسوله ﷺ بأوصاف كريمة تدعو العاقل المُنْصِفَ إلى اتباعه والإيمان به، فوصفه بأنَّه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وأنَّه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين، ووصفه بأنَّه أُمِّي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يأخذ عِلْمَه عن أحدٍ، ولكنَّ الله تعالى أوحى إليه عن طريق جبريل عليه السلام. ومن صفاته أنَّ أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف الذي يتناول الإيمان والعمل، ومكارم الأخلاق التي جاء بها الشرع الحنيف، وينهاهم عن المنكر الذي يتناول الكفر والمعاصي ومساوئ الأخلاق. ومن صفاته أن يُحِلَّ لهم ما حَرَّمه الله عليهم سابقاً من الطيبات - كالشحوم وغيرها - بسبب ظُلْمِهم وفُسوقِهم عقوبةً لهم، ويُحِلَّ لهم ما كانوا حَرَّموه على أنفسهم دون أن يأذن به اللهُ كلُحوم الإبل وألبانها، ويُحَرِّمُ عليهم ما هو خبيث مما استحلُّوه كالدم ولحم الميتة والخنزير في المأكولات، وكأَخْذِ الربا، وأَكْلِ أموال الناس بالباطل في المعاملات.

ويختم الله هذه الصفات بأنه ﷺ جاءهم بدين سمح مُيَسَّر، لا شدة فيه، ولا أغلال، ولا مشقات، ولا تكاليف ثقالاً، بل بُعث بالحنيفية السمحة، فقد كان في شرائع الأمم قبلنا إصْرٌ، وضيِّق عليهم، فوسَّع الله على هذه الأُمة أمورها، وسَهَّلها لهم. فمن الواجب على بني إسرائيل وغيرهم أن يَتَّبِعُوا مَنْ هذه صفاتُه؛ ولذا ختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان أنَّ الذين آمنوا بهذا الرسول النبيِّ الأميِّ، وعَظَّموه، وآزروه،

ونصروا دعوته، واتبعوا الكتاب الذي أنزل معه، وهو القرآن الذي يُستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، هُمُ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجُون من شرهما؛ لأنّهم أتوا بأسباب الفلاح.

١٥٨ - ثم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبيِّن للناس أنّه مرسل إلى الناس كافة. ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية بأنه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والشرعية الدينية، لا معبودَ بحق إلا هو وحده لا شريك له، ولا تُعرف عبادته إلا من طريق رسله. ومن جملة تدابيره سبحانه: الإحياءُ والإماتةُ التي لا يشاركه فيها أحد.

ثم أرشد الله سبحانه بعد بيان هذه النعوت الجليلة التي وصف بها نفسه إلى الدعوةِ للإيمان بالله الواحد الأحد، وبرسوله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله، وبما أنزل عليه وعلى مَنْ تقدَّمه من الرسل من كتبه ووَحْيِه. ثم أمر المؤمنين أن اسلكوا سبيله، واقتفوا آثاره، في كل ما يأمر به أو ينهى عنه؛ رجاءَ أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم.

١٥٩ - ثم بَيَّنَ الله أنَّ قوم موسى لم يكونوا جميعاً ضالِّين، وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار، فمن قوم موسى جماعة عظيمة يَهْدُون الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله، وبالحق أيضاً يسيرون في أحكامهم فلا يَجُورون، ولا يرتشون، وإنما يعدلون في كل شؤونهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٥٦) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيكتب رحمته للذين يخافونه، ويخشون عقابه، فيؤدُّون فروضه، ويجتنبون معاصيه، والذين هم بدلائل التوحيد وبراهينه يُصَدِّقون.

٢- كل سلوك ينافي الشرع فهو من السَّفَه المذموم.

٣- الهداية والإضلال كلاهما بيد الله تعالى، فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله تعالى، ويسأله أن يُجَنِّبَه الضلال.

٤- بيان شَرَفِ النبي محمد ﷺ وأُمته، وعموم رسالة النبي محمد ﷺ للناس كافة.

٥- بيان فَضْلِ تزكية النفس بعمل الصالحات، وإبعادها عن الذنوب.

٦- خَصَّ الزكاة بالذِّكْرِ؛ لأنَّ إيتاءها شاقٌّ على النفوس، ولما لها من أثر عظيم في إصلاح الفرد والمجتمع.

٧- بيانُ فضل التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأَخْذِ الطيبات، وتَرْكِ الخبائث من الأقوال والأفعال والمعتقدات والمطعومات وغيرها.

٨- وجوب توقير النبي ﷺ وتعظيمه ونصرته، واتِّباع الكتاب الذي جاء به، والسنن التي سَنَّها لأمته.

٩- في وَصْفِه ﷺ بالأُميَّة مرتين، إشارة إلى صدق نبوته، والتنويه بما فتح الله له من أبواب العلم، وعَلَّمه ما لم يكن يعلم.

١٠- هدايةُ الإنسان فرداً أو جماعة، أو أُمة إلى الكمال والسعادة، متوقفةٌ على اتباع النبي محمد ﷺ.

١١- إنصافُ الله تعالى في كتابه لِـمَنْ يستحق الإنصاف من الناس، فقد بَيَّنَ جلَّ وعلا أنَّ في قوم موسى الصالحَ والطالحَ، وتلك هي العدالة في القول والحكم التي يحتاج إليها الناس في كل زمان ومكان.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

التفسير:

١٦٠- ومن نِعَمِنا عليهم أَنْ جعلناهم اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متآلفة، ومن النِّعم كذلك ما أوحى الله به إلى موسى عليه السلام حين طلب منه قومه الماء ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضربه فانفجر الحجر، وخرج منه الماء من اثنتي عشرة عيناً، بحسب عدد أسباط بني إسرائيل؛ ليروا بأعينهم مظاهر قدرة الله، وليشاهدوا دليلاً من الأدلة المتعددة التي تؤيد موسى عليه السلام في صدق ما يُبَلِّغه عن ربه، وحتى لا يقعَ بينهم تنازع أو تشاجر، فقد عَرَفَ كلُّ سِبْطٍ من أسباط بني إسرائيل مكان شُرْبِه، فلا يَتَعَدَّاه إلى غيره، فاستراحوا من النَّصَب والمزاحمة والمخاصمة.

ثم ذَكَّرهم سبحانه بنعمة أخرى، وهي تسخير الغَمام بحيث يُلقي عليهم ظِلَّه؛ ليقيَهم من حَرِّ الشمس، وإنزال الله عليهم ﴿ٱلْمَنَّ﴾ وهي مادة صمغية تسقط من الشجر تشبه حلاوتها حلاوة العسل، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهو طائر بَرِّيٌّ لذيذ اللحم، سهل الصيد يسمى السُّماني، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء، فيمسكونه قبضاً بدون تعب.

وأمرهم الله تعالى بعد أن عَدَّد هذه النعم عليهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، ولا يَتَعَدَّوها إلى المحرمات، وكذلك أن يشكروا الله على هذه النِّعم؛ لكي يزيدَهم منها، ولكنهم عَصَوا أمْرَ ربهم، وكفروا بهذه النِّعَمِ الجليلة فقال الله عنهم: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بفِعْلِهم ذلك ومعصيتهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إذ فَوَّتوها كل خير، وعَرَّضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التِّيه.

١٦١- واذكروا - أيها المعاصرون - للنبيِّ ﷺ من بني إسرائيل وقت أن قيل لأسلافكم: اسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه، وقيل لهم: كُلُوا من خيراتها أكلاً واسعاً، واسألوا الله أن يحطَّ عنكم ذنوبكم، وادخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكراً لله على نعمه، فإنكم إن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم، فأمرهم بالخضوع، وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرةَ ذنوبهم، والثواب العاجل والآجل، بل وزيادة للمحسنين من خير الدنيا والآخرة.

١٦٢- ولكن ما كان من بني إسرائيل بعد أن أتمَّ الله لهم نعمة الفتح، إلا الجحود والبطر، فبدَّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فقد أُمِرُوا أن يدخلوا الباب سُجَّداً، فدخلوا يَزْحَفُون على مؤخرتهم رافعي رؤوسهم، وأُمروا أن يقولوا حِطَّة - أي: احطُطْ عنا ذنوبنا - فاستهزؤوا وقالوا: حِنْطة في شعيرة - كما في صحيح البخاري، وقد تَقَدَّم في سورة البقرة الآية (٥٨) - وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله عليهم حين خالفوا أمره وعصوه عذاباً شديداً: إمَّا الطاعون، وإمَّا غيره من العقوبات. وما ظلمهم الله بعقابه، وإنَّما كان ذلك لخروجهم من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم، ولا داعٍ دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إذا أنعم الله على عبدٍ أو أَمَةٍ نعمةً ثم لم يشكرها، سُلِبَتْ منه، أحبَّ أم كره.

٢- إنَّ الله تعالى لا تَضُرُّه معصية عاصٍ، ولا يُنْقِصُ خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عَدْلُ عادل، بل نَفْعُ ذلك للعباد، وضَرَرُه على مَنْ ظلم وطغى.

٣- أَمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيل أن يَدْخُلُوا سُجَّداً، وأن يقولوا هذا القول؛ لأنَّ تَغَلُّبَهم على أعدائهم نعمة من أجَلِّ النِّعَمِ التي تستدعي منهم الشكر الجزيل لله تعالى. ولهذا كان النبي ﷺ يُظهر أقصى درجات الخضوع، وأبلغَ الشكر عند النصر والظفر، وبلوغ المطلوب.

٤- مَنْ أَمَرَه الله تعالى بقولٍ أو فعلٍ، فتركه، وأتى بآخَرَ لم يأذن به الله، دخل في زمرة الظالمين، وعَرَّض نفسه لسوء المصير.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

التفسير:

١٦٣- واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وجمهور المفسرين على أنَّ القرية التي كانت مشرفةً على شاطئ البحر قرية (أيلة)، وتقع بين مَدْيَنَ والطور، إذ اعتدوا يوم السَّبْتِ الذي منعهم الله فيه من الصيد؛ ليختبرهم، فظلموا وتجاوزوا حدود الله بالصيد فيه، فقد كان من ابتلاء الله لهم أنَّ الحيتان كانت تأتيهم يوم السبت ظاهرة على وجه الماء، دانية من القرية، بحيث يُمْكنهم صَيْدُها بسهولة، فإذا مرَّ يوم السبت وانتهى لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه؛ ابتلاءً من الله تعالى لهم، ففِسْقُهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكونَ لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا لَعافاهم الله، ولما عَرَّضهم للبلاء، فتحَيَّلوا على الصيد، فكانوا يحفرون له الحفر، ويَنْصِبُون له الشِّباك. فإذا جاء يوم السبت، ووقعت في تلك الحُفَرِ والشِّباك، ولم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكَثُرَ فيهم ذلك التحايُلُ على المُحَرَّم.

١٦٤- وهنا انقسم أهل القرية ثلاثَ فِرَقٍ: فرقة المعتدين المتجاوزين حدودَ الله عن تَعَمُّدٍ وإصرار، وفرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تَعَدِّيهم، وفرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادِين في السبت، فقد قالت فرقةٌ من أهل القرية لإخوانهم الذين لم يألوا جهداً في نصيحة العادِين في السبت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ لا فائدة مِنْ وَعْظِهم، ولا جَدْوى من تحذيرهم؛ لأنَّ الله تعالى قد قضى باستئصالهم، وتطهيرِ الأرض منهم، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً، جزاء تماديهم في الشَّرِّ، وصَمَمِهم عن سماع الموعظة، فكان رَدُّ الناصحين أن عَلَّلوا نصيحتهم للعادِين بعلَّتين، الأولى: الاعتذار إلى الله تعالى من التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثانية: الأمل في صلاحهم، وانتفاعهم بالموعظة، حتى ينجو من العقوبة،

ويسيروا في طريق المهتدين. وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة، وإقامة الحجة على المأمور المنهي، ولعلَّ الله يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

١٦٥ - ثم بَيَّنَ سبحانه أنَّه لما لَجَّ الظالمون في طغيانهم، وعَمُوا وصَمُّوا عن النصيحة، أنجينا الناصحين، وأَخَذْنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه؛ بسبب خروجهم على أوامر الله.

١٦٦ - ثم حكم الله عليهم بالمسخ قردة صاغرين، فكانوا كذلك، وهذا من قدرة الله تعالى، فعاقب القوم أولاً بالعذاب الشديد، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم، مَسَخَهم مَسْخاً حقيقياً، فكانوا قِردة أذلَّاءَ حقيرين.

١٦٧ - ومن العقوبات التي أقامها الله تعالى على بني إسرائيل المعتدين ما ذكره الله لنبيه محمدٍ ﷺ وقت أن أعلم الله تعالى هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غَيَّروا وبَدَّلوا، ولم يؤمنوا بأنبيائهم، لَيُسَلِّطَنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضَرْبِ الجزية، وغير ذلك من صنوف العذاب. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ أقام على الكفر، وجانب طريق الحق، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً.

١٦٨ - وهذا إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة؛ بسبب كفرهم وجحودهم. وتتمثل هذه العقوبة في تفريقهم في الأرض، وتمزيقهم شرَّ ممزقٍ؛ حتى لا تكونَ لهم شوكة، أي: إنَّ هؤلاء اليهود قد مَزَّقناهم في الأرض شرَّ ممزقٍ؛ بسبب عصيانهم وفسوقهم، وصَيَّرناهم فرقاً متقطعة الأوصال، مشتتة الأهواء. ومن باب إحقاق الحقِّ فإنَّ الله تعالى قال: إنَّ من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فصلح حالها، وحَسُنَتْ عاقبتها، ومنهم كثرة ليس لها رتبةُ أولئك المؤمنين الصالحين؛ بسبب فُسوقهم عن أمر الله، وانتهاكهم لحرماته، وعاملهم الله معاملة المُبتلَى الممتحن تارة بالنِّعَمِ الكثيرة، كالصحة والخِصْبِ وسعة الأرزاق، وتارة بالنِّقَم المتنوعة وأنواع من الشدائد، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم، ويتركون ما نُهُوا عنه من المعاصي والسيئات.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في سؤال أهل الكتاب عن قصة أصحاب السبت تقريع، وتوبيخ لهم على عصيانهم، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الحق، ولا يُعَرِّضون أنفسهم لعقوبات كالتي نزلت بسابقيهم. ومن فوائد سؤالهم كذلك: تعريفهم بأنَّ هذه القصة من ماضيهم فلا يستطيعون إنكارها، ولا تُعْرَفُ إلا بكتاب أو وحي، فإذا أخبرهم بها النبي الأُمي الذي لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له، ودليلاً على أنَّه نبي صادق موحى إليه بها.

٢ - إذا أنعم الله على أُمةٍ نعمةً، ثم أعرضَتْ عن شكرها، تَعَرَّضت للبلاء والعذاب.

٣- إثبات جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد نجَّى الله تعالى الناهين عن المنكر، وأهلك الذين باشروه، ولم ينتهوا منه دون غيرهم.

٤- إطلاق لفظ السوء على المعصية؛ لبيان أنَّ المعصية - مهما كانت صغيرة - تُحْدِثُ السوء في نفس فاعلها وفي مجتمعه.

٥- سكت القرآن عن الفرقة الكارهة للعدوان، والتي لامت الناهين عن السوء على وَعْظهم للمعتدين، لأنَّها كانت يائسة من صلاح المعتدين، فهم على ذلك من الناجين؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

٦- استدلَّ العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل التي يَتَّخِذُها بعض الناس ذريعة؛ للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة.

٧- إنَّ الوعيد الذي تَوَعَّد به اليهودَ في الآيات لم يتوقف، فإنهم ما زالوا محلَّ احتقار الناس وبغضهم، وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأنَّ المسلمين قد فَرَّطوا في حَقِّ خالقهم، وفي حَقِّ أنفسهم، وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ بتعاليم دينهم تعود إليهم عِزَّتُهم المسلوبة.

٨- القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة، وتقرير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء، فهو يمدحُ مَنْ يستحقُّ المديح، ويذمُّ مَنْ هو أهل الذَّمِّ، وما أحوج الناسَ في كل زمان ومكان إلى التخلُّق بهذه الأخلاق.

٩- الابتلاء يكون بالخير والشر.

١٠-في الآية (١٦٧) إخبار عن أمر مستقبلي: بأنَّ الله ﷻ لَيبعثنَّ على الفاسقين من اليهود مَنْ يذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

التفسير:

١٦٩ - فجاء من بعد أولئك القوم الذين قَطَّعْناهم في الأرض أُمماً، خَلْفُ سوء، ورثوا كتاب الله وهو التوراة فقرؤوه وتَعَلَّموه، ووقفوا على ما فيه من تحليل وتحريم وأمر ونهي، ولكنهم لم يتأثروا به، بل خالفوا أحكامه، واستحَلُّوا محارمه، فأصبحوا ﴿ يَأْخُذُونَ ﴾ الشيء الأدنى، والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشوة على تحريف الكَلِم، ويزعمون أنهم يريدون التسهيل على العامة، وبعد ذلك يقولون: إنَّ الله سيغفر لنا ذنوبنا ولا يُؤاخذنا، لأننا من نَسْلِ أنبيائه، فنحن شعبه الذي اصطفاه من سائر البشر، فهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة، فإنهم إن لاح لهم ﴿عَرَضٌ ﴾ حرامٌ آخرُ مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل تهافتوا عليه من جديد، واستحَلُّوه وأكلوه في بطونهم، دون توبة أو ندم.

ثم أنكر سبحانه عليهم ما زعموه بقولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم مُصِرُّون على معصيتهم بأنَّ الله قد أخذ العهد في التوراة على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، والقائلين: سيَغْفِرُ اللهُ فِعْلَنا هذا ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ﴾ القول ﴿ٱلْحَقَّ ﴾، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق، ولا يتجاوزوا حدوده، وقد درس هؤلاء الكتاب، أي: قرؤوه وفهموه، ولكنهم لم يعملوا بما أُخِذَ عليهم فيه من عهود، ولم يَتَّبعوا أوامر كتابهم ونواهيه، لأنَّهم درسوه ولم يتأثَّروا به، ولم تخالِطْ تعاليمُه شغافَ قلوبهم، فضيَّعوه، واشتروا به ثمناً قليلاً.

ثم بَيَّنَ الله لهم أنَّ ما أعَدَّه في الآخرة للمتقين الذين يتعَفَّفون عن السُّحت، وعن أَكْلِ أموال الناس بالباطل هو خير من متاع الدنيا، الذي آثره هؤلاء المفترون على الله الكذبَ. وهنا يقول الله لهم: أفلا يكون لكم عقولٌ تُوازِنُ بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره. وفي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادةً في التوبيخ والتأنيب.

١٧٠ - ثم أثنى الله تعالى على مَنْ تمسَّك بكتابه، فبَيَّنَ أنَّ الذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذي أنزله الله، ويعتصمون بحبله في جميع شؤونهم لن يضيع الله أجْرَهم، لأنَّهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم. والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً.

١٧١ - ويختم الله تعالى الحديث عن قصة موسى مع قومه بذِكْرِ مِنَّةٍ أخرى على بني إسرائيل فيقول: واذكر يا محمد، وذَكِّر بني إسرائيل المعاصرين لك، وقت أَنْ رَفَعْنا الجبل فوق آبائهم الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام حتى صار كأنه غمامة فوق رؤوسهم؛ لِنُرِيَهم آية من الآيات التي تدل على قدرتنا وعظمتنا، وذلك حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم صدودٌ عمَّا جاءهم به موسى عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم أُلزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون فوق رؤوسهم، وتأكدوا أنَّ الجبل ساقط عليهم، إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيُّهم عليه السلام، وقيل لهم في هذا الموقف: تَمَسَّكوا بما آتيناكم من الكتاب، واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبَّلوه بدون تقصير أو تَرَدُّد، واذْكُرُوا ما فيه بأن تحفظوه وتتدارسوه، واعملوا به بلا تعطيل لشيء منه، وهذا كله لكي تَتَّقوا الهلاك في دنياكم وآخرتكم، وترجوا الله ربكم أن تكونوا من طائفة المتقين. ولكنَّ بني إسرائيل لم يذكروا، ولم يتدبَّروا بل نقضوا العهد، ولَـجُّوا في المعصية، فاستحقُّوا لعنة الله، وغضبه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الطمع في متاع الحياة الدنيا من أسباب الهلاك، فقد جعل بني إسرائيل يقولون على الله غير الحق، ويتشبَّعون من المال الحرام بدون تعفُّفٍ، ويبيعون دينهم بدنياهم، ولذلك أطبق أهلُ الحقِّ على ذَمِّ المتمنِّي على الله.

٢ - خَصَّ الصلاة بالذِّكر مع دخولها فيما قبلها إظهاراً لمزيتها؛ لكونها عماد الدين، وناهية عن الفحشاء والمنكر.

٣ - المقصود من إنزال الكتب العمل بمقتضاها، لا تلاوتها فحسب.

٤ - العاقل هو الذي يعمل في دنياه، ويتعب ويكدُّ فيها بالعمل الصالح؛ كي يتمتع بنعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول.

٥ - التنديد بإيثار الدنيا على الآخرة، وبتمني المغفرة مع الإصرار على الإجرام.

٦ - بَعَثَ اللهُ رُسَلَه بصلاح الدارَين، فكل مَنْ كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم.

٧ - لا يكفي صلاح العبد للنجاة من العذاب، بل لابُدَّ أن يكون مُصْلِحاً لغيره.

٨ - بيان طبائع اليهود ونفوسهم الشاذة، فكانوا يتمرَّدون على ربهم، ويَعْصُونه، برفضهم الالتزام بما عَهِدَ إليهم من أحكام، حتى يرفع الله فوقهم الطور تهديداً لهم، وعندئذ التزموا، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى نقضوا عهدهم، وعَصَوا ربهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ
شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

التفسير:

١٧٢- واذكر أيها الرسول، وليذكر كلُّ عاقل وقت أن استخرج الله تعالى من أصلاب بني آدم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون، ويتوالدون قرناً بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم، وأصلاب آبائهم، قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فِطْرَتِهم من الإقرار، بأنَّه ربُّهم وخالقهم ومليكهم، فقال: أَلَسْتُ بربِّكم، ومالك أمركم، ومُرَبِّيكم؟ قالُوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ على أنفسنا، عن عقيدة واقتناع بأنَّك أنت ربنا وخالقنا، ولا رَبَّ لنا سواك، فإنَّ آثار رحمتك وعجائب خلقك، ومظاهر قدرتك تجعلنا لا نتردَّد في هذه الشهادة. وعَلَّل سبحانه هذا الاستشهاد منعاً من ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معتذرين عن شرككم: إنَّا كُنَّا عن هذا الأمر - وهو إفراد الله تعالى بالربوبية - غافلين لم نتنبه له؛ لأنَّ،هم ما داموا قد خُلِقُوا على الفطرة، ونَصَبَ الله لهم في كل شيء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته، وجاءتهم الرسل فبَشَّرَتْهم وأنذَرْتهم، فقد بَطَلَ عُذْرُهم، وسقطت حُجَّتُهم.

١٧٣- ثم بَيَّن سبحانه سبباً آخر لهذا الإشهاد وهو لئلَّا تقولوا يوم الحساب: إنَّ آباءنا هم الذين سَنُّوا هذا الإشراك وساروا عليه، فنحن قد اتبعناهم في ذلك بمقتضى أننا أبناؤهم، فإنَّ قولكم هذا غير مقبول بعد أن هيأ الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لنور الحق، لو كنتم مستعدِّين لقبوله.

١٧٤- وكذلك نُبَيِّن الآيات على وجه التفصيل، ولعلهم يثوبون إلى ما أودع الله في فطرتهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيتَه تعالى معرفة فطرية، ولكنَّ الفطرة قد تتغيَّر، وتتبدَّل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة.

٢- عجيبُ تدبيرِ الله تعالى في خلقه.

٣- الكافر كَفَرَ مرتين: كَفَرَ بالعهد الذي أُخذ عليه وهو في عالم الذَّرِّ، وكَفَرَ بالله مرة أخرى، وهو في عالم الشهادة، والمؤمن آمن مرتين.

٤- قد يَعْرِضُ للعبد من أقوال آبائه الضالِّين، ومذاهبهم الفاسدة ما يظنُّه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حُجَجِ الله وبيِّناته، فإعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صَيَّره بحالة يفضل بها الباطل على الحق.

٥- ذَمُّ التقليد في الدين بلا تَبَصُّرٍ.

٦- محبة الله تعالى لعباده الرجوع للحق؛ ولذا أنزل الكتب، وفَصَلَ بين الأوامر والنواهي، وأثبتها بكل الحُجَجِ والبراهين.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

التفسير:

١٧٥- واقرأ على قومك - أيها الرسول- ليعتبروا ويتعظوا، خبرَ ذلك الإنسان ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ بأن علَّمناه إياه، وفَهَّمْناه مراميها، ﴿فَانْسَلَخَ﴾ من تلك الآيات انسلاخ الجِلْدِ من الشاة، فلحقه الشيطان وأدركه، فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالِّين الراسخين في الغَواية.

١٧٦- ثم يُبيِّن الله أنَّه لو شاء لَرفعه بسبب تلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان؛ لأنَّ الله تعالى لا يستعصي على قدرته شيء، ولكنَّ هذا المنسلخ لَزِمَ الدنيا، واتبع شهوات نفسه. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ إن شددت عليه واتبعته لَـهَثَ، وإن تَرَكْتَه على حاله لَـهَثَ أيضاً، فهو دائم اللَّهْثِ. لأنَّ اللَّهْثَ طبيعة فيه، وكذلك حال الحريصِ على الدنيا، الـمُعْرِضِ عن الآيات بعد إيتائها، إنْ وَعَظْتَه فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ، وإن تَرَكْتَ وَعْظَه فهو حريص على الدنيا وشهواتها أيضاً. فهذا ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من الجاحدين المنسلخين عن الهدى بعد أن كان في حَوْزَتهم، ثم يُوَجِّه الله نبيَّه أن يَقُصَّ على قومه ما قَصَّه الله عليه؛ ليتفكروا، فينزجروا عمَّا هم عليه من الكفر والضلال.

١٧٧- ثم ختم الله تعالى هذا المَثَل بأنّه ﴿ سَآءَ مَثَلًا ﴾ مَثَلُ أولئك ﴿ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ إذ شُبِّهُوا بالكلاب: إما في استواء الحالتين في النقصان، وأنّهم ضالُّون وُعِظوا أم لم يُوعَظوا، وإما في الخِسَّة، فإنَّ الكلاب لا هَمَّ لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمَنْ خرج عن خير الهدى والعلم، وأقبل على هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المَثَلُ مَثَلُه، فهؤلاء جمعوا بين أمرين قبيحين: التكذيبِ، وظُلْمِهم أنفسَهم بارتكابهم تلك الموبقاتِ والخطيئاتِ.

١٧٨- ثم يُعَقِّبُ الله تعالى على هذا المثل بأنَّ مَنْ يوفقه الله تعالى إلى سلوك طريق الهدى باستعمال عقله وحواسِّه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدي حقاً، الواصل إلى رضوان الله صدقاً، ومَنْ يخذله ربه سبحانه بالحرمان من هذا التوفيق، بسبب إيثاره السير في طريق الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم.

١٧٩- وتَوَعَّد الله تعالى المخالفين لأمره بأنّه قد خَلَقَ لدخول جهنم، والتعذيب بها ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتَدَبُّرِها، الذين عَلِمَ اللهُ منهم من الأزل اختيارَهم الكفر، فشاءه منهم، وخَلَقَه فيهم، وجعل مصيرهم النار، حيث إنّهم ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الآيات الهادية إلى الإيمان مع أنَّ دلائل الإيمان مبثوثة في ثنايا الكون، تُدْركها القلوب المتفتحة، والبصائر المستنيرة، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ ما في هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار، ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ الآياتِ والمواعظَ سماعَ تَدَبُّرٍ واتعاظ، أي: إنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية.

ومَنْ هذه صفاتُهم فهم ﴿ كَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ السارحة التي لا تنتفع بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، بل هم أسوأ حالاً من الأنعام؛ إذ إنَّ الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التي تهديها، أما الإنسان فقد زُوِّدَ إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي، والعقل المدرك، والعين المبصرة، وزُوِّد بالقدرة على اتباع الهدى، أو اتباع الضلال، فهم في غفلة عَمّا فيه صَلاحُهم وخيرُهم وسعادتُهم؛ بسبب استحواذ الهوى والشيطان عليهم، ولا يظلم ربك أحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- في التعبير بقوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ مبالغة في ذمِّ هذا الإنسان وتحقيره، وجعله كأنّه إمام للشيطان، والشيطان يتبعه.

٢- سُنَّةُ الله جرت بأنَّ الرِّفْعَةَ لِـمَنْ عنده الاستعداد لذلك، أما الذي ركن إلى الدنيا، واطمأن بها، واستحوذت بشهواتها على نفسه، واختار لنفسه طريق الضلال، واتبع هواه في ذلك، فلن يرفعه الله، ولن يكرمه.

٣- اتِّباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخِذْلان.

٤- ترك القرآن الكريم بهَجْرِ تلاوته والتدبر فيه، وترك العمل به مُفْضٍ بالعبد إلى أن يكون هو صاحب المثل في هذه الآي، إذ لا رِفْعةَ ولا سعادة إلا بالعمل بالقرآن.

٥- إفراد المهتدي للإشارة إلى أنَّ سبيل الهداية لا يتعدد، وجمع الثاني وهو قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للإشارة إلى تَعَدُّد أنواع الضلال، وتنوُّع وسائله وأساليبه.

٦- الهداية بيد الله، فلْيَطْلبها مَنْ أرادها من الله بصدق القلب، وإخلاص النية، فإنَّ الله تعالى لا يحرمه منها، ومَنْ أعرض عن الله أعرض الله عنه.

٧- تقرير مبدأ أنَّ السعادة والشقاء سَبَقَ بها قلمُ القضاء والقدر، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له.

٨- هبوط الآدمي إلى دَرَكٍ أَهْبَطَ من دَرَكِ الحيوان، وذلك عندما يكفر بربه، ويُعَطِّلُ حواسه عن الانتفاع بها، ويقصر همَّه على الحياة الدنيا.

٩- بيان أنَّ البلاء كامن في الغفلة عن آيات الله، والإعراض عنها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣)﴾

التفسير:

١٨٠- يأمر الله تعالى بإخلاص العبادة لله تعالى، ومجانبة الملحدين والمشركين، وذلك ببيان أنَّ لله تعالى وحدَه جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني، وأكمل الصفات، ومن تمام كونها «حسنى» أنَّه لا يُدْعى إلا بها، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة. ثم أمر الله تعالى بالإعراض عن جميع الذين يلحدون في أسمائه، فحقيقة الإلحاد الميلُ بها عمَّا جُعِلَتْ له، إما بأن يُسَمَّى بها مَنْ لا يستحقها، كتسمية المشركين بها آلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، أو أن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وتَوَعَّد هؤلاء الذين يُلْحِدون في أسماء الله بأنَّهم سَيَلْقَون جزاء عملهم من الله رب العالمين.

١٨١ - يُبيِّنُ الله تعالى أن من جملة مَنْ خلق أُمةً فاضلة كاملة في نفسها، مكمِّلة لغيرها، ﴿يَهْدُونَ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فيعلمون الحق ويعملون به، ويُعَلِّمونه، وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات وغير ذلك. وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجى.

١٨٢ - ثم يُبيِّن حال المكذبين بآياته الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى، فرَدُّوها ولم يقبلوها، بأنه سيُمْهِلُهم، ويمدُّهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم، بكثرة النِّعَمِ بين أيديهم، حتى يفاجئهم الهلاك ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه صنع هذا معهم لوناً من الاستدراج.

١٨٣ - وأَمْهَلَ هؤلاء المكذِّبين المستدرجين في العمر، وأمدَّ لهم في أسباب الحياة الرغيدة، حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشَرّاً إلى شرهم، فتزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيَضُرُّون أنفسهم من حيث لا يشعرون، فكيدُ الله شديد متين، لا يُدافَع بقوة ولا بحيلة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الأمر بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى.

٢ - حرمة تأويل أسماء الله وصفاته، أو تحريفها.

٣ - أهل الجنة الذين خلقوا لها هم الذين يهدون بالكتاب والسنة، ويَقْضُون بهما.

٤ - عظم خطر التكذيب بالقرآن الكريم، حتى إنَّ المكذِّب لَيُسْتَدْرَجُ حتى يهلك وهو لا يعلم.

٥ - في الآية (١٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الذين كَذَّبوا بآيات الله، سيفتح الله لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا، استدراجاً لهم حتى يَغْتَرُّوا بما هم فيه، ويعتقدوا أنَّهم على شيء، ثم يعاقبهم الله على غفلة من حيث لا يعلمون.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ
يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ
يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ
أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

التفسير:

١٨٤ – ثم يقرر الله صدق رسوله ﷺ فيما جاء به، ونفي ما يتهمونه به من الجنون، أنهم لو يُعْمِلُون أفكارهم، وينظرون: هل في صاحبهم الذي يعرفونه، ولا يخفى عليهم من حاله شيء، ضَرْبٌ من الجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمَّها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، فهو بهذا﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون، وإنما هو مُبالِغٌ في الإنذار، مُظْهِرٌ له غايةَ الإظهار، فهو لا يُقَصِّرُ في تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب، ولا يتهاون في نصيحتكم وإرشادكم إلى ما يصلح من شأنكم.

١٨٥ – ثم دعاهم القرآن إلى النظر والاستدلال العقلي، ونعى على إخلالهم بالتأمل في الآيات الكونية إثر تقريعهم على إغفال تفكُّرهم في أمر نبيهم ﷺ؛ وذلك بأنَّهم لم ينظروا نَظَرَ تأمُّل واعتبار واستدلال في ملكوت السموات: من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي ملكوت الأرض: من البحار والجبال والدواب وغيرها. ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف، مما يشهد بأن لهذا الكون خالقاً قادراً هو المستحِقُّ وحده للعبادة والخضوع. وكذلك لم ينظروا أيضاً في اقتراب آجالهم، وتَوَقُّعِ موتهم في أيِّ وقت، فيُسارعوا إلى طَلَبِ الحق، والتوجُّه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم، ونزول العذاب بهم وهم على الضلال، فبأيِّ حديث يؤمنون به؟

١٨٦ – ثم عَقَّب على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بأنه مَنْ يُرِدِ الله إضلاله بسبب اختياره للضلالة، وصَمَمِه عن الاستماع للحق، فلا قدرة لأحدٍ على هدايته، وهو سبحانه يترك هؤلاء الضالِّين في طغيانهم متحيرين متردِّدين، لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حق.

١٨٧ - ثم بَيَّن أن أمر الساعة مَرَدُّه إلى الله تعالى، فقد ورد أنَّ هذه الآية نزلت في قريش، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، فالله تعالى يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أي: المكذِّبون لك، الذين يسألون عن يوم القيامة: متى وقته الذي يجيء فيه؟

وهنا قال الله لنبيه: قُلْ لهم إنَّه تعالى مختص بعلمها، لا يظهرها لوقتها الذي قَدَّر أن تقوم فيه إلا هو، وقد خَفِيَ عِلْمُها على أهل السموات والأرض، واشتدَّ أمرُها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون. ولن تَأْتِيكُمْ الساعة إلا فجأة من حيث لا تشعرون، فهم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك عالم بها، ولم يعلموا أنَّك - لكمال عِلْمِك بربِّك، وما ينفع السؤالَ عنه - غير حريص على السؤال عنها، فلِمَ لا يَقْتَدُون بك؟ ثم يؤكد تعالى أنَّ عِلْمَها عنده ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ فلذلك حَرَصُوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، ولاسيما مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهَمِّ، ويَدَعُون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يُدْرِكَه، ولا هم مطالَبون بعلمه.

١٨٨ - ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يُبَيِّن للناس أنَّ كل الأمور بيد الله، والغيب لا يعلمه إلا الله، حتى إنِّي لا أملك لأجل نفسي جَلْبَ نفعٍ ما، ولا دَفْعَ ضرر ما، في أي وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئة الله بأن يمكنني من ذلك، فإنني حينئذٍ أملكه بمشيئته، فليس لي من العلم إلا ما عَلَّمني الله تعالى، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ لَفَعَلْتُ الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، واتَّقَيْتُ كلَّ ما يُفْضي إلى سوء ومكروه. وما أنا إلا عبد أرسلني الله نَذِيراً أنذر العقوبات الدنيوية والأخروية، وأبيِّن الأعمال المفضية إلى ذلك، وأُحَذِّر منها، وبشيراً بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كلُّ أَحَدٍ يقبل هذه البشارة والنِّذارة، وإنما ينتفع بذلك المؤمنون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التعبير بـ «صاحبهم» للإيذان بأنَّ طُول مصاحبتهم له ممَّا يطلعهم على نزاهته عما اتهموه به، فهو ﷺ قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة، كانوا يُلَقِّبونه فيها بالصادق الأمين، ويَعْرِفُون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم، والتفكير المستقيم.

٢ - من أهم وسائل الإيمان النظر والتفكُّر في خلق السموات والأرض، وما فيهما من الآيات العظيمة.

٣ - أكبر موعظة أن يتذكر الإنسان دائماً أنَّ أَجَلَه قد يكون قريباً وهو لا يدري، فيأخذ بالحذر والحيطة حتى لا يُؤْخَذَ على غير توبة، فيخسر.

٤ - مَنْ لا يتعظ بالقرآن وبما فيه من الزواجر، والعِظات والعبر، لا يتعظ بغيره.

٥- توجيه السائلين عن وقت قيام الساعة، إلى الواجب عليهم، وهو الاستعداد لها، بدل أن يُكْثروا من السؤال عن زمن مجيئها.

٧- أطلق الله على يوم القيامة ساعةً؛ لوقوعه بغتة، ولسرعة ما فيه من الحساب، ولأنَّه على طوله قَدْرٌ يسير عند الله.

٨- الساعة من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته، وسعة علمه؛ ولكي يكونوا دائماً على حذر، فيكون ذلك أدعى للطاعة، وأزجرَ عن المعصية، فإنَّه متى عَلِمَها المكلف فقد يتقاصر عن التوبة ويُؤَخِّرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ
حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ
شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

التفسير:

١٨٩- يذكر الله تعالى لنا شيئاً من مظاهر قدرته وأدلة وحدانيته، إذ ينبِّه على أنَّ الذي يستحق العبادة والخضوع، والذي عنده مفاتح الغيب ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس أبيكم آدم، وجعل من نوع هذه النفس وجنسها زوجها حواء؛ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر. فلما تَجَلَّلها مُجامعاً لها قدَّر الباري أن يكون من ذلك الجِماعِ النَّسْلُ، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ لا تُحِسُّ به الأنثى، ولا يُثْقِلُها، وذلك في ابتداء الحَمْلِ، ثم تأتي المرحلة الثانية من مراحل الحمل، حين أصبحت ذات ثِقَل بسبب نمو الحمل في بطنها، وتَعَلَّق به قلب الزوجين، تَوَجَّها إلى ربِّهما يَدْعُوانه بضَراعَةٍ وطَمَعٍ: يا رَبَّنا لئن أعطيتنا نَسْلاً سوياً تامَّ الخِلْقَةِ، لَنكونَنَّ من المداومين على شُكْرِ نَعْمائك.

١٩٠- فحين أعطاهما سبحانه الولد الصالح الذي كانا يتمنِّيانه، جعلا لله تعالى شركاء في هذا العطاء، وأخلَّا بالشكر في مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال، إذ نسبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطبيعة، أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله تعالى بالعبادة والشكر. وختم الله تعالى هذا الذي حصل منهم بتنزُّهِه سبحانه عن شِرْك هؤلاء الجاحدين الذين يُقابِلُون نِعَمَ الله بالإشراك والكفران.

١٩١- مضت الآيات في بيان توبيخ المشركين، وفي إبطال شركهم بأسلوب منطقي حكيم، فقد جاء باستفهام يُجَهِّلُ، ويُنْكِرُ إشراكهم مع الله - وهو الخالق لهم ولكل شيء - ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ من الأشياء مهما يكن حقيراً، بل إنَّ هذه الأصنام التي تُعبد من دون الله مخلوقة ومصنوعة، فكيف يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكاً ونِدّاً للخالق القادر؟

١٩٢- ثم إنَّ هذه الأصنامَ فضلاً عن كونها مخلوقة، فإنها لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصراً على أعدائهم، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شراً، ومَنْ هذه صفتُه كيف يُعْبَدُ من دون الله؟

١٩٣- وكذلك - أيها المشركون - إن تَدْعُوا هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم، أي: لا ينفعوكم بشيء، ولا ينتفعوا منكم بشيء، ويستوي عندكم دعاؤكم إياهم، وبقاؤكم على صمتكم، فإنَّه لا يتغير حالكم في الحالين، كما لا يتغير حالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أصل خلق البشر هو آدم وحواء عليهما السلام.

٢- الجنس إلى الجنس أميل، وبه آنس. فإذا كانت المرأة بعضاً من الرجل، كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه؛ لكونه بضعة منه. فالأصل في الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار، وهذه نظرة الإسلام إلى تلك الحياة.

٣- المتأمِّل في الأسلوب القرآني يرى سموَّ القرآن في تعبيره، وأدبه في عرض الحقائق، فإنَّ أسلوبه يلطف ويدقُّ عند تصوير العلاقة بين الزوجين، فهو يَسُوقُها عن طريق كناية تتناسب مع جَوِّ السكن والمودة بين الزوجين، وتَتَّسِقُ مع جَوِّ الستر الذي تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة بين الرجل والمرأة، ولا نجد كلمة تؤدِّي هذه المعاني أفضل من كلمة ﴿تَغَشَّـٰهَا﴾.

٤- ضَعْفُ الإنسان عند الحاجة ولُجُوءُه بفطرته إلى الله تعالى، أكبر دليل على وجوب صرف العبادة لله وحده.

٥- في الآيات توبيخ للمشركين، حيث إنَّ الله تعالى أنعم عليهم بخَلْقِهم من نفس واحدة، وجعل أزواجهم من أنفسهم؛ ليَأْنَسوا بهنَّ، وأعطاهم الذريَّة، وأخذ عليهم العهود بشكره على هذه النِّعَمِ، ولكنَّهم جَحَدُوا نِعَمَه، وأشركوا معه في العبادة والشكر آلهة أخرى.

٦- التنديد بالشِّرك والمشركين، وبيان جهل المشركين وسَفَهِهم؛ إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ
ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ
وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ
﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

التفسير:

١٩٤- ثم يتحدَّى الله تعالى المشركين، فيقرر لهم أنَّ هذه الأصناف التي تعبدونها من دون الله، أو تنادُونها لدَفْعِ الضُّرِّ، أو جَلْبِ الخير، مماثلة لكم في كونها مملوكة لله، مسخرة مُذَلَّلة لقدرته، كما أنكم أنتم كذلك، فلا فرق بينكم وبينهم، وإن كنتم وما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئاً ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ فإن استجابوا لكم، وتَحَقَّقَ مطلوبُكم، وإلا تَبَيَّن أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفِرْيَةِ.

١٩٥- وهل لهذه الأصنام التي تزعمون أنها تُقَرِّبكم إلى الله زُلْفى ﴿أَرۡجُلٞ﴾ تسعى بها إلى دَفْعِ ضُرٍّ، أو جَلْبِ نفعٍ، أو ﴿أَيۡدٖ﴾ تبطش بها، أو تأخذ بها ما تريد أخذه، أو ﴿أَعۡيُنٞ﴾ تُبْصِرُ بها شؤونكم وأحوالكم، أو ﴿ءَاذَانٞ﴾ تسمع بها أقوالكم، وتعرف بواسطتها مطالبكم، بل هي عاجزة لفقدها الحواسَّ التي هي مناط الكسب، فقل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين عَطَّلوا عقولهم: نادُوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء؛ ثم تعاونوا أنتم وهم على إلحاق الضرِّ بي من غير انتظار، فإني أنا معتزٌّ بالله، وملتجِئٌ إلى حِماه، ومَنْ كان كذلك فلن يخشى شيئاً من المخلوقين.

١٩٦- وأَمَرَ الله نبيه ﷺ أن يعلن باعتزاز أنَّ الله وحده هو ناصري ومُتَوَلِّي أمري، وهو الذي نَزَّل هذا القرآن لأُخرجَكم به من الظلمات إلى النور، وقد جَرَتْ سنته سبحانه أن يَتَوَلَّى الصالحين الذين صَلَحَتْ نيَّاتهم، وأعمالهم، وأقوالهم.

١٩٧- أما الذين تَعبدونهم من دون الله، أو تنادونهم لدفع الضر، أو جَلْبِ النفع، فلا يستطيعون نَصْرَكم في أيِّ أمرٍ من الأمور، وفضلاً عن ذلك، فهم لا يستطيعون رَفْعَ الأذى عن أنفسهم، إذا ما اعتدى عليهم معتدٍ.

١٩٨- وإذا طلبتم أن يُرْشِدُوكم إلى ما تُحَصِّلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك، لا يسمعون شيئاً ممَّا تطلبونه إليهم. ولو سمعوا - على سبيل الفَرَض- ما استجابوا لكم؛ لعجزهم عن فِعْلِ

أيِّ شيء، وترى هذه الأصنام كأنَّها تنظر إليك بواسطة تلك العيون المنحوتة، ولكنها في الواقع لا تُبصر لخلُوِّها من الحياة.

الفوائد والاستنباطات:

١- إقامة الحجة على المشركين بالكشف عن حقيقة ما يَدَّعُون أنَّها آلهة، فإذا بها أصنامٌ لا تَسْمع ولا تجيب، لا أيدٍ لها ولا أرْجُلٍ ولا آذانٍ ولا أعين.

٢- وجوب التوكل على الله تعالى، وطرد الخوف من النفس، والوقوف أمام الباطل وأهله في شجاعة وصبر وثبات، اعتماداً على الله تعالى وولايته، إذ هو يتولَّى الصالحين.

٣- جواز المبالغة في التنفير من الباطل والشر، بذكر العيوب والنقائص.

٤- وبَّخَتْ هذه الآيات الكريمة المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ، وأثبتَتْ بالأدلة المنطقية الحكيمة وبوسائل الحس والمشاهدة أنَّ هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، وفي الوقت نفسه فالآيات دعوةٌ لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته لله الواحد القهار.

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ
قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

التفسير:

١٩٩- خذ - يا محمد - ما تيسَّر وسَهُلَ من أخلاق الناس، وارضَ منهم بما تيسَّر من أعمالهم من غير مشقة، ولا تطلب منهم ما يُحْرِجُهم ويرهقهم، حتى لا ينفروا، وكُنْ ليِّناً رفيقاً في معاملة أتباعك، وأْمُرْ غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال، وهو: كلُّ ما عُرِفَ حُسْنُه في الشرع، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير، واجعل ما يأتي إلى الناس منك: إمَّا تعليمَ عِلْمٍ، أو حَثّاً على خير، من صلة رحم، أو بِرِّ والدين، أو إصلاحٍ بين الناس، أو زَجْرٍ عن قبيح. ولما كان لابُدَّ من التعرُّض لأذى الجاهل أمر الله تعالى بالإعراض عن الذين لا يدركون قِيَمَ الأشياء والأشخاص والكلمات، فيما يبدر منهم من أنواع السَّفاهة والإيذاء.

٢٠٠- ثم نَبَّه الله نبيَّه - والمسلمون تَبَعٌ له - أنَّه إذا تعرَّض لك الشيطان بوسوسة تثير رَيْبَك، وتَحْمِلُك على خلاف ما أُمِرْتَ به من أَخْذ العفو والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، فاستَجِرْ بالله من نَزْغِه؛ لأنَّه سبحانه سميعٌ لجهل الجاهل عليك، ولغير ذلك من كلام خَلْقِه، لا يَخْفَى عليه منه شيء، عليمٌ بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه، وهو سبحانه كذلك سميع لدعائك، عليمٌ بكلِّ أحوالك، وهو وحده الكفيلُ بصَرْفِ وسوسة الشياطين عنك، وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم.

٢٠١- ثم بَيَّنَ سبحانه حالة المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما يغضبه أنهم إذا مَسَّهم شيء من وسوسة الشيطان ونَزَغاته التي تُلْهيهم عن طاعة الله، تَذَكَّروا أنَّ المسَّ إنَّما هو من عَدُوِّهم الشيطان، وتذكَّروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله، ورجعوا إلى طاعة الله، وإلى خوف مقامه، ونَهَوا أنفسهم عن اتباع الشياطين، فتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ومعاينة للحق.

٢٠٢- أمَّا الذين لم يتقوا الله، ولم يَلْجؤوا إلى حِماه، ولم يخالفوا الشيطان من المشركين والغافلين، فيزيدهم إخوانهم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بارتكاب المعاصي، ثم لا يكُفُّ هؤلاء الشياطين عن إمداد أوليائهم من الإنس بألوان الشرور، والآثام، حتى يهلكوهم.

٢٠٣- وإذا لم تأتهم بآية من القرآن، أو بآية ممَّا اقترحوه عليك من الآيات الكونية، قالوا له بجهالة وسفاهة: هَلَّا جمعتها من عند نفسك واخترعتها اختراعاً بعقلك، أو هَلَّا ألحَحْتَ في الطلب على ربك؛ ليعطيكَ إياها، ويجمعَها لك.

وهنا أمر الله تعالى نبيَّه أن يقول: إنما أنا مُتَّبعٌ لا مبتدع، فما يوحيه الله إليَّ من الآيات، فأنا أبلِّغه إليكم بدون تغيير أو تبديل، والله سبحانه هو الذي يُنَزِّلُ الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضته حكمته البالغة، فإن أردتم آيةً لا تضمحلُّ على تعاقب الأوقات فهذا القرآن العظيم، والذِّكْرُ الحكيم أعظم المعجزات، وأَبْيَنُ الدلالات، فهو بمنزلة البصائر للقلوب، به تُبْصِرُ الحق، وتدرك الصواب، وهو هداية لكم من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، ويعملون بإرشاداته ووصاياه.

الفوائد والاستنباطات:

١- النفوس حين تألف الخير لا تحتاج إلى مناقشة وجدال لتوجيهها.

٢- الإعراض عن الجاهلين من الحكمة في الدعوة، ومن ثمراتِه تذليلُ نفوسهم، وترويضها.

٣- في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، وهي طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار، وقد جاءت في

أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله تعالى، وإبطال الشرك؛ لكي تُبيِّن للناس في كل زمان ومكان أنَّ التحلِّي بمكارم الأخلاق إنَّما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد.

٤- الاستعاذة بالله تعالى سُنَّةٌ للمتقين، والإخلال بها من طبيعة الضالين، وهذا يدلُّ على عُلُوِّ منزلة المتقين، وقوة إيمانهم؛ لأنَّهم بمجرد أن تطوفَ بهم وساوسُ الشيطان، أو يَمَسَّهم شيء منه، فإنَّهم يتذكَّرون عداوته، فيرجعون إلى حِمى ربِّهم يستجيرون به، ويتوبون إليه.

٥- التربية الإسلامية تعنى بتربية المسلم في كل أحواله البنائية والوقائية والعلاجية، والاستعاذة تضمنت هذه الأحوال الثلاثة؛ فهي تبني فيه صحة العلم وقوة الإرادة، ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وتحميه من مرض الشبهات والشهوات.

٦- مَسُّ الشيطان قد يُغلق بصيرة الإنسان عن كلِّ خير، ولكنَّ التقوى هي التي تفتح هذه البصيرة، وهي التي تجعل الإنسان دائماً يقظاً مُتَذَكِّراً لما أمره الله به، أو نهاه عنه، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهَمَزاته.

٧- التعبير عن الوسوسة بالطائف؛ إشعار بأنَّها وإن مَسَّتْ هؤلاء المتقين، فإنَّها لا تُؤَثِّر فيهم؛ كأنَّها طافَتْ حولهم دون أن تصلَ إليهم.

٨- القرآن أكبر آية، بل هو أعظم من كلِّ الآيات التي أعطيها الرسل عليهم السلام، فهو البصائر والهدى، مهما كانت حُجَّةُ المعاندين.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

التفسير:

٢٠٤- ثم أمر تعالى بأنَّه إذا قُرِئَ القرآن الذي ذُكِرَتْ خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبُّرٍ وخشوع، وأصغُوا إليه بأسماعكم وكلِّ جوارحكم؛ لتفهموا معانيه، وتَفَقَّهوا توجيهاتِه، وأنْصِتُوا لقراءته حتى تنقضي؛ تعظيماً له، لكي تفوزوا برحمة الله ورضاه.

٢٠٥- ثم اختُتمت السورةُ الكريمة بالأمر بذِكْرِ الله، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ، والمؤمنون له تَبَعٌ: استحضِرْ عظمةَ ربِّك جلَّ جلالُه في قلبك، واذْكُرْه بما يُقَرِّبُك إليه، عن طريقِ قراءةِ القرآن، والدعاء والتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك، واذكُرْه بتَضَرُّعٍ وتَذَلُّلٍ وخوفٍ ذِكْراً في نفسك، وذِكْراً بلسانك

دون رَفْعِ الصوت بإفراط، وبما دونَه مِمَّا هو أقلُّ منه، وهو الوسطُ بين الجهر والمخافتة، وذلك بأن تُسْمِعَ نفسَك، وذلك في كل وقت، ولاسيما في أول النهار وآخره، لأنَّ هذين الوقتين طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذِكْرِ الله، واختتمه به كان جديراً برعاية ربِّه. ثم نهى سبحانه نبيَّه أن يخالف ذلك، وأن ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين نَسُوا الله، فأنساهم أنفسهم، فإنَّهم حُرِمُوا خير الدنيا والآخرة، وأَعْرَضوا عَمَّنْ كلُّ السعادة والفوز في ذِكْرِه وعبوديته، وأقْبَلُوا على مَنْ كلُّ الشقاوة والخَيبة في الاشتغال به.

٢٠٦- ثم ذكر تعالى ما يُقَوِّي دواعي الذكر، وينهض بالهمم إليه، بمدحه للملائكة الذين يُسَبِّحون الليل والنهار لا يفترون، فالذين عِنْدَ الله وهم ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يُؤَدُّونها حسبما أُمِروا به بخضوع وطاعة، وينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله على أبلغ وجه، ويَخُصُّونه وحده بغاية العبودية والتذلل والخضوع المتمثل في السجود له وحده، ولا يُشْرِكون معه أحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاستماع المأمور به يكون في الصلاة وفي غير الصلاة، فالآية تقتضي منَّا أن نستمع إلى القرآن بتدبُّر وإنصات وخشوع؛ ليكون له تأثيره الشافي في القلوب، وليقودَها إلى الطاعة والتقوى، فتُنال المغفرة والرحمة.

٢- الله تعالى أمر بالإسماع وهو أن يُلْقِيَ سَمْعَه، ويُحْضِرَ قلبه، ويتدبَّرَ ما يستمع، وأَمَرَ كذلك بالإنصات في الظاهر بتَرْكِ التحدُّث، أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

٣- إذا لازم المسلم الاستماع والإنصات حين يُتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً متجدداً، وبصيرةً في دينه؛ ولهذا جعل الله حصول الرحمة نتيجة لهما، فدلَّ ذلك على أنَّ مَنْ تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع ويُنْصِتْ له، محرومُ الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

٤- الذِّكْرُ والدعاء يكون في النفس؛ لأنَّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء، ويكون على سبيل التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير، مع إظهار الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية، ويكون دون الجهر؛ لأنَّه أقربُ إلى حسن التفكر، ويكون باللسان لا بالقلب وحده، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله.

٥- من فوائد ذِكْرِ قوة الملائكة وكثرتهم: أنَّ الله لا يريد أن يَتكَثَّر بعبادتكم من قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بها من ذِلَّة، وإنَّما يريد نَفْعَ الناس وفوزَهم.

٦- ينبغي التأسِّي بالصالحين، والاقتداءُ بهم في فِعْلِ الخيرات، وتَرْكِ المنكرات.

النزول: مدنية.

فضائل السورة:

عن واثلة بن الأسقع ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «أُعطيتُ مكانَ التوراة السبعَ، وأُعطيتُ مكان الزَّبور المئِين، وأُعطيتُ مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصل». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب، وقال الشيخ الألباني: «الحديث بمجموع طرقه صحيح ، والله أعلم». (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٦٩).

والسبع الطوال: من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الأعراف فهذه ست سور، واختلفوا في السابعة أهي الأنفال وبراءة معاً؛ لعدم الفصل بينهما بالبسملة، بجعل الأنفال وبراءة بمنزلة سورة واحدة، أم هي سورة الأنفال فقط، أم سورة يونس؟ وعلى جميع الأقوال فسورةُ الأنفال داخلة ضمن السبع.

المقاصد:

١ - بيان أحكام الغنائم.

٢- تفصيل أسباب النصر.

٣- بيان أحكام التعامل مع الكافرين في السلم والحرب.

٤ - بيان مِنَّةِ الله ﷻ في تأليفه بين قلوب المؤمنين.

٥ - أهمية أحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا، والذين لم يُهاجِرُوا، وعدم موالاتهم للذين كفروا.

٦- الحديث عن بعض تفاصيلِ غزوة بدر، وكيف نصر الله تعالى المؤمنين، وأيّدهم على الكافرين؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

١ - سبب النزول:

أخرج مسلم عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت فيَّ أربع آيات، أصبتُ سيفاً فأتى به النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله! نَفِّلْنيه. فقال: «ضَعْه» ثم قام. فقال له النبي ﷺ: «ضَعْه من حيث أَخَذْتَه»، ثم قام فقال: نَفِّلْنيه يا رسول الله! فقال: «ضَعْه» فقام فقال: يا رسول الله! نَفِّلْنيه. أأُجْعَلُ كمَنْ لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «ضَعْه من حيث أَخَذْتَه» قال: فنزلت هذه الآية:﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

(صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٧-١٣٦٨ برقم ١٧٤٨ - كتاب الجهاد والسير، باب الأنفال).

التفسير:

يسألك بعض أصحابك - يا محمد - عن غنائم بدر كيف تُقْسَمُ؟ ومَنِ المستحق لها؟ فقل لهم: الغنائم لله يَحكم فيها بحكمه سبحانه، وللرسول ﷺ فهو الذي يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها. ثم حَثَّهم: أن اتقوا الله - أيها المؤمنون - بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأَصْلِحُوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر؛ بالتوادِّ والتحابِّ والتواصل، والتزِمُوا طاعة الله ورسوله في كلِّ أموركم، إن كنتم مُصَدِّقين بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

٢ - ثم بَيَّنَ تعالى صفات المؤمنين الصادقين: أنَّهم إذا ذُكِر اسم الله، وذُكِرَتْ صفاتُه أمامهم، خافت قلوبهم، استعظاماً لجلاله، وحَذَراً من عقابه، ورغبةً في ثوابه؛ وذلك لمعرفتهم بالله تعالى حَقَّ المعرفة، وتقديرهم لله حَقَّ قَدْره.

والصفة الثانية من صفات المؤمنين: أنهم إذا قُرِئَتْ عليهم آيات الله زادتهم قوةً في التصديق، ورسوخاً في اليقين، ومبادرةً إلى الأعمال الصالحة، وسَعَةً في العلم والمعرفة. وهذا من أهمِّ الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه.

أما الصفة الثالثة فهي: أنهم يعتمدون على ربهم الذي خلقهم بقدرته، وربَّاهم بنعمته، فلا يرجون سواه، ولا يَلُوذون إلا بجَنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٣- أما الصفة الرابعة فهي: أنَّهم يُؤَدُّون الصلاة في مواقيتها، مستوفيةً لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها. وكانت الصفة الخامسة أنَّهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة نفس، وسخاء يد، استجابةً لتعاليم ربِّهم.

٤- ثم مدح سبحانه أصحاب هذه الصفات، بأنَّهم هم المؤمنون إيماناً حقاً، وسيُجْزَون لذلك دَرَجاتٍ عالية، ومكانة سامية عند رَبِّهم. وهذا فيه مزيد تشريف لهم، ولطف بهم، وإيذان بأنَّ ما وعدهم به مُتَيَقَّنُ الوقوع. وهؤلاء المؤمنون مَغْفِرَةٌ شاملة لما فرط منهم من ذنوبٍ أو تقصير، ولهم كذلك أعظم الرزق وأفضله في الجنة، يجعلهم يَحْيَون فيها حياة طيبة لا لَغْوٌ فِيها ولا تَأْثِيمٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الإجابة عن سؤال الصحابة عن الغنائم، تربيةٌ حكيمة لهم - وهم في أول لقاء لهم مع أعدائهم- حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله. أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التي تأتيهم من وراء جهادهم، فعليهم ألَّا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم، وأن يُفَوِّضوا الأمر فيها لله ورسوله ﷺ عن إذعانٍ وتسليم.

٢- كَرَّرَ سبحانه لفظ الجلالة في الآية الأولى ثلاث مرات؛ لتربية المهابة في القلوب، وتعليل الحكم؛ حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم.

٣- قرن الله بينه وبين رسوله مرتين؛ لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه، والإيذان بأنَّ طاعتَه ﷺ طاعة لله تعالى، ومخالفته مخالفة لأمر الله تعالى.

٤- في توسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة، إظهارٌ لكمال العناية بالإصلاح، وليندرجَ الأمرُ به بعينه تحت الأمر بالطاعة.

٥- تَقَدَّمَتْ أداة الحصر (إنما) عند ذكر صفات المؤمنين؛ للإشعار بأنَّ مَنْ هذه صفاتُهم هم المؤمنون، الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم، أما غيرهم ممَّنْ لم تتوافر فيه هذه الصفات، فأمْرُهم غيرُ أَمْرِهم، وجزاؤهم غير جزائهم.

٦- صفات المؤمنين المذكورة جمعت بين العبادات القلبية والبدنية والمالية، ولا شك أنَّها متى تَمَكَّنَتْ في النفس، كان صاحبها أهلاً لمحبة الله ورضوانه.

٧- التوكل على الله جِماع الإيمان، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب التي شرعها سبحانه، فالمؤمن يباشر الأسباب التي شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة من غير أن يتعلَّق قلبه بها، تاركاً النتائج لله يُسَيِّرها كيف يشاء.

٨- في وصف الرزق الذي أعَدَّه لهم بالكرم زيادة في إدخال السرور على قلوبهم؛ لأنَّ لفظ الكريم دالٌّ عند العرب على بلوغ الموصوف به غاية الحسن والقَدْرِ في بابه.

٩- للإيمان حقيقة ودلائل يسعى المؤمن لتحقيقها في تحقيقها، وليس دعوة ولا كلمات وأمنيات.

١٠- إصلاح ذات البَيْن بين المؤمنين له أولوية وأهمية؛ لأنَّه يحفظ الصف المسلم من المشاحنات.

١١- منهج التربية القرآنية منهج واقعي عملي، فعلى الدعاة إلى الله ﷻ أن يُحْسِنُوا التعامل مع آيات القرآن الكريم، ويتفاعلوا معها، ويَقيسوا أنفسهم عليها.

١٢- في الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لعُلُوِّ رتبتهم، وبُعْدِ منزلتهم في الشرف.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

٥- يُبَيِّن الله تعالى لنبيه ﷺ أنَّ حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمَك الغنائم بالسويَّة، مثل حال بعضهم في كراهة الخروج معك للقتال، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة ، فالله تعالى أمر نبيَّه محمداً ﷺ بالخروج إلى المشركين في بدر موافِقٌ للمصلحة، في الوقت الذي كَرِهَ فريق من المؤمنين ذلك الخروج. فقد حدث فيه أمران يَدُلَّان على شيء من عدم الرضا من فريق من الصحابة، ثم أعقبهما الرضا والإذعان والتسليم لحكم الله ورسوله، فالأول: أن فريقاً من الصحابة كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسَّوِيَّة فيها إجحاف بحَقِّهم، لأنَّهم الذين قاموا بالنصيب الأوفر في القتال، وأنَّ غيرهم لم يكن له بلاؤهم، فأصلح الله بينهم، ورَدَّهم إلى حالة الرضا والصفاء.

والأمر الثاني: أنَّ جماعة منهم قبل المعركة كرهوا قتال قريش بعد نجاة العِير التي خرجوا من أجل الحصول عليها؛ إذ خرجوا بدون استعداد للقتال، لا من حيث العددُ، ولا من حيث العُدَّة، وما كان من مَيْلٍ للغنائم، أو نُفْرَةٍ للقتال، فهو مِمَّا لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يقال: إنَّه لا يليق بمقام الصحابة، ولكنهم سرعان ما استجابوا لما نصحهم به رسولهم ﷺ من وجوب قتال قريش. فشبَّه اللهُ حالَهم هذا بحالهم في مسألة الغنيمة ، وهذا أكمل بيان، وأوجز لفظ.

٦- ثم يقول الله تعالى لنبيه مستنكراً ما وقع من كراهية بعض الصحابة القتال: إنَّ بعض أصحابك يا محمد ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في أمر القتال، بأنْ قالوا: ما كان خروجنا إلا للعِير، ولو أَخْبَرْتَنا بالقتال لأعددنا العُدَّة له. وهذا الجدال كان ﴿فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ بإخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم، وأنَّه لا مَفَرَّ لهم من لقاء قريش، تحقيقاً لوعد الله الذي وعد بإحدى الطائفتين. وهذا فيه زيادة في لومهم، وبيانٌ لثمرة الإذعان لأمر الله ورسوله ﷺ، وإن لم تظهر الحكمة أول الأمر، وصَوَّرهم أبلغ تصوير، حتى إنَّهم لَيكرهون القتال كراهة مَنْ يساق إلى الموت، وهو ناظر إلى أسبابه، ومُشاهِدٌ لموجباته. وفي هذا تصوير معجز لِـما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال، بسبب قِلَّةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم.

٧-٨- ثم بَيَّنَ سبحانه جانباً من مظاهر فَضْلِه على المؤمنين، مع جَزَعِ بعضهم من قتال عدوِّه وعدوِّهم، وإيثارهم العِيرَ على النفير: اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أنْ وَعَدَكم الله تعالى على لسان رسوله بأن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾: العِير أو النفير هي لكم، تظفرون بها، وتتصرفون فيها تَصَرُّفَ المالك في ملكه، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة العير التي لا قتالَ فيها يُذكر، على طائفة النفير التي تحتاج منكم إلى قتال شديد، وإلى بَذْلٍ للمُهَجِ والأرواح. وفي هذه الجملة تعريض بهم، فقد كرهوا القتال، وأَحَبُّوا المال، وما هكذا يكون شأن المؤمنين بالغيب، الصادقين الواثقين بربهم. واستعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدَّة والحِدَّة بينهما.

ثم بَيَّنَ سبحانه الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم، ونصرتهم عليهم؛ ليثبتَ الدين الحق دين الإسلام، ويمحق الباطل، وهو ما عليه المشركون من كفر وطغيان، إذ اقتضت إرادة الله أن يُعِزَّ الدين الحق وهو دين الإسلام، وأن يمحق ما سواه، ولو كره المشركون ذلك؛ لأنَّ كراهيتهم لا وزن لها، ولا تعويل عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجدال في الحق بعد تَبَيُّنِه أقبحُ من الجدال فيه قبل ظهوره.

٢- في الآيات تقرير قاعدة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

٣- بيان رحمة الله بالإنسان، وبيان ضَعْفِه في رغبته في كلِّ مالا كُلْفَةَ فيه ولا مشقة.

٤- الهدف المنشود عند المؤمنين هو إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وهذا يحتاج إلى صبر وثبات.

٥- إرادة الله للعبد خيرٌ من إرادته لنفسه، فعلى المؤمن أن يمضي في طريق الله ﷻ، لا يأبه بكل قوى الباطل التي تحاول أن تقطع عليه طريق دعوته.

٦- النفس البشرية قد تتذبذب في مواجهة الخطر، ولكن البطولة هي المضيُّ لأمر الله ورسوله بعد التذبذب، والإقدام بعد التأرجح.

٧- الله ﷻ تكَفَّل بحِفْظِ دينه، ونصرة دعوته، وجعل المؤمنين محلًّا لتنفيذ قَدَره، وهو سبحانه بفضله ومِنَّته يعطيهم الأجر الجزيل؛ لكونهم ساروا في طريقه، وضَحَّوا في سبيله بالغالي والنفيس.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ
فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

هنا بيان من الله تعالى لبعض النِّعَمِ التي أنعم بها على المؤمنين في بدر، إذ أيّدهم الله بها، فانتصروا.

٩- فالله تعالى يقول لهم: يا أهل بدر اذكروا نعمة الله عليكم؛ لما قارب التقاؤكم بعدوِّكم بالغَتْمْ في الطلب من الله ورجائه أن يُعينكم ويُنْصُرَكم، فكان رسول الله ﷺ يدعو وأنتم تؤمنون، ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ الله لكم، وهذا من فضل الله عليكم ورحمته بكم. وكان من مظاهر تلك الاستجابة أن أخبركم على لسان نبيّكم ﷺ بأني مُعينكم وناصِرُكم بألف من الملائكة متتابعين، بعضهم على إثر بعض.

١٠- وما جعل الله تعالى هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم - أيها المؤمنون - بالنصر على أعدائكم، حتى تزدادوا ثقة به، ولا تقنطوا من النصر عند قلة أسبابه، ولتسكنَ بهذا الإمدادِ قلوبُكم، ويزول عنكم الخوف، وتهاجموا أعداءكم بنفوسٍ لا يُداخلها الإحجام أو التردُّد. فالنصر بالملائكة أو بغيرهم لا يكون إلا من عند الله وحده، والله تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغالِبه مُغالِبٌ، بل هو القهّار الذي يخذل مَنْ بلغوا من الكثرة، وقوة العدد والآلة ما بلغوا. ﴿حَكِيمٌ﴾ إذ قدّر الأمور بأسبابها، ووَضَعَ الأشياء مواضعها.

١١- ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتكم أن ألقى عليكم النُّعاس، وغشّاكم به قبل التحامكم بأعدائكم، ليكون أماناً لقلوبكم، وراحة لأبدانكم، وبشارةَ خيرٍ لكم، فإن الخائف إذا خاف من عدوِّه فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمِنُوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد، دليلاً على إزالة الخوف وحصول الأمن، فناموا واثقين بالله، مطمئنين لوعده، وأصبحوا على هِمّةٍ ونشاط في لقاء عدوه وعدوهم.

ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتكم أن أنزل عليكم الماء. ولنزول هذا الماء فوائد، فهو أولاً: تطهير حسي لكم، وثانياً: ليُزيل عنكم وسوسة الشيطان، بتخويفه إياكم من العطش، وبإلقائه في نفوسكم الظنون

والأوهام. وهذا هو التطهير الباطني، وثالثاً: ليقوِّي ويَشُدَّ على القلوب بالثقة في نصر الله، وليُوَطِّنَها على الصبر والطمأنينة. ولا شك أنَّ وجود الماء في حَوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم، وثباتاً على ثباتهم، أمَّا فَقْدُه فإنه يؤدي إلى فقد الثقة والاطمئنان، بل وإلى الهزيمة المحققة.

ورابع هذه الفوائد التي نَجَمَتْ عن نزول الماء من السماء على المؤمنين: تثبيت أقدامهم به حتى لا تسوخ في الرمال، وحتى يسهل المشي عليها، إذ من المعروف أن من العسير المشيَ على الرمال، فإذا ما نزلت عليها الأمطار ثبتت، وسَهُل السير فوقها من غير ضرر، وانطفأ غبارها.

١٢- ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثة المؤمنين أن ذَكَّرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم في نَصْرهم على المشركين، إذ قال: واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدَّ بهم المسلمين في بدر ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بعَوني وتأييدي ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقَوُّوا قلوبهم، ومَلَؤُوا نفوسهم ثقةً بالنصر، وصَحَّحوا نياتهم في القتال حتى تكون غايتهم إعلاء كلمة الله. وذلك بالحمل على الثبات في موطن الحرب، والجِدِّ في مقاساة شدائد القتال، ومن ذلك ظهور بعضهم أحياناً في صورة بشرية يعرفونها.

ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتهم أنّه بشَّر المؤمنين بشارة عظيمة: سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفزع منكم، وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم.

ثم حثَّ الله المؤمنين على الأخذ بوسائل النصر، وما وَفَّقهم إليه منها، وطلب إليهم أن يهاجموا أعداءه وأعداءهم بقوة وغِلْظَة، وأن يضربوهم على أعناقهم ورؤوسهم، ومواضع نَحْرِهم، وعلى أطرافهم حتى يَشُلُّوا حركتهم، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم.

١٣- ثم بَيَّن سبحانه السبب في هذا الفعل من ضَرْب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق، وضَرْبِ كل بَنان منهم. إنهم فارقوا أمْرَ الله ورسوله وعَصَوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان، ومَنْ يخالف أمرَ الله وأمر رسوله ويفارق طاعتهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك بما يحلُّ بأعدائه في الدنيا من النِّقَم، وفي الآخرة من الخلودِ في نار جهنم.

١٤- ثم يُوَجِّه سبحانه خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقُّوا الله ورسوله، متوعِّداً إياهم بسوء المصير: بأنَّ ذلكم الذي نزل بكم - أيها الكافرون - من القتل والأَسْر في بدر، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرككم وعنادكم، فذوقوا آلامه في الدنيا، أما في الآخرة فلكم عذاب النار الذي هو أشدُّ وأبقى من عذاب الدنيا، فذوقوا ما عَجَّل لكم مع ما أجَّل لكم في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - مشروعية الاستغاثة بالله تعالى، وهي عبادة محضة، فلا يصح أن يستغاث بغير الله تعالى.

٢ - مشاقة الله ورسوله كفرٌ يستوجب صاحبها عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

٣ - تعليم الله تعالى عباده كيف يقاتلون، ويضربون أعداءهم، وهذا شرف كبير للمؤمنين.

٤ - النصر بالملائكة أو بغيرهم لا يكون إلا من عند الله وحده، لأنَّه سبحانه هو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، فالمؤثِّر الحقيقي في النصر هو الله وحده، والوسائل مهما عَظُمَتْ، والأسباب مهما كثرت، لا تؤدي إلى النتيجة المطلوبة، والغاية المرجوة، إلا إذا أيَّدَتْها إرادة الله، ورعايته.

٥ - تقديم الجار والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾؛ للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر.

٦ - في ظل الأزمات والشدائد يرسل الله تعالى لعباده ما يثبتهم، ويشدُّ على قلوبهم، فيرون في الشدة فَرَجاً وفتحاً كبيراً.

٧ - أعظم سنن النصر في الإسلام:

أ- أنَّ النصر من عند الله.

ب- وأنَّ النصر لا يتنزل إلا على المؤمنين.

ج- وأنَّ النصر لا يكون إلا بالمؤمنين.

٨ - يستعين المؤمن الصادق على نوائب الدهر بالدعاء والتوكل والإنابة.

٩ - الثقة في نصر الله شأن المؤمنين مهما كانت الظروف المحيطة، ومهما تكالب الأعداء، وقلَّ الناصرُ، وضَعُفَ المعين.

١٠ - في الآية (١٢) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيُلقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد، والذِّلَّة، والصَّغار.

١١ - ينظر: خريطة موقع العُدوة الدنيا والقصوى، كما في الملحق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ
وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - يا مَنْ آمنتم بالله حقَّ الإيمان، إذا لَقِيتم الكفار زاحفين نحوكم لقتالكم فلا تَفِرُّوا منهم، ولا تُوَلُّوهم ظهوركم منهزمين، بل قابلوهم بقوة وشجاعة.

١٦ - ومن يُولِ الكافرين يوم لقائهم ظهره غيرَ قاصد التمكُّن من القتال، كأن يرى مكاناً أصلح، وموقفاً أفضل، ولا منحازاً إلى فئة لزيادة القوة والكرِّ على العدوِّ؛ فقد رجع متلبِّساً بغضب شديد من الله تعالى، وأنَّ مَقرَّه الذي سيستقر إليه في الآخرة جهنم. وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير.

١٧ - فلم تقتلوهم بقوتكم وبأسكم، ولكن الله تعالى هو الذي أظفركم بحوله وقوته بأَنْ خَذَلَهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وقوّى قلوبكم، وأمدَّكم بالملائكة، ومنحكم من معونته ورعايته ما بلَّغكم هذا النصر. وما رميت يا محمد حين رميت إلا أن الله تعالى سدَّد رَمْيك للتراب؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم أحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها، فحينئذٍ بان فيهم الفشل والضعف فانهزموا، ثم نبَّه تعالى أنَّه قادر على نصر المؤمنين على الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكنَّ الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويُوصِلَهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً، فالله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَسْمَعُ ما أَسَرَّ به العبدُ وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النِّيات، فيُقَدِّر على العباد أقداراً موافقةً لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كُلًّا بحسب نيته وعمله.

١٨ - ذلكم الذي منحتُه إياكم من العطاء الحسن، والإمداد بالملائكة، وإنزال الماء عليكم وإلحاق الهزيمة بالمشركين. ذلكم كله نِعَمٌ مني إليكم. ويُضاف إلى ذلك كله أني مُضْعِفٌ لكيد الكافرين، ومفسد لمكرهم بكم.

١٩ - ثم وَجَّه سبحانه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرُّسوخ في الكفر على أن يَدْعُوا الله أن يجعل الدائرة في بدر على أضلِّ الفريقين، فقد ورد أن كفار قريش عند خروجهم إلى بدر تَعَلَّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الجُنْدَين، وأنَّ أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أيُّنا أقطع للرحم.. فأَحْنِه الغداةَ، فكان ذلك استفتاحه؛ ولذا بيَّن الله لهم بقوله: إن تطلبوا القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم، إذ حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين، بأَنْ أعَزَّهم ونصرهم لأنهم على الحق، وخَذَلكم وأذَلَّكم لأنكم على الباطل، فكان الأمرُ خلاف ما أرادوا.

فالخطاب للمشركين في: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ على سبيل السخرية والتهكم، كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

ثم حَذَّرهم من التمادي في الباطل بعد ترغيبهم في الانقياد للحق، فقال لهم: ﴿ وَإِن تَعُودُواْ ﴾ إلى محاربة الرسول ﷺ والمؤمنين وعداوتهم ﴿ نَعُدْ ﴾ عليكم بالهزيمة والذِّلَّة. وعلى المؤمنين بالنصر والعزة، ولن تستطيع جماعتكم ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أن تدفع عنكم شيئاً من تلك الهزيمة، وهذه الذلَّة.

ثم ختم الله تعالى الآية بتثبيت المؤمنين، وإلقاء الطمأنينة في نفوسهم، بأن أكَّد أنَّه مع المؤمنين بعونه وتأييده، ومن كان الله معه فهو المنصور، وإن كان ضعيفاً في العُدَّة، قليلاً عددُه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من شأن المؤمن أن يكون شجاعاً لا جباناً، ومقبلاً غير مدبر.

٢ - الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر.

٣ - أثبت الله تعالى الرمي لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ صورته وُجِدَتْ منه، ونفاه عنه، لأنَّ أثره الذي لا يطيقه البشر هو فِعْلُ الله ﷻ.

٤ - تقرير مبدأ أنَّ الله تعالى خالق كل شيء، وأنه خلق العبد وخلق فِعْلَه.

٥ - الكثرة والقوة لا وزنَ لها ولا قيمة، إذا لم يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده.

٦ - مَعِيَّةُ الله تعالى للمؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان، فإذا انتصر العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطاً من المؤمنين بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما هُزمت لهم راية.

٧ - المؤمن الصادق يَثْبُتُ في ميدان الدعوة والجهاد واثقاً بعون الله وتأييده، وأنَّه أقوى من الباطل المنتفش مهما تَسَلَّط؛ لأن المؤمن موصول بالله ﷻ.

٨- الله ﷻ يُدَبِّر للمؤمنين ويُسَدِّدهم، ويُوهن كيد الكافرين، ويُضْعِفُهم.

٩- سُنَّةُ الله في النصر، والهزيمة جارية لا تَتَخَلَّف ولا تتبدَّل، والمهم أن يلتزم المؤمنون بمنهج الله، ولا ينحرفون عنه، ولا ينخدعون بغيره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٠- يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، ولا تُدْبِروا عن رسول الله ﷺ مخالِفين أمْرَه ونَهْيَه ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ ما يُتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتَوَلِّيكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

٢١- وإياكم أن تتشبَّهوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادَّعَوا السَّماع، فقالوا سمعنا، وهم لم يسمعوا سماع انتفاع، لأنَّهم لم يُصَدِّقُوا ما سمعوه، ولم يتأثروا به، بل نبذوه وراء ظهورهم.

٢٢- ثم وصف سبحانه الكفار والمنافقين وأشباههم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم، فقال: إنَّ شَرَّ ما دبَّ على الأرض مِنْ خَلْقِ الله عند الله الذين يَصُمُّون عن الحق؛ لئلَّا يستمعوه؛ فيعتبروا به، ويتعظوا به، ويَنْكُصون عنه إن نطقوا به، ولا يعقلون ما ينفعهم، ويُؤْثِرُونه على ما يَضُرُّهم، فهؤلاء شرٌّ عند الله من جميع الدوابِّ.

فشَبَّه الكفار بالبهائم، بل جعلهم شراً منها، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، إذ إن الكافر لا يسمع الحق، والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به، والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يَضُرُّ، والبهائم لا تَضُرُّ، فكيف لا يكون شراً منها؟

٢٣- ولو أنَّ الله تعالى عَلِمَ أنَّ عندهم استعداداً للإيمان ورغبةً فيما يُصْلِحُ نفوسهم وقلوبهم، لجعلهم سامعين للحق، ومستجيبين له، ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك، فحَجَبَ خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم، فلو أسمعهم سماعَ تَفَهُّمٍ وتَدَبُّرٍ وهم على هذه الحالة الخالية من كل خير ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عمَّا سمعوه من الحق ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ عن قبوله جُحوداً وعِناداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، وحرمة معصيتهما.

٢- ليس الإيمان بالتمني والتحلِّي، ولكنه ما وقر في القلوب، وصَدَّقَتْه الأعمال.

٣- حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال، وفي كل شيء من سلوكهم واعتقاداتهم وأفعالهم السيئة.

٤- بيان أنَّ من الناس مَنْ هو شرٌّ من الأنعام؛ لأنَّ الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه، وعدموا بذلك الخير الكثير. فوصفهم سبحانه بالصمم والبُكم مع أنهم يسمعون وينطقون؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بهذه الحواس.

٥- الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لِـمَنْ لا خير فيه، وله تعالى الحكمة البالغة.

٦- السعادة الحقيقية والحياة الطيبة في الاستجابة لله والرسول؛ لأنَّها تَصالُحٌ مع الفطرة، وانسجامٌ مع الكون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٤ - ثم وَجّه سبحانه النداء الثالث إلى المؤمنين بما يَقْتضيه إيمانهم من الانقياد لأمره، والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه عن طواعية واختيار، وهمّة وحسن استعداد، لأنّ ما يدعو إليه الله ورسله فيه حياة القلب والروح، الحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

وإياكم أن تَرُدُّوا أَمْرَ الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه، وتختلف قلوبُكم، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه، يُقلِّب القلوب حيث شاء، ويُصَرِّفها أنّى شاء، واعلموا أنكم ستجمعون ليومٍ لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

٢٥ - ثم يُؤَكِّد سبحانه بعد ذلك ترهيبه لهم من التراخي في تغيير المنكر: بأن احْذَروا أن ينزل بكم عذاب سيَعُمُّ عند نزولِه الأخيار والفجّار، والمحسنين والمسيئين، وذلك إذا ظهر الظلمُ فلم يُغَيَّر، فإنَّ عقوبته تَعُمُّ الفاعلَ وغيره، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لِـمَنْ خالف أَمْرَه، وانتهك حرماته، وتَعرَّض لمساخطه.

٢٦ - ثم ذَكَّرهم الله بجانبٍ مِنْ فَضْلِه عليهم في نَصْرِهم بعد الذِّلّة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد الفقر؛ وذلك ليتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نِعَم الله، وأن يُداوموا على شكرها حتى يزيدهم سبحانه من فضله. واذْكُرُوا - يا معشر المؤمنين - وقت أن كنتم قِلَّةً مستضعفة في أرض مكة تحت سَطْوَةِ كفار قريش، أو في أرض الجزيرة العربية، تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذاً سريعاً؛ لقوتهم وضعفكم، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال، وأبدلكم خيراً منها، بأَنْ آواكم إلى المدينة، وألَّف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ في غزوة بدر، وقذف في قلوب أعدائكم الرعب منكم، ﴿وَرَزَقَكُم﴾ مِنَ الغنائم التي أحَلَّها لكم بعد أن كانت محرَّمَةً على الذين من قبلكم، كما رزقكم أيضاً بكثير

من المطاعم والمشارب الطيبة التي لم تكن متوافرة لكم قبل ذلك، وذلك كله حتى تستمروا على طاعة الله وشكره، ولا يشغلكم عن ذلك أي شاغل، وتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

٢٧- ثم وَجَّه سبحانه بعد ذلك نداءً رابعاً إلى المؤمنين: بأن ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بتَرْكِ فرائضه وأوامره التي كَلَّفكم بها، وانتهاك حرماته التي نهى عن الاقتراب منها، ولا تخونوا الرسول ﷺ، بأن تتركوا سنته، وتُخالِفوا ما أمركم به وترتكبوا ما نهاكم عنه، ولا تخونوا ما اؤْتُمِنتم عليه بأن تُفْشُوا الأسرار التي بينكم، وتنقضوا العهود التي تعاهدتم على الوفاء بها، وتُنكروا الودائع التي أودعها لديكم غيركم، وتستبيحوا ما يجب حِفْظُه من سائر الحقوق المادية، مع أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله، وللأمانات التي اؤتمن عليها.

٢٨- ولما كان حُبُّ الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي الإقدام على الخيانة، نَبَّه سبحانه لذلك فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ امتحان واختبار لكم من الله تعالى؛ ليتبيَّن قويُّ الإيمان من ضعيفه، فقويُّ الإيمان لا يشغله مالُه وولدُه عن طاعة الله، وضعيف الإيمان يشغله ذلك عن طاعة الله، ويجعله يعيش حياته عبداً لأمواله، ومطيعاً لمطالب أولاده، حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافيةً مع تعاليم دينه وآدابه.

ثم يُرَغِّب الله المؤمنين في طاعته، بعد أن حَذَّرهم من فتنة المال والولد بأنَّه سبحانه عنده أجرٌ عظيم لِـمَنْ آثر طاعته ورضاه على جمع المال وحب الأولاد، فكونوا - أيها المؤمنون - من المُؤْثِرين لحب الله على حبِّ الأموال والأولاد؛ لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة.

٢٩- ثم ختم سبحانه نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذي يهديهم إلى سبل الخير والفلاح فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يُغْضِبُه، وتُطيعوه في السرِّ والعَلَنِ ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ أولاً: هدايةً في قلوبكم تُفرِّقون بها بين الحق والباطل، ونصراً تَعْلُو به كلمتكم، ومَخْرَجاً من الشبهات التي تقلق النفوس، ونجاةً ممَّا تخافون. ثانياً: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: يسترها عليكم في الدنيا. ثالثاً: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ما فَرَط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه. رابعاً: الأجر العظيم، والثواب الجزيل لِـمَنِ اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه. وهذا فَضْلٌ منه سبحانه فهو صاحب العطاء الجزيل، والخير العميم لِـمَنْ أطاعه واتقاه، وصان نفسه عمَّا يُسخطه ويغضبه.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الاستجابة لله ورسوله بفِعْلِ الأمر وترك النهي؛ لما في ذلك من حياة للفرد والمجتمع.

٢- تَعَيُّن اغتنام فرصة الخير قبل فواتها، فمتى سَنَحَتْ للمؤمن تَعَيَّنَ عليه اغتنامُها.

٣- الحثُّ على أن يُكْثِرَ العبد من قول: يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك، يا مُصَرِّفَ القلوب، اصرِفْ قلبي إلى طاعتك.

٤- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اتقاء للفتن التي يهلك فيها العادل والظالم، فإنَّ الأُمة التي تشيع فيها المعاصي والمظالم والمنكرات، ثم لا تجد مَنْ يحاربها، ويعمل على إزالتها، تستحق العقوبة جزاءَ سكوتها واستخذائها وجُبنها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

٥- وجوب شُكْرِ النعم بحمد الله تعالى، والثناء عليه، والاعتراف بالنعمة له، والتصرف فيها حسب مرضاته.

٦- جَمَعَتْ الآيات بين الترغيب في العمل الصالح بسرعة ونشاط، والترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله.

٧- في المال والأولاد فتنة قد تحمل على خيانة الله ورسوله، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر فتنة المال بالكسب الحلال، والإنفاق في الأوجه المشروعة. واتقاءُ خطر فتنة الأولاد يكون بتربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنُّبهم أسباب المعاصي والرذائل.

٨- من ثمرات التقوى تكفير السيئات، وغفران الذنوب، والفرقان؛ وهو نور في القلب يُفَرِّق به المتقي بين الأمور المتشابهات التي خفي فيها وجه الحق والخير.

٩- تقوى الله تَقي من المزالق، وتقيم الفرد على طريق الله ﷻ.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٠- اذكر - يا محمد- أنت وأُمتك، ما مَنَّ الله به يومَ تآمَرَ عليك صناديد المشركين، وتشاوروا في دار الندوة ليحبسوك، فيمنعوك عن تبليغ دعوتك، ويمنعوا الناس من الوصول إليك، أو يقتلوك، فيستريحوا بزعمهم منك ومما جئت به، أو يُخرجوك من مكة، حتى تواطؤوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى، فيقتلوك قِتلة رجلٍ واحد؛ ليتفرَّقَ دمُك في القبائل، فيرضى بنو هاشم بالدِّيَة، ولا يقدروا على مقاومة سائر قريش، والحال أنَّ هؤلاء المشركين يمكرون بك وبأتباعك المكر السيئ. والله تعالى يَرُدُّ مكرهم في نحورهم، ويُحبط كيدهم، ويخيب سعيهم، فأخرج الله نبيَّه من مكة إلى المدينة لم يمسسه سوء، ومَكَّن له في الأرض ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ إذ لا يُعتَدُّ بمكرهم مقابلَ مَكْرِه، فسبحان اللطيف بعبده، لا يغالبه مغالب.

٣١- ثم ذَكَر الله بعد ذلك جُرْماً آخر من جرائم أعداء الدين الحق، وهو: أنَّ هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذبُ والتمادي في الطغيان أنهم كانوا حين تتلى عليهم آيات الله ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما قرأته علينا يا محمد ووَعَيناه، لو أردنا ﴿لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ القرآن الذي تتلوه علينا!! وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التي سَطَّرها بعضهم عنهم، وليس من عند ربك كما تزعم!! وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تَحَدَّاهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، وأن يستعينوا بمن استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتَبَيَّن عَجزُهم، وقد علموا أنَّه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رَحَلَ ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فالذي زعموه ما هو إلا من قبيل الحرب النفسية التي كانوا يَشُنُّونها على الدعوة الإسلامية، بقصد تضليل العامَّة، والوقوف في وجه تأثير القرآن في القلوب، ومحاولة طَمْسِ معالم الحق ولو إلى حين.

٣٢- وتمضي الآيات في حديثها عن جرم ثالث من جرائم مشركي قريش، فتذكر مَظْهَراً عجيباً من مظاهر عنادهم، وجحودهم للحق، وقد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا بإنكار أن القرآن من عند

الله، وأن محمداً قد جاءهم بالحق، بل أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ﴾ هذا الذي جاءنا به محمد من قرآن وغيره ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ المنزّل ﴿مِنْ عِندِكَ﴾، فعاقِبْنا على إنكاره والكفر به، بأن تُنَزِّلَ علينا ﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تُهلكنا كما فَعَلْتَ بأصحاب الفيل، أو تُنْزِلَ علينا عذاباً أليماً يقضي علينا، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهْدِنا له، ومرادهم - والعياذ بالله - الجزمُ بنفي كونه حقاً، وقولهم يدل على غاية العناد وكراهية الحق والنفور منه، مهما لاحت معالمه، وتَجَلَّتْ مراسمه.

٣٣- وما كان الله مُريداً لتعذيب هؤلاء الذين دَعَوا بهذا الدعاء الغريب تعذيبَ استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم يا محمد بمكة، فقد جَرَتْ سُنَّتُه سبحانه ألَّا يُهْلِكَ قرية مُكَذِّبة وفيها نبيها والمؤمنون به؛ حتى يُخرجهم منها ثم يعذب الكافرين. وكذلك ما كان الله مريداً لتعذيبهم وبين أظهرهم من المؤمنين المستضعفين مَنْ يستغفر الله، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة، والهجرة إليك في المدينة.

٣٤- ثم بَيَّنَ سبحانه بعض الجرائم الأخرى التي ارتكبها المشركون، والتي تجعلهم مستحقين لعذاب الله، وأنْ لا شيءَ يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يُوجب ذلك، وهو صَدُّ الناس عن المسجد الحرام، وصَدُّ مَنْ هم أولى به منهم، فالمشركون ما كانوا يوماً من الأيام أولياء الله. وبناءً عليه فهم ليسوا أولياء لبيت الله كما يزعمون، بل لمصالحهم الشخصية وشهواتهم؛ لأنَّ أولياء الله تعالى هم المتقون الذين صانُوا أنفسهم عن الكفر، وعن الشرك، وعن كلِّ ما يُغضب الله، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جَهْلِهم، وتماديهم في الجحود والضلال.

وقد جاءت جملة ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مُؤَكَّدة بأقوى ألوان التأكيد، لنَفْي كلِّ ولاية على البيت الحرام سوى ولايتهم هم، وتَضَمَّن بشارةً بزوال شأن المشركين عن مكة، واستخلاف الله المؤمنين عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية التَّذْكير بنِعَمِ الله تعالى على العبد؛ ليُجَدِّدَ العبد في نفسه داعية الشكر، فيشكر.

٢- في صيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة، من تآمُر المشركين على صاحب الرسالة ﷺ.

٣- بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية، وأنهم يبذلون كلَّ جهد في سبيل إنهائها، والقضاء عليها، ولكن الله تعالى ناصر دينه، يَرُدُّ كيد الماكرين في نحورهم.

٤- النفوس عندما تنغمس في الأحقاد، وتتمادى في الجحود، وتنقاد للأهواء والشهوات، وتأخذها العزة بالإثم، ترى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وتُؤْثِرُ العذاب وهي سادرة في باطلها، على الخضوع للحق والمنطق والصواب.

٥- النبي ﷺ أمان أُمته من العذاب، فلم تُصَبْ هذه الأمة بعذاب الاستئصال، ولن تصاب.

٦- فضيلة الاستغفار، وأنه يُنجي من عذاب الدنيا والآخرة.

٧- بيان عِظَمِ جُرْمَ مَنْ يَصُدُّ عن المسجد الحرام، وإقامة الشعائر فيه.

٨- بيان أولياء الله تعالى حقيقة، والذين يحق لهم أن يَلُوا المسجد الحرام وهم المتقون.

٩- إن الله تعالى يعصم أولياءه ويدحر أعداءه، فعلى الدعاة أن يمضوا في طريق ربهم غير عابئين بقلة ولا بكثرة، لأنَّ الله ناصرُهم ومعينهم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ
تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ
مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ
مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ
لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ
ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣٥- وَصَفَ سبحانه ضرباً آخر من ضلال هؤلاء المشركين وجُحودِهم، إذ جعل الله بيته الحرام ليُقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يَصُدُّون عنه، فلم تكن صلاتُهم عند البيت الحرام إلا تصفيقاً وتصفيراً، لا وقاراً ولا استشعاراً لحرمة البيت، ولا تعظيماً لربِّهم، ولا معرفةً بحقوقه، ولا احتراماً لأفضل البقاع وأشرفها؛ وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالِقِهم، ولحرصهم على أن يُسيئوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، أو يطوف بالبيت، أو يؤدي شعائر الإسلام وعباداته، فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله. ومن أجل ذلك تَوَعَّدَهم اللهُ تعالى بعذابه﴿فَذُوقُوا۟﴾أيها الضالون﴿ٱلْعَذَابَ﴾الشديد بسبب كفركم وعنادكم، واستهزائكم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ من عند الله، فالعذاب في الدنيا بأن تُحَرَّمُوا من الدخول في المسجد الحرام، والقتل، وفي الآخرة بالنار، وبئس المصير.

٣٦- ثم يُبَيِّنُ الله تعالى ضرباً آخر من ألوان ضلال المشركين وعداوتهم وكيدهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وذلك أنهم يُنفقون أموالهم سعياً لأن يُبْطِلُوا الحق ويَنْصُروا الباطل، ويَصْرِفوا الناس عن طريق الله.

ثم بَيَّنَ تعالى ما سَيؤول إليه أَمْرُهم في الدنيا من الخيبة والهزيمة، بأنَّهم سينفقون هذه الأموال في الشرور والعدوان، ولكنها ستكون عليهم ندامة وخِزْياً وذُلّاً، وسيُغْلَبون، فتذهب أموالهم وما أمَّلوا، ويعذبون في الآخرة أشدَّ العذاب، فيُجْمَعُون في جهنم، ليذوقوا عذابها الدائم.

٣٧- ثم بَيَّنَ سبحانه أنه فعل ما فعل من خذلان الكافرين في الدنيا، وحَشْرِهم إلى جهنم في الآخرة؛ ليتميز الفريق الخبيث وهو فريق الكافرين، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين، فإذا ما تمايزوا جعل سبحانه الفريق الخبيث مُنْضَمّاً بعضُه إلى بعض، فيُلقى به في جهنم جزاءَ كُفْرِه.

٣٨- وبعد كلِّ هذا التهديد والوعيد للكافرين، يُوَجِّه سبحانه خطابَه إلى نبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم، من أهل مكة وغيرهم: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين، ويؤمنوا بالله وحده ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من كُفْرِهم ومعاصيهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتالكم، ويستمرُّوا في ضلالهم وكفرهم وطغيانهم، انتقمنا منهم، ونَصَرْنا المؤمنين عليهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ عادة الله الجارية في الذين تَحَزَّبوا على الأنبياء بنصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم، وتدميرهم.

٣٩- ثم بَيَّنَ الله تعالى ما على المؤمنين تجاه أولئك الكافرين إذا ما استمرُّوا في كفرهم وعدوانهم: أَنْ قاتِلُوهم بشدة وغلظة، واستمِرُّوا في قتالهم حتى تزول صولة الشرك، وحتى تعيشوا أحراراً في مباشرة تعاليم دينكم، دون أن يجْرُؤَ أحد على محاولة فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم، وحتى تصيرَ كلمة الذين كفروا هي السفلى. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن كفرهم وعن معاداتكم، فكُفُّوا عنهم، وإن لم تعلموا بَواطِنَهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

٤٠- وإن أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا عن الكفر والطغيان، فأيقِنوا بأنَّ الله حاميكم ومُعينكم عليهم، وثِقُوا بوِلايته ونُصْرَته، فهو سبحانه ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الذي يَتَوَلَّى عباده المؤمنين، ويحقق مصالحهم، ويُيَسِّر لهم منافعهم الدينية والدنيوية.﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالُب الأشرار. ومَنْ كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومَنْ كان الله عليه فلا عِزَّ له، ولا قائمة له.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوبُ تعظيم الله تعالى، وتعظيم شرائعه وحدوده.

٢- كل نفقة ينفقها العبد للصد عن سبيل الله بأيِّ وجه من الوجوه تكون عليه حسرة عظيمة يوم القيامة.

٣- من سُنَنِه تعالى أن يُمَيِّزَ الخبيث من الطيب، ويجمع الخبيث بعضه إلى بعض؛ ليطرحه في جهنم كما تُطرح النفايات أو المهملات.

٤- لُطْفُ الله تعالى بعباده، وأنه لا يمنعه كفر العباد، ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يُهْلكهم من أسباب الغَيِّ والردى.

٥- الحَثُّ على الإيمان، والترغيب فيه، ووجوب الاستمساك به.

٦- بيان سَعة فضل الله ورحمته.

٧- يغفر الله لِـمَنْ أسلم كلَّ ذنب من الكفر وغيره؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

٨- بيان سُنَّةِ الله في الظالمين وهي إهلاكهم، وإن طالت مدة الإمهال والإنظار.

٩- وجوب قتال المشركين على المسلمين ما بقي في الأرض مشرك يصدُّ عن سبيل الله.

١٠- المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يَدْفَعَ شرَّهم عن الدين، وأن يَذُبَّ عن دين الله الذي خَلَقَ الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

١١- في الآية (٣٦) إخبار عن أمر مستقبلي، وهو أن عاقبة الذين جحدوا الله، وعصوا رسوله، وأنفقوا أموالهم بالباطل لِيَصُدُّوا عن سبيل الله، هي الندامةُ والحسرة؛ لأنَّ أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأمُلون به من إطفاء نور الله، والصدِّ عن سبيله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّه سيَهزمهم المؤمنون في آخر الأمر.

١٢- الله تعالى نِعْمَ المولى لِـمَنْ تَوَلَّاه، ونِعْمَ النصير لِـمَنْ نصره.

١٣- الكفار يُنفقون أموالهم بالليل والنهار؛ ليصُدُّوا عن سبيل الله، فأَوْلَى بأهل الحق أن ينفقوا أموالهم للذَّود عن الحق، ونَشْرِ نورِ الله في العالمين.

١٤- إن المواقف الصعبة هي التي تُـمَحِّصُ الصف المسلم وتُنَقِّيه، وتُظْهِرُ الغَثَّ من السمين، فعلى الداعية أن يعتصم بحبل الله، ويسأل الله الثبات والعون.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾

التفسير:

٤١ - لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكفار بيَّن قسمة الغنائم: واعلموا - أيها المؤمنون - أنَّ ما أخذتم من مال الكفار المحاربين بقتال، فاجعلوا أوّلاً خُمُسَه لله تعالى، يُنْفَق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة، ثم للرسول وأهل بيته، ثم ذوي القربى من أهله وعشيرته من بني هاشم وبني المطلب، ثم المحتاجين من اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والفقراء، والغريب المنقطع به السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم بدر، يوم أن جمع المسلمين والكافرين، وحصل فيه من الآيات والبراهين. والله على كل شيء قدير، وبقُدْرَتِه تعالى نَصَركم، وساق إليكم تلك الغنائم.

٤٢ - والأعداء في الجهة المقابلة من الوادي البعيد عن المدينة، وقافلة أبي سفيان على ساحل البحر الأحمر أسفل منكم، ولو تواعدتم معهم على القتال لاختلفتم في الميعاد، كراهة للحرب لِقِلَّتكم، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذَ العِير دون القتال، ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان في عِلْمِه وحكمته أنّه واقعٌ لا محالة، وهو القتال المُفْضِي إلى خِزْيهم، ونَصْرِكم عليهم، وصِدْقِ وَعْدِه لرسوله، وإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون. وفَعَلَ ذلك ليترتَّبَ على قضاء هذا الأمر أن يَهْلَكَ من الكفار مَنْ هلك عن حُجَّةٍ بَيِّنة، ويعيش مَنْ يعيش من المؤمنين عن حجة عاينها، فيزداد يقيناً بالإيمان ونشاطاً في الأعمال. إنَّ الله سميع دعاء المسلمين طَلَبَ النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، وعليم بما يجول في خواطرهم، وبما يَصْلُح لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

٤٣-٤٤- إذ يريك الله - يا محمد - في منامك عدد العدوّ قليلاً، فتخبر المؤمنين، وتطمئن قلوبهم، وتَقْوَى آمالهم بالنصر، ولو أراك عددَ العدوّ كثيراً لَفَشِلَ أصحابك وخافوا، ولم يقدروا على حرب القوم،

ولوقع بينهم النزاعُ وتَفَرُّقُ الآراء في أمر القتال، ولكنَّ الله سلَّمكم من الفشل والتنازع، وتفرُّق الآراء، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان. إنَّه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به، فتحجم عن القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث في النفس الطمأنينة والصبر، فيحملها على الإقدام، ويُسَخِّر لكل منهما الأسباب التي تُفْضِي إلى ما يريده منها، وفي الوقت الذي يريكم الله الكافرين عند التلاقي معهم عدداً قليلاً، بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم وبتثبيتكم بملائكته والاستهانة بهم، ويُقَلِّلكم في أعينهم لقِلَّتِكم بالفعل، حتى إذا ما التقيتم ثَبَّتكم، وثَبَّطهم ليقضيَ بنصركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً.

الفوائد والاستنباطات :

١- دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أنَّ خُمُسَ الغنيمة يصرف لخمسة أصناف، ودلَّ دلالة ضمنية على أنَّ أربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين. (أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٥١).

٢- ينظر: خريطة موقع غزوة بدر، كما في الملحق.

٣- قال الجمهور: «سهم رسول الله ﷺ يَخْلُفُه فيه الإمام، يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين». (التحرير والتنوير: ٩/ ١٠٧).

٤- نَبَّه تعالى بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على أنَّ أحوال الدنيا غيرُ مقصودةٍ لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكونَ زاداً ليوم المعاد.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى
جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ
هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير:

٤٥-٤٦ – وبعد أن ذكر سبحانه نِعَمَه على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين يوم بدر، أعقب ذلك بذِكْرِ آداب لقاء عدوهم، فقال: إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبُتوا لهم، ولا تَفِرُّوا أمامهم، وأكْثِرُوا من ذكر الله في أثناء القتال في قلوبكم بذِكْرِ قدرته ووَعْدِه بنصر رسله والمؤمنين، وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح في القتال وفي غيره، وأطيعوا رسوله كذلك، فهو المبيِّنُ لكلام ربِّه بالقول والعمل والحكم، وهو المشارك لكم في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور، ولا يَكُنْ منكم تَنازعٌ واختلاف، فإنَّ ذلك مَدْعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة، فيتغلب عليكم العدو، واصبروا على الشدائد، وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده، فالله مع الصابرين يَمُدُّهم بمعونته وتأييده، ومَنْ كان الله مُعيناً له فلا يغلبه غالب.

٤٧ – ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة، وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان، بَطِرين بما أُوتوا من قوةٍ ونِعَمٍ لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها، ويُثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة، وهم بخروجهم يَصُدُّون عن الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول ﷺ، والإعراض عن تبليغ دعوته. والله عليم بما جاؤوا لأجله، ومن ثم فهو يجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

٤٨ – واذكر – أيها الرسول – للمؤمنين حين زَيَّنَ الشيطانُ لهؤلاء المشركين أعمالَهم بوسوسته، وألقى في رُوعهم، وخَيَّل إليهم أنَّهم لا يُغلَبون لكثرة عَدَدَهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّه مُجير لهم، فلمَّا قَرُب كلٌّ من الفريقين المتقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن تستعرَ نار القتال رَجَعَ خلفه، وتبرأ

منهم، وأَيِسَ من حالهم، لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة. وختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمراد من خوف الله تَوَقُّعُ أن يصيبه الله بضُرٍّ.

٤٩ - وإذ زَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم حتى قال المنافقون ومَنْ على شاكلتهم من مرضى القلوب: ما حمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم، وكثرة عدوِّهم، إلا غرورُهم بدينهم. ومَنْ يَكِلْ أمْرَه إلى الله، ويؤمن إيمان اطمئنان بأنَّه ناصره ومعينه، وأنّه لا يُعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده، يَكْفِه ما يَهُمُّه وينصره على أعدائه، وإن كَثُرَ عددُهم، وعَظُمَ عَتادُهم؛ لأنَّه العزيز الغالِبُ على أمره، الحكيم الذي يضع كلَّ أمر في موضعه بمقتضى سُنَنِه في الكون، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل.

الفوائد والاستنباطات :

١ - وجوب ذكر الله باللسان والجَنان.
٢ - وجوب الثبات عند اللقاء، وذِكْر الله والتضرع إليه، واللجوء إلى جنابه، وطاعة التوجيه الإلهي.
٣- على القائد الحربي وجوبُ الأمر بالحق ومراعاة المصلحة العامة.
٤ - تحريم التنازع والاختلاف، والتحذير من البطر والرياء والكبر والخيلاء.
٥- وجوب الصبر عند الشدائد.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟
ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير :

٥٠-٥١- ولو عايَنْتَ - يا محمد ﷺ - حال الكفار حين تتوفّاهم الملائكة، فينزعون أرواحهم من أجسادهم، ضاربين وجوههم وأقفيتهم، قائلين لهم: ذُوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، لَرأيت أمراً عظيماً يَرُدُّ الكافر عن كفره، والظالم عن ظلمه إذا هو عَلِمَ عاقبة أمره. هذا العذاب الذي ذقتموه بسبب ما كَسَبَتْ أيديكم من سيئ الأعمال في حياتكم الدنيا من كفر وظلم، وبأنّ الله لا يظلم أحداً من عبيده، فلا

يُعَذِّب أحداً منهم إلا بجُرمٍ اجترمه، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه، وقد وقع ذلك منكم، فأنتم الظالمون لأنفسكم فلُوموها، ولا لومَ إلا عليها.

٥٢- عادة هؤلاء المشركين من قريش الذين قُتِلوا ببدر وشأنهم، كعادة قوم فرعون وشأنهم وشأن مَنْ قبلهم من الأُمم الخالية، إذ كفروا بآيات ربهم، فأخذهم بذنوبهم أَخْذَ عزيز مقتدر، ولم يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، ونَصَرَ رُسُلَه والمؤمنين. وكما كانت سُنَّته تعالى في أولئك أَنْ أخذهم بذنوبهم، فإن سُنَّته في هؤلاء كذلك؛ فقد نصر رسوله والمؤمنين في بدر، وأهلك هؤلاء الكافرين بذنوبهم. إنَّ الله قويٌّ لا يغلبه غالب، ولا يفوته أحد، شديد العقاب لِـمَنْ استحق عقابه، وكفر بآياته، وجَحَدَ حُجَجَه.

٥٣- ذلك الذي ذُكِرَ مِنْ أَخْذِه لقريش بكفرها نِعَمَ الله عليها، كأَخْذِه للأُمم قبلهم بذنوبهم؛ فقد جَرَتْ سنة الله أَلَّا يُغَيِّرَ نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة. إنَّه تعالى سميع لما يقول مُكَذِّبو الرسل، عليم بما يأتون وما يَذَرُون، وهو مجازيهم على ما يقولون ويعملون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٥٤- شَبَّه اللهُ هؤلاء الكفار في تكذيبهم وفِعْلِهم كبائر الذنوب، بآل فرعون الذين كذَّبوا موسى ﷺ، والسابقين لهم الذين كذَّبوا بآياتنا المنزلة، والمعجزات الدالة على وحدانية الله تعالى، فأهلكناهم بسبب كبائر ذنوبهم، وأغرقنا فرعون وقومه في البحر الأحمر. وكل هؤلاء المذكورين كانوا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ نَسَبَ ذلك إلى الأيدي، وإن كان قد يقع من الأيدي والأرجُل وسائر الحواس، أو بتدبير العقل؛ لأنَّ العادة قد جَرَتْ بأنَّ أكثر الأعمال البدنية تُزاوَل بالأيدي.

٢- نِعَمُ الله على الأُمم والأفراد منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاقٍ وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتة لهم، متمكنة منهم، كانت تلك النعم ثابتة لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جُرْم، فإذا هم غَيَّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال، غَيَّر الله حالهم، وسَلَبَ نِعْمَتَه منهم، فصار الغنيُّ فقيراً، والعزيز ذليلاً، والقوي ضعيفاً.

٣- الظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العموم في كلِّ مَنْ أنعم الله عليه من مسلم وكافر، وبَرٍّ وفاجر، وأنَّه تعالى متى أنعم على أحدٍ فلم يشكر بَدَّله بالنعمةِ النقمةَ.

٤- خَصَّ ﷻ آل فرعون بالذِّكر، وذَكَرَ ما أُهْلِكُوا به وهو إغراقهم؛ لأنَّه انضمَّ إلى كفرهم دعوى الإلهية والرُّبوبية لغير الله تعالى، فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه.

٥- ابتُدِئ الخبر بـ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ مخاطباً به غير معين، ليَعُمَّ كل مخاطب، أي: لو ترى أيها السامع.

وإنَّما خَصَّ الوجوه و الأدبار؛ لأنَّ في ضَرْبها إذلالاً وإهانة، وليكونَ خروجُهم من الدنيا على أسوأ وداع، واستقبالهم للآخرة على أسوأ استقبال.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير :

٥٥-٥٦- إنَّ شرَّ ما يَدِبُّ على وجه الأرض في حُكْمِ الله وعدله هم الكافرون، الذين اجتمعت فيهم خصلتان: الأولى: الإصرار على الكفر والرسوخ فيه، الثانية: نقض العهد، فهم لا يتقون الله في نقض العهد.

٥٧- فإنْ تُدْرِكْ هؤلاء الذين يَنْقُضُون عهدهم، وتظفر بهم في ميدان الحرب، فنكِّلْ بهم أشدَّ التنكيل؛ حتى يكون ذلك سبباً لشرود مَنْ وراءَهم من الأعداء وتَفَرُّقِهم. لعلَّ مَنْ خلفهم من الأعداء يَذْكُرون النَّكال، فيمنعهم ذلك مِنْ نَقْضِ العهد، ومن القتال.

٥٨- وإن تَوَقَّعْتَ من قوم معاهَدين خيانة ونَكْثاً للعهد بأمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأَنْ تَنْبِذَ إليهم عهدهم، وتنذرهم بأنك غير مقيَّدٍ به، ولا مهتم بأمرهم، بطريق واضح لاخداع فيه ولا استخفاء؛ لأنَّ الله لا يحبهم لأنَّهم مُتَّصِفُون بالخيانة، فلا تستمرَّ على عهدهم، فتكونَ معاهداً لِـمَنْ لا يحبهم الله؛ ولأنَّ الله لا يحب الخائنين.

٥٩- ولا يظننَّ الذين كفروا أنهم سبقونا، ونَجَوا من عاقبة خيانتهم وشَرِّهم. إنَّهم لا يعجزون الله تعالى، ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم، بل هو سيجزيهم، ويُمَكِّنُ منهم في الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم، وإذاقتهم عاقبةَ كيدهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- لَقَّبَ الله الكافرين بالدوابِّ؛ لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أَضَلُّ من الحيوانات؛ لأنَّ ثمة منافعَ للحيوانات، وهؤلاء لا خير فيهم، ولا نفع منهم لغيرهم.

٢- أمر الله رسوله ﷺ في المبالغة في قتل الأعداء الذين تكررت مُسالمته لهم، وتجديده لعهدهم بعد نقضه؛ لئلَّا ينخدعَ مرة أخرى بكذبهم ، لِـما جُبِلَ عليه من الرحمة، وحُبِّ السلم، وعَدِّ الحرب ضرورة تُترك إذا زال سببها.

٣- في الآيات دلالة واضحة على وجوب المحافظةَ على العهود مع الأعداء، وتحريم خيانتها.

٤- تساءل ابن العربي - يرحمه الله - حول آية ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾ فقال: «كيف يجوز نَقْضُ العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظنٌّ لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد بظَنِّ الخيانة؟» ثم أجاب عن التساؤل، وقال: «الجواب من وجهين:

أحدهما: أن الخوف هاهنا بمعنى اليقين.

الثاني: أنه إذا ظهرت آثار الخيانة، وثبتت دلائلها، وَجَبَ نَبْذُ العهد، لئلا يُوقعَ التمادي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هاهنا بالظن للضرورة». (أحكام القرآن: ٨/ ٨٦٠).

٥- أمر الله رسوله ﷺ بالإغلاظ على العدو؛ لِما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنَّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم؛ لأنَّهم استحقوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم؛ لأنه يَصُدُّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرَّ الناكثين الخائنين. ولا تُخالِفُ هذه الشدةَ أنَّ الرسول ﷺ أُرسِلَ رحمةً للعالمين؛ لأنَّ المراد أنَّه رحمة لعموم العالمين، وإن كان ذلك لا يخلو من شدةٍ على قليل منهم حين يلزم الأمر.

٦- في قوله تعالى:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾رتَّبَ نَبْذَ العهد على خوف الخيانة، دون وقوعها؛ لأنَّ شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون، وما يظهر من الأحوال، ولا يُنتظر تَحَقُّقُ وقوع الأمر المظنون؛ لأنَّه إذا تَرَيَّثَ ولاةُ الأمور في ذلك يكونون قد عَرَّضوا الأُمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضَياعِ مصلحة، ولا تُدارُ سياسة الأُمة بما يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأنَّ الحقوق إذا فاتَتْ كانت تَبِعَتُها على واحدٍ، وأمكنَ تدارُكُ فائتِها، ومصالح الأُمة إذا فاتَتْ تَمَكَّنَ منها عَدُوُّها.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

٦٠- لما أوجب الله ﷻ على رسوله ﷺ أن يُفرِّقَ ويبدد جَمْعَ مَنْ صدر منه نَقْضُ العهد، وأن ينبذ عهد مَنْ خاف منه النقض، أَمَرَه بالإعداد في مواجهة هؤلاء الكفار، فقال: وأَعِدُّوا لأعدائكم الكفار المقاتلين ما تقدرون عليه من القوة وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يُعِين على قتالهم. فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعْمَلُ فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والمراكب البرِّيَّة والبحرية والجوية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم شرُّ أعدائهم. وأنتم بذلك تُرْهِبُون أعداءَ الله وعدوَّكم الذين يتربَّصون بكم الدوائر - فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين، وتأهُّبهم للجهاد، واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات، خافوهم - وتُرهبون به أيضاً أناساً لا تعلمون الآن عداوتهم، بل يَعْلَمهم الله وهو علَّام الغيوب. وما تنفقوا من شيء قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله يُعْطِكم عليه الجزاء الوافي التام، و لا يَلْحَقْكم ظلم من أعدائكم.

٦١- وإن مال العدو إلى جانب السِّلْم وتَرْكِ الحرب، فاقْبَلِ السِّلْم، وفَوِّض الأمر إلى الله، والله هو السميع لما يقولون، العليم بما يفعلون، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع، وإن خَفِيَ عليك.

٦٢-٦٣- ولما كان طَلَبُ السِّلْمِ والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربية؛ ليُغْرُوا المسلمين بالمصالحة، ثم يأخذوهم على غِرَّة، أرشد الله رسوله ﷺ إلى هذا الاحتمال، فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق فقال ﷻ: وإن يريدوا بجنوحهم للسِّلم الكيد والخداع، فالله يكفيك أمرهم، وينصرك عليهم، فإنَّ من آثار عنايته بك أن أيَّدك بتسخير المؤمنين لك، وجَعْلِهم أُمة متحدة متآلفة متعاونة على نَصْرِك، وجَمْعِهم على الإيمان بك. فلولا نعمةُ الله عليهم بأخوَّة الإيمان التي هي أقوى من أُخُوَّة الأنساب والأوطان، لَمَا أمكنك أن تُؤَلِّفَ بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، ولكِنَّ اللهَ هداهم إلى الإيمان. إنه

تعالى الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين ولا كيد الماكرين، الحكيم في أفعاله، فينصر الحق على الباطل، ويُفَضِّلُ الجنوح للسلم، إن جنح إليها العدو دون الحرب.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب إعداد المستطاع من القوة الحربية، والمرابطة في سبيل الله، وما يقتضي ذلك من إنفاق الأموال لإعداد العُدَّة والعتاد.

٢- في الآيات دليل على أن النصر يُنال بالأسباب التي من أهمها التآلف والاتحاد بفضلِ مقدِّرِ الأسباب، ورحمته بالعباد.

٣- دَلَّت الوقائع على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها، وأنَّ أجدى وسائل التحابِّ والتآلفِ قوةُ الإيمان.

٤- دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ على الأمر بقَبول عقد الصلح والمهادنة أو المسالمة إن مال إليه العدو؛ لأنَّ الإسلام يُؤْثِرُ السِّلم على الحرب، ويُوجب الوفاء بالمعاهدات والمصالحات، ويُحَرِّم المبادرة إلى الغدر والخيانة، ونَقْضِ العهود.

٥- عَقْدُ الصلح جائز غير لازم للمسلمين باتفاق العلماء، فيجوز نَبْذُه إذا ظهرت أمارات الخيانة والنقض والغدر.

٦- الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم؛ لأنَّ ما يُراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه ولاة الأمور الذين هم وُكلاءُ الأمة على مصالحها.

٧- في قوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ تحريض للمسلمين على قتال أعداء الله، وأعداء رسوله ﷺ.

٨- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معنى تَعَقُّبِهم والإغراء بهم، وتعريضٌ بالامتنان على المسلمين بأنهم مَحَلُّ عناية الله، فهو يُحصي أعداءهم، ويُنَبِّههم عليهم.

٩- قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ مبالغة حسنة لوقوعها مع حرف (لو) الدالِّ على امتناع الوقوع.

١٠- في الجمع بين الأمر بقَصْرِ التوكل على الله، والأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو، دليلٌ بَيِّنٌ على أن التوكل هو من الأخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب يكون فيما هو من مقدور الناس.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- يبشِّر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأنه سبحانه كافيه كلَّ ما يهمه من أمر الأعداء وغيرهم، وهو كذلك كافٍ لِـمَنْ أيّده من المؤمنين.

٦٥- وبعد أن بَشَّره بالرعاية والعناية، أمره أن يَحُثَّ المؤمنين على القتال، ورَغَّبهم فيه؛ لدفع عدوان الكفار، إن يوجد منكم عشرون صابرون يَغْلِبُوا - بتأثير إيمانهم وصبرهم وفِقْهِهم - مئتين من الكافرين الذين جُرِّدوا من هذه الصفات الثلاث. وهذا وَعْدٌ منه تعالى وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده. وهم بهذا العدد يغلبونهم بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون ما يفقهون من حكمة الحرب، وما يُراد بها من مرضاة الله ﷻ في إقامةِ سُنَنِه العادلة، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسُنَنِه بإعداد كل ما يستطاع من قوة، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة في الدنيا، أو الشهادة والسعادة في الآخرة.

٦٦- وبعد أن بَيَّنَ المرتبة العليا التي ينبغي أن تكون للمؤمنين، أعقب ذلك ببيان ما دونَها من مرتبة الضعف فنسخ ما تقدَّم: فإن يكن منكم مئة صابرة، بعد أن عَلِمَ فيكم ضعفاً، يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف صابرون يغلبوا ألفين بإذن الله وقوته ومشيئته، والله مع الصابرين بالمعونة والتأييد والرعاية.

٦٧- سبب النزول:

عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عن عمر قال: «...فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَى»؟. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:« يَا نَبِيَّ الله هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا تَرَى يَابْنَ

الخَطَّابِ»؟. قُلْتُ: لا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا، فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلانٍ - نَسِيباً لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ». شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، برقم ١٧٦٣(٣/ ١٣٨٣).

التفسير:

ما كان من شأن نبيٍّ من الأنبياء ولا من سُنَّتِه في الحرب، أن يكون له أسرى، يتردَّد أمرُه فيهم بين المنِّ والفداء إلا بعد أن يَعْظُمَ شأنُه فيها، ويتمَّ له الغلب والقوة بقَتْلِ أعدائه. تريدون عَرَضَ الدنيا الفاني الزائل وهو المال الذي تأخذونه من الأسرى فداءً لهم، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقي بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ما دمتم تعملون بها. والله كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لَفعَلَ، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض.

٦٨- لولا كتابٌ من الله سبق في عِلْمِه الأزلي ألَّا يُعَذِّبكم والرسولُ ﷺ فيكم، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم، لَمَسَّكم - بسبب ما أخذتم من الفداء - عذاب عظيم.

٦٩- فكُلوا ممَّا غَنِمْتُم من الفِدْية حالَ كونه حلالاً بإحلاله لكم، طيباً في نفسه، لا خبث فيه مما حُرِّم لذاته كالدم ولحم الخنزير. واتَّقُوا اللهَ في أن تعودوا إلى أكْلِ شيء من أموال الناس كفارا كانوا أو مؤمنين، من قبل أن يُحِلَّه لكم ربُّكم. إنه غفور لذنبكم، رحيم بكم، إذ أباح لكم ما أخذتم، وأباح لكم الانتفاع به.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من سُنَنِ الله في الغَلَبة أن يكون للصابرين على غيرهم. وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يَغْتَرُّوا بدينهم، ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضي النصر والغلب، وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله. ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور، ومعرفة سنن الله في خلقه.

٢ - في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَعْدٌ من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء، إذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلابد أن يكفيهم ما أهمَّهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلَّفُ الكفاية بتخَلُّف شرطها.

٣- لم يكن فِعْلُ النبي ﷺ في حكم الأسرى إلا اجتهاداً واختياراً لأحد أمرَين مشروعَين: هما القتل، وأَخْذُ الفداء. فهو فِعْلُ خلافِ الأَولى، وليس في ذلك مِساس أصلاً بعصمة الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّ المِساس بالعِصْمَةِ يحصل إذا خالف النبي نصاً صريحاً، أو أمراً قائماً.

٤- استنبط ابن العربي - يرحمه الله - من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ بأنَّ الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراماً، مما هو في علم الله حلال: أنه لا عقوبة عليه. (أحكام القرآن: ٢/ ٨٧٢).

٥- تقرير النسخ في القرآن الكريم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ
أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ
فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن
وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم
مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ
فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟
وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟
مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

٧٠-٧١- سبب النزول:

روى الطبراني بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ [الأنفال: ٧٠] حَتَّى بَلَغَ ﴿ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾، قَالَ: كَانَ الْعَبَّاسُ يَقُولُ: فِيَّ وَالله أُنْزِلَتْ حِينَ أَخْبَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ إِسْلامِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُحَاسِبَنِي بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً الَّتِي وَجَدَ مَعِي فَأَبَى أَنْ يُحَاسِبَنِي بِهَا فَأَعْطَانِي اللهُ بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً عِشْرِينَ عَبْداً كُلُّهُمْ تَاجِرٌ بِمَالِي فِي يَدِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ الله.

(المعجم الكبير للطبراني: ١١٢٣٥، ولباب النقول، ١/ ١١٤).

التفسير:

لما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى شَقَّ عليهم أَخْذُ أموالهم، فلقَّنه الله ما يستميلهم، ويُرَغِّبهم في الإسلام، فقال ﷻ مخاطباً رسوله ﷺ: قل للذين في أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء: إن كان

الله تعالى يعلم أنَّ في قلوبكم إيماناً، يعطكم إذ تُسْلِمُون ما هو خير لكم، ممَّا أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم في المغانم وغيرها من النِّعم التي وُعِدَ المؤمنون بها، ويغفر لكم ما كان من الشرك، وما استتبعه من السيئات والأوزار. والله غفور لِـمَنْ تاب من كفره وذنوبه، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه، ويَعُدُّهم للسعادة في الدنيا والآخرة. وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى السَّلْم، فلا تَخَفْ ممَّا عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال، فإنَّهم قد خانوا الله من قبل، فنقضوا الميثاق الذي أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية، وبما آتاهم من العقل الذي يَتَدَبَّرون به سُنَنَ الله في خَلْقِه، فمَكَّنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم، وعددك وعددهم، وهكذا سيُمَكِّنُك ممَّنْ يخونونك من بعد. والله يعلم ما ينوونه، وما يستحقونه من عقاب، حكيم يفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حِكْمَتُه البالغة، فينصر المؤمنين، ويُظْهِرُهم على الكافرين.

٧٢- وبعد أن ذكر ما يجب أن يعمل مع الأسرى، ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض، بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضِهم لبعض، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار، ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث، فقال: هؤلاء هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين؛ إرضاءً لربِّهم، ونصراً لرسوله ﷺ، وبذلوا الجهد بقدر الوسع، واقتحموا المشاقَّ، والذين آووا الرسول ومَنْ هاجر من أصحابه ونصروهم، وأمَّنوهم من المخاوف، و أشركوهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وقاتلوا مَنْ قاتلهم، وعادَوا مَنْ عاداهم. أولئك يَتَوَلَّى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولَّونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال، وما يتعلق به من الغنائم. وإن المؤمنين المقيمين في أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم، ودارُهم دار حرب وشرك، لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام، إذ لا سبيلَ إلى نصر أولئك لهم، و إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار، أو اضطهدوهم لأجل دينهم، وطلبوا نَصْرَكم عليهم، فعليكم أن تُساعِدُوهم بشرط أن يكون الكفار حربيِّين، لا عهدَ بينكم وبينهم، أمَّا إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم، ولا تُباح خيانتهم، والغدر بهم بنقض العهود والمواثيق. واللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فعليكم أن تقفوا عند حدوده، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم، وتَتَوَخَّوا فيها الحق والعدل، وتتقوا الهوى الذي يَصُدُّ عن ذلك.

٧٣- ولما عقد ﷻ الولاية بين المؤمنين، أخبر أنَّ الكفار حيث جمعهم الكفر، فبعضهم أولياء لبعض، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين. وإن كانوا شيعاً يعادي بعضهم بعضاً، وإن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، ومن تناصُرِكم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن

الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم وينبذوه على سواء، يَقَعْ من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذي يُفْضِي إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم، وتعطيل كثير من مقاصد الشرع التي لا تتحقق إلا بالتعاون والتناصر.

٧٤- وبعد أن ذكر عَقْدَ الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، أعقب ذلك بمَدْحِهم والثناء عليهم، فقال ﷻ: هؤلاء المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، دون مَنْ لم يهاجر وأقام بدار الشرك، ولم يَغْزُ مع المسلمين عَدُوَّهم، ثم وعدهم بحسن العاقبة فقال: لهم مغفرة تامة من ربِّهم تمحو ما فرط منهم من السيئات، ورزق كريم في دار الجزاء؛ لأنهم قد تركوا الأهل والوطن، وبذلوا النفس والمال، وأعرضوا عن سائر اللَّذَّات الجسمانية، وعَمِلُوا ما يُقَرِّبهم من ربِّهم في دار النعيم.

٧٥- سبب النزول:

عن ابن الزبير ﷺ قال: كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: تَرِثُنِي وَأَرِثُكَ، فنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. (لباب النقول: ١/ ١١٥).

التفسير:

والذين تأخَّر إيمانُهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى، وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم، فأولئك منكم، أي: فيلتحقون بالمهاجرين الأوَّلين والأنصار، وبما تَقَدَّم من الولاية والجزاء، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر، وبالتوارث في دار الهجرة في ذلك العهد وفي كل عهد، في حكم الله الذي كتبه على عباده المؤمنين، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذي القربى. والله سبحانه إنَّما شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينبغي للمؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر، وعادوا إلى البغي والعدوان.

٢- في الآيات بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين أعدائهم، ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية.

٣- مَنْ أَسَرَه الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار، ويجب على المسلمين السَّعْيُ في فكاكه، بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذِّمة أيضاً.

٤- ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام، وبيان فضل المهاجرين السابقين على اللاحقين، وفضل المهاجرين على الأنصار، وجعل المتأخرين في الإيمان والهجرة بمنزلة المتقدمين في تضامنهم معهم.

٥- ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام ومؤمني دار الحرب، في حال مقاتلتهم أو اضطهاد الكفار لهم، إلا إذا كان بينهما ميثاق صلح وسلام، فلا تمكن مناصرتهم. وفيما عدا حالة المقاتلة لا تثبت ولاية النصرة بين المسلمين في دار الإسلام، والمسلمين في دار الحرب.

٦- تقديس الوفاء بالعهود والمواثيق في شرعة الإسلام، وإن مس ذلك مصلحة بعض المسلمين.

٧- الكفار بعضهم أولياء بعض، أي: نصراء وأعوان.

٨- إذا لم نحقق ولاية النصرة بيننا، وواليْنا الكفار، أدَّى ذلك إلى ضَعْفِنا، وقوتهم علينا.

٩- اسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ لإفادة الاهتمام بتمييزهم للإخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم.

١٠- الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء من متعلق النصر، وهو المنصور عليهم. ووجه ذلك أنَّ الميثاق يقتضي عدم قتالهم، إلا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلا بالمسلمين المتميزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأما المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمل المسلمون تَبِعاتِهم.

١١- في الآيتين (٧٢) و(٧٣) إخبار عن أمر مستقبلي بأن المؤمنين إذا لم يتولَّ بعضهم بعضاً فإن العاقبة وقوع الفتن، وانتشار الفساد.

١٢- تقييد أولوية أولي الأرحام بأنها في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ للدلالة على أنَّ ذلك حكمٌ فِطْري قدَّره الله، وأثبته بما وضع في الناس من الميل إلى أقربائهم.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان أحكام الوفاء والنكث والموالاة.

٢- إبطال العادات والتقاليد والمفاهيم المخالفة التي كان عليها أهل الجاهلية.

٣- بيان أحكام التعامل مع المشركين والكتابيين في حالة الحرب والسلم.

٤- تحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير؛ للقتال في سبيل الله، ونصرة النبي ﷺ.

٥- الحديث عن غزوة تبوك.

٦- بيان صفات المنافقين وأحوالهم.

٧- بيان فضل المهاجرين والأنصار.

٨- التحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

٩- التذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

١٠- بيان بعض أحكام الجهاد.

١١- الكشف عن طبيعة الإسلام وحقيقته، وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدةً وسلوكاً.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ
ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ
كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١-٢- لما ذكر في آخر سورة الأنفال أَمْرَ العهد، تارةً بنَبْذِه إلى مَنْ خِيفت خيانته، وتارةً بالتمسك به عند الأمن من ذلك. ابتدأت هذه السورة بالأمر بالنبذ لأناس بأعيانهم، نقضوا أو خِيف منهم ذلك. وذلك تصريح بما أفهمته آيات الموالاة في سورة الأنفال من أن إحدى الفرقتين لا تصلح لموالاة الأخرى، فقال تعالى: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين المعاندين، ثم يأتي خطاب الله ﷻ للمؤمنين يُبَيِّن ما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برئ الله ورسوله من عهودهم، فأمرهم أن يقولوا لهم: سيروا في الأرض وأنتم آمنون لا يتعرض لكم أحد من المسلمين بقتالٍ مدةَ أربعة أشهر، واعلموا أنكم لن تُعْجِزوا الله، ولن تَفُوتوه، فتجدوا مهرباً منه، إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله، بل سيسلط المؤمنين عليكم، ويؤيدهم بنصره الذي وعدهم به، والعاقبة للمتقين، فقد جرت سنة الله بخِزْيِ الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم، وقتالهم لرسله في الدنيا والآخرة.

٣- لما أنزل الله البراءة أمر بالإعلام بها في المجمع الأعظم ليقطع الحُجَج، إذ بيَّن أن هذا إعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين، وسائر معتقداتهم في وقتٍ يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام، وهو يوم الحجِّ الأكبر يوم النحر الذي فيه تنتهي فرائض الحج، ويجتمع الحجَّاج لإتمام مناسكهم وسننهم في مِنى، ثم أكَّد ما يجب أن يُبَلِّغوه بلا تأخير بأن أمرهم أن يقولوا لهم: فإن تُبتم ورجعتم عن شرككم، وعن خيانتكم وغدركم بنقض العهد، وقَبِلْتم هدى الإسلام، فذلك خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ في هدايته سعادتكم فيهما، وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة، فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه ولا فائتيه، ولن تُفْلِتُوا من حكم سُنَنه ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغَلَبة. وبَشِّرْ - أيُّها الرسول الكريم - مَنْ جحد رسالتك ولم يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر، بعذابٍ موجع في الآخرة.

٤ - ولما أعلمهم بالبراءة وبالوقت الذي يُؤذن بها فيه، وكان معنى البراءة منهم أنّه لا عهد لهم، استثنى بعض المعاهدين، بألّا تُمهِلُوا الناكثين للعهود فوق أربعة أشهر، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم، فلا تُجْرُوهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم، بل أَتِمُّوا إليهم عهدهم إلى مدتهم، بشرط ألا ينقصوا شيئاً من شروط الميثاق ولا يُضارُّوكم، ولا يُعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم؛ لأنَّ المقصد من المعاهدات تَرْكُ قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرية التعامل بينهما. إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتقين الذين يتحاشون نقض العهد، وسائر المفاسد التي تُخِلُّ بالنظام، وتمنع جريان العدل بين الناس.

٥ - وبعد أن ذكر سبحانه الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر معتقداتهم وضلالاتهم، أعقب ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم، والأمان الذي أُعْطِيَ لهم للضرب في الأرض فأمر المؤمنين أنه إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرَّم عليكم فيها قتال المشركين، فافعلوا معهم كلَّ ما ترونه موافقاً للمصلحة من القتال، لأنَّ الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذي مُنِحْتُموه، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية، أولاً: قَتْلُهم في أيِّ مكان وجدوا فيه من حِلٍّ وحَرَم، ثانياً: أخذهم أسارى، ثالثاً: حَصْرُهم وحَبْسُهم حيث يُعْتصمون بمعقل أو حصن، بأن يُحاط بهم، ويُمنعوا من الخروج والانفلات، حتى يُسْلِموا وينزلوا على حكمهم، بشرطٍ ترضونه أو بدون شرط، رابعاً: مراقبتهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه، ورؤية تجوالهم وتقلُّبهم في البلاد. فإن تابوا عن الشرك الذي يحملهم على عداوتكم وقتالكم، ودخلوا في الإسلام بأن نطقوا بالشهادتين، وأقاموا الصلاة المفروضة كما تقيمونها في الأوقات الخمسة، وآتوا الزكاة المفروضة، فخَلُّوا سبيلهم، واتركوا لهم طريق حريتهم بالكَفِّ عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين، وبالكَفِّ عن حَصْرهم إذا كانوا محاصرين، وبالكَفِّ عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين. والله يغفر لهم ما سبق من الشرك وغيره من سيئاتهم، ويرحمهم فيمَنْ يرحم من عباده.

الفوائد والاستنباطات:

١ - افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة يُدْخِلُ في النفس الرَّهبة الشَّديدة، والخوف الأشدّ.

٢ - نسب (البراءة) إلى الله ورسوله من قِبَلِ أنه تشريع جديد شرعه الله، وأمر رسوله بتنفيذه، ونسب (معاهدة المشركين) إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذي عقد العهد؛ لأنّه عقده بوصفه الإمام والقائد لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه.

٣- الحكمة في تحديد مدة أربعة الأشهر: أن يكون لديهم فسحة من الوقت للنظر والتفكر في عاقبة أمرهم، والاختيار بين الإسلام والاستعداد للقتال، إذا هم أصَرُّوا على شِرْكهم وعدوانهم. وهذا منتهى ما يكون من الرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين، حتى لا يقال: إنَّه أخذهم على غِرَّة.

٤- في الآيات إيماء إلى أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يُوجبان - لِـمَنْ يؤدِّيها - أداءَ حقوق المسلمين من حفظ الدم والمال، وفق النصوص الشرعية.

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ دليل على أنَّ مَنْ امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة يُقاتَلُ حتى يؤدِّيها، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق ﷺ.

٦- إضافة الأذان إلى الله ورسوله دون المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّه تشريع وحكم في مصالح الأُمة، فلا يكون إلا من الله على لسان رسوله ﷺ. وهذا أمرٌ للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة؛ لئلا يكونوا غادرين.

٧- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنَّ ذلك من التقوى، أي: من امتثال الشرع الذي أمر الله به، لأن الإخبار بمحبة الله المتقين عقب الأمر كناية عن كون المأمور به من التقوى.

٨- قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ مستعملة في تعميم المراصد المظنون مرورُهم بها، تحذيراً للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراصد، فيأتيهم العدو منها.

٩- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل أُريد به حَثُّ المسلمين على ألَّا يتعرضوا بالسوء للذين يُسْلِمُون من المشركين، ولا يؤاخذهم لما فرط منهم.

١٠-الإسلام يُقَدِّس العهود التي أمر الله بها، ويُوجب الوفاء بها، ويجعل احترامها نابعاً من الإيمان، وملازماً لتقوى الله تعالى.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

التفسير :

٦- لما أمر تعالى بقتل المشركين حيث وُجِدوا، وأَخْذِهم وحَصْرِهم، ذكر لهم حالةً لا يُقتَلون فيها، ولا يُؤْخَذُون ويُؤْسَرون، فيأمر الله نبيه ﷺ إن طلب هؤلاء منه الأمان والجوار، فليجره وليأمنه على نفسه وأمواله لكي يسمع دعوة الإسلام، فإنَّ هذه فرصة للتبليغ، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك، وإلا فالواجب تبليغه المكان الذي يأمن به على نفسه، ويكون حراً في عقيدته، إذ لا يكون للمسلمين سلطان عليه؛ لأنَّه من قوم جاهلين، لا يدرون ما الكتاب، وما الإيمان؟

٧- ولما كان الأمر بالنبذ مَظِنَّةً لأن يُعْجَبَ منه، عجب كيف يكون للمشركين عهدٌ مع إضمار الغدر فيما وقع من العهود، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، وهم بنو كنانة وبنو ضمرة، لأنَّهم مِمَّن كان قد أقام على عهده، ولم يدخل في نَقْضِ ما كان بين رسول الله ﷺ وقريشٍ يوم الحديبية من العهد. فهؤلاء تَرَبَّصُوا بهم، ولا تقتلوهم ما استقاموا لكم على العهد، إذ لا يجوز أن يكون نَقْضُه من قِبَلِكم. إنَّ الله يحب الذين يتقون الغدر، ونَقْضَ العهد.

٨- ولما أنكر سبحانه على المشركين بَيَّنَ السبب الموجب لذلك، مكرراً أداة الإنكار تأكيداً للمعنى كيف يكون لهم عهد مشروع عند الله، مَرْعِيٌّ الوفاء عند رسوله، وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم: أنهم إن يظهروا عليكم في القوَّة والغلبة، لا يرقبوا الله، ولا القرابة في نقض العهد والميثاق؟ فهم يخادعونكم حال الضعف بما يقولونه من كلام معسول، يرون أنَّه يرضيكم، سواءً أكان عهداً أم وعداً أم أيماناً مؤكدة، وقلوبهم مملوءة ضغناً وحِقْداً، فهم إن ظهروا عليكم نكثُوا العهود، وحَنِثُوا بالأيمان، وفتكُوا بكم بقدر ما يستطيعون، وإنما يفعلون ذلك لأنَّ أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء.

٩- استبدلوا بآيات الله العظيمة وما فيها من المعالم الحكيمة ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، وهو ما هم فيه من رخاء العيش وكثرة الأموال، فصدُّوا أنفسهم عن الإسلام بسبب هذا الشراء الخسيس، وما يقتضيه من الوفاء، وصَدُّوا غيرهم أيضاً. قَبُح عَمَلُهم الذي يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى.

١٠- ومن أجل هذا الكفر لا يَرْعَون في مؤمن يقدرون على الفتك به قرابةً تقتضي الودَّ، ولا ذمة توجب الوفاء بالعهد. وهؤلاء البعداء عن الحق هم المتجاوزون للغاية القصوى من الظلم .

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات أنَّ التقليد في الدين غير كاف، وأنَّه لابُدَّ من النظر والاستدلال، بدليل إمهال الكافر وتأمينه وتبليغه مَأْمَنَه لسماع أدلَّة الإيمان، فلابُدَّ من الحُجَّة والبرهان.

٢- وصف الأكثر في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأنهم هم الناكثون، الناقضون لعهودهم، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى. وهذا من دقة القرآن وإنصافه في الأحكام.

٣- قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ جعله قليلاً؛ لأنه زائل غير باقٍ، وما عند الله باقٍ دائم، وهو خيرٌ وأبقى.

٤- قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلِّم به. وأضافه إلى نفسه إضافةَ الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومَنْ أخذ بقولهم: (إنَّ القرآن مخلوق).

٥- مشروعيَّةُ الأمان، أي: جواز تأمين الحربي إذا طلبه من المسلمين؛ ليسمع ما يدلُّ على صحَّة الإسلام. وفي هذا سماحة ويسر في معاملة الكفار، ودليل على إيثار السِّلم.

٦- استخدام حرف المهلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ للدلالة على وجوب استمرار إجارته في أرض الإسلام، إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، ولو بَلَغَه بعد مدة طويلة، فحَرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخي الرُّتبي اهتماماً بإبلاغه مأمنه.

٧- يجب علينا تعليم كلِّ مَنْ التمس منَّا تعلُّمَ شيء من أحكام الدِّين.

٨- يجب على الإمام حماية الحربي المستجير، وصون دمه وماله ونفسه من الأذى، ومنع التعرُّض له بأي ضَرْبٍ من ضروب الإيذاء.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ
(١١) وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ
أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ
ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٣)
قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ
(١٤) وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾

التفسير:

١١ - فإن رَجَعَ هؤلاء المشركون الذين أَمَرْتُكم بقتالهم عن شركهم بالله، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إليه وأطاعوه، فأدُّوا الصلاة بشروطها وأركانها، وآتوا الزكاة المفروضة، فهم إخوانكم في الدين الذي آمَرُكم به، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. وبهذه الأخوَّة يزول كل ما كان بينكم من عداوات. وإنا نُبيِّن حُجَجَنا وأدلَّتنا على خَلْقِنا لقومٍ يعلمون ما نُبيِّن لهم، بعد أن نشرحها مفصَّلَةً فيَفْقَهوها.

١٢ - وإن نكث هؤلاء ما أَبْرَمْتَه أيمانُهم من الوفاء بالعهد الذي عقدوه معكم، وعابوا دينكم، واستهزؤوا به، وصَدُّوا الناس عنه، ومن ذلك: الطعنُ في القرآن وفي النبي ﷺ، فقاتِلوهم فهم قيادة الكفر وحملة لوائه؛ رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونَقْضِ العهود.

١٣ - وبعد أن أمر سبحانه بقتال أئمة الكفر ذكر أسباب ذلك وهي ثلاثة، الأول: إنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ وأصحابه على ترك القتال عشر سنين، يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحراراً في دينهم. الثاني: إنهم هَمُّوا بإخراج الرسول ﷺ من وطنه، أو حَبْسِه حتى لا يُبَلِّغ رسالته، أو قَتْلِه بأيدي عصبة من بطون قريش ليتفرَّق دمه في القبائل، فتتعذَّرَ المطالبة به. الثالث: إنهم بدؤوا بقتال المؤمنين في بدر حين قالوا بعد العلم بنجاة عِيرهم: لا ننصرفُ حتى نستأصلَ محمداً وأصحابه. من أجل ذلك حَرَّضَ على قتالهم. أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفاً منكم وجبناً؟ فالله أحقُّ أن تخشَوا مخالفة أمره، وتَرْكَ مخالفة عدوِّه.

١٤-١٥ - وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم، وفنَّدَ الشبه المانعة من ذلك، أمرهم به أمراً صريحاً مع وَعْدِه لهم بالنصر، وإظهار المؤمنين عليهم، قاتلوهم كما أمرتكم، فإنكم إن فعلتم ذلك يُعَذِّبْهم الله بأيديكم ويُمَكِّنكم من رقابهم قتلاً، ومن صدورهم ونحورهم طعناً، ويُخْزِهم بذُلِّ الأسر والقهر والفقر لمن لم يُقتل منهم، وينصركم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذا، ويَشْفِ صدوركم مما نالوا منكم من الأذى ولم

تكونوا تستطيعون دفْعَه، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِكُمْ، وما كان قد وَقَرَ فيها مِنْ غدر المشركين، وظلمهم. ومَنْ تاب منهم، فسيتوب الله عليهم مِنْ شركهم، ويُوَفقهم للإيمان، ويتقبله منهم. وهو العليم بما لا تعلمون من استعدادهم في الحال والاستقبال، الحكيم فيما يشرع لهم من الأحكام.

الفوائد والاستنباطات:

١- يجب على المؤمن أن يكون أشجع الناس، وأعلاهم همة، ولا يخشى إلا الله.

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ خبر لمحذوف، أي: فهم إخوانكم. وصِيغَ هذا الخبر بالجملة الاسمية، للدلالة على أنَّ إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ودوامها، تنبيهاً على أنَّهم يعودون كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية.

٣- في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إسناد التعذيب إلى الله، وجُعِلت أيدي المسلمين آلة له تشريفاً للمسلمين، وإشارة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب.

٤- خَصَّ سبحانه قادة الكفر في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهم الرؤساء الطاعنون في دين الرحمن، الناصرون لدين الشيطان ؛ لعِظَمِ جنايتهم؛ ولأنَّ غيرهم تَبَعٌ لهم.

٥- قوله تعالى:﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يدلُّ على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

٦- قوله تعالى:﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدلُّ على أنَّ قتال الكفار وغلبة المسلمين إياهم قد ينشأ عنها إسلام كثير من الناس، فانتصار المسلمين قد يردُّ بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى.

٧- في الآيتين (١٤) و (١٥) إخبار مستقبلي وبُشرى من الله ﷻ إن نفَّذ المؤمنون أمْرَه، فقاتلوا أعداء الله، فإنَّه سوف يجازيهم بالنصر من عنده، وسيُعَذِّبُ هؤلاء المشركين بأيدي المؤمنين، ويُذِلُّهم بالهزيمة والخزي، ويُعلي كلمته، ويَشْفي صدور المؤمنين.

٨- ينظر: خريطة موقع غزوة تبوك، كما في الملحق.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا
يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦ - وبعد أن أمر سبحانه بالجهاد بيَّن أنه ابتلاء: أظننتم أن تُتركوا وشأنكم بغير فتنة ولا امتحان، ولم يتبين الخُلَّص من المجاهدين منكم، الذين لم يتخذوا لأنفسهم بِطانة من المشركين، الذين يُحادُّون الله تعالى بالشرك به، ومن المنافقين الذين يُطْلِعُون البِطانة الدخلاءَ من المشركين على أسرار الملة، ويُوقفونهم على سياسة الأُمة، كما يفعل المنافقون في كل زمان، واللهُ يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرِها وشَرِّها.

١٧ - ولما حَذَّرهم من اتخاذ بطانة دُخَلاء من المشركين من دونه، شرع يبيِّن أنَّ البطانة الدخلاء من المشركين التي يتخذها بعضهم لا تصلح للاتصاف بمحاسن الأعمال، ما لم تكن على أساس الإيمان: ما كان من شأن المشركين، ولا مما ينبغي لهم أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها. أولئك المشركون الكافرون بالله، وبما جاء به رسولُه قد بَطَلَتْ أعمالهم، فلم يبق له أثر في صلاح أنفسهم، ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده، وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود وبقاء دائم.

١٨ - إنَّ المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله وتوحيده، واختصاصه بالعبادة والتوكل عليه، والإيمان بالبعث والجزاء، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين، وخشية الله دون غيره مما لا ينفع ولا يضر. فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية هم الذين يَرْجُون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حِسّاً ومعنى، وبذا يستحقون عليها الجزاء في جنات النعيم.

١٩ - سبب النزول :

عن النُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلَامِ إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلَامِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.

(صحيح مسلم، كتاب الإمارة - باب فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، برقم ١٨٧٩، ٣/ ١٤٩٩).

التفسير:

لا ينبغي أن تجعلوا أهلَ سقاية المسجد الحرام وعمارته في الفضيلة، كمَنْ آمن بالله وبالبعث والجزاء وجاهد في سبيل الله، فإنَّ السِّقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البرِّ والخير، فأصحابها لا يُدانون أهل الإيمان والجهاد في علوِّ المرتبة وشرف المقدار. واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى الحق في أعمالهم ولا يهديهم إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم.

٢٠ - ثم بيَّن سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم مع المشركين الظالمين: فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسي والمالي أعلى مرتبة، وأعظم كرامة. وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته، دون مَنْ لم يكن مُسْتَجْمِعاً لهذه الصفات الثلاث، وإن سقى الحاجَّ وعَمَّر المسجد الحرام.

الفوائد والاستنباطات:

١- شرع الله الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله تعالى بنشر الإسلام.

٢- العمارة الممنوعة عن المشركين للمساجد هي الولاية عليها، والاستقلال بالقيام بمصالحها، كأن يكون الكافر ناظراً للمسجد وأوقافه. أما استخدام الكافر في عملٍ لا ولايةَ فيه، كنَحْتِ الحجارة والبناء والنجارة فلا يدخل في ذلك. وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجداً بناه، أو أوصى ببنائه أو ترميمه، إذا لم يكن في ذلك ضرر.

٣- لا ثواب للمشركين في الآخرة على أعمال البرِّ التي تصدر عنهم في الدنيا.

٤- دلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على الترغيب في عمارة المساجد، وأنه ينبغي لِـمَنْ بنى مسجداً أن يُخلص لله في بنائه، وألَّا يقصد الرياء والسمعة.

٥- دلَّت الآيات على أنَّ الجهاد مع الإيمان أفضل عند الله من أي عمل آخر من أعمال الخير والبر؛ لأنَّه بَذْلٌ للنفس أو المال، بقصد إعلاء كلمة الله، وأمَّا السِّقاية وعمارة المسجد الحرام فهما وإن كانا عملين طيبين، إلا أنهما ليسا في الدرجة مثل الجهاد.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ
إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ
آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ
اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ
حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢١-٢٢- لما ذكر الفوز العظيم فصَّل سبحانه ذلك الفوز العظيم، فقال: يُبَشِّرهم ربهم في كتابه على لسان رسوله ﷺ، وعلى لسان ملائكته حين الموت، برحمة منه ورضوان من لدنه، لا يشوبه سخط، وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ولهم فيها نعيم لا يزول على عِظَمِه وكماله، حال كونهم خالدين فيها أبداً. إنَّ ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل، لا يقدر قَدْرَه إلا الله الذي تَفَضَّل به، ومَنَحَه لعباده المكرمين.

٢٣- ولما كان مَحَطُّ الموالاة المناصرة، وكانت النصرة بالآباء والإخوان أعظم من النصرة بغيرهم، اقتصر عليها، فنهى المؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان أنصاراً، إذا كانوا قد اختاروا طريق الضلال، والشِّرك بالله تعالى، ومَنْ يَتَوَلَّهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولُّون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم، بوَضْعِهم الموالاة في غير موضعها، فهم قد وضعوا الولاية في موضع البراءة، والمودَّة في محلِّ العداوة.

٢٤- وبعد أن بَيَّن ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان، انتقل إلى بيان سبب ذلك، فأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: وإن كنتم تُفَضِّلُون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله الذي وُعِدْتُم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقوبته التي تَحُلُّ بكم عاجلاً أو آجلاً. والله لا يهدي القوم الخارجين من حدود الدين.

٢٥- ولما كان في بعض النفوس من الغُرور بالكثرة ما يُكسبها سكرة غفلتها عن بعض مواقع القدرة، ذكر الله تعالى قصة حنين دليلاً على ذلك فامتنَّ على المؤمنين: ولقد نصركم الله - أيها المؤمنون - في أماكن حرب تُوَطِّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم في صعيد واحد للطِّعان والنِّزال؛ إحقاقاً للحق وإظهاراً لدينه، ونصركم أيضاً في يوم حنين، وهو اليوم الذي أعجبتكم فيه كثرتكم، إذ كنتم اثني عشر ألفاً، وكان الكافرون أربعة آلاف فقط، فقال قائل منكم: «لن نُغْلَبَ اليوم من قلة»، فلم تنفعكم الكثرة، فغلبكم العدو في الجولة الأولى، وضاقت عليكم الأرض الواسعة، فلم تجدوا ملجَأً تُحَصِّنون أنفسكم فيه، فتولَّى فريق منكم منهزمين.

الفوائد والاستنباطات:

١- أسند التبشير في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّهُم﴾؛ لما في ذلك من الإحسان إليهم، بأنَّ مالكَ أمرِهم، والناظر في مصالحهم هو الذي يُبَشِّرهم. وإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدُّد، مُؤْذِنٌ بتعاقُبِ الخيرات عليهم، وتجدُّدِ إدخال السرور بذلك لهم.

٢- قَدَّم الرضوان على الجنات في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ﴾؛ لأنَّ رضا الله عن العبد أعظم من إسكانهم الجنة، ولأنه هو الغاية، والجنة هي الثمرة.

٣- ذكر الآباء والإخوان في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنَّهم أهل الرأي والمشورة، ولم يُذْكر الأبناء لأنَّهم في الغالب تَبَعٌ لآبائهم.

٤- ذكر الأبناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ لأنَّه ذكر المحبة، وهم أعلق بالنفس، بخلاف الآية قبلَها فلم يُذْكَروا، لأنَّ المقصود منها الرأي والمشورة. وقَدَّم الآباء؛ لأنَّهم الذين يجب بِرُّهم وإكرامُهم وحُبُّهم، وثَنَّى بالأبناء لكونهم أعلقَ بالقلوب.

٥- أفاد التعبير بـ﴿أَحَبَّ﴾ على التفضيل، والتفضيل في المحبة يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين، مع جعل ذلك التهاون نتيجةَ تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله.

٦- أسند النصر إلى الله بالصراحة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ لإظهار أنَّ إيثار محبَّة الله، وإن كان يُفوِّت بعض حظوظ الدنيا، ففيه حَظُّ الآخرة، وفيه حظوظ أخرى من الدنيا، وهي حظوظ النصر بما فيه من تأييد الجماعة المسلمة، والمغانم، وحماية الأُمة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله إذ آثروا محبته على محبَّة علائقهم الدنيوية.

٧- تخصيص يوم حُنين بالذِّكْر من بين أيام الحروب؛ لما فيه من العِبْرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله ﷺ، وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال، ففيه مَثَلٌ وشاهدٌ لحالتي الإيثارين المذكورين.

٨- في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ تنبيهٌ على خَطَئِهم في الأدب مع الله المناسب لمقامه، أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم.

٩- ينظر: خريطة موقع غزوة حُنين، كما في الملحق.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ
عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ
صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير :

٢٦-٢٧- وبعد الجولة الأولى من المعركة، أنزل الله تعالى سكينةً من لدنه على رسوله ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين الذين ثبتوا معه، وأحاطوا ببَغْلَتِه الشَّهباء، وعلى سائر المؤمنين الصادقين، فأذهب رَوْعَهم، وأزال حيرتهم، وأنزل مع هذه السكينة ملائكة مجنَّدة لم تَرَوْها بأبصاركم، بل وَجَدْتُم أثرها في قلوبكم بما عاد إليها من رباطة الجأش وشدة البأس، وعَذَّب الذين كفروا بالقَتْل والسَّبْي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا ما داموا يَسْتَحِبُّون الكفر على الإيمان، ويُعادُون أهله، ويقاتلونهم عليه، ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على مَنْ يشاء من الكافرين، فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تُحِطْ بهم خطيئات الشرك وظلماته، ولم يَخْتِمْ على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب، وهو غفور لهم يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي، رحيم بهم يتفضَّل عليهم، ويثيبهم بالأجر والجزاء.

٢٨- ووَفْق ما تقدَّم في الأوامر والنواهي، وبيان الحِكَم المرغِّبة والمرهِّبة، بَيَّنَ العلة في مدافعتهم وإحكام مقاطعتهم فبيَّن سبحانه أنَّ المشركين أنجاس فاسدو الاعتقاد، يُشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع، فلا تُمَكِّنوهم

بعد هذا العام - التاسع من الهجرة - أن يدخلوا المسجد الحرام، وإن خفتم فَقْراً بسبب قلة جَلْبِ الأقوات، وضروب التجارات التي كان يجلبها المشركون، فسوف يرزقكم الله من بركاته. إنَّه عليم بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر، حكيمٌ فيما يشرعه لكم من أمر ونهي.

٢٩- يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكافرين الذين لا يؤمنون بالله رباً لا شريك له، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يجتنبون ما حرَّمه الله ورسوله عليهم من الميتة ولحم الخنزير والخمر والربا، ولا يخضعون لما شرعه الله، من اليهود والنصارى حتى يدفعوا إليكم الجزية بأيديهم أذِلَّاءَ مقهورين، بشرط أن تكون صادرة من قُدْرَة وسَعَة، فلا يظلموا ولا يرهقوا، فإن أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم، والدفاع عنهم، وإعطاؤهم حريتهم في دينهم، ومعاملتهم بالعدل والمساواة، ويحرم ظُلْمَهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعليق السَّكينة بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سَكينة خارقة للعادة، ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه، كرامةً لنبيه ﷺ، ولذلك قَدَّم ذِكْرَ الرسول قبل ذِكْرِ المؤمنين.

٢- إعادة حرف (على) بعد حرف العطف تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني؛ للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول ﷺ سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه، وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة، بعد الجزع والخوف.

٣- قوله تعالى: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ بالمضارع دون الفعل الماضي؛ لإفادة تجدُّد التوبة على كل مَنْ تاب إلى الله.

٤- صيغة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة، حتى كأنهم لا وصف لهم إلا ذلك.

٥- قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ تقتضي نَهْيَ المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام.

٦- في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي أنَّ الله تعالى سوف يُغني المؤمنين، فلا خوف من الفقر.

٧- قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ تأكيد لمعنى ﴿يُعْطُوا۟﴾ للتنصيص على الإعطاء، و﴿عَن﴾ فيه للمجاوزة، أي: يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالها ولا الحوالة فيها، ومحلُّ المجرور الحال من الجزية. والمراد يد المعطي أي: يعطوها غير ممتنعين، ولا منازعين في إعطائها.

٨- قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ استدلَّ بها الجمهور الذين يقولون: لا تُؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب؛ لأنَّ الله لم يذكر أَخْذَ الجزية إلا منهم. وأمَّا غيرهم فلم يَذْكُرْ إلا قتالهم

حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب المجوسَ في أَخْذِ الجزية وإقرارِهم في ديار المسلمين؛ فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. (تفسير السعدي: ٣٣٤).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

٣٠- يخبر الله تعالى عن عدم التزام اليهود والنصارى بكتبهم وأنَّهم مشركون، فاليهود أشركوا بالله لما ادعوا أنَّ عزيراً ابن الله، والنصارى أشركوا به لما ادَّعوا أن المسيح عيسى ابن الله. ذلك القول افتروه بأفواههم دون إقامة برهان عليه، وهم يشابهون في هذا القول قول المشركين من قبلهم الذين قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، أهلكهم الله، كيف يُصْرَفُون عن الحق البيِّن إلى الباطل؟

٣١- بالغ اليهود والنصارى في الغُلُوِّ بعلمائهم وأنبيائهم وعُبَّادهم، فجعلوهم أرباباً من دون الله، يُحِلُّون لهم ما حَرَّمه الله عليهم، ويُحَرِّمون عليهم ما أحلَّه الله لهم، وجعل النصارى المسيح عيسى بن مريم إلهاً مع الله، وما أمر الله علماء اليهود وعُبَّاد النصارى وعزيراً وعيسى بن مريم إلا أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، فهو سبحانه إله واحد، لا معبودَ بحق سواه. تَنَزَّه سبحانه وتَقَدَّس أن يكون له شريك في ألوهيته بدعاء غيرِه معه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع بدون إذنه.

٣٢- يريد اليهود والنصارى أن يُطْفِئُوا نور الله، وهو دين الإسلام الذي أرسل به جميع رسله ، بالطعن فيه والصدِّ عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال في عُزَير والمسيح، وبما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد مَحْضَ الشرك عندهم، ويَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَه ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ، الذي أرسله إلى الخلق أجمعين، وجعل آيته الكبرى - وهي القرآن - معجزة دائمة، وكَفَلَ حِفْظَها إلى آخر الزمان، وبيَّن لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان، ولو كره الجاحدون ظهور الدين.

٣٣- ثم بيَّن إتمام نوره فقال: إنَّه تعالى كفل إتمام هذا النور؛ بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق، الذي لا يغيِّره دين آخر، ولا يبطله شيء آخر، ثم ذكر الغاية من إرسال محمد خاتم النبيين بدين الحق، فقال: ليُعْلي هذا الدين، ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والسيادة والسلطان، ولو كره المشركون ذلك، فإنَّ الله مُقدِّره رغم أنوفهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إسنادُ القول بأن عزير ابن الله لليهود والقول بأن المسيح ابن الله للنصارى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ مبنيٌّ على أنَّ الأمة تُعَدُّ متكافلة في شؤونها العامة، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم يُنْكِرْه عليه جمهورهم ويُزيلوه، يُؤاخَذون به كلهم.

٢- قال ابن العربي- يرحمه الله - في قوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: «في هذا دليل من قول رَبِّنا تبارك وتعالى على أنَّ مَنْ أخبر عن كُفْرِ غيره - الذي لا يجوز لأحد أن يبتدئ به - لا حرج عليه؛ لأنَّه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له، والردِّ عليه، فلا يمنع ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكلَّم به أحد، فإذا مكَّن من إطلاق الألسن به، فقد أَذِنَ بالإخبار عنه على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والردِّ عليه بالحجَّة والبرهان». (أحكام القرآن: ٢/ ٩١٣).

٣- إضافة النور إلى اسم الجلالة في قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أنَّ محاولة إطفائه عبث، وأنَّ أصحاب تلك المحاولة لا يَبْلُغون مُرادهم.

٤- قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ صيغة قصر، أي: هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يُطفِئونه؟

٥- وصف الإسلام بقوله: ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ تنويهاً بفَضْله، وتعريضاً بأنَّ ما عليه اليهود والنصارى ليس بهدى ولا حق.

٦- أبان الله ﷻ في الآيات أنَّ الغَلَبَةَ إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة، فلا يَغْلِبُون بكثرتهم.

٧- ذِكْرُ المشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ ظهور دين الإسلام أشدُّ حسرة عليهم من كلِّ أُمة؛ لأنَّهم الذين ابتدَؤوا بمعارضته وعداوته، ودَعَوا الأُمم للتألُّب عليه، واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئاً؛ ولأنَّ أتمَّ مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار المشركين؛ لأنَّ الإسلام غَلَبَ عليها، وزالت منها جميع الأديان الأخرى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ
وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ
ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ
ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ
كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ
أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ
لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا
مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

٣٤- سبب النزول:

عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ مَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْزَلَكَ مَنْزِلك هَذَا؟ قَالَ: كُنْتُ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ. فَقُلْتُ: نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ. (صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة التوبة، برقم ٤٦٦٠).

التفسير:

لـمّا ذكر ﷻ أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذكر حال كثيرٍ منهم؛ تنقيصاً من شأنهم وتحقيراً لهم، وأنَّ مثل هؤلاء لا ينبغي تعظيمهم، فخاطب الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما شرعه الله لهم، بأنَّ كثيراً من علماء اليهود، وكثيراً من عُبّاد النصارى، لَيأخذون أموال الناس بغير حق شرعي، فهم يأخذونها بالرشوة وغيرها، وهم يمنعون الناس عن متابعة الدين الحق في خاصة النفس، وإغراء الناس بالإعراض عنه، والذين يجمعون الذهب والفضة، ولا يُؤدُّون ما يجب عليهم من زكاتها، فأخبِرْهم - أيها الرسول - بما يَسُوءُهم يوم القيامة من عذاب موجع.

٣٥ - يوم القيامة يُحمى على ما جمعوه، ومنعوا حقه في نار جهنم، فإذا اشتدَّتْ حرارتها وُضِعَتْ على جباههم، وعلى جنوبهم، وعلى ظهورهم، ويقال لهم على سبيل التوبيخ: هذه هي أموالكم التي جمعتموها، ولم تُؤَدُّوا الحقوق الواجبة فيها، فذوقوا عاقبة ما كنتم تجمعون، ولا تُؤَدُّون حقوقَه.

٣٦- إنَّ عدد شهور السنة في حكم الله وقضائه اثنا عشر شهراً، لا أقل، ولا أكثر، فيما أثبته الله في اللوح المحفوظ أول ما خلق السموات والأرض. من هذه الأشهر الاثني عشر أربعة أشهر حُرُم، حَرَّمَ الله فيهنَّ القتال، وهي ثلاثةٌ سَرْدٌ: (ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم)، وواحد فرد، وهو (رجب). ذلك الخبر العظيم المذكور من عدد شهور السنة، ومن تحريم أربعة منها هو الدين المستقيم، فلا تظلموا في هذه الأشهر الحرم أنفسكم بإيقاع القتال فيها، وهَتْكِ حرمتها، وقاتلوا المشركين جميعاً، كما أنهم يقاتلونكم جميعاً. واعلموا أن الله مع الذين يتقونه بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه بالنصر والتثبيت، ومَنْ كان الله معه فلن يغلبه أحد.

٣٧- إنَّ التأخير لحرمة شهر المحرم إلى شهر غير المحرم، وجَعْلَه مكانه - كما كان يفعل العرب في الجاهلية - زيادة في الكفر على كفرهم بالله، إذ كفروا بحكمه في الأشهر الحرم، يُضِلُّ بها الشيطانُ الذين كفروا بالله، حين سَنَّ لهم هذه السُّنَّةَ السيئة، يُحِلُّون الشهر الحرام عاماً فيُبْدِلون به شهراً من شهور الحِلِّ، ويبقونه على تحريمه عاماً؛ ليوافقوا عدد الأشهر التي حَرَّم الله، وإن خالفوا أعيانها، فلا يُحِلُّون شهراً إلا حَرَّموا مكانه شهراً، فيُحِلُّوا بذلك ما حَرَّمه الله من الأشهر الحرم، ويخالفوا حكمه، زَيَّن لهم الشيطان الأعمال السيئة، فعملوها، ومنها ما ابتدعوه من النسيء. والله لا يوفق الكافرين الـمُصِرِّين على كفرهم.

٣٨- ولما بيَّن الله سبحانه أمر الجهاد، وأزاح جميع عِلَلِهم، عاتبهم على تَخَلُّفهم عن رسول الله: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما شرعه لهم، ما شأنكم إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله لقتال عدوكم تباطأتم، ومِلْتُم إلى الاستقرار في مساكنكم، أرَضِيتم بمتاع الحياة الدنيا الزائلة ولَذَّاتها المنقطعة، عوضاً عن نعيم الآخرة الدائم الذي أعدَّه الله للمجاهدين في سبيله؟ فما متاعُ الحياة الدنيا في جنب الآخرة إلا حقير، فكيف لعاقل أن يختار فانياً على باقٍ، وحقيراً على عظيم؟

الفوائد والاستنباطات:

١- ضرورة القيام بكشف ما يضمره أهل الكتاب للإسلام من المهالأة، والتألُّب على مناوأة الدين.

٢- تحريم أكل أموال الناس بالباطل، والصدِّ عن سبيل الله تعالى.

٣- تحريم اكتناز المال دون احتساب زكاته، وإنفاقه في سبيل الله.

٤- الحرص على تقوى الله في السر والعلن، ولاسيما عند قتال الكفار، فإنَّه في هذه الحال ربما ترك المؤمن التقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

٥- أسند سبحانه وتعالى الحكم إلى كثير من أهل الكتاب دون جميعهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾؛ لأنهم لم يَخْلُوا من وجود الصالحين فيهم .

٦- أسند الله ﷻ الفعل المبني للمجهول إلى المجرور ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحميِّ لظهوره، إذ هو النار التي تُحمى، ثم أكَّد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فصارت الأموال محميةً عليها النارُ وموضوعةً في النار. وبإضافة النار إلى جهنم عُلِم أن المحميَّ هو نار جهنم التي هي أشدُّ نارٍ في الحرارة، فجاء تركيباً بديعاً من البلاغة والمبالغة في إيجاز.

٧- قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ للتنديم والتغليظ. ولام التعليل مؤذنة بقصد الانتفاع؛ لأنَّ الفعلَ الذي عَلَّلَ بها هو من فعل المخاطب، وهو لا يفعل شيئاً لأجل نفسه إلا لأنَّه يريد به راحتها ونَفْعَها، فلما آل بهم الكنز إلى العذاب الأليم خابوا وخَسِرُوا فيما انتفعوا به من الذهب والفضة، بما كان أضعافاً مضاعفة من ألم العذاب. وجملة ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ توبيخ وتنديم.

٨- تيسير الله تعالى لعباده ليعرفوا عدد الأيام والشهور القمرية لمعرفة أوقات العبادات وضبط التواريخ في المصالح الدنيوية والأخروية، ومحور هذه الأشهر هو القمر الذي اقترن خلقه بخلق السموات والأرض في يوم واحد. (ح)

٩- يستنبط من الآية اقتران تاريخ خلق القمر بتاريخ خلق السموات والأرض، فقد خُلِقُوا في يوم واحد، وبما أن القمر يستمد ضوءه من الشمس فيستنتج أن الشمس أيضاً خُلِقَت في التاريخ نفسه. (ح)

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا
وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفسير:

٣٩- لما رغَّبهم ﷺ في الجهاد بناءً على الترغيب في ثواب الآخرة، رغَّبهم في الجهاد بناءً على أنواع أُخَرَ من الأمور المقوية للدواعي: إلا تنفروا - أيها المؤمنون - للجهاد في سبيل الله؛ لقتال عدوكم يعاقبكم الله بالقهر والإذلال وغيره، ويُبدل بكم أقواماً مطيعين لله، إذا استُنْفِروا للجهاد نفروا، ولا تَضُرُّوه شيئاً بمخالفتكم أَمْرَه، فهو غنيٌّ عنكم، وأنتم الفقراء إليه. والله على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء، فهو قادر على نَصْرِ دينه ونبيِّه من دونكم.

٤٠- ثم رَغَّبهم ثانية في الجهاد، فأبان لهم أنَّه تعالى المتوكِّلُ بنصره - على أعداء دينه - أعانوه أو لم يعينوه، وقد فعل ذلك به في أشدِّ الأوقات: إلَّا تنصروا - أيها المؤمنون - رسولَ الله ﷺ، وتستجيبوا لدعوته للجهاد في سبيل الله، فقد نصره الله حين أخرجه المشركون هو وأبو بكر ﷺ، لا ثالث لهما حين كانا في غار ثور مُختَفِيَيْن من الكفار الذين كانوا يبحثون عنهما، حين يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق حين خاف عليه أن يُدركه المشركون: لا تحزن إنَّ الله معنا بتأييده ونصره، فأنزل الله الطمأنينة على قلب رسوله، وآزره بجنود يؤيدونه، لا تشاهدونهم وهم الملائكة، وصيَّر كلمة المشركين السفلى، وكلمة الله هي العليا دائماً. والله عزيز في ذاته وقهره ومُلْكه، لا يغالبه أحد، حكيم في تدبيره وقدره وشرعه.

٤١- وبعد أن تَوَعَّد مَنْ لم ينفروا مع الرسول، وتثاقلوا حين استنفرهم، أتبعه بالأمر الجازم الذي لا هوادة فيه، فأوجب النفير العام على كل فرد، فلا عذر لأحد في التخلُّف وتَرْكِ الطاعة، فقال: سيروا - أيها المؤمنون - للجهاد في سبيل الله في العسر واليسر، شباباً وشيوخاً، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ذلك الخروج في سبيل الله والجهاد بالأموال والأنفس أكثر نفعاً في الحياة الدنيا والآخرة، من القعود والتعلُّق بسلامة الأموال والأنفس، أما في الدين فلا سعادة إلا لِـمَنْ ينصر الحق ويُقيم العدل، وأما في الدنيا فإنَّه لا عزَّ للأُمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية والعُدَّة التي هي وسيلة لدفاع العدو وكَبْحِ جماحه، إن كنتم تعلمون علماً يبعث على العمل.

٤٢- وبعد أن رَغَّبهم سبحانه في الجهاد في سبيل الله، وبَيَّن أنَّ فريقاً منهم تباطَؤُوا وتثاقلوا، أتبع ذلك ببيان أنَّ فريقاً منهم تخلَّفوا عنه، وطَفِقُوا يتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنونه ﷺ في القعود والتخلف ليأذن لهم، فقال: لو كان ما تدعون إليه الذين استأذنوك من المنافقين في التخلف غنيمة سهلة وسفراً لا مشقة فيه لاتَّبعوك أيها النبي، ولكن بَعُدَتْ عليهم المسافة التي دعوتهم لقَطْعها إلى العدو، فتخَلَّفوا، وسيحلف بالله هؤلاء المستأذنون من المنافقين في التخلف عندما ترجع إليهم: لو استطعنا الخروج إلى الجهاد معكم لخَرجنا. يهلكون أنفسهم بتعريضها لعقاب الله؛ بسبب هذه الأيمان الكاذبة، والله يعلم أنَّهم كاذبون في دعواهم، وفي أيمانهم هذه.

٤٣- ثم عاتب الله نبيَّه ﷺ في إذنه لِـمَنْ تَخَلَّف عنه من المنافقين: عفا الله عنك - أيها الرسول - في اجتهادك في الإذن لهم في التخلُّف، فلِمَ أَذِنْتَ لهم فيه؟ حتى يتضح لك الصادقون في أعذارهم التي قَدَّمُوها، والكاذبون فيها، فتأذنَ للصادقين منهم، دون الكاذبين.

الفوائد والاستنباطات:

١- جَرَتْ سُنَّةُ الله بأنَّ الأُمم التي لا تُدَافِعُ عن نفسها، ولا تحمي ذِمارها، لا بقاء لها، وتكون فريسة للطامعين، وغنيمة للمعتدين.

٢- التهاون في النفير حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب؛ لِما فيها من المضارِّ الشديدة.

٣- السكينة من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تَطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٤- قد يعرض الحزن لخواصِّ عباد الله الصِّدِّيقين، مع أنَّ الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنَّه مُضْعِفٌ للقلب، مُوهِنٌ للعزيمة.

٥- لم يذكر اسم مَنْ هو الثاني في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ لكون الثاني معلوماً للسامعين كلهم - وهو أبو بكر الصديق ﷺ - ، ولأنَّ المقصود تعظيم هذا النصر مع قلة العدد.

٦- أشعر قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أنَّ أمر المشركين كان بمظنَّةِ القوة والشدة؛ لأنَّهم أصحاب عدد كثير وفيهم أهل الرأي والذكاء، ولكنهم لما شاقُّوا الله ورسوله خذلهم الله، وقَلَّبَ حالهم من علو إلى سفل.

٧- جملة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام؛ لأنَّه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سفلى، أفاد أنَّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه، فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفروا، إذ ليس المقصود إفادةَ جَعْلِ كلمة الله عليا، لما يُشْعر به الجَعْلُ من إحداث الحالة، بل إفادة أنَّ العلاء ثابت لها، ومقصور عليها.

٨- الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ عامٌّ للذين استُنْفِروا فتثاقلوا، وإنما استُنْفِرَ القادرون، وكان الاستنفار على قدر حاجة الغزو، فلا يقتضي هذا الأمر تَوَجُّهَ وجوب النفير على كلِّ مسلم في كل غزوة.

٩- المقصود من وقوع قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالاً من فاعل ﴿ٱنفِرُواْ﴾ هو الأمر بالنفير في جميع الأحوال.

١٠- تقديم الأموال على الأنفس في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأهميته، ولأنَّ الجهاد بالنفس لا يتهيأ إلا بالجهاد المالي.

١١- تَعَمُّد اليمين الفاجرة يُفضي إلى الهلاك.

١٢- جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حال، أي: هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأنَّ الله يعلم كذبهم، أي: ويُطْلِعُ رسوله على كَذِبهم، فما جَنَوا من الحَلْفِ إلا هلاك أنفسهم.

١٣- افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إكرام عظيم للرسول ﷺ، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب، وأُلْقِيَ إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة؛ إيماءً إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم إلا لسبب تَأَوَّلَه، ورجا منه الصلاح.

١٤- ينظر: خريطة موقع غزوة تبوك، كما في الملحق.

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ
فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟
خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ
مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٤ - ليس من شأن المؤمنين بالله، وبيوم القيامة، إيماناً صادقاً أن يطلبوا منك - أيها الرسول - الإذْنَ في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل شأنهم أن ينفروا متى استُنْفِروا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم. والله عليم بالمتقين من عباده الذين لا يستأذنونك إلا لأعذارٍ تمنعهم من الخروج معك.

٤٥ - إنَّ الذين يطلبون منك - أيها الرسول - الإذن في التخلُّف عن الجهاد في سبيل الله هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بيوم القيامة، وأصاب قلوبَهم الشكُّ في دين الله، فهم في شَكِّهم يتردَّدون حيارى، لا يهتدون إلى الحق.

٤٦ - ولو كانوا صادقين في دعوى أنهم يريدون الخروج معك للجهاد في سبيل الله؛ لتَأَهَّبُوا له بإعداد العُدَّة، ولكن أبغضَ اللهُ خروجَهم معك، فأخَّرَهم عنه، وأهانهم فقيل لهم: اقعدوا مع القاعدين من النساء والصبيان والمرضى.

٤٧ - ولما كان تَخَلُّف هؤلاء قد يُحزن المؤمنين، طمأنهم الله بأنَّ خروجهم أكثر ضرراً من تَخَلُّفهم، فقال: من الخير ألَّا يخرج هؤلاء المنافقون معكم، فهم إن خرجوا معكم ما زادوكم إلا فساداً بما يقومون به من التخذيل وإلقاء الشُّبَه، ولأسرعوا في صفوفكم بنشر النميمة لتفريقكم. والحال أنَّ فيكم - أيها المؤمنون - مَنْ يستمع إلى ما يُرَوِّجونه من الكذب، فيقبله، وينشره بينكم، فينشأ الاختلاف بينكم. والله عليم بالظالمين من المنافقين الذين يُلقون الدسائس والشكوك بين المؤمنين.

٤٨ - ثم ذكر الله ﷻ نوعاً آخر من مكر المنافقين، وفساد باطنهم، فقال: لقد طلب هؤلاء المنافقون الإفساد بتفريق كلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم من قبل غزوة تبوك، ونَوَّعُوا وصرفوا لك - أيها الرسول - الأمور بتدبير الحِيَلِ، لعلَّ حِيَلَهم تُوهن في عزمك على الجهاد، حتى جاء نصر الله، وتأييده لك، وأعزَّ الله دينه وقهر أعداءه، وهم كارهون لذلك؛ لأنهم كانوا يرغبون في انتصار الباطل على الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب الجهاد بالنفس والمال، حيث اقتضت الحاجة ذلك.

٢ - العبد الكامل العبودية لله هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة.

٣- للجهاد ثمرة يانعة عظيمة، فهو يحقق إحدى الحسنيين: إمَّا النصر بإعلاء كلمة الله، وإعزاز المسلمين، وإمَّا الشهادة في سبيل الله، فيتحقق القرار في نعيم الآخرة، والاستمتاع بالخلود في الجنة.

٤ - وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبُّت والتأنِّي، وترك الاغترار بظواهر الأمور.

٥ - المؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم.

٦- الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للدَّلالة على تجدُّد نفي إيمانهم.

٧- الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ للدلالة على قِدَمِ ذلك الارتياب ورسوخه؛ فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ
أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا
هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ
وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

التفسير:

٤٩ - ولما أشار سبحانه إلى أنَّ من المنافقين مَنِ استأذن في الخروج، توطئة للاعتذار عنه، شرع يفصل ذلك: ومن المنافقين مَنْ يعتذر بالأعذار المختلقة فيقول: يا رسول الله ائذن لي في التخلُّف عن الجهاد، ولا تحملني على الخروج معك، حتى لا أصيب ذنباً بسبب فتنة نساء الروم إذا شاهَدْتُهن. ألا قد سقطوا في فتنة أعظم مما زعموا، وهي فتنة النفاق. إنَّ جهنم يوم القيامة لمحيطة بالكافرين، لا يفوتها منهم أحد، ولا يجدون عنها مهرباً.

٥٠ - ثم ذكر ﷻ نوعاً آخر من كيد المنافقين، ومِنْ فساد بواطنهم، مخاطباً الرسول ﷺ: إن نالتك - يارسول الله - نعمة من الله بما يَسُرُّك من نصر أو غنيمة كرهوا ذلك، وحزنوا له، وإن نالتك مصيبة من شدةٍ أو انتصارِ

عدو قال هؤلاء المنافقون: قد احتَطْنا لأنفسنا، وأَخَذْنا بالحذر حين لم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون، فأصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، ويرجع هؤلاء المنافقون إلى أهليهم مسرورين بالسلامة.

٥١- قل - أيها الرسول - لهؤلاء المنافقين: لن ينالَنا إلا ما كتبه الله لنا، فهو سبحانه سيدنا، الملجأ الذي نلجأ إليه، ونحن متوكلون عليه في أمورنا، وعليه وحده يتوكل المؤمنون، فهو كافيهم، ونِعْمَ الوكيل.

٥٢- قل - أيها الرسول - لهم: هل تنتظرون أن يقع لنا إلا النصر أو الشهادة، وهما عاقبتان حُسْنَيان، ونحن ننتظر بكم أن يُنزل بكم الله إحدى مَساءتين: مساءة بعذاب من عنده يهلككم، أو مساءة بتعذيبكم بأيدينا بقتلكم وأَسْرِكم إذا أَذِنَ لنا بقتالكم، فانتظروا عاقبتنا، إنا مُنْتظرون عاقبتكم.

٥٣- ولما كان جملة ما يصيب المنافقين من العذاب الإنفاق بتزكية ما طَهُرَ من أموالهم بالإعانة في سبيل الله خوفاً من اتهامهم بالنفاق في أقوالهم؛ ليفتدوا أنفسهم به من السفر: قل - أيها الرسول - لهم: ابذُلوا ما تبذلون من أموالكم طوعاً أو كرهاً، لن يُتَقَبَّل منكم ما أنفقتم منها لكفركم، وخروجكم عن طاعة الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأعذار الكاذبة لا تخفى على الله، فهو المُطَّلع على الغيوبِ، وأسرار النفوس، وخفايا ما في الصدور، فلا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بذكائه وفِطْنته في تعمية الحقائق.

٢- الإيمان يدفع صاحبه إلى اقتحام الأهوال ومجابهة الصعاب، والتضحية والفداء في سبيل الحق.

٣- من سنن الله الجارية أَخْذُ الظالمين بذنوبهم، فالذنوبُ آفة الحضارات.

٤- التوكُّل على الله بمعنى تفويض الأمر إليه بعد اتخاذ الأسباب من أصول الإيمان.

٥- التعريف في الفتنة في قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرف في جنسه، أي: في الفتنة العظيمة سقطوا، فأيُّ وجه فُرِض في المراد من الفتنة حين قال قائلهم ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ كان ما وقع فيه أشد مما لم يقع، فإن أراد فتنة الدين فهو واقع في أعظم الفتنة بالشرك والنفاق، وإن أراد فتنة سوء السمعة بالتخلُّف فقد وقع في أعظم الفتنة بافتضاح أمْرِ نفاقِهم، وإن أراد فتنة النكد بفراق الأهل والمال فقد وقع في أعظمِ نَكَدٍ بكونه مكروهاً مبغوضاً للناس.

٦- في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ دعوة إلى الرضا والتسليم، وهو ألَّا يحزنوا لما يصيبهم؛ لئلا يَهِنُوا وتذهب قوتهم، وأن يرضوا بما قدَّر الله لهم، ويرجوا رضا ربهم؛ لأنهم واثقون بأنَّ الله يريد نَصْرَ دينه. وفي الآية دليل لأهل السنة على أنَّ قضاء الله شامل لكل المُحْدَثات، وأنَّ تَغَيُّرَ الشيء عمَّا قَضَى الله به محال.

٧- جملة ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضة أي: لا يصيبنا إلا ما قدَّره الله لنا، ولنا الرجاء بأنَّه لا يُكتب لنا إلا ما فيه خيرُنا العاجلُ أو الآجل، لأنَّ المولى لا يَرْضى لمولاه الخِزْيَ.

٨- اختيار لفظ الفاسقين بدل الكافرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ لأنَّهم يُظْهِرون الإسلام، ويُبْطِنُون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر. والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم.

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٤- وما منعهم من قَبول نفقاتهم إلا ثلاثة أمور: كُفْرُهم بالله وبرسوله، وكَسَلُهم وتثاقلهم إذا صَلَّوا، وأنهم لا ينفقون أموالهم طوعاً، وإنما ينفقونها كرهاً؛ لأنهم لا يرجون ثواباً في صلاتهم، ولا في إنفاقهم.

٥٥- ولما انتفى عن أموالهم النفع الأُخروي الذي هو النفع، قال مبيِّناً مافيها من الفساد الذي يظن أنه صلاح: فلا تعجبك - أيها الرسول - أموال المنافقين، ولا أولادهم، ولا تستحسنها، فعاقبة أموالهم وأولادهم سيئة، فالله يجعلها عذاباً عليهم بالكَدِّ والتعب لتحصيلها، وبما ينزل من مصائب فيها إلى أن يخرج الله أرواحهم حال كفرهم، فيُعَذَّبون بالخلود في الدَّرْك الأسفل من النار.

٥٦- ويحلف المنافقون لكم - أيها المؤمنون - كاذبين: إنهم لمن جملتكم، وهم ليسوا منكم في بواطنهم وإن أظهروا أنهم منكم، لكنهم قوم يخافون، فهم جبناء في القتال، ويخافون أن يحلَّ بهم ما حَلَّ بالمشركين من القتل والسبي، فيظهرون الإسلام تقية.

٥٧- لو يجد هؤلاء المنافقون ملجأً من حصن يحفظون فيه أنفسهم، أو يجدون كهوفاً في الجبال يختبئون فيها، أو يجدون نَفَقاً يدخلون فيه لالتجَؤوا إليه، ودخلوا فيه وهم مسرعون سرعة الفرس الجامح.

٥٨- سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ذو الخويصرة فقال: اعدل. فقال: وَيْلَكَ مَنْ يعدل إذا لم أعدل؟.. فنزلت: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

(صحيح البخاري: كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج، برقم ٦٩٣٣).

التفسير:

ومن المنافقين مَنْ يَعيبك – أيها الرسول – في قسمة الصدقات، عندما لا ينالون منها ما يريدون، فإن أعطيتهم منها ما يطلبون رَضُوا عنك، وإن لم تُعْطِهم ما يطلبون منها أظهروا التذمُّر.

الفوائد والاستنباطات:

١- ذكر سبحانه من أعمال البر الصلاة والنفقة؛ لأنَّ الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام، ويستدلُّ بهما على الإيمان.

٢- تعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذماً وتقبيحاً.

٣- ينبغي للعبد ألَّا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابتُ القلب، يرجو ذُخْرَها وثوابَها من الله وحده، فذاك دليل الإيمان والبعد عن النفاق.

٤- إنَّ أفعال الكافر الخيرية كصلة القَرابة، وإغاثة الملهوف، قد تفيده في الدنيا بدفع ضرر أو سوء، ولكن لا يُثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة.

٥- الأيمان الكاذبة والإقدام عليها، ومنها دعوى الإيمان من أخلاق المنافقين.

٦- اختيار صيغة المضارع في قوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ وقوله: ﴿ يَفْرَقُونَ ﴾؛ للدلالة على التجدُّد، وذلك دأبهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

التفسير:

٥٩- ولو أنَّ هؤلاء المنافقين الذين يَعيبونك في قسمة الصدقات رَضُوا بما فرضه الله لهم، وبما أعطاهم رسولُه منها، وقالوا: كافينا الله، سيعطينا الله من فضله ما شاء، وسيعطينا رسولُه مما أعطاه الله. إنَّا إلى الله وحده راغبون أن يُعطينا من فضله، لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم

٦٠- ولما عابوا رسول الله ﷺ في قسمتها بَيَّن لهم مصارِفَها ومُسْتَحقيها: إنما الزَّكَوات الواجبة يجب أن تُصْرف للفقراء، وهم المحتاجون الذين لا يَمْلكون شيئاً، وللمساكين الذين لا يملكون كفايتهم، وللسعاة الذين يُرسلهم الإمام لـجَمْعِها، وللكفار الذين يُتَألَّفون بها ليُسْلِمُوا، أو لضَعَفَةِ الإيمان ليقوى إيمانهم، أو لمن يُدْفَعُ بها شَرُّه، وتُصْرَفُ في الأرِقَّاء ليعتقوا بها، وللمَدينين في غير إسراف ولا معصية، إن لم يجدوا وفاءً لما عليهم من دَيْن، وتُصْرَفُ في تجهيز المجاهدين في سبيل الله، وللمسافر الذي انقطعت نفقته وقَصْرُ صَرْفِ الزَّكَوات على هؤلاء فريضة من الله. والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه.

٦١- ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالات المنافقين فبَيَّن أن من المنافقين مَنْ يُؤذون رسول الله ﷺ بالكلام، فيقولون لما شاهدوا حِلْمه ﷺ: إنَّه يسمع من كلِّ أحد ويُصَدِّقُه، ولا يميز بين الحق والباطل، قل لهم - أيها الرسول -: إنَّ الرسول لا يسمع إلا الخير، يُصَدِّق بالله، ويُصَدِّق ما يخبر به المؤمنون، والذين يؤذونه ﷺ بأيِّ نوع من أنواع الإيذاء لهم عذاب موجع.

٦٢- يحلف المنافقون بالله لكم - أيها المؤمنون - إنَّهم لم يقولوا شيئاً يُؤذي النبي ﷺ؛ ذلك لِيُرْضوكم، والله ورسوله أولى بالإرضاء بالإيمان والعمل الصالح، إن كان هؤلاء مؤمنين حقاً.

٦٣- ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنهم بعملهم هذا مُعادون لله ولرسوله، وأنَّ مَنْ يعاديهما يدخل يوم القيامة نار جهنم ماكثاً فيها أبداً. وذلك هو الهوان والذل الكبير.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأموال والأولاد قد تكون سبباً للعذاب في الدنيا، وقد تكون سبباً للعذاب في الآخرة، فليتعامل العبد معهما بما يُرضي مولاه، فتتحقق بهما النجاة.

٢- ينبغي للعبد أن يكون هواه تَبَعَاً لمرضاة مولاه.

٣- لو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسدُّ الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية والدنيوية.

٤- توزيع الزكاة موكول لاجتهاد ولاة الأمور، يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال.

٥- إيذاء الرسول ﷺ فيما يتعلق برسالته كفرٌ يترتب عليه العقاب الشديد.

٦- ينبغي للعبد أن يكون أُذُنَ خيرٍ لا أُذُنَ شرٍّ، يستمع إلى ما فيه الصلاح والخير، ويُعْرِضُ ترفُّعاً وإباء عن سماع الشر والفساد.

٧- تقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لإفادة القصر، أي: إلى الله راغبون، لا إلى غيره.

٨- الإخبار بـ ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ من صيغ التشبيه البليغ، أي: كالأذن في تَلَقِّي المسموعات لا تَرُدُّ منها شيئاً، وهو كناية عن تصديقه بكل ما يَسْمَعُ من دون تمييز بين المقبول والمردود.

﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- ولما عَلَّل فِعْلَ المستهينين أتبعه تعليلَ أمرِ صنف آخَرَ أخفَّ منهم نفاقاً بما عندهم مما يقارب التصديق فقال: يخاف المنافقون أن ينزل الله على رسوله سورةً تُطْلِع المؤمنين على ما يضمرونه من الكفر، قل - أيها الرسول -: استمِرُّوا - أيها المنافقون - على استهزائكم وسخريتكم، فالله مخرج ما تخافون بإنزال سورة أو بإخبار رسوله بذلك.

٦٥- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاَءِ أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلاَ أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلاَ أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ. قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ، تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾. (تفسير ابن أبي حاتم: ٤/ ٦٣).

التفسير:

ولئن سألت - أيها الرسول - المنافقين عمّا قالوا من الطعن، وسَبِّ المؤمنين بعد إخبار الله لك به ليقولُنَّ: كنا في حديث نمزح فيه ولم نكن جادِّين. قل أيها الرسول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟

٦٦- لـمَّا وصفهم بالنفاق حَقَّقه بعدم مبادرتهم إلى التوبة التي هي فعل المؤمنين، وباجترائهم على الإنكار مع كون السائل لهم قد بلغ الغاية في الجلال والكمال، فقال: لا تعتذروا بهذه الأعذار الكاذبة، فقد أظهرتم

الكفر باستهزائكم بعد أن كنتم تُضمِرُونه، إن نتجاوز عن فريق منكم؛ لتَرْكِه النفاقَ وتوبتِه منه، وإخلاصه لله، نُعَذِّبْ فريقاً منكم لإصرارهم على النفاق، وعدم توبتهم منه.

٦٧- المنافقون رجالاً ونساءً متفقون في أحوال النفاق، وهم على النقيض من المؤمنين، فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويبخلون بأموالهم، فلا ينفقونها في سبيل الله، أعرضوا عن الله فغفلوا عنه، فلا يذكرونه إلا قليلاً، فأغفلهم الله من رحمته. إنَّ المنافقين هم الخارجون عن طاعة الله وطريق الحق إلى معصيته وطريق الضلال.

٦٨- وعد الله المنافقين والكفار الذين لم يتوبوا نار جهنم، ماكثين فيها أبداً، هي كافيتهم عقاباً، وطَرَدَهم الله من رحمته، ولهم عذاب مستمر.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَعْداد قبائح المنافقين وهي: الإقدامُ على الأيمان الكاذبة، ومعاداة الله ورسوله، والاستهزاء بالقرآن والنبي والمؤمنين، والاعتذار بأنهم هازلون لاعبون.

٢- لا يُقبل الهزل في الدين وأحكامه، ويُعَدُّ الخوض في كتاب الله ورسله وصفاته كفراً، ولا خلاف بين الأُمة في أن الهزل بالكفر كفر، لأنَّ الهزل أخو الباطل والجهل.

٣- التوبة عن النفاق أو الكفر مقبولة، فمَنْ تاب عُفِيَ عنه، ومَنْ أصرَّ على الكفر أو النفاق عوقب في جهنم.

٤- مَنْ حلف فليحلف بالله أو ليصمت، ومن حُلِفَ له فليُصَدِّقْ.

٥- شمل قوله: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ جميع المنافقين والمنافقات؛ لأنَّ كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلاً ببعض آخر، عُلِمَ أنهم سواء في الأحوال.

٦- وَحَّدَ ﷻ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مَرْضِيّ واحد.

٧- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب؛ للإشعار ببُعْدِ درجته في الهول والشناعة.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ
فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ
أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى
جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

التفسير:

٦٩- ولما كان حالهم في الإقبال على العاجلة لكونها حاصلة، والإعراض عن العاقبة لأنها غائبة، مشابهاً لحال مَنْ كان قبلهم من الأُمم الخالية والقرون الماضية، بيَّنَ لهم ذلك، وختم ببيان سوء أحوالهم، وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالهم، موبخاً لهم: أنتم - يا معشر المنافقين - في الكفر والاستهزاء مثلُ الأُمم المكذِّبة مِنْ قبلكم، كانوا أعظم قوة منكم، وأكثر أموالاً وأولاداً، فتمتَّعوا بنصيبهم المكتوب لهم من مَلَذَّات الدنيا وشهواتها، فتمتعتم أنتم - أيها المنافقون - بنصيبكم المقدَّرِ لكم من ذلك، مثل تمتُّع الأُمم المكذبة السابقة بنصيبهم، وخُضْتم في التكذيب بالحق، والطعن في الرسول، مثل خوضهم في التكذيب به والطعن برسلهم. أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة هم الذين بَطَلَتْ أعمالهم لفسادها عند الله بالكفر، وهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك.

٧٠- ألم يَبْلُغْ هؤلاء المنافقين خبرُ ما فعلَتْه الأُمم المكذبة، وما فُعِل بها من عقاب: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، وقرى قوم لوط، جاءتهم رُسُلُهم بالبراهين الواضحة والحُجج الجلية، فما كان الله ليظلمَهم، فقد أنذَرَتْهم رُسُلُهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بما كانوا عليه من الكفر بالله، وتكذيب رسله.

٧١- لما بيَّن سبحانه وَصْفَ المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة، ذكر في هذه الآية وصف المؤمنين بالخير وأعمال البر، ثم ذكر أنواع ما أعَدَّ الله لهم من الثواب الدائم، والنعيم المقيم: والمؤمنون والمؤمنات

بعضهم أنصار بعض، يأمرون بالمعروف، وهو اسم جامع لكلِّ ما عُرِف حُسْنُه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وينهون عن المنكر، وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، ويُؤَدُّون الصلاة كاملةً على أكمل وجه، ويطيعون الله، ويطيعون رسوله، أولئك المتصفون بهذه الصفات الحميدة سيدخلهم الله في رحمته. إنَّ الله عزيز، لا يُغالبه أحد، حكيم في خَلْقه وتدبيره وشَرْعِه.

٧٢- و لما ذَكَرَ الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال، ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل: وعد الله المؤمنين والمؤمنات أن يُدْخِلَهم يوم القيامة جناتٍ تجري من تحت قصورها الأنهار ماكثين فيها دائماً، لا يموتون فيها ولا ينقطع نعيمهم، ووَعَدَهم أن يدخلهم مساكن حسنة في جنات إقامة، ورضوان يُحِلُّه الله عليهم أكبر من ذلك كله. ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا يُدانيه فوز.

٧٣- يا أيها الرسول، جاهِدِ الكفَّار بقتالهم بالسيف، وجاهد المنافقين باللسان والحجة، واشْدُد على الفريقين فهم أهل لذلك، ومَقَرُّهم يوم القيامة جهنم، وساء المصير مصيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - النِّفاق: مرض عُضال متأصِّل في البشر، وأصحاب ذلك المرض متشابهون في كل عصر وزمان في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وقبض أيديهم وإمساكهم عن الإنفاق في سبيل الله للجهاد، وفيما يجب عليهم من حق.

٢ - الجزاء من جنس العمل. فالذي يترك أوامر الله، ويأتي بنواهيه، يتركهم من رحمته.

٣- سبب العذاب للكفار والمنافقين واحد في كل العصور، وهو إيثار الدنيا على الآخرة، والاستمتاع بها، وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة والغدر بهم.

٤ - إهلاك الأُمم والأقوام الغابرة إنما هو بسبب كفرهم وتكذيبهم الأنبياء، فيه عظة وعبرة للمُعْتَبِرِ من العقلاء.

٥ - لا عقوبة إلا بذنب.

٦ - إن أهل الإيمان رجالاً ونساءً أُمة واحدة مترابطة متعاونة متناصرة، قلوبهم متحدة في التوادِّ والتحابِّ والتعاطف.

٧- رضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات؛ لما في ذلك من غاية الرضا والإسعاد.

٨- إن أهل الإيمان من الذكور والإناث متناصرون متعاضدون، وقد كان التعاون بين المسلمين والمسلمات قائماً في الميادين والمواقف الحاسمة كلها كالهجرة والجهاد، مع اعتصام الرجال بالعِفَّة، وغَضِّ

البصر، واعتصام النساء بالأدب الجمِّ والحياء، والتعفُّف وغض البصر، والاحتشام في الحديث واللباس والعمل.

٩- قرن الله ﷻ المنافقين بالكفار في قوله تعالى: ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ تنبيهاً على أنَّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، وفائدة الجمع بين الكفار والمنافقين في الجهاد إلقاء الرعب في قلوبهم، فإنَّ كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره، فيُعامَلَ معاملة الكفار المحاربين، فيكون ذلك خاضداً شوكتهم.

١٠- ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ
يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟
يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ
عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ
بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا
وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

التفسير:

٧٤- ولما أتى بالدليل العام على إجرام المنافقين أتبعه بالدليل الخاص عليه: يحلف المنافقون بالله كاذبين: ما قالوا ما بَلَغَكَ عنهم من السَّبِّ لك، والعيب لدينك. ولقد قالوا ما بلغك عنهم مما يكفِّرهم، وأظهروا الكفر بعد إظهارهم الإيمان، ولقد هَمُّوا بما لم يظفروا به من الفتك بالنبي ﷺ، وما أنكروا شيئاً إلا شيئاً لا ينكر، وهو أنَّ الله تَفَضَّل عليهم بإغنائهم من الغنائم التي مَنَّ بها على نبيِّه، فإن يتوبوا إلى الله من نفاقهم تكن توبتهم منه خيراً لهم من البقاء عليه، وإن يَتَوَلَّوا عن التوبة إلى الله يعذبهم عذاباً موجعاً في الدنيا بالقتل والأسر، ويعذبهم عذاباً موجعاً في الآخرة بالنار، وليس لهم وَلِيٌّ يَتَوَلَّاهم، فينقذهم من العذاب، ولا ناصر يدفع عنهم العذاب.

٧٥- ومن المنافقين مَنْ عاهد الله قائلاً: لئن أعطانا الله من فضله لَنتصدَّقَنَّ على المحتاجين، ولَنكونَنَّ من الصالحين الذين صلحت أعمالهم.

٧٦- فلما أعطاهم الله سبحانه من فضله لم يَفُوا بما عاهدوا الله عليه، بل بخلوا، فلم يتصدقوا بشيء، وتَوَلَّوا وهم مُعْرِضون عن الإيمان.

٧٧- فجعل عاقبتهم نفاقاً ثابتاً في قلوبهم إلى يوم القيامة؛ عقاباً لهم على خُلْفِهم لعهد الله، وعلى كذبهم.

٧٨- ألم يعلم المنافقون أنَّ الله يعلم ما يُخفون من الكيد والمكر في مجالسهم، وأنَّ الله سبحانه علَّام الغيوب؟ فلا يخفى عليه من أعمالهم شيء، وسيجازيهم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب جهاد الكفار والمنافقين باليد والسِّنان، والحجة والبرهان إذا اجتمعت الضوابط الشرعية اللازمة لذلك.

٢- المنافقون من شرّ الناس لأنهم غادرون، يُقابِلون الإحسان بالإساءة.

٣- في الآيات دلالة على أنَّ نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه.

٤- في الآيات ثناءٌ على قوة البدن والعمل، وأنها تقوم مقام المال. وهذا أصل عظيم في تقدير أصول الثروة العامة، والتنويه بشأن العامل.

٥- جيء بالفعل (يَكُ) في جواب الشرط دون أن يقال: فإن يتوبوا فهو خير لهم؛ لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، والإيماء إلى أنّه لا يحصل الخير إلا عند التوبة؛ لأنَّ فِعْلَ التكوين مؤذن بذلك.

٦- عبَّر ﷻ عن كَذِبِ المنافقين بصيغة ﴿كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾؛ لدلالة (كان) على أنَّ الكذب كائن فيهم ومتمكِّن منهم، ودلالة المضارع على تَكَرُّره وتجدُّده. وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة؛ فإنها تفسد الأخلاق الصالحة.

٧- عطف ﷻ النجوى على السِّر في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ مع أنه أعمُّ منها؛ لينبئهم باطلاعه على ما يتناجُون به من الكيد والطعن.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

٧٩- سبب النزول:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي. وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا. فَنَزَلَتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة التوبة، برقم٤٦٦٨).

التفسير:

ثم ذكر الله ﷻ نوعاً آخر من أعمال المنافقين القبيحة، وهو لَـمْزُهم مَنْ يأتي بالصدقات طوعاً وطبعاً، أولئك الذين يَعيبون المتطوعين من المؤمنين ببذل الصدقات اليسيرة، الذين لا يجدون إلا شيئاً قليلاً هو حاصلُ ما يقدرون عليه، فيسخرون منهم قائلين: ماذا تُجْدي صَدَقَتُهم؟ سَخِرَ الله منهم جزاءً على سخريتهم بالمؤمنين، ولهم عذاب موجع.

٨٠- اطلب - أيها الرسول - لهؤلاء المنافقين المغفرة من الله، أو لا تطلبها لهم، فطَلَبُها لهم، وتَرْكُ طَلَبِها سواء. إن تطلب لهم المغفرة كثيراً فلن يغفر الله لهم؛ بسبب كفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله. والله لا يُوَفِّقُ القوم المتمردين على دينه، الخارجين عن طاعته.

٨١- فرح المتخلِّفون من المنافقين عن غزوة تبوك بقعودهم عن الجهاد في سبيل الله مخالفين رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله كما يجاهد المؤمنون، وقالوا مُثَبِّطين لإخوانهم من المنافقين: لا تسيروا في الحر، وكانت غزوة تبوك في وقت الحر. قل لهم أيها الرسول: نار جهنم التي تنتظر المنافقين أشدُّ حَرّاً من هذا الحرِّ الذي فرُّوا منه لو يعلمون.

٨٢- فليضحَكْ هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد قليلاً في حياتهم الدنيا الفانية، ولْيبكوا كثيراً في حياتهم الآخرة الباقية؛ جزاءً على ما اكتسبوه من الكفر والمعاصي والآثام في الدنيا.

٨٣- فإن أعادك الله - أيها النبيُّ - إلى فريقٍ من هؤلاء المنافقين، ثابتٍ على نفاقه، فطلبوا منك الإذن بالخروج معك في غزوة أخرى، فقل لهم: لن تخرجوا - أيها المنافقون - معي للجهاد في سبيل الله أبداً عقوبةً لكم، وحَذَراً من المفاسد المترتبة على وجودكم معي، فقد رضيتم بالقعود والتخلف في غزوة تبوك، فاقعدوا، وابقوا مع المتخلفين من المرضى والنساء والصبيان.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

٢- فَرَحُ المنافقين زائل، لكنَّ بكاءهم دائم.

٣- الآيات تَدُلُّ على قِصَرِ نَظَرِ الإنسان، فهو ينظر غالباً إلى الحال والواقع الذي هو فيه، ولا ينظر إلى المستقبل، وما يَتَمَخَّض عنه من أحداث.

٤- في الآيات دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ، يفعل ذلك مع المؤمنين.

٥- عدم الاغترار بما أعطى الله في الدنيا من الأموال والأولاد للكافرين والمنافقين، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم.

٦- لا يدرك المنافقون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد .

٧- اختيار المضارع في ﴿يَلۡمِزُونَ﴾ و ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾ للدلالة على التكرر.

٨- قوله تعالى: ﴿سَبۡعِينَ مَرَّةً﴾ غير مراد به المقدار من العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تُستعمل في معنى الكثرة.

٩- قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وَصَفَ المخلَّفين بصيغة اسم المفعول؛ لأنَّ النبي خَلَّفهم، وفيه إيماء إلى أنّه ما أَذِنَ لهم في التخلف إلا لعِلْمِه بفساد قلوبهم، وأنَّهم لا يُغْنُون عن المسلمين شيئاً، وذِكْرُ فَرَحِهم دلالةٌ على نفاقهم؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخَلُّف نَكَداً عليهم ونَغَصاً، كما وقع للثلاثة الذين خُلِّفُوا، فتاب الله عليهم.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

٨٤ - سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيِّ بنُ سَلُول، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ أَنْ يُكَفِّنَ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ». قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾. (صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، برقم ١٣٦٦. وصحيح مسلم: باب من فضائل عمر، برقم ٦٣٦٠).

التفسير:

نهى الله تعالى رسولَه ﷺ أن يصلِّي على مَنْ مات من المنافقين، كما نهى أن يقف على قبره للدعاء له بالمغفرة، ذلك أنهم كفروا بالله وكفروا برسوله، وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله، ومَنْ كان كذلك لا يُصَلَّى عليه، ولا يُدْعى له.

٨٥- ولا تُعْجِبْك - أيها الرسول - أموال هؤلاء المنافقين، ولا أولادهم، إنما يريد الله أن يُعَذِّبهم بها في الحياة الدنيا، وذلك بما يُعانونه من المشاقِّ في سبيلها، وما يُصابون به من مصائب فيها، وأن تخرج أرواحهم من أجسادهم وهم على كفرهم.

٨٦- وإذا أنزل الله سورةً على نبيه محمد ﷺ متضمنةً للأمر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله، طلب الإذن في التخلُّفِ عنك أصحابُ اليسار منهم، وقالوا: اتركنا نتخلَّف مع أصحاب الأعذار كالضعفاء والزَّمْنى.

٨٧- رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم الذلة والمهانة، حين رَضُوا أن يتخلَّفوا مع النساء وأصحاب الأعذار، وختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم، فهم لا يعلمون ما فيه مصلحتهم.

٨٨- أما الرسول والمؤمنون معه فلم يَتَخَلَّفوا عن الجهاد في سبيل الله مثل هؤلاء، وإنما جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وكان جزاؤهم عند الله حصول المنافع الدنيوية لهم كالنصر والغنائم، وحصول المنافع الأخروية، ومنها دخول الجنة، وحصول الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاقتصار على الطَّوْل في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يدلُّ على أن أُولي الطَّول مراد بهم مَنْ له قدرة على الجهاد بالمال والبدن، فبوجود الطَّوْل انتفى عذرهم.

٢- أسند ﷻ الطَّبْعَ إلى المجهول في قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إمَّا للعلم بفاعله وهو الله، وإمَّا للإشارة إلى أنَّهم خُلِقوا كذلك، وجُبِلُوا عليه. وفَرَّع على الطبع غيابُ علمهم بالأمور التي يختص بعلمها أهل الأفهام، وهو العِلْمُ المعبر عنه بالفقه، أي: إدراك الأشياء الخفيَّة، فهم آثروا نعمة الدَّعة على سِمَة الشجاعة، وعلى ثواب الجهاد، إذ لم يُدْركوا إلا المحسوسات، فلذلك لم يكونوا ذوي فقه، وذلك أصل جميع المضارّ في الدارين.

٣- ابتدأ ﷻ وصف أحوال المؤمنين بوصف حال الرسول في قوله تعالى:﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ لأنَّ تَعَلُّقَهم به واتِّباعهم إياه هو أصل كمالهم وخيرهم.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، جاءت (مَعَهُ) في موضع الحال من (الَّذِينَ)؛ لتدلَّ على أنَّهم أتباع له في كل حال وفي كل أمر، فإيمانهم معه لأنهم آمنوا به عند دعوته إياهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم معه. وفيه إشارة إلى أن الخيرات المبثوثة لهم في الدنيا والآخرة تابعةٌ لخيراته ومقاماته.

٥- دَلَّت الآيات على أنَّ رؤساء المنافقين القادرين على الجهاد بالمال والنفس تَخَلَّفوا عن الجهاد مع النبي ﷺ، ورَضُوا لأنفسهم المذلَّة والمهانة بالقعود مع العاجزين عن الخروج للجهاد. وقد أدَّى ذلك إلى الطبع على قلوبهم، فأصبحوا لا يميزون بين الخير والشر، ولا بين المصلحة والضرر.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ
أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا
يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير:

٨٩- ثم بَيَّنَ ﷻ الفلاح الأعظم فقال: هيأ الله لهم جنات تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، لا يلحقهم فناء. ذلك الجزاء هو الفلاح العظيم الذي لا يدانيه فلاح.

٩٠- وجاء قوم من أعراب المدينة يعتذرون إلى رسول الله ﷺ؛ ليأذن لهم في التخلف عن الخروج والجهاد في سبيل الله، وقعد قوم آخرون لم يعتذروا تَعَنُّتاً منهم، سينال الذين كفروا من هؤلاء الأعراب - وهم الذين اعتذروا بأعذار باطلة - والذين لم يعتذروا تَعَنُّتاً، عذابٌ موجعٌ في الدنيا، وفي الآخرة بالنار.

٩١- ليس على النساء والصبيان والمرضى والعجزة من الزَّمْنى والعُمْي والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه من المال ليتجهزوا به، ليس على هؤلاء جميعاً إثمٌ في التخلُّف عن الخروج؛ لأنَّ أعذارهم قائمة إذا أخلصوا لله ورسوله، وعملوا بشرعه. ليس على المحسنين من أصحاب هذه الأعذار مأثم ولا مؤاخذة. والله غفورٌ لذنوب المحسنين، رحيم بهم.

٩٢- ولا إثم كذلك على المتخلِّفين عنك، الذين إن جاؤوك - أيها الرسول - يطلبون ما تَحْمِلُهم عليه من الدوابِّ، وقلتَ لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابِّ، تَوَلَّوا عنك، وقد فاضت دموعهم أسَفاً على أنهم لم يجدوا ما ينفقون من عند أنفسهم، أو من عندك.

الفوائد والاستنباطات:

١- دَلَّتْ الآيات على حال المؤمنين ومآلهم، فحالهم أنهم بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه، ومآلهم تحصيل الخيرات أي: منافع الدارين، والفوز بالجنة، والتخلص من العقاب والعذاب.

٢- اختيار صيغة المعذرين في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾ من لطائف القرآن؛ لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

٣- جملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل، والواو اعتراضية، أي: كثير المغفرة، ومن مغفرته أنه لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد، كثير الرحمة بالناس. ومن رحمته أنه لم يُكَلِّف أهل الأعذار ما يشق عليهم.

٤- أوضحت الآيات إسقاط فرضية الجهاد؛ بسبب العذر عن أصناف ثلاثة من ذوي الأعذار، وهم: الضعفاء والمرضى والفقراء، وأنه لا حرج ولا إثم على المعذورين بسبب القعود عن الجهاد، وهم قومٌ عُرِفَ عُذْرُهم، كأرباب الزَّمانة والهَرَمِ والعمى والعَرَجِ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾
يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾
ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ
وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

التفسير:

٩٣- إنَّما الإثم والعار على الذين يطلبون منك الإذن بعدم الخروج إلى الجهاد، وهم أغنياءُ قادرون على الإنفاق للجهاد، فلا عذر لهم، ورَضُوا بالدنيئة التي تُنْقِصُ من شِيَمِ الرجال، وقعدوا في بيوتهم كالعَجَزَةِ والنساء القواعد والأطفال، وختم الله على قلوبهم، فهم لا يعلمون اتِّباع الحق.

٩٤- سيعتذر هؤلاء المتخلِّفون إليكم - أيها المؤمنون - عن الجهاد بعد عودتكم من غزوة (تبوك). قل يا رسولَ الله: لا تعتذروا بأيِّ عذر، فلن نُصَدِّقَكم، قد أخبرنا الله تعالى بالوحي حقيقة أمركم وكَذِبَكم، وسيرى اللهُ تعالى ورسوله ﷺ عَمَلَكم فيما بعد، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ثم تعودون بعدُ إلى الله تعالى الذي يعلم السرَّ والعلانية، فيخبركم إخباراً عظيماً عن شرِّ أعمالكم؛ ليجازيَكم عليها.

٩٥- يُنَفِّر الله تعالى من التخلف عن الجهاد من غير عذر شرعي: سيُقْسِمون لكم بالله تأكيداً لأعذارهم الواهية إذا رجعتم إليهم؛ لتصفحوا عنهم ولا تُوَبِّخوهم، فاتركوهم واهجُروهم؛ لخبث أقوالهم وسوء أفعالهم، ومصيرُهم نار جهنم، عقوبةً لهم بسبب ارتكابهم الجرائم والكبائر.

٩٦- يحلف هؤلاء المنافقون لكم - أيها المؤمنون - أيماناً كاذبةً؛ لاسترضائكم واستمالتكم حتى لا تفضحوهم، فإن رَضِيتم عنهم وعَذَرْتموهم فإنَّ الله تعالى قد سَخِطَ عليهم، فلا يرضى عن القوم المخالفين أحكامَه.

٩٧- بعض أهل البادية أشدُّ كفراً من أهل الحاضرة؛ لبُعْدِهم عن العلم والعلماء، وهم أجدر من غيرهم ألَّا يعلموا الأحكام والشريعة التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ. والله عليمٌ بأحوال عباده، حكيمٌ في تدبير شؤونهم.

٩٨- وبعض البدو يَعُدُّ ما يعطيه من المال في سبيل الله غرامة وضياعاً، وينتظر نزول المصائب والنكبات بكم، بَيْدَ أنَّ الله يدعو على هؤلاء بمثل ذلك من عواقب السوء. والله سميع للأقوال، وعليم بالأفعال والنيات.

٩٩- وبعضُ البدو يُصَدِّق بالله تعالى، وبالبعث بعد الموت، ويَعُدُّ ما يعطيه من المال في سبيل الله طاعةً ورضا لله، وسبباً لدعاء الرسول ﷺ له. ألا إنَّ نفقاتهم ودعاء الرسول لهم تُقَرِّبهم إلى الله تعالى. وَعَدَهم الله أنَّه سَيُدْخلهم في رحمته الواسعة، وجنَّاته الكريمة. إنَّ الله غفور لِـمَنْ يتوب منهم، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن كعب بن مالك رضي الله عنه حين تَخَلَّف عن تبوك قال: «والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة بعد إذ هداني أعظم من صدق رسول الله ﷺ، ألَّا أكونَ كَذَبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أُنزل الوحيُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾».

(صحيح البخاري ٨/ ١٩١ برقم٤٦٧٣ - كتاب التفسير- سورة التوبة، باب (الآية). صحيح مسلم ٤/ ٢١٢٧-٢١٢٨ برقم ٢٧٦٩ ضمن حديث توبة كعب بن مالك - كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه).

٢- تحريم التخلف عن الجهاد، إذا طلب ذلك الإمام.

٣- المنافق يَظْهرُ حالُه في الشدائد.

٤- التحذير من مكايد المنافقين وصفاتهم.

٥- بيان خطورة الجهل الذي يَجُرُّ إلى الكبائر.

٦- أهل البادية متفاوتون في العلم والدين، وبُعْدِ بعضهم عن مجالس الفقه والعلم الشرعي.

٧- بُشرى للذين يَتَّبعون هَدْيَ الصحابة ﷺ بالنعيم المقيم في جنات النعيم.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾
وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ
سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا
وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ
وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا
يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

التفسير:

١٠٠- والصحابة السابقون إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والهجرة إلى دار الإسلام، والنصرة لإخوانهم ودينهم، والذين سلكوا طريقهم بإحسان في الأقوال والأفعال رضي الله عنهم بذلك، ورَضُوا عنه؛ لما أجزل لهم من الثواب العظيم، إذ هيأ لهم بساتين تجري الأنهار من تحت القصور والأشجار، ماكثين فيها أبداً. ذلك المقام الكريم هو الفلاح العظيم.

١٠١- وبعض البدو الذين حول (المدينة) منافقون، وكذلك بعض أهل (المدينة) استمروا على النفاق واستفحل فيهم، لا تعلمهم يا رسول الله؛ لمهارتهم في النفاق، نحن- لِما لنا من عظمة وقدرة - نَعْلَمُهم، سنُعذِّبهم مرتين: في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر، ثم يجمعهم يوم القيامة في نار جهنَّم، وما فيها من عذاب شديد الألم.

١٠٢- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ قال: كان عشرة رهط تَخلَّفُوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسَواري المسجد، فكان ممر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم، فلما

رآهم قال: «مَنْ هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسَّواري؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له، تخلَّفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم، وحلفوا إنهم لا يطلقهم أحد، حتى يُطْلِقَهم النبي ﷺ ويَعْذِرَهم، فقال النبي ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أَعْذِرُهم حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقُهم ويُعْذِرُهم، رغبوا عني، وتخلَّفوا عن الغزو مع المسلمين»، فلما بلغهم ذلك قالوا: نحن والله لا نُطْلِقُ أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقُنا فأنزل الله: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَرهم. (ينظر: التفسير الصحيح ٣/ ٢٠٨).

التفسير:

وجماعة آخرون من أهل (المدينة) وخارجها أقَرُّوا بما فعلوا من الذنوب وتابوا منها، خلطوا عملاً صالحاً بمشاركتهم مع النبي ﷺ في الجهاد في سبيل الله، وعملاً سيئاً بتَخَلُّفِهم عن غزوة (تبوك)، ليتوب الله تعالى عليهم. إنَّه سبحانه غفور لِـمَنْ تاب من عباده، رحيم بهم، يقبل توبتهم.

عن سَمُرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلِبَنِ ذهب ولِبَنِ فضة، فتلقَّانا رجالٌ شَطرٌ مِنْ خَلْقِهم، كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشَطرٌ كأقبحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعُوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا: شطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم».

(صحيح البخاري ٨/ ١٩٢ برقم ٤٦٧٤ - كتاب التفسير - سورة التوبة، باب (الآية).

١٠٣- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَرهم، فجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدَّقْ بها عنا، واستغفر لنا، قال: «ما أمرت أن آخُذَ أموالكم» فأنزل الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ الآية. (ينظر: التفسير الصحيح ٣/ ٢٠٨).

التفسير:

خُذْ يا رسولَ الله مِنْ هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا، صدقة تُطَهِّرهم من الذنوب، وتُنَمِّي حسناتهم؛ حتى يَرْقَوا إلى مرتبة الإخلاص لله تعالى، وادْعُ الله، واطلب المغفرة لهم. إنَّ دعاءك واستغفارك رحمة عظيمة لهم، وتثبيتٌ لقلوبهم. والله سميع للدعاء والأقوال، وعليم بالتوبة والأفعال.

١٠٤ - أما عَلِمَ أولئك المتخلِّفون عن الجهاد سَعَةَ رحمة الله وعموم كرمه، بأنَّه يقبل توبة عباده التائبين، ويتقبَّل الصدقات، ويُثيب عليها، وأنَّ الله هو كثير التوبة على عباده التائبين، واسع الرحمة بهم؟

١٠٥ - وقل - أيها الرسول - لهؤلاء التائبين وغيرهم: اعملوا ما أمركم الله من خير، فستُعْرَضُ أعمالُكم على الله تعالى، ويراها هو سبحانه ورسوله ﷺ والمؤمنون، وستعودون يوم الحساب إلى مَنْ يعلم سِرَّكم وجهركم، فيخبركم خبراً عظيماً يسرد فيه ما عَمِلْتُم من خير أو شر؛ ليجازيَكم عليه.

١٠٦ - وجماعة آخرون من المتخلِّفين عن غزوة (تبوك) مُؤَجَّلون إلى أن يظهر فيهم حُكْمُ الله تعالى، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية ﷺ أجمعين، فهؤلاء إمَّا أن يُعَذِّبهم إن لم يتوبوا، وإمَّا أن يتوب عليهم إذا تابوا وأصلحوا وأخلصوا، وقد فعلوا. والله عليم بتوبة الصادقين، حكيم في تدبيره للعالمين.

الفوائد والاستنباطات:

١- الصدقة سبب في تزكية النفوس، وطهارة للأموال.

٢- الإشارة بالبشرى لـمَنْ يعمل خيراً.

٣- الاعتراف بالذنب فضيلة، وهو من الأخلاق النبيلة.

٤- إذا تساوت محاسنُ العبد التائب مع مساوئه فإنَّ الله تعالى يتوب عليه برحمته الواسعة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا
لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ
الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

التفسير:

١٠٧ - والمنافقون الذين خانوا الله ورسوله، وبالغوا في الإجرام، وعلى رأسهم المِضْلال أبو عامر الراهب الذي أمر ببناء مسجد الضرار؛ لتدبير المكايد ونشر المصايد، ونصرة الكفرة المكرة، وإيجاد الفُرقة والاختلاف بين المؤمنين؛ لصَرْفِهم عن مسجد قباء، وتَرَقُّباً بشوق؛ لقدوم مَنْ حارب الله ورسوله من قبلُ - وهو أبو عامر الراهب - ويُؤَكِّدون كَذِبَهم بأنَّهم يحلفون: ما قصدوا ببنائه إلا الخير والإحسان بالمُصَلِّين العاجزين عن السير إلى (مسجد قباء). والله تعالى العليم الخبير، يشهد على أنَّهم كاذبون في قولهم وفعلهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان مسجد قُباء أُسِّس على التقوى، ومسجده أعظم في تأسيسه على التقوى من مسجد قُباء، كما ثبت في الصحيح عنه: أنه سُئِلَ عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى فقال: (مسجدي هذا) فكلا المسجدين أُسِّس على التقوى، ولكن اختصَّ مسجدُه بأنَّه أكمل في هذا الوصف من غيره». (تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٤٤٧).

١٠٨ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيها الحسن من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ وهم أناس من الأنصار، ابْتَنَوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنُوا مسجدكم،

واستمدُّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصرَ مَلِكِ الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِجُ محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: «وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ في أهل قباء». (فتح الباري ٧/ ٢٤٥).

التفسير:

ثم نهى الله تعالى النبي ﷺ نهياً قاطعاً عن الصلاة في مسجد الضرار الذي أُسِّس على الفتنة، وبَيَّن أنَّ الصلاة في (مسجد قباء) الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم دخل فيه النبيُّ ﷺ مهاجراً، أولى بأن تقوم فيه مُصَلِّياً من (مسجد الضرار). في مسجد قباء رجالٌ أثنى الله تعالى عليهم بأنَّهم يُحِبُّون أن يتطهَّروا من الذنوب، ويتطهَّروا بالوضوء والاغتسال من الأوساخ والنجاسات. والله تعالى يُحِبُّ المحافظين على طهارة أبدانهم وقلوبهم.

١٠٩- لا يستوي الذي أُسِّس بنيانه على قاعدة متينة، وهي تقوى الله ورضوانه، والذي أُسِّس بنيانه على طرفِ وادٍ مُتصَدِّع يُوشك أن يسقط، فبنى مسجداً ضِراراً أو كفراً، فأدَّى به إلى سقوطه في نار جهنم. والله تعالى لا يُوَفِّق المُعتدين على المسلمين والدين.

١١٠- لا يزال بناءُ مسجد الضرار وهدمه سبباً للشك وتَعاظُمِ النفاق في قلوبهم إلى أن يموتوا غمّاً أو يندموا ندماً على فعلتهم الماكرة. والله عليم بالنيات والأحوال، حكيم في الأقوال والأفعال.

١١١- يُخبر الله تعالى خبراً صادقاً، ويَعِدُ وعداً حقاً بمبايعة عظيمة: أنَّه سبحانه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فهي الثمن والسلعة المبيعة مقابل الجنة، فجعل ثواب المجاهدين الذين يُقاتِلون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وعداً حقاً ثابتاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ولا أحدَ أوفى بالعهد، وإنجاز الوعد، من الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد. فاستبشروا خيراً بهذه المبايعة المباركة التي بايعتم الله تعالى بها. وذلك البيع العظيم والمقام الكريم هو الفَلاح الذي لا فَلاحَ أعظمُ منه.

١١٢- ومن صفات المؤمنين الذين لهم البشرى بدخول الجنة: أنَّهم التائبون عن ذنوبهم، والمخلصون المكثرون للعبادة، الحامدون لله في السرَّاء والضرَّاء، السائرون في الأرض لطَلَبِ العلم أو الغزو، الراكعون الساجدون في صلاتهم، الدَّاعُون الناس إلى الرشد والهدى، والناهون عن الفساد والضلال، المُحافظون على فرائض الله، وبَشِّر - يا رسول الله - هؤلاء المؤمنين المُتصفين بهذه الصفات بجنات النعيم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من صنائع المنافقين التي ظاهرها الخير، وباطنها الشر.

٢- الابتعاد من مواطن الشبهة مطلوب من المؤمنين.

٣- الترغيب في بناء المساجد على التقوى، وليس على السُّمعة والرياء فضلاً عن تفريق صف المسلمين.

٤ - الترغيب في الجهاد في سبيل الله؛ للفوز بجنات النعيم.

٥- في الآية (١١١) إخبار مستقبلي عن البشرى بالجنَّة لِـمَنْ أوفى البيعة مع الله تعالى.

٦- الثناء على أهل الطهارة والنظافة.

٧- حَثُّ المؤمنين على الصفات المذكورة في الآية (١١٢)، وترغيبهم فيها بالبشرى بجنات النعيم.

٨- الإشارة إلى المحافظة على صلاة الجماعة.

٩- ينظر: صورة مسجد قباء، كما في الملحق.

١٠ -ينظر: صورة المسجد النبوي، كما في الملحق.

١١ -ينظر: صورة بنيان على شفا جُرُفٍ هارٍ، كما في الملحق

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ
قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾

١١٣ - سبب النزول:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه ﷺ قال: لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية، فقال النبي ﷺ: «أيْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله، أُحاجُّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أُمية: يا أبا طالب، أترغب عن مِلَّةِ عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: «لأَستغفرنَّ لك مالم أُنْهَ عنه»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ١٩٢ برقم٤٦٧٥ - كتاب التفسير - سورة التوبة، باب (الآية)، وأيضاً ٧/ ٢٣٣- كتاب مناقب الأنصار - باب قصة أبي طالب. وصحيح مسلم ١/ ٥٤ برقم٢٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت).

التفسير:

ليس للنبي ﷺ ولا للمؤمنين أن يطلبوا من الله تعالى المغفرة للمشركين، ولو كان المشركون أقرباء لهم من بعد موتهم على الشرك بالله تعالى، وتبيَّن لهم أنَّهم أصحاب النار؛ لأنَّ الله تعالى حَرَّم الجنة عليهم.

١١٤ - صَدَرَ الاستغفار من إبراهيم ﵇ لأبيه آزرَ من أجل وعد سابق وعد به أباه. فلمّا تبيَّن لإبراهيم ﵇ أنَّ أباه عدو لله بسبب إصراره على الكفر تَبَرَّأ منه، وترك الاستغفار له. إنَّ إبراهيم توَّاب، كثير الدعاء والاستغفار لله، صبور على مَنْ يؤذيه.

١١٥ - إنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية، فإنَّه تعالى يتمِّم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم ما يحتاجون إليه من الشريعة التي تجعلهم من المتَّقين له سبحانه. إنَّ الله تعالى عليم بكل شيء من الأشياء، وبمَنْ يستحقُّ الهداية.

١١٦- إنّ الله تعالى له مَلَكُوت السموات السبع والأرضين السبع، يُحْيِي وحدَه مَنْ يشاء، ويُميت مَنْ يشاء. وما لكم - أيها الناس - من أحد غير الله يَتَوَلَّاكم، وينصركم.

١١٧- سبب النزول:

أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب بن مالك- قال: سَمِعْتُ كعب بن مالك يُحدِّث حين تَخَلَّف عن قصة تبوك، فو الله ما أعلم أحداً أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تَعَمَّدْتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. (صحيح البخاري ٨/ ١٩٤ برقم ٤٦٧٨ - كتاب التفسير- سورة التوبة، باب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾).

التفسير:

قسماً إنَّ الله تعالى رزق النبيَّ ﷺ الإنابة إلى طاعته، وإنَّه تاب على الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقت شدَّةِ الحرِّ وطولِ السفر، فلم يُؤاخِذْهم ببعض الزَّلَّات التي حصلت منهم في تلك الغزوة، من بعد أن قارَبَتْ قلوب بعضهم أن تميل عن الحق، وتتخلَّفَ عن الجهاد بسبب مشقَّة السفر، وشدَّة الحر، وقلَّة الزاد. وبلطفه سبحانه وبرحمته وَفَّقهم للثبات، وتاب عليهم لَـمَّا ندموا. إنَّه سبحانه رؤوف بالعباد، رحيم بهم.

١١٨- وتاب الله سبحانه على الصحابة: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُميَّة ﷺ، الذين تَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وحزنوا حزناً شديداً بسبب مُقاطعة المؤمنين لهم، حتى ضاقت الأرض بهم مع سَعتها، وأيقنوا أن لا نجاة لهم من عذاب الله إلا التوبة والاستغفار، ثم تاب الله عليهم بعد خمسين يوماً؛ ليستقيموا ويداوموا على التوبة. إنَّ الله هو التوَّاب على عباده التائبين، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم الاستغفار للمشركين.

٢- رابطة العقيدة أقوى من رابطة النسب.

٣- النصر من عند الله مع الأخذ بالأسباب.

٤- مِنْ رحمة الله تعالى قَبولُه توبةَ المتخلِّف عن الجهاد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ
حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا
يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا
يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا
يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ
لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ
ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١١٩- يُخاطب الله تعالى الـمُؤمنين أن يَتّقوه في طاعة أوامره، واجتناب نواهيه، وأن يَصْدُقوا في أقوالهم وعهودهم وأفعالهم.

١٢٠-١٢١- ثم يحثُّ أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ومَنْ حولها من أهل البادية المسلمين أنّه لا يَليق بهم أن يَتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله، ولا ينشدوا الراحة لأنفسهم ورسول الله ﷺ في مشقَّة. وذلك أنَّه مهما يصبهم من الشدائد فإنَّه في رصيد أعمالهم الصالحة، فلا يُصيبهم عطش ولا تعب ولا جوع وهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يَنزِلُون مكاناً يُغضِبُ الكفَّار نزولُهم فيه، ولا يصيبون أعداءهم بشيء من القتل أو الأسر إلا كُتِبَ لهم أَجْرُ عملهم، وصار قُربةً لهم عند الله تعالى. إنَّ الله تعالى لا يُضيِّع ثواب المُحسنين، ولا يُنفقون في سبيل الله من نفقة مهما كانت قليلة أو كثيرة، ولا يجتازون للجهاد وادياً وأرضاً إلا كُتِبَ لهم ثوابه الحسن؛ ليجزيَهم اللهُ أحسنَ ما يُجْزون به على إحسانهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [التوبة:٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ إلى قوله:﴿يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١]، نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ١٢٢]. (أخرجه أبو داود في السنن برقم ٢٥٠٥ - كتاب الجهاد، باب في النسخ نفير العامة بالخاصة، وقال الألباني: حسن. صحيح أبي داود ٢/ ٤٧٥-٤٧٦ برقم ٢١٨٧).

١٢٢- إنَّ الأُمَّة تحتاج إلى التفقه في الدين في كلِّ الأحوال، فلا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا الباقين بدون فقيه -يختاره الإمام ليُبَصِّرهم بأمور دينهم- بل تنفر سرايا من كل قبيلة، وتبقى فئة قليلة للتفقه في الشريعة، وإنذار السرايا التي نفرت إذا رجعوا إلى بلدهم؛ كي يحذروا عذاب الله تعالى بمخالفة أحكامه.

١٢٣- يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال أعدائهم الكفَّار، ويُرْشِدُهم أن يبدؤوا بالأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام، وأمرهم بالشدَّة والجرأة على أولئك الكفَّار؛ ليَكُفُّوا عن الكفر وأذى المؤمنين، ثم ذكر سبحانه تأكيده وتأييده ونَصْرَه للمتقين.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب طاعة الرسول ﷺ في السَّرَّاء والضرَّاء، ولاسيما في الجهاد.

٢- الإشارة إلى وجوب الدفاع عن النبي ﷺ في حياته ومماته، ونفسه أغلى النفوس.

٣- القيام بواجب الجهاد في سبيل الله لا يعفي الأُمة عن طلب العلم ولا يقلل من أهمِّيَّته.

٤- وجوب طلب العلم بالأحكام الشرعية على طائفة من المسلمين على الكفاية، أي: على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الوجوب.

٥- وجوب قتال الأعداء من الكفار الذين يُؤذون المؤمنين، ويكيدون لهم.

٦- بشرى الله تعالى بالنصر والمؤازرة للمتقين.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ
إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا
هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ
ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ
حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

التفسير:

١٢٤ - وإذا ما أُنزلَتْ سورة عظيمة من سور القرآن يستهزئ المنافقون بها، فيقولون فيما بينهم استخفافاً بها: أيُّ واحدٍ منكم زادته هذه السورة التي أُنزلت إيماناً بالله؟ فأمّا المؤمنون فقد زادتهم تصديقاً، بما فيها من الهداية والبراهين التي تدلُّ على عظمة الله تعالى، وهم يفرحون بهذا النور والثواب.

١٢٥ - وأمّا المنافقون الذين في قلوبهم ارتياب واضطراب، فإنَّ نزولَ السورة يزيدهم اضطراباً وضلالاً إلى ضلالهم ورِجْسهم، وهُلِكُوا وهم مُتمادُون بتكذيبهم لله تعالى وآياته.

١٢٦ - يُوَبِّخ الله تعالى المنافقين مُنْكِراً عليهم: أولا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يَبْتليهم بالقحط والشدَّة والغزو، وما يزجرهم في كل عام مرة أو مرتين؟ ثم يستمرون على ضلالهم، فلا يتوبون، ولا يَتَّعظون بما وقع فيهم من المصائب.

١٢٧ - ينزعج المُنافقون من نزول سورةٍ تفضح أسرارهم، وتهتك أستارهم، فإذا ما أُنزِلَتْ سورة من القرآن الكريم تذكر عيوبهم نَظَرَ بعضهم إلى بعض بالغمز سخريةً وغيظاً، ثم إذا أراد بعضهم الهروب من مجلس النبي ﷺ قال بعضهم لبعض: هل يراكم أحد من المؤمنين إن تَسَلَّلْتم؟ ثم انصرفوا. صَرَفَ الله تعالى قلوبهم عن الخير والهداية، بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون اتِّباع الحق.

١٢٨ - قسماً لقد جاءكم - أيُّها المؤمنون - رسولٌ عظيم من قومكم، يَشُقُّ عليه ما تُواجهون من المكاره والابتلاء، حريص على إيمانكم وأمانكم من النار، شديد الشفقة والرحمة بالمؤمنين.

١٢٩ - فإن أعرض الكفَّار والمنافقون عن التصديق بك أيها النبيُّ، فقل لهم: إنَّ الله تعالى يكفيني ناصراً، لا معبود بحق إلا هو، عليه وحده اعتمدت، وهو ربُّ العرش العظيم، ذلك العرش الذي هو أعظم المخلوقات.

الفوائد والاستنباطات:

١ - خُبْثُ المنافقين يزيدهم عناداً عند سماعهم القرآن.

٢ - بيان رأفة النبي ﷺ بالمؤمنين.

٣- الإشارة إلى فضل العرب لأنَّ النبي ﷺ منهم.

٤ - بشرى بنصر الله تعالى للنبي ﷺ وقد تحققت.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - العناية بالتربية الإيمانية ومكارم الأخلاق.

٢- تقرير إعجاز القرآن.

٣- بيان قصة يونس عليه السلام وقومه.

٤ - بيان الدروس المستفادة من دمار الأُمم المكذبة السابقة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ
إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١- ﴿الٓر﴾ تَقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن. تلك الآيات العظيمة الشأن آيات القرآن المحكم، المشتملة على الحكمة وبيان الأحكام.

٢- يُنكِرُ الله تعالى على كفار مكة الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ مُوَبِّخاً لهم: أكان شيئاً عجيباً لمشركي مكة إيحاؤنا إلى رسول الله ﷺ بالقرآن، وهو من قومهم، ينذر الإنس والجن من النار، ويُبَشِّر المؤمنين بأنَّ لهم منزلة عالية، وجنة غالية عند ربهم؟ ولـمَّا سمع المكذِّبون لله ورسوله بعض آيات القرآن الكريم قالوا مؤكِّدين مزاعمهم: إنَّ محمداً لَساحر عليم، ظاهر السحر.

٣- يُبيِّن الله تعالى ربوبيته وألوهيته وعظمته: إنَّ خالقكم الله المعبود بحق، خلق السموات السبع والأرَضين السبع في ستة أيام، ثم استوى سبحانه على العرش، الذي هو أعظم المخلوقات استواءً يليق بجلاله وعظمته، يُدَبِّر أمور الخلائق، ليس لأحد أن يشفع عنده إلا من بعد أن يأذن له بالشفاعة. ذلكم الله العظيم خالقكم، فاعبدوه وحده، وأَخْلِصُوا له العبادة، أفلا تعتبرون من هذه الآيات بأنَّ الله هو الذي يُعْبَدُ وحده؟

٤- إلى الله تعالى وحدَه مصيركم - أيها الناس - جميعاً يوم القيامة، وَعْداً من الله لا يتبدَّل، إنَّه هو سبحانه بدأ بإيجاد الخلق، ثم يبعثهم بعد الموت؛ ليثيب المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالعدل. والذين كذَّبوا الله ورسوله لهم شراب شديد الحرارة، وعذاب موجع؛ بسبب تكذيبهم لله تعالى ولرسوله ﷺ.

٥ - لـمَّا قرَّر سبحانه ألوهيته وربوبيته، ذكر الأدلة العقلية والآيات الكونية الدالَّة على ذلك، فهو وحده الذي جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار، وجعل القمر منيراً بالليل، وقد سَيَّره في مسافاتٍ يقطعها بحركته في كل يوم وليلة؛ لتعلموا بذلك حساب الأوقات، فبالشمس تُعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام. ما خلق الله تعالى ذلك الأمر العظيم إلا لحكمة جليلة، ودلالة على عظمة قدرته سبحانه، يُبيِّن هذه الآيات الكونية لقوم يعلمون قدرة الله تعالى.

٦ - إنَّ في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، ودِقَّة تَعاقُبهما، وما خلق الله تعالى في السموات السبع والأرَضين السبع، لَعلاماتٍ دالَّةً على عظمة قدرته ووحدانيته لقوم يتَّقون الله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإشارة إلى تحدِّي القرآن الكريم بالحروف المقطعة.

٢ - الإشارة إلى وجوب الإنكار على الذين يُنكِرُون رسالة النبي الأمين ﷺ.

٣- وجوب التأمل والتدبر في الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله تعالى.

٤ - في الآية (٤) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥).

٥ - منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً وهي كما يلي:

١.سعد الأخبية. ٢.الفرع المقدَّم. ٣.الفرع المؤخر. ٤.الرشأ. ٥.الشرطين. ٦.البطين. ٧.الثريا. ٨.الدبران. ٩.الهقعة. ١٠.الهنعة. ١١.الذراع. ١٢.النثرة. ١٣.الطرفة. ١٤.الجبهة. ١٥.الزبرة. ١٦.الصرفة. ١٧.العواء. ١٨.السماك. ١٩.الغفر. ٢٠.الزبانا. ٢١.الإكليل. ٢٢.القلب. ٢٣.الشولة. ٢٤.النعائم. ٢٥.البلدة. ٢٦.سعد الذابح. ٢٧.سعد بلع. ٢٨.سعد السعود. (الأجزاء الكونية بين العقل والنقل، ص١٨٠). ويُنظر: صورة منازل القمر في الملحق.

٦ - يتعرَّض ضوء الشمس عند مروره في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس على كل من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عال نسبياً في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض، فيظهر بهذا اللون الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار. والقمر وغيره من أجرام مجموعتنا الشمسية هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها، ولكنها يمكن أن ترى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فيبدو منيراً. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٣٩٥-٥٠٨). وينظر: صورة توضح الضياء والنور، كما في الملحق.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٧-٨- إنَّ الذين لا يَتَوَقَّعُون لقاء الله في يوم القيامة، ولا يطمعون فيه، ورَضُوا بالدنيا، واستحَبُّوها وفرحوا بها، وسكنوا إليها، والذين هم لا يتدبَّرون آياته العظيمة الدالَّة على وحدانيته وقدرته، ولا يتفكَّرون فيها. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى، مصيرهم نار جهنم في الآخرة؛ بسبب ما ارتكبوا من الجرائم والذنوب.

٩-١٠- إنَّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات يهديهم خالقُهم إلى طريق الجنة؛ بسبب تصديقهم له سبحانه، تجري من تحت قصورهم الأنهار العذبة، ويُقيمون في جنَّات النعيم، دعاؤهم فيها التسبيح لله تعظيماً له سبحانه، وتَحِيَّتُهم من الله تعالى ومن الملائكة وفيما بينهم: سلام، أي: السلامة من كلِّ شر، وآخر دعائهم: الحمد لله ربِّ العالمين، أي: الشكر الكامل والثناء الشامل لله، ربِّ المخلوقات جميعاً.

١١- مِن لُطفِ الله تعالى بعباده أنَّه لا يُعَجِّل لهم إجابة دعائهم في الشر، كاستعجاله لهم في الخير، ولو عَجَّل ذلك لَهَلكوا بسرعة هائلة، فيترك سبحانه المكذِّبين بيوم البعث والحساب في تمرُّدِهم يتخبَّطون.

١٢- وإذا ابتلى الله تعالى الإنسانَ بالشر دعاه في جميع حالاته مضطجعاً، أو قاعداً، أو قائماً لإزالة الشر، فلمَّا استجاب الله تعالى له دعاءه، استمر على فعل المعاصي، ونسي الابتلاء بالشر، وكأنَّه لم يَدْعُ الله العظيم إلى كشف ذلك الشرِّ عنه. ومثلَ ما زُيِّنَ لهذا الإنسانِ استمرارُه على كفره، زُيِّنَ للمُفْرِطين في الإجرام ما كانوا يرتكبونه من الكبائر والذنوب.

١٣- قسماً لقد تَحَقَّق هلاك الأُمم التي كَذَّبَتْ رسلُ الله تعالى مِنْ قبلِ الذين كَذَّبوا النبيَّ ﷺ، فقد جاءتهم رسلهم بالبراهين الباهرة، والمعجزات الظاهرة الدالَّة على صِدْق رسلهم، ولكنهم ما آمنوا بِرُسُلِهم. ومثلَ ذلك الإهلاك نجزي القوم الذين يقترفون الجرائم.

١٤- ثم جعلناكم - أيها الناس - خلفاء الأرض من بعد تلك الأُمم البائدة؛ لنختبرَكم، فننظر أتعملون خيراً أم شراً؟ فنجازيكم على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان الفرق بين مصير منكري اليوم الآخر، ومصير المؤمنين الصالحين.

٢- بيان غفلة الإنسان عن الدعاء في السراء.

٣- بيان الموعظة من الأُمم البائدة؛ بسبب كفرهم.

٤- قال ابن عاشور في الآية (١٤): ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام مُعَلِّق لفعل العلم عن العمل، وهو منصوب بـ﴿لِنَنظُرَ﴾، والمعنى في مثله: لنعلمَ جوابَ كيف تعملون؟ قال إياس بن قبيصة:

وأقبلْتُ والخَطِيُّ يخطر بيننا لِأَعْلَمَ مَنْ جبانُها مَنْ شجاعُها

أي (لأعلم) جوابَ (مَنْ جبانُها). (التحرير والتنوير: ١١/ ٣٧).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٥ - يُبَيِّن الله تعالى جحود الكفَّار الذين يرغبون في التلاعب بالقرآن الكريم: وإذا تتلى على الكفَّار آيات القرآن الواضحات الحكم والأحكام، فإنَّهم ينزعجون، فينفر زعماؤهم الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب، فيقولون للنبيِّ ﷺ: ائتِ لنا بقرآنٍ غير هذا الذي نسمعه!! أو بَدِّلْ ما فيه من أحكام وكلام يَمَسُّ الأصنام!! فرَدَّ عليهم الله تعالى آمراً النبي ﷺ أن يقول لهم: ما ينبغي ولا يصح لي أن أُغيِّر، أو أُبدِّل شيئاً من قِبَل نفسي، لا أَتَّبع إلا ما يأمرني به ربي سبحانه. إنِّي أخاف إن خالَفْتُ أمره سبحانه عذاب يوم عظيم الأهوال والأحداث وهو يوم القيامة.

١٦ - قل لهم أيضاً: لو شاء الله تعالى ما تَلَوْتُ هذا القرآن الكريم عليكم، ولا أَعْلَمَكُمْ به على لساني، فقد مكثتُ بين أظهركم زمناً طويلاً مدة أربعين سنة من قبل نزول القرآن، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟

١٧ - يُنْكِرُ الله تعالى على المجرمين المكذِّبين: لا أحدَ أشدُّ ظلماً ممن اختلق الكذب على الله تعالى، أو كَذَّب بآياته العظيمة التي جاءت بها الرسل. إنَّ الذين كذَّبوا وارتكبوا الجرائم مع أنبيائهم وأُممهم لا يفوزون.

١٨ - ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله ﷻ الأوثان التي لا تَضُرُّهم إن لم يعبدوها، أو لا تقدر على دَفْعِ الضرِّ عنهم ولا جَلْبِ النفع لهم، ويقولون ليُسَوِّغوا جريمتهم: هؤلاء الأوثان نعبدهم؛ ليشفعوا لنا عند الله. قل لهم - يا رسول الله - مُوَبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم: أتخبرون الله تعالى بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات والأرض؟ وهو سبحانه عَلَّام الغيوب، مُنَزَّه عن اعتقاد المشركين وافترائهم.

١٩- يخبر الله تعالى مؤكّداً أنَّ الناس كلّهم كانوا على دين الإسلام، ثم ظهر الكفر في بعضهم، وثبت الحقُّ في بقيَّتهم. ولولا قضاء الله تعالى بتأخير العقاب عن الكفَّار إلى يوم القيامة، لَقُضِيَ بينهم في الدنيا في تعجيل العقوبة للكفَّار.

٢٠- ويقول مشركو أهل مكة ببلاهة: هَلَّا أُنزل على محمد معجزة من ربِّه، كطلبهم أن يُفَجِّر من الأرض ينبوعاً وغيره، فرَدَّ الله تعالى عليهم: قل يا محمد لهؤلاء مُتَوَعِّداً لهم: أَمْرُ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، فانتظِروا قضاء الله بيننا، فأنا منتظر معكم ما يحلُّ بكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- خطورة أهل الباطل من حرصهم على التبديل والتحريف في أحكام الله تعالى، فإنَّ ذلك دَيْدَنُهم إلى قيام الساعة.

٢- الردُّ على شبهات الكفار وتشكيكهم.

٣- التحذير من التكذيب بآيات الله تعالى.

٤- بيان تَعَنُّتِ مشركي مكة، وإصرارهم على الكفر.

٥- الإشارة إلى أنَّ الناس منذ آدم عليه السلام إلى زمن نوح كانوا على التوحيد، ثم دَبَّ الشِّرك في زمن نوح عليه السلام.

٦- التهديد والوعيد للمشككين بهذا الدين.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا
يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ
طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ
عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

٢١- وقد حَلَّ بهم القحطُ والشدَّة، ثم أنزل الله تعالى عليهم الرحمة بالخير والخصب بعد العُسْر والجَدْب؛ لعلهم يشكرون، ولكنهم تمادَوا في كُفْرِهم واستهزائهم بآيات الله المسموعة والمرئية، فأمر النبيَّ ﷺ أن يهدِّدهم بأنَّ الله تعالى أسرع مكراً؛ جزاءً على جرائمهم، إذ سيكتب الملائكةُ الحَفَظَةُ ما ارتكبوه من كبائر الجرائم.

٢٢- الله سبحانه هو الذي يُمَكِّنُكم من السير في البرِّ على الدوابِّ والمراكب، وفي البحر في السفن والزوارق، حتى إذا كنتم في البحر على ظهور السفن، وجرت مصحوبة بريح منعشة بطراوتها واتجاهها، وفرحتم بذلك، فاجَأَتْكُم ريح شديدة عاصفة، تَحُفُّها موجات متلاطمة قاصفة، فأيقنوا أنَّ الهلاك محيط بهم، هنالك فزعوا، وأخلصوا إلى الله تعالى وحده بالاستغاثة والدعاء، ويقسمون لئن أنجيتنا من هذه المحنة والنقمة؛ لَنكونَنَّ من الشاكرين حقّاً لتلك المحنة والنعمة في أقوالنا وأفعالنا.

٢٣- فلمَّا استجاب الله الرحيم دعاءهم، وأنقذهم من تلك الأهوال العُضال، إذا هم يَطْغَون في الأرض فساداً بنقضهم العهد، ووُلُوغهم بالباطل. ثم نادى الله تعالى البشر جميعاً مُنَبِّهاً ومؤكِّداً خطورة هذا الطغيان، فضَرَرُه يعود على أنفسكم، فإنَّه يُكْتَبُ ويُحْسَبُ في صحائفهم، وهم يتمتَّعون بشهوات الدنيا الفانية، ثم إلينا مرجعكم بعد الموت والبعث، فنخبركم الأخبار العظيمة عن إحصاء جرائمكم، وإحضار جموعكم.

٢٤- إنما شَبَهُ الحياة الدنيا وما فيها من نِعَمٍ ونِقَمٍ كمطر أنزلناه من السماء، فنبت به أنواع من النبات المختلط بعضها ببعض، كالثمار والحبوب التي يأكلها الناس، والتبن والشعير التي تأكلها البهائم، حتى إذا اكتست الأرض بالبساط الأخضر المزدان بالزهور البهيَّة، والثمار الزكية، والمياه النقية، وانبهر الناس بها، وظنوا أنَّهم قادرون على حصادها والاستفادة منها، فاجأها أمرُنا بهلاك خضرائها في ظلام الليل أو في النهار، فجَعَلْناها هشيماً كالنبات اليابس المحصود، كأنَّها لم تكن خضراء زهراء قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك. مثلَ ما شَبَّهنا الحياة الدنيا وغرورها، كذلك نُبَيِّن الآيات المتنوعة الدالَّة على وحدانية الله تعالى لقوم يتدبرونها، ويهتدون بأنوارها.

٢٥- وبهذا البيان وما نَزَلَ من القرآن، يدعوكم الله تعالى إلى الجنَّة دار الأمن والاطمئنان والسلامة من كلِّ شرٍّ، ويُوَفِّق الله سبحانه مَنْ يشاء إلى دين الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الدعاء لله تعالى وحدَه في السراء والضراء.

٢- قال ابن عاشور: «شُبِّهَتْ حالة الحياة في سرعة تَقَضِّيها، وزوال نعيمها بعد البهجة به، وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حُطاماً ومصيره حصيداً. ومن بديع هذا التشبيه تَضَمُّنُه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين، بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب، لتشبيه جزء من الحالين المتشابهين». (التحرير والتنوير: ١١/ ٦٠).

٣- التذكير بصِغَرِ الدنيا في زمانها ومكانها ومَلَذَّاتها.

٤- ينظر: صورة الريح العاصف في الملحق.

٥- قال ابن عاشور: «أكَّد وَعْدَهم بالشكر بثلاثة مؤكِّدات: لام توطئة القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دون: لنكون من الشاكرين». (التحرير والتنوير: ١١/ ٥٧).

٦- عظمة المواعظ في ضرب الأمثال.

٧- المؤمن ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء لله تعالى.

٨- ينظر: زينة الأرض بخيراتها وزخرفها في الملحق.

٩- من رحمة الله تعالى دعوته إلى دار الأمن في الجنة.

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ
أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾
فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ
وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ
ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٦- بشرى عظيمة، ومنحة كريمة للذين أحسنوا في عبادة الله سبحانه بأقوالهم السديدة، وأفعالهم الرشيدة، وأخلاقهم الحميدة، أنَّ لهم الجنة، وزيادة كريمة تتحقق بالنظر إلى وجه الله تعالى، وجوههم ناضرة حسنة بهيَّة، لا يَغْشاها قَهْرُ الكُرُبات والكآبات. أولئك أصحاب المقام الرفيع، مُلازِمُون الجنة، هم فيها ماكثون، لا يموتون فيها أبداً. عن صهيب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيُكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ».

(صحيح مسلم ١/ ١٦٣ برقم١٨١ - كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ).

٢٧- والذين ارتكبوا جرائم الكبائر من الكفر والشرك، سيُجْزَون على تلك الجرائم النكراء بعقوبات قاسية، يَغْشاهم قهرُ الإذلال والنَّكال، ليس لهم أَحَد يحميهم من سخط الله تعالى، كأنَّما غُطِّيَتْ وجوههم بسواد آخر الليل المظلم. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى هم الوقود الملازمة لنار جهنم، هم فيها ماكثون أبداً.

٢٨-٢٩- يوم نجمع جميع الخلائق للحساب، ثم نقول للمشركين: الزَموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم من دون الله، وقِفُوا وُقوفَ الذل. ففرَّقْنا بين المشركين والمعبودات التي عبدوها من دون الله سبحانه، وتَبَرَّأت هذه المعبودات من المشركين، وقالوا لهم إنكاراً عليهم: ما كنَّا نعلم أنَّكم إيانا تعبدون! وما أمرناكم بعبادتنا، فحَسْبُنا الله تعالى شهيداً بيننا وبينكم - أيها المشركون - أنَّنا ما أَمَرْناكم بالعبادة، وأنَّنا كنَّا غير عالمين بعبادتكم.

٣٠- في ذلك الموقف المهيب، والوقت العصيب، تجد كلُّ نفسٍ ما قَدَّمت من خير أو شر، وتُجازى عليه، ورُدُّوا إلى الله تعالى الذي يتولَّى جزاءهم بالعدل والقسط، وغاب عن المشركين ما كانوا يفترونه من الأوثان.

٣١- يأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يُذَكِّر المشركين بما أقرُّوا به من توحيد الربوبية؛ ليُقيم الحجة عليهم بما أنكروه من توحيد الألوهية، فيقول لهم: مَنْ يرزقكم من بركات السماء وخيرات الأرض؟ ومَنْ الذي أوجد لكم السمع والأبصار؟ ومَنْ الذي يُخرج الأحياء من الأموات، كالزرع من الحَبِّ اليابس؟ ويُخرج الأموات من الأحياء، كالنطفة من الإنسان؟ ومَنْ يُدَبِّرُ أمور الخلائق؟ فسيجيبونك مُقِرِّين أنَّ الذي يُدَبِّر هذه الأمور هو الله ﷻ، فقل لهم: أفلا تخافون عقابه إنْ عَبَدْتُم معه غيره؟

٣٢- فذلكم الله العظيم الشأن، المعبودُ بحق، الحقُّ في وحدانيته، فليس بعد عبادة الله تعالى التي هي الحقُّ إلا الضلال، فكيف تُصْرَفُون عن اتباع الحقِّ؟

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين.

٢- الردُّ على المشركين بالحوار والأدلة الحسية.

٣- براءة المعبودات من المشركين.

٤- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية.

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ
اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ
﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا
الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ
﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٣- مثل ذلك الحقِّ العظيم في عبادة الله وحده، حَقَّتْ كلمة ربك بعذاب الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى؛ لأنَّهم لا يُصَدِّقون بوحدانية الله تعالى ولا برسالة نبيه ﷺ.

٣٤- قل يا رسول الله للمشركين مُوَبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم: هل الأوثان التي تعبدونها لها القدرة على إيجاد الخلق، ثم فَنائه، ثم إعادته كهيئته الأولى؟ قل لهم: الله سبحانه هو الذي يُنْشِئ الخلق، ثم يُفْنِيه، ثم يُعيده، فكيف تَنْصَرِفُون عن عبادة الله تعالى؟

٣٥- وقل لهم أيضاً مُوبِّخاً لهم ومُنْكِراً عليهم: هل هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله تهدي الضالِّين إلى دين الحقِّ وهو الإسلام؟ قل لهم: الله تعالى وحده هو القادر على ذلك. أفَمَنْ يُرشد إلى الحقِّ - وهو الله سبحانه - أحَقُّ بالاتِّباع أم هذه الأوثان التي لا تَهْدي أحد الضالِّين، ولا تستطيع هداية نفسها، فضلاً عن هداية غيرها؟ فهي لا تَهْدي ولا تهتدي إلا أن تُهْدى، فما بالُكم تنحرفون، وتُسَوُّون بين الله تعالى وهذه الأوثان، وتحكمون بهذا الحكم الباطل الخاطئ؟

٣٦- وما يَتَّبعون في اعتقادهم عبادة الأصنام إلا مجرد أوهام باطلة، وخرافات خاطئة. ومثلُ هذا الاعتقاد المبني على الضلال ظن كاذب، لا يُغْني من الحقِّ شيئاً. إنَّ الله عليم بما يرتكبونه من كبائر الجرائم.

٣٧- لا يَصِحُّ ولا يستقيم لذي عقل سليم زَعْمُ أنَّ هذا القرآن مكذوب على الله تعالى، ولا يملك القدرةَ أحدٌ من البشر أن يأتي بهذا القرآن العظيم من عند غير الله، ولكنَّ الله تعالى أنزله موافقاً للكتب

السابقة المنزَّلة على رسله. وفيه بيان واضح لأحكام شريعة الإسلام، ولاشكَّ أنَّه وحي من خالق الخلائق أجمعين.

٣٨- بل أيقولون وهم مستمِرُّون على عنادهم وطغيانهم: أختلق محمد هذا القرآن من قِبَل نفسه؟ قل لهم يا رسول الله: فإن كان كما زعمتم فَأْتوا بسورة واحدة مثل هذا القرآن العظيم، واطلبوا العَوْنَ ممَّنْ تشاؤون من الإنس والجن، إن كنتم صادقين في ادِّعائكم أنِّي افتريته.

٣٩- بل كذَّب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وسارعوا إلى الطعن فيه، قبل أن يفقهوا ما فيه من الهدي والموعظة والأحكام، ولم يأتهم بعدُ عاقبة ما فيه من الوعيد. وشَبَّه تكذيب هؤلاء بكذب الأُمم السابقة قبلهم، فانظر - يا رسول الله - كيف أخذهم الله بأنواع العقاب؛ بسبب اعتدائهم على حَقِّ الله تعالى وحَقِّ عباده؟

٤٠-٤١- يُبيِّن الله تعالى لرسوله ﷺ أنواع الناس الذين بُعِثَ إليهم الرسل، كما في الآيات الأربع التالية: ومن هؤلاء مَنْ يُصَدِّقُ بهذا القرآن ويَتَّبِعُك، ومنهم مَنْ لا يُصَدِّق به حتى الموت، وربُّك أعلم بالذين ينشرون الفساد في الأرض. وإنْ كَذَّبك هؤلاء المفسدون في الأرض فقل لهم: لي ديني وجزاء عملي، ولكم دينكم وجزاء عملكم، أنتم لا تُؤاخَذُون بعملي، وأنا لا أُؤاخَذُ بعملكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «جملة ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام يتنزل منزلة البيان؛ لما في جملة: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ من الإجمال، ولذلك فُصِلَتْ عنها، فهو مثله استفهام تعجيبي من حكمهم الضالِّ، إذ حكموا بإلهية مَنْ لا يهتدي فهو تعجيب على تعجيب». (التحرير والتنوير: ١١/ ٧٩).

٢- وقال أيضاً: «من بديع الأسلوب وبليغ الكلام: أن قدَّم وَصْفَ القرآن بما يقتضي بُعْدَه عن الافتراء، وبما فيه من أجَلِّ صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى، ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراء؛ ليتلَقَّى السامعُ هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز، والتعجب من حماقة أصحابها؛ فلذلك جُعِلَتْ دعواهم افتراء في حَيِّز الاستفهام الإنكاري التعجيبي». (التحرير والتنوير:١١/ ٧٤).

٣- بيان إعجاز القرآن الكريم، إذ تَحَدَّاهم بأن يأتوا بسورة واحدة مثله.

٤- الردُّ على المكذِّبين الذين نَسَبوا التكذيب إلى رسول الله ﷺ.

٥- إقامة الأدلة والحُجَج على وحدانية الله تعالى.

٦- دأب المشركون في كلِّ زمن على تكذيب الرسل عليهم السلام.

٧- الرسول ﷺ غير مسؤول عن المشركين؛ لأنَّه أدَّى البلاغ.

٨- قال ابن عاشور: «المراد بالذين من قبلهم الأمم المكذِّبون رُسُلَهم، كما دلَّ عليه المشبه به. ومما يقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها: أنَّ هذه عادة المعاندين؛ ليَعْلَمَ المشركون أنَّهم مماثلون للأُمم التي كَذَّبت الرسل، فيعتبروا بذلك.

الثاني: التعريض بالنِّذارة لهم بحلول العذاب بهم، كما حَلَّ بأولئك الأمم التي عَرَفَ السامعون مصيرها، وشاهدوا ديارها.

الثالث: تسلية النبي ﷺ بأنَّه ما لَقِيَ من قومه إلا مثلَ ما لَقِيَ الرسل السابقون من أقوامهم».

(التحرير والتنوير: ١١/ ٨٦).

٩- تهديد المكذبين لرسول الله ﷺ بالنَّكال الشديد.

١٠- إعلان البراءة من المشركين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ
أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ
مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

التفسير:

٤٢- ومن هؤلاء الكفَّار مَنْ يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وقلوبهم لا تفقه شيئاً منه، فأنت لا تقدر على أن تُسْمِعَ هؤلاء الصمَّ عن الحق؛ لأنَّهم لا يعقلون اتِّباع الحق.

٤٣- ومن هؤلاء الكفَّار مَنْ ينظر إليك، ويشاهد دلائل نبوَّتك الساطعة، ولكنَّهم عُمْيٌ لا ينتفعون بما شاهدوا، فأنت لا تستطيع أن تهدي هؤلاء العمي عن الحق، ولا تقدر على هدايتهم، وهم قد فقدوا البصيرة.

٤٤- يُخبر الله تعالى أنَّه لا يظلم الإنس والجن أيَّ شيء، مهما كان صغيراً أو كبيراً، ولكنَّهم هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم طاعة الله تعالى.

٤٥- ثم يُذَكِّر الله تعالى بيوم القيامة، حين يُحشر الناس جميعاً كأنَّهم ما مكثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة زمنية واحدة من ساعات النهار، يَعْرِفُ بعضهم بعضاً كأنهم في الحياة الدنيا، قد خسر حَقّاً الذين جحدوا لقاء الله تعالى وحسابهم، وما كانوا مُوَفَّقين إلى الحق.

٤٦ - وإن أريناك - أيها الرسول - بعض الذي نَعِدُهم مِنْ نَصْرِك عليهم، وإلحاق العذاب بهم؛ لتُقِرَّ عينيك منهم فذاك، أو نَتَوَفَّيَنَّك قبل أن ترى ذلك، فمرجعهم إلى الله تعالى في الآخرة، ثم الله شهيد على جرائمهم التي اقترفوها، وسيُعاقبهم عليها.

٤٧ - ولكلِّ أُمَّةٍ من الأُمم رسول أرسل لهدايتهم، فإذا جاء رسولهم ليشهدَ عليهم، قُضِيَ بينهم بالعدل، إذ كلُّ أُمَّة تُعرض على الله بحَضْرَةِ رسولها، وكتاب أعمالها، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذمُّ المشركين بسبب عدم استفادتهم من سمعهم.

٢ - تسلية النبي ﷺ؛ لئلّا يحزن على عدم إيمان المشركين.

٣ - استحالة ظلم الله تعالى الناس.

٤ - ترهيب المشركين بالعذاب في الدارين.

٥ - تقرير عدل الله تعالى بين الخلائق.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ
لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ
نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ
إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤٨ - ويقول المشركون المُنكِرون قيامَ الساعة للنبي ﷺ سخريةً: متى هذا الوعد بالعذاب والحساب الذي تَتَوَعَّدنا به أنت وأتباعك، إن كنتم صادقين في تَوَعُّدِكم؟

٤٩ - ٥٠ - قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين الساخرين: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضَرّاً، ولا أجلب إليها نفعاً، إلا ما شاء الله تعالى أن يدفع عني شرّاً، أو يجلب لي خيراً. لكلِّ أُمَّةٍ وقت معلوم عند الله تعالى لانقضاء آجالهم، فإذا حان وقت انتهاء العمر، فلا يتأخرون عن ذلك ساعة، ولا يتقدَّمون ساعة،

وقل لهم: أخبروني إن أصابكم عذاب الله تعالى ليلاً أو نهاراً، فأيَّ شيْءٍ تستعجلون أيُّها المرتكبون لكبائر الجرائم؟

٥١- هل تستعجلون بالعذاب، ثم إذا وقع بكم صَدَّقتم به؟ أفي هذا الوقت تؤمنون به حين لا ينفعكم الإيمان، وقد كنتم قبل وقوعه تطلبون تعجيله تكذيباً منكم، وسخريةً بالنبي ﷺ والمؤمنين؟

٥٢-٥٣- ثم يُقال لهؤلاء المكذِّبين إذلالاً لهم: ذوقوا العذاب، وتجرَّعوه على نحوٍ دائم، هل تُعاقَبون إلا بسبب ارتكابكم كبائر الجرائم؟ ويطلبون منك - بَلاهة واستهزاءً - أن تخبرهم: أحَقٌّ ما وَعَدْتنا به من العذاب والبعث؟ قل لهم أيها الرسول: نعم وربي إنَّه لحقٌّ ثابت، ولستم بمعجزين الله بهربٍ من العقاب والحساب.

٥٤- ولو أنَّ لكل نفس كافرة تملك ما في الدنيا جميعاً من الكنوز والخيرات لَدَفَعَتْه فدية لها من عذاب الله، وأخفى هؤلاء الكفرةُ الحسَراتِ حين شاهدوا الهول من العذاب، وقضى الله تعالى بين خَلْقِه بالعدل، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة.

٥٥- يُنبِّه الله تعالى أنَّ له ملكوتَ السموات السبع والأرَضين السبع، وأنَّ وَعْدَه بالبعث والحساب والعقاب حقٌّ لاريب فيه، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون حقيقة ذلك.

٥٦- الله سبحانه وحده هو يُحيي الموتى، ويُميت الأحياء، وإليه ترجعون - أيها الناس - بعد موتكم؛ ليحاسبكم على أعمالكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور في الآية (٤٨): «فائدة الإشارة إليه، تهويله أو تعظيمه، أو التعجيب منه، كقوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] فالمعنى: ما هذا العذاب العظيم في حال كونه يستعجله المجرمون؟». (التحرير والتنوير: ١١/ ١٠٢).

٢- دَأْبُ المشركين المكذِّبين للنبي ﷺ الاستعجال بالعذاب.

٣- تهديد المشركين بالعقاب في الدنيا والآخرة.

٤- تقرير البعث.

٥- بيانُ عَدْلِ الله تعالى مع خَلْقِه كافة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم
مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ
ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ
أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤)﴾

التفسير:

٥٧- يخاطب الله تعالى البشر مُنَبِّهاً على عظمة القرآن وأهميته، فقد أُنزِلَ عليهم القرآن العظيم فيه موعظة بليغة لهم من خالقهم تُذَكِّرُهم، وتُرَقِّقُ قلوبهم، ودواء للقلوب، ثم لإنقاذهم من العقائد والأهواء الفاسدة، ونور يبدِّد ظلمات الجاهلية، ويرشدهم إلى الحق، ورحمة عظيمة خاصَّة للمُصدِّقين بالله تعالى ورسوله ﷺ.

٥٨- قل - أيها الرسول - للناس جميعاً إنْسِهم وجِنِّهم: ليفرح المؤمنون بدين الإسلام، وبإنزال القرآن الكريم، فإنَّه أولى ما يفرحون به، إذ هو خير ممَّا يجمعون من متاع الدنيا الزائل.

٥٩- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوبِّخ المشركين على جرائمهم في الأحكام، ويتوعَّدهم: أخبِرُوني عمَّا خلق الله تعالى لكم من الأرزاق والأنعام، فجعلتم بعضه حراماً وهو حلال، وجعلتم بعضه حلالاً وهو مُحَرَّم عليكم، وكل ذلك بأهوائكم. قل لهم: أحَصَلَ ترخيص لكم بالتحليل والتحريم؟ أم هو مجرَّد افتراء وبهتان على الله سبحانه؟

٦٠- وما الذي يَظُنُّه الذين يتعمَّدون الكذب على الله تعالى أن يفعل بهم يوم القيامة؟ أيظنون أنَّه لا يعاقبهم؟ إنَّ الله تعالى لَذو تَفَضُّل على خَلْقِه بتأخيره العذاب، وفي إرساله الرسل وإنعامه بالخيرات والأرزاق، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرونه على ذلك الفضل.

٦١- وما تكون - أيها الرسول - في أمرٍ من أمورك، وما تقرأ من آيات من القرآن قليلاً أو كثيراً، وما تعملون - أيها الناس - من خيرٍ أو شرٍّ، إلا ونحن شهود لأعمالكم وشؤونكم حين تخوضون فيها بقولٍ أو

عملٍ. وما يخفى على الله تعالى من وزن ذرة صغيرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتاب جامع عند الله واضح ما فيه.

٦٢- يُنَبِّه الله تعالى أنَّ أنصار الله تعالى لا خوف عليهم من عقابه في الآخرة الباقية، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا الفانية.

٦٣- وصفات هؤلاء أنَّهم يُصَدِّقون بالله تعالى، ويُقِرُّون له بالوحدانية، ويُصَدِّقون برسوله ﷺ، ويستمرُّون على تقوى الله تعالى.

٦٤- ثواب هؤلاء الأولياء ما يَسُرُّهم ويفرحهم بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالرؤيا المنامية الصالحة، وبالجنة الكريمة في الآخرة، وعد ثابت، لا تغيير لوعد الله ووحيه. ذلك المقام الكريم وجنات النعيم هو الفلاح العظيم. عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يَبْقَ من النبوة إلا المبشِّرات» قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». (صحيح البخاري ١٢/ ٣٧٥ برقم٦٩٩٠ كتاب التعبير، باب المبشرات. وصحيح مسلم من حديث ابن عباس كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨ برقم ٤٧٩).

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وما فيه من البركات والهدايات.

٢- السعادة والفرح بما عند الله تعالى من الهدى والنور، وأمَّا حطام الدنيا فإنَّه زائل ومتاعه قليل.

٣- التحذير من التلاعب والاستخفاف بأحكام الله تعالى.

٤- الترغيب في شكر الله تعالى على نِعَمِه التي لا تحصى.

٥- استطاع علماء الذرة تجزئة الذرة وتقسيمها، وقد وجدوا أنَّها تحتوي على البروتون والنيترون والاليكترون، وبواسطة التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية والهايدروجينية، فكلمة ﴿أَصۡغَرَ﴾ من الذرة تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بيان بأن خواص الذرات في الأرض هي نفس ذرات العناصر الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب الأخرى. (الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم د. سليمان عمر غوش ص ١١٥). وينظر: الملحق لبيان مخطط الذرة وأجزائها.

٦- البشرى العظيمة في الدارَين لِـمَنْ أخلص الولاية لله تعالى.

٧- الإشارة إلى الفرح العظيم بالفلاح والفوز بجنات النعيم.

٨- في الآية (٦٤) إخبار مستقبلي بالبشارة من الله لأوليائه في الحياة الدنيا بما يَسُرُّهم، وفي الآخرة بالجنة.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- ولا يحزنك - أيها الرسول - افتراءات المشركين وتكذيبك. إنَّ الله تعالى هو المنفرد بالعزَّة جميعاً بكل معانيها ومفرداتها في الدنيا والآخرة، يُعِزُّ بها أولياءه فوق أعدائه. هو سبحانه السميع للأقوال، العليم بالأفعال.

٦٦- يُنَبِّه الله تعالى أنَّ كل ملكوت السموات السبع وما فيها، والأرض ومَنْ فيها من المخلوقات له وحده سبحانه، وأيَّ شيء يَتَّبع الذين يعبدون من غير الله أصناماً وغيرها شركاء، وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء (ينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٤٩٠)، إنَّما يَتَّبعون ظنّاً فاسداً أنَّهم شركاء لله تعالى، وما هم إلا يكذبون.

٦٧- الله سبحانه هو الذي خلق لكم - أيها الناس - الليل؛ راحة لأبدانكم، وستراً لكم، وجعل النهار مُضيئاً تبصرون فيه الأشياء؛ لطلب الرزق. إنَّ في ذلك الأمر العظيم والتغيير الحكيم لَعلاماتٍ ودلالات على وحدانية الله ﷻ لقوم يسمعون الحقَّ ويَتَّبعونه.

٦٨- يخبر الله تعالى عن الضلال الخطير الذي لهج به المشركون، بأنَّ الله اتخذ ولداً، مُبيِّناً كيف يفضحهم وكيف يَرُدُّ عليهم؟ قال مشركو مكة: الملائكة بنات الله. وقال مشركو اليهود: عزيرٌ ابنُ الله. وقال مشركو النصارى: عيسى ابن الله. تَنَزَّه وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، بل هو الغني عن ذلك، وعن كلِّ ما سواه، له ملكوت السموات السبع، وما في الأرَضين السبع، ما عندكم من حُجَّة على كَذِبكم، أتكذبون على الله بما لا تعلمون حقيقته؟

٦٩- قل - أيها الرسول - هؤلاء الذين يتعمَّدون الكذب على الله أنَّهم لا يفوزون بحياة طيبة في الدنيا ولا في الآخرة.

٧٠- إنَّما يتمتعون مدة وجيزة من الدنيا، ثم إلينا مصيرُهم في الآخرة للعقاب، ثم تُسَعَّر بهم جهنم، فهم وقودها؛ ليشعروا بالعذاب الشديد الموجع، بسبب الجرائم التي اقترفوها، من الشِّرْك بالله تعالى، والكذب عليه سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الآية (٦٦): «ظَنَّ طائفة أنَّ (ما) نافية، وقالوا: ما يَدْعُون من دون الله شركاء في الحقيقة، بل هم غير شركاء. وهذا خطأ، ولكنَّ (ما) هنا حرف استفهام. والمعنى: وأيَّ شيء يتبع الذين يَدْعُون من دون الله شركاء؟ وما يَتَّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون. و﴿ شُرَكَآءَ ﴾ مفعول ﴿يَدْعُونَ ﴾، لا مفعول ﴿يَتَّبِعُ ﴾». (التفسير ٣/ ٤٩٠).

٢- إنَّ التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتمُّ التحكم في توزيع ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية، كما يُعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية، وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي، كما تتم دورة تعرية الصخور بتفتيتها، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه من أجل تكوين التربة أو الرسوبيات والصخور الرسوبية، وما بها من خيرات أرضية.

(آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٤١٥-٤٣٢).

٣- تسلية النبي ﷺ وتهديد المشركين المكذبين.

٤- إثبات صفة السمع والعلم لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

٥- من أعظم البراهين المشاهدة التي تدل على وحدانية الله تعالى الليل والنهار.

٦- تهديد المشركين المكذبين.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا
كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧١- وأخبِرْ - أيها الرسول - هؤلاء المشركين، واقصُص عليهم الخبر العظيم، حين قال نوح عليه السلام لقومه المكذِّبين مُتحَدِّياً لكيدهم، مُستعطفاً بقرابة النسب: يا قومِ إن كان شَقَّ عليكم مقامي فيكم، وتذكيري لكم هذه المدَّة الطويلة، فعزَمْتُم على قتلي أو طردي، فعلى الله اتِّكالي وبه ثقتي، فأعِدُّوا عُدَّتكم ودَبِّروا مكيدتكم، ثم اجْهَروا بأمركم، ولا يكن ذلك مستوراً، ثم أنفِذوا ما أبرمتم، ولا تُمهلوني، ولا أبالي بكم، فإنِّي في رعاية الله تعالى.

٧٢- فإن أعرضتم عن دعوتي ورسالتي إليكم، فما طلبت منكم من أجر على دعوتي لكم؛ لأنَّ ثوابي العظيم من عند ربي الكريم، وأُمِرْتُ أن أكون من المتذلِّلين له سبحانه بالطاعة والانقياد التام.

٧٣- يُبيِّن الله تعالى العناية بنوح عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين، بعد تلك الدعوة التي بلغت تسعمائة وخمسين سنة حين كذَّبه قومه: فأنقذْنا - لِما لنا من العظمة والقدرة - نوحاً ومَنْ معه من المؤمنين في السفينة، وجَعَلْناهم خلفاء لعمارة الأرض، وأغْرَقْنا بالطوفان المكذِّبين بحُجَجِنا وأدلَّتنا، فتأمَّل كيف كان نهاية الذين أنذرهم نوح عليه السلام من العقاب؟

٧٤- ثم أرْسَلْنا من بعد نوح رسلاً إلى أقوامهم، مثل: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، فجاؤوا أُممهم بالمعجزات الباهرة والبراهين الظاهرة، فما كان من شأنهم أن يُصَدِّقوا تلك الأدلة والحجج، فكَذَّبوا رسلهم، ولم يَزْجُرْهم عقاب الأمم السابقة. مثلَ ذلك الختم على قلوب أولئك السابقين، نختم على قلوب المتجاوزين لحدود الله تعالى وحرماته.

٧٥- ثم أرسلنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إلى الطاغية فرعون وأشراف قومه، بالمعجزات العجيبة الدالَّة على صِدْقِهما، فبالَغُوا في استكبارهم على الإيمان بها، وكانوا مرتكبين لكبائر الجرائم بقتلهم الأنبياء، واستعبادهم الشُرَفاء، والاعتداء على الأبرياء، واستحياء النساء.

٧٦- فلمَّا جاء موسى بالحق من عند الله تعالى كالعصا واليد، قال زعماء الكفر تكذيباً وتَكَبُّراً: هذا سحر ظاهر.

٧٧- فرَدَّ موسى عليه السلام مُنْكِراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم: أتَصِفُون هذا الحق إنَّه سحر مبين؟ ولا يفوز الساحرون؛ لأنَّهم خسروا الدنيا والآخرة بكفرهم.

٧٨- قال فرعون وأعوانه مُنْكِرين على موسى: أجئتنا لتَصْرِفَنا عن آلهتنا التي كان يعبدها آباؤنا وأجدادنا، وتكون لكما أنت وهارون السيادة والعظمة في أرض مصر؟ ولسنا بمُصَدِّقين لكما فيما جئتما به.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «الإنظار التأخير، وحُذفت ياء المتكلم من ﴿تُنظِرُونِ﴾ للتخفيف، وهو حَذْفٌ كثيرٌ في فصيح الكلام، وبقاء نون الوقاية مشعر بها». (التحرير والتنوير: ١١/ ١٤٢).

٢ - الموعظة من قصة نبي الله نوح عليه السلام وقومه ومصير المكذبين.

٣- تكذيب الرسل يتكرر في كل زمن، وكذلك انتصار الرسل.

٤ - في تكرار قصة موسى؛ إشارة إلى أهميتها، ولمعرفة التعامل مع اليهود.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ
مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ
إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا
بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ
عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا
فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

التفسير:

٧٩-٨٠- وبعد أن رأى فرعون معجزة اليد والعصا، أمر باستدعاء السحرة المهرة، فاستجابوا له، وحضروا على موعدٍ مع موسى عليه السلام وأتباع فرعون، فقال لهم موسى - بعد أن خيَّر السحرة فيمَن يبدأ -: ألْقُوا ما أنتم مُلْقُون من الحبال والعِصِيِّ.

٨١- فلما انتهوا من إلقاء حبالهم وعصيهم قال موسى: إنَّ الذي جئتم به هو السحر بعينه، وبرهان ذلك أنَّ الله تعالى سيمحقه. إنَّ الله تعالى لا يصلح عمل مَنْ سعى بالفساد في الأرض بالسحر الذي حَرَّمه الله تعالى.

٨٢- ويُظهر الله تعالى الحقَّ على الباطل، ويُثبِّته بحُجَجِه الساطعة، وكلماته في كتبه المنزَّلة على أنبيائه، ولو كره ذلك الذين أجرموا بفعل السحر، وكبائر الجرائم.

٨٣- فما صَدَّق بموسى عليه السلام إلا نفرٌ قليل من نَسْل بني إسرائيل، على تَخَوُّفٍ وحَذَرٍ من طغيان فرعون وأتباعه أن يبطش بهم؛ ليَصْرِفَهم عن دينهم. وإنَّ فرعون لَمتكبِّر مفسد في الأرض، وإنَّه لمن المُفرِطين في الكفر والطغيان، ومحاربة أهل الإيمان.

٨٤- وقال موسى عليه السلام مُثَبِّتاً أتباعه مُستعطفاً بنداء النسب: يا قومِ إن صَدَّقتم بالله، وأقررتم له بالوحدانية ولي بالرسالة، فاعتَمِدُوا على الله وحده، إن كنتم مُنقادين لأوامره ونواهيه.

٨٥-٨٦- فاستجابوا لموسى عليه السلام قائلين: على الله وحده توكّلْنا، يا ربَّنا لا تُسَلِّط علينا جبابرة فرعون فيَفْتنونا في ديننا، وأنقِذْنا برحمتك الواسعة من المكذِّبين بك.

٨٧ – وأوحينا – لِما لنا من العظمة والقدرة – إلى موسى وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام أن اتَّخذا لقومكما من بني إسرائيل في مصر بيوتاً للعبادة، واجعلوا هذه البيوت مساجد تُصَلُّون فيها، وأدُّوا الصلاة المفروضة، وبَشِّرِ المصدِّقين بالله ورسله بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالجنة الكريمة في الآخرة.

٨٨- ودعا موسى عليه السلام على فرعون وأتباعه مُتَضَرِّعاً إلى الله: يا ربَّنا إنَّك برحمتك الواسعة أعطيت فرعون وزعماء قومه زينة عظيمة من المعادن الثمينة، وخزائن من الأموال النفيسة؛ لتكونَ عاقبة أمرهم منع الناس من الإيمان بك، وليَصُدُّوهم عن الحقِّ، يا ربَّنا دَمِّرْ أملاكهم، فلا ينتفعون بها، واختِمْ على قلوبهم حتى لا تنشرح للإيمان، فلا يؤمنوا حتى يشاهدوا العقاب الموجع.

٨٩- بَشَّرَ الله تعالى موسى وهارون بأنَّه قد استجاب لكما ذلك الدعاء، فاثبتا على ما أنتم عليه من الدين الصحيح، ولا تَتَّبِعا طريق الذين لا يعلمون الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١ – أُعيد النداء بين الجملة المعلِّلة والجملة المعلَّلة؛ لتأكيد التذلُّل والتعرض للإجابة، ولإظهار التبرُّؤ من قصد الاعتراض.. وأُعِيد النداء ثالث مرة؛ لزيادة تأكيد التوجُّه والتضرع.

٢ – طُغيان فرعون وملئه لم يقدر على منع الناس من الإيمان بالله تعالى.

٣- بيان أهمية التوكل على الله تعالى.

٤ – وجوب اعتزال الأعداء الكفار إذا لم تنفع معهم النصيحة.

٥ – عدم اليأس في الدعوة مهما بلغ طغيان الأعداء.

٦ – رعاية الله تعالى بالاستجابة للدعاء، إذا توافرت شروطه.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾

التفسير:

٩٠- وهَيَّأ اللهُ تعالى لموسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل مجاوزة البحر بسلام، فلحقهم فرعون وجيشه ظلماً وعدواناً، ومَضَوا يلاحقون موسى وأتباعه، إلى أن أدرك الغرقُ فرعونَ. ولما أيقن بالهلاك قال: أقررتُ بأنّه لا إله إلا الله الذي صَدَّقَتْ به بنو إسرائيل، وأنا من المنقادين لأَمْرِه ونَهْيِه.

٩١- فلم يقبل الله تعالى ذلك من فرعون، بل أنكر عليه: أتؤمن الآن حين يَئِسْتَ من الحياة، وقد عصيتَ الله قبل وقوع الغرق، وكنت مِضْلالاً مفسداً في الأرض؟

٩٢- فاليوم نُخْرِج جثتك من البحر؛ لتكون عبرة لِـمَنْ بعدك من الناس والجبابرة، وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا العظيمة المسموعة والمشاهدة مُعْرِضُون، دون تَدَبُّر واعتبار.

٩٣- قسماً لقد أكْرَمْنا بني إسرائيل، وأنزلناهم مساكن في أرض مباركة، ورزقناهم من الخيرات الحلال المستلَذَّة، فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد مجيئهم التوراة. إنَّ ربَّك - أيّها الرسول - يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه من أمر محمد ﷺ، فيجازي المؤمنين بالثواب، والمكذِّبين بالعقاب.

٩٤- فإن كنت - أيها الرسول - في شك من أنَّ بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوّتك قبل أن تُبعث رسولاً إلى الناس جميعاً؛ لأنَّهم يجدون صفتك في توراتهم، فاسأل الذين يقرؤون التوراة من قبلك، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ونحوه. قسماً لقد جاءك الحقُّ اليقين من ربك بأنَّك رسول الله، وأنَّ اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك في كتبهم، فلا تكُنْ في شك من ذلك أبداً.

٩٥- ينهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يكون من المكذبين بآيات الله تعالى من المعجزات الباهرة والأدلة الظاهرة لئلا يكون من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

٩٦-٩٧- إنَّ الذين أَصَرُّوا على الكفر وَجَبَتْ عليهم لعنة الله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى، فلا يُصَدِّقون بالله ولا برُسُلِه، ولو جاءتهم كلُّ موعظة وعبرة، حتى يشاهدوا العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «الفاء التي في قوله: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾ فاء الفصيحة، تفصح عن شرط مقدر في الكلام يدل عليه السياق. والمعنى: فإن رُمْتَ بإيمانك بعد فوات وقته أن أُنجيك من الغرق، فاليوم ننجيك ببدنك، والكلام جارٍ مجرى التهكم». (التحرير والتنوير: ١١/ ١٧١).

٢- من الإعجاز نجاة جثة فرعون، فهي ما زالت محفوظة في مصر، إنْ صَحَّ الخبر. وينظر: صورة فرعون في الملحق.

٣- التحذير من الشك والامتراء في شأن الحق.

٤- التهديد والوعيد للمكذبين بآيات الله تعالى.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

التفسير:

٩٨- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ الآية لولا: هَلَّا، هذا قول أئمة العربية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن؛ فذكر أنه لم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس.. وقوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يبيّن أنَّ المكشوف عذاب في الدنيا ولو لم يفسر، فهو مجمل والقرآن فرّق بين النوعين، فقوم يونس آمنوا إيماناً نفعهم وآمنوا قبل حضور الموت، وغيرُهم إمّا أن يكون كاذباً في إيمانه كقوم فرعون، وإمّا بعد حصول الموت، كالذين قال فيهم: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨٥]. (تفسير شيخ الإسلام ٣/ ٤٩٩).

وقوم يونس كانوا في مدينة الموصل في العراق، ولما صَدَّقوا يونس عليه السلام، وأقرُّوا بما جاء به من التوحيد، بعدما أظلَّهم العذاب، ونزل بهم البلاء، كشفنا عنهم عذاب الهوان والذل في حياتهم الدنيا، فلم نعاجلهم بالعذاب، بل أكرمناهم، فهم يتمتعون في الدنيا إلى وقت انتهاء آجالهم.

٩٩- ولو شاء ربك - يا رسول الله - لَصَدَّق اللهَ تعالى كلُّ مَنْ في الأرض من الإنس والجن، أفأنت تُجبر الناس على الإيمان، حتى يكونوا مُصَدِّقين برسالتك؟

١٠٠- وما ينبغي لأحد أن يؤمن بالله تعالى إلا بمشيئة الله تعالى، ويجعل الله العذابَ والذلَّ على الذين لا يعقلون اتّباع الحق.

١٠١- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلفت أنظار الكفار إلى الآيات الكونية المرئية في السموات بعظمتها، والأرض بخيراتها التي تدل على وحدانية الخالق سبحانه. لكنَّ هذه الآيات العظيمة، وأولئك الرسل الذين ذَكَّروا الناس بعذاب الله لا تنفع المكذِّبين بها.

١٠٢- فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا يوماً يشاهدون فيه عقاب الله تعالى، مثل أيام عذاب الذين مضوا قبلهم؟ قل لهم أيها الرسول: انتظِرُوا عقاب الله، إنِّي معكم من المنتظرين هلاككم.

١٠٣- ثم نُنَجِّي رسولَنا محمداً ﷺ ومَنِ اتَّبعه من المؤمنين، كما نَجَّينا الرسل السابقين، كذلك أوجبنا علينا - بفضلنا - أن ننجيك ومَنْ معك من المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل قوم يونس عليه السلام من أهل الموصل.

٢- ذكر الله تعالى أنموذجاً لأهل الإيمان، ونجاتهم من الهلاك بالعذاب؛ لترغيب المشركين في ذلك، لعلهم يقتدون بقوم يونس عليه السلام.

٣- التحذير من الإكراه على الإيمان.

٤- الترهيب من مصير الأُمم المكذبة السابقة.

٥- البشرى بنصر المؤمنين، ونجاتهم من طغيان أعدائهم.

٦- في الآية (٩٩) إخبار مستقبلي أنَّ بعض الناس يُصِرُّون على الكفر، وأنَّ إكراه الكفَّار على الإيمان لا ينفع.

٧- ينظر: خريطة مدينة الموصل في الملحق، وتبعد عن بغداد (٤٠٠) كيلٍ شمالاً، وتسمى الآن محافظة نينوى.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

التفسير:

١٠٤-١٠٦- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في الآيات الخمس الآتية أن يُبَلِّغ الإنس والجنَّ بأمور عظيمة: إن كنتم في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه، فإني لست في شك، بل لديَّ العلم اليقيني أنَّه الحق، فاعلموا أني بريء من أوثانكم، فلا أعبدها، ولكن أعبد الذي بيده حياتكم ومماتكم، وأُمِرْت أن أكون من

المؤمنين به سبحانه، وأُمِرْتُ بالاستقامة والثبات على الدين، وألَّا أكونَ من الذين يشركون في عبادة الله سبحانه، ونُهيت أن أعبدَ غير الله ما لا ينفع شيئاً إن عبدته، ولا يَضُرُّ بشيء إن تركته، فإن خالَفْتُ ذلك - على سبيل الافتراض- فإنّي من الظالمين أنفسهم؛ لأنَّ الشرك أعظم الظلم.

١٠٧ - وإن يُصِبْكَ اللهُ بسوء فلا دافع له إلا هو سبحانه، وإن أراد أن يتفضَّل عليك بنعمة فلا يمنعها عنك مانع، يصيب الله تعالى مَنْ يشاء من عباده بفضله وإحسانه، وهو الغفور لذنوب مَنْ تاب من عباده، الرحيم بهم.

١٠٨- قل - أيها الرسول - للنَّاس جميعاً: قد جاءكم رسول الله ﷺ بالقرآن العظيم، فمَنِ اهتدى بأحكامه وحِكَمِه فإنَّ نَفْعَ ذلك يعود لنفسه، ومَنِ انتكس بالضلالة والانحراف عن الحقِّ فإنَّ ضَرَرَ ذلك يعود على نفسه أيضاً، ولستُ بحفيظٍ عليكم محاسبٍ لكم.

١٠٩ - واتَّبع - يا رسول الله - وحي ربك الذي يُوحيه إليك، واصبر على أذى أعدائك، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره بفعل فاصل، وهو سبحانه خير القاضين، وأعدل الفاصلين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إعلان البراءة من المشركين ومعبوداتهم.

٢- التحذير من الاستعانة بغير الله تعالى.

٣- لا يقدر أحد أن يكشف الضُرَّ إلا الله تعالى، وكذلك لا أحدَ يقدر أن يجلب الخير إلا الله تعالى.

٤- إثبات صفتَي المغفرة والرحمة.

٥- بيان أهمية صبر المسلم على ما يلاقيه من أذى.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الله، وتقرير البعث والجزاء، وإثبات الرسالة بدلالة عجز الكفار عن معارضة القرآن، وما حواه من حُجج وعبر.

٢ - التخويف من عذاب الله تعالى العاجل والآجل، وبيان الأسباب المفضية للعذاب، وضرب المثل بالأُمم السابقة للوقوف على أسباب هلاكها.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتثبيته ببيان صبر الأنبياء على أقوامهم ونجاتهم، وبيان نِعَمِ الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام، وشكرهم لهذه النعم، وبيان منهج الأنبياء في الدعوة والحوار.

٤ - إبراز دلائل قدرة الله تعالى في خَلْقِ الكون، وتدبيره.

٥- الدفاع عن القرآن، والردُّ على شبهات المبطلين، وافتراءات الظالمين.

٦- التحذير من اتباع الطغاة، وتقليد الضالين، والاغترار بكثرة الهالكين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ
وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ
فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ
إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١ - بدأت السورة الكريمة بهذه الأحرف للتنبيه والتحدّي، فالقرآن نزل بالعربية، وهذه حروفها؛ فهل يقدر أرباب الفصاحة وأساطين البيان أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، وهو كتاب بالغٌ حَدَّ الكمال في حسن الرصف، وبديع الوصف، وروعة الأسلوب، فلا يتطرق إليه خَلَلٌ ولا اختلافٌ، فآياته متقنة، لا يعتريها خَلَلٌ، مفصلة، مبيَّنةٌ على أكمل بيان، وأجلى برهان.

٢ - يرشد الله تعالى أُمة رسوله الكريم ﷺ أن يُوَحِّدوا الله تعالى في عبادته وحده، فهو المستحقُّ للعبادة، والرسول ﷺ يخاطبهم: إنني لكم من قِبَلِه نذيرٌ لأهل معصيته بسُخْطه وعقابه، وبشير لأهل طاعته بفضله ورضوانه.

٣ - واطلبوا مغفرة الذنوب من خالِقِكم، ثم توبوا إليه توبة خالصةً نصوحاً، يَمُنُّ عليكم بطيب العيش والعافية، وطول العمر في طاعته ومرضاته إلى أن تنقضي الآجال، ويجعلكم خير الأُمم قوةً وعلماً ونعمةً ومَنَعَةً، ويعطي كلَّ عامل بقدر عمله في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ المراتب متفاوتة في الدارَين بتفاوت الأعمال، وإن تُعرضوا عما جئتكم به من الهدى والبيان، فإني أخاف عليكم من سوء العاقبة، وأليم العذاب، في يومٍ كبيرٍ حافلٍ بالأهوال العظام.

٤ - إلى الله تعالى مصيركم ومَرَدُّكم، وهو القادرُ على كل شيء. ومن ذلك قدرته تعالى على إعادتكم وبعثكم وحسابكم وجزائكم.

٥ - **سبب النزول:**

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أناس كانوا يَسْتَحْيون أن يَتَخَلَّوا، فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيُفْضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم». (صحيح البخاري - كتاب التفسير، باب سورة هود، برقم ٤٤٠٤).

التفسير:

يُحَذِّر الله تعالى أولئك المعرضين، كيف يحتالون إذا لقوا النبي ﷺ في طريق أو في سوق ليتخَفَّوا منه، ويَتوارَوا بعيداً عنه؛ حتى لا يراهم، فيميلوا عنه ويَزْوَرُّوا منه. وهذا من جحودهم وجهلهم وغفلتهم عن إحاطة علم الله بسِرِّهم وعَلَنِهم، وما يَسْتَكِنُّ في صدورهم، ويَدُور بخَلَدِهم من الوساوس والهواجس والخواطر والأفكار. والتنبيه يشمل تصحيح خطأ أولئك الناس الذين كانوا يستحيون أن يَتَخَلَّوا، فيُفيضوا إلى السماء عند جماع نسائهم، والله تعالى المطَّلع عليهم، العليم بما تنطوي عليه قلوبهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أجملت الآيات مقاصد الكتاب وخصائصه ومهمة الرسول ﷺ، فقد جمع القرآن بين الإحكام والتفصيل، كما جمع هذا النبي الكريم ﷺ بين البشارة والنذارة.

٢- تقديم الإنذار على التبشير؛ لأنَّ مَنِ امتثل للنذارة استحق البشارة، فالعبد لا يستحق البشارة إلا إذا كان أهلاً لها، بينما النذارة عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لذا تأتي على إطلاقها، بينما تأتي البشارة مقيدةً بمَنْ يستحقها من المؤمنين.

٣- في إسناد الإحكام والتفصيل إلى آياته؛ لبيان كون الإحكام والتفصيل عامًّا في سائر الآيات.

٤- التعبير بـ(ثم) لإفادة التراخي الرُّتبي بين منزلة الإحكام ومنزلة التفصيل؛ فالإحكامُ هو الدقة والإتقان، والتفصيل هو البيان، أو التراخي الزمني بحسب نزولها جملةً ثم مفرقة حسب الوقائع والأحداث.

٥- وفي بناء الفعلين للمفعول مع إسناد التفصيل إلى الحكيم الخبير، بيان لفخامة كلام الله تعالى وجَمْعِ معانيه بين الحكمة والدقَّة والعمق.

٦- بَيَّنت الآيات مصير الناس، ومَرَدَّهم إلى الله تعالى؛ ليستعدُّوا ويتزوَّدُوا للقائه.

٧- قدَّم الاستغفار على التوبة؛ لأنَّها بمنزلة التخلية قبل التحلية، والإسعافات العاجلة قبل العلاج الناجع.

٨- في التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلى مزية العمل، وسُمُوِّ قدره وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ ولبيان كون الجزاء من جنس العمل.

٩- وصف المتاع بالحسن ترغيباً فيه وتشويقاً إليه، فالمؤمن يحيا حياةً طيبةً في الدنيا، وينعم في الآخرة بالأمن والسعادة الأبدية.

١٠- إعراض الكُفَّار عن كتاب الله، وتَحايُلِهم ومراوغتهم؛ لئلَّا يستمعوا إليه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾
وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ
أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا
سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ
لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ
نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ
كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٦- ومن إحاطة علمه تعالى، وكمال قدرته، وعنايته بخَلْقه وتدبيره لملكه: تكَفُّلُه بكلِّ ما يَدِبُّ على ظهر الأرض من المخلوقات، يرزقها، ويعلم مكانها الذي تقطنه وتأوي إليه، وتبيت فيه حالَ حياتها من الأوكار والجحور والكهوف، ومثواها الذي تُودَعُ فيه بعد موتها. كل ذلك في اللوح المحفوظ الذي يُحصي كل صغيرةٍ وكبيرةٍ.

٧- وهو سبحانه الذي خلق السموات في أربعة أيام والأرض في تتمة الأيام الستة، وكان عرشه على الماء، خَلَقَهما ليختبر العباد، ويُجازِيَهم على أعمالهم، فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين. ولئن أخبرتهم يا محمد بأنّهم مبعوثون من بعد موتهم، لَيقولُنَّ: ما هذا الذي جئت به إلا سحرٌ واضحٌ.

٨- وقسماً إن أَخَّرنا عن هؤلاء الكفار العذاب برهةً من الزمان تساءلوا مُشكِّكين: ما يمنعه عنا؟ ألا إنه أجلٌ محدودٌ وقضاءٌ مبرمٌ، إذا جاء فلا صارف له ولا دافع، وحينئذ يحلُّ بهم ما كانوا به يسخرون ويستبعدون.

٩- ومن طبائع النفوس الرديئة ما تُبديه من سُخطٍ وجزعٍ عند تَبَدُّل النِّعَم، وتحوُّل العافية، فتراها يائسةً من كلِّ خير، قانطةً من كل رحمةٍ، ناسيةً وجاحدةً ما سلف من نعمة.

١٠-١١- وكذلك حالُ تلك النفوس إن هَبَّتْ عليها العافية، وأذاقها الله حلاوة النعم، فإنّها تركنُ إلى الدَّعة وتَخْلُدُ إلى الرفاهية، وتفرح فَرَحَ الغفلة والغرور، وتختال وتزهو غافلةً عن سنن الله، آمنةً من تَقَلُّبات الزمان، وتبدُّل الأحوال، وناسيةً لفضل الله ورحمته. ثم استثنى الله تعالى مَنْ وَطَّنَ نفسه على الصبر عند

النوازل والرزايا، وزَكَّاها بالأعمال الصالحات، فإنَّ نفسَه لا تجزعُ لمحنةٍ، ولا تغترُّ بنعمةٍ. أولئك أصحاب المنازل السامية والهمم العالية، لهم مغفرة عظيمة على صلاحهم ورجائهم وشكرهم لربهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عظيم قدرته تعالى، وكمال رُبوبيته، وتدبيره للمخلوقات كلِّها، وتَكَفُّله برزق كلِّ دابَّة وإحاطة عِلمه تعالى بحركاتها و سكناتها ومآلها.

٢ - إثبات اللوح المحفوظ، ووَصْفُه بالمُبين.

٣ - من الأدلّة الماديَّة على إمكان البعث خلق السّموات والأرض في ستة أيّام، ومع ذلك يستبعده الكفّار، وينسبونه إلى الوهم و التَّخييل.

٤ - يقين الإنسان بخالقه وتَوَكُّله عليه، فهو الخالق الرازق المدبِّر، العليم بأحوال خلقه.

٥ - العرش والماء كانا قبل خلق السموات والأرض. عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

(صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ برقم ٦٩٨٢).

٦ - الابتلاء من سنن الله تعالى الماضية في هذا الكون، يُمَحِّصُ به القلوبَ، ويَشْحَذُ الهِمَمَ، ويَصْقُلُ المواهب، ويُفَجِّرُ الملكات، ويرفع الدرجات.

٧ - دعوة القرآن للتنافس في فعل الخيرات، والمبادرة إلى فضائل الأعمال، والتسابق إلى أعلى الدرجات والإحسان في كل عمل، وحفز الهمم إلى طلب معالي الرُّتَب.

٨ - تحليل طبائع النفوس وموقفها من السَّرَّاء والضَّرَّاء، وبيان ما تنطوي عليه نفوسُ الكثير من رديء الطباع وذميم الخصال، والقُصور عن فَهْمِ سُنَّةِ الابتلاء.

٩ - ذَمُّ حالِ كثيرٍ من النفوس التي تجزع وتتبرَّم من قضاء الله تعالى، فإذا أصابتها العافية تَحَوَّلت إلى الغرور والغفلة والجحود.

١٠ - المقابلة بين التعبير بـ ﴿أَذَقْنَا﴾ الذي يفيد اللذة والاغتباط، وقوله: ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾ الذي يفيد شدة تَعَلُّقه بالنعمة، وحرصه عليها.

١١ - من ذخائر الصبر، وغِراس الأعمال، وقوة الرجاء واليقين: المغفرة والأجر الكبير.

١٢ - الردُّ على مَنْ يتعجَّلُ العذابَ استبعاداً له وتشكيكاً فيه، فإمهالُ الله تعالى الكافرين لحكمةٍ يعلمها.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ
جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ
سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ
لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا
ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ
شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ
فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢ - لا يَثْنِيَنَّ من عزمك، ولا يَصْرِفَنَّك عن دعوتك، ما يُرَدِّدونه من أباطيل، ويثيرونه من أقاويل ويُلِحُّون فيه من مطالب تُسْفِرُ عن تَعَنُّتِهم، وتكشفُ عن صدودهم، إذ يقولون: لولا وَقَعَ عليه كنزٌ، أو هبط عليه مَلَكٌ من السماء يصدقه؛ جهلاً منهم بحقيقة الرسالة، ودعوة الرسل وهي الإنذار والبيان، فلا يَفُتَّ هذا من عضدك، ولا يَحْمِلْكَ على ترك بعض ما أوحي إليك استجابة لهم؛ فلَسْتَ بمُوَكَّلٍ عليهم، إنَّما أنت نَذِيرٌ، والله تعالى المتكفِّلُ بكل ما في الكون، يتولَّى أمور العباد، ولو شاء لَجَاءهم بتلك الآيات.

١٣ - أشاع المشركون أنَّ القرآن من عند محمد ﷺ أَلَّفه، ونَسَبَه لربه. فقل لهم: فلْتَفْتَرُوا عشر سور مشابهةً له، ولتستعينوا بمَنْ شئتم من الخلق، ومن الآلهة التي تنافحون عنها، إن كانت دعواكم حقيقة.

١٤ - فإن لم تقدروا على معارضته، ولم تستجب لكم آلهتكم المزعومة، لَزِمَكم العِلْمُ القاطع بأنَّ هذا الكتاب إنَّما نزل من عند الله تعالى، وأنَّه تعالى لا رَبَّ غيره ولا معبود سواه، فهل أنتم بعد هذا البرهان منقادون لهذا الدين، مستسلمون لرب العالمين؟

١٥ - مَنْ كان طَلَبُ الدنيا والظفر بها بغيته، فصرف إليها هِمَّته، وقصر عليها سعيه، وضَيَّع آخرته، نال من دنياه بقدر عزمه وسعيه والتماسه للأسباب، فلا يُظْلَمُ ولا يُهْضَمُ، بل يستوفي أجرَ ما قَدَّم لدنياه الفانية.

١٦ - أولئك البُعداء المحرومون الذين تَعَلَّقوا بحبال الدنيا البالية، واغترُّوا بزخارفها الفانية، ليس لهم في الآخرة نصيب إلا النار، وذهب عنهم نَفْعُ ما عملوه من صنائع، ومُهدَرٌ ما كانوا فيه من أعمالٍ، لا وزن لها في الآخرة.

١٧ - أفمَنْ كان على نورٍ وبصيرة وهدى من ربه، ويعضدُ ذلك برهانٌ جليٌّ وشاهدٌ من ربِّه جلَّ وعلا وهو كتابه العظيم، ويؤيده شاهدٌ قبله، وهو التوراة التي نزلت إماماً للهدى والخير ورحمة لبني إسرائيل في دنياهم وأخراهم. أولئك أصحاب المقامات العالية الذين تَجَلَّتْ لهم تلك الحُجَجُ المتتابعة والبراهين الساطعة يُصَدِّقون به. ومَنْ يكفر به من الملل كلها، فالنار موعدهم وملتقاهم، بعد أن تنتهي حياتهم البائسة، فلا تكن أيها المؤمن بعد هذه الشواهد المتواترة والقرائن المتضافرة في شك منه، فإنَّه الحق الثابت من ربك، ولكن كثيراً من الناس لا يُصَدِّقُون؛ جحوداً وعناداً، أو جهلاً وغفلة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - حملة التشكيك والصُّدود لا ينبغي أن تُثني الداعية عن دعوته.

٢ - ضرورة التَّفرقة بين ما هو مطلوب من الدَّاعية مندرجٌ في واجباته، وبين ما لم يُطلب إليه حتى لا ينشغل به عن الواجب.

٣ - عَجزُ المشكِّكين في القرآن والطاعنين فيه والمعارضين له، عن معارضته، حجةٌ على الكافرين، وتذكرة للمؤمنين، وتقويةٌ لإيمانهم ويقينهم. وإعجاز القُرآن يستلزم التَّسْليم بأنَّه أُنزِل من عند الله، كما أنَّه دليل على وِحدانيَّته ﷻ.

٤ - إفراد الخطاب ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ﴾ ثم جَمْعُه في ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ لأنَّ الخطاب أولاً للنبي ﷺ، أَمَره الله بأن يتحدَّاهم، ثم لا يزال التحدي قائماً إلى أن تقوم الساعة، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الخطاب للجميع: المؤمن ليزدادَ عِلماً وتَبَصُّراً ومعرفة وانقياداً لأوامر الله، والكافر ليعلمَ بعد جهل ويؤمنَ بعد كفر، ويسلكَ طريق الإسلام مُسَلِّماً بحجة الله البالغة.

٥ - حَظُّ الكفار من النِّعَم ما يَحْصُلُ لهم في الدُّنْيا، أما الآخرة فلا نصيب لهم فيها؛ فهم المحرومون المغبونون، كما في قول النبي ﷺ لِعُمَرَ ﷺ لَـمَّا ذَكَرَ له فارِسَ والرُّومَ، وما هُمْ فِيهِ مِنَ المُتْعَةِ: «أُولَئِكَ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا». (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها برقم ٢٣٣٦).

٦ - الأُمُور بمقاصِدها، وأثر الإرادات في تحديد النِّهايات.

٧ - العدول إلى اسم الفاعل (وباطلٌ) دون الفعل الماضي؛ لئلَّا يُوهِمَ أنَّها كانت صحيحةً، ثم طرأ عليها البطلان.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - ولا أحد أظلم ممَّنْ كَذَبَ على الله تعالى وتقوَّل عليه. أولئك البُعداء عن الحقِّ يُعْرَضون على ربهم عَرْضَ افتضاح، في موقف مهيب ومشهدٍ من مشاهد الخزي والعار، ويشهد الأشهاد من الملائكة والنبيين وسائر الصالحين عليهم بالكذب، فيُبْهَتون ويُفْضَحون، ويُجَلَّلون بالخِزْي والإبعاد، تُلاحِقُهم اللَّعَنات أينما حَلُّوا، لأنَّهم ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم بكذبهم وافترائهم.

١٩ - الذين يَصْرِفُون الناس عن سبيل الله مع وضوحه واستقامته يسعون دائبين إلى طمس معالمه، وتغيير مساره؛ لينحرف عن استقامته، ولتصبح الأمور معوجَّة، تُوافق أهواءهم، مع ما هم عليه من كفرٍ باليوم الآخر.

٢٠ - هؤلاء البعداء ما كانوا في دنياهم بعيدين عن قدرة الله تعالى وسلطانه، وما كان لهم من دون الله مَنْ ينصرهم ويدافع عنهم، لكنَّ الله أمهلهم، وأخَّر عذابهم؛ استدراجاً لهم. وهاهم أولئك في آخرتهم التي ضيَّعوها يُصَبُّ عليهم العذابُ أضعافاً؛ لضلالهم وإضلالهم، ما كانوا في دنياهم يسمعون لداعي الحق؛ لنفورهم منه وكراهيتهم له، وما كانوا يبصرون الآيات المبثوثة من حولهم نظر تفكُّرٍ واعتبار، بل كانوا في عَمَىً وضلالة.

٢١ - هؤلاء المحرومون المُبْعَدُون قد خسروا أنفسهم في الآخرة، إذ أوردوها موارد التهلكة، وضَيَّعوا هذا النعيم المقيم بجحودهم وإنكارهم، وظهر لهم ضلال ما كانوا عليه في الدنيا من افتراء الأنداد، فبَدَتْ لهم وَهْماً وسَراباً، وفَقَدُوا الوليَّ والنصير.

٢٢- حقاً إنَّهم لا محالة في هذا اليوم العظيم من الخاسرين أعظمَ خسران، المغبونين أشدَّ الغبن؛ لأنَّهم باعوا بالباقي النفيس الفانيَ الخسيسَ، وخسروا النعيم المقيم.

٢٣- إنَّ الذين صدَّقوا بالله ورسله وكلماته، وعملوا الأعمال الصالحة النافعة، وأنابوا لربهم واطمأنوا إليه، وأخلصوا له. أولئك الذين تسامَتْ منازلهم هم أصحاب الجنات، لا يَتَحَوَّلون عنها ولا يَرْحَلُون، ولا يموتون ولا يهرمون.

٢٤- ضَرَبَ الله تعالى المثل في هذه الآية الكريمة للكافر بالأعمى والأصَمِّ، فلا يبصر الآيات، ولا يُصْغِي لسماعها، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير، يستمع لآيات الله بآذان صاغية، ويبصر آياته بعيون متفتِّحة، وبَيَّن أنَّهما لا يستويان، فهل من مُتَّعِظٍ يَعتبر بهذا المثل، ويستحضره؟

الفوائد والاستنباطات:

١- الآيات الجليَّةُ والحجج الساطعة تمحو ظلام الشكِّ والباطل.

٢- أشدُّ الظُّلم وأقبحه الافتراء على الله تعالى، ومصير الكاذبين الافتضاح على رؤوس الخلائق، واللعنات تُحاصِرُهم في موقف العَرْضِ.

٣- تأكيد خُسران الكفار لأنفسهم ولآخرتهم تحذيراً لهم، وتنفيراً من طريقهم.

٤- الإيمان والعمل الصالح مع الإخبات طريقُ الفوز بالجنات.

٥- من أساليب القرآن ضرب الأمثال لإقامة الحجة ، وتقرير المعاني، وتقريبها للأذهان.

٦- التعبير بالفعل المضارع ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾؛ لاستحضار تلك الصورة ماثلةً كالعِيان، واستهجانها، بينما عبَّر بالاسمية في ﴿ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾؛ لبيان ثباتهم على الكفر، فلا يحيدون عنه.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا
نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ
كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ
أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ
ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٥ - حقّاً لقد أرسلنا نبينا نوحاً إلى قومه، فعرَّفهم بالرسالة التي شرَّفه الله بها، وكَلَّفه بتبليغها. إنّي لكم نذيرٌ ببلاغٍ واضحٍ بيِّنٍ، أبيِّنُ لكم طريق النجاة، وسبيل الخلاص.

٢٦ - ألّا تعبدوا إلا الله وحده، إني أُشفِقُ عليكم، وأُحَذِّركم من عذاب يوم موجع، وهو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة الذي يحيق بالمكذبين.

٢٧ - فكان جواب أعيان الكفار من قومه: ما نراك إلا بشراً مثلنا لا مزية لك ولا خصوصية، فاعترضوا على بشريته، ووهموا أنَّ مقام الرسالة لا يبلغه إنسيٌّ، كما اعترضوا على حال مَنْ آمن به، فنظروا إليهم بعين الازدراء والتحقير، استهانةً بهم، وتعالياً عليه وعلى أتباعه، واستخفافاً بدعوته، فقالوا: وما نراك انقاد لك إلا الضعفاء والفقراء ومَنْ لا يُؤْبَهُ به من السَّفَلَةِ - في نظرِهم - اتَّبعوك بسذاجة منهم، ودون تفكيرٍ وتَعَقُّل، فيما يظهر لنا! وما نرى عليكم من فضلٍ في رزقٍ ولا جاه حتى تنالوا الهُدى دوننا، بل نراكم كاذبين فيما تَدَّعُونه.

٢٨ - فناداهم نوحٌ مُتَرَفِّقاً: يا قومِ! هَلَّا نَظَرْتُم إن كنتُ على نور وبصيرة وهدى من ربي، وخَصَّني برحمة من عنده، فاصطفاني وأعطاني، فخَفِيتْ عليكم تلك البيِّنة، أو التبسَتْ عليكم، فلم تُبْصِروها، ولم تعرفوها أو تُمَيِّزوها. أنُلْزِمُكم ونُجْبِرُكم على هذه الطريق، وأنتم كارهون لها، ناكبون عنها، ونافرون منها!

٢٩ - ويا قوم لا أسألكم بهذه الدعوة مالاً، فما أجري إلا على الله الذي أرسلني، وما أنا بطارد المؤمنين، بل أحتفي بهم وأُدنيهم، فإنَّهم مُلاقُو ربهم؛ ليجازيَهم بأعمالهم، لا بحَسَبهم ونَسَبهم، وليثيبَهم على إيمانهم ويرفع درجاتهم، ولكني أراكم قوماً تُصِرُّون على جهلكم.

٣٠- ويا قوم مَنْ يجيرني من الله، ويدفع عني سخطه، إن طردت أولياءه وأقْصَيْتُهم. أفلا تتبصَّرون بحالكم ومآلكم وتتعظون؟ وفي هذا تلميحٌ بمكانة مَنْ آمن به عند ربهم، وتعريضٌ بازدراء الكفار لهم.

٣١ - ولا أقول لكم: عندي خزائن الله، فخزائنه تعالى لا سلطان لأحد عليها، ولا تُفتح إلا لِـمَنْ أراد جلَّ وعلا، ولا أدَّعي الكِهانة والتَّنْجيم، ولا أقول: إني مَلَك، ولا أقول للذين تنظرون لهم بعين الاحتقار: لن يمنحهم الله خيراً، وهو تعالى أعلم بما يَسْتكِنُّ في نفوسهم من إيمان. فإن فعلتُ شيئاً من ذلك تجاوَزْتُ أمر ربي.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إيراد القصة بعد ضرب المثل، وبعد أن سيقت الأدلة والحجج، وتَقَدُّم الوعد والوعيد، من كمال المَحَجَّة وتمامها.

٢- حكمة نوح ﷺ في دعوة قومه، وصبره عليهم، وتَدَرُّجه معهم في مقابل سوء أدبهم وافترائهم وتَعَنُّتهم، وردَّ عليهم رَدّاً بليغاً، مُعَرِّضاً تارة، ومُصَرِّحاً أخرى.

٣- حرص الأنبياء على نجاة أقوامهم، وإشفاقهم عليهم، وتَرَفُّقهم في دعوتهم.

٤- وفي هذا دلالة على «الخط الفاصل بين الأنبياء وبين الزعماء: الأولون يهتمون بإرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية، دون إغراء بمال أو عطاء نفعي، والآخرون يعتمدون في كسب الأتباع على الوعود بالمنافع المادية، وبَذْل الأموال رخيصةً من أجل كسب تأييدهم». (التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٢/ ٥٨).

٥- النظرة المادية القاصرة من قبل أهل الكفر، وتَعَصُّبهم لباطلهم، وتشبُّثهم برؤيتهم للأمور، دون اعتدادٍ بآراء غيرهم، واتهامهم لأهل الحق بالسذاجة، كما اتهم قوم نوح مَنْ آمن به بقولهم ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾.

٦- دعوة الرسل عليهم السلام واضحة جلية، تُسَلِّم لها العقول السليمة، وتقبلها الفطرة.

٧- القَدْحُ في بشرية الرسل قَدْحٌ في جميع البشر، وفي جميع العلوم المستفادة منهم.

٨- رسالة الأنبياء ودعوتهم لقومهم تجمع بين الوضوح والصِّدق مع الإيجاز واليسر، والثبات على المبادئ.

﴿ قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ
إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا ۚ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٢- ردَّ المشركون بمكابرة وعِناد على نوح عليه السلام قائلين: يا نوحُ قد خاصَمْتَنا، وأطَلْتَ في مُماراتنا، وسَئِمْنا من ذلك، فعَجِّلْ لنا ما تَوَعَّدْتَنا به، إن كنت صادقاً في ذلك.

٣٣- ٣٤- فأجابهم بثقة وثبات: إنَّ الذي يأتي بهذا الوعيد ويسوق العذاب هو الله تعالى، إن شاء عجَّله، وإن شاء أخَّره، فلا مهربَ لكم ولا حيلةَ إن وقع بكم العذابُ، ولا سبيلَ لمدافعته، ولا تُجدي نصيحتي فيكم مع حِرْصي وإشفاقي عليكم، إن كان الله تعالى لا يريد لكم الرشدَ، فهو خالقُكم ومُدَبِّرُ أموركم، وإرادته تعالى وحده هي النافذة، وإليه مرجعُكم ومآبُكم، فيحاسبُكم على أقوالكم وأفعالكم.

٣٥- أيَدَّعون أنَّ نوحاً افترى هذا القول، واختلق هذا الوعيد. قل: إن اختلقتُه من تلقاء نفسي، فحسابي على الله تعالى يعاقبني بجُرْمي، وأنا بريء من جُرْمكم وافتراءاتكم، فلا يتحمَّلُ أحدٌ وِزْرَ غيره.

٣٦- وبُلِّغَ نوح عليه السلام أنه لن يُصَدِّق أحد من قومك غير مَنْ سبق له الإيمان، فلا تحزن، ولا تبتئس بما كانوا دائبين عليه من سخرية وتكذيب وتضييق وإيذاء، فقد حان وقت الانتقام منهم، وهذه بداية نهايتهم.

٣٧- واصنع السفينة برعايتنا وإحاطتنا وحِفْظنا، وتوجيهنا وأَمْرِنا لك أن تصنعها، وتعليمنا إياك كيف تصنعها، ولا تلتمس مني إمهال أولئك الظلمة؛ فإنَّهم مُغْرَقون لا محالة.

٣٨- وشرع عليه السلام في صناعة السفينة بجِدٍّ وهِمَّةٍ، والناس في دهشة واستغراب، يمرون عليه ويسخرون منه، ويُثَبِّطون همَّته ويهزؤون بمهمته، فيتطاولون عليه في غُدُوِّهم ورَواحهم، ويَتَنَدَّرون بصَنْعَتِه، فكان يَرُدُّ عليهم محذِّراً ومُنْذِراً، بأن الأحرى بكم أن تُراجِعُوا أنفسكم قبل أن يَقع ويُحْكَم القضاء، ويحلَّ العذاب.

وإن كانت صناعة سفينة النجاة عجيبة، فإنَّ غفلتكم مع دنوِّ أجلكم أولى بالعجب! فإن كنتم تهزؤون بنا، وتسخرون من فِعْلِنا، فإننا نَسْخَرُ من غفلتكم عن العذاب.

٣٩- فسوف تعلمون عياناً مَنْ يأتيه عذاب يُذِلُّه ويُهينُه ويَفْضَحُه، ويُسْلِمُه لعذاب دائم لا ينقطع، فهدَّدهم بعذاب الدنيا الذي هو مُقَدِّمَةٌ لعذاب الآخرة.

٤٠- حتى إذا حَلَّ القضاء وفار التنُّور - الذي يُخبز فيه - بالماء، علامةً وميقاتاً على ارتفاع الماء لركوب السفينة، وإيذاناً بهلاك قومه في الطوفان، فاحمِلْ فيها من المخلوقات من كل صنفٍ زوجين، وأهلك إلا مَنْ سبق عليه القول منهم فلم يؤمن. وما آمن معه إلا نفرٌ من أهل بيته، وقليلٌ من المؤمنين مع طول إقامته بينهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- رعاية الله لأنبيائه ولُطْفه بهم، وتثبيتهم، وتَسْرِيَته لقلوبهم.

٢- حماية التوازن والتنوع البيئي من واجبات الإنسان.

٣- الأنبياء عليهم السلام هم رُوَّاد الإصلاح، والتحضُّر والرقي.

٤- أول سفينة بحرية كانت بوحي من الله تعالى، صنعها نوح ﷺ.

٥- الداعية لا يأبه بسخرية المكذبين وتهكمهم؛ لأنَّه على ثقة بوعد الله تعالى.

٦- إثارة الكفار غبار الشهوات حول الأنبياء دليل عجزهم عن مقارعة الحجج، ونُكولهم عن التسليم بها.

٧- منطق أهل الكفر: المماراة والتشكيك، والاستخفاف بالوعيد، وسوء الأدب مع الأنبياء.

٨- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وإن كانت في سياق قصة نوح ﷺ إلا أنَّها تتضمَّن رَدّاً على دعاوى الكفار أنَّ القرآن من عند نبينا محمدٍ ﷺ، فإن كان مفترى كما يزعمون فالله يُنكِّل بالمفتري، ويعاقبُه بجُرْم افترائه، والرسول بريء من إجرام الكفار، ولا يؤاخذ به.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ
كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ
سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا
الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ
أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ
بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾

التفسير:

٤١ - وقال نوح لِـمَنْ آمن به بعد وقوع الأمر وحلول الموعد: اركبوا متن السفينة، ركوبَ المتمكّن، بسم الله تعالى في انطلاقها وسيرها، وفي رُسُوِّها وقرارها. إن ربي لَغفور لِـمَنْ آمن به واتبعه، رحيم بأنبيائه وأوليائه.

٤٢ - تَفَجَّرَتْ عيونُ الأرض وينابيعُها، وانهمرَتْ السماءُ، وفُتِّحَتْ أبوابُها بالمطر الغزير، والسفينة يحملها الماء، فتجري بهم وهي تمخر عباب الأمواج المرتفعة المتلاطمة، ونادى نوحٌ ابناً له بقي على كفره نداءَ الأب الشفيق؛ رجاء أن يكون لهذه الأهوال أثرٌ في نفسه؛ فيسعى للنجاة، ويَتَّبع أباه، وكان في مَعْزِلٍ عن الماء الذي انهمر من السماء، وتَفَجَّر من الأرض، فالتقى من كلِّ صوبٍ: يا بُني هَلُمَّ إلينا، واركب معنا؛ لتنجو من الغرق والهلاك، ولاتكن مع الكافرين، فتنال عقابهم، وتخسر آخرتك.

٤٣ - فأجاب معانداً غير مكترثٍ: سآوي إلى جبل شاهق لا يصل الماء إليه، حتى لا يصلني الطوفان. قال أبوه مشفقاً عليه: لا منجى اليوم من قضاء الله تعالى وعقوبته، إلا مَنْ رحمه الله تعالى من المؤمنين، وكان هذا هو النداء الأخير، إذ حالت الأمواج بين نوح وولده، فتعَذَّر خَلاصُه وانقطع صوتُه، وأُغرق مع المُغرقين من الكفار، ولم تشفع له قرابته من نبيٍّ الله.

٤٤- وأمر الله تعالى الأرض أن تبتلع ماءها فيرتدَّ إلى جوفها وأخاديدها، وبحارها وأنهارها، وأمر السماء بأن تكفكف أمطارها، فانخفض الماء، ورَسَتِ السفينة على جبل الجُودي، وقيل: بُعْداً وهلاكاً للقوم الظالمين، فقد أهلكهم الله تعالى، ونَجّى عباده المؤمنين.

٤٥- ودعا نوح ربَّه متضرِّعاً، فقال: ربِّ إن ابني من أهلي، وأنا مؤمنٌ بوَعْدِك، ومُسَلِّمٌ لك، وأنت أحكم الحاكمين في أقدارك وتدبيرك.

٤٦- يا نوح إنَّه ليس من أهلك المؤمنين الذين وَعَدْتُ بنجاتهم، إنَّه عَمِلَ عملاً غيرَ صالح، فاستحقَّ الغرق، فلا ينبغي لك أن تسأل هذا السؤال، إني أتعهَّدك بالوعظ والتذكير؛ لئلَّا تكون من الجاهلين بقضائي وعدلي في خلقي. «وهذا عتابٌ منه لنوح، وتعليمٌ له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي حمله عليه الشفقةُ الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحاملُ له العلمَ والإخلاصَ في طلب رضا الله تعالى». (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ١/ ٣٣٢).

٤٧- قال نوح ﷺ: ربِّ إني أبرأ إليك، وأستجير بك من أن أسألك ما لا علم لي به، وإن لم تغفر لي ما بدر مني بفضلك وترحمني برحمتك الواسعة، أكن من الخاسرين.

٤٨- فنُودي نوح: اهبط من السفينة بسلامٍ منا، وبركاتٍ منا تصاحبك، فقد انتهى الطوفان، وخَلَت الأرض من الفُجَّار، وتفيض عليك هذه البركات، وتظل في المؤمنين من ذريتك، إذ تتكاثر الذرية، فتصير أُمماً، أمَّا مَنِ اختار الكفر فإنَّه يُمَتَّع في الدنيا إلى انتهاء الآجال، ثم ينال عذابه الموجع.

٤٩- تلك القصص التي نَقُصُّها عليك - أيُّها الرسول - من الأخبار التي لا سبيل لمعرفتها على هذا التفصيل والبيان إلا عن طريق وَحْينا، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل أن نُعْلِمَك بها، فاصبر على المكاره والشدائد، فإنَّ سُنَّةَ الله تعالى ماضية بأنَّ العاقبة لِـمَنْ تَحَلَّى بالتقوى، ولازَمَها.

الفوائد والاستنباطات:

١- هذا القرآن حُجَّةٌ وبرهانٌ على صدق النبي ﷺ في دعوته.

٢- عدل الله تعالى في قضائه وفَصْلِه بين خَلْقِه، فلا محاباة ولا مجاملة ولا استثناء؛ فالكافر لا تنفعه قرابتُه من أهل الإيمان، والمؤمنُ لا تَضُرُّه قَرابتُه من أهل الكفر.

٣- قدرة الله تعالى وتصريفُه لهذا الكون وإرادته النافذة، وعظمة سلطانه، وهيمنته على مخلوقاته.

٤- لطف الله بعباده المؤمنين، وشدة بأسه، وتنكيله بالكافرين.

٥- عُدِّيَ اركبوا بـ(في): لتضمينه معنى صِيروا فيها، أو معنى: ادخُلوا فيها، أو للتمكُّن منها، وللإشارة إلى كِبَرِ حجمها.

٦- أدب الأنبياء مع ربهم، ومعرفتهم بمقامه جلَّ وعلا.

٧- دعوة الأبناء إلى الاستجابة لوصايا الآباء الصالحين ونصائحهم.

٨- في القصة تسلية للآباء الذين ابتلاهم الله بأولادٍ غيرِ صالحين، فقد يُبتلى الصالح بالطالح.

٩- من أدب الدعاء أن يكون بما يوافق الشرع، وتجري به السنن.

١٠- في الآية (٤٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ هناك أُمماً وجماعات من أهل الشقاء، سيُمَتِّعهم الله في الحياة الدنيا إلى أن يبلغوا آجالهم.

١١- النظر في قصص الأنبياء، وفي سنن الله الماضية، يزيد المؤمن صبراً وثباتاً.

١٢- ينظر: صورة جبل الجُودي، كما في الملحق.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ
وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٥٠- وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأنكر عليهم افتراءهم الذي صار عادة لهم، وصارحهم بأصل العلة التي أصابتهم، وهي نَسْجُ الافتراءات، والاستسلام للأباطيل والأوهام.

٥١- يا قومِ لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً، فتُسِيئون الظنَّ بي، ما أَجْري إلا على الذي خلقني، وفطرني على هذه الفطرة السوية، أفلا تُعْمِلون عقولكم؟

٥٢- ويا قوم استغفروا ربكم من الذنوب والخطايا، ثم تُوبوا إليه توبة خالصة، وفق منهجه تعالى الذي شرعه، يرسلِ السماء عليكم بالمطر الغزير المتتابع، ويَزِدْكم عزةً ومَنَعَةً إلى عِزَّتكم ومَنَعَتِكم، وقوة إيمانية وقوة ماديةً إلى جانب قوتكم المادية، ولا تُعْرِضوا عن دعوة الله، وعمَّا أُرَغِّبُكم فيه، وتنصرفوا، مُصِرِّين على الإجرام في حَقِّ أنفسكم وحَقِّ الآخرين.

٥٣- فرَدُّوا عليه: يا هودُ ما جئتنا بآية تدل على صدق رسالتك وصحة دعوتك، حتى نُسَلِّم لها ونُذْعِنَ بقَبولها، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا عن قولك، بل نتركُه ولا نُلْقي له بالاً، ولَسْنا بمُصَدِّقين لك، مُسَلِّمين لدعوتك، بأي حال.

٥٤- ما نقول: إلا أنه قد أصابك، وحاق بك غضبُ آلهتنا بقَدْحِك فيهم، فاتهموه بالجنون والوهم، وهي تهمةٌ تَواطَأ عليها الكفار، ورَشَقُوا بها الأنبياء. فرَدَّ عليهم هودٌ ﵇ بما يَنِمُّ عن حِلْمِه وصبره وثقته بمنهجه: إني أُشهد الله، واشهدوا جميعاً، أني بريء من شرككم، مُنْكِرٌ لآلهتكم التي تزعمون. أجابهم بما يدلُّ على يقينه فيما هو عليه، ومُضِيِّه وعَزْمِه على دعوته.

٥٥- استعينوا بمَنْ شِئتُم من دون الله من آلهتكم المزعومة، وأَجْمِعُوا أمركم على الكيد بي، ولا تتمهَّلوا في ذلك، فتَحَدَّاهم ﵇ هذا التحدِّي العجيب؛ ليكشِفَ عن زيف آلهتهم، وانقطاع رجائهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوة الأنبياء جميعاً إلى إخلاص العبادة لله تعالى، فلا رَبَّ غيرُه.

٢- تَجَرُّد الأنبياء وإخلاصهم، إذ ينتظرون أجْرَهم مِنْ خالقهم.

٣- من ثمرات الاستغفار والتوبة: الزيادة من الخيرات، والبركة في الأقوات، والقوة في الأبدان والأرواح.

٤- في الآية (٥٢) إخبار مستقبليٌّ عن فضل الاستغفار في جَلْب الرِّزق، وزيادة القوة.

٥- وضوح دعوة الأنبياء وبساطتها، فلا تعقيدَ فيها، ولا غموض، ولا خفاء.

٦- لجوء الكفار إلى الافتراءات والأكاذيب والأوهام، دليلٌ على عجزهم.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾
فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٦- حقاً توكَّلْتُ على الله تعالى ربي وربكم، فما من شيء يَدِبُّ على وجه الأرضِ، أو في بواطنها، إلا رَهْنَ تدبير الله تعالى وتسييره. إنَّ ربي على الحق، والعدل ملكه، يحكم بين عباده بالحقِّ، ويهديهم إلى الهدى، ويحفظ مَنْ سلك طريقه المستقيم. موازينُ حُكْمِه عادلة، وهدايته لخلقه بيِّنة، وسننه فيهم جارية، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال الألوسي: «مُطَّلِعٌ على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لِـمَنْ اعتصم به، كمَنْ وقف على الجادَّة فحفظها، ودَفَعَ ضرر السابلة بها». (روح المعاني للألوسي ١٢/ ٨٣).

فكيف يأمن مَنْ نكب عن صراط الله المستقيم، وعَلَّق الآمال على أحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع؟

٥٧- فإن تُعْرِضُوا فقد أدَّيْتُ واجبي في إبلاغكم دعوةَ ربي الذي أحسن بي، ودَبَّر مصالحي، ويستبدلُ بكم قوماً آخرين، ولا تَضُرُّونه شيئاً بكفركم. إنَّ ربي رقيبٌ مهيمنٌ حافظٌ.

٥٨- ولما حَلَّ قضاؤنا نَجَّينا هوداً ومَنْ صدَّق به واتَّبعه، برحمةٍ منا، ونَجَّيناهم من الريح العاتية التي عصفت بالكافرين، فدمَّرتهم.

٥٩- وتلك قبيلة عاد أبعدها الله وأخزاها، عاندوا وكابروا، وجحدوا نِعَمَه، وأنكروا آياته الظاهرة في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته، وكَذَّبوا بهود ﷺ، وقد جاءهم بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، وعَصَوا رُسُلَه بتمرُّدهم وإعراضهم عن نبي الله هود ﷺ، وانقادوا وخضعوا لأمر الجبَّارين الذين جبروهم على الكفر والعناد.

٦٠- ومَضَوا تَتْبَعُهم اللعنات، وتُلاحقهم الويلات، وقَضوا وهم مُبْعَدُون محرومون من رحمة ربهم، مطرودون من جَنابه، وصاروا عبرةً لكل معتبرٍ ومثلاً لكل ظالمٍ، ألا فلينتبه كلُّ لبيب، وليحذَرْ كلُّ حصيف من حال قوم عاد ومآلهم، فقد كفروا ربهم، وجحدوا بربوبيته، ألا سحقاً لهم، كيف رفضوا دعوة نبيهم هود؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - مواجهة هودٍ لقومه، وتحدِّيه لهم مع عَجْزِهم عن إيقاع الأذى به، من أعظم الآيات على صدقه وثقته بربه واطمئنانه لصحة منهجه. قال الزمخشري: «من أعظم الآيات أن يُواجَه بهذا الكلام رجلٌ واحدٌ، أُمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقته بربه، وأنّه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم». (الكشاف ٢/ ٣٨٢).

٢- في قول هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ تعريضٌ بهم أنّهم تحت قهر الله تعالى وقبضته وتصريفه، وأنَّ الآلهة المزعومة لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، وأنَّ الذي حفظه هو الله تعالى. فالله تعالى على الحقِّ والعدلِ ملكُه، موازين حكمِه ثابتة، وسننه تعالى جارية لا تَتَخَلَّفُ ولا تتبدَّل، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

٣- التوكُّل على الله تعالى سِرُّ القوة، وباعث الثبات.

٤ - قوله: ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ جاء الفعل بواو الجماعة؛ لأنَّ مَنْ عصى واحداً منهم فقد عصى الكل؛ إذ رسالتهم واحدة، وآياتهم يُصَدِّق بعضها بعضاً.

٥- قوة الداعية والمصلح في دعوته ورسالته، في مواجهة قوى أهل الكفر والفساد والبدع والأهواء.

٦- في التعبير بالأمر ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مضافاً إلى ضميره جل جلاله، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

٧- لما صاروا أثراً بعد عين، وخبراً بعد أن كانوا ملء البقاع والأسماع، وأمسَوا مجندلين مطمورين تحت التراب، ناسب الإشارة إليهم بـ «تلك» ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾.

٨- ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ تعريض بأنَّ الكافر ليس أهلاً للتمكين في الأرض.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ
هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ
تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

التفسير:

٦١- وأرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم نبي الله صالحاً عليه السلام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فهو المستحقُّ للعبادة؛ لتفرده بالربوبية. ومن كمال ربوبيته وشواهد وحدانيته أنَّه خَلَقكم من أديم الأرض، وألهمكم عمارة الأرض من الحرث والغرس، وهَيَّأ لكم سُبُلَ العيش عليها، تنحتون جبالها، وتستغِلُّون سهولها، وتنعمون بخيراتها، وتستخرجون كنوزها، فاستغفروه على ما بدر منكم، فإنه أمر بالاستغفار، ووعد بقبوله، ثم امضوا على طريق التوبة والاستقامة الذي أرشدكم إليه. إنَّ ربي قريب من عباده المؤمنين، مجيب لِـمَنْ سأله ودعاه ورغب إليه.

٦٢- فردُّوا عليه بسوء أدب، قالوا: يا صالح قد كنت فينا قبل أن تبدرَ منك هذه الدعوة مَرْجُوّاً للخير والفلاح، لِـمَا كُنَّا نراه فيك من مخايل النجابة، وكريمِ الشمائلِ، فما الذي حملك على أن تنهانا عن دين آبائنا وأسلافنا الذي أَلِفناه وأُشْرِبْنا حُبَّه؟ وإننا لفي شك وريبة مما تدعوننا إليه.

٦٣-٦٤- فبَيَّنَ لهم قائلاً: يا قوم أعلمتم وأبصرتم إن كنت على نور وبصيرة نافذةٍ من أمر ربي، ويقينٍ أني على طريق واضح، أجني ثمراته، وأتذوقُ حلاوته، وأستنشقُ نسمات الرحمة الربانية، وأشعرُ بها تَغْمُرُني، فمَنْ يخلِّصني من ربِّي ويُجيرُني من عقابِه إن عصيتُه بعد أن تجلَّتْ لي الآيات، وغَشِيَتْني الرَّحمات، ولاحت لي البُشْريات، فما تزيدونني إن سِرْت طوعَ هواكم إلا خسارة تلو خسارة. ويا قوم هذه ناقة الله لكم دليلاً واضحاً على صدق نبوتي، وعظمة مَنْ أرسلني، وقدرته العجيبة، فاتركوها ترعى الكلأ في أرض الله الواسعة، ولا تَتَعَرَّضوا لها بسوء؛ فيأخذكم عذاب قريب عاجل.

٦٥- ولكنهم كَذَّبوا نبيهم، فبادروا إلى عقر الناقة، ولم يَلْقوا بالاً لتحذيره، ولم يتبصَّروا بها على صدق نبوَّته، بل ازدادوا كفراً وتمرُّداً، فنحروها عصياناً وتحدِّياً. فقال لهم صالحٌ: امكثوا في بيوتكم ثلاثة أيام هي آخر أيامكم في الدنيا، وآخر عهدكم بمتاعها الزائل. ذلك وعدٌ صادقٌ من الله، لا سبيل لكم إلى تكذيبه ولا مَنْعِه.

٦٦- فلما انقضت المهلة نَجّى الله ﷺ بلُطْفِه ورحمته نبيَّه صالحاً ومَنْ آمن به، من خزي هذا اليوم العصيب. إن ربَّك يا محمد هو القويُّ في أَخْذِه، تَخُورُ كلُّ القوى، وتتهاوى العروش أمام قوته، العزيز الذي لا يُغالَبُ، يُعِزُّ أولياءه ويَنْصُرُهم، ويُذِلُّ أعداءه، فلا يمتنع عليه شيء.

٦٧- وأخذت الصيحةُ المدوِّيةُ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرَهم بكفرهم وتمرُّدهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين على رُكَبهم، قد خارت قواهم وانهدَّ بنيانُهم، وخضعت رقابُهم.

٦٨- كأنهم لم يقيموا فيها بنعمة وعافية، بل صاروا أثراً بعد عين، وطمست معالم تلك المدائن التي كانت عامرة، فلم يبق منها إلا الأطلال الموحشة والديار المقفرة؛ لتكونَ عِبْرَةً ناطقة للبشرية، وتحذيراً من جحودهم نِعَمَ ربهم. ألا سحقاً لهم في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- اتفاق دعوة الأنبياء جميعاً في التوحيد.

٢- خلق الله تعالى الإنسان من عناصر الأرض، وجعله سيِّداً عليها.

٣- غَرْسُ الأنبياء بذور المحبة والرجاء في القلوب، وبث الأمل في النفوس.

٤- الاستغفار والتوبة غسيلٌ من الذنوب، ووسيلةُ ودادٍ إلى ربِّنا الجليل. الاستغفار براءة من الذنوب واغتسال منها، والتوبة ندم ومُضِيٌّ على طريق الهدى والصلاح، لذا تعدَّت بـ (إلى)، أي: امضُوا إلى طريقه وسيروا إلى رضاه؛ فغاية التوبة وطريقها يفضي إلى الله، وموكب التائبين يمضي إلى الله، وطريق التوبة يحتاج إلى تَأَنٍّ وتمهُّلٍ، وتبصُّرٍ وإرشاد وهداية ربانية، ومن ثَمَّ جاء التعبير بـ (ثُمَّ)..

٥- كراهية أهل الباطل للحق، وإن جاء به الأبرارُ المخلصون المعروفون عندهم بالصدق والإحسان.

٦- عادةُ أهل الضلال في التشكيك، وإثارة غبار الشُّبَه حول الحقِّ؛ ليصرفوا الناسَ عن دُعاته.

٧- دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التبصُّر والنظر.

٨- بَيَّنَ صالحٌ عليه السلام طريقَه، ورَغَّب فيه ببيان ثمرته العظيمة، وهي الرحمة الربانية التي غمرته.

٩- أضيفت الناقة إلى الله تعالى؛ لكونها آية عجيبة، جاءت على خلاف ما يعهدونه، ولبيان حرمة الاعتداء عليها.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ
وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ
أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ
مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

التفسير:

٦٩- قسماً لقد جاءت رُسُلُنا من الملائكة نبينا إبراهيم بالبشارة، فسَلَّموا عليه، فردَّ عليهم، وأكرمهم، فبادر بإعداد الطعام وتقديمه لهم بخفَّة وهمَّة، واستغرق ذلك وقت يسير، رغم أنَّ الطعام الذي أعدَّه وقدَّمه هو عِجْلٌ سمينٌ مشويٌّ.

٧٠- دعاهم ﷺ إلى الطعام، فلم يَمُدُّوا له يداً، فأَحَسَّ في نفسه خوفاً منهم؛ إذ الضيفُ لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيئ، ولم يكن يعلم أنّهم ملائكة، فلما رأوا منه ذلك بادروا إلى تهدئة روعه وطمأنة قلبه، فأظهروا حقيقتهم، وكشفوا عن مهمتهم التي من أجلها جاؤوا، وهي إهلاك قوم لوط، وقَطْعُ دابِرهم بعد أن تمادَوا في الكفر والطغيان.

٧١- وكانت زوجته سارة قائمة على خدمتهم من وراء الستر، فضحكت فرحاً واستبشاراً، حين سمعت الملائكة الكرام يخبرون إبراهيم ﷺ بأمر نجاة لوط ﷺ ومَنْ آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته، وفي غمرةِ هذه المشاعرِ الإيمانيةِ بَشَّرَتْها الملائكة بالذرية الصالحة، إسحاق، ومِنْ صلبه يعقوب.

٧٢- لكنها تَعَجَّبَتْ، وأشفقت على نفسها: كيف تحمل وتَضَعُ وهي في هذه السن! فقالت: يا ويلتا - وهي كلمة تجري على ألسنة النساء إذا طرأ عليهن ما يَعْجَبْنَ منه، ويُشْفِقْنَ - أألد وأنا عجوز، وهذا زوجي شيخاً! إن هذا أمرٌ بالغ في العَجَب.

٧٣- فأجابت الملائكة سارة: أتعجبين من هذا الأمرِ الخارقِ وأنتِ في بيت النبوة، ومهبط الوحي، وموئل الرَّحمات؟ فخوارق العادات لِـمَنْ أَلِفَها ودرج عليها ليست بمستغربة. فتلك البشارة منتظمة في سلك الرحمة الربانية لكم يا أهل البيت. وليس ذلك على الله تعالى ببعيد، فإنه صاحب المجد. ومن آثاره

رِفْعَتُه لأنبيائه وأوليائه، وإنعامه عليهم بما يرفع ذكرهم، وينشر مناقبهم، ويرفع مقاماتهم، ويحمَد لهم صبرهم، وحسن بلائهم، فيتبع ذلك بالمدح والثناء، ويجزل لهم المثوبة والعطاء، ويحقق لهم المجد والسناء.

٧٤- فلما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من خوف ومهابة ومفاجأة، واطمأن قلبه بهذه البشارة العظيمة التي انشرح لها صدرُه، وهَشَّ فؤادُه، طلب إمهالَ قوم لوط لعلهم يتوبون.

٧٥- يؤكد الله تعالى ما عليه نبيُّه إبراهيم من حِلْمٍ ورِقَّةٍ، وما اتَّسم به من تضرُّعٍ لله ﷻ وإنابةٍ إليه تعالى وشعور بالتقصير، فالله تعالى يعلم ما ينطوي عليه قلب إبراهيم ﷺ من رأفة ورحمة.

٧٦- يا إبراهيم دَعْكَ من هذا، فإن أمر الله نافذٌ وعذابُه حالٌ لا رجعة فيه، جزاء كفرهم وانحرافهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إكرام إبراهيم ﷺ لضيفه، وحفاوته بهم، إذ حيَّاهم بأحسنَ من تحيتهم؛ لأنها جاءت بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، كما قَدَّم لهم أفضل ما عنده.

٢- دلَّ قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ على أنَّ زوجة النبي من أهل بيته. وفي هذا رَدٌّ على الرافضة الذين زعموا أنَّ أمهات المؤمنين لسن من أهل البيت.

٣- فرح سارة بأمر نجاة لوط ﷺ ومَنْ آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته، يدلُّ على قوة إيمانها ومحبَّتها وولائها للإيمان وأهله، وبغضِها وبراءتها من الكفر وأهله.

٤- في قصة سارة درسٌ مُهِمٌّ للمرأة المسلمة، أن تكون وثيقة الصلة بالدعوة إلى الله تعالى، وأن تهتمَّ بأمور المسلمين، وتستشعر أحوالهم، لا يشغلها بيتها عن متابعة أحوال المسلمين، ومعايشة همومهم.

٥- أدبُ الزوجة حين تتحدث عن زوجها، وتصفه أو تناديه، كما في قول سارة ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ ولم تقل: وهذا إبراهيمُ ضعيفاً أو هَرِماً، فكلمة الشيخ تحمل معنى الوقار والهيبة.

٦- التربية الإيمانية لا تُخرج المرأة عن طبيعتها وفطرتها، ولكنها تُهَذِّبها وتَرْقَى بمشاعرها، وتحفظ عليها أنوثتها، فهي تربية فطرية راقية وهادفة.

٧- أثر النساء في حياة الأنبياء. وهذه القصة صورة مشرقة للمرأة المؤمنة التي تفيض مشاعرها حُبّاً يغمر أهل الإيمان، وكراهيةً لأهل الفسوق والعصيان.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٧- لما انصرفت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام وذهبوا إلى قرية سدوم في صورة بشرية، لَقِيَهم لوطٌ عليه السلام، واستضافهم مع خوفه عليهم من قومه أن يَتعرَّضوا لهم بسوء، فكان في حرجٍ شديدٍ.

٧٨- لما سمع قوم لوط بوجود ضيف في بيته جاؤوا مسرعين، يَحُثُّ بعضهم بعضاً، ويتدافعون صوب بيته، فكان هجومهم على بيته مع رصيدهم السابق في الذنوب والعصيان بمنزلة القاصمة لهم، وأدرك عليه السلام الغرض الخبيث الذي جاء من أجله القوم، ورأى أنَّهم عازمون على هذا الأمر، فعَرَضَ عليهم البنات الأبكار؛ ليوقِظَ فيهم داعي الفطرة، كي يتزوَّجوا بهنَّ حلالاً طيباً، ويهجروا عادتهم القبيحة المنكرة.

٧٩- ولكنهم أبوا وآثَروا الفاحشة المنكَرة على الفطرة، وقالوا للوط: لقد عَلِمْتَ أننا لا نريدُ الزواج من البنات، وأنت تعلم بُغيَتَنا.

٨٠- حار نبيُّ الله لوط عليه السلام في هذا الموقف، كيف يحمي ضيفه؟ فقال لهم مُبْدِياً أسفه واعتذاره: لو أنَّ لي بكم قوة فنتغلب عليهم، وأخلِّصكم من أذاهم، أو ألجأ إلى ركنٍ شديد فينتصر لنا! وفي هذه اللحظة العصيبة كشفت الملائكة مُهِمَّتها، فبشَّروه عليه السلام وطمأنوه، وأمروه أن يغادر آخرَ الليل، ومعه زوجه وبناته، على ألا يلتفت أحدٌ منهم صوب القرية، فيصاب بشيء من العذاب، وخرج لوط عليه السلام في جُنْحِ الظلام مع أهل بيته، وسار الجميع في الطريق الذي أمروا بالسير فيه، ولم يَتَلَفَّتْ منهم أحد إلا امرأة لوط التي التفتت نحو القرية، فأصابها ما أصاب قومها من العذاب الذي صبَّحهم.

٨١- ٨٣- فلمَّا حلَّ بهم قَدَرُنا، وفاجَأتهم نِقمتُنا، قَلَبْنا قريتهم رأساً على عقب فكان أعلاها أسفلها، ورجمناهم بحجارة متتابعة، أُعِدَّت لعذابهم من نار، فهي مصَوَّبةٌ ومُعَلَّمةٌ. وما تلك العقوبة من كل مَنْ تجاوز الحدَّ، وانتهك الحقوق ببعيد.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجزاء من جنس العمل: لما وقعوا في معاصٍ شتى عوقبوا بعقوبات شتى: عاقبهم الله بطمس أبصارهم التي عمت عن نور الحق، وتلذذت بالحرام، وأخذتهم الصيحة تُدَوِّي في آذانهم التي صُمَّتْ عن الحق، وقُلِبَت قراهم، فصَيَّر عاليها سافلها؛ إذ انقلبت موازينهم، واختلطت مفاهيمهم، فاقترفوا تلك الفاحشة، وهي إتيانهم الرجال من دون النساء، وعَدُّوها حقًّا لهم، وحَرَّموا الحلال الطيب على أنفسهم. وفي هذا انقلاب في ميزان الفطرة، وعَدُّوا الطهر والعفاف إثماً وجرماً، يستحق صاحبه الرجم والطرد، فجمع الله لهم بين ألوانٍ شتَّى من العذاب، لم تجتمع لغيرهم.

٢- إكرام الضيف ورعاية حقوقهم، والترحيب بهم وحمايتهم، من شمائل الأنبياء.

٣- في قول لوط عليه السلام لضيفه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى أهمية القوة في نصرة الحق ونشر الدعوة ومواجهة أهل الباطل؛ ولذا شرع الإسلام الجهاد، وأمر بإعداد القوة.

٤- الكافر يعاقب على كفره، ولا تنفعه قَرابَتُه من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة.

٥- اللِّواط من أكبر الفواحش، وهو طريق لأخطر الأمراض الفتاكة، كالزهري والسيلان والهربس، ومرض الإيدز الذي لم يُعرف له علاج.

(يراجع: كتاب داء الإيدز والأمراض التناسلية، تأليف: الفاضل العبيد عمر، ط دار النفائس سنة ١٩٩٣م).

٦- في جَعْل عاليها سافلها عقوبةٌ؛ ليُطْمَروا في التراب. وقد ربط العلماء بين هذه الآية وضرورة دفن المصابين بالإيدز بعد موتهم، ويُوصى بحرق الجثة ودَفْنِها في التراب على أعماق بعيدة؛ لأنَّ مرض الإيدز ينتقل عن طريق دم المريض ولُعابه ومَنِيِّه.

٧- الحلال هو الطَّيِّب الذي يتلاءم مع الفطرة، وأبوابه كثيرة وواسعة وميسورة، بينما الحرام خُبْثٌ يجافي الفطرة، وينافي الذَّوق، وتعافُه النفوسُ السويَّةُ.

٨- الزواجُ حصنٌ للشباب، وعصمة وعلاج من الانحراف.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ
أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ
أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير:

٨٤- وكما أرسلنا نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً عليهم السلام، أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً، فقال لهم مُتَرَفِّقاً: يا قوم اعبدوا الله وحده، ولا تُنقصوا في الكيل أو الوزن؛ فتَسْتَحِلُّوا ما ليس لكم، إني أراكم في عافيةٍ ورغد من العيش يُغنيكم عن هذا، وإني أخاف عليكم عذاباً يَعُمُّكم، ويستأصلكم.

٨٥- ويا قوم أوفوا المكيل والموزون بالعدل الذي شرعه ربُّكم، بتحرِّي الطيِّب الجيِّد، وتجنُّب الرديء ونحو ذلك، ولا تبخسوا الناس أشياءهم؛ بأن تهضموا حقوقهم، أو تغبنوهم، أو تُخسِروهم، أو تعيبوا السلعة؛ لتتواطَؤُوا على كسادها، أو لتبتاعوها بأرخص الأثمان، أو بأن تعطوهم أنقص من حقِّهم، أو تأخذوا منهم أكثر من حقِّكم. ولا تَسْعَوا إلى نشر الفساد في الأرض بالكفر، وهضم الحقوق، وقطع الطريق.

٨٦- ما أبقاه الله لكم من الرزق الحلال الطيب خيرٌ لكم وأعظم بركة، وأرجى نفعاً من الحرام الذي تحتالون له، فاستعينوا به على طاعته واقنعوا به، وأدُّوا حَقَّ شكره، ولا تطمعوا فيما ليس لكم، إن كنتم مصدقين بالله، فالإيمان بالله تعالى يدعو إلى التعفف عن الحرام، وتَحَرِّي الحلال، وما أنا برقيب عليكم، ولا بمانع لكم عن تعاطي الحرام، بل كلُّ إنسانٍ رقيبٌ على نفسه، محاسِبٌ لها.

٨٧- فردُّوا عليه منكرين هازئين: يا شعيبُ أصَلاتك التي تقيمها، وتحافظ عليها، تأمرك أن نترك دين آبائنا، أو تَمْنَعُنا أن نتصرَّف في أموالنا كما نشاء؟ وما عَهِدْناك إلا عاقلاً حكيماً، فكيف تأتي بما يُسَفِّه آلهتنا، ويُقيِّد تعاملاتنا! وهم بذلك يُشَكِّكون في دعوته، ويَتَهَكَّمون به، وينفون عنه ما اتصف به من الحلم والرشاد. وهكذا العاقل في نظرهم: هو الذي يُجاري الجهلاء، وينافس طلاب الدنيا، ويَتَصَرَّف في أمواله كما يروقه دون ضابطٍ.

٨٨- فأجابهم برفق: يا قوم هَلَّا أمعنتم النظر، إن كنت على نور وبصيرة، ويقين وهدى من خالقي ورازقي، الذي تَعَهَّدني باللطف والإحسان، ورزقني منه رزقاً حسناً حلالاً طيباً مباركاً، وما أريد أن أمنعكم من شيء، وآتيه فتَشُكُّوا في قصدي، وتُسِيئوا الظنَّ بي. ما أريد من دعوتي لكم إلا الإصلاح الذي يعود بالخير على الجميع، ويُقيمُ الموازين العادلة، ويحفظُ للناس حقوقهم، وما توفيقي في حاضري ومستقبل أمري إلا بالله تعالى وحده، عليه توكلتُ، وإليه المرجعُ في المعاش والمعاد.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوة الأنبياء عليهم السلام دعوة هداية وإصلاح، وارتقاء بالقيم وتهذيب للأخلاق، وتقويم للسلوك، ومعالجة للانحراف.

٢- إرادة الإصلاح وحدَها لا تكفي، فالتوفيق من الله تعالى وحده، لِـمَنْ توكَّل عليه، ورجع إليه في جميع أموره.

٣- الترفُّق واللطف، والصبر والأناة، وإظهار الشفقة والحرص على الخير، قاسمٌ مشتركٌ في دعوة نوح وسائر الأنبياء عليهم السلام.

٤- نَقْصُ المكاييل والموازين وبَخْسُ الناسِ أشياءَهم، من المفاسد الموبقة للمجتمعات.

٥- المعصية الواقعة لِـمَنْ عُدِمَ منه الداعي والحاجة إليها أعظم، فالسرقة مِمَّنْ ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦- الحثُّ على الرضا والقناعة بما أعطى الله، والاستغناء بحلاله عن حرامه.

٧- الرجل الرشيد هو المسدَّد في أقواله وأفعاله وأحكامه، الذي يقف مع أهل الحقِّ وينتصر لهم، ولا يبالي بأهل الباطل مهما بَلَغَتْ قوتهم.

٨- استنهاض الهِمَمِ، ومخاطبة الشهامة والرجولة والرشاد في قلوب الرجال عند الشدائد والأهوال.

٩- الصلاة سببٌ لفِعْلِ الخيرات، وتَرْكِ المنكرات، وزادٌ للدعاة، وشَحْذٌ لِهمَّتهم في الدعوة؛ لذا شرعها الله في اليوم والليلة، وجَعَلَها زاد المؤمن، وحصنه الذي يلوذ به، وجَنَّته التي يفيء إليها، وشعاره الذي يتميَّزُ به.

١٠- الحرية لا تعني العبث والإباحية، ولا تعني انتهاك الحرمات، والتعدي على حقوق الآخرين، بل لابُدَّ من حرية منضبطة بشريعة الله التي تحفظ للناس حقوقهم.

١١- الناصح للناس لابُدَّ أن يكون قدوةً لهم، فالكلام وحده لا يكفي من دون أن يترجَم إلى أفعال، والصلاح أساس الإصلاح.

١٢ - النظرة المادية للكون والحياة والناس نظرة قاصرة، ومقياس مختلٌّ، ومعيارٌ مائلٌ لا يبصرُ حقائق الأشياء، ولا يقيمُ للأخلاق والقيم وزناً، ولا يعرف للفضائل والشمائل معنى.

١٣ - انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم لدى تلك الأُمم الكافرة، حتى صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

١٤ - القناعة والرضا بما رزق الله من أسباب البركة والسعادة.

١٥ - الجزاء من جنس العمل، فمَنْ بَخَسَ أموال الناس، يريد زيادة ماله، عُوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: فلا تَتَسَبَّبوا في زَوالِه بفعلكم.

١٦ - ينظر: صورة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ
وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾
قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي
بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ
عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن
لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

التفسير:

٨٩- لما لم تتفتح قلوبهم لدعوته وتَمْتَثِلْ لنصحه، ذَكَّرهم بمصير مَنْ مضى قبلهم على طريق الكفر والضلال، فناداهم نداء المشفق المنذر: ويا قومي احذروا جريمة مخالفتي، ومَغَبَّة معاداتي، أن تَؤُول بكم إلى مصير الأُمم الهالكة، فينزل بكم العذاب والنَّكال، كما حَدَثَ لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح. وما قوم لوط عنكم ببعيد زماناً ولا مكاناً ولا حالاً.

٩٠ - وبادِرُوا باستغفار الله تعالى قبل فوات الأوان وانصرام الزمان، ثم استقيموا على طريق التوبة الذي دعوتكم إليه. إنَّ ربي الذي يَتَوَلَّاني ويتعهَّدني رحيم بمَنْ رجع وأناب، يَتَوَدَّدُ لعباده بما يُقَرِّبهم ويُرَغِّبهم، ويحبُّ المؤمنين ويحبُّونه.

٩١- فرَدُّوا عليه متضجِّرين نافرين: يا شعيبُ ما نفهم، ولا ندرك حقيقة ما تقوله. فجعلوا كلامه الواضح وحجَّته البيِّنة أمراً مُعْضِلاً غامضاً، تعجزُ عقولُهم عن فهمِه، وإنَّا لَنراك فينا ضعيفاً، فلا نبالي بمخالفتك، ولا نعبأُ بما دعوت إليه، ولولا وجودُ عشيرتِك لَرَجْمناك بالحجارةِ، ولا مكان لك في قلوبنا، ولا منعة تحول بيننا وبين الفتك بك.

٩٢- فأجابهم معاتباً ومُرَهِّباً: يا قوم أحُرْمَةُ عشيرتي ومودتهم أعزُّ وأكرمُ عليكم من رعاية حقِّ الله واجتناب محارمه وإكرام أنبيائه، وقد أعرضتم عن الله وأدبرتم عنه! ولم تُلْقُوا بالاً لأمره ونهيه. إنَّ ربي الذي تَعَهَّدني بكرمه، وأحاطني بإنعامه، محيط بكم وبكيدكم وبأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

٩٣- ويا قوم امضُوا على ما أنتم عليه من الأعمال التي تنسجم مع أهوائكم، مع تَمَكُّنِكم في الدنيا وتنعُّمكم بها، إني ماضٍ على ما أنا عليه من العمل. سوف تعلمون في نهاية الأمر مَنْ يأتيه عذابٌ يُذِلُّه ويُهِينُه في دنياه، ويُسَلِّمُه لعذابٍ دائمٍ في الآخرة، وانتظِرُوا وتأهَّبوا، إني معكم منتظرٌ، ومتأهِّبٌ لقضاء الله وحُكْمِهِ.

٩٤- ولما حَلَّ قضاؤنا، نجَّينا بقوتنا وبأسنا شعيباً والذين آمنوا به، واتبعوه برحمتنا ولطفنا، وأهلكنا الذين ظلموا أنفسهم، بالصيحة المدوية، فأصبحوا لم يبرحوا بيوتهم؛ إذ فاجأهم العذاب وهم في غفلة عنه، فهلكوا بالصيحة وهم جاثمون على رُكَبِهم، هامدون من هول ما أصابهم.

٩٥- كأن لم يكونوا بالأمس ملء الأسماع والبقاعِ. ألا بُعْداً لهم وسحقاً، كما بَعُدَتْ ثمود، فالموقفُ واحدٌ، والمصيرُ واحدٌ، موقفٌ على حافَّةِ الإثم، وشفيرِ الضلال، وسقوطٌ في هاوية الشقاء والعذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- «الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق، ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضدِّ ذلك، وألَّا يُحبطه أذى الخلق، ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخُلُق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فانظر إلى شعيب ﵇، وحسن خلقه مع قومه، ودعوته لهم بكل طريق وهم يُسْمِعُونه الأقوال السيئة، ويُقابلونه المقابلة الفعلية، وهو يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم كلام مَنْ لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان، ويهون هذا الأمر... أنه يعالج أُمماً قد طُبِعُوا على أخلاقٍ، إزالتُها وقلعُها أصعبُ من قلع الجبال الرواسي...». (انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ١/ ٣٩٢).

٢- لجوء الكفرة دائماً إلى التهديد والوعيد حين تُعْييهم الحُجَجُ، وتبهتهم الآيات، ويجدون في دعوة الأنبياء خطراً على مصالحهم وأهوائهم.

٣- حقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

٤- مَنْ قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن مَلُوماً، ولا مذموماً في عدم فِعْلِ ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه، وفي غيره ما يقدر عليه.

٥- لا ينبغي للعبد أن يَتَّكِلَ على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لِـمُسْديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

٦- حالُ أهل المكابرة واللَّجاج، حين تُعْييهم الحُجج، وتبهَتُهم الأجوبة يتوعَّدون، ويهددون.

٧- الترهيب بأخذات الأُمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

٨- استحباب ذِكْرِ ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب، والحث على التقوى.

٩- التماس أسباب النصرة، وجواز الاستعانة بغير المسلم؛ لنصرة الحق.

١٠-التعبير بالاسم الموصول ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لبيان سبب استحقاقهم للعذاب، وهو ظُلْمُهم لأنفسهم، وظُلْمُهم لشعيب ومَنْ آمن معه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ
أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾
وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ
أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ
نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

التفسير:

٩٦- حقاً لقد أرسَلْنا نبيًّا موسى بآياتنا الدالَّةِ على صدق ما جاء به، ومعه معجزة ظاهرة بينة، وهيبة وجلال في النفوس، فلا يناله أحدٌ بأذى.

٩٧- أرسلناه إلى فرعون وحاشيته، فاتَّبعوا رأي فرعون، وأعرضوا عمَّا جاء به موسى عليه السلام. وما أَمْرُ فرعون بسديد، ولا مأمون العاقبة، بل هو ضالٌّ غاوٍ لا يأمر بخير، ولا يدعو لهدى.

٩٨- يَتَقَدَّم قومَه يوم القيامة، ويَقُودهم إلى النار، كما قادهم في الدنيا إلى الضلال، وينقادون له كما ينقاد القطيع إلى الراعي، فبِئْسَ المَوْرِدُ الذي وردوه.

٩٩- وأُتبعوا في الدنيا باللعنة تلاحقهم، فهم محرومون مُبْعَدُون، ويومَ القيامة هم ملعونون مطرودون مُبْعَدون، فبئس اللعنةُ بعد اللعنة.

١٠٠- ذلك الذي سبق من أخبار القرى وأحوالهم نَقُصُّها عليك - أيها النبيُّ - للعِظَةِ والاعتبار، فمنها الذي لا تَزالُ آثارُه باقيةً شاهدة على أهلها، كمدائن صالح وقرى عاد وآثار الفراعنة، ومنها الخراب الشامل الذي طُمِرَ تحت الثرى، أو دَرَسَ حتى عفا أثره، كقوم نوح وقوم شعيب.

١٠١- وما ظلمناهم إذ أهلكناهم، ولكن ظلموا أنفسهم بإيرادها مَوارِدَ التهلكة، فما أغنت عنهم معبوداتهم التي عبدوها من دون الله من شيء، وما زادوهم غير إهلاك وتدمير.

١٠٢ – وتلك أمثلة لعقاب الله للقرى الظالمة. إنَّ عقابه تعالى شديد موجع.

١٠٣ – إنَّ في ذلك العذاب لَعبرةً وعظةً لِـمَنْ خاف عذاب الآخرة، فهو الجدير بالاتعاظ والاعتبار، وإنَّ العقوبة الدنيوية التي لا تزال آثارها باقية لدليل وبرهان على عذاب الآخرة. ذلك اليوم العظيم يُجمع له الناس ويُحشرون، ويشهده الأولون والآخرون، وأهل السماء والأرض.

١٠٤ – وما نُؤَخِّرُ هذا اليوم العظيم، إلا لأنَّ له أجلاً ووقتاً محدَّداً لا يتقدَّم عنه ولا يتأخر، فما تأخيره لعَجْزٍ أو قُصور.

١٠٥ – إذا حَلَّ هذا اليوم، فلا تَكَلَّم نفسٌ إلا بإذن الله، ومواقف الناس يومئذ مختلفة، فمنهم مَنْ هو في عذاب وشدَّة، ومنهم مَنْ هو في رخاء ونعمة.

١٠٦-١٠٧ – فأمَّا أهل الشقاء ففي النار، لهم فيها زفرات وصرخات صاخبة تَنِمُّ عن حالهم، لابثين فيها، مادامت السموات والأرض، إلا مَنْ شاء الله إخراجه من عصاة المؤمنين.

١٠٨ – وأما الذين كَتَبَ الله لهم السعادة ففي الجنة، يسكنون في قصورها ودُورها، ويَهْنَؤُون بين ظلالها الوارفة، وأشجارها المثمرة، ماكثين فيها، عطاء لا ينقطع، ولا يُنتَقَصُ منه، إلا ما شاء الله، فكلٌّ مقدورٍ إنما هو بمشيئته تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ – عَبَّر بالمضارع ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ استحضاراً لهذه الصورة الرهيبة حتى كأنها ماثلة أمام العيان، حين يتقدم فرعون موكب الهوان والعار، وقومه مِنْ ورائِه، بينما التعبير بالماضي ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ يفيد التحقق، وسرعة الحدث.

٢- إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أنَّ الأصنام لها حَقُّ الشفاعة عند الله.

٣- خَصَّ بالذِّكر الزفير والشهيق من أحوالهم في جهنم؛ للدَّلالةِ على شدة الكرب والغَمِّ، وفرط نار الأسى، ولهيب الحزن الذي يتأجج في صدورهم.

٤- الحذر من تلبيس المشركين وزخرفتهم؛ لما هم عليه من باطل، وتظاهرهم بأنهم مؤمنون.

٥- لَفْتُ الأنظار إلى مصارع المكذبين، ومسارح عذابهم؛ للعظة والاعتبار، والحذر من الأسباب التي أودت بهم.

٦- عدل الله تعالى في سننه وأقداره وأحكامه.

٧- هلاك المشركين دليلٌ على فساد عبادة الأصنام.

٨- مجيء الفعل ﴿شَقُوا﴾ مسنداً لهم؛ لأنهم شَقُوا باختيارهم وإرادتهم، بينما جاء الفعل ﴿سُعِدُوا﴾ مبنياً للمفعول؛ لأنَّ الإسعاد من الله تعالى، ولا يملك إنسان أن يسعد نفسه، فالسعيد مَنْ أسعده الله.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

التفسير:

١٠٩- يُرشد الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأنَّه لا يشك في ضلال عبادة هؤلاء المشركين، فهم سائرون على سَنن الآباء من قبل، ولا يَغُرَّنَّك ما يتظاهرون به من مظاهر كاذبة ومزاعم زائفة، ولا تَغْتَرَّ بما أُوتوا من زخارف الدنيا وبهجتها، فإنَّ الله يُعَجِّلُ لهم جزاء سعيهم في الدنيا، وفي الآخرة ينالُون عقوبتهم التي يستحقونها، جزاءً عادلاً وافياً.

١١٠- قسماً لقد آتينا موسى التوراة، فاختلف فيها بنو إسرائيل اختلافاً واضحاً، بين مُصَدِّقٍ ومكذِّبٍ. ولو شاء الله لَعَجَّلَ العذاب للكافرين المشكِّكين، ولكن أَخَّرَهم إلى أجلٍ مُسَمَّى. وإنَّ أهلَ الكتاب لفي شكٍّ مَشُوبٍ بالريبةِ ممَّا نزل على موسى، شأن قومك الذين يرتابون ويُشَكِّكون في القرآن.

١١١- وإنَّ كُلًّا من هؤلاء وأولئك السابقين واللاحقين، التابعين والمتبوعين، مَنْ نال نصيباً من عذاب الدنيا، ومَنْ أَخَّرَ الله عذابه للآخرة؛ لَيُوَفِّيَنَّهم ربك جزاء أعمالهم. إنَّه تعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يَعْزُب عن علمه شيء.

١١٢- فإذا تبصَّرْتَ طريق الحق، فاستقم أنت ومَنْ تاب معك على منهج الله ودينه وَفْقَ أمر الله، ولا تَطْغَوا كما طغى مَنْ كان قبلكم، فجاوَزُوا حَدَّ الاعتدال، ووقعوا في إفراطٍ وتفريطٍ. إنَّه تعالى عليمٌ بأعمالكم، ومُطَّلع عليها.

١١٣- ولا تَميلوا إلى الظَّلَمَةِ، ولا تَتَبِعُوا سبيلهم، ولا تَأْمَنُوا جانبهم، ولا تُمالِئُوهم على ظُلْمِهم، فتصيبكم النار بلهيبها. وما لكم من دون الله من أولياء يدفعون عنكم، ثم لا تُنْصرون من عذاب الله.

١١٤- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ قَالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هَذِهِ؟ قَالَ: لِـمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي. (صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة . وصحيح مسلم في التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ برقم ٢٧٦٣).

التفسير:

وأقم الصلاة، وواظِبْ عليها، وأدِّ حقَّها أول النهار وآخره، ويدخل في ذلك صلاة الصبح والظهر والعصر، وأوقات من الليل تتقرب بها إلى الله، صلاة المغرب والعشاء وقيام الليل؛ إن الصلواتِ وسائر الأعمال الحسنة مما يمحو الله بها السيئات. ذلك ذكرى لِـمَنْ داوم على التذكُّر، وحَرَص عليه، وانتفع به.

١١٥- واثبت على الصبر، وتَحَلَّ به، واحبِسْ نفسك على طاعة الله، واصرِفْها عن معصيته؛ فإنَّ الله لا يضيع أجر مَنْ أتقن العمل، وراقب الله، وبَرَّ بالناس، وتَرَفَّقَ بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية للنبي ﷺ بموقف بني إسرائيل من التوراة، فقد اختلفوا فيها، كما اختلف الناس في القرآن بين مُصَدِّق ومُشَكِّك، وتضارَبَتْ أقوال الكفار فيه.

٢- الأمر بالاستقامة في الدين. وهو أمر ثقيل شديد على النفس، يتطلب جهاد النفس، والصبر على أداء الواجبات، وحمايتها من الموبقات المهلكات.

٣- التحذير من الركون إلى الظلمة، وممالأتهم على ظلمهم، فإنه يُفْضي إلى النار.

٤- الترغيب في لزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله، كلما فترت.

٥- في الآية (١١٣) إخبار مستقبلي بأنَّ جزاء مَنْ يميل إلى الكفَّار الظلمة يَكِلُه الله تعالى إلى نفسه.

٦- الاستقامة إنَّما تكون على منهج الله، وبقدر معرفة العبد بربه، وتعظيمه لأوامره، يستقيم.

٧- من آثار الاستقامة: «أنَّه إذا كان المستقيم راعياً صلحت رعيته، وإذا كان مربياً توفقت تلاميذه، وصلحت بإذن الله أعمالهم واستقاموا، وإن كان المستقيم ربَّ منزل استقام أهله، وصلحت ذريته بإذن الله، وإن كان زارعاً كَثُرَ خيرُه وبُورك له، وإن كان تاجراً ربحت تجارته، وإن كان صانعاً تقدَّمَتْ صناعته،

ولاشك أنَّه متى صلحت الأفراد وصلح حالها استقامت الأسر بإذن الله، ومتى استقامت الأسر استقامت الأُمة بأكملها». (الأنوار الساطعات لآيات جامعات للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان رحمه الله ١ / ٤٧٨).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

التفسير:

١١٦ - فهلَّا كان فيمَنْ قبلكم أولو معادن نفيسة، ونفوس زكية، وهمم عالية، ينهون الناس عن الفساد في البلاد، إلا قليلاً ممَّنْ أنجاهم الله تعالى بصلاحهم ونُصْحهم، واتَّبع الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم سبيلَ الترف، ووضعوا الأمور في غير نِصابها - وهم الأكثرون - فقاتلوا على الرياسة والسلطان والثراء؛ لينعموا بالمال والجاه، وسلكوا لذلك كل سبيل، وكانوا مجرمين بفجورهم وفسادهم، وإعراضهم عن طريق الصلاح ومحاربتهم للحق، فاستحَقُّوا الهلاك.

١١٧ - ومن سنن الله تعالى الدالة على عدله ورحمته أنه لا يُهْلِكُ القرى ظلماً لها، وأهلها مصلحون، بل يُهلك القرى الظالمة التي يسعى أهلها إلى الظلم والفساد.

١١٨ - ولو شاء ربك لجعل الناس جماعة واحدة على كلمة التوحيد وسَنن الأنبياء، ولكنه تعالى لم يجبر العباد على الحق بل دعاهم إليه، ورَغَّبهم فيه، وجعلهم مختارين، فكان منهم المؤمن، وكان منهم مَنْ حكَّم هواه، فكانوا - ولا يزالون - مختلفين.

١١٩ - إلا مَنْ رَحِمَه خالقُك وهاديك، وعصمه من الزَّلَلِ ووَفَّقه للحق، ولذلك الحق والابتلاء خلقهم؛ لِيَمِيزَ المؤمن من الكافر. وبهذه السنَّة الكونية تتحقق كلمة ربك ووعيده لأهل الشقاء الذين آثروا طريق الضلال، فتمتلِئُ منهم جهنم؛ لكثرتهم.

١٢٠ - وكلُّ ما مضى في هذه السورة وغيرها نَقُصُّ عليك من أنباء الرسل وأحوالهم مع أقوامهم ما نزيدك به ثباتاً على ثباتٍ؛ بكثرة المواعظ، وتصريف القول، وتَوارُدِ الأنباء، والتأسِّي بإخوانك الأنبياء، والتسلِّي بما كابدوه وما لاقوه من أقوامهم من تكذيب وإعراض وجحود، وجاءك في هذه السورة الحقُّ بيِّناً صُراحاً، وموعظةٌ وذِكْرى ينتفع بها.

١٢١ - يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتوعد المشركين: قل يا محمد للذين لم يُصَدِّقوا، ولم يَذَّكَّروا، أن يستمروا على ما هم عليه من الضلال، فإنَّا ماضُون على ما نحن عليه من الإيمان والإصلاح، وانتظروا قضاء الله فيكم إنا منتظرون قضاءَ الله وفَصْلَه بيننا وبينك.

١٢٢-١٢٣ - ويعلم الله وحده السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من أحوال عباده، وإليه يرجع الأمر كله في الدنيا والآخرة، فاعْبُدْه حق العبادة، وتَوَكَّلْ عليه حَقَّ التوكُّل. وما ربُّك بغافلٍ عن أعمال العباد، بل هو مُطَّلِعٌ عليها ومُحْصِيها؛ ليجازِيَكم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجود الدعاة الصادقين والمصلحين الذين يُصْلِحون ما أفسد الناس بحكمة وبصيرة وجِدٍّ، نعمةٌ من نِعَمِ الله تعالى على الأمم والشعوب.

٢ - الفساد والظلم من أهم أسباب هلاك الأُمم وسقوط الحضارات، ويقال: إنَّ الأُمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم.

٣ - الترف داعيةُ السَّرَفِ المفضي إلى الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكِبار والموسِرين، ثم ينتقل إلى الفقراء المعوزين، فتسوء حال الأُمم، وتتدهور أخلاقها ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦].

٤ - التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأمور الناس إنَّما تستقيم في الدنيا مع العدل - الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم - أكثر ممَّا تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم؛ ذلك أنَّ العدل نظام كل شيء، وإذا أُقيم أمرُ الدنيا بالعدل قامت،

وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، ومتى لم تَقُمْ بالعدل لم تَقُمْ، وإن كان صاحبها من الإيمان ما يُجْزى به في الآخرة». (الاستقامة ٢/ ٢٤٧).

٦- الصلة القوية بين الانغماس في الترف والحرص عليه، وبين الإجرام؛ لأنَّ تابع الشهوات مثقلٌ بالآثام، يسعى للعيش في تَرَفٍ، ويسلك لذلك أيَّ وسيلةٍ.

٧- الاختلاف سنة الله تعالى في خلقه إلا مَنْ عصمه الله ورحمه.

٨- خُتمت السورة بما بدأت به من الأمر بعبادة الله وحدَه، والاتكال عليه، والتحذير من عقابه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ليتناسقَ البَدْءُ مع الختام.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان عظمة القرآن وإعجازه في أخباره الماضية.

٢- بيان رعاية الله لأنبيائه، وتَعَهُّدِه لهم وحِفْظِهم، وإعدادهم.

٣- التحذير من فتنة النساء، وبيان كونها من أعظم البلاء الذي يَتَعَرَّض له المؤمن. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ما تركتُ على أُمتي فتنة أشدَّ من النساء، وإنَّ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

(صحيح البخاري - التفسير، برقم ٤٤٧٧).

٤ - تقرير عداوة الشيطان للإنسان.

٥- بيان أصول تعبير الرؤيا وآدابها، والتفريق بين الرؤى والأحلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾
إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ
يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ
مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

سبب النزول:

صَحَّ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية، قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قَصَصْتَ علينا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية، فتلاها رسول الله ﷺ زماناً فقالوا: يا رسول الله لو حَدَّثْتَنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، كل ذلك يؤمرون بالقرآن. (إتحاف الخيرة ١/ ٢٣٨ برقم١٦٢، وأخرجه الحاكم (المستدرك ٢/ ٣٤٥)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٩٢ برقم ٦٢٠٩)، والضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٦٥ برقم ١٠٦٩) وقال محقق المختارة: إسناده حسن. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر: حديث حسن كما في الإتحاف).

التفسير:

١ - ﴿الٓر﴾ تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن، مع ما في الاستفتاح بها من جمال وجلال وروعة.

هذه الآيات العظيمة الشأن من آيات القرآن المبين في هديه وبلاغته.

٢ - إنَّا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزَلْنا من عندنا هذا القرآن بلسان عربي فصيح؛ لكي تفهموا معانيه، وتُدْرِكُوا مراميَه.

٣ - نحن نُحَدِّثك أيها الرسول، ونَرْوِي لك أخبار الأُمم السابقة بأصدق كلام، وأحسن بيان، بوَحْينا إليك هذا القرآن، وإن كنت قبل إنزاله لمن الغافلين عن ذلك. وهذا من تمام الإنعام أنَّ الله عَلَّمَ نبيَّه ما لم يكن يعلم.

٤ - يُذَكِّر الله سبحانه رسول الله ﷺ وأُمَّته بقصة يوسف عليه السلام وما حوته من مواعظ بليغة، مبتدئاً بالرؤيا العجيبة التي تحقَّقت، فقد قال يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب عليه السلام: يا أبي إنِّي رأيت في المنام أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر رأيتهم كلَّهم ساجدين لي!

٥ - فأجابه بنصيحة الأب الحكيم، وبشرى النبي الكريم: يا بُنَيَّ لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك فيحسدوك، ويُدَبِّروا لك المكيدة لإهلاكك، وإقصائك. إنَّ الشيطان الملعون للإنسان عدوٌّ ظاهر العداوة، يُحَرِّش بين الإخوة، ويُوغر صدورهم؛ ليفرِّقَ بينهم.

٦ - ومثلَ ما أراك ربُّك هذه الرؤيا التي تفصح عن علوِّ مقامك، يختارك ويلهمك تعبير الرؤيا، ويتمِّم نعمته الكريمة عليك وعلى ذرية يعقوب بالنبوة والرسالة، مثلما أتمَّها مِنْ قبلُ على أجدادك إبراهيم وإسحاق. إنَّ ربَّك عليم بأهل الفضل من عباده، حكيم في أقواله وأفعاله. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». (صحيح البخاري ٨/ ٢١٢ - كتاب التفسير - سورة يوسف، باب (الآية) برقم ٤٦٨٨).

الفوائد والاستنباطات:

١ - في قصص هذه السورة الكريمة وأشباهه تسليةٌ وتَسْرِيَةٌ لقلب النبي ﷺ الذي لقي من قومه صنوف الأذى والاضطهاد.

٢ - قصص القرآن الكريم أعظم القصص.

٣ - وجوب العدل بين الأولاد، وتحاشي ما يوغر صدورهم.

٤ - بشرى ليوسف عليه السلام بالنبوة.

٥ - تحذير يوسف عليه السلام من كيد إخوته.

٦ - صدق النبي ﷺ؛ إذ لا سبيل له لمعرفة هذه القصة إلا بالوحي.

٧ - جواز إخفاء بعض النِّعَمِ خوفاً من الحسد.

٨ - مشروعية التحذير ممَّنْ يُخشى شرُّه.

٩ - أدبُ نبيِّ الله يوسف عليه السلام مع أبيه، وتوقيره له.

١٠ - مشروعية عرض الرؤيا على مَنْ يعرف تعبيرها من أهل الثقة.

١١ - قد تتحقق الرؤية بعد مدة طويلة من الزمن، كما حَدَثَ ليوسف عليه السلام مع أسرته.

١٢ - رعاية الله تعالى لأنبيائه وإعداده لهم.

١٣ - في الآية (٤) إخبار مستقبلي بالبشارة لِما وصل إليه يوسف عليه السلام من عُلُوِّ المنزلة في الدنيا والآخرة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟
مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ
ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ
مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ
ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

٧-٨- حقاً لقد كان في قصة يوسف وإخوته دلائل وعِبَرٌ لِـمَنْ يسأل عن أخبارهم، حين قال إخوة يوسف من أبيه فيما بينهم- وهم تسعة -: إنَّ يوسف وأخاه الشقيق أحبُّ إلى أبينا منَّا جميعاً، ونحن جماعة لنا شأن وذوو عَدَد. إنَّ أبانا لفي خطأ واضح في إيثاره يوسف وأخيه علينا.

٩- قال أكثرهم: اقتلوا يوسف، أو ألقوا به في أرض مجهولة بعيدة عن أنظار الناس، يَصْفُ لكم حبُّ أبيكم، فيُقبل عليكم، ولا يلتفت إلى غيركم، وتكونوا من بعد هذا الفعل قوماً صالحين في أمور الدنيا والدين.

١٠-١١- قال أحد إخوة يوسف: لا تقتلوا يوسف، وألقوه في قاع البئر، يلتقطه بعض السائرين في الطريق، إن كنتم عازمين على إبعاده عن أبينا. فاتفقوا على ذلك، ثم ذهبوا إلى أبيهم يعقوب عليه السلام يستأذنونه باصطحاب يوسف في رحلة إلى البر، فلم يوافق، فقالوا له استعطافاً بنسب الأبوَّة: يا أبانا أيُّ شيء حَدَثَ لك؛ لكيلا تأمَنّا على يوسف، وإنَّا نحبُّ له الخير كما نُحِبُّه لأنفسنا؟

١٢- أرسله معنا غداً للمرعى؛ لينشط ويأكل، ويلتذَّ بالثمرات، ويمرح ويسرح، وإنَّا لمعتنون به، وحريصون على سلامته.

١٣- قال أبوهم: إنني أحزن حقاً لغيبة يوسف بذهابه معكم، وأخاف أن يفترسه الذئب حال انشغالكم بالرعي أو باللهو.

١٤- فأقسموا لأبيهم مؤكِّدين: إن افترسه الذئب ونحن جماعة قوية منتبهةٌ، إنَّا إذاً لخائبون، لا خير في جَمْعِنا.

الفوائد والاستنباطات:

١- قصة يوسف ﷺ حافلة بالعبر والعظات والدروس والآيات لكلِّ باحث عن الحق.

٢- ظن إخوة يوسف أنَّ قوتهم واتحادهم أحرى بمحبة أبيهم لهم، وغفلوا عن الأسباب الداعية للمحبة، ومنها: رقة القلب، والشفقة والعطف، وسلامة الصدر.

٣- سوءُ الظنِّ بالأنبياء والصالحين - إن لم يتداركه العبدُ - يفتح أبواب الفتن والشرور.

٤- قلبُ الأبِ ومحبته تَسَعُ جميع الأبناء، فلا تُنال بالمكايد والدسائس؛ فالغايات النبيلة لا تُدْرَك بالوسائل الرذيلة.

٥- مراعاة الأب لمشاعر الأبناء، واتقاء ما قد يُفْضي إلى التحاسد بينهم.

٦- الفطانة واليقظة مطلوبة للنجاة من المكايد.

٧- ذَمُّ الحسد والتحذير من آثاره السيئة.

٨- قال الشيخ الشنقيطي: «الظاهر أنَّ مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة - إنما هو الذَّهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي، ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: لست عالماً بهذه العلوم التي لا تُعْرَفُ إلا بالوحي، فهداك إليها، وعَلَّمَكَها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم».

٩- قال ابن عاشور: «جملة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ في موضع الحال من ﴿أَحَبُّ﴾، أي: ونحن أكثر عدداً. والمقصود من الحال التعجب من تفضيلها في الحب في حال أنَّ رجاء انتفاعه من إخوتها أشدُّ من رجائه منهما». (التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٣).

١٠- في قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ دليل على أنَّهم طلبوا من أبيهم صحبة يوسف، فرفض.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ
مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ
قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ
فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن
مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

التفسير:

١٥ - استجاب يعقوب عليه السلام لهم بعد الذي أظهروه من محبة وشفقة ونصح وحفظ، فلمّا ذهبوا بيوسف وقد أبرموا أمرهم أن يلقوه في قعر البئر، فجرَّدُوه من قميصه ودلَّوه، ولكنَّ الرعاية الربَّانية كفيلة بإنقاذه واطمئنانه، إذ أوحى الله تعالى إليه حينذاك: لَتُخبِرَنَّ مستقبلاً إخوتك بفعلتهم هذه حقاً، وهم لا يُحِسُّون بذلك. وفي ذلك بشرى بنجاته منهم، وعتابه لهم بعد لقائه بهم، وإن تناءت الديار. وقد أنجز جلَّ وعلا ذلك الوعد، كما في قوله: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩]، وقد تردَّدوا إليه دون أن يعرفوه وهو في هيئته ومكانته: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

١٦ - وبعد أن دَبَّروا المكيدة أرادوا إخفاءَها، فجاؤُوا ليعتذروا إلى أبيهم في أولِ الليل، وهم يتباكَون بتصَنُّعٍ؛ ليُظْهِرُوا الأسف والأسى على فقدان أخيهم!

١٧ - فخاطبوا أباهم بلطف واستمالة بنسب القرابة: يا أبانا ذهبنا نتسابق فيما بيننا، وفارَقْنا يوسف حين جَعَلْناه عند زادِنا وحوائجنا؛ ليحرسها، فجاءه الذئب وافترسه، ولستَ بمُصَدِّق لنا، ولو كنَّا صادقين في ذلك.

١٨ - وأحْضَرُوا إلى أبيهم قميص يوسف وقد لَطَّخوه بدم، فردَّ عليهم يعقوب عليه السلام مُنْكِراً صابراً مُوقناً بمستقبل يوسف المشرَّف بالنبوَّة: لم يأكله الذئب، بل زيَّنَتْ لكم أنفسُكم أمراً منكراً، فصبري صبر

جميل، لا جزع فيه ولا شكوى إلى أَحَدٍ من الخلق، وأطلب العون من الله على تَحَمُّل هذه المصيبة، وحَلِّ مشكلها.

١٩- فهيَّأ الله تعالى مَنْ ينقذ يوسف من البئر، حين مرَّ بعض المسافرين بالطريق القريبة منه، فأرسلوا مَنْ يَجْلِبُ لهم الماء، فلما أرسل دلوه في البئر تعلَّق يوسف بالحبل فخرج ناجياً، فلما رآه صاحب الدلو بجَمالِ خَلْقِه وبراءة طفولته صاح فَرِحاً مستبشراً بكنز فريد: يا بشرى، هذا غلام. وأَخْفَوا أمره؛ ليبيعوه كالبضاعة التجارية، والله عليم بعملهم.

٢٠-٢١- ولَمَّا ذهب المسافرون بيوسف إلى (مصر) باعوه بثمن قليل من المال، وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنَّهم لم يدركوا قَدْرَه وعلمه، واشتراه منهم عزيز مصر - أحد وزراء الملك -، وقال لامرأته: أَحْسِني إقامته معنا؛ لعلَّه ينفعنا في الخدمة، أو نتبنَّاه فنجعله ولداً لنا. ومثلَ ما أنجينا يوسف من المكيدة، جعلنا له مقاماً كريماً عند عزيز مصر، ولكي نُعَلِّمه تفسير الرؤى. والله غالب على أمره لا يُعْجِزُه شيء، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

٢٢- ولَمَّا بلغ يوسف غاية قوة الشباب، أعطيناه حكمة وفقهاً في الدين والرؤى. ومثلَ هذا الجزاء الذي جَزَيْناه به نَجْزي الذين يُحسنون في أقوالهم وأفعالهم، فهو بعد محنة البئر جاءته منحة النجاة، ثم محنة الرقِّ، ثم منحة التكريم. وفي مجيء هذه الآية في هذا الموضع أيضاً إشارة إلى أنَّ هذه الصفاتِ من الحُكْمِ والعلم والإحسان، صفات طيبة لا تُثْمر إلا الخير والبر والطهر.

الفوائد والاستنباطات:

١- لُطْفُ الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه وهم في شدائد المحن، تجلَّى ذلك في بشرى الله تعالى ليوسف أنَّه سينجو من كيد إخوته، ويواجههم به يوماً ما.

٢- ربما يتصنَّع الجاني البكاء؛ لينسلَّ من جريمته ويتنصَّل منها، فالدموع ليست دليلاً على الصدق.

٣- رعاية الله تعالى للمظلومين، ونصرته لهم ولو بعد حين.

٤- قول العزيز ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ يدل على فِراسة العزيز.

٥- التبني كان مشروعاً قبل الإسلام، ثم حَرَّمه الإسلام.

٦- البيع والشراء للبشر كان سائداً في بني إسرائيل، ولما جاء الإسلام عالج هذا الرِّق بالعتق، وسعى لتجفيف منابعه.

٧- مهما توخَّى الإنسانُ الحَذَرَ فإنَّ القَدَر لابُدَّ من وقوعه.

٨- الحكم والعلم نِعَمٌ إلهية يختص بها المولى ﷻ مَنْ يشاء من عباده، وأنَّ الإحسان هو مفتاح الفتوحات، وطريق الرضا والقبول.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾

التفسير:

٢٣- ثم اجتمعت منحة التكريم مع محنة امرأة العزيز التي وقعت في عشق يوسف وقد كان يعيش في قصرها، وفُتِنَتْ بجماله؛ بسبب التساهل بغَضِّ البصر عن يوسف الذي كان يعيش في قصرها، فوسوس لها الشيطان بأن تطلب من يوسف بملاطفةٍ وإغراء أن تُغْوِيَه وتستميله للفاحشة، وعزمت على مرادها، وسلكت لذلك ما يثير العواطف ويهيج النفوس ويهيئ الأجواء؛ إذ أحكمت غلق الأبواب؛ لتخلو به، وقالت له: تهيَّأْتُ وتَصَنَّعْتُ من أجلك، فأقبِلْ إليَّ. فردَّ عليها مُذَكِّراً لها بحقِّ الأمانة وخطر الخيانة: أعوذ بالله وأستجير به ممَّا تدعينني إليه من الخيانة القبيحة لسيدي الذي أحسن مقامي، وتَفَضَّل بإكرامي. إنَّه لا يسلك طريق النجاة والفوز مَنِ اعتدى على حُرُمات الله تعالى. أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ قال: هَلُمَّ لك. (التفسير الصحيح ٣/ ٣١٨).

٢٤-٢٥- عزمت امرأة العزيز على فِعْلِ الفاحشة، وأصرَّت عليها. وأمَّا يوسف فقد حَدَّثَتْه نفسه بالنزول عند رغبتها حديثَ نفسٍ دونَ عزم وقصد، ولم يلبث إلا لحظات، فرأى آية من آيات الهداية من عند الله ﷻ أزالت ذلك الحديث، فعصمه الله تعالى من الافتتان بهذه البليَّة. وإنما بَصَّرْناه لندفع عنه السوء والفاحشة. وبمثل ما صرف الله عنه كيد إخوته صرف كيد هذه المرأة؛ ليجنِّبه الوقوع في هذه الجريمة. إنَّ يوسف عبد مخلص لله تعالى؛ لذا فقد نفر يوسف هارباً منها متجهاً إلى الباب يريد الفرار إلى الله العزيز

الجبار، ولحقت به تمنعه من ذلك، حتى وصلت الباب، وأمسكت بقميصه مِنْ خلفه، الذي انشقَّ من شدة قبضتها، وسوء فعلتها. وفي أثناء هذه المحاولة الفاشلة وجدا زوجها عند الباب، فانتهت محنة الغَواية، لتبدأ محنة الأمر بالحبس. وعندما رأت زوجها حاولت أن تقلب الفضيحة على الضحية وتُبَرِّئ نفسها، فقالت باحتيال، مبادِرَةً بالسؤال: ما عقابُ مَنْ أراد بزوجتك فاحشة إلا أن يُحبَس في السجن، أو يُعَذَّبَ أشد العذاب؟

قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة قد يُفهم منه أنَّ يوسف عليه السلام هَمَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثلَ ما هَمَّتْ هي به منه، ولكن القرآن العظيم بَيَّنَ براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بَيَّن شهادة كل مَنْ له تَعَلُّق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به. أمَّا الذين لهم تَعَلُّقٌ بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أمَّا جَزْمُ يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ الآية. وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وأمَّا اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؛ ولهذا يحسن الوقوف على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾».

٢٦-٢٧- فردَّ ذلك يوسف على ذلك الكيد، مدافعاً عن نفسه بوقار، مستعيناً بالله تعالى فقال: هي التي دعتني إلى ذلك. ثم شهد شاهد عادل عاقل من أهل بيتها فقال: إن كان قميص يوسف شُقَّ من الأمام فهي صادقة في اتِّهامها له، وهو من الكاذبين، وإن كان شُقَّ من الخلف فهي كاذبة في قولها، وهو من الصادقين، وقد استجاب زوجها لهذه النصيحة لعلاج الفضيحة التي غمرت بيته.

قال الشيخ الشنقيطي: «يُفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين، وكَذِب الآخر؛ لأنَّ ذِكْرَ الله لهذه القصة في مَعْرِضِ تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يَدُلُّ على أنَّ الحكم بمثل ذلك حقٌّ وصواب؛ لأنَّ كون القميص مشقوقاً من الخلف دليل واضح على أنه هارب عنها، بينما كانت تجذبه من خلفه».

٢٨- فلمَّا رأى الزوج قميص يوسف قد شُقَّ من الخلف تأكَّد من براءة يوسف، وقال مُوَبِّخاً لامرأته متساهلاً في عقوبتها: إنَّ هذا الأمر المدبَّر من مكركِ أنتِ، ومَنْ ساهم معك في التخطيط والخلوة، إنَّ مَكْرَكُنَّ للتخلُّص ممَّا دبَّرْتنَّ شرٌّ كبير. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لهذا لما لم يُذْكَرْ عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز، دَلَّ على أنَّ يوسف لم يُذْنِبْ أصلاً في تلك القصة». (منهاج السنة ٢/ ٤١١-٤١٢).

٢٩- وأراد زوجها سَتْرَ الفجور بكل فتور، فأمر يوسف بأن يسكت عَمَّا حصل ويتركه، وقال لزوجته: اطلبي المغفرة من الله، إنَّك كنت من الخاطئين في فَعْلَتِك وافترائك!!

الفوائد والاستنباطات:

١- فضيلة الصبر على المحن، والصمود أمام الإغراءات والفتن، والثبات في زمن الشدائد والابتلاءات.

٢- بيان مكانة العلم وقيمته، ولاسيما عند اشتداد الخطوب وبروز الفتن، فالعلم عصمة ونجاة، ورفعة وارتقاء.

٣- بيان أهمية غَضِّ البصر، فإنَّ دوام البصر على المحرَّمات يؤدي إلى الوقوع في انتهاك الحرمات.

٤- بما أنَّ الاختلاط سبب في إثارة الغرائز ولاسيما داخل البيوت، فإنَّ هذه الآيات وَضَّحَتْ مَغَبَّةَ ذلك، وأفصحت عن خطورته في الأسرة خاصة، والمجتمع عامة، فلابُدَّ من مراعاة آداب البيوت من الاستئذان والحجاب، ومنع الاختلاط والخلوة وفضول النظر.

٥- بيان فضل الاستئذان.

٦- سُمُوُّ الأسلوب القرآني في حديثه عن المراودة بهذا الأدب الرفيع، الذي يُصَوِّر الحَدَثَ، ويعبر عنه بألطف عبارة وأدق بيان.

٧- المؤمن يرعى الحُرَم والأمانات، ويصونُ الأعراضَ، ويحفظ حَقَّ الله تعالى وحقوق العباد، ويقابل الإحسان بالإحسان، كما فعل يوسف عليه السلام.

٨- مراقبة الله تعالى في كل حال، وتقواه جل وعلا في السر والعلن.

٩- وجوب الاستعاذة بالله ﷻ والاعتصام به سبحانه من الفتن، وصيانة الحُرُمِ، ورعاية العهد والذِّمم، واستحضار النعم، فالعفة والطهر توفيق من الله تعالى وهداية منه.

١٠- في هذه القصة نموذجٌ عمليٌّ للشاب المتعفف في المجتمعات التي لا تُلْقي بالاً للفضيلة، ولا ترفع لها راية، كيف صان يوسف عليه السلام نفسه من فتنة المرأة الحسناء، وكيد الفاتنات من نساء القصور.

١١- ذَمُّ الهوى، والتحذير من غَلَبته، وتَمَكُّنه من صاحبه، كما وقع من امرأة العزيز، حين استبدَّ بها الهوى، فأصبحت أسيرة لهواها، أما يوسف عليه السلام فهو النبيُّ المعصوم، صاحب العقل المستنير بأنوار النبوة، كرَّمه الله، ورفعه لَـمَّا صان نفسه عن الهوى.

١٢- فتنة النساء من أعظم البلاء الذي يعرض للمؤمن، فلْيستعِذْ بالله تعالى من فتنتهن وكيدهن.

١٣- قال أبو السعود: «والعدول عن التصريح باسمها: سَتْراً عليها، أو للاستهجان بذِكْره، وإيراد الموصول لتقرير المراودة، فإنَّ كونَه في بيتها مِمَّا يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام؛ فإنَّ عَدَمَ ميله

إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها، واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي بكونه ﷺ في أعلى معارج العفة والنزاهة». (إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣/ ٩٣).

١٤- جاء النص القرآني بـ (غَلَّقَتْ) للدلالة على المبالغة في إغلاقها من جهة الإحكام في الغلق، أو لكثرة الأبواب، وفي تغليقها للأبواب دلالة واضحة على إصرارها على الفاحشة، ولَفْتِها لنظر يوسف ﷺ إلى ما تريده منه، ومع ذلك فإنه ﷺ يُعرض عنها، ولايلتفت إليها؛ لعلَّها تعود إلى رشدها.

١٥- نسبة العزيز الكيدَ إلى النساء؛ لبيان عدم اختصاص الكيد بامرأته، والجمع يفيد تعظيم هذا الكيد.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

التفسير:

٣٠- انتشر الخبر وذاع، ووصل إلى نسوة في المدينة، إذ قُلْنَ مُنْكِراتٍ عليها: امرأة العزيز لازالت تدعو غلامها لنفسها، قد أسَرَها جماله. إنَّا لنعتقد بأنَّها في خطأ واضح، وخَلَل فادح.

٣١- لقد وصلها خبر النسوة عاجلاً، الذي اشتمل على ثلاثة أنواع من المكر: وهو ذَمُّها لفعلتها، وإصرارها على ذلك، وغيبتها، وشوقهنَّ لرؤية يوسف الذي ما زال في قصر العزيز؛ لأنَّهنَّ لم يمتنعنَ من مقابلته، بل أمعَنَّ النظر فيه حتى انبهَرْنَ بجماله، وفُتِنَّ فيه حين دَعَتْهنَّ وهيَّأت لَهُنَّ مجلساً خاصاً بهنَّ فيه طعام، وأعطت كل واحدة منهنَّ سِكِّيناً، كيداً بهنَّ على كيدِهنَّ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهنَّ؛ لتُظْهِرَ لهنَّ حُسْنَ يوسف، فلما رأين يوسفَ بنظرهنَّ الثاقب أَعْظَمْنَ جماله الفائق الذي بَهَرَ نفوسهنَّ، وأَسَرَ قلوبهنَّ، فذُهِلْنَ، فجرحنَ أياديهنَّ بالسكاكين، وهُنَّ مندهشات متعجبات غير محتشمات يُرَدِّدْنَ: حاشا لله - أي: تنزيهاً لله، وتَعَجُّباً من خلقة هذا المخلوق - ما هذا الفتى بشراً، لأنَّ جماله الآسِرَ لم يُعْهَدْ في البشر، ما هذا إلا مَلَكٌ من الملائكة في الجَمال.

٣٢- فخاطبت امرأةُ العزيز النسوةَ بكلِّ جُرأةٍ، وقد فتنهنَّ ما فتنها، متوعدة يوسف بالسجن إن لم يستجب لرغبتها الجامحة قائلة: فذلك الذي عَيَّرْتُنَّني في حبي له. وقسماً لقد راوَدْتُه عن نفسه، فامتنع وأبى، وقسماً إن لم يفعل ما آمره به مستقبلاً لَيعاقَبَنَّ بدخول السجن قطعاً، وليصيرنَّ من الأذِلَّاء المُهانين.

٣٣- فأدرك يوسف استمرار المكيدة وتفاقمها من قِبَل النسوة اللاتي تعلَّقَتْ قلوبهنَّ فيه؛ بسبب نظراتهنَّ الفاحصة، فأعرض يوسف عنهنَّ جميعاً متوكلاً على الله بالدعاء، متضرِّعاً إليه تعالى، مستعلياً بإيمانه على الرذيلة، مفتخراً بثباته على الفضيلة: يا ربِّ إنَّ السجن الذي يُهَدِّدْنَني بدُخولِه على ما فيه من ضيق أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه هؤلاء النسوة كلُّهنَّ من فعلة الفاحشة، وإن لم تَدْفَعْ عني مكرهنَّ أمِلْ إليهنَّ، وأكن من الجاهلين المرتكبين للفواحش. وفي هذا الدعاء دعوةٌ لهنَّ إلى توحيد العبودية والربوبية، وقَطْعُ آمالهنَّ الخبيثة، وبيانٌ لأهمية غَضِّ البصر؛ فإنَّ دوام البصر إلى المحرَّمات يؤدي إلى الوقوع في انتهاك الحرمات.

٣٤- فأجاب الله تعالى له دعاءه، فنجَّاه من كيدهنَّ، وثَبَّتَه على العِفَّة. إنَّه سبحانه هو السميع للدعاء والأقوال، العليم بالأهواء والأفعال.

٣٥- ولمَّا أدرك العزيز الغافل أنَّ الفضيحة انتشرت، وأنَّ براءة يوسف ظَهَرَتْ، رأى هذا الحائر ومَنْ حوله إلقاءه في السجن إلى أن تُنسى الفضيحة.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن القيم: «وكلام النسوة متضمن لوجوه من المكر منها قولهنَّ: (امرأة العزيز) - بوَصْفِها لا باسمها - الذي يؤكد قبح صنيعها؛ لكونها ذات زوج، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها مِمَّنْ لا زوج لها، وزوجها عزيز مصر فهي لم تحترم مكانة زوجها، وأنَّها هي المراوِدَةُ الطالبة، وأنَّ المُراوَد فتاها الذي هو في بيتها وتحت كَنَفها، وأنَّ الحُبَّ بلغ بها أعظم مبلغ حتى وصل إلى شغاف قلبها، وأنَّ فتاها عفيف طاهر، متصف بالوفاء والحياء، وهي على النقيض من ذلك، وأنَّ المراودة لا تزال مستمرة ومتجددة». (إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان ٢/ ٨٨ بتصرف..).

٢- وقال أبو السعود: «وتسمية ذلك مَكْراً؛ لكونه خُفْيَةً منهن، كمكر الماكر. وقيل: استكْتَمَتْهُنَّ سِرّاً فأفشَيْنَه عليها، وقيل: إنَّما قلن ذلك ليتوصَّلْنَ من خلاله إلى رؤية يوسف». (إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٧١).

٣- روعة التعبير بـ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ فالفاء فصيحة عن شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر كذلك فذلكنَّ الذي لمتنني فيه.

٤- التعبير بـ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ اسم الإشارة البعيد؛ لبُعْدِ منزلته وسُمُوِّ مكانته، وبُعْدِه عن السوء، وكأنَّها تعلم أنَّ وصولها إليه صعب المنال، بل إنَّه محال، فهو ﷺ رغم عيشه معها في بيت واحد، إلا أنَّ نجوم السماء أقرب إليها منه، وهي مع ذلك تحبه، وتطمع في قُرْبِه.

٥- بيان أثر الدعاء عند الكروب والشدائد.

٦- الثبات أمام الفتن من علامات الصلاح.

٧- دخول السجن ليس دليلاً على الانحراف، فقد يدخله الصالحون.

٨- صورة حياة القصور في ذلك العصر، وحال سكانه من المترفين والمنغمسين في بحار الشهوات.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ
فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ
بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ
إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي
رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ
لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي
ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

التفسير:

٣٦- وثبت يوسف على الفضيلة، وتحدَّى أصحاب الرذيلة، فرضي بالحكم الجائر في سجن ذلك الظالم، وهَيَّأ الله تعالى له مَنْ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى. ودخل معه السجن فَتَيان فلما أحسن إليهما واطمأنَّا إليه، طفقا يسألانه عن تعبير بعض الرؤى، فقال أحدهما: إنِّي رأيت في المنام أنَّني أعصر عنباً لصنع خمر منه. وقال الفتى الآخر: إنِّي رأيت في المنام أنَّني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه. أخبِرْنا يا يوسفُ بتفسير ما رأينا. إنَّا نراك من الذين يُحْسِنون في أفعالهم وأقوالهم، وتعبير الرؤيا.

٣٧- فبشَّرهم يوسف بما عنده من العلم العجيب، قال: لا يأتيكما شيء من الطعام الحسن إلا أخبرتكما بنوعه وحقيقته قبل أن يصل إليكما. ذلك التعبير الصحيح الذي سأذكره لكما ممَّا علَّمني ربِّي، إنِّي آمنت بالله تعالى، وتركت دين قوم لا يُصَدِّقون بالله ولا بالبعث، بل يُكَذِّبون بذلك.

٣٨- وفي الجواب عن تعبير الرؤى وَرَدَتْ نصيحة إيمانية عظيمة لدعوة الفَتَيَين، فيذكر يوسف قصة الإيمان التي عاشها: واتَّبَعْتُ دين آبائي: إبراهيم وإسحاق وأبي: يعقوب، ما ينبغي لنا أن نشرك بالله في عبادته تعالى، سواء كان الشريك صنماً أو غيره. ذلك الإيمان العظيم من فضل الله تعالى علينا جميعاً وعلى

الناس كافة، لما أكرمنا به من الهداية، ووفَّقنا إليه من الاستقامة؛ لما فيه من الحياة الطيبة في الدنيا، والجنَّة الكريمة في الآخرة، ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله تعالى بأقوالهم وأفعالهم.

٣٩- ثم لَفَتَ أنظار السائلين إلى توحيد الله تعالى، فقال لهم منكراً على المشركين: يا صاحبيَّ في السجن أعبادة آلهة متعددة مخلوقة لا تستجيب لِـمَنْ دعاها خير، أم الله تعالى الواحد المتفرِّد بالعظمة، القَهَّار الذي انقادت الأشياء كلُّها لقهره وسلطانه سبحانه؟

٤٠- ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأوثان إلا مجرد أسماء لا حقيقة لها ولا نفع لها، أَوْجَدْتُم أسماءها، وجعلتموها أنتم وآباؤكم أرباباً جهلاً منكم وضلالاً، ما أنزل الله بعبادتها من حجة وبرهان على صحتها. ما الحكم النافذ في كلِّ شيء إلا لله وحده لا شريك له، أمر سبحانه أمراً عظيماً ألَّا تعبدوا إلا إياه فهو الواحد المتفرد. ذلك الدين العظيم هو الدين المستقيم الثابت الذي لا عوج فيه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حقيقة هذا الدين وأتباعه.

٤١- ثم خاطب يوسف عليه السلام الفَتَيَين بقرابة الصحبة؛ ليَجْذِبَهم إلى الإيمان بالله تعالى: يا صاحبيَّ في السجن إليكما تأويلَ رؤياكما: أمَّا الذي رأى أنَّه يعصر العنب لصنع الخمر، فإنَّه سيخرج من السجن، ويكون عمله ساقي الخمر للملك، وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فإنَّه سيُصْلَبُ ويُترك، وتأكل الطير من رأسه. قُضي الأمر الذي كنتم فيه تستفتيان.

٤٢- وأوصى يوسف عليه السلام الذي تَوَقَّع نجاته بأن يذكر مشكلته عند الملك، وما رآه من العلم في تعبير الرؤيا؛ ليرفع الظلم عن يوسف، فأنسى الشيطانُ ساقيَ الملك أن يذكر للملك حال يوسف، فمكث في السجن عِدَّة سنوات.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان أدب تأويل الأحلام والرؤى.

٢- الدعوة إلى التوحيد من أهمِّ أولويات الدعوة، ووجوب التبرُّؤ من الشرك.

٣- اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى في السَّراء والضَّراء.

٤- جواز الاستعانة بالآخرين؛ لقضاء المصالح.

٥- أثر الشيطان في إبعاد الناس عن فِعْلِ الخير.

٦- احتمال حصول الرؤيا الصادقة من غير المسلم.

٧- حسن الصحبة والمعاشرة حتى في أصعب الظروف.

٨- في الآيات (٣٦ – ٤١) إخبار مستقبلي في تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الرجلين.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ
﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ
فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير:

٤٣- وقال ملك مصر لأصحابه ومستشاريه: إنِّي رأيت في المنام سبع بقرات ممتلئة الجسم يأكلهنَّ سبع بقرات ضعيفة، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات. يا أيها الأعيان والعلماء: أخبِرُوني بتعبير هذه الرؤيا، إن كنتم تعرفون تفسيرها.

٤٤- فأجابوه: هذه الرؤيا أخلاط أحلام مشتبهة، ولسنا بتفسير الأحلام بعالمين.

٤٥- قال ساقي الملك، وتَذَكَّرَ بعد مدةٍ من الزمن وصية يوسف التي نسيها: أنا أخبركم بتعبير هذه الرؤيا، فأرسلوني إلى يوسف في السجن؛ ليخبرَني بذلك.

٤٦- وحينما التقى يوسف خاطبه مُتَحَبِّباً له: يا يوسف، أيها البليغ في الصدق، أَخْبِرْنا عن تعبير رؤيا مَنْ رأى سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع بقرات مهزولة، وسبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، لعلِّي أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ لعلهم يعلمون تعبيرها، ويُدْرِكُون فَضْلَك وعِلْمَك.

٤٧- قال يوسف لصاحبه السائل: تعبير هذه الرؤيا: إنَّكم تزرعون سبع سنين متتابعة بجِدٍّ، فما حَصَدْتُم من الحبوب في كل عام فاتركوه في سنبله؛ للحفاظ عليه من الآفات، إلا قليلاً ممَّا يخصص للطعام.

٤٨-٤٩- ثم يأتي بعد هذه السنين السبع الخصبة سبع سنين أخرى شديدة القحط، يأكل أهلها ما ادَّخرتم، إلا قليلاً ممَّا يُخَصَّصُ لبذور الزرع القادم، ثم يأتي من بعد هذه السنين المجدبة عامٌ فيه يُغيث الله تعالى الناس بالمطر المِدْرار، فيعصرون فيه الثمار.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الاستفادة من تأويل الرؤيا في الدعوة والإصلاح والتوجيه والنصح.

٢ - الإشارة إلى مسألة اقتصادية مهمة في حفظ القمح وخَزْنِه بطريقة مأمونة، لا تكلِّف جهداً أو مالاً، ألا وهي أن يبقى القمح في سنابله، وهذه حقيقة علمية اقتصادية.

٣- إفادة السائل بأكثر مما سأل.

٤ - مقابلة الإساءة بالإحسان، والظلم بالعفو.

٥- فضل العلم وأهميته في حَلِّ المشكلات، ومواجهة الأزمات.

٦- أفاد البحث العلمي:

أ- أنَّ التخزين بإبقاء الحبوب في سنابلها هو أحسن التقنيات والأساليب للحفاظ على الحبوب المحفوظة داخل السنابل من غير أن ينال منها الزمن.

ب- أنَّ مدة (١٥) سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو، والتطور فيها.

ج- أنَّ البذور التي تُعْزَل من السنابل تتقلص كميتها بنسبة ٣٢٪ من البروتينات مع مرور الوقت بعد سنتين، و بنسبة ٢٠ ٪ بعد سنة واحدة.

د- أنَّ دراسة القدرة الإنباتية أثبتت القدرة الفائقة والسرعة المتفوقة للإنبات بالنسبة للحبوب المُخَزَّنة في السنابل. (http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id-1151).

٧- في الآيتين (٤٨-٤٩) إخبار مستقبليٌّ في تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

التفسير:

٥٠- من أجل ذلك أمر ملك مصر حاشيته بأن يأتوه بيوسف، فلمّا جاء رسول الملك إلى يوسف يدعوه لمقابلة الملك، قال يوسف قاصداً إظهار براءته: ارجع إلى سيدك الملك، واطلب منه أن يَطَّلِعَ على حقيقة قصة النسوة اللاتي جَرَحْنَ أيديهنَّ، وما سبب ذلك؟ إنَّ ربي عليم بمكرهنَّ وتدبيرهنَّ.

٥١-٥٢- واستجاب الملك لطلب يوسف، واستدعى النسوة مع امرأة العزيز، وسألهنَّ: ما شأنكنَّ حين دَعَوْتُنَّ يوسف إلى الفاحشة؟ فأجَبْنَه جواباً مبتوراً عن حال يوسف، وتَرَكْنَ ذِكْرَ هيامهنَّ به! فقلن: عياذاً بالله تعالى، وتنزيهاً ليوسف، ما عَلِمْنا عليه أدنى شيء يشينه. وفي هذا الجواب إيهام صريح ببراءتهنَّ، واتّهام صريح لامرأة العزيز، لذا صَرَّحت بالمكر الكبّار قائلة: الآن ظهر الحق جليّاً، فأنا التي حاولت فتنته بإغرائه فامتنع، وإنّه لصادق في تبرئة نفسه. ذلك الاعتراف الصريح ليعلم زوجي العزيز علماً مؤكّداً أنّي لم أَخُنْه بإخفاء الأمر عليه، وهو غائب عنّي، وأنَّ الفاحشة لم تقع، وأنَّ الله لا يهدي مكر الذين يخونون الأمانات.

٥٣- واعترفت أيضاً بقولها: وما أُزَكّي نفسي مطلقاً. إنَّ النفس كثيرة الأمر لصاحبها بفعل المعاصي، إلا مَنْ رحمه الله بحِفْظِه من فعل المعاصي. إنَّ ربي غفور للتائبين من ذنوبهم، رحيم بهم.

٥٤- وبعد أن تَحَقَّق الملك من براءة يوسف، وأنّه قد ظُلم، أراد أن يكرمه ويضعه في المقام الذي يليق به، فأمر الملك بإحضار يوسف إليه؛ ليجعله من أهل المشورة المقرَّبين له، ويقطع صلته بالعزيز، فلمّا حضر يوسف كَلَّمه الملك مباشرة، وعَرَفَ فَضْلَه وفِطْنَتَه، وبَشَّره قائلاً: إنَّك اليوم عندنا ذو مكانة عالية، ومؤتمن على كل شيء.

٥٥- وقال يوسف للمَلِك: أرجو أن تجعلني والياً على خزائن أموال أرض مصر؛ لأنّي أُحسن المحافظة عليها، وأعلم ما يُصلح شأنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما سؤال الولاية فقد ذمَّه النبي ﷺ، وأما سؤال يوسف وقوله: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؛ فلأنَّه كان طريقاً إلى أن يدعوهم إلى الله، ويعدل بين الناس، ويرفع عنهم الظلم، ويفعل من الخير ما لم يكونوا يفعلونه». (مختصر الفتاوى المصرية ٥٦٤).

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الحوار للوصول إلى الحق.

٢- فضيلة الاعتراف بالذنب وقول الحق؛ لرفع الظلم عن المظلوم.

٣- جواز وصف الإنسان بما يمتلكه من قدرات، ومنها جوازُ طَلَبِ تَوَلِّي الإمارة ممَّنْ عَلِمَ في نفسه القدرة على ذلك، دون تزكية النفس.

٤- اعتراف امرأة العزيز بكذبها على يوسف، وبصدقه أيضاً.

٥- ضرب يوسف عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات، وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «... ولو لبثت في السجن ما لبثَ يوسف ثم أتاني الداعي لَأَجبته». (صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه - كتاب أحاديث الأنبياء- برقم ٣٣٨٧)

٦- لم يُصَرِّح يوسف عليه السلام بذكر امرأة العزيز تأدُّباً وتعففاً، وقد قابلت هذا الأدب الرفيع من يوسف عليه السلام بالاعتراف بما صنعته، والشهادة ليوسف عليه السلام بالعفة والطهارة.

٧- مَنْ كان أميناً على الأعراض، كان جديراً بالأمانة على الأموال، وخزائن الأرض.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ
أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ
فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا
تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾
قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا
ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ
مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ
مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٦-٥٧- ومثل ما أنعمنا على يوسف بإخراجه من السجن، جعلنا له سلطة وعِزَّة في أرض مصر يتصرف فيها كيف يشاء لمصلحة الناس. وهذا شأن الله تعالى في عباده، يَهَبُ نعمته وفضله لِـمَنْ يشاء، ولا يضيع أجر مَنْ أحسن في قوله أو عمله. ولَثواب الآخرة الباقي أعظم من ثواب الدنيا الفاني للمؤمنين بالله المتقين له.

٥٨-٦٠- وتَسَلَّم يوسفُ ولايةَ المال، ثم قدِمَ إخوته مصر حين أصابهم القحط؛ ليجلبوا منها الطعام، فدخلوا على يوسف، فعَرَفهم أنَّهم إخوته، ولم يعرفوه لطول عهد الفراق، وقد أمر بتكريمهم وإعطائهم ما طلبوا من شراء الطعام، وكان قد عَلِمَ أخبارهم حين التقى بهم، وبَلَّغوه أنَّ لهم أخاً من أبيهم لم يُحْضِرُوه معهم - وهو شقيقه - فطلب منهم إحضاره، ورَغَّبهم وذَكَّرهم بحُسْنِ الضيافة والوفاء بالكيل؛ لكي يُسْرِعُوا بإحضاره، وحَذَّرهم من عدم إحضاره، فإنَّه يُوقِفُ كيل الطعام لهم، ولا يقربهم.

٦١- قال إخوة يوسف: سنجتهد في طلبه من أبيه؛ ليرسله معنا، وإنَّا لمنفِّذون ما أَمَرْتَنا به.

٦٢- وقال يوسف لعمّاله القائمين على الكيل: اجعلوا ثمن ما أخذوه من الطعام في أمتعتهم سِرّاً؛ لكي يعرفوا بضاعتهم إذا رَجَعُوا إلى أهلهم، ويُقَدِّروا إكرامنا لهم؛ ليرجعوا إلينا طمعاً في عطائنا.

٦٣- فلما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم خاطبوه بنسب الأبوة استعطافاً، وأخبروه بإكرام العزيز لهم، وأنَّه لن يكرمهم بالطعام الوافي في المستقبل، إلا إذا كان معهم أخوهم الذي أخبروه به، وطلبوا إرساله معهم ليحصلوا على الطعام وافياً، وإنَّهم لحافظون له حقاً من أيِّ مكروه.

٦٤- قال لهم أبوهم مُنْكِراً عليهم: كيف أثق بكم لِحِفْظِ أخيكم، إلا كما وَثِقْتُ بكم لِحِفْظِ أخيه يوسف من قبل، إذ ذهبتم به إلى البر ولم تعودوا به؟ فأنا غير مطمئن لطلبكم، ولكني أثق بحفظ الله، فهو خير الحافظين، وأرحم الراحمين بعباده.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الصبر على الشدائد والمحن، إذ فيه الفوز بالفوائد والمنح.

٢- طول المدة التي قضاها يوسف بعيداً عن أبيه وعائلته؛ إذ إنَّ إخوته لم يعرفوه.

٣- أهمية الترغيب والترهيب في تحقيق المراد الحسن.

٤- ثقة نبيِّ الله يعقوب عليه السلام بربِّه، ويقينه بلطفه وحفظه.

٥- في الآية (٥٦) إخبار مستقبلي أنَّ الله ﷻ لا يضيع أجر مَنْ أحسن شيئاً من العمل الصالح.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا
رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ
مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا
عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ
إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي
رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾
قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا
جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- ولما فتحوا أوعيتهم فُوجئوا بوجود ثمن البضاعة، وقد أعاده يوسف إليهم تكريماً لهم، فعاودوا الطلب إلى أبيهم يعقوب عليه السلام يخاطبونه بلطف: يا أبانا أيَّ شيء نريد أكثر من هذا الكرم؟ هذا ثمن البضاعة رَدَّه العزيز إلينا، وسنأتي بالطعام لأهلنا، ونحفظ أخانا الذي سترسله معنا، فنزداد بهذه الصحبة لأخينا حِمْلَ بعير من الزاد، وهو سهلُ الحصول عليه؛ لأنَّ فيه تلبيةً لرغبة العزيز.

٦٦- فأجابهم أبوهم بجواب لطيف، وامتنع من إرسال أخيهم معهم إلى مصر، حتى يتعهّدوا ويحلفوا له بالله تعالى أن يَرُدُّوه سالماً إِلَّا أن يُغْلَبوا، فلا يقدروا على تخليصه. فلمّا أعطوه عهد الله على ما طلب قال لهم: الله على ما نقول شهيد.

٦٧- ثم خاطبهم مُستعطفاً برَحِم البنوّة، مُؤَكِّداً حِفْظَ أنفسهم: يا أبنائي لا تدخلوا بلد مصر من باب واحد، وادخلوا من أبواب متباعدة خوفاً من أذى العين أو غيره، وما أدفع عنكم بوصيتي هذه شيئاً من قضاء الله تعالى، ما الحكم إلا له وحده، عليه اعتمدت، وبه وَثِقْتُ، وعليه سبحانه فليعتمد المتوكِّلون على الله تعالى.

٦٨- ولمَّا وصلوا مصر دخلوا من أبواب مختلفة حسب وصية أبيهم، ما كان لينفعهم ذلك الدخولُ من قضاء الله عليهم، ولكن كان شفقة عليهم في نفس يعقوب، أوصى بها دَفْعاً لجلب الأنظار عليهم، وإنَّ يعقوب ﷺ لذو علم واسع، وفِقْهٍ في الدين لما عَلَّمْناه بواسطة الوحي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، وما خصَّ الله به أنبياءه.

٦٩- ولمَّا دخل إخوة يوسف جميعاً عليه أنزلهم عنده، وضَمَّ إليه شقيقه في غفلة منهم، وقال له سِرّاً: أنا أخوك يوسف، فلا تحزن لما كانوا يعملون بنا من الأذى.

٧٠- ولمَّا زوَّدهم يوسف بالمؤونة والزاد، وحُمِلَتْ الخيرات على الإبل، أمر بعض عُمَّاله أن يضعوا الإناء الذي يُستخدم للكيل في متاع أخيه الشقيق خفية، دون أن يعرف أحد بذلك. ولمَّا تأهَّبوا للرحيل صاح منادٍ: يا أصحاب الإبل المسافرين إنَّكم لَسارقون حقاً.

٧١- قال إخوة يوسف وهم متوجِّهون إلى المنادي: ما الذي تفقدونه؟!

٧٢- فأجاب المنادي: نفقد إناء الملك الذي يُكال به. ومكافأةُ مَنْ يُحْضره مقدار حِمْلِ بعير من الطعام، وأنا ضامن لهذه المكافأة.

٧٣- فأقسم إخوة يوسف بالله سبحانه مُؤَكِّدين براءتهم: لقد تحققتم من معرفتكم لنا سابقاً، ما جئنا من أجل الإفساد، وليس فينا مَنْ يسرق!

٧٤- قال المحاورون لإخوة يوسف: فما عقوبة السارق عندكم إن كنتم كاذبين في ادِّعاء البراءة من السرقة؟

٧٥- قال إخوة يوسف: جزاء السارق لإناء الملك أن يُسْتَرَقَّ ويصير مملوكاً لِـمَنْ سَرَق منه. مثلَ هذا الاسترقاق نعاقب الظالمين بالسرقة.

الفوائد والاستنباطات:

١- جواز أَخْذِ العهد المؤكد في الأمور المهمة، ولو من أقرب الناس.

٢- أَخْذُ الأسباب للحذر من الأذى، وأنَّه لا ينافي التوكل على الله تعالى.

٣- الإيمان بأنَّ الحذر لا يُنْجي من القَدَر.

٤- جواز كتمان التخطيط للخير حتى يُتَمَكَّنَ من إنفاذه.

٥- استرقاق المسروق منه للسارق تَقَدَّم في شريعة بني إسرائيل، وقد نسخه الإسلام بحد عقوبة السرقة.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا
كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ
عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا
لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا
كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن
وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ
تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ
حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ
سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ
أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٦- فبدأ المفتش بالبحث في أمتعة إخوة يوسف قبل متاع شقيق يوسف، ثم انتهى بمتاع شقيق يوسف، فرأى إناء الملك، فاستخرجه من متاعه. مثل ذلك ألهمنا يوسف هذا التدبير الخفيَّ المُحْكَم لأخْذِ شقيقه، وما كان يقدر أن يأخذ شقيقه في شريعة مَلِكِ (مصر) لأنَّه ليس من شريعته أن يتملَّك السارق، إلا أنَّ مشيئة الله اقتضت ذلك الحكم. نرفع بالحكمة والإيمان منازل مَنْ نشاء من عبادنا، وفوق كل عالم مَنْ هو أرفع منزلةً منه في العلم، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى علَّام الغيوب.

٧٧- قال إخوة يوسف ليتخلَّصوا من التهمة ويخذلوا شقيقه: إن يسرق أخونا إناء الملك، فقد سرق فيما مضى أخٌ له - يقصدون يوسف -. فأخفى تلك التهمة ولم يُظْهِرْها لإخوته تَلَطُّفاً بهم، وإحكاماً لتدبير المهمَّة، وحَدَّث نفسه بقوله: أنتم أسوأ منزلةً مِمَّنْ اتهمتموه بسرقة أخيه، وهو بريء من خيانتكم السابقة واللاحقة. والله أعلم بالذي تصفونه من الكذب.

٧٨- ولَمَّا تذكَّروا العهد الذي أخذه عليهم أبوهم، قال إخوة يوسف مسترحمين: يا أيها العزيز، إنَّ لهذا السارق أباً كبيراً في السن لا يكاد يستطيع فِراقَه، فخذ أحدنا بدلاً منه. إنَّنا نراك من المحسنين في تعامُلِكَ وكرمك.

٧٩- قال يوسف عليه السلام: عياذاً بالله تعالى أن نأخذ أحداً غير الذي وجدنا إناء الملك عنده حسب شريعتكم، فإنَّنا إن فَعَلْنا ما طلبتم كُنَّا من المعتدين على البريء.

٨٠-٨١- فلمَّا انقطع منهم الأمل، ويئسوا من قبول الرجاء، خَلَوا للمشاورة فيما بينهم، فقال أخوهم الكبير مُنكِراً عليهم: أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً برَدِّ أخيكم؟ ومن قبل ذلك عَذَرَكم بيوسف، فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها، أو يقضي الله تعالى لي بنجاة أخي من الرقِّ، وهو سبحانه أعدل الحاكمين. ارْجِعُوا أنتم إلى أبيكم وقولوا له متلطِّفين في خطابكم بقرابة الأبوَّة: يا أبانا إنَّ ابنك شقيق يوسف قد سرق، ولسنا نشهد إلا بما عَلِمْنا، إذ رأينا إناء الملك في متاعه، وما علمنا أنه سيسرق حين عاهدناك على رَدِّه.

٨٢- واسأل أهل مصر والقافلة التي جئنا معهم عن حقيقة ما حدث، وإنَّنا لصادقون في ذلك.

٨٣- ولمَّا رجعوا إلى أبيهم فَجَعُوه بالخبر المحزن، فقال لهم مُنْكِراً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً خطيراً؛ لأنَّ هذه المشكلة اللاحقة بسبب المكيدة السابقة بيوسف. فصبرٌ جميل لا جزع فيه ولا شكوى معه لغير الله، عسى الله أن يَرُدَّ إليَّ أبنائي الثلاثة. إنَّه هو العليم بالأحوال، الحكيم في الأفعال والأقوال.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٧٦) إخبار مستقبلي أنَّ الله سيرفع منازل مَنْ يشاء في الدنيا على غيره، كما رفع منزلة يوسف عليه السلام.

٢- لجوء الإنسان إلى الحيلة مشروعٌ إن كان القصد نبيلاً، وغير مشروع إن كان سيئاً.

٣- لطف الله ورعايته بأنبيائه ونصره لهم.

٤- فضل العلم ورفعة العلماء، وتفاوت درجاتهم.

٥- جريمة السرقة لها عقوبتها في بني إسرائيل.

٦- إثبات صفتَي العلم والحكمة لله تعالى.

٧- صبر يعقوب عليه السلام وثباته بعد أن اشتدَّتْ المحنة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ
تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ
بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ
قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ
أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا
لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

التفسير:

٨٤- وأعرض يعقوب عن أبنائه تاركاً خطابهم: يا حسرتا على يوسف. وابيضَّ سواد عينيه من الحزن والبكاء وفَقَدَ بصره، فهو ممتلئ القلب حزناً وغماً.

٨٥- وأقسم أبناؤه بالله تعالى مشفقين على أبيهم: ما تزال تتذكَّر يوسف تَفَجُّعاً عليه، وتأسُّفاً لفراقه، حتى تُشْرِفَ على الهلاك، أو تهلك فعلاً.

٨٦- أجاب يعقوب عليه السلام: لست أشكو ثِقَلَ غمِّي وشدة حزني إليكم، وإنَّما أشكو ذلك إلى الله، فهو الذي يكشف الضُّرَّ، وأعلم من رحمته ووحيه ما لا تعلمون.

٨٧- ثم خاطبهم يعقوب عليه السلام واثقاً برحمة الله مُستعطفاً برحم البنوَّة: يا أبنائي اذهبوا إلى مصر، فابحثوا واطلبوا خبر يوسف وأخيه، ولا تيئسوا من رحمة الله الواسعة. إنَّه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم المكذِّبون بالله تعالى.

٨٨- فاستجابوا لأبيهم وذهبوا إلى مصر، فلمَّا دخلوا على يوسف خاطبوه بلطف وتعظيم، فقالوا: أصابنا نحن وأهلَنا القحط، وجئناك بثمن قليل فأتمم لنا الكيل، ولا تُنْقِصْه لرداءة بضاعتنا، وتَصَدَّقْ علينا ممَّا عندك من الخير. إنَّ الله تعالى يُثيب المتفضِّلين بأموالهم على أهل الحاجة.

٨٩- فلمّا رأى يوسف حالهم، وسَمِعَ مقالهم، قال لهم مواجهاً لهم وعاتباً عليهم: هل تذكرون الذي فعلتموه بأخيكم يوسف وشقيقه حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون؟

٩٠- فأجابوه مندهشين ومستبشرين: هل أنت يوسف حقّاً؟! قال: نعم أنا يوسف، وهذا شقيقي، قد تَفَضَّل الله تعالى علينا فجَمَعَنا بسلامة وكرامة. إنَّه مَنْ يُطِعِ الله بأوامره واجتناب نواهيه، ويصبر على المحن، فإنَّ الله لا يضيع ثواب المحسنين بأقوالهم وأفعالهم.

٩١- فأقسموا بالله تعالى: لقد فَضَّلَك الله علينا، ونحن كنَّا آثمين بما ارتكبنا.

٩٢-٩٣- قال يوسف مُسامحاً لهم: لا عَتَبَ ولا تأنيب عليكم اليوم، وأدعو الله تعالى أن يغفر لكم ذنوبكم، وهو سبحانه أرحم الراحمين لِـمَنْ تاب من ذنبه. ولَمَّا عرف فقدان بصر أبيه قال لهم: خذوا قميصي هذا، واطرحوه على وجه أبي يعقوب يرجع إليه بصره، ثم أَحْضِرُوا إليَّ أهلكم جميعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الاعتراف بالذنب والاعتذار للآخرين.

٢- الشكوى إلى الله وحده لكشف الضر.

٣- فضل العفو والصفح عمَّنْ أساء.

٤- عدم جواز اليأس من رحمة الله.

٥- خطأ أبناء يعقوب ﷺ في إغلاظ القول لأبيهم.

٦- الفَرَجُ بعد الشدَّة، والمنحة بعد المحنة.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ
إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل
لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ
سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ
وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ
هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ
ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ
﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي
ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- ولَمَّا غادرت القافلة أرض مصر ومعهم قميص يوسف، قال يعقوب عليه السلام لِـمَنْ معه: إنِّي لَأَشُمُّ رائحة يوسف لولا أن تُسَفِّهوني، وتنسبوني إلى الخرف.

٩٥- فأجابوه بشدَّة مستبعدين ذلك: تالله إنَّك لا تزال في خَطَئِك القديم باعتقادك أن يوسف حَيٌّ، وستلقاه.

٩٦- ولقد تحقَّق ظَنُّ يعقوب عليه السلام إذ جاءه البشير حاملاً القميص، مبشِّراً بسلامة يوسف، طارحاً القميص على وجه أبيه، فعاد مُبصراً من شدة الفرح، وقال لِـمَنْ حَضَرَ عنده: ألم أقل لكم إنِّي لأجد ريح يوسف، وإنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟

٩٧- فأقبل أبناء يعقوب مُعتذرين، يطلبون إليه أن يستغفر لهم الله، واعترفوا بأخطائهم.

٩٨- ووعدهم بأن يطلب لهم المغفرة من الله سبحانه. إنَّه هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم.

٩٩- ورحل يعقوب وأهله إلى مصر قاصدين يوسف، فلمَّا دخلوا مصر، ضَمَّ إليه أبويه وقَرَّبهما إليه، ودعاهم أن يقيموا في مصر آمِنين مطمئنين سالمين.

١٠٠- وصَدَّر أباه وأمَّه على سرير ملكه بجانبه توقيراً لهما، وسجد له الأبوان والإخوة الأحدَ عشرَ تحيةً وإجلالاً ليوسف، لا عبادة - وكان هذا السجود جائزاً في شريعتهم، أمَّا في شريعتنا فلا يجوز السجود إلا لله تعالى - وخاطب يوسف أباه مُذَكِّراً له: إنَّ هذا السجود هو تفسير الرؤيا التي رأيتها، وقصصتُها عليك

من قبل في طفولتي، قد جعلها ربي حقيقة واقعة، وقد تَفَضَّل عليَّ بإحسانه العظيم حين أخرجني من السجن، وجاء بكم إليَّ من البادية من بعد أن وسوس الشيطان؛ ليُفَرِّقَ بيني وبين إخوتي. إنَّ ربي لطيف التدبير لِـمَنْ يشاء، إنَّه سبحانه العليم بالأحوال، الحكيم في الأقوال والأفعال.

١٠١ - ثم تَضَرَّع يوسف إلى الله تعالى: يا ربِّ قد أعطيتني من ملك مصر وعَلَّمْتني من تعبير الرؤيا، يا خالق السموات السبع والأرض ومبدعهما ، أنت ناصري ومتولي شأني في الدنيا والآخرة، ثَبِّتْني على الإسلام في حياتي إلى مماتي، وألحِقْني بالصالحين من الأنبياء والأولياء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَحَقُّقُ رؤيا يوسفَ معجزةٌ له، ونعمةٌ من الله عليه، وتصديقٌ لأبيه يعقوب.

٢- إذا كان السجود لغير الله تعالى جائزاً في بعض الشرائع، فإنَّه في شَرْعِنا لا يجوز إلا لله تعالى.

٣- تقرير معجزة رَدِّ بَصَرِ يعقوب عليه السلام عندما شَمَّ رائحة قميص يوسف عليه السلام.

٤- حرمة اليأس من رحمة الله تعالى.

٥- الشكر لله تعالى على نِعَمِه وكرمه.

٦- استقرار يعقوب وبنيه في مصر.

٧- فضل البرِّ بالأبوين، والإحسان إليهما، وتوقيرهما.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ
أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا
يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

التفسير:

١٠٢-١٠٣- ذلك النبأ العالي الرتبة من أخبار الغيب الذي له شأن عظيم نخبرك به - أيها الرسول - وحياً، وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين أبرموا المكيدة بيوسف وهم يتآمرون عليه، وما أكثرُ الناس بمُصَدِّقيك، ولو حَرَصْتَ على تصديقهم لك.

١٠٤- وما تَطْلُبُ من قومك على تبليغ القرآن وتلاوته أجراً تأخذه. إنَّ هذا القرآن هدى وموعظة للإنس والجن أجمعين.

١٠٥- وكم من الآيات الكونية الكثيرة الدالَّة على عظمة الخالق ووحدانيته مشاهَدة في السموات والأرض لا تخفى على أحد، فالكلُّ يشاهدها. لكنَّ كثيراً منهم لا يتأمَّل ولا يَتَدَبَّر ولا يأبه بها.

١٠٦- وما يُصَدِّق أكثر هؤلاء المعرضين عن آيات الله المكذبين به إلا إذا أشركوا مع الله غيره، فإنَّهم يُقِرُّون بأنَّ الله هو الخالق الرازق.

١٠٧- يُنْكِرُ الله تعالى على هؤلاء المشركين مُوَبِّخاً لهم: أفأَمِنَ هؤلاء المكذِّبون عقوبةً من الله تجتاحهم جميعاً، أو تأتيهم القيامة فجأة وهم لا يُحِسُّون بذلك؟

١٠٨- قل أيها الرسول لهم: هذه الدعوة إلى توحيد الله سبحانه هي طريقتي وسُنَّتي، أدعو إليها على حُجَّة راسخة أنا ومَنْ أطاعني واهتدى بسنتي، وأُنَزِّه الله تعالى عمَّا لا يليق بجلاله وعظمته، وأخلص له العبادة ولا أشرك به شيئاً.

١٠٩- وما أرسلنا من قبلك - أيها النبي - إلا رجالاً لا ملائكة، نوحي إليهم بالرسالة، وهم من أهل الحواضر؛ لأنَّهم أعلمُ من غيرهم، أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون في أرض الله، فينظروا مصارع الأُمم المكذِّبة السابقة، وما حَلَّ بهم من الهلاك والدمار؟ ولَثوابُ الدارِ الآخرةِ الباقية خيرٌ من متاع الدنيا الفانية للذين اتَّقوا ربهم، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟

١١٠- فلا تستبطئ النصر يا رسول الله، فإنَّ الرسل قبلك ما كان يأتيهم النصر عاجلاً، حتى إذا يئس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أنّ قومهم قد كَذَّبوهم، وخَذَلُوهم، أتاهم نَصْرُنا وعَوْنُنا عند شدة الكرب، فنستأصل مَنْ نشاء من المكذِّبين، وننقذ مَنْ نشاء من الرسل والمؤمنين، ولا يقدر أحد على دفع العقوبة الرادعة عن المعتدين.

١١١- قسماً لقد كان في قصص المرسلين وما حَلَّ بالأُمم المُكذِّبين موعظة عظيمة لأصحاب العقول السليمة، ما كان هذا القرآن كلاماً يُختلق، ولكن أنزلناه مُصَدِّقاً لما قبله من الكتب، وتبياناً لكلِّ ما يحتاج إليه العبادُ من أمور الدين، وهداية للبشر من ضلال الشياطين، ورحمة في الدارين للمُصَدِّقين بالله تعالى والمرسلين.

الفوائد والاستنباطات:

١- صِدْقُ النبي ﷺ في دعوته، وثبوت نبوته.

٢- طريق النبي ﷺ هو طريق الأنبياء من قبله، يدعو لربه على بينة ونور وهدى.

٣- فضل الاتِّباع فهو طريق الأنبياء وسبيل الرشاد.

٤- ذَمُّ الغفلة عن التفكر في الآيات الكونية.

٥- التفكر في مصير الأُمم السابقة موعظة عظيمة.

٦- سنة النصر للأنبياء في دعواتهم، وإن طال البلاء واشتدت الخطوب.

٧- غرسُ روح الأمل وعبير الرجاء في النفوس.

٨- تأتي بُشْريات النصر عند اشتداد البلاء.

٩- في الآية (١١٠) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

١٠ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «في قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنَّهم لابُدَّ أن يُبْتَلُوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييئسوا إذا ابتُلُوا بذلك، ويعلمون أنَّه قد ابتلى به مَنْ هو خير منهم».

(ينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٧٥).

١١ - الداعية غير مكلف باستجابة المدعوين له، بل يأخذ بالأسباب، والتوفيقُ من عند الله تعالى، فإنَّ أكثر الناس للحق كارهون.

١٢ - في الآية (١١٠) إخبار مستقبلي عن مجيء النصر بإذن الله تعالى عند اشتداد الكرب.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان عظمة الله تعالى في مخلوقاته.

٢ - بيان عظمة القرآن الكريم وإعجازه.

٣ - إبراز الآيات الباهرة والأدلة الكونية على التوحيد والبعث.

٤ - تقرير الإيمان بالقدر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى
ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ
فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ
أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١ - ﴿الٓمٓر﴾ تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن الحكيم.

هذه الآيات العالية المنزلة من آيات القرآن العظيم، وهذا القرآن الحكيم الذي أُنزل إليك - أيها الرسول - من ربِّك بالحق الذي لاشكَّ فيه، فأخباره حقٌّ، وأحكامه حقٌّ، ولكنَّ أكثر الناس لا يُصَدِّقون به.

٢- الله سبحانه هو الذي رفع السموات بطبقاتها السبع قائمات من غير أعمدة تستند إليها، ثم بعد خَلْقِها ورَفْعِها استوى على العرش العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات - استواءً يليق بجلاله، ويناسب كماله - وذَلَّل الشمس والقمر لمنافع العباد ومصالحهم، وهما يدوران في فلك منتظم متناسق مع بقيَّة الكواكب السيَّارة إلى وقت فَناء الدنيا، يُدَبِّرُ سبحانه أمور الدنيا والآخرة بغاية الحكمة، ويُبيِّن الآيات الناطقة بعظيم قدرته، وكريم أدلته؛ لكي تُوقِنوا بالمعاد إليه والحساب على أعمالكم.

٣- وهو سبحانه الذي بَسَطَ الأرض بامتداد طولها وعرضها، وهَيَّأها للحياة فيها، إذ جعل فيها الجبال الثابتة، والأنهار العذبة، وأنبت فيها من الأنهار والأمطار والعيون والآبار من كل الثمرات زوجين: ذكراً وأنثى، وجعل الليل يغطي النهار بظلمته. إنَّ في ذلك البيان والإنعام لَدلالاتٍ ثابتةً لا تنفكُّ عن البشر؛ لكي يتفكَّروا فيها، ويعلموا عظمة قدرة الخالق.

٤- ومن عجيب صنعه وكريم عطائه، أنَّه جعل في الأرض قطعاً متجاورة متلاصقة، لكنها مختلفة بنباتها ومياهها وثمراتها وحدائقها الغنية بأنواع الأعناب، وصنوف الزروع، وبضروب النخيل، منها ما ينبت منه من أصل واحد شجرتان فأكثر كالفسائل، ومنها ما ينبت منه من أصل واحد شجرة واحدة فقط. وكلُّ هذه الثمرات والنباتات بطعومها المتنوعة وألوانها المتباينة تُسقى بماء واحد، وبعضها أفضل من بعض في الجودة والطعم والفائدة. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من الرب الكريم لَدلالاتٍ صريحة، وبراهين صحيحة، لقوم يعقلون اتِّباع الحق.

٥- وإن تعجب - أيها الرسول - من تكذيب الكفَّار لك فاعجب من تكذيبهم بالبعث، وقولهم: أإذا مِتْنا وصِرْنا تراباً في الأرض، أنُبْعَثُ من جديد؟! أولئك البعداء عن الحقِّ هم الذين كَذَّبوا بقدرة ربِّهم، وأولئك البعداء عن رحمة الله تكون السلاسل في رقابهم يوم القيامة، وأولئك وَقودُ النار الملازمون لها، هم فيها ماكثون أبداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير نبوَّة سيِّد المرسلين محمد ﷺ ورسالته.

٢- من أعظم الآيات: رَفْعُ السموات بغير عَمَدٍ يراها الإنسان الجاهل والعالم.

٣- تقرير توحيد الربوبيَّة بذِكْرِ تدبير الله تعالى.

٤- قال ابن عاشور: «الإتيان بـ ﴿رَبِّكَ﴾ دون اسم الجلالة للتلطُّف. والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقية إبطالاً يقتضي ارتفاع النزاع في أحقيته، أي: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دَلَّتِ الأدلة على الإيمان به». (التحرير والتنوير: ١٢/ ١٣٦).

٥- الافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿رَبِّكَ﴾ لأنَّه مُعَيَّن به، لا يشتبه غيره من آلهتهم؛ ليكون الخبر المقصود جارياً على معين لا يحتمل غيره إبلاغاً في قطع شائبة الإشراك.

٦- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر والكواكب في الملحق.

٧- صيغ ﴿يُدَبِّرُ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾ بالمضارع عكس قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأنَّ التدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدُّدِ تَعَلُّقِ القدرة بالمقدورات، وأمَّا رَفْعُ السموات وتسخير الشمس والقمر فقد تمَّ، واستقر دفعة واحدة.

٨- وُصِفَت القطع بمتجاورات؛ لأنَّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة.. وظرفية التفضيل في ﴿ٱلْأُكُلِ﴾ ظرفية في معنى الملابسة؛ لأنَّ التفاضل يظهر بالمأكول، أي: نُفَضِّل بعض الجنات على بعض، أو بعض الأعناب والزرع والنخيل على بعض، من جنسه بما يثمره.

٩- جيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع؛ للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر.

١٠- خُصَّ النخل بذكر صفة صنوان؛ لأنَّ العِبْرَةَ بها أبلغ، ووجه زيادة ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ تجديد العبرة باختلاف الأحوال.

١١- من دلائل قدرة الله تعالى حصول الاختلاف في الأرض بالرغم من تَقارُبها، وحصول الاختلاف بين أنواع النبات وأشكاله وأطعامه.

١٢- تقرير البعث، وبيان عقاب منكريه بالعذاب الأبدي.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ
إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ
أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ
سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٦- ويتحدَّى زعماء الضلالة، فيطلبون من النبي ﷺ التعجيل في إنزال العقوبة فيهم، قبل الخير الذي تُبشِّرهم به، وقد مَضَتِ العقوبات في الأمم التي كَذَّبت رسلها، وإنَّ خالِقَك ومُدَبِّر أمورك - أيها النبي - لذو مغفرة لذنوب مَنْ تاب من عباده الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي لله. وإنَّ ربَّك لشديد العقاب والعذاب للمُكَذِّبين بالله ويوم الحساب.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ الآية، المراد بالسيئة هنا: العقوبة، وإنزال العذاب قبل الحسنة: أي قبل العافية، وقيل الإيمان، وقد بَيَّنَ تعالى في هذه الآية أنَّ الكفار يطلبون منه ﷺ أن يُعَجِّلَ لهم العذاب الذي يُخَوِّفُهم به إن تمادَوا على الكفر، وقد بَيَّنَ هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]».

٧- ويتمادَون في تكذيبهم بطلبِ مزيدٍ من المعجزات، فيقولون: هَلَّا أُنزل على محمد من ربِّه معجزة كمعجزة موسى وعيسى وصالح. وليس ذلك بيدك، وإنَّما الذي أُرْسِلْتَ به هو إبلاغهم بالدعوة إلى الله تعالى، وإنذار الكفَّار من النار، ولكل أُمة رسول يهديهم إلى اتِّباع الحق، وإلى توحيد الله وعبادته كما أنك داعٍ لِـمَنْ أرسلت إليه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾- في أصح الأقوال – أي: ولكل قوم داعٍ يدعوهم». (الجواب الصحيح ٢/ ٩٩).

٨-٩- يُخبر الله تعالى عن سعة علمه وإحاطته بالأخبار والأسرار: الله يعلم أحوال ما تحمله كلُّ أنثى حامل في بطنها من ذكر أو أنثى، سعيد أم شقي، ويعلم ما تُنقصه الأرحام من سقوط الجنين ما قبل تسعة أشهر، وما تزداد الأرحام في الحَمْل ما بعد تسعة أشهر، وما تزداد من أعداد الأولاد كالتَّوءَم فأكثر، وكلُّ شيء من الأشياء عند الله بقَدْرٍ معلوم وزمن محدود، وهو سبحانه عالم بكل ما خَفِيَ عن الخلق، وبما هو مشاهد، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، المتعال على جميع خلقه بذاته وقدرته.

١٠- ومن إحاطة علمه سبحانه بالأحوال أنَّه يستوي في عِلْمِه مَنْ أخفى القول منكم، ومَنْ جهر به، وكذلك يستوي عنده مَنْ استتر بأعماله في ظلمات الليل، ومَنْ جَهَرَ بها في وَضَحِ النهار.

١١- ولكلِّ إنسان ملائكة تتعاقب في حفظه ورعايته، يحفظونه بأمر الله تعالى، ويُحْصُون عليه أعماله من خير وشر. إنَّ الله تعالى لا يُغَيِّر نعمةً أنعمها على قوم، إلا إذا غَيَّروا ما أمرهم به فعَصَوه، وإذا أراد الله تعالى ابتلاء قوم بمصيبة فلا أحد يقدر أن يمنع ذلك، وليس لهم من دون الله من ناصر ومُعينٍ لجَلْبِ خيرٍ أو دَفْعِ شرٍّ. عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يَعْرُج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصَلُّون، وأتيناهم وهم يُصَلُّون».

(صحيح البخاري ١٣/ ٤٢٦ برقم ٧٤٢٩-كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾، وأخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٤٣٩-كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر برقم ٦٣٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٦) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٢- من علامات غرور المشركين وعدم الاستفادة من عقولهم: أنَّهم يستعجلون وقوع العذاب بهم.

٣- عِلْمُ الله ﷻ ما في الأرحام منذ نشأة الجنين.

٤- التحذير من الأقوال والأفعال السيئة، فإنَّ الله يعلم بها جميعاً، سواءً كانت سراً أم جهراً.

٥- شمول علم الله تعالى لكلِّ صغير وكبير، وكلِّ شاهد وغائب في الكون.

٦- الرعاية الربَّانيَّة للإنس بحفظ الملائكة لهم.

٧- تغيير الأحوال من سيِّئ إلى أحسن مرهونٌ بتغيير النفوس، وتنقيتها من الشبهات والمحرَّمات.

٨- تقرير الإيمان بالقدر.

٩- عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».

(صحيح البخاري ٨/ ٢٢٥-كتاب التفسير- سورة الرعد، برقم ٤/ ٦٩٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ
بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ
وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى
ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ
شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢- هو سبحانه وحده الذي يريكم الضوء اللامع من خلال السحب التي تتداخل فيما بينها، فتخافون من صوتها الهادر وصواعقها المُحرقة، وتطمعون أن ينزل معه المطر النافع، وهو وحده يُنْشِئُ السحب الكثيفة، المُحمَّلة بالماء الغزير.

١٣ - سبب النزول:

عن أنس ﷺ قال: أرسل رسولُ الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رأس من رؤوس المشركين يدعوه إلى الله، فقال: هذا الإله الذي تدعو إليه، أمِنْ فضة هو أم من نحاس هو؟ فتعاظم مقالته في صدر رسول رسول الله ﷺ، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجِعْ إليه فادْعُه إلى الله»، فرَجَعَ فقال له مثل مقالته، فأتى رسولَ الله ﷺ فأخبره، فقال: «ارجِعْ فادْعُه إلى الله»، وأرسل الله عليه صاعقة، فرجع فقال له مثل مقالته، فأتى رسول رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «ارجِعْ إليه فادْعُه إلى الله»، ورسول رسول الله في الطريق لا يعلم، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره أن الله قد أهلك صاحبه، ونزلت على النبيِّ ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾. (أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٨٧-٨٨ برقم١٣٣٤١، قال محققه: إسناده صحيح. وأخرجه ابن أبي عاصم (السنة ١/ ٣٠٤ برقم٦٩٢) قال الألباني: إسناده صحيح).

التفسير:

ويُسَبِّح الرعد وهو صوت ارتطام السحاب حين يسوقه المَلَكُ الموَكَّل به، فهو يسبِّح، والملائكة كلُّهم يُسبِّحون بالثناء والشكر لله ﷻ هيبة ورهبة من الله تعالى، ويُرسل الله تعالى الصواعق المُحرقة، فيُهلك بها مَنْ يشاء من خلقه، والكفَّار يُجادلون في قدرة الله على البعث، وهو شديد القوة والبطش بمَنْ عصاه.

١٤ - لله ﷻ دعوة التوحيد، فلا يُعبد سواه، والذين يعبدون الأصنام والأوثان من غير الله، ويَدْعُونها لا تجيب دعاءَ مَنْ دعاها، فحالهم مثل حالِ عطشان يبسط يده إلى الماء؛ ليصلَ إلى فمه فلا يصل؛ لأنَّ الكَفَّ المبسوطة لا تقدر على إيصال الماء إلى الفم، وما دعاء المكذِّبين بالله إلا في ضياع وخسران.

١٥ - ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض، فيخضع المؤمنون طواعِيَةً، ويخضع الكافرون كراهية وقت الشدَّة، وكذلك ظلالهم، والمخلوقات وظلالها تسجد لله بامتدادها على الأرض في أول النهار وآخره.

١٦ - يأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يُنكِرَ على المشركين، ويُوَبِّخهم بعدة سؤالات، ثم يجيب عنها: قل: مَنْ خالق السموات السبع والأَرَضين السبع؟ قل: الله سبحانه. قل: أجعلتم لله شركاء عبدتموهم من دونه، وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دَفْعِ الضر عنها، فكيف يستجيبون لغيرهم؟ قل لهم أيضاً: هل يستوي عندكم الكافر والمؤمن؟ أم هل يستوي عندكم ظلمات الضلالة ونور الهداية؟ أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله، فالتبس الأمر عليهم، فلا يُمَيِّزون بين ما خَلَقَه الله تعالى وما خَلَقَتْه آلهتهم؟! قل لهم: الله سبحانه خالق كلِّ كائن من العدم، وهو المتفرِّدُ بالألوهية والربوبية، الذي قهر جميع الكائنات، وذَلَّتْ له جميع المخلوقات.

١٧ - أنزل الله تعالى من السحاب مطراً، فجَرَتْ به أودية الأرض بقدر صغرها وكبرها، فحمل السيل غُثاءً ورَغْوة كثيفة، وبعض المعادن التي يوقدون عليها النار؛ ليصهروها كالذهب والفضَّة؛ طلباً للزينة والنفع بها، فيعلوها أيضاً زبد لا فائدة فيه. شبَّه ذلك المذكور بالحق والباطل: فمَثَلُ الحقِّ في ثباته كمثل الماء الصافي الذي يُسقى به الحرث، والمعدن النقي الذي ينفع الناس، ومَثَلُ الباطل في زواله كالزبد الذي لا خير فيه يطفو على وجه الماء وفوق المعادن. بمثل ذلك يُبَيِّن الله الأمثال للناس؛ ليتضح الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من آيات الله تعالى التي تدلُّ على عظمة قدرته خَلْقُ الرعد والبرق والسحب الحافلة بالأرزاق والأمطار.

٢ - اكتشف العلماء عدة حقائق:

أ- أنَّ الرياح لها دور رئيس في عملية تَكَوُّن السحب.

ب- أنَّ السحاب يأخذ أشكالاً لا حصر لها في جو السماء.

ج- ضرورة تجميع كميات كبيرة من بخار الماء في حيز واحد.

د- أنَّ البرد لا يمكن أن يتكون إلا في طبقات الجو الباردة جداً.

هـ- أنَّ السحب الرعدية يجب تقسيمها إلى خلايا؛ لكي تتمكن من تكثيف ما بها من بخار.

و- وجود سحب ثقيلة تحمل كميات كبيرة من الماء تقاس بملايين الأطنان.

(http://www.quran-m.com/container2.php?fun-artview&id-1033).

ينظر: صورة السحب الثقال المتراكمة في الملحق.

٣- تقرير تسبيح الملائكة لله تعالى من هيبته ورهبته.

٤ - من حكمة الله تعالى أن يضرب الأمثال للناس؛ لتسهيل الدعوة لهم، وتقريب الحق إلى عقولهم.

٥- لا نفع أبداً من الإشراك بالله تعالى.

٦- كلُّ الكون وما فيه خاضع لله تعالى، وظلال المخلوقات تسجد لله بامتدادها على الأرض في أول النهار وآخره.

٧- أثبتت النتائج أنَّ ظلال كل الأجسام تشير وتدل على اتجاه مكة المكرمة حيث القبلة في أربعة أوقات محددة من العام، وفي هذه الأوقات تكون الشمس متعامدة إما على مكة المكرمة، أو على الموقع المقابل لها في نصف الكرة الجنوبي المسمى بـ«نظير القبلة»، أي: إنَّ الشمس والظل الممدود في هذه الأوقات الأربعة

تكون هادية ومرشدة لاتجاه القبلة بطريقة مباشرة وصريحة. (الإعجاز العلمي في إثبات حركة الظلال، بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٢٥).

٨- إقامة الحُجَّة على الكفَّار بالأدلَّة المحسوسة.

٩- الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحيان، فإنَّ الله تعالى سيُدَمِّره، ويجعل العاقبة للمتقين.

١٠-مثلُ المؤمن النافع كالماء النقي والمعدن الخالص، ومثلُ الكافر الذي لا ينتفع منه كالزبَد، سرعان ما يزول.

١١-من الحقائق العلمية حول الزبد ما يلي:

أ- إنَّ الزَّبَدَ لا يتشكل إلا في حالة الحركة السريعة التي تحدث نتيجة إعصار أو نتيجة السيول العنيفة، وتتشكل دائماً على سطح الماء في الأعلى.

ب- إنَّ وزن هذه الرغوة أو الزبد خفيف جداً، ويتطاير في الهواء مثل البخار.

ج- إنَّ كمية صغيرة من الماء تكفي لتشكيل كمية كبيرة من الزبد، أي: إنَّ الزبد ليس له قيمة أو وزن أو فائدة!. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-13-13/241-2010-09-09-22-11-27)

وينظر: صورة توضح فاحتمل السيل زبداً رابياً، كما في الملحق.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾
وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ
وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى
ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ
﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨- جزاء المؤمنين المُطيعين لله ورسوله الجنَّة، والذين كذَّبوا وعَصَوا لهم النار. ولو ملكوا كل ما في الأرض، فأعطوه فداء لأنفسهم من عذاب الله يوم القيامة، لم يُتقَبَّل منهم. أولئك البعداء عن الحق لهم سوء العذاب على ذنوبهم في الآخرة، ومصيرهم نار جهنم، وقَبُحَ المصيرُ الذي يستقرُّون فيه.

١٩-٢٠- إنَّ المهتدين والضَّالين لا يستوون، أيكون الذي يعلم أنَّ ما جاءك - أيها الرسول - من عند ربِّك هو الحق الثابت فيؤمن به، كمَنْ هو أعمى القلب عن الحقِّ الذي لا يؤمن؟ إنَّما يتعظ أصحاب العقول السليمة الذين يُوفُون بعهد الله تعالى الذي أمرهم به، ولا ينكثون العهد الأكيد.

٢١-٢٣- والذين يَصِلُون الأرحام والمحتاجين، ويخافون وعيد ربِّهم، ويخافون الحساب العسير المؤدي لدخول النار، والذين صبروا على الطاعة وعن المعاصي؛ طلباً لرضوان الله، وأدَّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها، وأعطوا الزكاة المفروضة والنفقات سِرّاً وجهراً، ويفعلون الحسنات لمحو السيئات. أولئك أصحاب المنزلة العالية، لهم العاقبة المحمودة، في جنات يقيمون فيها أبداً، ومعهم الصالحون من الآباء والزوجات والأولاد، وتدخل الملائكة عليهم من أبواب الجنة الثمانية.

٢٤- وتحييهم الملائكة: السلام عليكم من كلِّ شرٍّ ومكروه؛ بسبب ما صبرتم، فنعم عاقبة الدار الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٨) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٢- قال ابن عاشور: «أُعيد اسم الموصول هذا وما عُطِفَ عليه من الأسماء الموصولة؛ للدلالة على أنَّ صِلاتِها خصالٌ عظيمة تقتضي الاهتمام بذكر مَنِ اتصف بها، ولدَفْعِ تَوَهُّم أنَّ عقبى الدار لا تتحقق لهم إلا إذا جمعوا كل هذه الصفات». (التحرير والتنوير: ١٢/ ١٧٣).

٣- الفرق بين مصير المطيعين لله تعالى وغيرهم في الجزاء.

٤- في الآية (٢٣) بشرى لِـمَنْ كان له سلف صالح، أو خَلَف صالح، أو زوج صالح ممَّنْ تَحَقَّقَتْ فيهم هذه الصلاة أنَّه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه.

٥- بيان فضائل صفات المؤمنين.

٦- الاستفادة من العقل في التفكُّر الصحيح يقود إلى طاعة الله تعالى.

٧- بشرى المؤمنين بأقاربهم الصالحين في دخول الجنة.

٨- الملائكة تُسَلِّم على المؤمنين في الجنة.

٩- بيان فضل الصبر، ومنازل الصابرين.

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن
يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ
الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي
أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾

التفسير:

٢٥- والذين ينقضون عهد الله المؤكَّد، ويقطعون الأرحام وغيرها، ويفسدون في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي. أولئك البعداء عن الحق لهم الطرد من رحمة الله، واللَّعنات التي تُلاحقهم، ولهم سوء العذاب في الدار الآخرة.

٢٦- يُخبر الله تعالى عن تَفاوُتِ أرزاق العباد، فيوسِّع سبحانه الأرزاق على مَنْ يشاء من عباده، ويُضيِّق على مَنْ يشاء مِنْ عباده، ويفرح الكفَّار بالسَّعة في الحياة الدنيا الزائلة. وما هذه الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا شيء قليل في متعته وفي مدته.

٢٧-٢٨- ويقول أهل الضلال من الكفَّار: هَلَّا أُنزِلَ على محمد معجزة مشاهَدة، كمعجزة العصا وغيرها. فيَرُد سبحانه عليهم: إنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يشاء من المتمردين على اتِّباع الحقِّ فلا تقنعهم معجزة، ويهدي سبحانه الذين تابوا إليه من ذنوبهم، الذين صَدَّقوا به وأَقَرُّوا له بالوحدانية، وتطمئنُّ قلوبُهم، وتستأنس بذكر الله في توحيده وطاعته. ألا فانتبهوا أيها الناس، فإنَّ القلوب بذِكْرِ الله تَطِيب وتستأنس.

٢٩- يُبَشِّر الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بالفرح والحياة الطيِّبة التي تُقَرُّ فيها العين، وحسن المستقر في الجنة.

٣٠- ومثل ما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك - أيها الرسول - في أُمة قد مَضَتْ قبلَها أُمَمٌ كثيرة، لتقرأ عليهم القرآن العظيم الذي أنزلناه عليك، وهم يُكَذِّبون بالرحمن. قل لهم: إنَّ الرحمن الذي كفرتم به هو خالقي، ويَتَوَلَّى أمري، لا معبودَ بحق سواه، عليه اعتمدت، وبه وَثِقْتُ، وإليه توبتي ومرجعي.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم نَقْضِ العهد، واستحقاق اللعنة بالطرد من رحمة الله تعالى لِـمَنْ نقض عهده.

٢- سعة الرزق على العبد لا تعني رضا الله عنه، وكذا ضيق الرزق لا يعني غضب الله عليه.

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند الآية (٢٨): «تقديم المفعول يدل على أنَّها لا تطمئن إلا بذكره وهو تعالى إذا ذُكِرَ وَجِلَتْ، فحَصَلَ اضطراب ووَجَلٌ لما تخافه من دونه، وتخشاه من فوات نصيبها منه». (مجموع الفتاوى ١/ ٢٢).

٤- بيان فضل تعظيم الله تعالى، وتلاوة القرآن.

٥- مهمَّة الرسل بلاغ الحقِّ، وإقامة الحُجَّة.

٦- تَضمَّن لام التعليل في قوله: ﴿لِتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ﴾ أنَّ الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله، لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات».

٧- تقرير رسالة النبيِّ محمد ﷺ.

٨- الإتيان بالاسم الظاهر في مقام الإضمار ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾؛ لما في ذلك من الروعة والإجلال، ولتشنيع كفرهم به، ومزيد إنكار عليهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥)﴾

التفسير:

٣١- ولو كان كتاب من الكتب المنزلة سُيِّرت بتلاوته الجبال فزالَتْ، وشُقِّقَتْ به الأرض أنهاراً فاخضرَّت، وخُوطب به الموتى فأحياها وأجابت، لكان هذا القرآن هو الذي اجتمعت فيه هذه الآيات المحسوسة لما آمنوا به، ولكنَّ الله لم يُجبهم إلى ما اقترحوا من الآيات؛ لأنَّه هو المالك لجميع الأمور المُتصرِّف فيها كيف يشاء. أفلم يقنط المؤمنون من تصديق الكفَّار الذين طلبوا الآيات المحسوسة، ويعلموا

أنَّ الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم جميعاً؟ ولا يزال الكفَّار تُفْجعهم المصائب؛ بسبب ما فعلوه من الجرائم، أو تُصيب الديار المجاورة لهم، فترعبهم حتى يأذن الله بإظهار الإسلام والنصر على الأعداء. إنَّ الله لا يُخْلِفُ وعده أولياءه بنصرهم في الدنيا، وإكرامهم في الآخرة.

٣٢- وقسماً لقد استهزأ الكفَّار برسلهم من قبلك أيها الرسول، فأَمْهَلْتُهم وتَرَكْتُهم في أمن، ثم أَخَذْتُهم بالعقاب بغتة، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم؟

٣٣-٣٤- أفمَنْ هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان، كهذه الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع؟ وجعلوا لله شركاء من خلقه يعبدونهم. قل لهم أيها النبي: اذكروا أسماءهم وصفاتهم، فهل لهم ما يستحقُّون به العبادة؟ ثم أعاد الإنكار عليهم مُوَبِّخاً لهم: أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم؟ أم تُسَمُّونهم شركاء بظاهر من اللفظ الباطل لا حقيقة له؟ بل حَسَّن الشيطانُ للكفَّار قولهم الضالَّ، وامتناعهم عن الهداية، ومَنْع الناس منها، ومَنْ يضلله الله تعالى فماله أحد يقدر على هدايته، لهم عذاب في الحياة الدُّنيا بالقتل والأسر والذلَّة. ولَعذابُ الآخرة أشدُّ وأثقلُ في المشقة، وليس لهم مَنْ ينقذهم من عذاب الله تعالى.

٣٥- من صفة الجنَّة التي وعد الله تعالى بها المُتقين أنَّها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العذبة، ثَمَرُها لا ينقطع، وظِلُّها ممدود. تلك المثوبة ذات المنزلة العالية عاقبة المُتقين، وعاقبة المُكذِّبين بالله نار جهنم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير الرسالة بإعجاز القرآن الكريم.

٢- تهديد الكفَّار بالكوارث والمحن؛ بسبب عدم إيمانهم.

٣- جملة ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ عطف على ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بحرف الإضراب، أي ليس ذلك من شأن الكتب، بل لله أمر كلِّ محدث، فهو الذي أنزل الكتاب، وهو الذي يخلق العجائب إن شاء».

٤- إمهال الله تعالى للمستهزئين، لا يعني إهمالهم.

٥- بطلان عبادة كلِّ شيء سوى الله تعالى.

٦- التحذير من نَزَغات الشيطان.

٧- دوام نعيم الجنة على المؤمنين.

٨- قال ابن عاشور عند الآية (٣٣): «تَضَمَّنَ هذا الاحتجاجُ أساليبَ وخصوصياتٍ، منها ما يلي:

أحدها: توبيخهم على قياسهم أصنامَهم على الله في إثبات الإلهية لها قياساً فاسداً؛ لانتفاء الجهة الجامع، فكيف يُسَوَّى مَنْ هو قائم على كلِّ نفس بمَنْ ليسوا في شيء من ذلك.

ثانيها: تجهيلهم في جعلهم أسماءً لا مسميات لها آلهة.

ثالثها: إبطال كون أصنامهم آلهة بأنَّ الله لا يعلمها آلهة، وهو كناية عن انتفاء إلهيتها».

(التحرير والتنوير: ١٢/ ١٩٤).

٩- في الآية (٣٤) ﴿مِّنَ﴾ الداخلة على اسم الجلالة؛ لتعدية ﴿وَاقٍ﴾، و﴿مِن﴾ الداخلة على ﴿وَاقٍ﴾؛ لتأكيد النفي للتنصيص على العموم.

١٠- في الآية (٣٥) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٣٦- والمؤمنون من أهل الكتاب يفرحون بالقرآن العظيم؛ لأنّهم عرفوا اتِّباع الحق، والكفّار الذين تألَّبوا على عداوة المؤمنين يُنْكِرُون بعض أحكام القرآن وأخباره. قل لهم أيها الرسول: إنَّما أمرني ربي أن أعبده وحده، ولا أشرك به شيئاً في عبادته، إلى عبادته أدعو الإنس والجن، وإليه وحده مصيري ومرجعي.

٣٧- ومثل ما أنزلنا الكتب على الرسل بلسانهم، أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن الحكيم حافلاً بالحكم التي تحكم بالحق، فصيحاً مُفَصَّلاً بلغة العرب. وقسماً إن اتَّبَعْتَ المشركين فيما يَدْعُونك إليه من الأهواء بعد ما أعطاك الله من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ليس لك ناصر ينقذك من عذاب الله تعالى. وفي هذا تحذير الأُمَّة من ذلك؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ منه.

٣٨- قسماً لقد أرسلنا رسلاً تترى من البشر من قبلك أيها الرسول، وجعلنا لهم أزواجاً وأولاداً، وما كان لرسول أن يأتي قومه بمعجزة إلا إذا أَذِنَ الله له فيها، لكلِّ أمرٍ من الأمور وقتٌ قَدَّره الله، وأثبته في كتاب عنده.

٣٩- يمحو الله تعالى ما يشاء من الأحكام بنسخها، ويُبقي ما يشاء منها؛ لحكمة أو مصلحة، وعنده أصل الكتب، وهو اللوح المحفوظ.

٤٠- وسواء أريناك - أيها الرسول - بعض العذاب الذي تَوَعَّدْناهم به كالقتل والأسر والقهر في الدنيا، أو نتوفَّيَنَّك قبل تعذيبهم، فما عليك إلا تبليغ الدعوة في الدنيا، وعلينا العقاب والثواب في الدنيا والآخرة.

٤١- يُنْكِرُ الله تعالى على الكفَّار مُوَبِّخاً لهم؛ لعدم اتِّعاظهم بالحوادث: أَوَلم يعلم هؤلاء الكفَّار أنَّنا ننتقص من جوانب الأرض التي يعيشون عليها، بدمارها غرقاً، أو حَرْقاً، أو نَهْباً، أو فَتْحاً للمؤمنين؛ لنشر الدعوة إلى الله تعالى، والقضاء على الفساد والفتن؟ والله تعالى يقضي ما يريد؛ لأنَّه لا رادَّ لقضائه، وهو سريع الحساب في الثواب والعقاب.

٤٢- وقد تآمر الكفَّار الذين سَعَوا بالمكايد والشدائد على أنبيائهم، كما مكر كفَّار قريش بك أيها الرسول، فللَّه المكر جميعاً، فلا يقدر أحد أن يمكر مكراً ويُدَبِّر مكيدة، إلا بقضائه وقدره. يعلم سبحانه ما تكسب كلُّ نفس من خير أو شرٍّ، وسيعلم كلُّ كافرٍ لِـمَنِ العاقبة المحمودة في الدار الآخرة، لهم أم للمؤمنين؟

٤٣- ويقول الذين كَذَّبوا الله ورسوله: يا محمد أنت لست رسولاً مرسلاً من الله إلى الناس. قل لهم: يكفيني شاهداً على صدقي أنَّ الله تعالى يشهد على صدقي، وعلى كَذِبكم، بما أنزل من المعجزات الباهرة والحجج الظاهرة، ويلحق بهذه الشهادة العظيمة مَنْ عنده علمٌ مِنْ مؤمني اليهود والنصارى.

وقال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الظاهر أنَّ قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، وأنَّ المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل. ويَدُلُّ له قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] إلى غير ذلك من الآيات».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم أهل الكتاب، فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد، فيشهدون أنَّهم أتَوا بمثل ما أتى به، كالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك، والإخبار بيوم القيامة، والشرائع الكلية، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذِكْرِ صفاته ورسالته وكتابه». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٩٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- الثناء على مؤمني أهل الكتاب.

٢- قوله تعالى: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حالان من ضمير ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والحُكْمُ هنا بمعنى الحكمة كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وجُعِلَ نفسُ الحكم حالاً منه مبالغة، والمراد أنه ذو حكم، أي: حكمة.. إذ الحكمة لا توصف بالنسبة إلى الأُمم، وإنَّما المعنى أنه حكمة معبر عنها بالعربية.. ثم في كونه عربياً امتنان على العرب المخاطبين به ابتداءً بأنَّه بلغتهم، وبأنَّ في ذلك حُسْنَ سمعتهم».

٣- التحذير من اتِّباع أهواء أهل الباطل.

٤- ثبوت النَّسْخ، وتَعَلُّقه بحِكَمٍ عظيمة.

٥- إنَّ انكماش الأرض على ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة على العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس، وللمحافظة على المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لابُدَّ وأن تفقد الأرض من كتلتها وزناً متناسباً تماماً مع ما تفقده الشمس من كتلتها. وتبادل الأدوار بين اليابسة والماء هو سُنَّة أرضية تعرف باسم دورة التبادل بين المحيطات والقارات، وتَحَوُّل أجزاء من اليابسة إلى بحار، والتي من نماذجها المعاصرة كل من البحر الأحمر، وخليج كاليفورنيا. وإنقاص الأرض من أطرافها بمعنى: التصحر، أي: زحف الصحراء على المناطق الخضراء وانحسار التربة الصالحة للزراعة في ظلِّ إفساد الإنسان للبيئة على سطح الأرض. (آيات الاعجاز العلمي: الأرض في القران الكريم للدكتور زغلول النجار الصفحات ١٤٩-١٦٥).

٦- مَكْرُ الله تعالى عظيم بالماكرين.

٧- البلاغ والإنذار مهمَّة الرسول ﷺ، فلا ضَيْرَ إن لم يؤمنوا.

٨- شهادة الله تعالى لِصِدْقِ النبيِّ ﷺ أعظم دليل على صدق رسالته.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تعظيم القرآن الكريم.

٢ - تقرير الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ - حقيقة وحدة الرسالة السماوية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ
لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ
لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ -٢- ﴿الٓر﴾ تقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن.

هذا القرآن كتاب عظيم القدر أنزلناه - لِما لنا من القدرة والعظمة - إليك أيها الرسول؛ لتُخْرِجَ به الإنس والجن بإذن خالقهم، ومُدبِّر أمورهم من ظلمات الكفر والجاهلية إلى نور الإيمان والهداية، إلى دين الإسلام الذي هو طريق الله العزيز في ملكوته، المحمود في كل حال، طريق الله الذي له ملك ما في السموات السبع والأرضين السبع، والهلاك والعذاب الشديد للمُكذِّبين بالله ورسله.

٣- ومن صفات هؤلاء المُكذِّبين أنَّهم ينشدون محبة الحياة الدنيا الفانية، مُؤْثِرين لها على الآخرة الباقية، ويمنعون الناس عن اتِّباع الإسلام، ويَحْرِمُون أنفسهم من ذلك، ويسعون في الأرض فساداً. أولئك البُعَداءُ عن الحق وعن رحمة الله في ضلال بعيد جداً عن الحق؛ لشدَّة انحرافهم عنه.

٤ - وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه، ليُفَصِّلَ لهم شريعة الله وأحكامه، فيُضِلُّ الله تعالى مَنْ يشاء عن الهدى، ويهدي مَنْ يشاء إلى الحقِّ، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير أمور مخلوقاته.

٥- وقسماً لقد أرسلنا موسى ﷺ إلى بني إسرائيل بالمعجزات المرئية والبراهين السمعية التي تدل على صدق رسالته، وأمرناه أن يدعوهم إلى الإيمان بالله، وأن يُخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية، وأن يَعِظَهم بالوقائع والأهوال التي أصابت الأُمم السابقة. إنَّ في ذلك التذكير العظيم لَدلالاتٍ واضحاتٍ على وحدانية الله تعالى، وعبرة وموعظة لكل صَبَّار على البلاء، شكور للنعماء.

٦- يُذكِّر الله تعالى حين قال موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل: اذكروا فضل الله عليكم وقت أن أنقذ آباءكم من ظلم فرعون وأعوانه، الذين كانوا يذيقونكم أشد العذاب والنَّكال، ويقتلون أبناءكم، ويتركون الإناث أحياء للخدمة والامتهان، وفي هذا العذاب المهين اختبار عظيم من ربِّكم سبحانه.

٧- وقال موسى ﷺ لهم أيضاً: واذكروا حين أعلم الله تعالى إعلاماً بليغاً تنتفي عنه الشكوك: قسماً إن شكرتموني قولاً وعملاً على نَعمائي عليكم لَأزيدَنَّكم من النعم زيادة أكيدة. وقسماً إن جحدتم تلك النِّعَمَ لَأُعَذِّبنَّكم عذاباً شديداً.

٨- وقال موسى ﷺ لبني إسرائيل: إن تجحدوا نِعَمَ الله تعالى، ولم تُقِرُّوا له بالوحدانية أنتم وجميع أهل الأرض، فلن تَضُرُّوا الله شيئاً، فإنَّه سبحانه غني عن خلقه جميعاً، محمود على كل حال في تَصَرُّفه فيهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى تحدِّي القرآن بالحروف المقطعة.

٢- بيان أثر نزول القرآن الكريم في إنقاذ الإنس والجن من الكفر.

٣- إجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة؛ لزيادة التفخيم لا للتعريف.

٤- قوله تعالى: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ بمعنى يُحِبُّون، فالسين والتاء للتأكيد مثل: استقدم واستأخر، وضَمَّن ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ معنى يُؤْثِرُون، لأنَّ المحبة تَعَدَّتْ إلى الحياة الدنيا عقب ذكر العذاب الشديد لهم.

٥- من فضل الله تعالى على البشر أَنْ أرسل كل رسول إلى قومه بلُغتهم؛ لتسهيل البلاغ.

٦- التذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزته.. وقد أحاط بمعنى هذا الشمول حرف الظرفية من قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ الظرفية تجمع أشياء مختلفة يحتويها الظرف؛ ولذلك كان لحرف الظرفية هنا موقع بليغ.

٧- أهمية التذكير بالقصص التي فيها مواعظ؛ لتُعِينَ على الصبر والشكر.

٨- بيان فضل الشكر في دوام النعم، وزيادتها.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ
لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن
نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى
اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

٩- ألم يأتكم - أيها الناس - خبرُ الذين مَضوا من قبلكم من الأُمم المُكذِّبة كقوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم من الأُمم، لا يُحصي عددَهم إلا الله تعالى؟ جاءَتْهم رُسُلُهم بالبراهين الساطعة، فعَضُّوا أيديَهم غيظاً من الحسد، واستنكافاً عن قبول الإيمان. وإضافة إلى هذا الفعل قالوا لرسلهم: إنَّنا لا نُصدِّقُ بما جئتم به، وإنَّنا في شك محيط بنا موجب للتهمة من كلِّ شيء تَدْعُوننا إليه - أيها الرسول - من أمور الدين.

١٠ - فرَدَّتْ عليهم رُسُلُهم مُنْكِرين عليهم، مُوبِّخين لهم: أفي وجود الله ووحدانيته وعبادته شكٌّ، وهو خالق السموات السبع والأرَضين السبع ومُبْدِعُها، يدعوكم إلى عبادته وطاعته؛ ليغفر لكم من ذنوبكم، ويُؤَخِّركم في الحياة الدنيا إلى منتهى آجالكم، فلم يُعاجِلْكم في عقابكم؟ فرَدُّوا على رُسُلِهم بسفاهة الجاهلية: ما أنتم سوى بشر، صفاتكم كصفاتنا، تريدون أن تَصْرِفونا عَمَّا كان يعبد آباؤنا وأجدادُنا من الأوثان والأصنام، فَأْتُونا بدليلٍ محسوسٍ يشهد لكم على صحَّة ما تقولون.

١١-١٢- قالت الرسل لأقوامهم: ما نحن إلا بشرٌ مثلُكم في الخِلْقَة والطبع كما قلتم، ولكنَّ اللهَ يتفضَّل بكرمه على مَنْ يشاء منهم بالنبوة، وما سألتم من الآيات الدالَّة على صدقنا، فإنَّها ليست من شأننا ولا في استطاعتنا، إلا بمشيئة الله وقدرته. وعلى الله وحده فليعتمد المُصَدِّقون بالله ورسله، وأيُّ شيء يمنعنا من التوكُّل على الله تعالى، وقد أرشدَنا ووَفَّقَنا إلى دين الإسلام وطريق الجنة؟ وقسماً لَنصبرنَّ صبراً أكيداً على أذاكم وتكذيبكم. وعلى الله وحدَه فليعتمد الـمُتوكِّلون على الله، الواثقون بوعده.

١٣-١٤- وأقسم جبابرة الكفر يُهدِّدون رسلهم: لنُخْرِجَنَّكم من ديارنا إخراجاً أكيداً، أو لَتَرْجِعُنَّ إلى ديننا، فأوحى الله إلى رسله أنَّه سيُهلِكُ هؤلاء المعتدين على المرسلين، ولَنُسْكِنَنَّكم ديار هؤلاء الكفَّار المُعتدين بعد هلاكهم. ذلك الوعد الكريم العظيم للمؤمنين الذين خافوا مقامي بين يدي يوم القيامة، وخَشُوا وعيدي بالعذاب عند الحساب.

١٥-١٧- وطَلَبَ الرُّسُلُ من الله تعالى النصر والفتح، فاستجاب لهم، وهَلَكَ كلُّ مُتكبِّرٍ شديد العناد للحق، مصيره نار جهنم في انتظاره، ويُسقى فيها من قيح ودم يخرج من أجسام أهل النار، يتكلَّفُ بمشقة أن يبلعه فيَغَصَّ به، ولا يقرب من إساغته، لعدم تَقَبُّله له من شِدَّة قذارته ومرارته، ويأتيه أسباب الموت من العذاب الشديد الـمُحيط به من كلِّ جهاتِه، ولكنَّه لا يموت؛ ليذوقَ شِدَّةَ العذاب باستمرار، بل يعقبه عذاب شديد الوجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- تشابُهُ رَدِّ الأقوام على رُسُلِهم، يَدُلُّ على تَشابُه نَزْغَةِ الشيطان الذي يُزَيِّنُ لهم.

٢- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قول الرسل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ هو نفي، أي ليس في الله شك. واستفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مُقِرُّون به من أنَّه ليس في الله شك، فهذا استفهام تقرير». (مجموع الفتاوى ١٦/ ٣٣٩).

٣- خطورة التقليد الأعمى، وأثره في دمار الأُمم.

٤- إرشادُ الرسل إلى فضيلة التوكل على الله تعالى.

٥- مصيرُ الظالمين إلى دمارٍ وبَوار.

٦- مصيرُ المؤمنين إلى انتصار وحُبور.

٧- استجابة الله تعالى لرسله، والمستجيبين لأمره.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا
كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ
ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ
هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم
بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - شَبَّه أعمال الكفَّار بربهم في الدنيا برماد عصفت به الريح ونسفته، فلم تترك له أثراً، لا يقدرون على حصول ثواب ما عملوا من البر. ذلك الأمر الخطير هو الخسران الكبير، البعيد عن الهداية.

١٩ - ٢٠ - ألم تعلم - أيها الإنسان - أنَّ الله تعالى خلق السموات السبع، والأرضين السبع بأمر ثابت ونظام كامل، وأنَّه لم يَخْلُقهما عبثاً، بل للاستدلال بهما على وحدانيته واتِّباع الحق؟ إن يشأ يُمِتكم ويَخْلُق قوماً غيركم خيراً منكم، وما ذلك على الله بممتنعٍ حصولُه.

٢١ - يخبر الله تعالى عن الحوار الذي سيكون بين رؤساء الكفر وأتباعهم، وخطاب الشيطان لهم جميعاً: وظهرت الخلائق جميعاً لله ﷻ، بعد خروجهم من قبورهم يوم القيامة، فقال الأتباع من الكفَّار لزعمائهم: إنَّا كُنَّا أتباعاً لكم في الدنيا في الكفر، فهل أنتم دافعون عنَّا شيئاً من عذاب الله؟ فردَّ عليهم زعماء الكفر: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه، فلا ينفعنا الجزع والصبر، ولا يُخَلِّصنا من عذاب الله.

٢٢ - وبعد أن تَمَّ الحساب، ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، ودخل أهلُ النارِ النارَ، قال الشيطان مُتبرِّئاً من أتباعه الكفَّار الصغار والكبار: إنَّ الله وعدكم وَعْداً حقّاً بثواب المطيع وعقاب العاصي، فوَفَّى لكم وَعْدَه، ووَعَدْتُكم أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، فكَذَّبْتُكم وأَخْلَفْتُكم الوعد، وما كان لي قدرةٌ وتَسَلُّطٌ عليكم، فأجْبَرَكم على الكفر والمعاصي، ولكن دَعَوْتُكم إلى الضلال، فاتَّبعتموني، فلا تلوموني، ولكن

لوموا أنفسكم، فإنَّ الذنب ذنبكم، ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي من عذاب الله. إنِّي تبرَّأتُ من اتِّخاذكم لي شريكاً مع الله في طاعته في الدنيا. إنَّ المعتدين على حُرُمات الله لهم عذاب موجع.

٢٣- وأدخل الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً بأمر الله ومشيئته، تحيَّتُهم فيما بينهم، وتحيَّة الملائكة لهم في الجنَّة: سلام من الله، وهو الدعاء بالعافية والسلامة من كلِّ شرٍّ.

قال الشيخ الشنقيطي: «بيَّنَ في هذه الآية الكريمة أنَّ تحية أهل الجنة في الجنة سلام، وبيَّنَ في مواضع أُخَرَ أن الملائكة تحييهم بذلك، وأنَّ بعضهم يُحيي بعضاً بذلك، فقال في تحية الملائكة لهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] الآية، وقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] الآية، وقال:﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[الفرقان:٧٥]، وقال في تحية بعضهم بعضاً: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] الآية، كما تقدَّم إيضاحُه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكفار لا يستفيدون من أعمالهم الصالحة في الآخرة.

٢- تبرُّؤ الشياطين من أتباعهم في الآخرة.

٣- الشيطان لا يملك سلطة على البشر، سوى الوسوسة والتزيين.

٤- إنباء الله تعالى عمّا سيحصل في مستقبل الآخرة عن حوار الطواغيت، وأتباعهم.

٥- السلام تحية أهل الجنة.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ
﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ
إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن
يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن
كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٢٤- ألم تعلم - أيها الرسول - كيف ضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد شهادةِ أن لا إله إلا الله بشجرة كريمة، وهي النخلة، جذورُها ضاربةٌ في أطناب الأرض، وفَرْعُها مرتفع في عنان السماء؟

٢٥- تُغْدِقُ ثمارُها كلَّ وقتٍ بإذن خالِقِها؛ لأنَّ كلمة التوحيد حافلة بالبركات في الدنيا والآخرة، ويُبيِّن الله الأمثال للناس؛ لكي يَتَّعِظُوا فيؤمنوا.

٢٦- ومَثَلُ كلمة الكفر كشجرة الحنظل، الخبيثة في طعمها، اقْتُلِعَتْ جذورها لعدم ثبات عروقها، فإنَّها قريبة من سطح الأرض، ليس لها استقرار، وكذلك كلمة الكفر ليس لها بقاء، بل هي إلى فناء.

٢٧- يُثبِّت الله تعالى المؤمنين بالقول الحق: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله، يُثبِّتهم في الدنيا عند المات وقت سؤال المَلَكين في القبر، وفي القيامة يُثبِّتهم فيها من الأهوال وشدَّة الأحوال. ويُضِلُّ الله الكفَّار فلا يهتدون إلى الحق والجواب السديد، ويفعل الله ما يشاء بعباده بعَدْلِه وفَضْلِه.

عن البراء بن عازب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾».

(صحيح البخاري ٨/ ٢٢٩ كتاب التفسير- سورة إبراهيم، باب (الآية) برقم ٤٦٩٩. مسلم ٤/ ٢٢٠١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه).

٢٨-٢٩- ألم تنظر - أيها النبي - إلى حال البعيدين عن مقامك عند الله، الذين بَدَّلوا نعمة الأمن والقرآن ومجيء الرسول إلى الكفر، فأنزلوا قومهم دار الهلاك، في نار جهنم يذوقون سعيرها، وبئس المصير جهنم؟

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفَّار أهل مكة.

(صحيح البخاري ٨/ ٢٢٩ -كتاب التفسير- سورة إبراهيم، باب (الآية) برقم ٤٧٠٠).

٣٠- وجعل المشركون لله شركاءَ مماثلين له في العبادة ﷻ ليُضِلُّوا أنفسَهم والناسَ عن دين الله تعالى. قل لهم أيها الرسول: استَمْتِعُوا بنعيم الدنيا الفانية، فإنَّ مَرْجِعَكم إلى عذاب نار جهنَّم الباقية.

٣١- قل يا رسول الله لعبادي المؤمنين: يُؤَدُّوا الصلاة بأوقاتها وشروطها، ويُعْطُوا المحتاجين ممَّا رزقناهم من المال سِرًّا وجَهْراً من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه فداء النفس، ولا صداقة الأحباب.

٣٢-٣٣- يُخبر الله تعالى عن عظيم صنعه وكريم نعمه، فهو الذي خلق السموات السبع والأرَضين السبع، وأبدعهما على غير مثال سابق، وأنزل من السحاب المطر، فأخرج أنواع الزروع والثمار، وذَلَّل لكم السفن الكبيرة؛ لتسيرَ في البحرِ بأمره للانتفاع منها في السفر، ونَقْلِ الأمتعة، وذَلَّلَ لكم الأنهار العذبة للشرب وسَقْيِ الزروع والدَّوابِّ، وذَلَّل لكم الشمس والقمر بانتظام واستمرار؛ لما يُحَقِّقُ صلاحُ معايشكم، وسَخَّر لكم الليل لتسكنوا فيه، وسَخَّر النهار للسعي في طلب الرزق.

٣٤- وأعطاكم الله تعالى من كلِّ ما تحتاجون إليه، وتطلبونه منه سبحانه، من النِّعَمِ الكثيرة المتنوعة التي لا تحصى. إنَّ الإنسان لَشديد الظلم، كثيرُ الجحود لتلك النِّعَمِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة كلمة التوحيد.

٢- بشرى الله تعالى المؤمنين بتثبيتهم على الإسلام.

٣- مصير مَنْ بَدَّل نعمة الله بالكفر الخسران في الدارين.

٤- وجوب النفقة سراً وجهراً.

٥- البشرى بالاستجابة لـمَنْ سأل الله تعالى.

٦- ينظر: مخطط تكوين المطر في الملحق.

٧- عظمة نِعَمِ الله وكثرتها.

٨- تسخير الكون للإنسان؛ ليقيم العدل والإيمان.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٥-٣٦- يُذَكِّر الله تعالى بدعاء إبراهيم عليه السلام وتَضَرُّعِه وحَمْدِه لله سبحانه، حين أسكن زوجَه هاجر وابنهما إسماعيل في (مكة)، فقال: يا ربِّ اجعل (مكة) بلد أمن وطمأنينة، يأمن فيها البشر على أنفسهم ويستأنسوا بها، ويأمن ما فيها من الصيد والشجر، واصْرِفْني وأَبْعِدْني أنا وأبنائي وأحفادي عن عبادة الأصنام التي أضلَّتْ كثيراً من الخلق عن الإسلام، فمَنِ اقتدى بي في التوحيد والإسلام فهو من أهل ديني، ومَنْ خالف أمري في ديني، فإنَّك غفور لذنوب التائبين، رحيم بهم.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا: هل أجاب دعاء نبيِّه إبراهيم هذا؟ ولكنه بيَّن في مواضعَ أُخَرَ أنَّه أجابه في بعض ذريته دون بعض، كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] الآية».

٣٧- يا ربَّنا إني أسكنت ابني إسماعيل وزوجتي هاجَر بوادٍ ليس فيه زرع، بجوار بيتك الحرام، أي: الكعبة المشرَّفة وما حولها، ربنا لكي يعبدوك، ويُؤَدُّوا الصلاة في هذا الوادي المُبارك، فاجعل قلوب بعض الناس شديدة الشوق والحنين للميل إليهم واللَّحاق بهم، وارزقهم من مختلف الثمرات التي تُمَهِّد للناس العيش فيه؛ لكي يعبدوك ويشكروك على نِعَمِك وفَضْلِك.

٣٨- يا ربَّنا إنَّك العالِمُ بما نُخْفي في قلوبنا، وما نُظْهِر في نفوسنا، وما يغيب عن علم الله شيء من المخلوقات، سواء أكان في الأرض أم في السماء.

٣٩- الثناء العظيم كلُّه لله سبحانه، الذي رزقني على كِبَرِ سِنِّي ابنيَّ إسماعيل وإسحاق. إنَّ خالقي ومُدَبِّرَ أمري لسميع الدعاء، ومُجيب لعباده الذين يدعونه.

٤٠ – يا ربِّ اجْعَلْني مُحافظاً على أداء الصلاة مواظباً عليها، واجعل من ذريتي مَنْ يقوم بذلك، يا ربَّنا استجِبْ دعائي، وتَقَبَّلْ عبادتي.

٤١ – يا ربَّنا اغفِرْ لي ما قَصَّرْتُ به، واغفر لوالدي وللمُصَدِّقين بالله ورسله يوم يحاسَبُ الناس على ما قَدَّمُوه في الحياة الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١ – بيان فضل مكة المكرمة وبركاتها.

٢ – الفضلُ الكبير للدعاء في جَلْبِ الخير الكثير.

٣ – حَثُّ إبراهيمَ عليه السلام الناسَ على شكر الله تعالى.

٤ – خطورة عبادة الأصنام بمختلف أنواعها.

٥ – يقول الخبراء: تنشأ الأودية القاحلة الجافة الخالية من الزرع في الغالب من التغيرات المناخية في المنطقة على آلاف السنين، حيث يكون الوادي في الأصل خِصْباً موفور المياه ثم تتغير الظروف المناخية والجيولوجية في المنطقة، فيصبح الوادي جافًّا قاحلاً. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص١٨٣-١٨٤).

٦ – استحباب الدعاء للوالدين والأولاد والمسلمين.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ
يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ
تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟
مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ
مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟
لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ
وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا
بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٤٢- ولا تَظُنَّنَّ - أيها الرسول - أنَّ الله غافل عمَّا يرتكب المعتدون من تكذيبك وإيذاء المؤمنين. إنَّما يُمْهِلُهم ليومٍ مهيب رهيب تجمد فيه الأبصار مُفَتَّحَةً من الفزع والهلع.

٤٣- تراهم مُسرعين لإجابة الداعي، رافعين رؤوسهم، لا يطرفون بعيونهم، فهي مُفَتَّحَةٌ من رؤية الأهوال المفجعة التي تجعل قلوبهم خالية من التفكُّر والعقل.

٤٤-٤٥- وخَوِّفْ - أيها النبي - الإنس والجن عذابَ يوم القيامة. وفي ذلك اليوم يستغيث الذين ظلموا: يا ربَّنا أمْهِلْنا إلى زمنٍ قريب نُجِبْ دعوتك بالتوحيد، ونُصَدِّقِ الرسل ونَتَّبعهم. فيَرُدُّ عليهم توبيخاً لهم: ألم تحلفوا من قبلُ في الدنيا إنَّكم مُخَلَّدون فيها، وكَذَّبتم بالبعث، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر كعاد وثمود، وعلمتم كيف أهلكناهم بذنوبهم فلم تعتبروا، وبَيَّنَّا لكم الأمثال في القرآن فلم تتعظوا؟

٤٦- وقد أبرم المشركون تدبير المكايد والشدائد للنبي ﷺ وللمؤمنين، وعند الله تعالى العِلْمُ بكل ذلك المكر والجزاء عليه، وما كان مَكْرُهم لِتزولَ منه الجبال لضَعْفِه، فلم يَضُرُّوا الله شيئاً.

٤٧-٤٨- فلا تَظُنَّنَّ - أيها الرسول - أنَّ الله يُخْلِفُ وعده الذي وعد به الرسلَ بالنصر وإهلاك الكفَّار. إنَّ الله عزيز لا يعجزه شيء، قادر على الانتقام من أعداء الإسلام، وذلك يوم القيامة، يوم تُبَدَّل هذه

الأرض بأرض أخرى بيضاء نقية، وكذلك تُبَدَّلُ السموات، وتخرج الخلائق من القبور ظاهرين للقاء الله الواحد المُتفرِّد في الألوهية والربوبية، الذي يقهر جميع الكائنات.

عن سهل بن سعد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرْصَةِ النَّقِيِّ». قرصة النقي: الخبز الحُوَّارَى.

(صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة. برقم ٦٥٢١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط».

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٥٠- كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور، برقم ٢٧٩١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الناس يُحْشَرُون على الأرض المبدَّلة، والقرآن يوافق على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾. وحَشْرُهم وحسابُهم يكون قبل الصراط، فإنَّ الصراطَ عليه ينجون إلى الجنة، ويسقط أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث».

(مختصر الفتاوى المصرية ٢٠٢).

٤٩-٥١- وتُبْصِرُ المُجرمين يومَ القيامة مُقَيَّدِي الأيدي والأرجل بسلاسل الحديد المُحكمة، وثيابهم التي يلبسونها من قَطِران، وهي مادَّةٌ سوداءُ اللون، سريعة الاشتعال، منتنة الرائحة، وتُغَطِّي وتعلو وجوهَهم النَّارُ، ويَخْرُجُ الناس من قبورهم ليجازِيَهم الله على أعمالهم، المُحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. إنَّ الله سريع الحساب لجميع خَلْقِه.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بيَّنَ في هذه الآية الكريمة أنَّ النار يوم القيامة تَغْشَى وجوه الكفار فتحرقها، وأوضح ذلك في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وقوله: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩]».

٥٢- هذا القرآن العظيم إعلام وتبليغ لجميع الإنس والجن؛ لِيُنْصَحوا ويُخوَّفوا بما فيه من الأخبار والمواعظ والأحكام، ولكي يتحقَّقُوا بما فيه من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة التي تَدُلُّ على وحدانية الله تعالى، ولكي يتعظ به أصحاب العقول السليمة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الترهيب من حالة أهل النار، وهيئتهم، وصفة ذلتهم.

٢ - تأخير عذاب الظالمين إمهال وليس إهمالاً.

٣ - في تذكير الناس بحوار أهل النار مع الله تعالى موعظة عظيمة.

٤ - الحَثُّ على الاعتبار والموعظة عند المرور بمساكن الظالمين.

٥ - بيان مصير الظالمين والمجرمين، وأحوالهم في جهنم.

٦ - بيان عظمة القرآن الكريم، وما فيه من المواعظ والأحكام.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير الوحي والرسالة.

٢ - تقرير البعث والجزاء.

٣ - إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى.

٤ - بيان عاقبة المكذبين الكافرين موعظة للبشرية.

٥ - تسلية النبي ﷺ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ
﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا
كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ
ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

١ - ﴿الٓر﴾ تقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن. تلك الآيات العظيمة القَدْرِ آياتُ الكتاب الكامل، القرآن العظيم، ذو المباني الفصيحة، والمعاني الواضحة.

٢ - رُبَّما يتمنَّى الكفَّار لو كانوا مؤمنين بالله تعالى، حين يَرَوْنَ أهوال العذاب يوم القيامة، إذ يدخل المؤمنون الجنة، ويخرج بعضهم من النار بالشفاعة.

عن صالح ابن أبي طَريف، قال: قلتُ لأبي سعيد الخدري: أَسَمِعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ فقال: نعم، سَمِعْتُه يقول: «يُخرج اللهُ أُناساً من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقمته منهم، قال: لـمَّا أدخلهم اللهُ النارَ مع المشركين، قال المشركون: أليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياء، فما لكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة، فيتشفَّع لهم الملائكة

والنبيون حتى يُخرجوا بإذن الله، فلمّا أُخرجوا قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتُدركنا الشفاعةُ، فنُخْرَجُ من النار، فذلك قولُ الله جلَّ وعلا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قال: فيُسَمَّون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربَّنا أذهب عنَّا هذا الاسم، قال: فيأمرهم، فيغتسلون في نهر في الجنة، فيذهب ذلك منهم». (الإحسان ١٦/ ٤٥٧ - ٤٥٨ برقم ٧٤٣٢ قال محققه: حديث صحيح. وله شواهد عدة منها: حديث أبي موسى الأشعري، أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٢ وصححه ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الألباني (ظلال الجنة برقم ٨٤٤). وينظر تخريجه وذكر شواهده مفصلاً في حاشية الإحسان في الموضع المذكور).

٣- دَعْهم - أيها الرسول - يستمتعوا بالأكل والشرب، وينغمسوا بشهوات الدنيا، وينشغلوا بالطمع وطول الأمل عن الأجل اللازم لهم، وسوف تكون عاقبة أمرهم الخسارة في الدنيا والآخرة.

٤-٥- وما أهلكنا أهل بلدة من البلدان الظالمة التي كَذَّبت رُسُلَ الله إلا ولها أَجَلٌ محدود لإهلاكها، ولا يتقدَّم موعد هلاك أُمَّة قبل مجيء أوانِه، ولا يتأخَّر عنهم.

٦-٨- وقال المشركون بكيدٍ وسخرية: يا أيها الذي نزِّل عليه القرآن إنَّك لمجنون؛ بسبب ادِّعائك أنَّك مرسل، هلَّا جئتنا بالملائكة؛ لتشهدَ لك بالرسالة، إن كنت صادقاً في دعواك أنَّك رسول الله. ما ننزل ملائكتنا إلا تنزيلاً مواكباً للحق الثابت في الأقوال المنزلة، وفي الأفعال التي تُصيب الكافرين، كعقاب الأُمم المكذِّبة، فلو نَزَّلْتُ عليهم الملائكة كما اقترحوا لَنزل بهم العذاب دون إمهالٍ ولا تأجيل.

٩- إنَّنا - بما لنا من العظمة والقدرة - نَزَّلْنا القرآن العظيم على النبيِّ ﷺ، وإنَّنا لَحافظون له من كل تغيير وتبديل إلى يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: صورة مخطط الأمل، كما في الملحق.

٢- في الآية (٩) إخبار مستقبلي بأنَّ الله ﷻ يَتَعَهَّد بحفظ القرآن منذ نزوله على النبيِّ محمَّد ﷺ، من أن يُزاد فيه، أو يُنقص منه، أو يضيع منه شيء، إلى أن تقوم الساعة.

٣- القرآن واضح كل الوضوح وبَيِّنٌ كل البيان، فلا نقصَ فيه ولا خَلَلَ، ولا غموض ولا لبس.

٤- إنذار الكافرين وتحذيرهم من مواصلة كفرهم وحربهم للإسلام، فإنَّ يوماً سيأتي يتمنون فيه أن لو كانوا مسلمين. (أيسر التفاسير: ٣/ ٧٢).

٥- إنَّ إيثار التلذُّذِ والتنعُّمِ في الدنيا يُؤَدِّي إلى طول الأمل، وليس ذلك من أخلاق المؤمنين. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ١٩٣).

٦- هلاك الأُمم ليس عشوائياً، وإنما هو مقدر بتاريخ معين، ومقرر في أجل محدد، لا تأخير فيه ولا تقديم.

٧- كل مَنْ مات أو قتل فإنما مات بأجله، وإنَّ مَنْ قال بجواز أن يموت قبل أجله مخطئ. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ١٩٣).

٨- بيان حِفْظِ الله تعالى للقرآن الكريم من الزيادة والنقصان، ومن التغيير والتبديل، ومن الضياع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١٠-١٣- قسماً لقد أرسلنا من قبلك - أيُّها الرسول - في طوائف الأُمم الأولين، وما جاءهم رسول إلا سخروا منه، كذلك نسلك الضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين الذين لا يُصَدِّقون بهذا القرآن، وقد مَضَتْ سُنَّةُ الله بإهلاك المكذِّبين من الأُمم السابقين.

١٤-١٥- بَيّنَ الله تعالى شدَّة عناد كفَّار مكَّة ومكابرتهم للحق، فهو سبحانه لو فتح لهم باباً من السماء فصاروا يصعدون فيه إلى السماء لَمَا صَدَّقوا بذلك، وأصَرُّوا على التكذيب بقولهم: إنَّما سُدَّت أبصارنا وخُدِعَتْ بهذا الصعود بسبب السحر الذي يقوم به محمَّد!

الفوائد والاستنباطات:

١- أثبتت الدراسات الحديثة أنَّ السماء بناء محكم، تملؤه المادة والطاقة، ولا يمكن اختراقه إلا عن طريق أبواب تفتح فيه، ولولا المعرفة الحقيقية لعروج الأجسام في السماء لما تمكن الإنسان من إطلاق الأقمار الصناعية، ولما استطاع ريادة الفضاء، حيث أصبح من الثابت أنَّ كلَّ جُرْم متحرك في السماء - مهما كانت كتلته - محكوم بكل من القوى الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلى التحرك في خط مُنْحَنٍ يمثل محصلة كل من قوى الجذب والطرد المؤثرة فيه. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص١٧٠).

٢- قال العالم الفلكي أ.عبد الوهاب الراوي: «المشهد الباهر غير المألوف الذي يصفه القرآن الكريم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ هو تأكيد بالفعل لانطباعات رواد الفضاء أثناء مغامراتهم منذ إرسال أول إنسان إلى الفضاء غاغارين سنة ١٩٦١. فعندما يخرج الإنسان من جو الأرض إلى الفضاء الخارجي، لا يبدو له الفضاء كسماء الأرض بلونها الأزرق السماوي، بل بلون أسود». (معجزات القرآن العلمية في الكون، ص١٥٩).

٣- تكذيب الأنبياء والاستهزاء بهم عادة قديمة، وظاهرة شائعة في الأُمم والشعوب، فكما يفعل المشركون بالنبي ﷺ، فكذلك فَعَلَ مَنْ قبلَهم بالرسل.

٤- مطالبة المكذبين المعاندين بالآيات كرؤية الملائكة لا معنى لها، إذ القرآن أكبر آية ولم يؤمنوا به، فلذا لو فتح لهم باب من السماء، فظلُّوا فيه يعرجون، لَمَا آمنوا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾
إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن
كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ
وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

١٦-١٨- يُقسِمُ الله تعالى مؤكِّداً بيانَ عظيم قدرته في صنعه، وكريم عطائه لخَلْقِه: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للنجوم والكواكب، وزيَّنَّا هذه السماء لكل مَنْ له القدرة على النظر، والتفكُّر في عظمة الخالق سبحانه، وحَفِظْنا هذه السماء الدنيا من كلِّ شيطان مستحق للرَّجْمِ، مطرود من رحمة الله، إلا مَنْ اختلس شيئاً من أخبار السماء، فإنَّ الشهب النارية المضيئة تَلْحقه، وتحرقه.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون منها مئة كِذْبة من عند أنفسهم». (صحيح البخاري ٦/ ٣٥٠-٣٥١ - كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة برقم ٣٢١٠، وصحيح مسلم - السلام - باب تحريم الكهانة ٤ / ١٧٥٠ برقم ٢٢٢٨).

١٩-٢١- والأرض بَسَطْناها، ووسَّعناها، وجَعَلْنا فيها جبالاً ثابتةً، وأنبتنا فيها من كل أنواع النبات من كل شيءٍ مُقَدَّر ومعلوم بدقَّة وإحكام، وجَعَلْنا لكم فيها كل ما تحتاجون إليه للحياة من مطاعم ومشارب وغيرها ممَّنْ ليس رِزْقُهم عليكم، وإنَّما هو على ربِّ العباد، وما من شيء من أرزاق العباد والمنافع إلا عندنا خزائن رِزْقِه، وما نُنَزِّله إلا حسب الحاجة والمصالح بمقدار معلوم.

٢٢- وأرسلنا الرياح تُلَقِّح السحاب، فيُنزل مطراً، وتلقِّح الشجر فتحمل ثمراً، وجعلنا المطر سُقيا لكم ولزرعكم ومواشيكم، ولستم بقادرين على حِفْظِه، بل نحن نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار.

٢٣-٢٤- وإنَّنا نحن - بما لنا من العظمة والقدرة - نُحْيي مَنْ كان ميتاً، ونُميت مَنْ كان حيَّاً بعد انتهاء الأجل، ولا أحد يقدر على ذلك، ونحن نَرِثُ الأرض ومَنْ عليها. وقسماً لقد عَلِمْنا مَنْ مات منكم، ومَنْ هو حي، منذ خلق آدم، ونعلم مَنْ سيُخلق من الناس إلى يوم القيامة.

٢٥- وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - هو يجمعهم للحساب والثواب والعقاب. إنَّه حكيم في أقواله وأفعاله، عليم بخلقه.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: صورة سقوط الشهاب، كما في الملحق.

٢- هنالك توازنٌ دقيق بين ما يأخذه الإنسان وبين ما يطلقه النبات من الأكسجين. وتوازن آخر بين ما يطلقه الإنسان من غاز الكربون وبين ما يأخذه النبات من هذا الغاز. وهذه النسب قاسها العلماء حديثاً بكل دقة. فنسبة الأكسجين في الغلاف الجوي هي ٢١٪ تقريباً، ولو زادت هذه النسبة لاحترقت الأرض مع أول شرارة، ولو نقصت هذه النسبة قليلاً لماتت الكائنات اختناقاً، أما نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوي فهي أقل من ١٪، ولو زادت هذه النسبة لتسمَّمَ البشر وماتوا جميعاً، ولو نقصت لَماتت النباتات وتوقفت الحياة. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-13-13/243-2010-09-09-22-34-40)

٣- إنَّ نموَّ السحب ونزول المطر يتطلب أن تلقح الرياح هذه السحب بأكداس من جُسَيمات مجهرية تسمى (نُوَيَّات التكاثف)، ومن أهم خواص هذه النويات أنها تمتص الماء أو تذوب فيه، وتحمل الرياح كذلك بخار الماء وتلقح به السحاب؛ لكي يمطر. (من روائع الإعجاز في القرآن: الدكتور جمال الدين الفندي، ص ٨٤). وينظر: صورة الرياح اللواقح، كما في الملحق.

٤- رِزْقُ جميع الخلق على الله تعالى، وظَنُّ بعض الجهال في كثير من الأحيان أنَّهم هم الذين يَرزقون العيال والخدم خطأٌ كبير، لأنَّ الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك، وقد خلق تعالى الأطعمة والأشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة وإلا لم يحصل لأحد رزق.

٥- الله تعالى عالم بجميع المخلوقات المتقدمة والمتأخرة إلى يوم القيامة، وإنَّه تعالى سيحشر الناس جميعا للحساب والجزاء.

٦- في توسط ضمير «هو» (الآية:٢٥) دلالة على أنَّ الله هو القادر والمتولي لحشرهم لا غيره، وتصدير الجملة بـ«إنَّ» لتحقيق الوعد والتنبيه على أنَّ ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعِلْمِه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ١٩٨).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٧- قسماً لقد خَلَقْنا آدم عليه السلام من طين يابس متغير يُسْمَعُ صوته إذا نُقر عليه أو حُرِّك، وخَلَقْنا إبليس أبا الجن من قَبْلِ آدم من نارٍ شديدة الحرارة، تنفذ في المسام، فتقتل من شدَّة حرِّها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتْ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجان من مارج من نار، وخُلِقَ آدم ممَّا وُصِفَ لكم». (صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٤ - كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة برقم ٢٩٩٦).

٢٨-٢٩- يُذَكِّر الله تعالى بقصة آدم وإبليس، حين خاطب الملائكة: إنِّي سأخلق بشراً من طين يابس متغير، فإذا سَوَّيْتُه، وأتممتُ خَلْقَه، ونَفَخْتُ فيه من روحي، فصار حيّاً، فاسجدوا له.

٣٠-٣١- فأطاعت الملائكة، وسجدوا كلُّهم أجمعون، لكن إبليس الذي كان مع الملائكة امتنع من السجود.

٣٢-٣٣- قال الله تعالى لإبليس مُنْكِراً عليه: ما المانع لك من السجود؟ فأجاب متكبِّراً: لا ينبغي لي أن أسجدَ لبشر مخلوق من طين يابس متغير.

٣٤-٣٥- خاطب الله إبليس إهانة له: اخرُجْ من الجنَّة، فإنَّك مطرودٌ من رحمتي، وإنَّ عليك لعنتي إلى يوم الحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أخرج الطبري بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق آدم من صلصال من حمأ ومن طين لازب، وأما اللازب: فالجيد، وأما الحمأ: فالحماة، وأما الصلصال: فالتراب المرقق، وإنما سُمّيَ إنساناً لأنّه عهد إليه فنسي.

٢ - إضافة الروح إلى الله سبحانه وتعالى تشريف لها كما يقال: بيت الله. (السراج المنير للخطيب الشربيني ٢/ ٢٠١)

٣- بيان فضل السجود، إذ أمر تعالى به الملائكة فسجدوا أجمعون إلا إبليس.

٤ - ذَمُّ الكِبْرِ، وأنّه عائق لصاحبه عن الكمال في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

٥ - الحرف «إلى» يفيد في أصل معناه انتهاء الغاية، ولكنه لا يفيد في الآية (٣٥) أنّ اللعنة تزول يوم القيامة؛ لأنّ المراد التأبيد. (ينظر: السراج المنير ٢/ ٢٠٢).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٨- ثمَّ طلب إبليس إلى ربِّه أن يمهله بالبقاء إلى يوم البعث، فأمهله الله تعالى إلى ذلك الوقت المحدَّد يوم القيامة.

٣٩-٤٠- ثمَّ أعلن إبليس الانتقام من آدم وذريَّته: ربِّ بسبب ما أَضْلَلْتني من أجل آدم، قسماً لأُزَيِّنَنَّ لبني آدم المعاصي في الدنيا، ولأُضِلَّنَّهم عن طريق الهدى، إلا عبادك المؤمنين الذين أخلصوا لك العبادة.

٤١-٤٢- فأجابه الله: هذا طريقٌ عليَّ إقامتُه، وسُنَّةٌ لا تَتَخَلَّف: إنَّ عبادي المؤمنين لا طاقة لك على إضلالهم، إلا مَنِ اتَّبعك على الكفر والمعاصي من الضالين.

٤٣-٤٤- وإنَّ نار جهنم لَموعد هؤلاء الضالين جميعاً، ولجهنم سبعة أبواب، لكلِّ فريق من أتباع إبليس الضالِّين باب معلوم يدخلون منه قَدْرَ جرائمهم.

٤٥-٤٨- إنَّ المتقين الذين أطاعوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيَه في بساتين أرضُها خِصْبة، وعيونٍ مياهها عذبة يقال لهم: ادخلوها من أبوابها الثمانية سالمين من كلِّ شرٍّ، آمنين من كلِّ خوف. ونزعنا ما في صدورهم من حِقْدٍ وعداوة يَنْعَمُون بالأخوَّة والمحبَّة، يجلسون على سُرُرٍ مستأنسين، يقابِلُ بعضهم بعضاً، لا يصيبهم فيها تعب، وهم فيها مقيمون دائماً. عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا». (صحيح البخاري ١١/ ٤٠٣ برقم ٦٥٣٥ - كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة).

٤٩-٥٠- أَخْبِرْ عبادي إخباراً أكيداً: أنِّي وحدي الغفور لعبادي التائبين، الرحيم بهم، وأنَّ عذابي وحده هو العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- من الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريدها الله تعالى.

٢- السلاح الذي يغوي به إبليسُ بني آدم هو التزيين للأشياء، حتى ولو كانت دميمةً قبيحة، يصيرها بوسواسه زينة حسنة حتى يأتيها الآدمي.

٣- في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وعيد وتهديد، كقولك لِمَنْ تهدده: طريقك عليَّ، ومصيرك إليَّ، بمعنى: أجازي كلاً بعمله.

٤- في الآية (٤٢) إشارة إلى نجاة المخلصين من إبليس، وأنَّه لا يقدر عليهم. (التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: ١/ ٤١٨).

٥- المراد بالإخوة هنا الإخوة في المودة والمخالطة، كما قال تعالى في الزخرف الآية (٦٧) ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وليس المراد الإخوة في النسب.

٦- إضافة العباد إلى الله ﷻ تشريفٌ لهم مثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ وفيه تشريف لرسول الله ﷺ [الإسراء: ١]. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢٠٥).

٧- قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ ﴾ وهي آية ترجية وتخويف، ويدخل فيه المؤمن المطيع والمؤمن العاصي، وكل ذلك يدلُّ على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى. (التسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ٤١٨).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا
تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟
بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥١- وأخبِرْهم إخباراً عظيماً عن قصة ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة.

٥٢- حين دخلوا على إبراهيم عليه السلام وسَلَّموا عليه، فردَّ عليهم السلام، وبعد أن قَدَّم لهم الطعام، ورأى أيديهم لا تصل إليه قال: إنَّا منكم خائفون.

٥٣- فأجابت الملائكة: لا تَخَفْ إنَّا جئنا نُبَشِّرك بولدٍ غزير العلم اسمه إسحاق.

٥٤-٥٥- قال إبراهيم عليه السلام متعجِّباً طالباً التأكُّد من البشرى: أبشَّرتموني بالولد وأنا كبير السن، وكذلك زوجتي، فبأيِّ شيء تُبَشِّرونني؟ فأكَّدت الملائكة بقولهم: بَشَّرناك بأمر ثابت مقطوع به من عند الله تعالى، فلا تكن من اليائسين أن يولد لك ولد.

٥٦-٥٧- فاطمأن إبراهيم عليه السلام وقال: لا يَيْئَس من رحمة الله تعالى إلا المنحرفون عن طريق الحق، ثمَّ سأل: فما الأمر العظيم الذي جئتم من أجله؟

٥٨-٦٠- فأجابوه: إنَّا أرسلَنا اللهُ تعالى لإهلاك قوم لوط المرتكبين الجريمة البشعة، إلا لوطاً وأهله المؤمنين به، سننقذهم من الدمار أجمعين، إلا امرأته الكافرة حَكَمْنا بإهلاكها مع الباقين في العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية الضيافة، وأنَّها من صفات البر والكرم.

٢- تعليم أدب الضيف بالتحية والسلام حين القدوم على الآخرين.

٣- أراد إبراهيم عليه السلام مِن استفهامه في قوله تعالى: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى ﴾ التعجب من مخالفة العادة، وحصول الولد حال الشيخوخة التامة من الأبوين معاً. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢٠٦، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ١١/ ٤٦٩).

٤- حرمة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى.

٥- التنديد بالإجرام، وبيان عقوبة المجرمين.

٦- لا قيمة للنسب ولا للمصاهرة، ولا عبرة بالقرابة، فامرأة لوط هلكت مع الهالكين، ولم يشفع لها أنّها زوجة نبي من الأنبياء.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير:

٦١-٦٢- فلما وصلت الملائكة المرسلون بيت لوط ﷺ، قال لوط مُنكراً مُتعجِّباً: إنّكم قوم لا أعرفكم، فماذا تريدون؟

٦٣-٦٤- قالوا: بل نحن رسل الله، جئنا بالعقاب الذي كانوا يَشُكُّون فيه ولا يُصَدِّقون، وأتيناك بالحق الثابت الفاصل بينك وبينهم، وإنّنا لصادقون حقّاً فيما نقول.

٦٥- فاخرُجْ مع أهلك وأتباعك عندما يشتدُّ ظلام الليل، وكن وراءهم؛ رعاية لهم، ولا يلتفت منكم أحد إلى الخلف حفظاً على الأبصار والقلوب من العذاب وأحواله، وسيروا سيراً حثيثاً حيث أمركم الله تعالى.

٦٦- وأوحينا إلى لوط ﷺ ذلك الأمر الهائل: أنَّ المجرمين من قومك سيُدَمَّرون جميعاً عن آخرهم عند طلوع ضوء الصبح.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية المشي بالليل (السفر) لقطع المسافات البعيدة.

٢- مشروعية مشي المسؤول وكبير القوم وراء الجيش والقافلة؛ لتفقُّد أحوالهم، والاطلاع على مَنْ يتخلَّفُ منهم لأمر، وكذا كان رسول الله ﷺ يفعل.

٣- كراهية الإشفاق على الظَّلَمة الهالكين، لقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بقلبه.

٤- النهي عن مجرد الالتفات يفيد أنَّ ثمة شعاعاً أو عذاباً يؤذي النظر عند الالتفات.

٥- الرعاية والإرشادات الربانية لأهل لوط.

٦- تأييد الله تعالى نبيه لوط ﷺ بالملائكة.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٧- وجاء أرباب الفاحشة إلى لوط، حينما علموا بوصول الضيوف، وهم فرحون.

٦٨-٦٩- قال لوط عليه السلام لهم: إنَّ هؤلاء ضيوفي، فلا تفضحوني بارتكابكم الفاحشة بهم، واتَّقوا الله فينا، ولا تُلْحِقُوا بي الذلَّ والهوان.

٧٠- قال العصاة بوقاحة: أولم نَنْهَكَ يا لوط أن تستضيف أحداً من العالمين، ثمَّ تمنعنا أن نفعل ما نريد؟

٧١- قال لوط: هؤلاء بنات قومي تَزَوَّجُوهنَّ إن كنتم تريدون أن تعصموا أنفسكم.

٧٢-٧٣- يُقسم الله تعالى بحياة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ تكريماً له - ولا يجوز ذلك لغير الله تعالى - وتأكيداً للانتقام من قومه بأنَّهم في غَوايتهم يتخبَّطون لم يأبهوا بنصيحة، فأخذتهم الصيحة المزلزلة وقت شروق الشمس.

٧٤- فجعلنا عاليَ بلدتهم سافلها، فقلبناها، وأمطرنا عليها حجارة من طين مَتَصَلِّب متتابع.

٧٥-٧٧- إنَّ في ذلك العقابِ المخيف لَمواعظَ عظيمة للمُتَفَرِّسين، وإن بلدانهم على طريق ثابت يراها المسافرون ما بين الشام والحجاز. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من حالها لَعلامةً عظيمة في الدلالة على توحيد الله للمصدِّقين به.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب إكرام الضيف.

٢- شرف النبي ﷺ، إذ أقسم الله تعالى بحياته في قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾، قال ابن العربي: «قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هنا بحياةِ محمدٍ ﷺ تشريفاً له». (أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٠٥).

٣- عذَّب الله تعالى قوم لوط عليه السلام بثلاثة أنواع من العذاب أحدها: الصيحة الهائلة المنكرة، وثانيها: أنه جعل عاليها سافلها، وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢٠٩).

٤- ينظر: صورة آثار قوم لوط عليه السلام في الملحق.

٥- بيان نقمة الله تعالى من الظالمين؛ للاعتبار والاتعاظ.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

التفسير:

٧٨-٧٩- وقد كان أهل المدينة الملتفَّة الشَّجَر من قوم شعيب عليه السلام ظالمين لأنفسهم؛ بسبب تكذيبهم لله ولرسولهم شعيب، فدمَّرناهم، وإنَّ ديار قومَيْ لوط وشعيب لَفي طريق معروف يَمُرُّ بها الناس المسافرون ما بين الحجاز والشام.

٨٠-٨٤- وقسماً لقد كَذَّب أهل الحجر - تقع شمال المدينة - من قوم ثمود نبيَّهم صالحاً عليه السلام، وآتيناهم آيات عظيمة، منها الناقة العجيبة، فلم يقتنعوا بها فكَذَّبوا بها، وكانوا ينحتون الجبال الشامخة؛ ليتَّخذوا منها بيوتاً، وهم مطمئنون على سلامة أنفسهم ومعايشهم، فأخذتهم الصيحةُ المزلزلةُ المدمِّرة، فما نَفَعَهم ما كانوا يملكون من الأموال والحصون.

الفوائد والاستنباطات:

١- المراد بالآيات في قوله تعالى: ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ آيات الكتاب المنزل على صالح عليه السلام، أو المعجزات كالناقة، وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة، وعظيم خَلْقِها، وقرب ولادتها، وغزارة لبنها. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢١٠).

٢- إضافة الآيات إلى قوم صالح في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ وإن كانت لنبيِّهم صالح عليه السلام؛ لأنَّه مرسل من ربهم إليهم بهذه الآيات. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢١٠).

٣- إذا أراد الله هلاك أُمة فإن قوتها المادية لا تغني عنها شيئاً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩)﴾

التفسير:

٨٥-٨٦- وما خَلَقْنا السموات السبع والأرَضين السبع، وما بينهما من الخلائق إلا بالعدل، فمَنْ نحا نَحْوَ الظلم فإنَّ العقوبة جزاؤه عاجلاً أو آجلاً. فاصبر - يا محمَّد - على أذى المشركين، واعفُ عنهم عفواً حسناً دون عتاب وعقاب، إنَّ ربَّك هو خالق كل شيء، أجيالاً متتالية ومخلوقات متجددة، العليم بهم وبما يصلح شؤونهم.

٨٧- قسماً لقد أعطيناك - أيُّها الرسول - سبع آيات كريمة تتكرَّر في كلِّ صلاة، وهي سورة الفاتحة، وأنزلنا عليك القرآن العظيم بأحكامه الرشيدة، وفصاحته المُبينة.

٨٨-٨٩- لا تنظرَنَّ نِظْرَةَ رغبة وتمنٍّ إلى الكفَّار الذين مَتَّعْناهم بشتَّى الأصناف من حُطام الدنيا، ولا تحزن على كفرهم، وواظِبْ على تَواضُعِك للمصدِّقين برسالتك، وقل للناس: إنَّني أنا المنذر من عذاب الله، المُوَضِّح لطريق الهدى.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: «مَرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آتِهِ حتى صلَّيت، ثم أتيتُ فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنتُ أُصَلِّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؟ [الأنفال:٢٤] ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورةٍ في القرآن قبلَ أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته».
(صحيح البخاري ٨/ ٢٣٢ - كتاب التفسير - سورة الحجر، باب (الآية) برقم٤٧٠٣).

٢- ثبت علمياً أن تركيب كل نطاق من نُطُقِ الغلاف الغازي للأرض، وتناقص تركيز كل من المادة والطاقة بالارتفاع فيه يتداخل في تركيب الجزء الأسفل من السماء الدنيا مكوناً خليطاً من مادتها، وهذه المادة الفاصلة بين السماء والأرض تَكَوَّنَتْ باختلاط ما تصاعد من فوهات البراكين مع ما كان حول الأرض من مادة ما بين الكواكب، فتكون الخليط المعروف باسم الغلاف الغازي للأرض وهو خليط

مكون من مادة الأرض، ومادة السماء الدنيا فحق له أن يفصل بين كل منهما بوصف القرآن الكريم له بصفة البينية ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾.

٣- المقصود من قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ أن يُظهر الخلق الحسن، والعفو، والصفح.

٤- أطلق اسم «السبع المثاني» على الفاتحة لأنها سبع آيات، وهذا ما عليه أكثر المفسرين.

٥- تسمية الفاتحة بالمثاني لعدة وجوه، منها الأوَّل: أنَّها تُثَنَّى في كل صلاة بمعنى أنَّها تقرأ في كل ركعة. الثاني: أنَّها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها. الثالث: أنَّها قسمت قسمين اثنين لما رُوِيَ أنه ﷺ قال: «يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» والحديث مشهور، الرابع: أنَّها قسمان اثنان ثناء ودعاء، وأيضاً النصف الأوَّل منها حقُّ الربوبية وهو الثناء، والنصف الثاني حقُّ العبودية وهو الدعاء. الخامس: أنَّ كلماتها مثناة مثل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

(السراج المنير للخطيب الشربيني، ٢/ ٢١١).

٦- على الدعاة إلى الله ألَّا يلتفتوا إلى ما في أيدي الناس من مالٍ ومتاع، فإنَّ ما آتاهم الله من الإيمان والعلم والتقوى خير ممَّا آتى أولئك من المال والمتاع.

٧- استحباب لين الجانب للمؤمنين، والعطف عليهم، والرحمة لهم.

﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾
ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾
فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

التفسير:

٩٠- وأنزلنا عليك القرآن - أيها الرسول - كما أنزلنا على أهل الكتاب التوراة والإنجيل، الذين آمنوا ببعض كتابهم، وكفروا ببعضه، فانقسموا قسمين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض، اليهود والنصارى. (صحيح البخاري - التفسير - سورة الحجر، الآية، برقم ٤٧٠٦).

٩١- هؤلاء هم الذين أجرموا بحقِّ القرآن الكريم؛ إذ جعلوه أجزاءً متفرِّقة، فآمنوا ببعضها، وكفروا ببعض حسب أهوائهم، ومصالحهم.

٩٢-٩٣- فأُقسم بربِّك - أيها النبي - لَنُحاسبنَّ الخلائق جميعاً حقّاً عمّا كانوا يعملون من خير أو شرٍّ.

٩٤-٩٦- فأَعلِنْ دعوتك، واجْهَرْ بها بقوَّة لتبلِّغَ أمر ربِّك سبحانه، ولا تَأْبَهْ بما يقوله المشركون، إنّا كفيناك شرَّ أعدائك الساخرين من كفَّار قريش، الذين اتَّخذوا شركاء مع الله، فسوف يعلمون عاقبة ضلالهم.

٩٧-٩٩- وقسماً لقد نعلم أنَّ صدرك يضيق - أيها الرسول - بالحزن؛ بسبب جرائم المشركين من الإشاعات والتكذيب لدعوتك، فسَبِّح بحَمْدِ خالقك وناصرك، وأكثِرْ من الثناء عليه والشكر له، وكن من المصلِّين لله، وواظِبْ على عبادة الله تعالى دائماً حتى يأتيك الموت.

الفوائد والاستنباطات:

١- حرمة الاختلاف في كتاب الله تعالى على نحو ما اختلف فيه أهل الكتاب.

٢- مشروعية الجهر بالحق وبيانه، ولاسيما إذا لم يكن هناك اضطهاد.

٣- في الآية (٩٥) إخبار مستقبليٌّ عن دفاع الله تعالى لرسوله الأمين ﷺ، ودَحْرِه للمستهزئين به.

٤- فضل التسبيح بجملة: سبحان الله وبحمده.

٥- مشروعية صلاة الحاجة فمَنْ حَزَبَه أمر أو ضاق به، فَلْيُصَلِّ صلاةً يُفَرِّج الله تعالى بها ما به، أو يقضي حاجته إن شاء، وهو العليم الحكيم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير توحيد الألوهية.

٢ - تقرير الوحي والبعث.

٣ - إقامة الدلائل والبراهين على وحدانية الله تعالى.

٤ - بيان أهمية شكر الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ
تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى
ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

التفسير:

١ - يُنذر الله تعالى مِنْ قرب قيام الساعة ودُنُوِّها - مُعَبِّراً بصيغة الماضي الدالِّ على التحقُّق والوقوع - فلا تطلبوا تعجيل العذاب أيها المشركون، تَنَزَّه الله وتَقَدَّس عن الشرك.

٢ - يُنَزِّل الله تعالى الملائكة بالوحي من أمره تعالى على مَنْ يشاء من عباده المرسلين، بأن أَنْذِرُوا الناس بسبب أنَّه لا معبود بحق إلا الله، فاتَّقوني بطاعتي لأوامري، واجتناب المعاصي.

٣ - خلق الله تعالى السموات السبع والأرضين السبع بالحق الثابت، تَعاظَمَ الله، وتَـمَجَّدَ عن الشريك والنظير.

٤- خلق الله سبحانه الإنسان من ماء مهين - وهو الـمَنِيُّ - فإذا هو شديد الخصومة في إنكار البعث والحساب.

٥-٦- يَمْتَنُّ الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الإبل والبقر والغنم والضأن، وبما جعل لهم فيها من المنافع، يلبسون ويفترشون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويشربون من ألبانها، ويأكلون من لحومها، ولهم فيها جَمال حين يَرِدُونها بالعَشِيِّ من مَراعيها، وحين خروجها صباحاً إلى المرعى.

٧- وبعضُ هذه الأنعام تحمل أمتعتكم الثقيلة إلى بلد بعيد لم تصلوا إليه إلا بعد جهد يشقُّ على النفوس. إنَّ خالقكم ومُدَبِّر شؤونكم لَذو رأفة شديدة، وذو رحمة واسعة بكم.

٨- وخلق لكم حيوانات كالخيل والبغال والحمير، أعَدَّها؛ لتركبوا عليها عند السفر والتنقُّل، ولتتزيَّنوا بها، ولاسيما ركوب الخيول الأصيلة، ويخلق لكم ما لا تعلمون من المخلوقات التي تنفعكم.

٩- وعلى الله تعالى - بفضله - بيان طريق الحقِّ لكم، وهو دين الإسلام، ومن الطريق ما هو أعوج لا يُوصِل إلى طريق الحقِّ، بل إلى الضلالة والهلاك، ولو شاء الله هدايتكم لهداكم إلى الحقِّ جميعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسمية الوحي بالروح من أجل أنَّه يُحيي القلوب، كما تُحيي الأرواحُ الأجسامَ.

٢- جميع الرسل أُمروا أن يُنذروا مَنْ أُرسلوا إليهم بالإقرار بتوحيد الألوهية.

٣- الحكم بأنَّ الله لم يخلق الكون العلوي والسفلي عبثاً، بل لحكمة إلهية وهي عبادته وحده.

٤- تأكيد عظمة الإسلام، ودعوته للرفق ليس بالإنسان فحسب، بل بالحيوان كذلك.

٥- أنواع الحيوانات وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحدِّ والإحصاء، فكان أحسن الأحوال ذِكْرَها على سبيل الإجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية. (السراج المنير للشربيني ٢/ ٢١٨).

٦- فَضْلُ الله مستمر لم ينقطع، فقد خَلق لنا غير الأنعام والدواب فقال: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا يشمل كل وسائل النقل والركوب الحديثة.

٧- الإسلام هو السبيل التي بَيَّنَها تعالى فضلاً منه ورحمة، وما عداه سبل جائرة عن العدل والحق.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ
لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا
وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٠-١١- الله وحده سبحانه هو الذي أنزل بقدرته العظيمة من السحاب مطراً لكم؛ لتشربوا منه، ولتسقوا النبات الذي فيه تَرْعَوْن دوابَّكم، يُخرج لكم بماء المطر أنواع الزروع، ويُخرج به الزيتون والنخيل والأعناب ومن جميع أصناف الثمار. إنَّ في ذلك النعيم الكريم لَدلائل مشاهَدة لقوم يتفكَّرون في عظمة هذه النِّعم التي تَدُلُّ على توحيد الله الخالق لها.

١٢- وذلَّل لكم الليل والنهار، يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم، وذلَّل لكم الشمس والقمر يدوران لمصالحكم، والنجوم مذلَّلات تجري في فلكها بأمره تعالى؛ لتهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحر. إنَّ في ذلك التسخير العظيم الشأن لَدلالاتٍ مُشاهَدة لقوم يعقلون عظمة الله وتدبيره سبحانه.

١٣- وخلق لكم ما في الأرض من المخلوقات المتنوعة بأحجامها وألوانها وفوائدها، من النبات والحيوان والجماد. إنَّ في ذلك الخلق الكثير لَعِبرةً لقوم يتَّعظون بها، ويؤمنون بخالقها.

١٤- والله تعالى هو الذي ذَلَّل لكم البحر بسعته وعجائبه؛ لتأكلوا وتصطادوا منه اللحوم اللينة الطيبة كالأسماك وغيرها، ولتستخرجوا منه زينة بالغَوْص للوصول إلى اللؤلؤ والمرجان، وترى السفن تَشُقُّ عُباب البحر ذهاباً وإياباً وهي تحملكم مع أمتعتكم، ولتطلبوا الرزق بالتجارة؛ لكي تشكروا ربَّكم قولاً وعملاً على هذه النِّعم التي لا تُحصى.

١٥-١٦- وثَبَّتَ في الأرض جبالاً راسخة؛ لئلا تضطرب الأرض بكم، وصَبَّ فيها أنهاراً عذبة، وشَقَّ فيها طرقاً مُذَلَّلة؛ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم وأماكنكم، وهذه الجبال والأنهار والطرق جعلها الله تعالى معالم تستدلُّون بها في وضح النهار، وجعل النجوم معالم للاهتداء بها في ظلام الليل.

١٧ - يُنكر الله تعالى على المشركين مُوَبِّخاً لهم: أتُسَوُّون بين الخالق لهذه الأمور العظيمة والآلهة المزعومة التي لا تخلق شيئاً؟ أفلا تتذكَّرون قدرة الله، فتؤمنون به؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذُكر أولاً الزرع وهو الحَبُّ الذي يُقتاتُ به كالحنطة والشعير والأرز؛ لأنَّ به قوامَ البدن، ثم ذُكر الزيتون؛ لما فيه من الأدم والدهن، وثلث بذكر النخيل؛ لأنَّ ثمرها غذاء وفاكهة، وختم بذكر الأعناب؛ لأنَّه شبيه النخيل في المنفعة من التفكه والتغذية.

٢- ينظر: صورة الأعناب، كما في الملحق.

٣- ينظر: صورة ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، كما في الملحق.

٤ - أثبت الخبراء أنَّ طراوة لحوم البحار سواء كان ماؤها عذباً فراتاً، أو مِلْحاً أُجاجاً، نابعٌ من التركيب التشريحي والفحص الميكروسكوبي لهذه اللحوم. (مجلة الإعجاز العلمي ص١٤، العدد (٣٧)، رمضان ١٤٣١هـ).

٥- ينظر: صورة نماذج من الحلية، كما في الملحق.

٦- كثرة منافع البحار والأنهار وتنوعها، ممَّا يقتضي شكر المنعم بها، والمحافظة عليها والاعتناء بها.

٧- فضيلة التفكر والتذكر والتعقل وذَمُّ أضدادها؛ لأنَّ الآيات الكونية كالآيات القرآنية، إذا لم يتفكر فيها العبد لا يهتدي إلى معرفة الحق المنشود، وهو معرفة الله تعالى؛ ليعبده العبد بالذِّكر والشكر وحده دون سواه.

٨- وجوب الشكر لله تعالى، ووجوب التفكر في آياته.

٩- تقرر الحقيقة العلمية القاطعة أنَّ توزيع الجبال على الكرة الأرضية؛ لحفظ توازن الأرض، فكأنَّ الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانها وتحفظ عليها حركتها . (من الآيات العلمية: عبد الرزاق نوفل، ص٥٦، ٥٧).

وقال العالم الفلكي د.داود سلمان السعدي:«اكتشف العلماء في القرن العشرين أنَّ الأرض تتصدع وتتحرَّك ألواح قشرتها بشكل دائم، ولكن ببطء لا يُحَسُّ به، فالجبل الذي يخرج من باطن الأرض إلى سطحها هو بمثابة الوتد الذي يُثبِّت قشرة الأرض عن جانبيه، ولقد ثبت علمياً أنَّ الجبل يمتد أربع مرَّات ونصف تقريباً داخل طبقات الأرض السفلى، حسبما أثبتته وسائل التصوير الهولوغرافي». (أسرار الكون في القرآن، ص١٦٩). وينظر: مخطط وتد الجبل في الملحق.

١٠ -تُغَذَّى الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الأرض من مثل الجبال، كما تُغَذَّى من ذَوَبان الجليد من أماكن تجمُّعِه في قمم الجبال، ومن أطراف حقول الجليد.كذلك فإنَّ مجاري الأنهار تتعرض للانتقال البطيء مع الزمن أو للجفاف، ومع جفاف مجرى النهر أو تغيره يترك المجرى القديم سبيلاً ميسراً

لحركة كل من الإنسان والحيوان، ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين ذكر الأنهار والسبل، حيث إنَّ الأنهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال والتلال والهضاب في مناطق التضاريس الأرضية الوعرة.

١١- ينظر: صورة الاهتداء بالنجم، كما في الملحق.

١٢- بيان تميُّزِ الله عن كل شيء بصفة الخالقية، وأنَّه إنَّما استحق الإلهية والعبودية؛ لكونه تعالى خالقاً، وهذا يقتضي أنَّ عبادة أيِّ مخلوق باطلة. (السراج المنير للشربيني ٢/ ٢٢٣).

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨- نِعَمُ الله تعالى كثيرة، وإن حاولتم حصر عددها فلا تقدرون على إحصائها؛ لكثرتها. إنَّ الله لغفور لِمَنْ تاب، رحيم بالعباد.

١٩- والله سبحانه قد أحاط علماً بكل ما تُخفونه وما تظهرونه من الأقوال والأعمال.

٢٠-٢١- والأوثان التي يعبدها المشركون لا تَقدِرُ على خَلْق شيء، وهي مصنوعة بأيدي عابديها، وهذه الأصنام جمادات لا روح فيها، ولا تدري متى البعث.

٢٢- إلهكم - أيها الناس - المستحق للعبادة إله واحد لا شريك له، فالذين يجحدون الآخرة قلوبُهم تُكَذِّب بوحدانية الله ﷻ، وهم متكبِّرون عن قبول الحق.

٢٣-٢٤- لا ريب أنَّ الله تعالى يعلم ما يُخْفُون وما يُظْهرون من النيَّات والرزايا. إنَّه سبحانه لا يحب المستكبرين على الحق، الذين إذا قيل لهم: أيَّ شيء أنزل ربُّكم على رسوله ﷺ؟ أجابوا بسخرية: أُنزل عليه أباطيل الأُمم السابقة!

الفوائد والاستنباطات:

١- عَجْزُ الإنسان عن إحصاء نِعَمِ الله عليه، يقتضي منه شكره عليها.

٢- التنديد بجريمة الاستكبار عن الحق وذمِّها إذ هي سبب كثير من الذنوب والسيئات.

٣- الحكم بأنَّ عبادة الأوثان والأصنام باطلة، وأنَّ الوحدانية لله.

٤- تَرْكُ الإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء هو سبب كلِّ شرٍّ وفساد يأتيه العبد.

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا
يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ
﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٥- وعاقبة هؤلاء المضلِّين أن يتحمَّلوا ذنوبهم كاملة يوم القيامة، ويضاف إليها ذنوب الذين أضلوهم بالكذب، ألا فانتبهوا أيُّها الأنام، بئس ما كانوا يحملون من ركام الآثام.

٢٦- وقد سبق هؤلاء المضلِّين أشباهُهم، دبَّروا المكايد لأنبيائهم والمؤمنين من أتباعهم، فأبطل الله تعالى كيدهم بتدمير ديارهم، فدَمَّر بُنيانهم من أُسُسِه، فسقط عليهم السقف، فدَمَّرهم من حيث لم يحتسبوا. وهذا تمثيل بليغ لبيان إحباط ما أبرموه من المكر.

٢٧- ثمَّ يومَ القيامة يُذِلُّهم الله تعالى بخطابه لهم لوماً وتقريعاً: أين الشركاء الذين عبدتموهم وخاصمتم من أجلهم الأنبياء والمؤمنين؟ قال العلماء من المؤمنين العاملين: إنَّ الذُّلَّ والهوان والعذاب في هذا اليوم على المكذِّبين بالله ورسله.

٢٨-٢٩- هؤلاء المكذِّبون تقبض الملائكةُ الموكلة بالموت أرواحهم الخبيثة، حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر، فانقادوا، واستسلموا عند الموت، وكذَّبوا أيضاً بقولهم: ما كُنَّا نعمل شيئاً من كفر أو شرك. فيُرَدُّ عليهم: إنَّ الله عليم بما كنتم تقترفون من الجرائم، وبسبب ذلك ستُؤْمَرُون بدخول أبواب جهنَّم السبعة ماكثين في نار جهنَّم أبداً، فلبئس مَقَرُّ المتكبِّرين عن الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان عظيم إثم مَنْ يضل غيره عن الهدى.

٢- تقرير تكذيب الرسل كان قديماً قبل رسالة محمد ﷺ.

٣- يقول العلماء: تشير الآية إلى حقيقة هندسية وهي: «أنَّ الأساس هو آخر جزء إنشائي ينقل الحمل إلى التربة، وهو الذي يتحمل كل وزن المُنْشأ وينقله بسلام إلى الأرض، وأنَّ معامل الأمان الذي يأخذه المصممون في تصميم الأُسُس يكون أكثر من أي معامل أمان يؤخذ لأيِّ جزء إنشائي آخر؛ وذلك لأنَّه لا يمكن التساهل مع هذا الأمر بسبب أهميته الاستثنائية». (القواعد في القرآن: خالد العبيدي، ص٨).

٤- اختصاص ماهية الخزي وماهية السوء في يوم القيامة بالكافرين، وهذا ينفي حصول هذه الماهية في حقِّ غيرهم. (السراج المنير للشربيني ٢/ ٢٢٧).

٥- توبيخ الملائكة المشركين عند قَبْضِ أرواحهم.

٦- محاولة المشركين إنكار أعمالهم في الدنيا في محاولة منهم للهروب من جزائها، ولكن بلا فائدة.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

التفسير:

٣٠-٣١- وقيل للمتَّقين: ماذا أنزل ربُّكم على رسوله؟ قالوا: أنزل الله عليه خيراً عظيماً، وهو القرآن العظيم. للمحسنين بأقوالهم وأفعالهم حياة طيبة في الحياة الدنيا، وما ينالونه في الآخرة من نعيم الجنَّة خير ممَّا أُوتوه في الدنيا، ولَنِعْمَ دار الآخرة دارُ المتَّقين حقَّاً، وهي جنات يدخلونها مُقيمين فيها أبداً، تجري من

تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لهم في هذه الجنات كلُّ ما تشتهيه الأنفس بدون تعب. مثلَ هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المُتَّقين لله.

٣٢- هؤلاء المُتَّقون تقبض الملائكةُ أرواحَهم الطاهرة، ونفوسهم طيبة بلقاء الله، وتُسَلِّم عليهم الملائكة، وتُبَشِّرهم بدخول الجنَّة جزاء صدق إيمانهم، وحسن أعمالهم.

٣٣-٣٤- يُنكر الله تعالى على المشركين مُوَبِّخاً لهم على تماديهم في الباطل: ما ينتظر هؤلاء إلا أحد أمرين: إما نزول الملائكة بالموت، أو مجيء أَمْرِ الله بتعجيل العذاب. مثل ذلك الكفر فَعَلَ الذين من قبلهم من الأُمم، وما ظلمهم الله بتدميرهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، فأصابهم عقوبات كفرهم، وأحاط بهم العذاب الأليم الذي كانوا يستهزئون به، ويُنْكِرون وقوعه.

٣٥- احتجَّ المُشركون بالقضاء والقدر على شركهم، وزعموا أنَّ الله تعالى لو شاء ما أشركوا ولا حرَّموا شيئاً من الأنعام التي أحلَّها. وهذه حجَّة باطلة، فإنَّها لو كانت حقَّاً ما عاقب الله تعالى الذين من قبلهم حين أشركوا به، فقد عاقبهم، فلو كان يريد ذلك منهم لَمَا عاقبهم، فليس الواجب على الرسل إلا تبليغ الدعوة بالبيان الحكيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إطلاق لفظ «خير» على القرآن، فالذي أوتي القرآن أوتي بشرى أهل الإيمان والتقوى عند الموت، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم في جوار ربِّ العالمين.

٢- الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، والتوفيق للعمل الصالح رحمة من الله وفضل.

٣- إنكار بعثة الرسل كان قديماً في الأمم الخالية. وفي ذلك تسلية للنبيِّ ﷺ.

٤- إنَّ ما يصيب الظلمة من سوء هو بسبب كفرهم واستكبارهم وتكذيبهم للحق.

٥- الردُّ على شُبْهة المشركين في احتجاجهم بالمشيئة الإلهية.

٦- كلُّ إنسان محاسَب على عمله الذي اختار القيام به بمحض إرادته.

٧- اقتصار مهمة الأنبياء على التبليغ والإنذار، لا على الإلزام و الإجبار.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ
وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)
إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ
لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ
أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

التفسير:

٣٦- قسماً لقد أرسلنا في كلِّ أُمَّة من الأُمم رسولاً يدعو إلى عبادة الله وحده، ويُحذِّر من عبادة الأوثان وما يوحيه الشيطان، فانقسم الناس قسمين: فمنهم مَنْ أرشده الله إلى الهداية فاتَّبَعُوا رسلهم، ومنهم مَنْ اتَّبع سبيل الغَواية، فوجبت عليه الضلالة والشقاوة، فامشُوا في الأرض متأمِّلين، وانظروا مصير المكذِّبين السابقين.

٣٧- إن تَحْرِصْ - أيها الرسول - على هداية المشركين، وتبذل غاية الجهد، فاعلم أنَّ الله لا يهدي مَنْ اختار الضلالة، وليس لهم مَنْ يُنْقِذُهم من عذاب الله تعالى.

٣٨-٤٠- وأقسم المشركون بالله مبالِغين ومؤكِّدين بأيمان مغلَّظة: إنَّ الله لا يُحيي أحداً بعد الموت. فردَّ الله عليهم تكذيباً لهم: بلى ليبعثنَّهم، وَعَدَ بذلك وعداً أكيداً، ولكنَّ أكثر الناس لا عِلْمَ لهم يُوصلهم إلى معرفة قدرة الله تعالى على البعث وغيره، سيبعثهم؛ ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث الذي اختلفوا فيه مع المؤمنين، ولكي يعلم الكفَّار أنَّهم كاذبون في حِلْفِهم المغلَّظ أنَّه لا بعث، إنَّما قولنا إذا أردنا شيئاً أن نقول للشيء: كن، فإذا هو كائن.

الفوائد والاستنباطات:

١- بعثة الرسل في كلِّ الأُمم عامة شاملة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الطاغوت.

٢- العاقل مَنْ يعتبر ويَتَّعظ بما حَلَّ بفريق الضالين المكذبين، كيف آل أَمْرُهم إلى الدمار والخراب والعذاب والهلاك؟

٣- لا جدوى من حِرْصِ النبي ﷺ أو غيره على هداية أحد بجُهده وتصميمه لا يحقق الهداية، إن سَبَقَ في عِلْمِ الله ضلالُه، فإنَّه تعالى لا يُرْشِدُ مَنْ أضلَّه، بعد أن ضلَّ سواء السبيل.

٤ - تقرير حقيقة البعث، وأنَّه وَعْدٌ على الله حقاً، والذين ينكرونه إنما يفعلون ذلك لفرط جهلهم.

٥ - لله القدرة المطلقة، فإذا أراد أن يبعث من يموت فلا تعب عليه ولا نَصَبَ في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما يحدثه في الكون؛ لأنَّه إنَّما يقول له: كن فيكون.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ
فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ
تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾

التفسير:

٤١-٤٢- والمهاجرون الذين فارقوا الأوطان والأموال من أجل رضا الله تعالى، من بعد ما عُذِّبوا وأُوذُوا، لَنرزقَنَّهم في الدنيا رزقاً حسناً حقّاً، ولَثوابُ الآخرةِ في الجنَّة أعظم، لو كان المتخلِّفون عن الهجرة يعلمون فَضْلَ المهاجرين الذين صبروا على أذى المشركين، وعلى طاعة الله في أوامره، وعلى ربِّهم وحده يعتمدون.

٤٣- وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - إلا رسلاً من الرجال لا من الملائكة، نُوحي إليهم بواسطة الملائكة، وإن كنتم يامشركي قريش لا تُصَدِّقون بذلك، فاسألوا أهلَ العلم بالكتب، إن كنتم لا تعلمون اتِّباع الحق.

٤٤- أولئك الرسل بعثناهم بالمعجزات العجيبة، وبالكتب المنزلة من عند الله، وأنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن لتفصِّلَ للناس أحكامَه، وما يحتاجون إليه من بيان؛ لكي يتأمَّلوا في مواعظه.

٤٥-٤٧- يُنْكِرُ الله تعالى على الكفَّار مَكْرَهم توبيخاً وتقريعاً لهم: هل أَمِنَ الذين يتآمرون لأذى الرسول ﷺ والمؤمنين أن يخسف الله تعالى بهم الأرض؟ أو يأتيهم العذاب فجأة من حيث لا يَتَوَقَّعون نزوله؟ أو يهلكهم في أثناء أسفارهم، فما هم بناجين من الهلاك؟ أو يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقِّبين لنزول العذاب؟ فإنَّ ربَّكم ذو رأفة بعباده، رحيم بهم، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة.

٤٨ - أولم يعتبروا بالمخلوقات الأخرى، ما مِنْ شيء إلا له ظلٌّ كالجبال والأشجار والبنيان، تميل ظلالها من جانب إلى جانب يميناً وشمالاً، إلا هو ساجدٌ لله سجودَ خضوعٍ وانقياد لأمر الله تعالى وتدبيره؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل الهجرة ووجوبها عند اضطهاد المؤمن، وعدم تمكُّنه من عبادة الله تعالى.

٢ - جميع الرسل كانوا بشراً؛ ليتمكنوا من تبليغ رسالة ربهم إلى الناس.

٣ - وجوب سؤال أهل العلم على كلِّ مَنْ لا يعلم أمور دينه من عقيدة وعبادة وحُكْمٍ.

٤ - وجوب اتباع ما جاء في السنة التي بَيَّنَها رسول الله ﷺ لأُمته في قوله، وفِعْلِه، وتقريره.

٥ - لا غنى عن السنة؛ لأنَّها المبيِّنة لمجمل القرآن والموضحة لمعانيه.

٦ - تحريم الأمن مِنْ مَكْرِ الله.

٧ - قدرة الله على إهلاك أعدائه بطرق متعددة ووسائل متنوعة، ولكن لرأفته ورحمته اقتضَتْ تأجيل عذاب بعضهم؛ لعلهم يتوبون، وينتهون عن باطلهم.

٨ - ينظر: صورة أنموذج من الخسف، كما في الملحق.

٩ - الآية (٤٨) تُعبِّر بدقة متناهية عن حركَتَي الظلال من جهة الغرب إلى جهة الشرق، في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي في آنٍ واحد، باستخدام لفظ اليمين كإشارة إلى جهة الشرق، ولفظ الشمائل إلى جهة الغرب. (الإعجاز العلمي في إثبات حركة الظلال. بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص ١٠).

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)
يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ
فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا
رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧)
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ
عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾

التفسير:

٤٩-٥٠- ولله سبحانه يخضع ساجداً على الدوام كلُّ ما في السموات السبع، وكل ما يدبُّ على وجه الأرض، من مخلوقات والملائكة جميعاً، وهم لا يستكبرون عن عبادته وطاعته، بل يخافون ربَّهم من فوقهم بذاته وكمال صفاته، ويفعلون دائماً ما يأمرهم الله تعالى به.

٥١-٥٢- ينهى الله تعالى عباده جميعاً أن يعبدوا إلهين اثنين أو أكثر؛ لأنَّ المعبود بحق هو الله وحده سبحانه، ثم أمر بأن يخافوه وحده، فهو له ملكوت ما في السموات السبع والأرضين السبع، وله العبادة دائماً، ثمَّ أنكر على الكفَّار: أتخافون غير الله؟

٥٣-٥٤- وما تَفَضَّل الله به عليكم - أيها الناس - من رزق ونعمة، فمِنْ فَضْلِ الله وإحسانه، ثمَّ إذا أصابكم البلاء في الشرِّ فإليه وحده تتوجَّهون بالاستغاثة، ثمَّ إذا استجاب لكم ورُفِعَ عنكم البلاء، إذا فريق منكم ينتكس تارةً أخرى بالشرك مع الله سبحانه.

٥٥-٥٦- يُهدِّد الله تعالى هؤلاء الذين تَضَرَّعوا ثمَّ أشركوا، فكانت عاقبتهم الكفر بما أنعمنا عليهم، ومِنْ نِعَمِه عليهم إنقاذُهم من الهلاك، فليستمتعوا بدنياهم، فسوف يعلمون عقوبة الولوغ في الكفر، ومن كفرهم أنَّهم يجعلون دائماً لأوثانهم التي لا علم لها جزءاً من النِّعَمِ التي أنعم الله عليهم بها قُرْباناً، ثمَّ يُقْسِمُ الله تعالى بذاته العظيمة بأنَّهم سُيسألون عن ذلك قطعاً.

٥٧-٥٩- ومِنْ كفرهم أيضاً أنَّهم يعتقدون أنَّ الملائكة بنات الله، تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يقولون، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين، وإذا بُشِّرَ أحدهم بولادة أنثى صار وجهه مُتغيراً بالكآبة والحزن، وهو ساكت من شدة الغمِّ والهم، يختفي خجلاً من لقاء قومه من سوء الخبر، فهو متحيِّر في أمر هذه

البنت: أيتركها تعيش، وهو في غاية الذلّ والهوان؟ أم يدفنها حيَّة في التراب؟ ألا فانتبهوا - أيُّها الناس - من فِعْلِهم، فبئس الحُكْمُ حُكْمُهم في نسبة البنات لربِّهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - مَنْ خاف الله لا يستكبر عن عبادته.

٢- الملائكة مكلفون، وأنَّهم بين الخوف والرجاء.

٣- تكرار «اثنين» تأكيد التنفير عنه، وتوقيف العقل على ما فيه من القبح.(السراج المنير للشربيني٢/ ٢٣٦).

٤- وجوب الرهبة من الله دون سواه.

٥- في الآيتين (٥٣-٥٤) إخبار مستقبلي عن عباد الله، فيها إذا نزل بهم البلاء والقحط يضجُّون بالدعاء إلى الله وحده. وفيها أيضاً إخبار مستقبلي آخر عن بعض عباد الله في حال انكشاف البلاء والسقم عنهم فإنَّهم يتَّخذون معه الشركاء والأولياء.

٦- الواجب على الإنسان أن يحمد الله على نعمه، وأن يذكره في حال السراء والضراء.

٧- كلُّ النعم من الله تعالى، وهو المنعم المتفضل على خلقه.

٨- جَهْلُ المشركين وسوء فعلهم بتقديم الأموال لأصنامهم وآلهتهم، ونسبة البنات إلى الله تعالى.

٩- التشنيع بما كان يفعله أهلُ الجاهلية مِنْ كُرْهِهم للبنات، وتحريم ما كانوا يفعلونه من إهانتها، وتفضيل الولد عليها، وحرمانها من الإرث وتشديد التحريم في وأدها.

١٠- ينظر: صورة أنموذج من الدَّسِّ في التراب، كما في الملحق.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

التفسير:

٦٠-٦١- للكفَّار شعار السوء والقبح وصفة الجهل والنقص، ولله ﷻ الصفات العليا من الكمال والجلال، والاستغناء عن خلقه، فهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير أمورهم، ولو يعجِّل الله العقوبة للناس بسبب كفرهم، لَدمَّرهم جميعاً، ولكن يمهلهم إلى وقت عذابهم أو انتهاء أجلهم، فإذا حَقَّ عليهم العذاب، أو انتهى أجل حياتهم، فإنَّهم لا يتأخَّرون ساعة عنه ولا يتقدَّمون.

٦٢- ومن كفرهم أنَّهم يجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وتلهج ألسنتهم بالكذب والدجل أنَّ لهم حُسن العاقبة بالجنَّة، بلى إنَّ جزاءهم النار، وإنَّهم فيها متروكون منسِيُّون.

٦٣- يُقسم الله تعالى بذاته العظيمة مؤكِّداً أنَّه أرسل رُسُلاً إلى أُمم من قَبْلِ النبيِّ ﷺ، فزيَّن لهم الشيطانُ الخبائث والجرائم، فهو يَتَولَّى ضلالهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع.

٦٤- وما أنزلنا عليك القرآن - أيها النبي - إلا لتبيِّنَ غاية البيان للناس ما اختلفوا فيه من الدين، وهداية للبشر، ورحمة لقوم يُصَدِّقون برسالتك.

٦٥- يخبر الله تعالى عن عظيم فضله على الناس وكريم عطائه لهم؛ ليشكروه ويعبدوه كما في الآيات التسع الآتية: والله أنزل من السحاب مطراً فأخرج به النبات من الأرض، بعد أن كانت جافَّة مجدبة. إنَّ في ذلك الماء الكريم والخير العظيم؛ لَدليلاً على قدرة الله تعالى على البعث والربوبية لقوم يسمعون الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- الله حليم بعباده فلا يستعجل العذاب للظالمين منهم، بل ينظرهم إلى آجالهم التي سَمَّاها لهم، لعلهم يتوبون إليه.

٢- في الآية (٦١) إخبار مستقبلي عن أنَّ الله يُبقي هؤلاء الكفرة والمفترين إلى وقت محدَّد، وهو نهاية آجالهم، فإذا جاء أجلهم لا يتأخَّرون عنه وقتاً يسيراً، ولا يتقدَّمون.

٣- سُنَّةُ الله في عباده منذ القديم إرسال الرسل بالحجة الواضحة والبيان الشافي، وما محمد ﷺ إلا كغيره من الرسل.

٤- تخصيص المؤمنين بالذِّكْر؛ لأنَّهم الممتثلون المنتفعون بالقرآن.

٥- من مهمة رسول الله بيانُ ما أنزل الله تعالى لعباده من وحيه في كتابه.

٦- الله تعالى هو الذي ينزل المطر لحياة الأرض بعد جَدْبِها وقحطها. وفي هذا دلالة على عظمته، وقدرته على إحياء الموتى بعد موتهم.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ
يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٦- وإنَّ لكم - أيها الناس - في الإبل والبقر والغنم والضأن لَموعظة، نُسقيكم ممَّا في بطون هذه الأنعام خارجاً من بين الدم والرَّوث لبناً خالصاً من الشوائب، لذيذاً سهل المرور في الحَلْق.

٦٧- وجعل الله لعباده من ثمرات النخيل والأعناب ما يتخذون منه خمراً مسكراً - وهذا قبل النَّسْخِ والتحريم - وطعاماً لذيذاً. إنَّ في ذلك الثمر العظيمِ المنافعِ لَدليلاً على قدرة الله في رزق العباد لقوم يعقلون اتِّباع الحق.

٦٨-٦٩- ومن نِعَمِه الكريمة على عباده أنَّه ألهَمَ النحل أن اجعلي لك بيوتاً في الجبال وفي الأشجار وفي الأماكن المرتفعة عن الأرض، كسقف البيت أو العريش المثبَّت بالأعمدة، ثمَّ كُلي من كلِّ الأزهار والثمار، فادخلي المسالك التي مَهَّدها الله تعالى لكِ، يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان: أبيض وأسمر وأحمر وغير ذلك، فيه شفاء للناس من الأمراض. إنَّ في ذلك العسل الكثير الفوائدِ لَدلالةً عظيمة على قدرة الخالق لقوم يتفكَّرون بهذه النعم، فيتعظون.

٧٠- ومن أدلة عظمة قدرة الله تعالى: خَلْقُكم من العدم، ثمَّ إماتتكم عند انتهاء أعماركم، ومنكم من يتعرَّض إلى أردأ العمر، بضعف العقل والحواس؛ ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته. إنَّ الله عليم بتدبير خلقه، قدير على ما يشاء.

٧١- والله تعالى فضَّل بعضكم - أيها الناس - على بعض في الرزق، فمنكم الغني والفقير، والمالك والمملوك، فلا يعطي المالكون مملوكيهم ممَّا يجعلهم متساوين في المال، فإذا لم يرضوا بذلك لأنفسهم فلماذا رَضُوا أن يجعلوا لله شركاء من عبيده؟ ثمَّ يُنْكِرُ الله تعالى على هؤلاء المشركين: أيشركون معه غيره وهو المنعِمُ عليهم؟!

٧٢- يخاطب الله البشر مُبيِّناً مِنَّته العظيمة عليهم: والله جعل لكم أزواجاً؛ لتسكنوا إليها، وجعل لكم من أزواجكم الأولاد والأحفاد، ورزقكم من الأطعمة والأشربة اللذيذة الحلال، أتُصَدِّقون بالأوثان والأصنام، وتجحدون نِعَمَ الله عليكم؟

٧٣- ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام والأوثان التي لا تنفعهم شيئاً مهما كان قليلاً، ولا تقدر على ذلك لو أرادت.

٧٤- فلا تجعلوا لله تعالى الأمثال، ولا تُشَبِّهوا له الأشباه، فإنَّه لا مِثل ولا شبيه له.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظيم قدرة الله تعالى وصنعه، حين جعل اللبن الخالص يخرج من بين الفرث والدم، في عملية فرز لا يصنعها ولا يقدر عليها إلا هو سبحانه. ينظر: صورة خروج اللبن من الفرث والدم، كما في الملحق.

٢- ينظر: صورة بيوت النحل من الجبال والشجر، كما في الملحق.

٣- ينظر: صورة ألوان العسل، كما في الملحق.

٤- إناث النحل الشغَّالات هنَّ اللائي يقمنَ بالبحث عن المكان المناسب؛ لبناء بيوت النحل، ويقمنَ بالبناء بذواتهنَّ، وبصيانه وتنظيف وترميم البناء، وعلى حمايته وتهويته.

وألهم الله تعالى الشغَّالات، من إناث نحل العسل، اختيار فرق من المستكشفات من بينهنَّ يغادرن الخلية للبحث عن الأزهار الحاملة للرحيق، ثم يَعُدْنَ لإخبار بقية الشغَّالات عن أمكنة وجود تلك الزهور. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٨٤-٩١، ٩٧-١٠٢).

٥- العدول عن خطاب النحل إلى خطاب الناس؛ لأنَّه مَحَلُّ الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم.

٦- فضيلة العقل والتعقل والفكر والتفكر.

٧- في ختم الآية (٧٠) باسميه تعالى ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ دلالة على علم الله تعالى بمقادير أعمار العباد، ودلالة أيضا على إماتة الشاب النشيط، وإبقاء الهَرِم الفاني. وفي ذلك تنبيه على أنَّ تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير عليم قدير حكيم، رَكَّب أبنيتهم، وعَدَّلَ أمزجتهم على قدر معلوم، ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

٨- الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه، والموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء، فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى.

٩- التفاوت بين العباد في الرزق لحكمة أرادها الله.

١٠- مِنْ نِعَمِ الله على عباده جعل الزوجات من جنس الأزواج وشكلهم.

١١- تقرير وجوب التوحيد وبطلان أعمال المشركين.

١٢- عظيم إساءة الجاحدين الذين يَتَقَلَّبون في نِعَمِ الله، ويعبدون سواه.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

التفسير:

٧٥- ضَرَبَ الله تعالى لبُطلان الشرك مثلاً: رجلين، أحدهما: عبد رقيق مملوك لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حُرٌّ غني، قد رزقه الله رزقاً حسناً من جميع أصناف المال، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هل يستوي هذا أو ذاك؟ الثناء العظيم الكامل لله تعالى وحده، بل أكثر المشركين لا يعلمون، ولا يُفرِّقون بينهما.

٧٦- وضَرَبَ الله مثلاً آخر لبطلان الشرك: رجلين، أحدهما: أخرس أصم لا ينطق بخير ولا يفهم، لا يَقْدِرُ على فِعْل شيء، وهو عبء ثقيل على مَنْ يَتَوَلَّى أمره، حيثما يرسله لا يرجع بخير، ورجل آخر: فَطِنٌ قوي يأمر بالعدل، ويبذل النصيحة، وهو على طريق الحق الواضح. فهل يستوي الرجلان؟ فكيف تُسَوُّون بين الصنم الأبكم، وبين الله الأكرم؟!

٧٧- ولله تعالى علم ما غاب في السموات السبع والأرَضين السبع، وما أَمْرُ يوم القيامة إلا مثل لَـمْحِ البصر في السرعة والسهولة، بل هو أسرع من ذلك. إنَّ الله تعالى على كل شيء من الأشياء قدير، لا يُعجزه شيء.

٧٨- ومن عظيم قدرته أنَّه سبحانه أخرجكم من الأرحام في بطون أمهاتكم بعد الحمل أطفالاً لا عِلْمَ لكم بشيء، وجعل لكم وسائل الإدراك: السمع والبصر والقلوب؛ لكي تشكروا الله على ذلك بالقول والفعل.

٧٩- ألم ينظر العباد إلى الطيور مُذَلَّلاتٍ للطيران في الهواء بين الأرض والسماء؟ ما يُمْسِكهنَّ عن الوقوع إلا هو سبحانه بقدرته العظيمة. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من إخراجكم، والتذليل للطير؛ لَدلالات مشاهِدة لقوم يُصَدِّقون بالله العظيم وأمره الكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - النهي عن ضرب الأمثال لله، وعن تشبيهه ﷻ بخلقه.

٢ - استحسان ضرب الأمثال، وهو تشبيه حال بحال على أن يكون ضارب المثل عالماً.

٣- لا يعلم الغيبَ إلا الله، ويُستثنى من ذلك مَنِ ارتضاه ﷻ ليُطْلِعَه عليه، كحال الوحي لأنبيائه ورسله.

٤ - التذكير بما أنعم الله على عباده من نعمة السمع والبصر والعقل، وهي مكونات أساسية لحياتهم.

٥ - وجوب تسخير الأعضاء في طاعة الله والانتفاع منها فيما يرضيه.

٦- ينظر: تفسير سورة الملك الآية (١٩).

٧- الإشارة إلى معرفة جو السماء.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ
قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

٨٠- يخبر الله تعالى بنعمه على عباده لاستقرارهم وراحتهم في بيوتهم: وجعل من جلود الأنعام خياماً يَخِفُّ عليكم حملها في الأسفار، ونصبها حين إقامتكم بعد الترحال، وجعل لكم من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، فُرُشاً ولباساً وأغطية وغيرها من الأثاث، تنتفعون بها إلى أن تَبْلَى، أو إلى أن تموتوا.

٨١- ومن نِعَمه سبحانه أيضاً أن جعل لكم من الجبال والأشجار ظلالاً تستظِلُّون بها من حَرِّ الشمس، وجعل لكم من الجبال مساكن وحصون تسكنون فيها، وكهوفاً تستترون فيها من الحر والبرد والمطر، وجعل لكم الثياب من القطن والصوف تحفظكم من الحَرِّ والبرد، وجعل لكم دروعاً وغيرها تَتَّقون بها شرَّ أعدائكم في الحرب، مثل ما خلق الله لكم هذه النِّعم، فإنَّه يُتِمُّ نعمة الدنيا والدين عليكم؛ لكي تُخلصوا له العبادة.

٨٢-٨٣- فإن أعرض هؤلاء المشركون عن رسالتك أيها النبي، فإنَّك قد بَلَّغت الدعوة، وما عليك سوى البلاغ الواضح، فامض على ذلك. يعرفون نِعَمَ الله عليهم بإرسال محمد ﷺ وما تَقدَّم من النِّعَمِ في الآيات السابقة، ثم يجحدونها، وأكثرهم يموتون على الكفر.

٨٤-٨٥- يُذَكِّر الله تعالى بيوم القيامة، حين يبعث من كلِّ أُمَّة نبيَّها شاهداً عليها بالإيمان والكفر، ثمَّ لا يُؤْذَنُ للكفَّار في الاعتذار عمَّا وقع منهم، ولا يُطلب إليهم أن يسترضُوا ربَّهم، وإذا رأوا عذاب النار في الآخرة فلا يُخَفَّف عنهم منه شيء، ولا يُمْهَلُون.

٨٦-٨٧- وإذا شاهد المشركون آلهتهم يوم القيامة قالوا: يا ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كُنَّا نعبدهم من دونك. فردَّت عليهم آلهتهم: إنَّكم لَكاذبون حقّاً حين جعلتمونا شركاء لله. وأظهر المشركون الاستسلام والخضوع لله تعالى يوم القيامة، وذهب عنهم ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب.

٨٨- يخبر الله تعالى عن زيادة عذاب الكفَّار، فلهم عذاب على تكذيبهم، ولهم زيادة عذاب على مَنْعِ الناس عن الإيمان بالله تعالى؛ بسبب إفسادهم في الدنيا بالمعاصي والكفر.

٨٩- واذكر - أيها الرسول - للناس حين نبعث يوم القيامة في كلِّ أُمَّة من الأُمم نبيَّها؛ ليشهد عليها، وجئنا بك يا محمَّد شهيداً على أُمَّتك، ونزَّلنا عليك القرآن بياناً بليغاً لكلِّ أمر يحتاج إلى بيان، وهداية للقلوب من الضلالة، ورحمة للمؤمنين، وبشرى بالجنَّة للمسلمين المهتدين.

الفوائد والاستنباطات:

١- مخاطبة الله العرب الذين نزل فيهم القرآن بما يعرفونه في بيئتهم وحياتهم، كاستخدامهم جلود الأنعام وغير ذلك من النِّعم.

٢- على المرء العاقل أن يشكر نِعَمَ الله عليه، ويُسَخِّرها فيما يرضي خالقه.

٣- الإنسان المستظل بالشجرة يكون في حقيقة الأمر جالساً تحت مظلة مائية قدرها ٤٠٠٠ (أربعة آلاف لتر ماء)، فهي تمتصُّ حرارة الشمس الساقطة عليها، وتمنعها من إيذائه، وهي أيضاً ترشُّه ببخار الماء الذي يشعره باللطف والانتعاش في آنٍ واحد. وإنَّ كثافة الأوراق وما بها من ماء ومواد يعمل على وقاية الإنسان من الأشعة الضارة الساقطة من الشمس، وأخطرها الأشعة فوق البنفسجية. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص٢٠٣)

٤- وظيفة الرسول هي الدعوة بالحسنى، أمَّا الهداية فمن الله.

٥- أكثر الناس لا يعبدون الله تعالى، ولا يشكرون نعمه. وقليل منهم العابد الشاكر.

٦- زيادة العذاب لِـمَنْ دعا إلى الشرك والكفر، وحَمْلِ الناس على ذلك.

٧- تَكَرُّم النبيِّ ﷺ بشهادته على أُمته وسائر الأُمم.

٨- في الآية (٨٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ هذا القرآن العظيم نزل توضيحاً لكلِّ أمر يحتاج إلى بيان، كأحكام الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وغير ذلك، وسيبقى كذلك حتى تقوم السَّاعة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو البشارة الطيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

التفسير:

٩٠- يأمر الله تعالى بأحكام عظيمة جامعة للخير، ومهام كريمة مانعة للشر، في الآيات التسع الآتية: فيأمر بالعدل والإحسان في حقِّ عبادة الله تعالى، وحقوق الناس ومعاملتهم بحسن القول والعمل، ويأمر سبحانه بإعطاء الأقاربِ حقَّهم من البرِّ، وينهى عن قبيح الأقوال والأفعال، وعن الظلم والعدوان والطغيان؛ لكي تَتَّعِظُوا بأحكام الله الرحمن.

٩١- وحافظوا على الوفاء بالعهود التي أبرمتموها مع الله تعالى وعباده جميعاً، ولا تَنْقُضُوا الأيمان الموثَّقة، وقد جعلتم الله عليكم شاهداً ورقيباً بالوفاء بالعهود. إنَّ الله يعلم ما تفعلون في العهود وغيرها.

٩٢- ولا تكونوا - أيها الناس - في نَقْضِكم العهدَ مثلَ المرأة الحمقاء التي غَزَلَتْ صوفاً غَزْلاً مُحكَماً، ثم نقضَتْه محلولاً مفكَّكاً، حال كونكم مُتَّخذين أيمانكم خديعة للناس، إذا وجدتم فئة أكثر مالاً ومصلحة من الذين عاهدتموهم سابقاً. إنَّما يختبركم الله بالوفاء بالعهد، وقسماً لَيُوَضِّحَنَّ لكم - أيُها الناس - يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من حقٍّ أو باطل.

٩٣- ولو شاء الله لجعلكم - أيها الناس - ملّة واحدة غير مختلفين، ولكن لم يشأ ذلك لكي يترك لكم الاختيار مع المؤمنين أو الكفّار، فيُضِلُّ مَنْ يشاء ممَّنْ عَلِمَ منه اختيار الضلال والغَواية، ويهدي مَنْ يشاء ممَّنْ عَلِمَ منه اختيار الحق والهداية. وقسماً ستُسألون يوم القيامة عن أعمالكم في الدنيا، وسيجازيكم الله عليها.

٩٤- يكرِّر الله تعالى - للاهتمام والتأكيد - النهي عن عَقْد الأيمان؛ من أجل الخديعة والمكر التي تؤدي إلى الانحراف عن الاستقامة والحق، ثمَّ إلى العقوبة العاجلة في الدنيا؛ بسبب إيقاع الناس في هذه القدوة السيئة في الغدر، ولكم في الآخرة عذاب عظيم الألم.

٩٥- ولا تستبدلوا بالوفاء بعهد الله شيئاً حقيراً من حطام الدنيا مهما عَظُمَ في أعينكم. إنَّ الذي عند الله من الأجر على الوفاء أغلى وأعلى من هذا الثمن الأدنى، إن كنتم تعلمون التجارة الرابحة.

٩٦- ما تملكون من الدنيا - مهما بلغ من الثروات - زائل، وما عند الله الغني فهو دائم، وقسماً لَنَجْزِيَنَّ الصابرين على طاعة الله، ولَنُعْطِيَنَّهم الأجر الوافي على أحسن أعمالهم، مع التجاوز عن سيئاتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والإحسانُ أن تقابل الخيرَ بأكثرَ منه والشرَّ بأن تعفو عنه. (السراج المنير ٢/ ٢٥٦).

٢- تحريمُ كلِّ فعل قبيح شرعاً وعقلاً، وتحريم الاعتداء على الآخرين، وظُلْمِهم.

٣- وجوب الوفاء بالعهود، وحرمة نقضها.

٤- حرمة اتخاذ الأيمان طريقاً إلى الغِشِّ والخديعة والإفساد.

٥- تحريم الغدر والمكر في اليمين.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ
سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ
وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

التفسير:

٩٧- مَنْ عمل عملاً صالحاً في الدنيا سواءً كان ذكراً أم أُنثى، وهو يُقِرُّ لله تعالى بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، فلنحيينَّه في الدنيا حياة سعيدة حقّاً، ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء كريم على أحسن أعمالهم.

٩٨-١٠٠- وإذا أردت - أيها المؤمن - أن تقرأ شيئاً من القرآن العظيم، فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله، عن تدبُّر القرآن، بأن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. متدبِّراً لمعناها. إنَّه ليس له تَسَلُّط على المؤمنين بالله ورسوله، وعلى ربهم يعتمدون. إنَّما تَسَلُّطه على الذين يطيعونه، ويتخذونه وليّاً، والذين هم بسبب إغوائه صاروا مشركين بالله تعالى.

١٠١-١٠٢- وإذا رفعنا آية مكان أخرى، والله أعلم بمصلحة العباد بما ينزله من القرآن، قال الكفّار بسوء أدب للنبي ﷺ: إنَّما أنت يا محمَّد كاذب على الله!! بل أكثرهم لا يعلمون مقام النبي ﷺ وعظيم خلقه. فرَدَّ عليهم الله سبحانه: قل لهم أيها الرسول: هذا القرآن كلام الله، نَزَّله جبريل عليه السلام من الله ﷻ بالحق الثابت، الذي لا يأتيه الباطل، تثبيتاً للمؤمنين على الإسلام، وهداية للقلوب من الغَواية، وبشرى للمسلمين المنقادين لله بالجنَّة.

١٠٣- يُقسم الله تعالى: إنَّ المشركين أشاعوا كثيراً أنَّ النبيَّ ﷺ يتلقَّى القرآن من بشر عنده علم بالكتب السابقة، فرَدَّ الله عليهم: بأنَّ لسان الذي يزعمون أنَّه علَّمه رجل أعجمي، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة والبيان!

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٩٧) إخبار مستقبلي عن حال مَنْ يعمل العمل الصالح، ذكراً كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله، بأنَّ الله سيرزقه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة - ولو كان قليل المال -.

٢- الترغيب في الصبر؛ ليحصل الصابر على أحسن الجزاء وأطيبه.

٣- التسوية بين الذكر والأنثى في الدعوة إلى العمل الصالح، والإثابة عليه.

٤- المؤمن في الدنيا يحيا حياة طيبة، ولو أحاطت به المصائب، لعمله بشرع الله، ورضاه بقضائه.

٥- عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: القُنوع، قال: وكان رسول الله ﷺ يدعو يقول: «اللهم قَنِّعْني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخْلُفْ على كل غائبة لي بخير». (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك ٢/ ٣٥٦ - كتاب التفسير. وأقره الذهبي).

٦- استحباب الاستعاذة عند قراءة القرآن بلفظ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٧- يُشترط لتربية المؤمن على تَدبُّر القرآن والانتفاع بإرشاداته: تطهير القلب من الخبث، وتخليته من الفساد، ولا يكون ذلك إلا بدفع نوازع الشر التي تَعْلق بالنفوس، والاستعاذة مسلك رباني لقهر تلك النوازع ومغالبتها.

٨- مشروعية الناسخ والمنسوخ في القران الكريم.

٩- في الآية (١٠٢) إخبار مستقبلي بأنَّ هذا القرآن فيه البشارة الطيبة لِـمَنْ أسلموا، وخضعوا لله ربِّ العالمين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ
﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

التفسير:

١٠٤-١٠٥- إنَّ الذين لا يُصَدِّقون بالقرآن الكريم لا يهديهم الله لإصابة الحقِّ، ولهم في الآخرة عذاب موجع، إنَّما يتعمَّد الكذبَ الذين لا يُصَدِّقون بآيات الله المنزلة والمشاهدة، وأولئك البعداء عن الحق هم الكاذبون.

١٠٦-١٠٧- بَيَّنَ الله تعالى خطورة الردَّة عن دين الإسلام، وتغليظ العقوبات على المُرتدين في الدنيا والآخرة في الآيات الأربع الآتية: مَنْ ارتدَّ بعد إيمانه، فعليهم غضب من الله تعالى، إلا مَنْ أُجبر على النطق بالكفر خوفاً من الهلاك، وقلبه ثابت على الإيمان بالله فلا إثم عليه، لكن مَنْ نطق بالكفر، واطمأن قلبه إليه، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد الألم. ذلك العذاب العظيم؛ بسبب أنَّهم آثَرُوا الدنيا واختاروها على الآخرة، وأنَّ الله لا يوفِّق الكافرين إلى الإيمان.

١٠٨-١٠٩- أولئك البعداء عن رحمة الله، الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، وأصمَّ سَمْعَهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم، فلا يرون الأدلَّة الكونية على قدرة الخالق سبحانه، وأولئك البعداء عن الحق هم الغافلون عن الخير في الدنيا والآخرة، لا شكَّ أنَّهم في الآخرة هم الهالكون.

١١٠- ثمَّ اعلَمْ - أيها الرسول - أنَّ ربَّك للذين هاجروا من بعد المِحَنِ التي أصابتهم من الكفَّار، حتى وافقوهم على الكفر باللسان، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ثمَّ تمكَّنوا من الهجرة إلى (المدينة)، ثمَّ جاهدوا في سبيل الله وصبروا على طاعة الله تعالى. إنَّ ربَّك من بعد هذه الأعمال الصالحة بعد الفتنة، لَغفور لذنوبهم، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - حرمان المكذبين بآيات الله من الهداية؛ لعدم استحقاقهم لها.

٢- الجرأة على الكذب من خصال الكافرين الذين لا يؤمنون بعقاب على كذبهم، أما المؤمن فلا يكذب؛ لأنَّه يعلم بوجود عقاب شديد للكاذبين.

٣- الرخصة في كلمة الكفر في حال التعذيب، بشرط اطمئنان القلب إلى الإيمان، وعدم انشراح الصدر بكلمة الكفر.

٤- الردَّةُ عن الدين من أخطر الأمور وأسوأ الأعمال، وفاعلها مستحق لغضب الله تعالى، وعقابه العظيم.

٥- إيثار الدنيا على الآخرة، سبيل الضلال والهلاك.

٦- الصبر على الأذى في سبيل الله تعالى والثبات على الدين، دليل الإيمان وحب الله تعالى.

٧- فَضْلُ الهجرة والجهاد والصبر.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ
مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ
الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا
تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

التفسير:

١١١ - يُذَكِّر الله تعالى بيوم القيامة، حين يأتي كلُّ إنسان يدافع عن نفسه، ويُوَفِّي الله كلَّ امرئ جزاءَ ما عمل، ولا يُظْلَمون مثقال ذرَّة.

١١٢ - وهذا مَثَلٌ أريد به أهل مكَّة، فإنَّها كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان من ضيق العيش، إذ يأتيها باستمرار رزقها واسعاً طيِّباً من كل جهة، فجحد أهلها نِعَم الله عليهم، وأشركوا، فعاقبهم الله بالقحط والخوف من سرايا الرسول ﷺ؛ بسبب كفرهم ومعاصيهم.

١١٣ - وقسماً لقد جاءهم رسول من قومهم هو النبيّ محمَّد ﷺ، فكَذَّبوه وحاربوه، فأخذهم العذاب بالجوع والخوف وقَتْلِ زعمائهم في غزوة (بدر)، وهم معتدون على الحقوق.

١١٤-١١٥ - فكُلُوا - أيها المؤمنون - من الأطعمة الحلال المستلَذَّة التي رزقناكم، واشكروا لله تعالى على نعمه بالقول والفعل، إن كنتم حقّاً مطيعين له تعبدونه وحده، إنَّما حَرَّم الله عليكم الميتة التي لم تذبح بطريقة شرعية، وهي ميتة البرِّ لا ميتة البحر من السمك والجراد، وحَرَّم عليكم الدم المسفوح غير الجامد كالكبد والطحال، ولحم الخنزير، وما ذُبِح لغير الله، فمَنْ ألجأته الضرورة بسبب الجوع الشديد، ولم يجد شيئاً من الحلال، فأكل من هذه المحرَّمات من غير إفساد ولا إسراف، غير متجاوزٍ حَدَّ الضرورة، فلا ذَنْبَ عليه. إنَّ الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

١١٦-١١٧ - ينهى الله تعالى عن التحريم والتحليل بمجرَّد القول باللسان من غير دليل فلا تقولوا: هذا حلال لِما حَرَّمه الله، وهذا حرام لِما أحلَّه الله؛ لتختلقوا على الله الكذب. إنَّ الذين يتعمَّدون الكذب على الله لا يظفرون بمطلوبهم في الدنيا ولا في الآخرة، لهم تمتُّع قليل زائل في الدنيا، ولهم عذاب مُوجِع في الآخرة.

١١٨ - وحَرَّمْنا على اليهود خاصَّة دون غيرهم ما قصصنا عليك من قبل في سورة الأنعام الآية (١٤٦) وفيها تحريم كلِّ ذي ظفر، كالنعامة والبعير، والشحم الخالص من البقر والغنم. وما ظلمناهم بتحريم ذلك، ولكن كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والبغي.

١١٩ - واعلم - أيها الرسول - أنَّ ربَّك للذين فعلوا المعاصي بجهل وسفه، سواءً أكانوا متعمِّدين أم مخطئين، ثم تابوا من بعد ذلك الزَّلل، وأصلحوا العمل. إنَّ ربَّك من بعد توبتهم وإصلاح عملهم لَغفور لذنوبهم حقّاً، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأمن والطمأنينة نعمتان عظيمتان تحتاجان إلى شكر المنعم بهما سبحانه.

٢- كُفْرُ النعم يُسَبِّبُ زوالَها، والانتقام من أهلها.

٣- تكذيب الرسول يؤدي إلى العذاب والبلاء.

٤- الحكمة العظيمة في تحريم ما يضر ويستقذر.

٥- من يُسْرِ الإسلام وسماحته أنه لا يؤاخذ المضطر إذا أكل من شيء مُحَرَّم بقدر الضرورة.

٦- تَحَرِّي الحلال الطيب من الطعام، والابتعاد عن الحرام الخبيث.

٧- حرمة التحريم والتحليل بغير دليل شرعي قطعي لا ظني، إلا ما غَلَبَ على الظن تحريمُه.

٨- الظلم يؤدي إلى الحرمان من النعم وفقدانها.

٩- باب التوبة مفتوح لكل ذي ذنب، مهما عَظُمَ أو صَغُرَ، على شرط صدق التوبة بالإقلاع عن الذنب، والندم والاستغفار الدائم وإصلاح المفاسد، وردِّ الحقوق إلى أهلها.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ
وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ
رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ
خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

التفسير:

١٢٠-١٢٢- إنَّ إبراهيم عليه السلام كان إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير، مُطيعاً لله تعالى مستقيماً على دين الإسلام، مُوَحِّداً لله غير مشرك به، يخلص الشكر لله على نعمه، اصطفاه الله نبيّاً وهداه إلى الإسلام، وجعل له سبحانه الذكر الجميل في الدنيا، وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية.

١٢٣- ثمَّ أوحينا إليك - أيها الرسول - أن اتبع دين الإسلام، واستقم عليه، وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين بالله تعالى.

١٢٤- إنما جعل الله تحريم يوم السبت وتعظيمه للعبادة فيه على اليهود الذين اختلفوا فيه، فاستحَلَّه بعضهم، وحَرَّمه آخرون بدل يوم الجمعة الذي أمروا بتعظيمه. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - لَيحكم بين المختلفين حقّاً يوم القيامة فيما اختلفوا فيه على نبيِّهم.

١٢٥- يأمر الله تعالى الرسول محمداً ﷺ أن يدعو الإنس والجن إلى الإسلام بالمنهج الحكيم الذي أوحاه الله إليه، والموعظة النافعة بلُطْفٍ ولين، ويجادل المخالفين بأحسنِ طُرُقِ المناظرة بالحُجَّة المُقْنِعَة. إنَّ الله سبحانه هو أعلم بمَنِ اهتدى إلى طريق الحقِّ.

١٢٦-١٢٨- **سبب النزول:**

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحُدٍ أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة فمَثَّلوا بهم، وفيهم حمزة فقالت الأنصار: لئن أصبناهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ فقال رجل: لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله ﷺ كفوا عن القوم غير أربعة. (صححه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك

٢/ ٣٥٨-٣٥٩- كتاب التفسير - سورة النحل)، وأخرجه الترمذي برقم ٣١٢٩، كتاب التفسير، باب ومن سورة النحل. وقال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب. وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد (صحيح الترمذي ٣/ ٦٧)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ٢٣٩ برقم ٤٨٧). قال محققه: إسناده حسن).

التفسير:

وإن عزمتم - أيها المؤمنون - على عقوبة مَنِ اعتدى عليكم، فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا. وقسماً إن عفوتم وتركتم العقوبة، فهو خير لكم قطعاً، وتكونوا بذلك في عداد منزلة الصابرين، واصبر - يا محمَّد- على ما أصابك من الأذى في سبيل الله، فما تنال هذه المنزلة العالية إلا بعون الله تعالى، ولا تحزن على الكفَّار إن لم يُصَدِّقوا بك، ولا تَغْتَمَّ من مكرهم وكيدهم. إنَّ الله تعالى مع المتقين لله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومع المحسنين الذين يُحسنون القول والفعل بنَصْرِه وعونه، وكفى بذلك فخراً ونصراً.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن مسروق قال: قرأت عند ابن مسعود ﷺ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ فقال: إن معاذاً كان أُمَّة قانتاً لله، قال: فأعاد عليه، قال: فأعاد عليهم، ثم قال: أتدرون ما الأُمَّة؟ الذي يُعلم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله؟. (أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٨)، وقال الهيثمي في (المجمع ٧/ ٤٩): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح).

٢- الأمر باتباع ملة إبراهيم ﷺ، والاقتداء به في دينه وهو الإسلام.

٣- جواز اتباع الأفضل للمفضول، ولا تبعة على الفاضل في ذلك؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ أفضل الأنبياء وقد أمر بالاقتداء بإبراهيم.

٤- سَبْتُ اليهود من ابتلاء الله لهم، لا من نِعَمه وإفضاله عليهم.

٥- وجوب الدعوة إلى الله تعالى واجب كفائي، إذا قامت به جماعة أجزأ ذلك عنهم.

٦- على الداعي مراعاة حال المدعوين، ومخاطبتهم بما يناسبهم، ويُؤَثِّرُ فيهم.

٧- جواز المعاقبة بالأخذ بقَدْرِ ما أُخِذَ من المرء، وتركها صبراً واحتساباً أفضل.

٨- معيَّة الله تعالى ثابتة لأهل التقوى والإحسان، وهي معيَّة نصرٍ وتأييد وتسديد.

النزول: مكية.

فضل السورة:

عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: هُنَّ من العِتاق الأُوَل، وهُنَّ من تلادي. والتِّلاد هي: النفيسُ من الأموال. (صحيح البخاري: التفسير، سورة الأنبياء ٤٧٣٩).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كلَّ ليلة بني إسرائيل والزُّمر.

(أخرجه الترمذي وحسَّنه: السنن، فضائل القرآن برقم ٢٩٢٠. وأخرجه الحاكم، وصحَّحه ووافقه الذهبي: المستدرك ٢/ ٤٣٤. وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي: برقم ٢٣٣٢).

المقاصد:

١ - تقرير رسالة النبيِّ الأمين ﷺ.

٢ - تقرير أنَّ القرآن وحي من الله تعالى.

٣ - إثبات إعجاز القرآن الكريم.

٤ - الردُّ على مطاعن الكفَّار والمشركين.

٥ - إثبات الدَّلائل على تفرُّده - سُبْحانه - بتدبير الخلق ووحدانيته.

٦ - إثباتُ البعث والجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - تَنَزَّه الله تعالى وتَقَدَّس عَمَّا لا يليق بجلاله وعظمته؛ لقدرته على الأفعال العظيمة التي من جملتها أنَّه أسرى بعبده محمد ﷺ زمناً من الليل بروحه وجسده من المسجد الحرام في مكَّة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، الذي بارَكْنا حوله من بعثة الرسالات وكثرة الثمرات والخيرات؛ لِنُرِيَه من الآيات العجيبة كالعروج إلى السموات السبع، وما فيها من الأدلة التي تَدُلُّ على وحدانية الله وعظمته. إنَّه هو السميع للأقوال، البصير بالأفعال.

٢ - وأعطينا موسى عليه السلام التوراة؛ هداية لذريَّة يعقوبَ إلى طريق الحق، وتوحيد الله تعالى، إذ نهاهم عن اتِّخاذ غير الله معبوداً يعتمدون عليه.

٣ - يُرَغِّبُ الله تعالى البشر من سلالة نوح عليه السلام ومَنْ نجا معه من المؤمنين من الغرق أن يعبدوه وحده، ويشكروه على نعمه، فإنَّ نوحاً كان كثير الشكر لله تعالى.

٤ - وأَعْلَمْنا ذريَّة يعقوب في التوراة أنَّهم سيفسدون في الأرض التي يعيشون عليها في بيت المقدس وما حوله مرتين، ويَتَسَلَّطُون على الناس تَسَلُّطاً بالظلم والقهر.

٥- فإذا حصل منهم الإفساد الأول سَلَّطْنا عليهم عباداً لنا، جبابرةً أصحاب بطش وقوَّة عاتية، فانتشروا وسط الديار تفتيشاً فتقتيلاً ونهباً، وكان ذلك وعداً حاسماً حتماً؛ بسبب الفساد الأول، قبل معركة طالوت وجالوت المتقدِّمة في سورة البقرة.

٦- ثم عند توبتكم وعَهْدِكم مع طالوت وطاعتكم له، مَكَّن الله داود عليه السلام أن يقتل الطاغية جالوت، فرددنا لكم الغلبة على أعدائكم بالعُدَّة والعَدد، وبَسَطْنا عليكم الأرزاق بفتح البلدان، وكثرة الولدان، وجعلناكم أكثر عدداً من أعدائكم، وذلك بالإيمان بالله، والإحسان لعباد الله.

٧- إن أحسنتم بأقوالكم وأفعالكم، فالثواب عائد لأنفسكم في الدنيا والآخرة، وإن أسأتم بالكفر والعصيان، فعقاب ذلك عائد عليكم، فإذا وقع منكم الإفساد الثاني سَلَّطْنا عليكم أعداءكم مرة أخرى؛ لِيُذِلُّوكم ويقهروكم، وليدخلوا مسجد بيت المقدس، فيُخَرِّبوه كما خَرَّبوه عند وقوع الفساد الأول، وليُدَمِّروا ويُهْلِكُوا كلَّ ما وقع تحت أيديهم تدميراً شاملاً، كهجوم الطاغية بختنصَّر مَلِكِ بابل التي تقع جنوب بغداد على بعد (١٠٠) كيل.

٨- لعلَّ ربَّكم يا ذريَّةَ يعقوبَ عليه السلام يرحمكم برحمته الواسعة، إن تُبْتُمْ عن الفساد، وسلكتم طريق الهداية. وإن رَجَعْتُم إلى الفساد والغَواية، عُدْنا إلى التنكيل والنِّكاية، وجَعَلْنا نار جهنم مصير الكفَّار يُحْصَرُون فيها خالدين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مكانة رسول الله ﷺ برحلة الإسراء والمعراج، وما فيها من التعليم، والتكريم، والتَّكليم لله تعالى.

٢- تقرير رسالة النبيِّ ﷺ بمعجزة الإسراء.

٣- إرشاد بني إسرائيل وغيرهم من الأُمم بتوحيد العبوديَّة لله تعالى.

٤- التَّحذير من مفاسد اليهود ومكايدهم.

٥- الموعظة لبني إسرائيل وغيرهم إن أفسدوا، فإنَّ مصيرهم العقاب في الدُّنيا، ثم الحساب في الآخرة.

٦- الإفسادتان قد مَضَتا، وكذلك التسليط، فإنَّ المصدر الذي تَسَلَّطَ عليهم واحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أمَّا الإفساد في المستقبل فقد جعل الله تعالى تسليطاً على كلِّ مَنْ سيفسد منهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

٧- مَنْ يعمل خيراً فإنَّ الفائدة تعود إلى صاحب ذلك الخير.

٨- البشرى برحمة الله تعالى لِـمَنْ يَكُفُّ عن المعاصي.

٩- ينظر: صورة المسجد الأقصى، كما في الملحق.

١٠- ينظر: صورة الإسراء والمعراج، كما في الملحق.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ
بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً
لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ
ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٩-١٠- يُخبر الله تعالى عن عظمة القرآن الحكيم وأثره في رُقِيِّ البشر، فهو يهدي باستمرار إلى الطريقة التي هي أحسن في المسائل العظام، وعلى رأسها دين الإسلام، ويُبَشِّر المصدِّقين بالله ورسله الذين يواظبون على فِعْلِ الأعمال الصالحة، أنَّ لهم أجراً كبيراً في الجنة، وأنّا هَيَّأْنا للكفّار عذابَ النار الموجع.

١١- يُرشد الله تعالى الإنسان إلى عدم التهوُّر في الدعاء بالشرِّ على النفس والمال والأولاد، مثلَ ما يدعو بالخير، وكان الإنسان مبالغاً في العجلة يَتَسَرَّع إلى ما يريد.

١٢- وجَعَلْنا الليل والنهار علامتين عظيمتين دالَّتين على وَحْدانيتنا، فمَحَوْنا آية الليل بظلامه؛ لتسكنوا فيه، وجَعَلْنا آية النهار مضيئة مشرقة؛ لتطلبوا فيه أسباب معايشكم، ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، وكلَّ شيء من أمور الدين والدنيا بَيَّنّاه بياناً دقيقاً.

١٣-١٤- وكلُّ إنسان مرهونٌ بعَمَلِه الملازِم له، ويُجازى عليه، ونُخرِجُ له يوم القيامة كتاباً مفتوحاً سُجِّلَتْ فيه السيئات والحسنات، ويقال له: اقرأ كتاب عملك. كفى أن تكون اليوم شهيداً على ما عَمِلْتَ.

١٥- مَنِ اهتدى إلى الحقِّ فثواب ذلك عائد عليه، ومَنِ انحرف عن الحق فعقاب ذلك عائد عليه، ولا يحمل أحدٌ ذَنْبَ أحد. وما كُنّا مُعَذِّبين أحداً من الخَلْقِ حتى نبعث إليهم الرسل مُبَلِّغين بالحُجَجِ الواضحة.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة هدايات القرآن الكريم، وما فيه من الإرشاد الحكيم.

٢- تحريم دعاء الإنسان على نفسه أو ولده أو ماله.

٣- في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ هذا القرآن يُرْشِدُ النَّاس إلى أحسن الطُّرق، وهي مِلَّةُ الإسلام. وهذه الهداية بالقرآن مستمرَّة حتى قيام السَّاعة.

٤- ذَمُّ التعجُّل بالدعاء على النفس والمال.

٥- تقرير مشروعيَّةِ معرفة علم الحساب، وما فيه من الفوائد.

٦- الإنسان سيقرأ صحيفة أعماله، حتى ولو كان أمّيّاً.

٧- من رحمة الله تعالى ألَّا يعذِّب أحداً إلا بعد أن تقوم عليه الحُجَّةُ بمعرفة الحقِّ.

٨- من رحمة الله تعالى ألَّا يُعذِّب أحداً بذنب غيره.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ
أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا
لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ
لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ
رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ
وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٦-١٧- يُحَذِّر الله تعالى الناس من الخروج عن طاعته: وإذا أردنا أن نُدَمِّرَ قوماً أمرنا مترفيهم بالطاعة، فعصَوا وخرجوا عن طاعة الله، فوَجَبَ عليهم العقاب، فأهلكناهم هلاكاً شاملاً تامّاً، وقد أهلكنا كثيراً من الأُمم الكافرة من بعد نوح ﷺ. وحَسْبُكَ - أيها النبيُّ - أنَّ الله عالم بجميع أعمال عباده، لا يخفى عليه شيء منها.

١٨- مَنْ كان يقصد بعمله الدنيا دون الآخرة، عَجَّلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نِعَمِها لِـمَنْ نريد التعجيل له، ثم جعلنا له في الآخرة نار جهنم، يدخلها مَلُوماً مطروداً من رحمة الله.

١٩ - ومَنْ أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم، وعَمِلَ لها عَمَلَها الذي يليق بها من الإيمان والإحسان، فأولئك أصحاب المنزلة الرفيعة كان عملهم مقبولاً عند الله تعالى.

٢٠ - كلٌّ فريق من العاملين للدنيا والعاملين للآخرة نعطيه من عطائنا الواسع، فنرزق المؤمن والكافر والمطيع والعاصي في الدنيا، وما كان عطاء ربك ممنوعاً عن أحد.

٢١ - انظر - أيها العبد - كيف فَضَّلْنا بعض الناس على بعض في الأرزاق والأخلاق. ودرجات المنازل في الآخرة أعظم، والتفاضل فيها أكثر.

٢٢ - يُحَذِّر الله تعالى البشر من خطورة الشرك، وينهى عنه، فإنَّه يُوَرِّث الذَّمَّ والخِذْلان في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من الترف الذي يجرُّ إلى المعاصي.

٢ - الموعظة بالأُمم البائدة بالهلاك بعد زمن نوح عليه السلام.

٣ - مَنِ اقتصر عمله على نَيْلِ متاع الدنيا، وتَرْك العمل للآخرة، فإنَّ الله تعالى قد يُبَلِّغه مقصوده، وقد لا يُبَلِّغه، ومصيره العقاب عند الحساب.

٤ - في الآية (١٨) إخبار مستقبليٌّ عَمَّنْ كان طلبه الدنيا العاجلة، وسعى لها وحدها، ولم يُصَدِّقْ بالآخرة ولم يعمل لها، بالتعجيل له فيها بما يشاؤه ويريده، ممَّا كتبه الله له في اللوح المحفوظ.

٥ - الإنسان الذي يهتدي إلى الإسلام يعود نَفْعُ ذلك عليه، ومَنْ ضلَّ فإنَّه يَلْقَى جزاءه.

٦ - التفضيل للفائزين في الآخرة بأعظم الدرجات.

٧ - من أعظم المصائب الضلال في ظلمات الشِّرك.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ
كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ
ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ
كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾
إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ
مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ
فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٣-٢٤- يُرشد الله تعالى في هذه السورة العظيمة إلى أحكام حكيمة وآداب كريمة: وَصَّى الله تعالى عباده ألَّا يعبدوا إلا الله وحده، وأمر أن تُحسنوا بالوالدين قولاً وعملاً، فإذا كَبِرا - أو كَبِرَ أحدهما - فلا تضجر منهما ولو بكلمة (أف)، ولا بفِعْلٍ قبيحٍ ولا تزجرهما بغلظة، وتَرَفَّقْ بهما، وقل لهما قولاً طيّباً لطيفاً، وتواضَعْ لهما برحمة، وادعُ لهما بالرحمة جزاءً على تربيتهما لك حالة الطفولة.

٢٥- ربُّكم - أيها الناس - أعلمُ بما في نفوسكم من خيرٍ وشرٍّ، إن تكونوا قاصِدين الخيرَ والصلاح في برِّكم بآبائكم وصدر منكم ما يكرهونه دونما قصد وتعمّد منكم، فإنَّه سبحانه يتجاوز عن ذلك ولا يؤاخذكم به.

٢٦-٢٧- يأمر الله تعالى بإعطاء حقوق الأقارب من البرِّ والإحسان إليهم، وإعطاء حقِّ المسكين المحتاج، والمسافر المنقطع عن أهله وماله، ولا تصرف المال حسب الهوى جُزافاً وإسرافاً. إنَّ الذين يُسْرِفُون في المال في غير حق أمثالُ الشياطين في صَرْفِ المال في الباطل. وكان الشيطان مبالِغاً في جُحود نِعَمِ الله تعالى.

٢٨- وإن لم تَجِدْ ما تنفق على الذين أُمِرْتَ بإعطائهم؛ لانتظار الرزق من الله الكريم، فقُلْ عند الاعتذار لهم قولاً طَيِّباً لطيفاً.

٢٩-٣٠- يُرشد الله المؤمنين إلى التوسُّط في الإنفاق، وعلى قدر الطاقة والحاجة: ولا تُمْسِكْ بيدك عن الإنفاق في وجوه الخير، ولا تُسْرِفْ في الإنفاق، بحيث لا يبقى في يدك شيء من المال، فتصير مذموماً عند الخالق والخلق، ونادماً على ضياع المال. إنَّ ربَّك يُوَسِّع الرزق على بعض الناس، ويُضَيِّقه على بعضهم. إنَّه عالم بمصالح عباده، بصير بقسمة الأرزاق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الإحسان إلى الوالدين بالقول والفعل.

٢- وجوب برِّ الأقارب وصلتهم.

٣- تأكيد تحريم التبذير.

٤- ذَمُّ البخل والشُّحِّ.

٥- من الحكمة التوسُّطُ في الإنفاق.

٦- الأرزاق من عند الله، وهو عليم بما يصلح في رزق العباد.

٧- في الآية (٣٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الرزق بيد الله ﷻ، يُوَسِّعه على بعض النَّاس، ويُضَيِّقُه على بعضهم، وَفْقَ عِلْمِه وحِكْمَتِه ﷻ.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا
تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ
ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ
إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن
تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣١- ولا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر، وأرزاقُكم جميعاً علينا لا عليكم. إنَّ قَتْلَهم كان جريمة كبيرة.

٣٢- واجتنبوا فاحشة الزِّنى وكلَّ دواعيه، إنَّه كان فِعْلَةً في غاية القبح، وبئس الطريقُ طريقُه.

٣٣- ولا تقتلوا نفساً حَرَّم اللهُ قَتْلَها بغير حق شرعي موجب للقتل كالمرتد، والقاتل عمداً، والزاني المحصَن. ومَنْ قُتِلَ عدواناً من غير سبب شرعي، فقد جعلنا لأقرب وَرَثَتِه سلطةً على القاتل بالقصاص

منه بإشراف الحاكم، أو أَخْذِ الدِّيَةِ أو العفو، فلا يتجاوز الحدَّ المشروع، بأن يَقْتُلَ غير القاتل، أو يُمَثِّل به. إنَّ وَلِيَّ المقتول كان منصوراً بهذه الأحكام العادلة.

٣٤- ولا تَتَصَرَّفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن في تنمية المال واستثماره، حتى يبلغ سِنَّ الرشد بحسن التصرُّفِ في ماله. وأتمُّوا الوفاء بكل عهد التزمتم به؛ لأنَّكم تُسألون عنه يوم القيامة.

٣٥- وأتمُّوا الكيل إذا كِلْتم لغيركم، ولا تُنْقِصُوه شيئاً، وزِنُوا بالميزان الذي لا جَوْرَ فيه. ذلك العدل العظيم في الكيل والوزن خير لكم في الدنيا، وأحسن عاقبة في الآخرة.

٣٦- ولا تَقُلْ ما ليس لك به علم، بل تَثَبَّتْ. إنَّ الإنسان يُسأل يوم القيامة عن سَمْعِه وبَصَرِه وقَلْبِه. كلُّ هذه الأحكام العاليةِ القَدْرِ كان الإنسان عنها مسؤولاً يوم القيامة.

٣٧- ولا تمشِ في الأرض مِشْيَةَ تَكَبُّرٍ وتَفاخُر، فإنَّك لن تقطع الأرض طولاً، أو تخرقها بالمشي عليها، ومهما تطاولت فلن تستطيع أن تُحاذِيَ بطولِك قِمَمَ الجبال.

٣٨- كلُّ ذلك المذكور البعيد عن مكارم الأخلاق المنهيِّ عنه يكره الله سَيِّئه ولا يرضاه، ويعاقب عليه.

٣٩- ذلك المذكور من الحكمة العظيمة والوصايا الكريمة ممَّا أوحيناه إليك أيها الرسول؛ ليأخذ بها العبد، ولا يجعل مع الله سبحانه شريكاً له في عبادته، فيُقْذَفُ في نار جهنَّم مَلُوماً عند الخالق والخلق، مطروداً من كل خير.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم قتل الولد خوفاً من الفقر، فإنَّ اللهَ يرزق الجميع.

٢- في الآية (٣١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الرزق بيد الله سبحانه، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء.

٣- تحريم دواعي فاحشة الزِّنى.

٤- الإشارة إلى الترغيب في الزَّواج.

٥- تحريم قتل النفس بغير حقٍّ.

٦- وجوب المحافظة على مال اليتيم، وحرمة أكل ماله.

٧- وجوب العدل في الميزان والكيل.

٨- تحريم القول والفعل من غير علم.

٩- تحريم التكبُّر.

١٠- كلُّ ما تَقَدَّم من أحكام في هذه الآيات حِكَمٌ عظيمة، فهل من مستفيد من هذه الحكم؟.

١١- النَّهْيُ عن الشرك بالله، وبيان مصير المشرك.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا
الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا
ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ
هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٠ - يُنْكِرُ الله تعالى على مزاعم المشركين تقريعاً وتوبيخاً لهم: أفخَصَّكم ربُّكم بإعطائكم الذكور، واختار لنفسه البنات؟ إنَّكم لَتقولون قولاً عظيماً، يكاد يزلزل السموات والأرض من قُبْحِه.

٤١ - وقسماً لقد بَيَّنَّا وفَصَّلْنا للإنس والجن ضروب البيان في هذا القرآن؛ ليتَّعِظُوا بالحُجَّة والبرهان، فيلحقوا بركب الإيمان. وما يزيد البيان أهل الطغيان إلا تباعُداً عن الحق والإحسان.

٤٢ -٤٣ - يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يُفَهِّم المغرورين بالشرك، وأن يقول لهم: قل لو كان مع الله تعالى آلهة أخرى كما يزعمون، إذاً لطلبت تلك الآلهة طلباً حثيثاً مغالبةَ الله تعالى، ولَذَهَبَ كل إلهٍ بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض! تَنَزَّه الله وتَقَدَّس وتعالى عُلُوّاً كبيراً عمّا يفتري المشركون.

٤٤ - تلهج السموات السبع والأرضون السبع، ومَنْ فيهنَّ بالتسبيح حقيقة. وما مِنْ شيء من الأشياء في الكون إلا يُسَبِّح مقروناً بالحمد والثناء على الله سبحانه، ولكن لا تفهمون ذلك التسبيح. إنَّه سبحانه كان حليماً بعباده يُمْهِلُهم، ويغفر ذنوبهم إذا تابوا.

٤٥ -٤٦ - وإذا قرأت القرآن، فسَمِعَه الكفار، جعلنا بينك وبينهم حجاباً ساتراً يَحْجُبُ أبصارهم عن رؤيتك، إذا قصدوا لك أذى، ويَحْجُبُ قلوبهم عن فَهْمِ القرآن، إذ جعلنا على قلوبهم أغطية؛ لكيلا يفهموا القرآن، وجَعَلْنا في آذانهم صَمَماً يمنعهم من استماعه استماعَ تَدَبُّر؛ عقوبة لهم. وإذا ذَكَرْتَ ربَّك - أيها النبي- داعياً لتوحيده سبحانه رجعوا على أعقابهم بنفور سريع، كنُفُور الحمير من الأسد.

٤٧ -٤٨ - يكشف الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ كَذِبَ زعماء مشركي مكة فيقول: نحن أعلم بحالهم حين يستمعون إلى قراءتك القرآن، ثم يتناجَون بالحديث سِرّاً بينهم، حين يقول المعتدون الطاعنون بالنبيِّ ﷺ

وبالقرآن، ما تَتَّبِعُون إلا رجلاً أصابه السحر، فاختلط كلامه. انظر - أيها النبي - وتَعَجَّبْ: كيف جعلوا لك الأمثال التي هي أبعد شيءٍ عن صفتك من قولهم: ساحر، شاعر، مجنون؟ لقد ضَلُّوا عن الحق بهذا الكذب، فلا يجدون طريقاً إلى اتباع الهدى.

الفوائد والاستنباطات:

١- حوار المشركين بالحُجَّة والبرهان والحكمة.

٢- عدم استفادة الكفَّار من هدي القرآن الحكيم.

٣- بيان جهل المشركين؛ لعبادتهم المخلوقين.

٤- الكونُ بكلِّ ما فيه يلهج بتعظيم الله وعبادته.

٥- الرعدُ ظاهرة جويَّة تنشأ عن تفريغ الشحنات الكهربية. وهذا التفريغ صورة من صور التقاء اللبنات الأولية للمادة بما تحمله من طاقة وما تصدره من ذبذبات وأصوات، وكأنَّها تسبيح لله وتمجيد وعبادة وحمد وخضوع له تعالى بالطاعة. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٤٥٢-٤٦٤).

٦- وجوب تدبُّر مواعظ القرآن وأحكامه وحكمه.

٧- القرآن لا ينتفع به إلا مَنْ آمن به.

٨- فَضْحُ خفايا الأعداء ودسائسهم للنبيِّ ﷺ والمؤمنين.

٩- جذور حرب الإشاعة على النبيِّ ﷺ ما قاله المشركون، ثمَّ جاءت مُتابَعَتُهم إلى زماننا هذا.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا
مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن
لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ
كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٤٩- أنكر الكفَّارُ البعثَ بقولهم: أإذا كُنَّا عظاماً بالية مُتَفَتِّتة، هل سنُبْعَثُ ونُخْلَقُ خَلقاً جديداً بعد الموت؟

٥٠-٥١- ورَدّاً على هذا الإنكارِ بَيّنَ اللهُ تعالى الحوارَ الذي دار بين النبيِّ ﷺ والكُفّار، وما فيه من الإخبار عن أمور مستقبلة من أقوال الفُجّار وأفعالهم، وكيفية الردِّ عليها. قل لهم أيها الرسول: كونوا حجارة أو حديداً، أو خَلْقاً آخر ممّا هو أبعدُ عن الحياة، فإنّه يُحْيِيكم ويبعثكم. فسيقولون: مَنْ الذي يَرُدُّنا إلى الحياة بعد الموت؟ قل: الذي خَلَقَكم من العدم أوّل مرّة. فسيَهُزُّون رؤوسهم استهزاءً وتَعَجُّباً: متى يكون البعث؟ قل لهم: لعله يكون قريباً وقوعه.

٥٢- وسيكون يوم يناديكم ربُّكم للخروج من قبوركم، فتستجيبون لأمره، فتَخرُجون حامدين لله، وتظنُّون ما مكثتم إلا زمناً قليلاً.

٥٣- يأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يُعَلِّم المؤمنين أدب الحوار، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن فإن لم يفعلوا ذلك ألقى الشيطان بينهم العداوة. إنَّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً ظاهر العداوة.

٥٤- ربُّكم - أيُّها الناس - أعلم بما في نفوسكم وعاقبة أمركم، إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، أو إن يَشَأْ يُعَذِّبْكم بالإماتة على الكفر والعصيان، وما أرسلناك عليهم حفيظاً وكفيلاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- أهمية الحوار الهادئ الهادف مع غير المسلمين.

٢- كَشْفُ ما سيقوله المشركون للنبيِّ ﷺ استعداداً لهم؛ لإقامة الحُجَّة عليهم.

٣- تقرير عقيدة البعث للحساب، ونيل العقاب أو الثواب.

٤- يجب اختيار أحسن العبارات في الحوار بين المؤمنين، وبين المؤمنين وغيرهم.

٥- مهمَّة الرسول ﷺ هي البلاغ والإنذار، وهو غير مسؤول عنهم بعد ذلك.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا
﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي
الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ
مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا
كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٥-٥٧- وربُّك - أيها الرسول - أعلمُ بمَنْ في السموات السبع والأرضين السبع، فيَخُصُّ مَنْ يشاء بما يشاء سبحانه. وقسماً لقد فَضَّلْنا بعض الأنبياء على بعض بالكتب، وكثرة الأتباع، والتكليم وغيره، وفُضِّل داودُ عليه السلام بكتاب الزبور. قل: ادْعُوا الذين زعمتم أنَّهم آلهة من دون الله؛ ليشفعوا لكم، فلا يستطيعون رَفْعَ البلاء عنكم، ولا تحويله إلى غيركم. أولئك أصحاب الدرجات الرفيعة من الأنبياء والملائكة والصالحين، الذين يدعوهم المشركون يطلبون بإلحاح ما يُقَرِّبُهم إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة، ويحرص كل منهم أن يكون أقرب إلى الله تعالى، ويرجون دائماً رحمة ربهم، ويخافون دائماً عذابه. إنَّ عذاب ربِّك شديد، جدير بأن يُحْذر منه.

٥٨- وما من أهل بلدة كفروا بالله إلا ونحن مُعاقِبُوهم بالدَّمار، أو بعذاب شديد في الدنيا. كان ذلك في اللوح المحفوظ مكتوباً.

٥٩- يُخبر الله تعالى عن رحمته بعدم إنزال المعجزات التي يقترحها المشركون، وأنَّه ما منعه أن يرسلها إلا تكذيب مَنْ سبقهم من الأُمم، فقد أجابهم الله إلى ما طلبوا، ثم كَذَّبوا فأهلكهم. ومن أولئك الأُمم قوم ثمود، فقد أعطاهم الناقة معجزة رأوها رَأْيَ العين، فكفروا بها فأهلكهم، وما نرسل الآيات الكونية كالزلازل والبراكين وغيرها إلا تخويف العباد؛ ليتَّعِظُوا.

٦٠- واذكر - أيها الرسول - حين قلنا لك لنطمئنَك: إنَّ ربَّك عَصَمَك من الناس، وما جعلنا المشاهدات العجيبة التي أَرَيْناكها رَأْيَ العين ليلة الإسراء والمعراج إلا اختباراً للناس؛ ليتميَّزَ المؤمن من

المكذِّب، وكذلك شجرة الزَّقُّوم الملعونة في القرآن هي اختبار أيضاً، ونُخَوِّفُ هؤلاء المشركين المكذِّبين بأنواع الآيات والعقوبات، فما يزيدهم إلا تجاوزاً عظيماً لحرمات الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير شمول علم الله تعالى بكلِّ مَنْ في السموات والأرض وما بينهما.

٢- تقرير فضل النبيين فيما بينهم، وسيِّدهم رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ.

٣- ما يُعبد من دون الله تعالى لا يقدر على جَلْبِ النفع لهم، أو دَفْعِ الضُّرِّ عنهم.

٤- حكم الله تعالى على الظالمين بالهلاك والدَّمار.

٥- في الآية (٥٨) إخبار مستقبلي، ووعيد من الله ﷻ للكفَّار، بأنَّه ما من قرية كافرةٍ مُكَذِّبة للرسل إلا وسينزل بها عقابه بالهلاك في الدنيا قبل يوم القيامة، أو بالعذاب الشديد لأهلها.

٦- موعظة العباد تكون بالظواهر الكونيَّة، كانفجار البراكين، وخسف الأرَضِين.

٧- عصمة الله رسولَه ﷺ من أذى الكفَّار.

٨- اختبار الناس بمعجزة الإسراء والمعراج.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

التفسير:

٦١- يُحَذِّر الله تعالى ويُنذر من مكايد الشيطان في الآيات الخمس التالية، فقد ذكر الحوار الذي دار بين الرحمن والشيطان، حين أمر الله تعالى الملائكة جميعاً أن يسجدوا لآدم تكريماً له، فاستجابوا وسجدوا كلُّهم، إلا إبليس أبى وأنكر بقوله: هل أسجد لِـمَنْ خَلَقْتَه من الطين؟!

٦٢-٦٣- ثم ازداد وقاحة إذ قال: أخبرني عن هذا الذي فَضَّلْتَه عليَّ لِمَ فَضَّلْتَه؟ ثم أقسم: إن أَمْهَلْتني إلى يوم القيامة، قسماً لَأَسْتَوْلِيَنَّ على ذريَّته بالإغواء والإضلال، إلا المؤمنين الذين حَفِظْتَهم مني. فردَّ الله

تعالى عليه بالطرد والإهانة والتهديد له ولِـمَنْ تبعه: اذهب فقد أمهلتك، ومَنْ أطاعك من ذريَّة آدم، فإنَّ نار جهنم جزاؤك وجزاؤهم جزاءً كاملاً وافراً.

٦٤-٦٥- واستَخْفِفْ واستزِلَّ مَنِ استطَعْتَ منهم بدعوتك إياه إلى المعاصي والفساد، وأجمِعْ عليهم كلَّ ما تقدر عليه من جنودك، من كل راكب يقصد معصية، وكل ماشٍ في معصية الله، وشارِكْهم في الأموال، بتزيين إنفاقها في المحرَّمات، وبجمعها من الطرق غير المشروعة، وشارِكْهم في الأولاد، بوَأْدِ البنات وقَتْلِ الأولاد خشية الفقر، وبالترغيب في اختلاط الرجال بالنساء؛ حتى يقعوا في الفاحشة، ويَكْثُرَ أولاد الزِّنى، وعِدْهم بالوعود الخادعة والأماني الكاذبة، وما يَعِدُهم الشيطان إلا وعداً باطلاً مُغْرِياً. إنَّ عبادي المؤمنين الذين يطيعونني ليس لك قدرة على إغوائهم. وكفى بربِّك حافظاً لهم منك.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مكانة آدم عليه السلام، والإشارة إلى المسؤوليَّة التي سيتحمَّلها.

٢- بيان عداوة إبليس التي ظهرت بتكَبُّره على آدم عليه السلام.

٣- الإشارة إلى وساوس إبليس في تزيين المعاصي، والتحذير منها، ومن جند إبليس، من الإنس والجنِّ.

٤- بشرى الله تعالى بحِفْظِه للمؤمنين، بسبب اعتصامهم، وتَمَسُّكهم بأحكام الله تعالى، وأنَّ إبليس ليس له قدرة على إغوائهم.

﴿ رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾
أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ
أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

التفسير:

٦٦- رَبُّكم - أيها العباد - هو الذي يُسَيِّر لكم السفن في البحر؛ لتَطْلُبوا بجِدٍّ رزقَ الله في أسفاركم وتجاراتكم. إنَّ الله سبحانه كان بعباده جميعاً رحيماً.

٦٧- ومن رحمته بعباده الدالَّة على وحدانيته: أنَّهم إذا أصابهم حدث خطير في البحر غاب عن ذهنهم الآلهة التي كانوا يَدْعُونها من دون الله، واستغاثوا بالله، فلمَّا أنقذهم من الغرق أعرضوا عن الإيمان بالله. وهذا من الكفر بالنعم، فإنَّ الإنسانَ جَحُودٌ لنِعَمِ الله.

٦٨-٦٩- يُنكر الله تعالى على الكفَّار مُوَبِّخاً لهم على رجوعهم إلى الكفر: أنَجَوْتم من البحر فأَمِنْتُمْ بعد خروجكم منه أن يخسف بكم الأرض المعهودة، أو يرميكم بحجارة من السماء فتقتلكم، ثم لا تجدوا مَنْ يدفع عنكم العقاب؟ أم أمنتم أن يعيدكم في البحر مَرَّةً أخرى، فيُرسل عليكم ريحاً شديدة مُدَمِّرة؛ فيغرقكم بسبب كفركم، ثم لا تجدوا لكم علينا تابعاً يطالبنا بالثأر؟

٧٠- ومن رحمته بعباده التكريمُ، فقد أقسم الله تعالى مؤكِّداً: ولقد شَرَّفْنا ذريَّة آدم ﷺ وسَخَّرنا لهم الدوابَّ في البرِّ، والسفن في البحر؛ لـحَمْلِهم وحَمْلِ أمتعتِهم، ورزَقْناهم من لذيذ المطاعم والمشارب وحلالها، وفَضَّلْناهم على كثير من المخلوقات تفضيلاً كبيراً.

٧١- واذكر - أيُّها النبي - يومَ الحشر حين نُنادي كلَّ جماعة من الناس مع نبيِّهم الذي يشهد عليهم، فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه - وهم السعداء أصحاب الدرجات الرفيعة - يقرؤون كتابهم فَرِحين بحسناتهم التي يُثابون عليها، ولا يُنْقَصُون من أجورهم شيئاً.

٧٢- ومَنْ كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحقِّ، فهو في الآخرة أشَدُّ عَمَىً، وأتعسُ ضلالةً.

الفوائد والاستنباطات:

١- من رحمة الله تعالى على العباد تسخير السفن، وما فيها من الفوائد وطلب الرزق.

٢- بيان جُحودِ الإنسان نِعَمَ الله تعالى، ورعايته لعباده.

٣- الموعظة في طاعة الله تعالى، وينبغي الإجابة عن هذه الأسئلة الواعظة بقولنا: لم نَأْمَنْ يارِبِّ، فنحن نعيش بحِفْظِك ورحمتك.

٤- بيان عظمة قدرة الله تعالى في النَّجاة من الكوارث الكبرى.

٥- في الآية (٦٨) إخبار مستقبليٌّ عن عذاب الكفَّار بالخسف.

٦- إنَّ الشواهد والأدلة تتجمع من جميع أنحاء العالم على أنَّ حوادث الزلازل والبراكين والانزلاق الأرضي الخطير على قاع البحر تحتمل أن تتزايد بل ستكون بالفعل نتيجة للتغييرات الموسمية العالمية. وكلما تحدث زلزلة على وجه الأرض فهي لا تقع إلا كنتيجةٍ لانفجار البركان تحت الأرض، وكأنَّهما شيئان لازمان لا ينفكان. (كثرة حوادث الزلازل وخسف الأرض: من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٧).

٧- في الآية (٦٩) إخبار مستقبليٌّ عن عذاب الكفَّار بالغرق.

٨- تفضيل الله تعالى بني آدم على كثير من المخلوقات.

٩- تقرير البعث والحشر والحساب.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا
﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ
وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٣-٧٥- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من خطر فتنة الكفَّار الذين مازالوا يُطالِبُون المؤمنين بتغيير بعض أحكام القرآن الحكيم، فإنَّهم قاربوا بدهائهم ومكرهم أن يُحَقِّقوا ذلك مع النبي ﷺ حتى يجعلوه من الأحبة المُقَرَّبين! ولكنَّ الله برحمته ثَبَّته على الحق؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ مِنْ حِرْصِه على دخولهم في الإسلام فَكَّر أن يوافقهم على قليل من اقتراحاتهم، وقد عَصَمَه الله من ذلك فلم يُوافِقْهم. ولو فعل ذلك لَضاعف الله تعالى عليه العذاب قَطْعاً في الحياة الدنيا، وضاعفه عليه في الآخرة، ثم لا يجد أحداً يدفع عنه ذلك العذاب المضاعف.

٧٦-٧٧- وهؤلاء الكفار حينما يئسوا من استجابة النبي ﷺ لمقترحاتهم، حاولوا بعزم أن يُخْرِجُوا النبيَّ ﷺ من مكة بإزعاجهم له، وتضييقهم عليه وعلى المؤمنين. ولو أخرجوه لَنزلت عليهم العقوبة بعد خروجه بقليل من الزمن، وهي سُنَّةُ الله تعالى في الأُمم السابقة التي أخرجت رسلهم من ديارهم، وهي سُنَّةٌ ثابتة لا تتغير، ولا تتبدَّل.

٧٨-٧٩- يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وأُمَّته بأمرٍ حكيم، وفَرْضٍ عظيم: حافِظْ على إقامة الصلاة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل - ويَدْخُلُ في هذه المدة صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء - وأَقِمْ صلاة الفجر، وأَطِلْ القراءة فيها. إنَّ قراءة القرآن في صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ثم أمر الرسول ﷺ بصلاة النافلة في الليل مُتَهَجِّداً بقراءة القرآن؛ لينال مقام الشفاعة للمسلمين يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان خطورة مكايد الكفَّار، والحذر منهم ومن مطالبهم في إبعاد المؤمنين عن طاعة الله تعالى وحكمه.

٢- تحريم الرُّكون إلى الكفَّار لإرضائهم، وتحقيق مفاسدهم.

٣- وجوب الثبات على الحقِّ، وعدم التنازل للإغراء والتهديد.

٤- بيان اللجوء إلى الله تعالى عند الشَّدائد.

٥- وجوب إقامة الصلاة في أوقاتها.

٦- التَّرغيب في قيام صلاة التهجُّد.

٧- بيان فضل صلاة الفجر، وشهود الملائكة فيها.

٨- الإشارة إلى مقام الشَّفاعة التي خَصَّها الله تعالى برسوله ﷺ، بإذنه.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير:

٨٠-٨١- وادعُ الله تعالى أيها النبيُّ: يا ربِّ أَدْخِلْني في كل مقام تريد إدخالي فيه أن يكون في طاعتك ومرضاتك، وأَخرِجْني من كلِّ ما تخرجني منه أن يكون في طاعتك ومرضاتك، واجعل لي من عندك قُوَّةً ومَنَعَةً تَنْصُرني بها على أعدائك. وقل: سطع نور الإسلام، ووَلَّى الكفرُ والشِّرك. إنَّ الباطل لا ثبات له، ولا بقاء.

٨٢- من رحمة الله تعالى أنَّه يُنَزِّلُ من آيات القرآن الكريم ما يَشْفي القلوب من أمراض الشك والجهل والقلق، وما يشفي الأبدان بالرُّقية، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة، ولا يزيد الكُفَّارَ عند سماع آياته إلا كفراً وضَياعاً.

٨٣-٨٤- يُخبِرُ الله تعالى عن نَقْصِ الإنسان إلا مَنْ اعتصم بهدي الله تعالى، فإذا أنعم الله عليه بالصحة والسعادة أعْرَضَ عن شُكْر نِعَمِ الله تعالى، وابتعَدَ عن عبادة ربِّه بالانشغال بشهوات الدنيا، وإذا أصابته مصيبة كان قنوطاً، ثم أمر سبحانه النبي ﷺ أن يُنْذِرَ الكفَّار ويُبَشِّر الأبرار، ويقول لهم: كلٌّ مِنَّا ومنكم يعمل ويسير على طريقته التي يعتقد بها، فخالِقُكم أعلم مطلقاً بمَنْ هو أهدى طريقاً إلى الحقِّ والصواب.

٨٥- ويسألك بعض اليهود - أيها النبي - عن الروح تَعَنُّتاً، فأجِبْهم أنَّ حقيقة الروح أمر يعلمه الله تعالى، لا يعلمه البشر؛ لأنَّهم لم يُعْطَوْا من العلم إلا الشيءَ القليل بالنسبة لعلم الله ﷻ.

٨٦-٨٧- يشير الله سبحانه إلى فضله ورحمته في نزول القرآن الكريم وحفظه له؛ ليلفِتَ أنظار الكفار الذين يطلبون التغيير فيه، فإنَّه قادر على أن يمحو هذا القرآن من قلب النبي ﷺ، ويُقسم إنَّه لا أحدَ يستطيع مَنْعَ ذلك. ولكن رحمة الله جعلت القرآن باقياً في قلبه. إنَّ فضل الله العظيم كان كبيراً على رسوله الكريم. وفي هذا تنبيه للمؤمنين للاستفادة من القرآن الكريم؛ لنَيْلِ السعادة في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى هجرة النبيِّ ﷺ إلى المدينة المنورة.

٢- تعليم الله الدعاء لعباده المؤمنين.

٣- البشرى ببقاء الحقِّ، وزوال الباطل.

٤- قال ابن قيِّم الجوزية: «القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواءُ كلامَ ربِّ العالمين الذي لو نزل على الجبال لَصَدَّعها أو على الأرض لقطعها. فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لِـمَنْ رزقه الله فهماً في كتابه».

(زاد المعاد: ٤/ ٣٥٢).

٥- في الآية (٨٣) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال الإنسان المكذِّب بآيات الله، والكفر بنِعَمِه، فيما إذا أنعم الله عليه، فإنَّه يتولَّى ويتباعَدُ عن طاعة ربِّه، وإذا أصابَتْه شدَّة من فقر أو مرض كان قنوطاً؛ لأنَّه لا يَثِقُ بفضل الله تعالى.

٦- حقيقة الرُّوح لا يعلمها إلا الله تعالى.

٧- مهما أوتي البَشَرُ من العلم فلا وزنَ له بالنسبة لعلم الله تعالى.

٨- بيان نعمة الله تعالى على المؤمنين بحفظ القرآن بالسطور والصدور.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

التفسير:

٨٨- يُبيِّن الله عظمة هذا القرآن الحكيم في فصاحته وأحكامه ومبانيه ومعانيه، بأنَّه مُعجِزٌ من كلام الله، وليس من كلام البشر. قل - أيها الرسول - للعالمين: قسماً إن اتفقت جميع الإنس والجن، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحكمته، لا يستطيعون ذلك، ولو كان بعضهم لبعض مُعيناً وناصراً.

٨٩- وقسماً لقد بَيَّنَّا وفَصَّلْنا للعباد ضروبَ البيان في هذا القرآن بكلِّ وجوهِ الحكمة من أحكام ومواعظ وقصص، فأبى أكثر الناس إلا جحوداً بذلك.

٩٠-٩٣- وقد تمادى هؤلاء الكفَّار بجُحودهم، وطلبوا من النبي ﷺ اقتراحات تُفصِحُ عن عنادهم وغفلتهم، كما في الآيات الأربع الآتية، وقالوا: لن نُصَدِّقَك حتى تَفجُرَ لنا من أرض مكة عيناً جارية، أو تكون لك بستان حافلة بالنخيل والأعناب، وتجعل الأنهار تجري من تحتها بمياهها الغزيرة، أو تجعل السماء تتساقط علينا قِطَعاً، أو تُحضر لنا الله والملائكة فنشاهدهم بأعيننا! أو يكون لك قَصْرٌ مُشَيَّد من ذهب، أو تصعد في سُلَّم إلى السماء، ولن نُصَدِّق بصُعودك حتى تأتينا بكتاب من الله منشورٍ نقرؤه. قل لهم: سبحان ربي! ما كنتُ إلا رسولاً بعثني الله إليكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير إعجاز القرآن الكريم بتحَدِّيه سبحانه الإنسَ والجِنَّ، وعَجْزِهم أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه.

٢- في الآية (٨٨) إخبار مستقبليٌّ عن استمرار إعجاز القرآن إلى قيام الساعة، حتى ولو اتَّفقت الإنس والجنُّ على محاولة الإتيان بمثله، فإنَّهم لا يستطيعون الإتيان به.

٣- جَهْلُ المشركين جَعَلَهم يُكَذِّبون رسالة النبيِّ ﷺ، ويطلبون المزيد من المعجزات، والمصالح الدنيويَّة.

٤- بيان تَعَنُّتِ المشركين بأنَّهم يَتطَلَّبون، ثم ينقضون ذلك بطلب آخر.

٥- تقرير بشريَّة الرسول ﷺ مع ثبوت نُبُوَّته.

٦- وجد الباحثون أنَّ الينابيع تنفجر انفجاراً، حيث هنالك ضغط كبير تحت سطح الأرض عند منطقة تفجر الينبوع، ويقول العلماء: في هذه المنطقة من الأرض يحدث انفجار طبيعي، فالانفجار يحدث نتيجة وجود ضغط كبير جداً، ويتم تشتت هذا الضغط بشكل مفاجئ خلال زمن قصير أجزاء من الثانية، وهذا ما يحدث تحت سطح الأرض في منطقة تفجر الينابيع.

(http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-13-13/600-2012-12-08-23-40-05).

وينظر: انفجار ينبوع من بين الحجارة في الملحق.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ
كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ
وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ
مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا
عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ
أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ
رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- إنَّ السببَ الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعادُهم أن يبعث الله رسولاً إلى الخَلْقِ من البشر.

٩٥-٩٦- قل لهم أيها الرسول: لو كان في الأرض ملائكة بدل البشر يمشون فيها، لَنَزَّلْنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً، ولكنَّ أهل الأرض بشر. قل لهم: كفى بالله شاهداً. إنَّه سبحانه خبير بأحوال العباد، بصير بأعمالهم.

٩٧- يُخبر الله تعالى أنَّه المنفرد بالهداية، فمَنْ يَهْدِه فييسِّره لليسرى، ويُجَنِّبه العسرى، فهو المهتدي، ومَنْ يُضْلِلْه فيَخْذِلْه ويَكِلْه إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله. وهؤلاء الذين ضَلُّوا ليس لهم وليٌّ ينصرهم من

عذاب الله حين يحشرهم الله على وجوههم، حالَ كونهم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، مسكنهم نار جهنم، كلما خمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة.

٩٨- ذلك المصير الخطير البعيد عن رحمة الله جزاء كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم بالبعث، وإنكارهم على مَنْ يؤمن به، ويدعو إليه.

٩٩-١٠٠- يُنْكِرُ الله تعالى على المنكرين للبعث؛ توبيخاً وتقريعاً لهم: أولم يعلموا أنَّ الله الذي أبدع السموات السبع، والأرَضين السبع قادر على إعادة جسد الإنسان بعد فَنائه؟ وقد جعل الله تعالى وقتاً محدَّداً لموت البشر لا شكَّ فيه، فأبى المشركون إلا تكذيباً وإنكاراً للبعث. قل - أيها الرسول - لهؤلاء: لو كنتم تملكون خزائن رحمة الله الواسعة لَبَخِلْتم بها، وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً مِنْ نَفادها. وكان الإنسان بخيلاً شحيحاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على المشركين الذين اعترضوا على النبيِّ ﷺ بأنَّه بشر.

٢- رحمة الله تعالى بعباده في إرسال الرسل من البشر؛ لأنَّه يُحقق التفاهم والتآلف.

٣- شهادة الله تعالى على صدق رسالة النبيِّ ﷺ.

٤- الهداية والضَّلال بيد الله تعالى، يعلم مَنْ يستحق الهداية، ومَنْ يستحق الغَواية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: ٥].

٥- الشُّحُّ والبخل مِنْ طَبْعِ الإنسان الذي لم يتهذَّب بالإيمان.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠١-١٠٢- وقسماً لقد آتينا موسى عليه السلام تسع آيات واضحات، وهي: العصا واليد ونَقْصُ الثمرات والطوفان والسِّنون والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، فاسأل - أيها الرسول - اليهود حين أُرسل موسى إلى أجدادهم، فقال فرعون: إنِّي لَأعتقد أنَّك - يا موسى - قد سُحِرْتَ. فردَّ عليه موسى عليه السلام بجرأة

تتحدى إشاعات فرعون وتكشف كَذِبَه: قسماً لقد علمت ما أنزل هذه المعجزات الشاهدة على صدقي إلا ربُّ السموات والأرض، دلالاتٍ بَيِّنات على عظمة قدرته ووحدانيته، وإنِّي لأعتقد أنَّك هالك.

١٠٣-١٠٤ - ولما رأى فرعون أنَّه فشل في مجادلة موسى ﷺ قام باضطهاد موسى وبني إسرائيل وإخراجهم من مصر، فعاقَبْناه بالغرق هو ومَنْ معه أجمعين، وقلنا لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض المقدَّسة بالشام، فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم جميعاً مختلطين، فيكم المؤمن والكافر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان تَعَنُّتِ كفرة بني إسرائيل.

٢ - استخدام الطواغيت حربَ الإشاعة ضدَّ الأنبياء والدُّعاة.

٣ - إقامة الحُجَّة بالحوار الهادف أمر مطلوب في الدعوة إلى الله تعالى.

٤ - تأييد الله تعالى لعباده المؤمنين، وإنقاذهم من بَطْشِ الطَّواغيت.

٥ - موعظة لبني إسرائيل بتذكيرهم بالبعث.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ
وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا
تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ
يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

التفسير:

١٠٥ - يُبَيِّن الله تعالى عظمة القرآن: وأنزلناه مُتَضَمِّناً للحق، ونزل إليك يا محمد محفوظاً من التغيير، وما أرسلناك إلا مُبشِّراً بالجنة لِـمَنْ أطاع، ومُنذراً بالنار لِـمَنْ عصى.

١٠٦-١٠٩ - وقرآناً بَيَّناه وفَصَّلناه؛ لتقرأه على الناس في تَمَهُّل حتى يفهموه، ونَزَّلناه مفرَّقاً شيئاً بعد شيء، قل أيها الرسول للكفَّار: وسواءٌ أصَدَّقْتُم بهذا القرآن أم لم تُصَدِّقوا فهو حَقٌّ. إنَّ العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة إذا قُرِئَ عليهم القرآن يؤمنون ويخشعون، ويَخِرُّون على وجوهِهم ساجدين، ويقولون:

سبحان ربِّنا، ما كان وعده إلا واقعاً حَقَّاً. ويَخِرُّون عند تكرار سماع القرآن للأذقان ساجدين يبكون متأثِّرين به، ويزيدهم سماعه خضوعاً وتَذَلُّلاً لله تعالى.

١١٠-١١١- قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين المُنكرين اسم الرحمن: ادعوا الله ونادُوه قائلين: يا الله، أو يا رحمن. فأيَّ هذين الاسمين دعوتموه فإنَّكم تَدْعُون ربَّاً واحداً؛ لأنَّ أسماءه كلها حسنى، ولا تجهر بقراءة القرآن في صلاتك فيَسْمعَك المشركون، فيسبُّوا القرآن ومَنْ أنزله، ولا تُسِرَّ بقراءتك فلا تُسْمِعُ من خلفك، وكن وسطاً بين الجهر والسر، وقل: الحمد لله الذي له الثناء كلُّه، المتنزِّه عن الولد والشريك في عبادته، ولا يتولَّى أحداً من خلقه ليتعزَّزَ به ويُعاوِنَه، فإنَّه الغنيُّ الذي يجب أن تُعَظِّمه تعظيماً تاماً بالذِّكْر والشكر.

الفوائد والاستنباطات:

١- شهادة الله تعالى بصدق الرِّسالة، وبعظمة القرآن الكريم.

٢- تقرير نزول القرآن مُفَرَّقاً حسب الحوادث، وهذا من خصائص القرآن الكريم.

٣- الإشارة إلى التأنِّي في تلاوة القرآن، وفَهْمِه، وتعليمه.

٤- مشروعيَّة السُّجود لِـمَنْ يقرأ آيات السجود.

٥- بيان فضل البكاء مع السجود؛ لما فيه من الخشوع والتذلُّل إلى الله تعالى.

٦- مشروعيَّة الدُّعاء بأسماء الله الحسنى.

٧- وجوب التوسُّط والاعتدال، ومن ذلك أثناء التلاوة.

٨- وجوب الثَّناء على الله تعالى وتقديسه - سبحانه - بالتحميد والتكبير.